

قررت وزارة المعارف تدريس هذا الكتاب لطابة دار العلوم العليا

الإدراك العزيم في تاريخنا

في

العصر الحجري

تأليف

محمد هاشم عطيّة

مدرس بدار العلوم

الطبعة الثالثة

جيم الحقوق محفوظة

مطبعة مصطفى البابي الحلبي وأولاده بمصر

١٣٥٥ هـ / ١٩٣٦ م / ٧٠٠

قررت وزارة المعارف تدريس هذا الكتاب لطلبة دار العلوم العليا

الأدب العربي في التاريخ

في

العصر الحجري

تأليف

محمد هاشم عطية

مدرس بدار العلوم

الطبعة الثالثة

جميع الحقوق محفوظة

مطبعة مصطفى البابي الحلبي وأولاده بمصر

١٣٥٥ هـ / ١٩٣٦ م / ٧٠٠

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

الحمد لله وصلى الله على سيدنا محمد وآله

تمهيد

لعلَّ أوَّل ما يَجْمَلُ بنا قبل الأخذ فيما نحن بسبيله من دراسة الأدب في هذا العصر الجاهلي أن نُلِمَّ بشرح المعنى المقصود من كلمة الأدب نبين فيه الوقت الذي عسى أن تكون نشأت فيه هذه اللفظة في اللغة العربية والأحوال التي تدرَّجت بعد ذلك عليها وعلى أي شيء كان يُطلقها السلفُ من العلماء حتى صارت إلى ما يتعارف عليه أهل العلم في هذا العصر من إطلاقها على ذلك الجمال المعنوي الذي يستودعه الشاعر أو الكاتب ما يؤثرُ عنهما من المنظوم أو المنشور، ثم نعودُ بمثل هذا البيان إلى العصر الجاهلي، ومعنى الجاهلية وما اتصل بذلك من آثار البحث في القديم والحديث مما يصح أن يكون بعضه حتمًا وبعضه إسرافًا باطلا لنجعل ذلك وسيلةً مؤصلةً لادخال روح الطمأنينة على عقول المتعلمين فيما سنورده عليهم من مباحث هذا العلم، ولنفسحَ أمامهم السبيلَ لناهج البحث الخالص من قيود التقليد الأدبي العقيم .

تاريخ
كلمة الأدب

قول والأدب عندهم الظرف وحسنُ التناول ويقولون إنه مأخوذ من الأدب بمعنى اللعاء لأنه أي الأدب يدعو صاحبه إلى الحماد ولا يدل ذلك على شيء أكثر من أن كلمة الأدب بمعنى اللعاء كانت أسبق إلى الوجود من الأدب

الذي هو الظرف ، وما هو داخل في معناه من حلاوة الطبع ، ورقة الحاشية ، وسلامة النوق .

وقد يصعب على الباحثين أن يجدوا السبيل إلى تحديد الوقت الذي نشأت فيه الكلمة بنصها أو مادتها في اللسان العربي غير أنه يُظنُّ أن من أقدم الكلام الذي وردت فيه هذه الكلمة بنصها ومادتها حديثُ عُتْبَةَ بن ربيعة أبي هِنْدٍ أمِّ معاوية عن أبي سُفْيَانَ بن حَرْبٍ حين خطبها بعد الفأكه بن المغيرة زوجها الأول ، وكانت شرطت على أبيها الأيزوجها من أحد حتى يعرضه عليها ، ويصفه من غير أن يسميه لها ، فجاء فيما حدثها به عن أبي سفيان على ما رواه أبو علي القالي قوله : « يُؤدَّبُ أهله ولا يُؤدَّبونه » ، وكان مما ردت به على أبيها قولها : « وَسَاخُدُهُ بِأَدَبِ البَعْلِ مع لزوم قُبَّتِي وقلة تَأْتِي » ، ومعلوم أن ذلك كان قبيل ظهور الاسلام بزمن يسير ثم جاء الاسلام وأثر عن رسول الله صلى الله عليه وسلم حديث : « أدبني ربي فأحسن تأديبي » ، ثم تتابع الناس يذكرون التأديب ويذكرون الأدب في الحديث والخطب وفي المقامات المختلفة وعند الحاجة ، ولا سبيل إلى استقصاء ذلك ولا طائل فيه غير أنهم إلى ذلك الوقت لم يخرجوا في استعمال هذه المادة من التأديب والأدب عن معنى تهذيب النفوس وتحلية الطبائع بفضائل الأخلاق ، وبقي ذلك أخريات العصر الأموي وأوائل الدولة العباسية حين أشخص الخلفاء والولاة الأئمة من الرواة والعلماء التأديب أولادهم وسموهم بالمؤدبين فأضيف إلى مفهومها من ذلك الوقت تعليم الأخبار ورواية الشعر والتبصير بأصول السنن وتأويل القرآن ، ثم استحدثت العلوم وترجمت الكتب ونقلت آثار الأمم السابقة إلى العربية في عصر التدوين أيام العباسيين ، فأخذت كلمة الأدب تنحرف عن هذا المعنى ، واستعملت حينئذ فيما أنتجتته قرائح المتكلمين بهذه اللغة من مآثور الشعر والنثر والحكمة والمثل ، ووضعت في ذلك الوقت كتب استطاع الناس أن يسموها كتب الأدب ثم أضيف إليها علوم لسانية أخرى كالنحو والتصريف

والعروض وأصول البلاغة على أنها داخلة في موضوعها حيناً وخارجة عنه حيناً آخر حتى كان القرن الماضي ، وأحدث المستشرقون علم تاريخ الأدب على هذا النحو من البحث وفي تلك الصورة من التبويب والنقد فاستقلت هذه الكلمة حينئذ بمعنى الماثور من الشعر والنثر وأصبح النحوي لا يستطيع أن يسمى نفسه أديباً ولا العالم بأصول البلاغة وأوزان العروض وإن كان لابد للأديب في ثقافته العامة من معرفة هذه العلوم وغيرها أيضاً ليكون آخذاً من كل فن بطرف كما يقولون .

وأما كلمة الأديب فلم نعثر على نص صحيح قبل الإسلام وقبل أمثال مزاحم العقيلي وسالم بن وابصة الأسدي وهما إسلاميان تكون قد وردت فيه هذه الكلمة . ذكر صاحب الحماسة فيما رواه لسالم بن وابصة هذا من قصيدته التي أول المختار منها .

أَحِبُّ الْفَتَى يَنْفَى الْفَوَاحِشَ سَمِّه
كَانَ بِهِ عَنِ كُلِّ فَاحِشَةٍ وَقَرًّا
قوله :

إِذَا شِئْتَ أَنْ تُدْعَى كَرِيمًا مُكْرَمًا
أَدِيبًا ظَرِيفًا عَاقِلًا مَاجِدًا حُرًّا
إِذَا مَا أَتَتْ مِنْ صَاحِبٍ لَكَ زَلَّةٌ
فَكُنْ أَنْتَ مُحْتِمَالًا لِزَلَّتِهِ عُدْرًا
وروى صاحب اللسان في مادة « أدب » لمزاحم العقيلي قوله من صفة الإبل :
وَهُنَّ يُصَرَّفْنَ النَّوَى بَيْنَ عَالِمٍ
وَنَجْرَانٍ تَصْرِيْفُ الْأَدِيبِ الْمُدَلِّلِ
وهي وإن كانت في الأول صفة للإنسان وفي الثاني صفة للبعير فمعناها في كليهما لا يخرج عن التهذيب والريضة كما تقدم في تفسير هذه المادة ثم فشت الكلمة بعد ذلك واقتصرت على هذا المعنى حيناً ثم انتقلت إلى معنى الأخذ من كل فن بطرف وهي في هذه الأحوال قد لازمت كلمة الأدب في أدوار استعمالها التي بينها فيما سبق .

الجاهلية - العصر الجاهلي

يُطلق المؤرخون لفظ الجاهلية على أحوال العرب منذ كانوا إلى ظهور الإسلام ، وليس الغرض من الجاهلية النسبة إلى الجهالة المناقضة للعلم والمعرفة ، وإنما الغرض منها السفاهة التي كانت مؤديةً إلى الهمجية وانتشار الضلالة وعبادة الأوثان ، والاسراف في القتل واستباحة الزنا والخمر ، وانهاء ذلك كله بتأريث العداوة وقيام الحروب وتفرق القبائل .

ويقتصر البحث الأدبي على فترة من ذلك الزمن بدأت قبل الإسلام بنحو قرنين تقريباً وانتهت بظهور الإسلام وهي ما اتفق العلماء على تسميتها بالعصر الجاهلي ، والمعقول أن في تحديدهم نهاية هذا العصر بظهور الإسلام شيئاً من التساهل إذ الواقع أن العصر الجاهلي أو على الأقل هذه اللغة الجاهلية بقيت بعد مبعث النبي صلى الله عليه وسلم زمناً غير قصير متمثلة في أكثر مظاهرها السابقة حتى انتشرت تعاليم الإسلام بعض الانتشار في أنحاء الجزيرة ، وتكامل نزول القرآن كله أو معظمه ، واتجهت الآداب في مجاتها حينئذ اتجاهاً اجتماعياً آخر أظهر ما كان فيه تلك الصبغة الخلقية الناشئة عن روح ذلك التشريع الجديد ومسلك هذا الدين الحنيف فيما استحدثه أسلوب القرآن وأخذ به الناس من أحكام الإسلام .

والحق أن عصور الأدب يتدخل بعضها في بعض فتظل طوابع عصر بادية على أعراض اللغة في أوائل العصر الذي يليه حتى لقد ترى الآداب زاهرة ، واللغة راقية في عصر تنحدر فيه الأحوال السياسية والاجتماعية إلى التأخر ، وإنما كان الذي بقي في اللغة من الحياة نتيجة لعصر سياسي قوى سبق ذلك الانحطاط إذ ليس الأدب عرضاً من عروض التجارة ، وليست اللغة كائناً من الجمادات يمكن أن يأتي عليهما الفناء جملة ، أو تؤثر فيهما الحوادث والانقلابات دفعة واحدة ، وإنما يكون تأثيرها بهذه الحوادث والانقلابات مرتين بالزمن الذي

تدخل عصور
الأدب بعضها
في بعض

تتحلل فيه هذه الطباع الراسخة من قيودها ، وتنسلخ من صفات ومعالم كانت لها ، وتتحوّل اللغة في خلال ذلك متدرجة إلى زىّ العصر الجديد من ضعة وانحلال ، أو حياة وارتقاء ، وان ذلك بعينه هو سبيل الأحوال السياسية والاجتماعية لشعب من الشعوب ، فان الانقلابات السياسية والحكومات الطارئة مع اقتراض ما يسبقها من التمهيد والاستعداد لوقوعها لن تستطيع طفرة أن تمحوّ التربية السياسية السابقة ، وأن تزيل بوثة واحدة هذه الشارات الاجتماعية إلا بعد العلاج الطويل ، والزمن الكفيل بذلك التحوّل والانتقال ، وقد يكون من الخطر المحتوم على الحكومة الجديدة ذاتها أن تحاول فجأة مُعاندَةَ الطبيعة والخروج على السنن الكونية بنقل الشعب أو الأمة من حال امتزجت بطبائعها ، واختلطت بقواعد الحياة فيها إلى حال جديدة يمكن أن تختلف في كل شيء أو في أكثر الأشياء من المقومات السياسية والاجتماعية عن سابقتها ، وإذن يمكن أن تقول ان ذلك العصر الجاهلي أو تلك اللغة الجاهلية بقيت فترة غير قصيرة كما كانت قبيل الإسلام تعيش بين مناظر البرية وآفاق الصحراء ، وتحكى آثار النزاع والافتخار بالعصبية ، والمباهاة بالأحساب والأنساب إلى أن طوى الإسلام ذلك البساط بما عليه من التناحر ، وسفك الدماء ، وجعل الناس ينامون في حراسة السلام إخوانا في دين الله ، وهنا ينبغي أن نوجز البحث في شأن هذه اللغة التي أُعْتَبِرَ عصر المتكلمين بها من الجاهليين تمهيداً وتوطئة صحيحة لظهور عصر جديد كان حدوته أعظم انقلاب تاريخي شهدته الجزيرة العربية ، وهو عصر الإسلام . ولا يستغرق بنا البحث أصل هذه اللغة وتنقلها على القدم في العرب البائدة من عاد وثمود ، وفي العرب المتعربة من أبناء يعرب بن قحطان ، ولا فيمن جاء بعد هؤلاء من المستعربين من ولد إسماعيل ، فاننا سنعود إلى ذلك بتفصيل أوفى عند الكلام على أصل العرب ، ونشأة اللغة العربية ونوجز الكلام هنا في هذه اللغة التي نزل بها الكتاب وهي لغة الأدب والشعر في ذلك العصر الجاهلي ، أو هي لغة قريش ، ولغة سائر الشعوب العربية في ذلك الوقت كافة .

نقول كانت قريش في مكة وهي جاضرة العرب وطبيعي أن يكون سكان
الأمصار أدنى إلى منازع المدنية من غيرهم من أهل البدو ومن سكان الريف من
القرى ، وأن يكونوا أيضاً أطفأ أذهانا ، وأرق حاشية من هؤلاء وهؤلاء .
وأنتهم لهذا ولما خصهم الله به من كثير من المواهب كانوا على استعداد
قوى لأصلاح لسانهم وتهذيب لغتهم بأخذهم من لغات القبائل الواحدة عليهم في
مواسم الحج ، وفي هذه الأسواق الأدبية المطففة بمكة حتى عذب أسلوبهم ،
ورقت حواشي لغتهم ، وكانوا أهل بيت تعظمه العرب ، وتبحج إليه ، وتقيم فيه بين
أظهرهم الأيام الطوال ، وكانت لهم وحدهم ولاية هذا البيت والحكومة بين العرب
مع ما كانوا فيه من بسطة الفنى وثروة التجارة ، وقد أدى ذلك إلى تظاهر هذه
الأسباب القوية لسيادة قريش التي بسطتها على العرب قبل الإسلام بعدة
قرون ، وكان طبيعياً أن تنقل هذه العذوبة القرشية إلى السنة القبائل المختلفة
بحكم ما في الإنسان من الميل إلى تقليد الأكل ، ونزوعه إلى التقرب من
مظاهر الحضارة ، وكانت تجارة قريش في بلاد اليمن والشام وغيرها ، وإذعان أهل
هذه البلاد لما انبسط من نفوذ قريش ، ولما قوى من سيادتها قد دعا أيضاً إلى
تسرب هذا الأسلوب المذهب إلى تلك القبائل اليمنية بعد اندثار ملكهم وبعد
ما عظم من أمر قريش ، وظهر الإسلام والعرب كافة في وحدة لسانية لا يشوبها
إلا ما كان باقياً من الخلاف في اللهجات ، وصور النطق بالكلام . والمقررون
والمنكرون يعترفون بوحدة اللغة في كل أنحاء الجزيرة بعد ظهور الإسلام ، وقد
يكون هذا الرأي من ناحية مبنياً على العجز عن إقامة الدليل على وجود خلاف
جوهرى بين لغة أهل الجنوب من اليمنيين ، ولغة سكان الشمال من سائر العرب
إذ لو كان هناك خلاف جوهرى كما يقال لما استطاع الإسلام عند ظهوره ، أو
في مدي سنوات قليلة أن ينسخ هذه الرطانة الحيرية ، وينزع تلك الخلق
الغزبية ، ثم يضع مكانها السنة جديدة قرشية تتكلم بهذه العربية الفصحى ، وقد

سيادة قريش
وغلبة لغتها
على لهجات
القبائل
الأخرى

أشرنا إلى فساد ذلك فيما سبق ، وإذا لا ينبغي أن يحمل قول أبي عمرو بن العلاء^(١) (ما لسانُ حميرَ بلساننا ، ولا عريتهم بعريتنا) إلا على واحدة من اثنتين الأولى أن يكون قصد إلى تلك الأشباح الجافية المتخلفة في بقايا لغات اليمن القديمة ، وأنها من ذلك السبيل تختلف عن هذه العذوبة والرفقة في أسلوب قريش ، وفي لغة قريش . والثانية أن يكون أراد ذلك الاختلاف في اللهجات ، وأنه كان في عربية اليمن أشدّ ظهوراً وأكثر وجوداً لبعده اليمنيين عن الإطافة بقريش ، ولقلة ما أخذوا من لغتهم ، وهذا الرأي في الحالين لا يدفع عنه أبو عمرو ولا يقول بغيره أحد .

الاختلاف
بين لغات
القبائل
الشمالية
والجنوبية

وأما أن لغة القدماء من اليمن من حميرية وسبئية ومعينية كانت تختلف اختلافاً جوهرياً عن لغة غيرهم من سكان الجزيرة فأمر لاشك فيه ، وقد نذهب نحن إلى أبعد من هذا ، وهو أنه من السهل أن يكون مثل هذا الاختلاف الجوهري وجد أيضاً في الزمن القديم بين لغات القبائل الشمالية المختلفة قبل هذا الاندماج والتقارب الذي درجت عليه القرون والأجيال ، ومن عنده الدليل على أن اللغة العربية كانت واحدة منذ خلق الله العرب إلى ذلك العهد الذي نحن بصدد البحث فيه ؟

وهل كانت اللغة العربية هي وحدها التي استطاعت أن تخرج على قوانين النشوء والارتقاء ، فتبقى في مكانها جامدة تتقلب عليها الأجيال ، وتدرج الأمم ، وهي لسان عاد وثمود ، ولسان يعرب ، ولسان إسماعيل ، ثم لسان قريش من بعد ، وما قال بذلك أحد .

(١) أبو عمرو بن العلاء بن عمار أحد القراء السبعة ، وأحد من أخذت عنهم اللغة

توفي سنة ١٥٤ هجرية ، واسمه كنيته على الصحيح .

الأدب الجاهلي

أقوال العلماء
فيه

لم يغيب عن تمييز العلماء من السلف ما أُدخِل في هذا الأدب مما ليس منه ولم يُفْتَم التنبية على ما كان من تليق الرواة ووضع الساسين من أهل الأهواء ، وإنا نسوق نصوص هذه الأقوال بجملتها ليحقق الله الحق ويبطل الباطل ، فنقول : ذَكَرَ أَبُو عَبْدِ اللَّهِ مُحَمَّدُ بْنُ سَلَامٍ الْجُمَحِيُّ الْمُتَوَفَّى سَنَةَ اثْنَتَيْنِ وَثَلَاثِينَ وَمِائَتَيْنِ مِنَ الْهَجْرَةِ فِي كِتَابِ طَبَقَاتِ الشُّعْرَاءِ ، قَالَ عُمرُ بْنُ الْخَطَّابِ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ : (كَانَ الشُّعْرُ عِلْمَ قَوْمٍ لَمْ يَكُنْ لَهُمْ عِلْمٌ أَصَحَّ مِنْهُ ، فَجَاءَ الْإِسْلَامَ ، فَتَشَاغَلَتْ عَنْهُ الْعَرَبُ ، وَتَشَاغَلُوا بِالْجِهَادِ ، وَغَزَوْا فَارِسَ وَالرُّومَ ، وَكَلَّمَتْ عَنِ الشُّعْرِ وَرَوَايَتِهِ ، فَلَمَّا كَثُرَ الْإِسْلَامُ ، وَجَاءَتْ الْفَتْوحُ ، وَاطْمَأَنَّتِ الْعَرَبُ بِالْأَمْصَارِ رَاجِعُوا رَوَايَةَ الشُّعْرِ ، فَلَمْ يَثْبُتُوا إِلَى دِيْوَانِ مَدُونٍ ، وَلَا كِتَابٍ مَكْتُوبٍ ، فَالْفَوْا ذَلِكَ وَقَدْ هَلَكَ مِنَ الْعَرَبِ مِنْ هَلَكٍ بِالْمَوْتِ وَالْقَتْلِ ، فَحَفِظُوا أَقْلَ ذَلِكَ ، وَذَهَبَ عَنْهُمْ مِنْهُ أَكْثَرُهُ) . قَالَ أَبُو سَلَامٍ : (وَقَدْ كَانَ عِنْدَ الثُّعْمَانَ بْنِ الْمُنْذِرِ مِنْهُ دِيْوَانٌ فِيهِ أَشْعَارُ الْفَحُولِ ، وَمَا مَدَحَ فِيهِ هُوَ وَأَهْلُ بَيْتِهِ ، فَصَارَ ذَلِكَ إِلَى بَنِي مَرْوَانَ أَوْ مَا بَقِيَ مِنْهُ) ، وَقَالَ أَبُو عَمْرٍو بْنُ الْعَلَاءِ : (مَا انْتَهَى إِلَيْكُمْ مِمَّا قَالَتْ الْعَرَبُ إِلَّا أَقْلُهُ وَلَوْ جَاءَكُمْ وَافِرًا لَجَاءَكُمْ عِلْمٌ وَشُعْرٌ كَثِيرٌ) ، وَقَالَ ابْنُ سَلَامٍ فِي مَوْضِعٍ آخَرَ : (فَلَمَّا رَاجَعَتِ الْعَرَبُ رَوَايَةَ الشُّعْرِ وَذَكَرَ أَيَّامَهَا وَمَا ثَرَهَا أُسْتَقْبَلَتْ بَعْضُ الْعَشَائِرِ شُعْرَ شُعْرَائِهِمْ وَمَا ذَهَبَ مِنْ ذِكْرِ وَقَائِعِهِمْ ، وَكَانَ قَوْمٌ قَدْ قَلَّتْ وَقَائِعُهُمْ وَأَشْعَارُهُمْ ، وَأَرَادُوا أَنْ يَلْتَحِقُوا بِمَنْ لَهُ الْوَقَائِعُ وَالْأَشْعَارُ ، فَقَالُوا عَلَى أَلْسُنِ شُعْرَائِهِمْ ، ثُمَّ كَانَتْ الرُّوَاةُ بَعْدُ فَزَادُوا فِي الْأَشْعَارِ ، وَلَيْسَ يُشْكَلُ عَلَى أَهْلِ الْعِلْمِ زِيَادَةُ ذَلِكَ وَلَا مَا وَضَعَ الْمُؤَلِّدُونَ) ، وَحَكَى أَبُو عَبْدِ اللَّهِ أَيْضًا قَالَ أَخْبَرَنِي أَبُو عُبَيْدَةَ ^(١) أَنَّ ابْنَ دُوَادٍ بْنَ مَتَمِّمٍ بْنَ نُؤَيْرَةَ قَدِمَ الْبَصْرَةَ فِي بَعْضِ مَا يَقْدَمُ

(١) أبو عبيدة معمر بن المثنى التيمي القرشي بالولاء من أئمة اللغة ، وكان راوية ثقة متصبا على العرب ، توفي سنة ٢٠٩ هجرية .

له البدوى فى الجلب والميرة ، فأتيته أنا وابن نوح ، فسألناه عن شعر أبيه متمم ،
وقمنا له بحاجته ، وكفيناه ضيغته ، فلما نقد شعر أبيه جعل يزيد فى الأشعار
ويضعها لنا ، وإذا كلام دون كلام متمم ، وإذا هو يحتذى على كلامه ، فيتذكر
المواضع التى ذكرها متمم ، والوقائع التى شهداها ، ولما توالى ذلك علمنا أنه
يفتعل ، قال وكان أربل من جمع أشعار العرب ، وساق أحاديثها حماد الراوية ،
وكان غير موثوق به ، كان ينحل شعر الرجل غيره وي زيد فى الأشعار .

وذكر صاحب الأغاني فى غير موضع من الجزء الخامس فى كتابه : قال
الفضل^(١) الضبي : (قد سلط على الشعر من حماد^(٢) ما أفسده ، فلا يصلح
أبدأ ، فقيل له : وكيف ذلك أينحطى فى روايته أم يلحن ؟ قال ليته كان ذلك ،
فإن أهل العلم يردون من أخطأ إلى العوالب ، لا ولكنه رجل عالم بلغات
العرب وأشعارها ، ومذاهب الشعراء ومعانيهم ، فلا يزال يقول الشعر يشبه
مذهب رجل ، ويدخله فى شعره ، ويحمل ذلك عنه فى الآفاق ، فتختلط أشعار
القدماء . ولا يتميز الصحيح منها إلا عند عالم ناقد وأين ذلك ؟) ، وفى الجزء عينه
فى موضع آخر : (أقر حماد بحضرة أمير المؤمنين المهدي بما زاده من عنده فى
شعر زهير بن أبى سلمى) ، وأن خافاً^(٣) الأحمر وغيره اخترعوا من الشعر ما لم
يكن موجوداً فى الجاهلية ، وكذبوا على الشعراء ، وقد تناول هذه المسألة غير
واحد من علماء المستشرقين الذين بحثوا فى الأدب العربى فى هذا العصر ، وكل
ما يكتب فيها الآن منقول عن هؤلاء ، وهو عبارة عن نقد القدماء من العرب
كابن سلام وأضرابه ، وقد نبه على هذه النظرية أيضاً الأستاذ ضيف مدرس
الأدب بالجامعة القديمة فى كتابه : (مقدمة لدراسة بلاغة العرب) ، وذكر
أيضاً هذه الأسماء التى يتحلى بذكرها الكتاب أمثال رينان وتين ونيكاسون .

(١) هو أبو العباس الفضل بن محمد الضبي راوية ثقة ، وهو أحد أئمة العربية فى السكوفة
توفى سنة ١٨٩ هجرية .

(٢) هو أبو القاسم حماد بن أبى لى الراوية التوفى سنة ١٥٥ هجرية .

(٣) هو أبو محرز بن حيان أعلم أهل زمانه بالشعر توفى سنة ١٨٠ هجرية .

وغيرهم ممن لهم أبحاث وكتب في هذا الأدب الجاهلي ، وكلهم يُوقِّرونه ويعرفون أثره العظيم في نهضتهم الأدبية الحاضرة .

وبعد فيمكننا أن نستخلص من جملة هذه الأقوال السابقة أن بعض ماروي

لشعراء الجاهلية مدسوس منحول منبه عليه ، ولكن هذا لا يدعو إلى مثل هذه المجازفة المفرطة في وضع هذا الأدب جملة موضع التشكيك . ورمى أولئك السلف

عامة بالتدسيس والغفلة ولم يجترئ على القول بذلك أحد حتى من الشعوبيين المتعصبين على العرب الملحّين في تنقيصهم واقتراء الأباطيل عليهم .

لأن من الاعتبارات الجديرة بالذكر في هذا المقام النظر إلى تأثير البيئة

والوطن الجغرافي ، ولهذين أثرهما في تكوين الملكات الأدبية وظهورها في صورة

من سمات العصر التي تكون قد ولدت فيه . والعلماء يقولون : إن الإنسان رسم

تعمله البيئة التي يعيش فيها على صورتها ، فلو أن أحداً من رواة عصر التدوين

تعهد أن يخرج من جلده ، ويفرّ من طبعه وجبلته ليلتحق في تصوّره وأسلوبه

وأدبه بعصر أولئك الجاهليين على ما بينهما من بعد ، وما فيهما من اختلاف ،

فيكون كما مرى القيس في عشقه ونبله ، وطرفة بن العبد في اعترافه وأمانيه ،

وزهير في مدائحهم وحكمه ، وعنترة في إباءه ونجدته لكان من المعقول أن يخونه

خاطره ، ويفضحه طبعه ، ولكان طبيعياً أن سلم له من هذه المحاكاة شيء أن

تعتل عليه أشياء ، ولكان في استطاعة أهل التمييز والانتقاد أن يدركوا في رفق

ومن غير عناء كبير مقدار ما بين المصنوع والمطبوع بمقدار ما بين الكحل في

العينين والكحل على أن عاقلاً من الناس تكون له مثل هذه القدرة لا يرضى

أن يفض من أدبه ، ويبخس من ذات نفسه ، فينسب كل هذا الإنتاج البديع

إلى غيره ويدعيه لمن هو دونه ، لا يجرّ بذلك إلى نفسه غنيمة . ولا يفيد فائدة ،

ولئن كانت غايته من ذلك الصيت والشهرة ، وأن يقال عنه أنه أروى الناس للشعر

وأحفظ أهل العصر للخبر ، لقد تكون نسبة هذه الأشعار والأخبار كلها إليه

أجلب للشهرة ، وأطير للذكر ، وأعود بما يرجو من الفائدة ، على أن من الجهل

في تأليف الكذب أن ينحل الراوية شعراً لشاعر بلغة تخالف لغته على فرض

تأثر الملكات
الأدبية
بطبائع
الأقاليم

التسليم بأن هناك اختلافاً بين لغة العرب الشمالية ، وبين اللغات اليمنية كان لا يزال باقياً إلى هذه الجاهلية القريبة من ظهور الإسلام ، وإذا ما كان لعاقل أن يتهم الرّاة عامة ، ويُفسقَ جَمهرة العلماء ، وفيهم أمثال : ابن سلام ، وأبي عمرو بن العلاء ، والحليل بن أحمد ، وأبي سعيد الأَصمعي ، ويونس بن حبيب ، والمفضل الضبي ، وأبي عبيدة ، وغير هؤلاء كثيرون من الثقات المتأهلين الذين هم نَقلة اللغة ، ورواة الحديث ، وحُفَظ القرآن ، لأن حماداً ، أو خلفاً ، أو غيرهما كذبوا على زهير ، أو غيره مرّة أو مرتين ، ثم ينتهي من هذا كله إلى القول بضياع العصر الجاهلي ، واشتغال رمال الصحراء على هذا الجيل من البشر بما كان له من أدب وما خلف من أشعار وخطب . ثم يزيد في الإغراب بالحكم على الذين يريدون هذه الحياة الجاهلية أن يتمسوها في القرآن ، وفي أقوال الشعراء الذين عاشوا في حضارة الدولة الأموية كجَرير والأخطل والفرزدق وأمثالهم ، والتسليم بهذا الكلام يُعدّ بلادة في الفطنة ، واختيالاً في العقول ، إذ يكون الوطن الجغرافي على هذا القول ، وهذا الدين الجديد ، وذلك الأسلوب البارع في القرآن ، وهذه الفصاحة النادرة في الحديث ، وانتقال العرب من همجية إلى نظام ، ومن صحراء إلى ريف مُخصب ، كل هذا قد ظهر أثره ، وبدا طابعه على كل شيء ما أفلت منه شاعر ولا خطيب إلا هؤلاء الشعراء الذين هم أمويون في مولدهم جاهليون في دياناتهم وأشعارهم ، وجملة آدابهم ، وما أحوج هذا الكلام إلى برهان وما أخلقه بأن يكون هو المدسوس المكذوب على التاريخ . قد تقولون إنكم أحياناً لا تجدون فرقاً كبيراً بين شعر الفرزدق ، أو ابن أبي ربيعة مثلاً ، وأشعار امرئ القيس ، أو طرفة ، وقد لا يكون من الصعب التسليم بهذا القول ، لأن ذلك في جماته لا يدل على أكثر من توارد الخاطرين على المعنى ،

ولوع
التأخرين
بمعارضة
مذاهب
القدماء

أو اتفاق الشعارين في صورة العبارة ، أو أنه هو ما جرت به العادة من ولوع المتأخرين بمعارضة مذاهب المتقدمين ، واحتدأهم على مثاهم واستهلاكم لمعانيهم مما يدخل عند نقاد الأدب في باب السرقات الشعرية ، ولا يزال ذلك شائعاً معروفاً

في كلِّ عصور الأدب حتى في عصرنا هذا وأتم ترون معارضة البارودي لأبي نواس^(١) في مدح الخصب ، وشوقي^(٢) للبحر في إيوان كسرى ، وأبي تمام^(٣) لبشار في البائية المشهورة ، ونصيب^(٤) للفرزدق عند سليمان بن عبد الملك ، على أن في القرآن الكريم من المعاني المفردة ما يصح أن يكون مثله لشعراء الجاهلية ، فقول السموءل :

وَنُكِرُ إِنْ شِئْنَا عَلَى النَّاسِ قَوْلَهُمْ وَلَا يُنْكِرُونَ الْقَوْلَ حِينَ نَقُولُ
ومعناه التناهي في العزة والدلالة على هيبة الجانب ، واستطالة الجاه شبيهه بقوله تعالى : (لَا يُسْأَلُ عَمَّا يَفْعَلُ وَهُمْ يُسْأَلُونَ) ، وقول الذبياني :

فَإِنَّكَ كَاللَّيْلِ الَّذِي هُوَ مُدْرِكِي وَإِنْ خِلْتُ أَنْ الْمُنْتَأَى عَنْكَ وَاسِعٌ
في معنى التهديد بقوة الاحاطة ، وشدة الاستيلاء والتمكن والتنبيه على تمام العجز عن الفرار والهرب شبيهه أيضاً بقوله تعالى : (يَا مَعْشَرَ الْجِنِّ وَالْإِنْسِ إِنْ اسْتَطَعْتُمْ أَنْ تَنْفُذُوا مِنْ أَقْطَارِ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ فَانْفُذُوا) .

(١) هي رائية أبي نواس المشهورة التي أولها :

أجارة بيتينا أبوك غيور وميسور مايرجى لديك عسير

ومعارضة البارودي هي قوله : (أبي الشوق إلا أن يمن ضمير) ، وفيها يقول :

ولو كنت أدركت النواصي لم يقل أجارة بيتينا أبوك غيور

(٢) في سينيته التي أولها : اختلاف النهار والليل ينسى . يعارض قصيدة البحرى :

(صنت نفسي عما يدنس نفسي)

(٣) التي يقول بشار في مطلعها :

جفا وده فازور أو مل صاحبه وأزرى به ألا يزال يعاتبه

ويعارضها أبو تمام بقوله :

أهن عوادي يوسف وصواحبه فعزما فقد ما أدرك السؤل طالبه

(٤) حين أنشد الفرزدق :

وركب كان الريح تطلب عندهم لها ترة من جذعها بالعصائب

يفتخر فيها بأبائه ، فقام نصيب بعده ، فأشد الخليفة على رويها مدحه الذي منه :

فماجوا فأثنوا بالذي أنت أهله ولو سكتوا أثنت عليك الخائب

اقوال علماء المشرقيات في الأدب الجاهلي

ومع هذا فإننا نورد لكم نبذة من أقوال المحققين من علماء المشرقيات وهم الذين لو وجدوا مَطْعَمًا في هذا الأدب ، ما وسعهم إلا أن يتسعوا له ، ولا يلاموا على المبالغة فيه ، بل انهم في الغالب قوم يحبون البحث ، ويعظمون الحقيقة حيثما تكون ، ولما تظفر لغير الغلاة المتعصبين منهم بخطأ يحسب عليهم في التاريخ نقل صاحب^(١) الشَّهاب وغيره فيما يتعلق بهذه الدعوى عن العلامة نيكلسون أستاذ تاريخ الأدب العربي في جامعة كبرديج ، ومؤلف كتاب تاريخ أدب اللغة العربية في مقدمة كتابه المطبوع سنة ١٩١٤ ما نصه : « بالنظر لخطورة الشعر العربي لكونه في جوهره ولُبّه المقصود منه مرآة صادقة لحياة العرب فلا أحسبني مسرفاً في سعة المكان الذي فسحته له في هذا الكتاب » ، وقال : « إن مزايا العصر الجاهلي وخواصه مرسومة صورها بأمانة ، ووضوح في الأغاني والأناشيد التي نظمها الشعراء الجاهليون » ، وقال أيضاً : « إن الأدب الجاهلي المنظوم منه والمنثور يمكننا من تصوير حياة تلك الأيام الجافية الجاهلية تصويراً أقرب ما يكون إلى الدقة في مظاهره الكبرى » ، وقال أحد علماء الألمان في كتاب له يسمى عنتره أحد شعراء الجاهلية : « يمكن تعريف الشعر الجاهلي بأنه وصف مزين بالشواهد لحياة الجاهلية وأفكارها » ، فقد صور العرب أنفسهم في الشعر صوراً منطبقة على الحقيقة من غير تزويق ولا تشويه . وتكلم رينان الفيلسوف ، وهو مع ذلك طاعن في العرب ، متعصب عليهم كغيره من المستشرقين في كتابه : تاريخ اللغات السامية ومعارضاتها ، فقال : « إن الشعر الجاهلي لم يفقد قيمته التاريخية والأدبية من حيث هو تصوير صادق للحياة الجاهلية » ، وقد يشبه طرفه بن العبد في معاقته نخذ الناقة بقراطس الشامي حيث يقول

(١) هو الكاتب البحاثة الأستاذ لطفي جمعة العالم المعاصر المعروف .

وَحَدُّ كَثْرَةِ طَاسِ الشَّامِيِّ وَمِشْفَرِهِ كَسِبَتْ الْيَمَانِي قَدَّهُ لَمْ يُجَرِّدْ
مِمَّا يَدُلُّ عَلَى أَنَّ الْوَرَقَ كَانَ صِنْفًا غَرِيبًا نَادِرًا ، وَإِنَّهُ كَانَ يُجْلَبُ مِنْ سُورِيَّةِ
فِي عَهْدِ قَرِيبٍ مِنْ نَظْمِ هَذِهِ الْمَعْلُوقَةِ ، فَكَيْفَ بَعْدَ هَذَا كَلَهُ يَدُورُ فِي خَلْدِ أَحَدٍ أَنْ
أُمَّةٌ بِأَسْرَهَا يَتَّبَعُ عِلْمَاؤُهَا فِي كُلِّ الْعُصُورِ عَلَى تَنَاوُلِ الْأَكَاذِيبِ ، وَالِاحْتِفَالِ
بِتَدْوِينِ الْخُرَافَاتِ ، وَوَضْعِ الْمَوَازِنَاتِ وَالْكَتَبِ فِي تَقْدِمْ هَذَا الْأَدَبِ الْمَكْذُوبِ
إِنْ ذَلِكَ لَا يَجُوزُ فِي الْعَقْلِ ، وَلَا فِي الْعَادَةِ ، وَإِنْ مِنْ يَجْتَرِئُ عَلَى هَذِهِ الدَّعْوَى
مَفْتُونٌ ، مَحَبٌّ لَتَكْفِ الْخِلَافِ عَلَى النَّاسِ .

الأدب

قد عرفنا فيما سبق أن الأدب هو ذلك الفن الرفيع الذي يصدر جماله عن
طبع الكاتب والشاعر في الكلمة يرسلها والقصيدة ينظمها ، فتقع على مواضع
الحس من النفس ، فتثيرها حماسة ونجدة ، وتذيبها حنانا ورقة ، وتهزها أريحية
وكرما ، هو ما تتحلى به تلك الصحائف التي تزين رسومها بألوان الأخلاق ،
وانتزاعات العقول ، وأصدق مظاهر الحياة التي يترسمها الباحثون في أحوال
الشعوب ، فيجدون الهدى إلى تعليل الانقلابات ، وعرفان الأسباب التي صارت
بالقبيل من الناس حيناً إلى الرفعة ، أو نزلت بهم حيناً آخر إلى الانحلال والضعف .
ومن أجل آثاره أنه صقال تحتك به العقول ، فيزول صدورها ، وتتعلق به
الأسنة فتعذب أسنتها ، وتعرض له الطباع ، فتلين جوانبها ، وترق حاشيتها ،
وما أشبه الناظر من أهل الملكات في كتاب أدب عن يتردد في روضة يتقلب
بين زهرها ، ويقطف من ثمرها ، وإنه ليقراً الحديث أو الخبر ، فلا يزال
يتسرب إلى خواطره من معانيه أشباح ، ومعاليم يفتن خياله في تصويرها ،
ويتهيج بتأملها عدا ما يفيد من لفظة كريمة ، وعبارة مشرقة ، وبيت نادر ،
وحكمة مسلمة ، فيكون ذلك وسيلة القدوة الحسنة ، والتهذيب الناجح في تربية

تعريفه

فائدته

ملكته وأعدادها للاتجاه القيم ، ولا يلبث لسانه بعد المعاودة ، وترداد النظر :
أن يستقيم له من وزن ما يقرأ وما يعلم وما يتأتاه من أسلوب قريب ، ومنطق
صائب ، والدراسة تُعدي هي العلم كما يقولون .

حاجة الدعاء
والمصلحين
إليه

وأخرى أنك تراه من بعض نواحيه كان أبدأ وسيلة البلاغ ، وذريعة الرسل
فيما يهبط عليهم من وحي السماء ، إذ يعتمدون على قوة البيان ، وفصاحة الألسنة
في تبليان ما أنزل الله إلى الناس من حكمة ، وما كآفهم من دين ، وفي قوله تعالى :
« وَمَا أَرْسَلْنَا مِنْ رَسُولٍ إِلَّا بِلِسَانٍ قَوْمِهِ » تحقيق لهذه الصفة العالية من
اختصاص الرسول دون قومه بكال اللسان ، والقدرة على الحجة ، والإصابة لمواقع
الإقناع ، وهو الذي جعل موسى صلوات الله عليه يقول فيما حكى عنه القرآن :
« وَأَخِي هَارُونُ هُوَ أَفْصَحُ مِنِّي لِسَانًا فَأَرْسَلْهُ مَعِيَ رِدْءًا يُصَدِّقُنِي إِنِّي أَخَافُ
أَنْ يُكَذِّبُونِ » ، وترى الناس لا يزالون نياماً في غفلة الخمول حتى تهيب بهم
السنة الخطباء ، وأقلام الكتاب تأخذ بأيديهم رويداً إلى العمل الصالح ،
فتنتج أفعال العقول ، وتنشط المواهب المختلفة إلى مرافق الحياة ، فتسفر لهم
وجوه الأيام عن غرائب الأفكار ، وعجائب الابتكار ، وما حمل الناس على أن
يهدثوا أركان البغي ، ويصنعوا طبائع الاستبداد أبلغ من نفثات الألسنة ،
وأسلات الأقلام .

تاريخه

وأما تاريخ الأدب فهو علم يعرض لهذا الفن ، فيتناوله بالتحليل والنقد ،
واستيعاب البحث عن الأسرار الدقيقة ، والمؤثرات القوية التي عاشت في خلالها
العقول ، واستقتت من ينبوها تلك القرائح ، فرسمت من مناظرها ما شاءت من
الصورة الفنية من الأدب .

وإذا كان على الباحث في أحوال الجماعات ، والمتعاطي لتاريخ حياتها
العامة ألا يعتمد على مجرد النقل للأخبار من غير أن يتحاكم فيها إلى أصول
العادة ، وقواعد السياسة ، وطبيعة العمران ، ومذاهب الاجتماع الإنساني كما

يقول الإمام ابن خلدون : فإن على مؤرّخ الأدب أن يضيف إلى ذلك شيئاً من الدراسات الضرورية لأجناس العلوم ، وأصول الأديان ، وقواعد الفلسفة ، وشيئاً غير قليل من الشّعف الفنى الذى يتصل بنفسه ، فيخلق فيها مزاج الأدب ، ويكون لها ثقافة الأديب ، وقد لا يغنى عن مؤرّخ الأدب استحسانه لنوع منه عند نفسه ، وعلى قياس ذوقه إذا كان ينحرف عن هذا الذوق ، ولا يدخل فى اعتبار هذه الثقافة . قال قائل لخلف الأحمر (وكان أفرسَ الناسَ ببيتِ شعرٍ وأرواهم له) إذا استحسنت أنا الشعر ، فما أبالى ما تقول فيه أنت وأصحابك ! فقال رأيت إذا استحسنت أنت درهما ، ثم قال لك الصيرف انه ردىء أكان ينفعك إستحسانك له ؟ ولذا قال محمد بن سلام : ان محمد بن إسحاق مولى آل محرمة بن عبد المطلب قد أفسد الشعر وحمل منه كل غناء ، وكان رجلاً عالماً بالسير ، ولم يكن له علم بالشعر ، فروى أشعاراً لقوم لم يقولوا شعراً قط ، وروى للنساء فضلاً عن الرجال ، حتى تجاوز ذلك إلى عاد وثمود . أفلا يرجع إلى نفسه ، فيقول من روى هذا الشعر ؟ ومن أداه على آلاف السنين ؟ والله يقول : (وَأَنَّهُ أَهْلَكَ عَادًا الْأُولَى وَثَمُودَ فَمَا أَبْقَى) ويقول : (وَعَادِ وَثَمُودَ وَالَّذِينَ مِنْ بَعْدِهِمْ لَا يَعْلَمُهُمْ إِلَّا اللَّهُ) ومن هنا لم يكن تاريخ الأدب مقصوراً على أن تصف ذلك الأدب بأنه كان غضباً أو جافياً ، ولا بأنه كان ضعيفاً أو قويا ، ولا على أن تصف ذلك الشاعر بأنه نظم هذه القصيدة البارعة ، أو له هذه السرقة الظاهرة ، ولا أن تقول متى ولد ومتى مات ؛ ولكن تاريخ الأدب يتناول مع ذلك هذه النفس الشاعرة ، فيضرب حولها نطاقاً من أحوال البيئة ، ونظام السياسة ، ومشاهد الطبيعة التى أثرت أولاً فيها ، ثم ردتها بعد إليها مصوغة فى هذا السلك من نظام الكلام .

ولعمري إن مؤرّخ الأدب لو عمد إلى دراسة الكاتب أو الشاعر فى نفسه وحاول أن يأخذه من كلامه ما وُفق إلى نقل الصورة الموافقة للحقيقة من ذلك فى بعض الأحيان ، فقد يمدح الشاعر ، وينشئ الكاتب عند حاكم مسلط ، أو خليفة قاهر ، فتحتجب نفسه ، وتختفى دخيلته ، لأسباب سياسية ، أو لشهوات

خاصة ، وأنت تدور تبحث عن الشاعر في هذه اقصيدة أو الكاتب في تلك الرسالة ، فلا تجد لهما إلا ظلا ضئيلا لا يكاد يحمل من هذه الحقيقة شيئاً ، بل لا يكاد يتصل بها في شيء ، ولكنك إذا قرأت هذه المؤثرات القائمة ، ودرست تلك الدواعي الحادثة علمت أن هذه النفوس تنكرت في صورها وتحدثت بغير خواطرها .

ومن أفضل فوائده الوقوف على مبلغ ما تصل إليه الشعوب في حياتها العقلية ، ونهضاتها المختلفة ، بتقرير آثار العلماء ، والتعرض لأوضاع العلوم ، والتعريف بنفائس الكتب ، وإبراز الصورة الصادقة للحياة الأدبية في الأمة من الأمم ، وما فيها من فضيلة صالحة أو ذيلة مستهجنة .

وبذلك يقترب التاريخ الأدبي من التاريخ العام ، ويمتد إليه بالوثيق من الصلات . ألا ترى أن الباحثين في حياة الأمم ، وما تعاقب عليها من فتوح وما قام لها من دول ، وما تقابلت فيه من قوة أو ضعف ، قد لا يهتدون إلى تعليل هذه التقلبات حتى يضعها ذلك العلم بين أيديهم ، ويبوح بأسرارها لهم إذ كان مدار النظر في ذلك كله إلى ناحية ظاهرة من مباحثه ، وهي الأخلاق ، التي إذا حسنت نهضت بالأمة إلى مطالع العظمة والارتقاء ، وإذا ساءت أُنذرت بالأضمحلل والفناء ، والحاجة من جهة التاريخ الأدبي أيضاً ماسة إلى التاريخ العام ، فهو الذي يعين على استنباط الصورة الأدبية الصادقة بما يقصُّه من أعمار الشعوب ، وحياة الأمم ، وبما يقدره من حضاراتها المختلفة ، ونظامها السياسية والاجتماعية ، وسائر شؤونها العامة ، فكلاهما على الحقيقة متأثر بصاحبه مؤثر فيه .

قد يتسرب إلى الأذهان أن هذا العلم حديث النشأة وأنه من اختراع هذا العصر ، وليس ذلك كذلك ، ولكنه في نوعه قديم تنبه إليه العلماء من السلف حين هموا بالنظر في علوم الأمم الأخرى ، ونقل آثار اللغات المختلفة إلى هذه اللغة العربية ، فنظروا أيضاً فيما ورثوه عن أسلافهم من ذلك الأدب ، فتناولوه بالتدوين ، وعالجوه بالتحليل والنقد ، ووقفوا عنده ينظرون طويلاً في محاسنه وعيوبه ،

فأثرت

علاقته
بالتاريخ العام

نشأة هذا
العلم

ويؤثر خون رجاله، ويرتبون طبقاته، ودرجت على هذا القدر من النظر أمهات الكتب الأدبية التي لم تخل من نقد حسن، وتميز صادق لجيد الكلام وورديته، والتي كانت ولم تزل هي المورد الغزير الذي يرده الباحثون في هذا العلم، ومن هذه كتب الطبقات التي يعدّ من أعظمها شأنًا طبقات الشعراء لأبي عبد الله محمد بن سلام، وكتاب الشعر والشعراء لابن قتيبة. ومنها الكتب الجامعة بين القصص والأدب كالأغاني لأبي الفرج الأصبهاني، والكامل لأبي العباس محمد بن يزيد المبرد، وأمالى القالى، والبيان والتبيين للجاحظ. وقد جاءت بعد ذلك كتب تعرضت تعرضاً للموازنة والنقد ككتاب الأمدى في الموازنة بين أبي تمام والبحترى، والوساطة بين المتنبي وخصومه، ثم كتاب العمدة لابن رشيقي في نقد الشعر على مثال من البحث قد كان لا يزال يحتذى إلى عصرنا هذا غير أنه يلاحظ أن مباحث هذا العلم كانت في أكثر هذه الكتب مثورة مجردة في كثير من الأحيان من الدراسة الفنية التي استحدثها علماء المستشرقين في الأدب في أواخر القرن الماضي وفي هذا العصر، ولم يقتصر البحث عندهم على آداب لغاتهم أنفسهم، بل لكثير من علمائهم فضل على تاريخ الأدب العربي، وله عندهم منزلة يعرفها من لا ينكر الفضل على ذويه، فهم الذين أحدثوا هذه التسمية الجديدة، وأنهجوا سبيل هذا البحث الحديث حتى استقل تاريخ الأدب عن سائر العلوم، وظهر للناس في ذلك النسق من التبويب والتفصيل، وسار المعاصرون من علماء اللغة في مصر وغيرها في آثار أولئك المستشرقين، ووضعوا في ذلك العلم كتباً بعضها مطوّل وبعضها مختصر، ولا يزال العلم في جماته على أبواب صباه.

قد علمت ما قلناه من تدخل عصور الأدب بعضها في بعض، وأن هذا التقسيم تقريبي مبني على مسaire اللغة للاقتلابات السياسية في مبادئها ونهاياتها وإن كانت المسaire بطيئة متدرجة كما أوضحناه.

والمراد بعصور تاريخ الأدب هذه المسافات الزمنية التي تجمع إلى الآداب

عصور تاريخ
الأدب

ماله بها ارتباط قوى من النظم الاجتماعية ، والحالات السياسية والدينية التي لها شأنها في تصوير الأدب بصورة العصر الذي ينشأ فيه ، ويتبع ذلك الكلام على العلوم كلها معاً في كل عصر على حدة ، وهذا هو الذي اتبعه من تصدروا للتأليف في هذا العلم ، فهم قد قسموه إلى قسمين كبيرين يفصل بينهما أهم انقلاب تاريخي أصاب العرب في حياتهم كلها ، وهو ظهور الإسلام ، فهذا الاعتبار يقسم التاريخ الأدبي إلى قسمين : أحدهما قبل الإسلام ، والآخر بعده ، ولكل منهما أقسام تابعة له ، فاقبل الإسلام ينقسم إلى عصرين : عصر الجاهلية الأولى ، وعصر الجاهلية الثانية ، وما بعده ينقسم إلى عصر صدر الإسلام ، ويشمل العهد الأموي من ولاية معاوية سنة ٤١ هـ إلى سنة ١٣١ هـ ، ثم العصر العباسي من سنة ١٣٢ هـ إلى سقوط بغداد سنة ٦٥٦ هـ ، ثم عصر الدول المتتابعة حتى زمن محمد علي باشا سنة ١٢٢٠ هـ ، ثم عصر النهضة الحديثة من زمن محمد علي إلى وقتنا هذا .

جزيرة العرب

هي اسم لشبه الجزيرة الواقعة بالطرف الغربي من آسيا يحيط به الخليج الفارسي وبحر العرب والبحر الأحمر ، وكان موطن العرب قبل الإسلام ، وقد قسموها إلى خمسة أقسام :

١ - اليمن : وهي بالجنوب وتنقسم إلى حضرموت ، ومهرة ، ونجران ، وعمان ، والشحر ، وقد يسمى شحر عمان .

٢ - الحجاز : ومن مدنه مكة ، وفي جنوبها جبل ثور ، وفيه الغار الذي بات فيه رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وهو مهاجر إلى المدينة ، ومنها يثرب أو المدينة ، وتسمى أيضاً مدينة الرسول ، وإلى شرقها جبلا أجأ وسمي المعروفان بجبلى طي .

- ٣ - تهامة : وهي بين الحجاز واليمن
٤ - نجد : وهي بين الشام والعراق واليمامة والحجاز ، وهي أطيب أرض في بلاد العرب ، وكانت فيها معادن الفصاحة العربية ، وفيها أيضا أرض العالية التي كان يحميها كليب بن ربيعة ، وفيها قتل ، ونسبت بسبب ذلك حرب البسوس التي يضرب بثومها المثل .
٥ - اليمامة : وتسمى العروض لاعتراضها بين نجد واليمن .

أصل العرب^(١)

العرب هم إحدى السلائل السامية التي تنسب إلى سام بن نوح ، ويكاد المؤرخون يجمعون على أن المهدي الأول لهذه الشعوب السامية هو وادي القرى ، أو ما بين النهرين ، وأنهم لما كثروا وضائق بهم رقعة تشعبوا إلى البقاع المجاورة له ، وظهر منه البابليوث ، والآشوريون في العراق ، والآراميون في الشام ، والعبيرانيون في فلسطين ، والفينيقيون في سواحل سورية على حذاء لبنان ، والعرب في الجزيرة المنسوبة إليهم ، والإثيوبيون في الحبشة ، ويستند هؤلاء فيما يذكرون إلى نصوص التوراة . ويزعم هيردوت المؤرخ الإغريقي أن الفينيقيين نزحوا في الألف الثالث قبل الميلاد إلى فينيقية من سواحل خليج العجم ، وبذلك يظن فريق من المستشرقين أن أصل الساميين من الحبشة ، وأنهم عبروا البحر إلى جزيرة العرب من باب المندب ، فنزلوا باليمن ونجد والبحرين ، ثم نزحت طوائفهم إلى العراق والشام وسورية ، وأسسوا دول

(١) سمي العرب بهذا الاسم نسبة إلى بلدهم العربات وعربة باحة دار أبي الفصاحة إسماعيل عليه السلام ، وفيها يقول الفائل :

ورجت باحة العربات رجا تفرق في مناكبها الدماء

وبين كلمتي عرب وعبر التي هي أصل العبرية اتفاق في الاشتقاق وكلاهما يدل على الرحلة

بَابِلَ وَأَشُورَ وَفِينِيقِيَّةٍ وَغَيْرِهَا ، وَلَسْكَنَ هَذَا الرَّأْيَ خِلَافَ مَا عَلَيْهِ جَمْهُورُ الْمُحَقِّقِينَ
مِنَ الْمُؤَرِّخِينَ .

أقسام العرب

اصطُحِ الْمُؤَرِّخُونَ عَلَى تَقْسِيمِ الْعَرَبِ إِلَى طَبَقَاتٍ ثَلَاثٍ : بَائِدَةٌ ، وَعَارِبَةٌ ،
وَمُسْتَعْرِبَةٌ .

العرب البائدة أما الطبقة الأولى أو العرب البائدة : فقد انطوت أخبارهم في حجاب الغيب إلا قليلا مما ورد في القرآن عن بعض قبائلهم التي من أشهرها عَادٌ ، وكانت منازلهم بالأحقاف . وَثَمُودُ ، وكانت بالحِجْزِ ووادي القُرَى بين الحِجَازِ والشَّامِ ؛ وَطَسَمٌ وَجَدِيسٌ ، وكانتا تسكنان اليمامة ، قريبا من عهد ملوك الطوائف من الفرس ، والعماليق ، وقد نزلوا أولا بلاد اليمن ، ثم انحدروا إلى الشام والعراق ويثرب ، ومنهم الشَّاسُو أو الهِكْسُوسُ وهم فراعنة الرعاة بمصر ، ويُزعم بعض المؤرخين أن الحَمُورَابِيِّينَ من العرب البائدة ، لِمَا رَأَوْا فِي لُغَتِهِمْ مِنْ بَعْضِ الْمَشَابَهَةِ لِللُّغَةِ الْعَرَبِيَّةِ ، وَلَوْ صَحَّ ذَلِكَ لَدَخَلَتْ سَائِرُ الشُّعُوبِ السَّامِيَّةِ مِنْ أَنْبَاطِ وَحَبَشٍ وَغَيْرِهِمْ لِهَذَا السَّبَبِ فِي الْعَرَبِ أَيْضًا وَهُوَ غَيْرُ مَعْقُولٍ .

المحوراييون المحوراييون أو البابليون القدماء ينسبون إلى حَمُورَابِي أَحَدِ مُلُوكِهِمْ ، وَقَدْ عَثِرَ فِي أَوَائِلِ هَذَا الْقَرْنِ فِي أَشُوسَ عَلَى مِسَلَّةٍ مِنَ الْحِجْرِ الْأَسْوَدِ عَلَيْهَا نُقُوشٌ لِشَرِيعَةِ هَذَا الْمَلِكِ الْعَظِيمِ فِي نَحْوِ ٢٨٢ مَادَّةٍ فِيهَا حِمَايَةُ الْحَقُوقِ وَأَحْكَامُ الزَّوْجِ وَالطَّلَاقِ وَالْإِرْثِ . وَقَدْ عَثِرَ أَيْضًا فِي بَلَدَةِ زَيْبَارَا عَلَى أَطْلَالِ مَدْرَسَةٍ بَابِلِيَّةٍ فِيهَا أَلْوَاحٌ مِنَ الْقَرَامِيدِ عَلَيْهَا دُرُوسٌ لِلْأَطْفَالِ فِي الْهَجَاءِ وَالْحِسَابِ مِمَّا يَدُلُّ عَلَى أَنَّ التَّارِيخَ شَهِدَ أَقْدَمَ مَدِينَةٍ لِلْسَّامِيِّينَ فِي هَذِهِ الْأَصْقَاعِ .

العرب
العاربة

الطبقة الثانية أو العرب العاربة : وهؤلاء بنو قحطان نزحوا من أراضي الفرات ، واتخذوا اليمن منازل لهم ، والمشهور منهم دولتان هما سبأ وحِمْيَرٌ ، فأما

نسباً فقد ظهرت دولتهم قبل الميلاد بنحو ثمانية قرون ؛ وقد بلغوا من الحضارة على قدر أيامهم مبلغاً عظيماً ، ففرسوا البساتين ، وأقاموا السدود ، وحفروا الترع ، وشادوا الهياكل والقصور ، ومكثوا ما شاء الله حتى دب إليهم داء الأمم من الترف والتفاسد ، فأهلكهم الله بسيل العزم ، ومزقهم في الأرض كل ممزق ، وخلفهم الحيريون وهم فرع منهم في أوائل القرن الثاني قبل الميلاد ، وتاريخهم غامض مملوء بالتفكيك والاضطراب ، وليس للمؤرخين اتفاق على شيء من أمرهم ، ولا عدد ملوكهم أو تبايعتهم ، ولا مدة حكمهم إلا رجماً بالظن ، لا يصل إلى أدنى مراتب اليقين العلمي ، وقد زالت دولتهم في أوائل القرن السادس الميلادي ، وكان قبل سبأ وحمير دولة أخرى عرفت بالمعينية نسبة إلى مدينة معين التي كشفت أطلالها حديثاً في الجوف الجنوبي من بلاد اليمن ، ويقال إن أصلهم من بقايا البابليين نزحوا إلى اليمن بعد زوال ملكهم ، وتفرقت دولتهم ، وكانت لهم أمارات تسمى المحافد ، وإذا اجتمع لأمير منهم جملة محافد أطلق عليها اسم المخلاف ، وقد بقيت بعض مبانيهم إلى ظهور الإسلام ، ومنها صيرواح وغمدان وبراقش وغيرها . وأشهر بطون حمير : حمير وكهلان . ومن حمير قضاة ، وقد تفرقت بطونها في جزيرة العرب في نجد والبحرين ومشارف الشام والعراق ، واشتملت على أكثر أخبارهم رمال الصحراء ، غير أنه ظهر من تنوخ - وهي من بطون قضاة - دولة عظيمة كانت في العراق لجذيمة الأبرش صاحب الزباء^(١) في القرن الثالث لميلادي ، وقد ملك الحيرة والأنبار ، وأكثر البقاع المجاورة لبادية العراق ،

(١) وتعرف في كتب الأفرنج باسم زينوبيا ، وكانت في القرن الثالث الميلادي ملكة على تدمر الواقعة إلى الشمال والشرق من مدينة دمشق . وكان ملوك روما مع خضوعها لهم يهابونها ويهدون إليها وقد أرادت أن تتخلص من ولايتهم ، فواقع القيصر جموعها في معركة حامية بالقرب من مدينة حمص ، فهزمهم هزيمة منكرة ، واتبع فلولهم إلى تدمر ففتحها وهربت زينوبيا من وجهه ، ولم تقم لتدمر بعد ذلك قائمة ، واندمج أهلها في العرب الذين أخذت طلائعهم تظهر على شواطئ الفرات وسورية ، وللعرب في قتلها روايات أشبه بالأساطير .

وهو أصل دولة المناذرة اللخميّين بالحيرة ، ولقضاء بقايا بالحجاز ، وبلاد الصعيد من الديار المصرية .

وأما كهلان : فمن بطونه الأزدي بنو غسان ملك العرب بالشام ، ومنها طي ، وقد نزحوا من اليمن على أثر خروج الأزدي عند تفرقهم بسيل العرم ، ومن كهلان أيضاً : الأوس والخزرج ، وقد نزلوا المدينة ، ومنها زبيد رهط عمرو بن معد يكرب ، ومنها كندة والنخع وبجيلة ، وقد رحلت كندة إلى نجد ، ومنها ملك كندة كان آخرهم امرؤ القيس الشاعر .

الطبقة الثالثة أو العرب المستعربة : وكانت منازلهم شمالي بلاد اليمن في العرب المستعربة تهامة ونجد والحجاز إلى مشارف الشام والعراق ، وهم يسمون أيضاً بالاسماعيلية نسبة إلى جدهم إسماعيل ، بن إبراهيم عليهما السلام ، ويسمون أيضاً العبدانين نسبة إلى عدنان أحد أحفاد إسماعيل وكانوا بدوا ، أهل رحلة يقيمون حيث يكون الماء والكلأ ، ولم يكونوا كاليمنيين أهل قصور وحضر ، وهؤلاء العدنانيون هم من ولد معد بن عدنان ، وقد أعتب نزاراً ، وولد نزاراً أنماراً وإياداً وربيعاً ومضر . فأما ربيعة فأشهر بطونها بكره وتغلب . وأما مضر فحلف إلياس ، وولد إلياس ثلاثة وهم : قيس عيلان ، وطابخة ، ومدركة ، فمن قيس عيلان : هوازن ، وسليم ، وغطفان . ومن غطفان : عبس ، وذبيان . ومن طابخة : ضبة ، وتميم . ومن مدركة : هذيل ، وخزيمة . ومن خزيمة : أمية ، وكنانة . ومن كنانة : فهر وهو قريش .

نشأة اللغة (١)

قد يكون القول في أصل اللغات ونشأتها ، وتفرّع طوائفها في الزمن القديم ، ومحاولة الاهتداء إلى وجه الرأي في لغة الإنسان الأوّل مما يتكفل ببحثه فقه اللغة غير أننا نرى من تمام الفائدة أن نشير في إيجاز إلى خلاصة ما قيل في ذلك من آراء الباحثين من علماء اللغات لنجعله بمثابة الأساس لبناء بحثنا في أصل العربية ونشأتها ، فنقول :

القائلون
بالتوقيف

اختلف العلماء في نشأة اللغات على رأيين ، فمنهم من يرى أنها وحي وتوقيف من الله سبحانه وتعالى عَلَّمَهَا الإنسان الأوّل ، وكان أصحاب هذا الرأي يتوهمون أن الإنسان حين خلق كان الوجود في حالة عماء وسكون مُطْبِقٍ ، فلم يكن يسمع صوتاً ، ولا يحسّ من أحد ، فكان من الضروري أن يُلهم لفته الأولى التي هي بمثابة الأداة الجوهرية في الاحتفاظ ببقاء ذاته ، وإن كان هؤلاء لا يكتفون بهذا القدر الضروري من الإلهام ، ويزعمون أن الله علمه لغات البشر ما خلق منها وما لم يخلق ، وهي الآن تعدّ بالآلاف ، ومن أصحاب هذا المذهب (أفلاطون) ، وتابعه ابن فارس والأشعري وغيرهم من العرب ، ويستدلون بقوله تعالى : (وَعَلَّمَ آدَمَ الْأَسْمَاءَ كُلَّهَا) ، أي ألهمه على تأويل لغات العالم . ونحن نرى أنه لا فائدة في هذا الإلهام ، ولاداعي إلى تعليم الإنسان الأوّل لغات أهل الدنيا لعدم الحاجة إليه ، ولتعذر الاستفادة منه في ذلك التاريخ المفقود ، ويزيد في ضعف هذا الدليل أيضاً تأويل الآية على وجه آخر ، وهو أن المراد بالأسماء في الآية أسماء الملائكة لا أسماء ولغات أهل الدنيا .

(١) اللغة : اللسان ، وحدّها أنها أصوات يعبر بها كل قوم عن أغراضهم ، وأصلها لفوة بزنة فعلة من لغوت بمعنى تكلمت ، وتجمع على لغات ولغين ، وينسب إليها لغوى بضم اللام ، وفتحها خطأ .

ويرى غير هؤلاء أن اللغة ، وان كانت حدثت مع الإنسان في أوّل نشأته إلا أنها مع ذلك تعتبر من أنواع الوجود الطارئة عليه ، فهي خاضعة لما تخضع له الحوادث من التغيير والتدرّج في طبقات النمو ، وانشغال في أدوار التماثل إلى الكمال ، وأنها بناء على ذلك وقفت بالتدرّج عند درجات الحدوث من الطفولة إلى ما يليها من صفات الكائنات الحية ، وكانت نتيجة لمواضع مختلفة مبنية على دراسة تقليدية طويلة ، وأهل هذا الرأي لا يأتون التسليم بأثر الإلهام في تكوين اللغة على هذا النحو الفطري ، ولا يفهمون من الإلهام أكثر من أنه هو الاقدار على الارتجال والتحويل ، أو التنويع في التقليد والمحاكاة بقدر ما في الإنسان من قوّة التمييز العاقلة التي ترفعه على الأقل عن طبقة الحيوان الأعجم .

فالإنسان الأوّل عندهم طفل تاريخي بدأ على غالب الظن لغته الأولى بالأصوات الفطرية الدالة على الانفعالات الوجدانية من الرضا والغضب والطمأنينة وانزع واللذة والألم ، بدأ بهذه وحدها ، أو كانت مصحوبة بالإشارة الحسية التي توسع في التفاهم بها إلى أن صار يدلّ على الشيء بالإشارة إلى أوصافه ، أو إلى الأظهر منها كما يفعل الأخرس الآن في تعبيره عن الرجل بامرار يده على شاربيه ، وعن المرأة بتكوير يده ووضعها على صدره ثم بعد ذلك أخذ يحاكي الأصوات المختلفة التي تتقلب كل حين على سمعه ، وبين يديه من حفيف الريح ، وهزيم الرعد ، وخزير الماء ، ومن أصوات كثير من الحيوان يعبر بما يسمعه من الصوت عن محدثه كما يسمي الأطفال عذرتنا كثيراً من الحيوان بما يسمعون من أصواتها يقولون للدجاج : (كا كا) ، وللهرة (نونو) ، وللشاة : (ماما) ، وهكذا ثم تكون له من تلك الأصوات مقاطع صوتية متنوعة استطاع بفضل فطرته أن ينحت منها اللغة الضرورية المسيرة لحاجات الحياة الأولية ، ولما استقام له ذلك حكى على مثاله ، وتابع ما يتجدد له من الحاجات بالوضع تارة ، وبتقليب الدوال

التفاهم
بالإشارات
الحسية

حكاية
الأصوات

القديمة تارة أخرى حتى استطاع أن يستغنى بما حدث له من الألفاظ تدريجياً عن
المحاكاة والإشارة ، وإن كانت الوراثة المتعاقبة أبقّت في لغات الانسان
المتدين بعض ما يدلّ على استعاقته بالإشارة في تكوين لغته الأولى كما يشاهد في
أجناس المتكلمين اليوم من تزوية الوجه ، وتقطيب الجبين ، والإشارة باليد ،
والإيماء بالحاجب واللحظ واللسان ، مما هو معروف .

وقد كان هذا الدور الاستقلالي للألفاظ على دهور متطاولة ، كان اللفظ
الواحد يقع فيها على المعاني الكثيرة من غير تمييز بين الواحد والكثير والذكر والأنثى
والاسم والفعل كما كان ذلك شأن الإنسان في بقية فروع الحياة الأخرى إذ
كانت القطعة من الجلد تقوم لها مقام اللباس والفرش والآنية والجنّة وغير ذلك
إلى أن استحدث لكلّ نوع من هذه كفاية خاصة ، وسمي لها أداة جديدة ومرّة
ذلك التسلسل اللغوي أيضاً بأجيال وقرون انحنت عليها أجنحة العصور ، حدث له
في خلالها التمييز بين الأسماء والأفعال ، ودخلت في لغته الحروف والأدوات ،
وتولت بعدها مميزات الجنس والعدد ، وبعض صيغ الاشتقاق ، وانتهى نوع
ذلك الكمال اللغوي في بعض هذه اللغات بظهور الإعراب كما في اليونانية
واللاتينية القديمتين ، وظهرت أصول اللغات في أسرة الأمم الكبرى من أبناء
نوح بعد الطوفان حين بدأ الزمان يقرب أول صفحة من تاريخ البشرية
المعروف . وإلى هذا القول بالمواضعة يذهب أكثر المحققين من اللغويين وعلماء
الأصول ، وإليه ذهب من علماء العرب أبو عليّ الفارسي من علماء القرن الرابع
الهجري ، وتلميذه أبو الفتح عثمان بن جني في خصائصه . وقد توقف في آخر
الفصل الذي عقده في كتابه لبيان أصل اللغة أثلهام هي أم مواضعة ؟ وهذا آخر
كلامه بعد أن شرح المذهبين ، (وان خطر خاطر فيما يعلق الكفّ بإحدى
الجهتين ويكفها عن صاحبها قلنا به وبالله التوفيق) ، ولكنه جزم بهذا الرأي
بعد ذلك .

رأى اللغويين
في تقسيم
اللغات القديمة

ولقد اصطلح اللغويون من علماء العصر على تقسيم ما عرف من لغات هذه
الأمم القديمة إلى مرتقية وغير مرتقية . وجعلوا من غير المرتقية اللغة الصينية
والمصرية القديمتين ، ويرجح بعض المؤرخين من طريق الظن العلمى أن الصينيين
والمصريين القدماء من أقدم الأمم التي نزلت من شواطئ الفرات قبل الطوفان ،
وأن لغتيهما في سذاجتها وقلتها ترجح اتصال نسبهما بقايتين أو قبائل أحد أبناء
آدم خصوصاً أن التوراة قد وصفت نسل قايين (قاييل) هذا بالمهارة في الصناعة
والصينيون من أقدم من عرف من أمم الأرض بالحدق في الصناعة .

ومن غير المرتقية أيضاً اللغات الحامية التي منها لغات زنوج افريقية وهنود
أمريكا الذين هم على الراجح عبيد إفريقيون استخدمهم الأسبان في هذه الأقاليم
بعد الفتح .

وأما الراقية فقد جعلوها أيضاً قسمين : متصرفة ، وغير متصرفة . وغير
المتصرفة : هي اللغات الطورانية أو المغولية ، وهذه تشمل الفروع التي يتفاهم بها
سكان البلاد التي بين شرق النمسا ، وآسيا الصغرى ، فبلاد التتر ، ومنها
التركية ، ومعنى عدم تصرفها : أن الاشتقاق فيها يكون بإلحاق أدوات لا معنى
لها في نفسها لأصول ثابتة لا تتغير ككلمة (ياز) ، ومعناها في التركية الأصل
الدال على الكتابة يؤخذ منها الماضي بإلحاق (دى) فيقولون (يازدى)
ومعناه كتب ، وكذلك يفعلون عند النفي والجمع ، وغير ذلك يعضفون أدوات
كثيرة ، وتبقى الكلمة كما هي .

وأما المتصرفة فهي السامية والآرية ، ويقال لها أيضاً : اليافثية نسبة إلى
يافث بن نوح ، ومنها لغات جنوبي آسيا التي منها السنسكريتية ، وفروعها
كالفارسية والهندية والأفغانية وغيرها ، ومنها لغات أوروبا التي أشهرها اللاتينية
وفروعها من لغات فرنسا وإيطاليا وإسبانيا والهيلينية ، ومنها اليونانية القديمة
والحديثة . ووثدية ، ومنها لغات روسيا وبلغاريا وبوهيا . وثيو تونية ، ومنها لغات
الإنجترا وألمانيا وهولاندة والدانمارك .

وأما السامية : أى المنسوبة إلى سام بن نوح ، فهى تمتاز بأنها لغات الكتب المقدسة من التوراة والإنجيل والقرآن ، وبأن التمدن اقديم ظهر أوليين المتكلمين بها فى بابل وأشور وفينيقية ، وهى اللغات البابلية الأشورية ، والكنعانية أو الفينيقية ، والعبرية ، والآرامية ، والحبشية ، والعربية . ومن العلماء من يجعل اللغة الكنعانية أصلا للعبرية والآرامية مستدلا بما لا ينهض بصدق دعواه .

اللغة العربية

لايستطيع المؤرخون أن يجزموا برأى قاطع أو يأخذوا بدليل علمى يبينون به الأصل اللغوى الذى أنشبت منه هذه اللغة وغيرها من أخواتها السامية التى تنسب إلى أب تاريخى مجهول ، ولا عبرة بدعوى بعضهم أن الأصل السامى الذى تفرعت منه هذه اللغات هو اللسان البابلى القديم ، فإن تلك ظنون أدى إليها وجود بعض المشابهة بينه وبين هذه العربية لا يبعد أن يكون سببها هو قرب عهد اللغتين بالانفصال عن أصلهما المجهول ، ومن الراجح أن هذه اللغات بجملتها من سامية وغيرها يمكن أن تتصل فى سلسلة الحياة اللغوية بأصل واحد هو لغة الإنسان الأولى التى لا تزال هى الأخرى مخبئة فى ضمير الزمن ، وقد يُستأنس لهذا الاتصال بما بقى فى لغات العالم المختلفة من المشابهة فى بعض الأصول الضرورية ذات المدلولات الثابتة كلفظ الأب والأم والقوت التى تعد من أقدم ما تعلمه أو نطق به الإنسان ، وهى تكاد تكون واحدة فى كل لغات البشر ، وكضمير الخطاب فإنه إذا تجرد من مميزات الجنس والعدد فهو حرف التاء فى أكثر اللغات وغاية ما توصل إليه الباحثون من تتبع نشأة اللغة العربية أن لابد أن يكون دخلها فى أدوار التكوين شىء من الأصول السامية الأخرى كالحبشية والحيرية والعبرية ، وبعض الآرامية القديمة ، وبيان ذلك أن عربية عدنان الذى ينتهى إليه عمود النسب العربى الصحيح قد ورثها عدنان عن آبائه إلى إسماعيل أبى العرب المستعربة ، وهم يقولون إن إسماعيل صلوات الله عليه كان له لسان

آخر عبراني أو كلداني نسيه وتعلم العربية من العرب العاربة أو القحطانية حين هاجرت جُرهمُ الثانية إلى بلاد العرب ، ونزلت بمكة وامتزج بهم إسماعيل بالصَّهر والجوار ، ونشأ منهم ومنه جيل عربي جديد هم العرب المُستعربة أو الإسماعيلية ، ويقولون إن أولئك القحطانيين أصلهم من الحبشة عبروا إلى بلاد اليمن فعمروها وأضافوا إلى لغتهم ما اقتبسوه من لغة أسلافهم من المعينيين الذين هم قبائل من بدو الآراميين ، أو بقايا أهل بابل القديمة نزحوا إلى بلاد اليمن فعمروها ، وكانت لهم بها دولة قبل السبئيين والحميريين ، وهم الذين اقتبسوا الحروف الفينيقية التي انتهت بعد في آخر صورها بالخط المُسند أو القلم الحميري المشهور ، وإذا تكون هذه اللغة العدنانية مزيجاً موروثاً من هذه اللغات السابقة ، وقد تختلف عنها كما كان بعض هذه اللغات يختلف عن بعض ، وقد تمثلت بعد ذلك في المضربية الفصحى في الوقت الذي ذهبت فيه الدولة الحميرية من الوجود حَوْلَ أوائل القرن السادس الميلادي ، وحين أخذت نهضة قريش تمتد سطوتها على أكثر بقاع الجزيرة العربية ، وصارت العرب تقريباً بما أدخلوه على لغتهم من ألوان التنقيح ، وعوامل التهذيب ، إلى وحدة لسانية عامة لا يشوبها إلا قبائل من الخلاف المنطقي الذي لم يتعد صورة النطق بالكلام اصطلاح العلماء على تسميته باختلاف اللهجات ، وقليل مما بقي من الأشباح المتخلفة من الحميرية القديمة في بعض قاصية القبائل اليمنية التي لم تتأثر بهذه النهضة اللغوية التي انتهت برجة عنيفة اهتزت لها أقطار الجزيرة ، وهي ظهور الإسلام ، وهذه إذاً كانت هي العربية الفصحى لغة الشعر والنثر الجاهليين ، وهي لغة قريش التي نزل بها القرآن على أفصح العرب محمد صلوات الله وسلامه عليه ، وهي اللغة التي ندرس اليوم آدابها ، ونؤرخ فنونها ، وطبقات المتكلمين بها في عصورها المختلفة ، وكانت قبل الإسلام محصورة في هذه الجزيرة العربية فامتدت بعد ذلك مع الفتوح الإسلامية بين أواسط الهند شرقاً ، ومضيق جبل طارق غرباً وبين البحر الأسود ، وبحر العرب شمالاً وجنوباً ، ووسعت أصقاع العالم المتمدن من ذلك الحين إلى وقتنا هذا .

عوامل نموها . قد علمت مما سبقنا في الكلام على نشأة اللغات ميانا إلى المذهب الوضعي ، والقول بأن اللغة وليدة الاصطلاح والمواضعة ، وليست وحيا ولا توقيفاً ، وهي بهذه المثابة لم تخلق كاملة تامة بل كانت تتكون من الارتجال والمحاكاة حتى تبلغ حالة من الحياة تجعلها أداة صالحة للتفاهم الضروري ، ثم يتناولها بعد ذلك من دواعي الارتقاء ، وعوامل النمو أسباب كثيرة من القلب ، والابدال ، والنحت والاشتقاق والمجاز ، ونحن نفضلها لك باختصار فنقول :

القلب وهو تقديم حرف أو تأخير من حروف اللفظ الواحد مع المحافظة على معناه أو انحرافه قليلا عن أصله ، وهو أقل أثرا من الابدال ، ومن ذلك قولهم جَذَبَ وَجَبَدَ ، وَلَطَمَ وَلَمَطَ ، وَسَكَبَ وَسَبَكَ . وكل هذه بمعنى واحد ، أو متقاربة وكذلك قولهم بَمَضَ وَبَضَعَ ، وكلاهما بمعنى قطع .

ويحدث القلب في اللسان اعتباطاً في الغالب ، وقد يكون سببه التخفيف في اللفظ أو التفنن فيه ، ومثل ذلك كثير الحدوث في العامية المصرية تقول العامة « جزز » في زوج وتقول « أجا » في « جاء » وقد تكون هذه سرت إليهم من عوام أهل الشام .

الابدال وأما الابدال في ألفاظ اللغة فهو أعظم أثراً وأوسع دائرة ، وهو جعل حرف مكان حرف يقرب منه لفظاً ويقع غالباً بين الحروف التي من مخرج واحد أو من مخرج متقاربة يقولون مدح ومدح ، والحثالة والحسالة والحفالة لاردى من كل شيء واستعدى عليه واستأدى بمعنى طلب إلى الحاكم أن ينصفه منه ، وغير ذلك من الأمثلة كثير .

وهو في الغالب نتيجة علة طبيعية في أعضاء النطق في أول الأمر ، ثم يصيره الاستعمال مستقلاً عن الأصل ، وإن حفظ معناه ، أو تغير عنه بعض التغيير ، وربما جعلوا لكل نوع من الألفاظ الحادثة ما يقابله من تنوعات المعنى الأصلي ، فيقولون : مثلاً لطم إذا ضربه بكفه مفتوحة ، وللمه إذا ضربه بشيء ثقيل ، وكما يقولون في قضم : أكل بأطراف الأسنان ، أو أكل خشنا ، وخضم : أكل رطباً ، أو أكل بأقصى الاضراس ، ومن نحو هذا ما تجدونه في اللغة العامية

المضرية ، فإنهم يجعلون من ثقيل بالثاء لفظين لكل منهما معنى مستقل ، فقالوا :
« سقيل » بالسين بمعنى ثقيل النزال ، وقالوا : « ثقيل » بالثاء بمعنى رزين ، وقالوا :
في ثبات « سبات » بالسين بمعنى الجلد والصبر ، وقالوا : « تبات » بالثاء بمعنى
الوقاحة أو صفاقة الوجه ..

ويمكنك أن تدرك كيف كان الابدال من عوامل نمو اللغة وزيادة ثروتها
اللفظية والمعنوية بالمثال الآتي ، وذلك أن مقطع « قط » وهو حكاية صوت القطع
قد تولد منه بالابدال تنوعات كثيرة منها قص وخص وخذ وقد وكس وجذ وجز .
وكل واحدة من هذه الأنواع تولد عنه عدة ألفاظ ، فمن « قط » تولد قطع وقطب
وقطف وقظم ، ومن « قص » تولد قضم وقصل وقصب وقصر وقصف ، ومن
« كس » تولد كسر وكسع وكسم وكسح ، ومن « جذ » تولد جذب وجذ وجذم ،
ومن « جز » جزاً وجزع وجزم وجزل وهلم جرا ، والدليل على أن هذه وأمثالها
أنواع لذلك المقطع أنك ترى فيها جميعاً معنى القطع ، وإن كان بعيداً في بعضها
كخدع فانه من خد ، وذلوا : (والخدع أن توهم غيرك خلاب ما تخفيه من المكروه
لتنزله عما هو بصده) قال الامام البيضاوي (ولا يخفى ما يستباح في هذا من
معنى القطع : أي أن تقطعه عنه أو تقطعه دونه) ومثله خدر البنت فإن معناه
ألزما الخدر : أي قطعها عن الاختلاط بالانسان وغير ذلك في نحو : قسم وقسط
وقرص وقرض مما لا يخفى على المتأمل رده إلى معنى القطع ، وأنت ترى من هذا أن
كثرة هذه الأنواع حادثة في الأصل من حكاية صوت القطع ، ويمكنك أن تقيس
على هذا أمثاله من مواد اللغة لتدرك مبلغ تأثير الابدال في ترقية اللغة وتمييزها .

النحت

أما النحت فهو صوغ كلمة من كلمتين ، فأكثر كقولهم : حمدل إذا قال
الحمد لله وبسمل وحوقل ومبجل وحسبل إذا قال بسم الله ، ولا حول ولا قوة
إلا بالله ، وسبحان الله ، وحسبنا الله ، ومثلها الطابقة والدمعزة في أطال الله بقاءك وأدام
عزك ، وكقولهم : عبشمى وعبقيني في النسيب إلى عبد شمس وعبد القيس ، وفائدته
اختصار الألفاظ وتوفير الوقت وتسهيل النطق ، وهو مع ذلك ثناء في اللغة لأنه

زيادة في عدد كلماتها وتكثير لطرق التعبير فيها ، ويرى بعض علماء اللغات أن الحروف إنما هي بقايا ألفاظ لها معنى في نفسها ، وأنها إنما صارت حروفا بعامل التحت ، ومن ذلك حروف المضارعة ، فإنهم قالوا انهم أخذوا الهمزة (من أنا) والنون من (نحن) والتاء من (أنت) والياء من (هي) ، وجعلوا الحروف دليلا على ما كانت تدل عليه الأصول تقريبا فأدت المعاني مع اختصار اللفظ .

ورجحوا أن الأصل في استعمال باء الجر للظرفية لأنها لا تستعمل في اللغات السامية إلا لها ، وقالوا إن أصلها بيت بدليل أن هذه في السريانية معناها في أوين ، ثم صارت بي في الكلدانية ثم الباء وحدها في العربية ، فكان الباء بقية لفظ بيت أدى بها المعنى مع اختصار اللفظ .

الاشتقاق
والمجاز

ولم يعد لأحد من المتكلمين بالعربية الآن حق في استعمال الأسباب السابقة من عوامل نمو اللغة في وضع ألفاظ جديدة بأزاء ما يتحدث تباعا من المعاني المبتكرة تنمو بها اللغة وتتكاثر ما دتها لأن ذلك على ما يقولون حق خاص بالعرب وحدهم ، وقد انقضى دهره منذ القرن الثاني من الهجرة ، وإن لك أن تقول حينئذ إن أكثر اللغات الحية من هذه السبيل قد يفضل اللغة العربية لخصوص هذه اللغات على الأقل من قيود الصبغة الدينية التي دعت أهل العربية إلى المحافظة على صورتها الموروثة استبقاء لطريق فهم الشريعة وحرصا على سلامة الكتاب والسنة الذين هما عماد الملة وقوام الإسلام واثن فاتنا الشيء الكثير من هذا بجانب تلك الوثبات القوية للغات العالم في طريق التوالد والنمو لن يفوتنا ما تعوض عن ذلك من طريق الاشتقاق والمجاز فإن كلا منهما قد بنى على مقاييس ثابتة تمكن من اتخاذها طريقا معبداً لغنية اللغة وازدياد ثروتها والأخذ بيدها إلى مساماة الحضارات العلمية المتجددة بقدر ما تدعو إليه الحاجة بشرط أن يتخذ الانتفاع بهذين العاملين وجهة قوية تعتمد في حياتها على سلطان الحكومة القائمة بأن تصدر عن مجمع لغوي يضم نخبة من رجال العلم وحملة اللغة ، وأهل

الصناعات الراقية المختلفة يمكن أن يثمر مجهودهم في المستقبل ما يعد كفاية للحاجة وسداداً لهذا النقص على قدر المستطاع .

وإذا كان الاشتقاق وهو أخذ كلمة من كلمة تشترك معها في مادتها وتركيبها أكثر حروفها معروفاً في صيغ الفاعل والمفعول والزمان والمكان والأداة وغير ذلك من ضروب الاشتقاق ، وكذلك المجاز وهو نقل كلمة من معنى إلى معنى آخر بينهما مشابهة بقرينة فلاحاجة إذاً إلى الاطالة بذكر أمثلة لهما .

وكل ما سقناه من العوامل السابقة لا يختص بلغة دون أخرى ، بل هو أمر عام تشترك فيه معظم اللغات الراقية الآن غير أن العلماء يذكرون اللغة العربية عوامل نمو خاصة ، وهي ما اصطالحوا على تسميته بخصائص العربية وستعرف فيما يأتي أن هذه التسمية ليست مسلمة على إطلاقها إذ أن معظم هذه الخصائص كالاعراب والاشتراك اللفظي والايجاز ودقة التعبير يوجد في غير العربية من لغات العالم ، ونذكر من هذه العوامل :

الإعراب وهو من صفات العربية قديماً وحديثاً ولا عبرة بقول من يقول إن من العرب من كانت له عامية ملحونة ، فإن ذلك على فرض وجوده قد يكون قليلاً نادراً لا يمتد به ، ولا يمنعنا ذلك من التسليم بأن لغة العامة من قبائل العرب لم تكن من القوة والفصاحة موازية للغات الخاصة من الشعراء والأشرف وتشارك اللغة العربية في هذه الميزة الألمانية والحبشية وتكاد تنسلخ عنه الألمانية على مرور الأيام .

دقة التعبير في الألفاظ والتراكيب
أما في الألفاظ : فيكاد يوجد عندهم لكل معنى من المعاني وأجزائها لفظ خاص ، وقد سموا أجزاء الحيوان والإنسان والنبات والطيور والليل والنهار ، فجعلوا لكل جزء منها لفظاً يخصه ، فساعات النهار مثلاً : الشُّرور فالبرُوع فالضحى فالغزاة فالهاجرة فالزوال فالعصر فالأصيل فالصُّبُوب فالحدُّور فالغُروب . وهي أيضاً : البكور فالشروق فالإشراق فالرُّاد فالضحى فالمتُّوع فالهاجرة فالأصيل فالعصر فالظُّفل فالحدُّور فالغُروب . وساعات الليل : الشَّقَق فالغَسَق فالعَتَمة فالشُدفة فالفحمة فالزُّلة فالزُّلعة فالبُهرة فالسَّحَر فالفجر فالصُّبح فالصباح ..

ومن ذلك تفرّع المعاني من الفعل الواحد ، ونذكر مثلاً لذلك فعل النظر يتفرّع إلى رَمَقَ، ومعناه نظر إلى الشيء بمجامع عينيه، ولحَظَّ : أى نظر من جانب أذنه ، ولحِه : نظر إليه في عَجَلَة ، وحَدَجِه : رماه ببصره مع حدة ، وشَفَنَ : نظر كالتعجب أو الكاره ، فإن أدام النظر في سكون طَرَف قِيلَ رنبا إلى غير ذلك مما نراه مبسوطاً في مثل المخصص ، وفي كتب فقه اللغة ، وقد يعتبر القول بانفراد العربية وحدها بهذه الخصيصة ضرباً من السذاجة والمكابرة .

وكذلك دقة التعبير في التراكييب واثباتها على تمام منتمضيات الأحوال ، من الاسراف أن ندعى اختصاصها بالعربية ، فإن لكل لغة بلاغتها ، وكما يوجد عندنا من مختار المنثور والمنظوم مما يشتمل على أسرار الفصاحة وإعجاز البيان يوجد مثل ذلك في أذواق أهل اللغات الأخرى في مختار منظومهم ومنثورهم غير أن مزيدات الأفعال وصيغ المشاركة خاصة بالعربية حقيقة ، إذ هي تعبر باللفظ الواحد عن معنيين أو جملة معان لا يتأتى التعبير عنها في غير العربية إلا بعدة ألفاظ كتفاضوا وتقاتلوا .

والعرب أقدر على هذا النوع من البيان من غيرهم من الأمم التي لا تخلو بلاغتها من شيء منه وقد تصل العبارة من القصر إلى حد الإيماء والاشارة مع اشتغالها على المعنى ووفائها بالعرض كالمثل والحكمة ، ولعلها تكون لغة من لغات العالم كالعربية في هذين .

الإيجاز

وقد فاق العرب فيها سائر الأمم ، فعندهم المطر والريح والنور والظلام والأسد والسيف والناقة والحجر والماء والبئر أسماء كثيرة من عشرين في بعضها إلى ثلثمائة في بعضها الآخر ، وكذلك الشأن في الأوصاف^(١) ، فللطويل والتقصير ،

الترادف والتضاد

(١) يقال : طويل . وطَوَّال - وشَوَّذِب وعَشَنَظ - ويقال : رجل قصير وحنبل وكهْمَس وُبُحْتُر ، والتقصير والطويل أخفها - ويقال رجل كريم وجواد وسخى - وسَمِيدَع - وغَطْرِيف وأرَيْحَى - ويقال بُخِيل وِلْز وشَحِيح - وفاحش ويقال : شجاع وذَمِير - وبُهْمَة - وبَطَل وصِمَّة ونَهِيك . ويقال للجبان يراع . ورعنيذ ونِكْس . وفرُوقَة .

والكريم والبخيل ، والشجاع والجبان ألفاظ كثيرة يهربها عنها تعد ثروة واسعة في اللغة ومفرداتها .

رأى العلماء
في الترادف

ويرى بعض المحققين أن هذه الأسماء المترادفة كانت في الأصل نعوتاً لأحوال المسمى الواحد وظواهره ، ثم تنوسيت هذه الأحوال بالتدرج ، وكادت تتجرد هذه الألفاظ من تلك الفروق والأوصاف بالاستعمال ، وغلبت عليها الاسمية ، فان الخَطَّارَ والخَطَّامَ والباسلَ والأصيدَ من أسماء الأسد ترى أن لكل لفظ منها وصفاً خاصاً مغايراً لما يدل عليه الآخر ، وكذلك ما يعد من أسماء السيف كالمصمِّمِ والهندي والحسام والعَضْبُ والقاطع وغير ذلك ، وقد يرى بعضهم أن الترادف أصله في العربية لغات لقبائل مختلفة لم يراع ثقل اللغة التنبيه على أكثره لعدم الوثوق من الدليل عليه ، وهو عتاد الشاعر والكاتب والخطيب والأستاذ عند محاولة البسط والترغيب في فضائل الأمور والبلوغ إلى تقريب الغامض من حقائق الأشياء ، وتكشيف المعاني المبهمة بعرضها في جملة صور من التعبير تعين على تجليتها للفهم ورسوخها في النفوس .

فأثرت

وأما التضاد وهو دلالة اللفظ على المعنى وضده ، فهو من خصائص اللغة العربية . كالجَوْنُ للأسود والأبيض ، والجلل للعظيم والحقير ، والشَّفْ للزيادة والنقصان ، وفي اللغة من هذا ونحوه مئات من الألفاظ يدل كل واحد منها على الشيء وضده . وينبغي أن يلاحظ في التضاد أيضاً اختلاف الوضع كما سبق لأن الأصل في وضع اللفظ أن يكون أداة للفهم لا وسيلة إلى الإبهام والتعمية .

الاشتراك
اللفظ

أي دلالة اللفظ الواحد على المعاني الكثيرة ، وقد يكون هذا من عيوب اللغات وقصورها إلا إذا استطاع التكلم أن يجد لهذه المعاني دوالاً أخرى مستقلة غير هذا المشترك اللفظي ، فقد قدمنا أن الإنسان في بدء نشأته كان يعبر باللفظ الواحد عن المعاني الكثيرة ، وكان ذلك من معاني العجز في اعتبار علماء اللغة عن إيجاد الكفايات اللفظية لهذه المعاني إذ كانت اللغة لا تزال حينئذ في طور الوجود الأول تقريباً ، وإذا لا ينبغي أن يعد الاشتراك اللفظي ذليلاً على رقي

اللغة إلا على النحو الذي قدمناه ، ومن ذلك مثلاً كلمة الروح ، والعين ،
والخال ، فالروح : ما به الحياة ويؤنث ، وهو الملك والوحي والقرآن وجبريل
وعيسى . والعين : الباصرة والجارية والسحاب واليد والدينار والذهب
والجاسوس . والخال : أخو الأم والخيلة واللواء والظن والكبر والشامة وغيرها
كثير في اللغة نكتفي بهذا منه

اختلاف اللهجات

اتفق علماء اللغة على أن معنى اختلاف اللهجات يرجع في جملة إلى ثلاثة
أوجه ، ويلاحظ أن العلماء كثيراً ما يضعون اللغة مكان اللهجة .

الأول : ما يكون من تنوع المنطق واختلاف كيفية النطق باللفظ ، وهو
أهمها ، ويرجع سببه في الغالب إلى البيئة الخاصة وتأثير الوراثة كالذي يرى الآن
في القرى المتجاورة والمتباعدة في أعلى مصر وأسفلها ، ومن أمثلة ذلك قول
بعضهم لعمر بن الخطاب رضي الله عنه : « ماترى في رجل ظحى بضى » ، فقال
له وما عليك لو قلت : « ضحى بظى » ، فقال انها لغة بالكسر ، فكانت
هذه أعجب .

الثاني : ما يكون من اختلاف الدلالة للفظ الواحد باختلاف اللغات التي
تنطق به في المترادف^(١) والأضداد ، وقد أشرنا إلى ذلك فيما سبق .

الثالث : ما يكون قد انفرد به عربي مع اطباق العرب على النطق بخلافه
وليس لهذا النوع شأن يذكر لجواز أن يكون ذلك وقع لهذا العربي من لغة

(١) روي أن أبا هريرة لما قدم من دوس عام خيبر أتى رسول الله صلى الله عليه وسلم
وقبده وقت من يده السكين ، فقال له ناولني السكين ! فالتفت أبو هريرة بمنة ويسرته ولم يفهم
المراد فكرر له القول حتى قال : ألمدية تريد ؟ وأشار إليها فقيل له نعم ، فقال أو تسمى عندكم
سكينا ؟ ودوس بطن من الأزدي ، وهي يمانية .

قديمة طال عليها العهد ، وبادت آثارها ، وإذا يكون التعويل في اختلاف اللهجات على الوجه الأول، وهو لا يتعدى صورة النطق بالكلام، ويلحقها في بعض الأحيان إبدال حرف بآخر كإبدال الميم بباء والباء ميمًا في لغة مازن إذ يقولون يا اسمك؟ مكان ما اسمك؟ ويقولون: مكر في بكر، وكردد الكلمة بين الإدغام والفتك، وبين الإتمام والنقص، أو بين الصحة والاعلال والاعراب والبناء، فمثلا أهل الحجاز يفكون المثلين من المضارع المضعف المجزوم بالسكون وأمرء وتميم تقولهما بالإدغام، وخشم وزبيد تنقص نون من الجارة، فيقولون خرجت ملييت كلغة عامة مصر في قولهم خرجت من البيت، وغيرهم من العرب يثما، وطبيء تعل الأفعال الثلاثية التي من باب فرح كبقى ورضى بقلب يائها ألفا وكسرتها فتحة، وغيرهم يصححها، وقيس بن ثعابة تعرب لذن، وغيرهم يثنيها. هذا إلى أنه قد كان لكل قبيلة عيب في النطق اشتهر منه: عجمجة قضاة وهي جعلها الياء بعد الفين جيما، أو الياء المشددة مطلقاً مثل قولهم: الراجع في الراعي ومرّج في مرّي، وطمطمانيه حمير، وهي جعل أم بدل آل، وبلغتهم حديث: «ليس من امبرّ امصيام في امسفر»، أي: «ليس من البرّ الصيام في السفر»، وتثلثة بهراء، وهي كسر أحرف المضارعة مطلقاً، وخفجة هذيل، وهي جعل الحاء عيناً مثل: العسن في الحسن واللعم في اللحم، وعنعة تميم، كقولهم: في أن عن بإبدال الهمزة البدوء بها عيناً، وكشكشة أمّ. أو ربيعة، وهي إبدال الشين من كاف الخطاب المؤنث مثل عيش في عليك، وكسكسة هوازن، وهي زيادة سين بعد كاف المؤنث، فيقولون: أعطيتكس وميكس، وتلخانية الشعر، كقولهم: مشا الله، واستنطاء أسد، كقولهم: أنطى في أعطى يجعل العين الساكنة نونا مع الطاء، وشنشنة الين، وهي جعل الكاف شيناً مطلقاً نحو: شلني في كلمني وليشني في لبيك، وكقطعة طي وهي حذف آخر الكلمة، فيقولون: يا أبا الحكاف يا أبا الحكم كما في لغة كثير من أقاليم مصر. هذا وقد أتى تهذيب اللغة في أدواره المختلفة على أكثر

هذه الهنوت إلا ما كان منها تابعا لتأثير البيئة ، فقد بقي منه شيء حتى بعد ظهور الإلام ، ولأيزال مثل هذا الاختلاف يوجد بين طبقات المتكلمين باللغات من جميع الأمم المختلفة لا سبيل إلى تغييره إلا بالتخلص من المؤثرات القوية التي تنتج كالاتقال من القرى إلى الأمصار ، أو من إقليم إلى غيره كما هو مشاهد (١).

أطوار تهذيب اللغة وأثر الأسواق فيه

اعلم أنه من غير المعقول أن تكون اللغة كما يقول بعضهم قد برزت إلينا من غيب التاريخ ناضجة كاملة مهذبة ، ومن المحقق أنها تقلبت في أدوار مختلفة وأدهار طويلة ، تنازعها فيها ما يتنازع الأحياء الحادثة من عوامل الضعف والقوة وأسباب الرقي والانحطاط ، ومن العيب أن يتناول إنسان إلى تحديد الزمن الذي تمثلت فيه اللغة بصورتها الروية لنا ، وكل ما يقال في ذلك مراعى فيه تقريب هذه الحقيقة إلى البصيرة على وجه من وجوه تغليب الظن لا غير ، ومما لا شك فيه أيضاً أن هذه اللغة قد تعرضت لعوامل الاندماج والتقارب بامتزاج بعض شعوبها في بعض ، والاتحاد أكثر قبائلها في كثير من دواعي المعيشة ، وأساليب الحياة ، ولما كان بينهم من الأواصر القوية في الجنس ، وطبيعة البيئة والعادة ، وأن ذلك مضافاً إلى ما تناول هذه اللغة من أسباب التهذيب التي ستمذكرها بعد ، فقد أدى كله إلى تخلصها من الاختلافات ونقاؤها بالتدريج من الوحشية والفراية وصيرورتها إلى درجة من الوحلة والعدووية صلحت فيما بعد لأن ينزل بها كتاب الله آيات مفصلات قد استوعبت أدق أسرار الإعجاز ، واشتملت

(١) لم تظهر هذه اللهجات المختلفة في المأثور من الشعر القديم لتنجى الشعراء عنها ورغبتهم في ذئوع أشعارهم وإرضاء الحكام منهم بموافقة اللهجات الفصحى من لغة قريش . ولأن الكتابة لا يظهر فيها هذه اللهجات أو أكثرها والشعر كما هو معلوم بلغنا مكتوباً مدوناً .

على أعلى مراتب البيان والفصاحة ، ويرجح الباحثون أن من هذه الأسباب
تنقيح إسماعيل عليه السلام ، وهو أصل العربية العدنانية كما سبق ، ولا
يعد أن يكون ذلك إلهاماً إلهياً خص الله به نبيا من أنبيائه ، أو يكون ذلك
على الأقرن ناتجاً عما امتاز به ذلك الأب العربي عن سائر أهل عصره من
سلامة الفطرة ، وقوة الذكاء ، وحسن الاختيار والتبج ، مع ما يلحق بذلك من
تطاول الزمن الذي هو وعاء طبيعي لبلوغ الكائن الحي درجة من السكال في تدرجه
إلى الارتقاء ، واقترب ذلك الوقت بظهور إسماعيل عليه السلام ، ثم درج العرب
بعد إسماعيل على هذا السنن الفطري من الانتقال في مدارج النمو والتحسين ،
وقد اشترك في هذا التهذيب أكثر القبائل العربية ، إذ كانوا يأخذ بعضهم
بعض بالمخالطة ، والاجتماع في أيام وقائعهم ، وعند تلاقحهم في الانتجاع ، وخروجهم
في المنافرة إلى الحكام ، وحشدهم للمفاخرة بالأحساب والأنساب ، وكان للشعراء
من هذا الإصلاح نصيب لا يقل عنه ما كان للأشراف من خطباء العشائر في
مخاكة العامة لهم ، واجتهادهم في مساماة ألسنتهم حتى نشأ بينهم التنافس في
إحكام اللغة ، والمفاخرة بالبيان .

وكان الدور الثاني هو استفحال نهضة قريش واستيلائهم على ذروة النفوذ
الأدبي ، والسيادة العامة في جهرة القبائل العربية ، وقد بينا في بعض الفصول السابقة
كيف صارت لغتهم إلى صفاء الفصاحة ، وأخذت بأطراف العدنوية ، وأقبل
العرب يحا كونها ويمشون على أثرها حتى انتهى آخر ذلك الإصلاح القرشي
بظهور الأسواق الأدبية التي كان لقريش فيها أيضاً من الفضل ما لها إذ كان
العرب يرجعون إلى منطقتهم ، ويتأثرون بعدوتهم فيما يعدونه من القريض وما
يجبرونه من الخطب التي يتحاكون فيها إلى قضاة يصدرون عن رأيهم ، ويسمعون
لحكمهم في هذه الأسواق التي أشهرها عكاظ ، وهي موضع بين نخلة والطائف ،
وأقيمت بعد عام الفيل بخمس عشرة سنة وبقيت بعد الإسلام ، وإن لم تكن في
شأنها الأول حتى نهبا الخوارج سنة تسع وعشرين ومائة ، وكانت تقوم هلال

ذى القعدة إلى عشرين منه ، ثم ينتقل العرب منها إلى مجنّة ، وهي موضع قرب مكة بمرّ الظهران ، ثم إلى ذى الحجاز ، وهي سوق على فرسخ من عرفة ، فيكونون بها إلى أيام الحج .

وكان الأشراف من العرب إنما يحضرون الأسواق القريبة من أحيائهم إلا عكاظ ، فإنهم كانوا جميعاً يتوافدون إليها لمفاداة أسراهم ، والتعاكم في خصوماتهم ، والمفاخرة بالأحساب ، والتباهى بصفات الفضائل ، من الكرم والشجاعة والفصاحة والجمال والأشعار والخطب ، وفيها أنشد عمرو بن كلثوم طويّله ، وقيل إنها علفت في هذه السوق هي وسائر السبع الطوال كما سنيناه بعد ، وكان للناطقة الديباني قبة تضرب له يتحاكم إليه فيها الشعراء ، وقصته مع الأغشى والخنساء وحسان مشهورة ، وفيها خطب قس بن ساعدة الأيادي خطبته المشهورة ، وقد شهدته رسول الله صلى الله عليه وسلم وهو على جمل له أورك^(١) . وقد كان هذا الاجتماع العام مظهرًا جميلاً من مظاهر الحضارة يقتضى طبعاً تجويد المنطق ، وارهاف اللسان ، والمبالغة في إتقان صناعة الكلام ، والاجتهاد في مقارنة العذوبة في لغة قريش ، التي لم يقتصر فضلها على حمل العرب في جلتهم على اتباع مناهجها ، والتأثر بأسلوبها ، بل كانت لا تزال تشهد هذه الموام وتسمع من فصحاء البادية وشعراء القبائل في هذا الدور الأخير من التهذيب حتى بلغت لغتها إلى أرفع مراتب الكمال اللغوي في هذا العصر .

الخط العربي ونشأته

من المعلوم أن الكتابة من الصناعات الحضارية التي تلازم الملك وتقوم مع حضارات الأمم المتقدمة ، ولذا لم تفسح هذه الصناعة في العرب إلا بعد ظهور الإسلام حين اجتمعت لهم أسباب الملك ، وصارت لهم دولة ذات قوّة وساطان

(١) الأوزق من الإبل : مائه يابض إلى سواد ، وهو من أطيب الإبل لحماً لاسيراً وعملاً .

وكان رسول الله صلى الله عليه وسلم أول من عمل على إفشاء هذه الصناعة ،
ونشر تلك المدنية الجديدة بين المسلمين بما فرضه على غير الأميين من أسرى بدر
أن يفتدى الأسير منهم نفسه بتعليم عشرة من صبيان المدينة الكتابة ، فشاعت
هذه الصناعة ، وانتشرت بعد ذلك مع المسلمين في أقطار الأرض ، أما قبل
الإسلام ، فقد كانت الجزيرة العربية عدا بلاد اليمن وبعض الجهات الشمالية منها
خلوًا من هذه الصناعة ، ينطق العربي من أهلها بالفصح المهنذب من الشعر والنثر ،
ولا يقيم لسانه حرفًا واحدًا من حروف الهجاء ، ولا وجوه الإعراب ، وهم الأميون
الذين بعث الله فيهم رسولًا منهم يتلو عليهم آياته ويزكيهم ويعلمهم الكتاب
والحكمة ، قد ظلت فيهم هذه الآثار البدوية حتى بعد الإسلام ، فقد قيل لعربي
منهم : أتهمز إسرائيل ؟ فقال إني إذا لرجل سوء !! فهم من الهمز العيب أو الضغط
وسئل آخر : أتجر فلسطين ؟ فقال إني إذا لقوى !! وقيل لبعض الأعراب وهو ينشد :
نحن بنى علقمة الأخيار لم نصبت بنى علقمة ؟ فقال ما نصبتم لشيء !! « يريد ما عرضتم
لأمر » ، أما في بلاد اليمن فقد قدمنا فيما سبق أن المعينيين وهم من أقدم الأمم الآرامية
التي نزحت إلى هذه البلاد قد اتبسوا الحروف الفينيقية وكتبوا بها واتفقت فيما
بعد إلى أسلافهم من السبئيين فالحميريين مع التنقيح والتخوير إلى الخط المسند أو
القلم الحميري كما أسلفناه ، ومن بلاد اليمن انتقل الخط مع كندة ، وهم بطن من
كهلان حين هاجروا إلى ديار معد ، وانتقل أيضاً إلى النبط ، وهم جيل عربي كان
في بلاد مدين وسينا وفلسطين وحووران قبيل الميلاد وبعده ، ومن كندة والنبط
تعلمه أهل الحيرة والأنبار ، ونقله باجماع المؤرخين إلى مكة حاضرة الحجاز حرب
ابن أمية قبيل الإسلام بتمليل ، قيل انه تعلمه من بشر بن عبد الملك أخي
أكيدر صاحب دومة الجندل الذي قدم معه إلى مكة ، وتزوج بنته الصهباء ،
وعلم عدداً من أهلها الكتابة منهم عمر بن الخطاب ، وعثمان بن عفان ، وطلحة ،
وأبو عبيدة ، ويتأخص من ذلك أن أقدم حلقة في سلسلة الخط العربي هي

الخط المصري القديم ، ثم منه أخذ الفينيقي^(١) ، ومن الخط الفينيقي أخذ الخط الآرامي الذي منه المسند ، ومن المسند تولد النبطي والكندي ، ومن هذين الأنباري والحيري ، ومنهما تولد الخط الحجازي . والخط الحيري هو بعينه الذي يسمى بالخط الكوفي بعد بناء الكوفة إلا أن أهل الكوفة اخترعوا فيه حلية وزخرفا كالتى استعملها السريان في خطهم المعروف بالسطرنجي وإنما كانوا يكتبون بهذا الخط المزخرف كتب الدين ، ويزينون به المعابد ونحوها ، أما الرقاع وما شاكلها فكانت تكتب بالخط الحيري العادي المعروف بالنسخي ، وهذه خلاصة ما يقال في تاريخ الخط العربي ونشأته قبل الإسلام ، وهي مقتبسة من كتاب تاريخ الأدب للمرحوم العلامة حنفى ناصف .

الحياة العقلية - أو معارف العرب في الجاهلية

يحقق الباحثون أنه كان لسكان الشمال من الغسانيين والمناذرة ، وسكان اليمن من التباينة حضارات متناسبة مع دولهم التي أسسوها ، وأنهم كانوا على علم بهندسية أرواء الأرض ، وعمارة المدن والطب والحساب والزراعة ، وبيطرة الدواب ، وإن لم ينقل إلينا شيء كثير من آثار ما أسسوا من الملك ، وما خلفوا من الحضارة .

أما سكان الجزيرة وهم جمهرة العرب العدنانية ، فقد كانوا كثيرهم من الأمم البدوية لا يحدقون كثيراً من العلوم ، ولا ينشطون لمزاولة الصناعات إلا ما أوجبتهم إليه ضرورة الحياة ، واهتدوا إليه من طريق التجربة الصادقة ، والمشاهدات المتكررة . ولم يعرف أنهم خلفوا شيئاً من آثار المدنية العقلية أفضل من الشعر الذى هو ديوان عملهم ، ومستودع فخارهم ، والحافظ لأيامهم وعاداتهم

(١) ويرى بعض الباحثين أن الخط الفينيقي أصل مستقل وليس مشتقاً من غيره . ويظهر أن هذا الرأي لا يستند إلى دليل أكثر من الاستنتاج الشخصى الخاص بقائله .

معرفة العرب
بالنجوم

وعقائدهم وأكثر مظاهر حياتهم الاجتماعية ، وكل ما وصلوا إليه بعد ذلك من أسباب العلوم ، إنما كان مبنيًا على قوّة النظر ، وصدق الحس ، ومستمدًا من التجربة حينًا ، ومن مخالطة من كان يجاورهم من الأمم حينًا آخر ، فمن ذلك مثلا علم النجوم ، فقد كان ما انبسط لأعينهم من رقعة السماء داعيًا إلى إدمان النظر في كواكبها ، وتعرف صورها وألوانها ومطالعها وأنوائها ، وتوصلهم بذلك إلى معرفة زمان الخصب والحل ، وأوقات الرياح والمطر ، واهتدائهم في ظلمات البر والبحر ، وهم مدينون بشيء غير قليل من علم النجوم ، أو الفلك للكلدانيين (بقايا كهنة بابل القديمة ، وكانوا يسمونهم الصابئة وهم عبدة الكواكب) ، ولا يزال كثير من أسماء البروج والكواكب في اللغتين متقاربا أو متجدا ، فمن أسماء البروج مثلا الثور في العربية ، وهو (ثورا) في الكلدانية ، والسرطان ، وهي كذلك أيضا في الكلدانية ، والجدي في الكلدانية « كديا » ، ومن الكواكب المريخ ، فإنه يقابل مرادخ في الكلدانية بلفظه ومعناه ، وترى في كلام العرب وأشعارها كثيرا من أسماء الكواكب ، كالفرقدين والساكين والشعري والجوزاء والنثرة والعيوق ، وغير ذلك مما يدل على قدم معرفتهم بذلك على النحو الذي بيناه لك .

الطب
عند العرب

ومما عرفوا بعضه بالتجربة وبعضه من الأمم المجاورة لهم كالفرس مثلا « علم الطب » ، وإذا قلنا علم الطب لا يتبادر إلى الأذهان أنه كان علما بالمعنى المفهوم منه الآن بل لم يكن يتجاوز عندهم الكي بالنار ، وبترا الأعضاء بالشفار المحماة والتداوى بشراب العسل ، وعمارات بعض العقارات النباتية ، وكثيرا ما كانوا يتداون بالعزائم والرقى ، واشتهر بذلك العرافون والكهان ، وكانوا يعالجون الحول بادامة النظر إلى حجر الرحي في دورانه ، ومن خرافاتهم في العلاج أن المجروح إذا شرب الماء فاضت نفسه ، وإذا ذعرت المرأة من شيء حتى برد قلبها سقوها ماء حارا ، ومن المشهورين في هذه الصناعة ابن حذيم ، وهو رجل من تيم كان يقال فيه أطب من ابن حذيم ، ومن أحدث أطبائهم الجرث بن

كَلَدَةَ الثَّقَفِي المَتَوَفَى سَنَةَ ثَلَاثِ عَشْرَةَ مِنَ المَهْجَرَةِ ، وَهُوَ مِنَ الطَّائِفِ ، قِيلَ أَنَّهُ رَحَلَ إِلَى بِلَادِ فَارَسَ ، وَهَنَّاكَ تَعَلَّمَ الطَّبَّ ثُمَّ رَجَعَ ، وَكَانَتْ لَهُ شَهْرَةٌ وَاسِعَةٌ ، وَكَانَ النَّبِيُّ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يَأْمُرُ مِنْ تَنَاهَى عِلَّةٍ مِنْ أَصْحَابِهِ أَنْ يَأْتِيَهُ وَيَسْتَوْصِفُهُ ، وَفِي اللُّغَةِ العَرَبِيَّةِ مِنْ أَسْمَاءِ العِلَلِ ، وَوَصَفَ الأَعْضَاءَ الظَّاهِرَةَ وَالبَاطِنَةَ فِي الإِنْسَانِ وَالحَيَوَانَ مَا يَدُلُّ عَلَى مَبْلَغِ مَا وَصَلُوا إِلَيْهِ .

الفِراسَةُ
والقِيَافَةُ

وَمِنَ المَعَارِفِ الَّتِي تَوَصَّلُوا إِلَيْهَا بِقُوَّةِ الذِّكَاةِ ، وَكَثْرَةِ المَزَاوِلَةِ الفِرَاسَةِ وَالقِيَافَةِ ، وَالأُولَى هِيَ الأَسْتَدْلَالُ بِهَيْئَةِ الشَّخْصِ وَكَلَامِهِ وَظَاهِرِ أَعْضَائِهِ عَلَى أَخْلَاقِهِ وَصِفَاتِهِ . وَالثَّانِيَةُ ضَرْبٌ مِنَ الفِرَاسَةِ تَعِينُ عَلَيْهِ قُوَّةَ الخِيَالِ كَالِإِهْتِدَاءِ بِآثَارِ الأَقْدَامِ إِلَى أَصْحَابِهَا ، وَلَقَدْ بَاغَوْا فِي ذَلِكَ مِنَ الأعْجَابِ إِلَى مَا لا يَكَادُ يَصْدُقُهُ العَقْلُ ، إِذْ كَانُوا يُمَيِّزُونَ بَيْنَ أَثَرِ الرَّجُلِ وَالمَرَأَةِ ، وَالأَعْمَى وَالبَصِيرِ ، وَالمَثْقَلِ وَالمَخْفِ ، وَإِنْ شَيْئًا مِنْ ذَلِكَ لا يَزَالُ بَاقِيًا بَيْنَ البَدْوِ مِنْ سَكَّانِ مِصْرَ إِلَى اليَوْمِ ، وَقَدْ اشْتَهَرَ مِنَ التَّقَافَةِ فِي العَرَبِ بَنُو لَهَبٍ ، وَبَنُو مُدْجَجٍ كَمَا اشْتَهَرُوا أَيْضًا بِالزَّجْرِ ، وَلَهُمْ يَقُولُ الشَّاعِرُ :

خَيْرٌ بَنُو لَهَبٍ فَلا تُكُ مِغْيَاً مَقَالَةَ لَهَبِي إِذَا الطَيْرُ مَرَّتْ

مَعْرِفَتُهُمُ بِالأَنْسَابِ وَقَدْ كَانَتْ قُوَّةُ الحَاظِنَةِ الَّتِي أَدَّى إِلَيْهَا ائْتِشَارُ الأُمِيَّةِ دَاعِيَةً إِلَى تَفَوُّقِهِمْ فِي عِلْمِ الأَنْسَابِ الَّذِي كَانُوا يَتَعَرَّفُونَ بِهِ القَرَابَاتِ وَيَحْفَظُونَ الأَحْسَابَ وَالأَصْوَولَ . فَلا يَدْخُلُ رَجُلٌ فِي غَيْرِ نَسَبِهِ ، وَلا يَدْعَى إِخِيرَ أُبِيهِ ، دَعَاهُمْ إِلَى ذَلِكَ أَيْضًا شِدَّةُ حَاجَتِهِمْ إِلَى الأَعْتِزَازِ بِالعَشِيرَةِ وَالاَتِّعَارِ بِالعَصْبِيَّةِ لِتَفَرِّقَ قَبَائِلَهُمْ ، وَكَثْرَةُ حُرُوبِهِمْ وَمِنْ نَسَائِبِهِمْ دَعْفَلُ بْنُ حَنْظَلَةَ الشَّيبَانِي وَزَيْدُ بْنُ السَّكَيْسِ النَّمْرِي وَابْنُ لِسَانَ الحُمَيْرَةِ ، وَمَرَاتِبُ النَسَبِ عِنْدَهُمْ مِنَ الأَدْنَى إِلَى الأَعْلَى هِيَ الفِصِيلَةُ فَالفَخْدُ فَالبَطْنُ فَالعِمَارَةُ ، ثُمَّ القَبِيلَةُ ثُمَّ الشَّعْبُ ، وَهُوَ الأَبُ الأَبْعَدُ كَعَدْنَانَ أَوْ قَحْطَانَ مِثْلًا فَالفِصِيلَةُ كَبْنِي أَبِي طَالِبٍ وَبَنِي العَبَّاسِ ، وَالفَخْدُ مَا فَوْقَ هُوَلاءَ مِنْ بَنِي هَاشِمٍ وَبَنِي أُمِيَّةٍ ، وَالبَطْنُ كَبْنِي عَبْدِ مَنَافٍ وَبَنِي مَخْزُومٍ وَالعِمَارَةُ ، وَهِيَ مَا انْقَسَمَتْ

فيها أنساب القبائل مثل قُرَيْش وكنانة ، ثم القبيلة وهي ما تعددت فيها أنساب الشعب كربيعة ومُضَر .

الكهانة
والعرافة

وكانت الكهانة والعرافة وما إلى ذلك من العيافة والزجر والطرق بالحصى وقد تكون الكهانة في تعرف الغيب من الأمور المستقبلية ، والعرافة في مثل ذلك من الأحوال الماضية ، وكان لهم اعتقاد صحيح في كهانهم وكواهنهم فكانوا يستطبونهم في الأمراض ويستقضونهم في الخصومات ، ومن أشهر كهانهم سَطِيحُ الذَّبِّي ، وطريفة الخير امرأة عمرو بن عامر ، وهو مزَيْقيا أحد ملوك اليمن ، ومن العرافين الأبلق السعدي ، وهو عَرَاف نجد ، وَرَباح بن عجلة وقد شهرها عُروة ابن حِزَام بيت قاله وهو :

جَعَلْتُ لِعَرَافِ الْيَمَامَةِ حُكْمَهُ وَعَرَافِ نَجْدِ إِتْمَا شَفِيَانِي

وكانت الكهانة والعرافة أيضاً معروفتين عند غير العرب من الأمم القديمة كالمصريين ، والكلدانيين ، واليهود وغيرهم ، ولا يزال من أثرها بقية في بلادنا إلى اليوم من أولئك الدَّجَالين الذين يعرفهم كثير من العامة ، وخاصة النساء .

بيطرة البواب

أما بصرهم بالخليل ، ومعرفة شياتها ، وأوصافها وعثقتها ، وما يُستحب من أوصافها ، وما يذم منها ، وما يتعلق بذلك من إنتاج ، وبيطرة ، فقد فاقوا فيه سواهم من الأمم ، وقد اشتهر من بياطهم غير واحد ، منهم العاصم بن وائل ، وظلت هذه المعرفة تنتقل بين بقايا البدو إلى اليوم ، وتراهم في بلادنا لا يزالون من أعرف الناس بمداواة الخليل ، وقد عقد الألويسي في كتابه [بلوغ الأرب] فصلاً في هذا الموضوع أتى فيه على كثير من أوصاف الخليل ، وعيوبها في الجزء الثالث نقله عن كتاب الخليل لأبي عبد الله الإسكافي .

القصص
والأخبار

وأما عليهم بالتاريخ والأخبار ، فقد وقع لهم فيه ما وقع لغيرهم من الأمم القديمة من اللبس والتعريف إلا ما تظاهرت الروايات على صدقه كقصة

الفيل وكأكثر أيامهم المشهورة كحرب البسوس ، ويوم ذي قار وغيره من
الوقائع المشهورة .

وكانت الديانات الشائعة في الجزيرة قبيل ظهور الإسلام بعد عبادة الأوثان
النصرانية واليهودية في اليمن ، والشام ، والبحرين ، وبعض بلاد الجزيرة .
وكان هناك الموحدون أيضاً على ملة إبراهيم . أما عباد الأوثان فكانوا يقولون
بالخالق كما قال الله في حقهم : « ولئن سألتهم من خلقهم ليقولن الله ، وإن
سألتهم من خلق السموات والأرض ليقولن الله » .

الأديان
الشائعة عند
العرب

أيام العرب ذوات الأثر في اللغة

كانت العرب العدنانية كما قدمنا بديراً أميين قد تأصلت في نفوسهم طبائع
البدو من النجدة ، وحب الغزو والميل إلى الانتقام والأخذ بالثأر ، وكان العربي
منهم حين يفتح عينيه لا يرى إلا تَأْتُقُ الأُسنة ، ولا يسمع إلا صهيل الخيل ،
رزير الوَحش ، ولم يكن لهم حَمَى يَأْجَبُونَ إليه إلا ظهور خيابهم ، ومقَابض
سيوفهم فرَسَخَتْ فيهم صفات الفُرُسية ، وقوة المِرَّاس ، وكثُر المَفْتَكُ والنهب ،
وما كان لهم مُقَامٌ بأرض وإنما كانوا يبتغون الماء ، ويرتادون منابت العُشب
ليُرْعَوْا أنعامهم التي عليها بلاغهم في حملهم وشبَعهم وريثهم ، فتنازعوا على
المرعى ، وتدافعوا على التُّجعة ، نَشَبَتْ دِراعى الخلاف التي كانت كثيراً ما تنتهى
بالاحتكام إلى السيف فانتشرت بينهم اعداوة ، وفشت فيهم الحرب وتخطف
بعضهم بعضاً ، واحتمت بعض قبائلهم بالخلاف ، وبقيت بعض القبائل الأخرى
مُتَجَمِّرة^(١) في نفسها معتزة بعصبيتها ، وكان هذا أهم الأسباب التي أدت إلى هذه
الأيام. أوالغارات المشهورة التي سنذكر منها أهم ماله علاقة بتاريخ الأدب مما

(١) الجزة القيلة التي تعتز بعصبيتها ، ولا تتألف غيرها ، وهي من النجم بمعنى التجمع
وجرات العرب ثلاث . نبة . وغير . وعيس . وبمنهم يزيد رابطة ، وهي بنو الحارث
ابن عبد المدان .

يكون اشتمل على خطبة لشريف أو قصيدة لشاعر مما يقال عادة عند أول التعبئة لاستفزاز الحمية ، وإثارة الحماسة للإستبسال في القتال . ومن هذه الأيام « حروب ربيعة » التي أشهرها حرب البسوس ، وكانت بين بكر وتغلب وهاجها البسوس مقتل كليب بن ربيعة . ذكر صاحب العقد الفريد أن كليباً هذا قاد معداً كلها يوم خزاري^(١) ففرض بهم جموع اليمن ، وهزمهم وخلعت معداً من ولاية التبابعة يومئذ فاعترفوا لكليب بالسيادة عليهم ، وأعطوه قسم الملك وتاجه ، وعبر بذلك حيناً من دهره حتى دخله زهو شديد ، وبغى على قومه لما هو فيه من عزّة ولاقياد معداً له ، حتى كان يجمع مواقع السحاب فلا يُرعى حماه ، وضربت العرب بعزّته المثل ، فقالوا « أعز من كليب » واتفق أن مرت إبل له إلى موردها بناقة البسوس بنت مُنقذ التيمية ، وهي خالة جساس بن مرة من بكر ، وكانت جارة له ، فلما رأت الإبل نازعت عقالمها حتى قطعته ووردت معها الماء ، وراها كليب فرمى ضرعها بهم ، وراحت ترغبو على صاحبها فخرجت إلى جساس فأحسسته بكلامها حتى خرج إلى كليب وهو غارٍ فقتله ووقعت الحرب وتشرّ عديّ ابن ربيعة ، وهو مهلهل للأخذ بثأر أخيه ، وكرهت قبائل بكر مساعدة بني شيبان رهط جساس وأعظموا قتل كليب في ناب من الإبل ، واتقبض الحارث ابن عباد فارس النعمانية في أهل بيته (وهو أبو بجير أو عمه) وقد مكثت هذه الحرب أربعين سنة على ما يقول الرواة ، وكانت فيها الغارة بين الرجلين والثلاثة ، وكان أعظم أيام تغلب على بكر يوم الذنائب^(٢) الذي ذكره مهلهل في قصيدته التي مطلعها :

أليأتنا بذي حُسم أننيرى إذا أنتِ اتقضيتِ فلا تحورى

ويقول فيها :

فإن يلك بالذنائب طال ليلى فقد أبكى من الليل القصير

(١) خزاري - كجبال: موضع كانوا يوقدون عليه ناراً غداة الغارة .

(٢) موضع بنجد على يسار طريق مكة كانت به وقعة بين بكر وتغلب .

فلو نُبِسَ المقابرُ عن كليب لِيخْبُرَ بالذئابِ أيُّ زير
 كأننا غُدوةٌ وبنى أينا بمجنِبِ عُنَيْزَةٍ رَحِيًّا مُسْدِير
 وإني قد تركتِ بِيَارِدَاتِ بِجَيْرِأ في دمٍ مثل العبير
 هتكت به بيوتَ بني عُبَادِ وبعضُ القتلِ أشقى للصدور
 على أن ليس عدلاً من كليب إذا برزت مُخَبَّأَةُ الخدور
 ولولا الریحُ أُسْمِعُ مَنْ بِمَجْرٍ^(١) صليلَ البیضِ تقرعُ بالذکور

اشترک
الحارث بن
عباد في الحرب
بعد اعتزاله
إياها

قالوا ولما بلغ الحارث بن عباد قتل ابنه بجير قال « نعم القتل قتيلاً أصلح الله به بين ابني وائل » فقيل له أن مهلهلا حين قتله قال « بوبشيع نعل كليب » فغضب الحارث وأحسسته بكر لذلك ، ولاسراف مهلهل في قتلهم فتولى الحارث أمر بكر ، وأوقع بتغلب في يوم قضة وهو يوم تحلاق الأمم ، وأسر مهلهلا وهو لا يعرفه ، ثم أطلقه وفي ذلك يقول الحارث حين تجهز لهم ، أبياته المشهورة التي أولها :

قرباً مَرَبِطِ النعمامة مني لَقِحتُ حربُ وائلٍ عن حِيَالٍ
 لم أكن من جُنَاتِهَا عَلِ اللهُ وإني بِمَجْرِّهَا اليومِ صَالٍ
 لا يُجِيرُ أغنى قتيلاً ولا رَهْطُ كُليبٍ تَزَاجروا عن ضلالٍ
 يا بُجَيْرَ الخيراتِ لا صلحَ حتى أَملاً السَّهْلِ من زُروسِ الرجالِ

روى صاحب الأغاني عن رواه :

قالوا لما قتل كليب اجتمع نساء الحى المأتم فقلن لأخت كليب : رحلي جليلة عن مأتمنا ، فإن قيامها فيه شماتة ، وطار علينا عند العرب ، فقالت لها يا هذه اخرجي عن مأتمنا فأنتِ أختُ واترنا ، وشقيقة قاتلنا ، فخرجت وهي تجر أعطافها فلقيها أبوها مرةً ، فقال لها : ما وراءكِ يا جليلة ؟ فقالت : تُكَلُّ العَدَدِ وَحُزْنُ الأَبْدِ ، وقد حَامِلٌ ، وقتل أُمِّخ عن قليل ، و بين ذين غرسُ الأحقادِ وتقتتُ الأَكبادِ . فقال لها أبوها : أَوَ يَكْفُ ذلكِ كرمِ الصَّفحِ وإغلاء الدِّيَاتِ ؟ فقالت :

محاورة بين
أخت كليب
وأمراته جليلة
وما أجابت
به أباه مرة

(١) قصبة اليمامة ، (٢) الحبال بكسر أوله : امتناع الحمل .

أمنيته مخدوع ورب الكعبة ! أبا لبدين تدع لك تغلب دم ربها ؟ ؟
قالوا ولما رحلت جليلة قالت أخت كليب : رحلة المعتدى وفراق الشامت ،
ويل غدا لآل مرة من الكرة بعد الكرة . فبلغ قولها جليلة فقالت وكيف
تسمت الحرّة بهتك سترها ، وتربق وترها ! أفلا قالت : نفرة الحياء ،
وخوف الاعتداء . . . ثم أنشأت تقول (هو من أبرع ما قيل في معناه) :

موقف جليلة
من أخيها
وزوجها

يا ابنة الأرقام إن شئت فلا . تعجلى باللوم حتى تسألى
فإذا أنت تبينت الذى يوجب اللوم فلومى واعذلى
إن تكن أخت امرئ ليمت على شفقى منها عليه فافعلى
جل عندى فعل جساس فىا حسرتى عما انجلت أو تنجلى
فعل جساس على وجدى به قادم ظهرى ومدن أجلى
يا قتيلا قوض الدهر به سقق بيتى جميعاً من على
هدم البيت الذى استحدثته وانثنى فى هدم بيتى الأول
يا نساءى دونكن اليوم قد خصنى الدهر برزء معضل
خصنى قتل كليب بلظى من ورأى ولظى من أسفل
ليس من يبكى ليوميه كمن إنما يبكى ليوم مقبل
يشتفى المدرك بالثار وفى درك ثارى ثكل لشكل
إننى قاتلة مقتولة ولعل الله أن يرتاح لى

ومن هذه الحروب حرب داحس والغبراء بين عبس وذبيان « وداحس فارس (١) وقيس بن زهير العبسى ، والغبراء حجر حمل بن بدر » ، وكان الذى هاجها أن
قيساً وحملًا تراهننا على فرسيهما ، وجعلا الرهان مائة بعير للسابق منهما ، ثم
قادها إلى رأس الميدان بعد أن أضمر وها أربعين ليلة وفى طرف الغاية شعاب

(١) وفى بعض الروايات : أن الفرسين لقيس ، وأن الفزاريين أجروا معهما فرسين

لحديقة بن بدر هما الخطار والحفاء .

كثيرة ، فأمكن حمل بن بدر في تلك الشعب فتيانا على طريق الفرسين ،
 وأمرهم إن جاء داحس سابقاً أن يردوا وجهه عن الغاية ثم أرسلوا الفرسين ، فلما
 شارفا الغاية ، وهي ذات الإصَاد (اسم لقياب بين هضب في ديار نجد) برز
 داحس ، فوثب الفتيمة فلطموا وجهه فردوه عنه ، وتشاحن قيس ، وحذيفة أخو
 حمل بن بدر على السَّبَق ، ثم دفعه حذيفة إلى قيس ، وسكن الناس ، ثم بدا
 لحذيفة بعد ذلك ونذمه الناس ، فأرسل ابناً له يسترد السَّبَق من قيس ، فقتله
 وأوشكت الحرب أن تقع ، ولكن القوم اجتمعوا ، فاحتملوا ديتة إلى حذيفة ،
 وسكنوا إلى أن استغرد حذيفة أخا لقيس هو مالك بن زهير فقتله ، فقامت الحرب .
 وعاد الربيع بن زياد العبسي إلى قومه ، وكان بينه وبين قيس بن زهير شحنة ،
 فتصالحا واجتمعا على قيادة عبس في هذه الحروب ، وإلى هذا السبب يشير
 قيس بقوله :

اشترك
 الربيع بن
 زياد مع قومه
 في الحرب

ألم يأتِكَ والأبناء تنعى بما لاقت لبون بني زياد
 ومحبسها على القرشي تُشرى بأدراع وأسيف حداد
 كما لاقيت من حمل بن بدر واخوته على ذات الإصَاد
 همو: فخرُوا على بغير فخر وردوا دون غايته جوادى

يوم المرقب وكانت بينهم أيام كثيرة من أشهرها يوم المرقب من أرض الشربة في
 ديار غطفان ، وهو لعبس على ذبيان ، وفيه قتل عنزة الفوارس ضمناً المرثى ،
 وهو القائل يتوعد ابنه حُصينا وهَرما ، وبلغه أنهما يشتمانه وينذران دمه :
 ولقد خشيتُ بأن أموت ولم تذر للحرب دائرة على ابني ضمضم
 الشائمي عريضي ولم أشتههما والناذرين إذا لم القهما دمي
 إن يفعلوا فاقم تركت أباهما جزر السباع وكل نسر قشقم

ثم يوم ذي حسي ، وهو واد من أرض الشربة ، وهو لذبيان على عبس ،
 ثم يوم الهباءة ، ويُسمى أيضاً يوم جفر الهباءة (والجفر البئر الواسعة أوهى

مستنقع في ديارهم) وفيه قتل حذيفة وحمل ابنا بدر الفزاريان ، وعظم عند الناس قتل حذيفة ، وتفاقم الأمر ، وطالت على الحيين الحرب حتى ملوا فسعى بعض الأنراف بينهم بالصلح ، وتقدم إلى ذلك الحارث بن عوف^(١) ، وهرم بن سينان بن أبي حارثة المرسي ، فاحتملا ديات القتلى في أموالهما ، وسكنت هذه الحروب التي دامت زمناً طويلاً ، وإلى هذا أشار زهير في معلقته بعد ما حض على السلم ، وعظم من رزايا الحرب قال :

الحارث بن
عوف وهرم
ابن سينان
يسعيان في
الصلح

لعمري لنعم السيدان وجدتما
على كل حال من سحيل ومبرم
تداركتما عبساً وذُبِيانَ بعد ما
تفانوا ودقوا بينهم عطر منشم

(ومنشم امرأة عطارة في الجاهلية ذكروا أن قوماً خرجوا في حرب فمسوا طيبها ، فانهزموا وقتلوا فتشاءم الناس بها) .

ولقيس بن زهير شعريثي به قتلى الهباءة ، ولعله أول من فعل ذلك بمقتوله وهو قوله :

رثاء قيس بن
زهير لقتلى
الهباءة

تعلم أن خير الناس ميتاً
على جفر الهباءة ما يريم
ولولا ظلمة ما زلت أبكي
عليه الدهر ما طلع النجوم
ولكن الفتى حمل بن بدر
بغى والبغى مرتعه وخيم
أظن الجلم دل على قومي
وقد يستجهل الرجل الحليم

(١) وفي الأغاني في ترجمة زهير بن أبي سلمى: أن الحارث بن عوف هذا رحل إلى أوس بن حاوثة بن لام الطائي. يخطب عليه إحدى بناته فردّه ، ثم لامته امرأته فعاد إلى الحارث ، فاعتنر إليه وزوجه من صغرى بناته يهسه بمد أن عرض أمره على أختها فأبتاه ، وأنه أرادها عند أبيها ففنته ، ثم نازعها إلى نفسها في الطريق إلى حبه فردته أيضاً حتى رجع بها إلى قومه فأولم لها ودعا الناس ثم دخل إليها ، قالوا فقالت له : أنتنغل بالنساء والرب يقتل بعضهم بعضاً ؟ وذلك في آخر أيام داحس والبراء ، فخرج فأصلح بين الحيين مع سينان بن أبي حارثة ، أو هرم ابنه على ما هو مروى ، ونحن نرجح ألا يكون هذا وحده هو السبب فيما خلده الحارث لنفسه من هذه الأكرومة .

وكان قيس بن زهير سيداً داهياً ، ويسمى قيسَ الرأي ، وهذه الحروبُ من حُرُوبِ مُضَرَ .

يوم شعب
جيلة

وكان إماماً وعَبَسَ على ذُبْيَانَ وتَمِيمَ ، ويعد من أعظم أيام العرب وأكثرها جموعاً ، حدث قبل الإسلام بأربعين سنة ، وفيه أَلَبَ لَقِيَطُ بن زُرارة جموع العرب وأملاكها على بني عامر وبني عبس . فأرسل معه الجون الكلابي ملك هجر ولديه ، وخرج معه حَسَّانُ أخو النعمان بن المنذر لأمه ، وسِنَانُ بن أبي حارثة وغيرهم من الرؤساء .

وكان الأحوص بن جعفر وهو راحاً هو أزن وشيخها - قد استشار قيس بن زهير ، فأشار عليه بإحدى دواهيته في مكاييد الحروب . وذلك أنه أمره بإدخال النساء والذراير في الشعب ، وإظماء الإبل ، ومنعها من المرعى حتى إذا جاءت هذه الجموع ، ودخلت عليهم فَمَ الشعب أطلقت الإبل من عُقلها ، وأخذ الرجال بأذنانها فانها تحن إلى مواردها ، فتتحد من الجبل ، فتحطم كل شيء ، والرجال معها والفرسان والخيل من ورائهم . وقد صدق رأيه ، فان لقيطاً ومن معه اقتحموا عليهم فَمَ الشعب ، ففعلوا ما أشار به قيس فكانت الهزيمة ، وقتل لقيط وأسر أخوه حاجب وقتل معاوية بن الجون الكلابي ، وفي ذلك تقول دُخْتَنُوسُ ترثي أباها لقيطاً :

فَرَّتْ بنو أسدٍ فِرَا رَ الطيرِ عن أربابها
عن خير خندفٍ كُلِّها من كهلها وشبابها
وأتمها حبسباً إذا ضُمَّتْ إلى أحسابها

ويقول جرير :

ويومَ الشعبِ قد تركوا لقيطاً كأنَّ عليه حُلةَ أَرْجُوانِ
وكبَّلَ حاجِبٌ بِشَمامِ حَوْلَا فَخَكَّمْ ذَا الرُقَيْبَةِ وهو عَانِ

وذو الرقية هو الذي أسره .

أيام الفجار . ومن أيام العرب الفجار ، وهي أربعة أفرجة ، وكانت قريش ومن معها من

كنانة على هوزان في هذه الأيام ، وكان أهمها الفِجَار^(١) الرابع ، وهاجه قتل
البراض الكِنَانِي عُرْوَةَ الرَّحَال ، مُجِيرَ لَطِيمَةَ النُّعْمَانِ بْنِ الْمُنْدَرِ (وهي غيرُ عليها
قُطْفٌ وَبَرٌّ كَانَ يَرْسِلُهَا النُّعْمَانُ إِلَى أَسْوَاقِ الْعَرَبِ تَبَاعُ لَهُ ، وَيَسْتَبَدِلُ بِهَا مِمَّا
فِي هَذِهِ الْأَسْوَاقِ مِنْ أَدَمٍ وَمَتَاعٍ) وَكَانَ عُرْوَةَ سَيِّدًا مَطْلَبًا ، وَالْبَرَّاضُ خَلِيعًا
لَيْسَتْ لَهُ نِبَاهَةٌ وَلَا شَرَفٌ ، وَقَدْ شَهِدَ النَّبِيُّ بِمَعْضِ هَذِهِ الْحُرُوبِ ، قَالَ النَّبِيُّ صَلَّى اللَّهُ
عَلَيْهِ وَسَلَّمَ : كُنْتُ أَنْبُلُ عَلَى أَعْمَامِي وَأَنَا ابْنُ أَرْبَعِ عَشْرَةَ سَنَةً ، وَقِيلَ أَكْثَرَ مِنْ
ذَلِكَ (يَعْنِي يَنَاطِلُهُمُ النَّبْلُ) وَإِنَّمَا سُمِّيَتْ هَذِهِ الْأَيَّامُ الْفِجَارَ لِأَنَّهَا وَقَعَتْ فِي
الْأَشْهُرِ الْحَرَمِ ، وَهِيَ عِنْدَهُمْ : ذُو الْقَعْدَةِ وَذُو الْحِجَّةِ وَالْمَحْرَمِ وَرَجَبٍ ، وَكَانُوا
يَتَنَاهَوْنَ فِيهَا عَنِ النَّارِ وَالْحَرْبِ .

ومن حروب الأوس والخزرج ، وهم سكان يثرب أو المدينة أنصار النبي صلوات
الله عليه في الإسلام ، يوم بُعِثَ ، وهو أعظم أيامهم (وبعث في ديار بني قُرَيْظَةَ
من اليهود ، وفيه مزرعة لهم تسمى قُورَى) وكان لليهود يثرب من بني النَّضِيرِ وَبَنِي
قُرَيْظَةَ شَأْنٌ يَذْكَرُ فِي إِعَانَةِ الْأَوْسِ عَلَى الْخَزْرَجِ بِسَبَبِ غَدْرِ عَمْرِو بْنِ النُّعْمَانِ

(١) وقد كان بعض هذه الأيام على قريش وأحلافها وبعضها لها على هوزان ،

وهو يوم عُكَاظَ ، وإلى ذلك يشير ضرار بن الخطاب البهري بقوله :

ألم تسأل الناس عن شأننا ولم يثبت الأمر كالحابر

غداة عكاظ إذا استكملت هوزان في لفها الحاضر

وجاءت سليم تهز القنا على كل سلهبة ضامر

وجئنا إليهم على المضمرات بأزعن ذي كجب زاجر

فلسا التقينا أذقناهم طمانا بسمر القنا العائر

فقرت سليم ولم يصبروا وطارت شعاعا بنو عامر

وفرت ثقيف إلى لايتها بمنقلب الخائب الخاسر

ولغير ضرار شعر في هذه الحروب ! كتفينا بهذا منه .

البياضى برهائن اليهود التي كانت عند الخزرج على ألا يمينوا عليهم أخوتهم من الأوس .

وكانت الرؤساء يومئذ حُضِرَ الكتائب الأشهلى على الأوس ، وكان أمرهم قبل ذلك إلى أبي قيس بن الأملت الوائلى ، وعلى الخزرج عمرو بن النعمان البياضى ، وفي هذا اليوم انهزمت الخزرج وأصاب حضير الكتائب جراحات شديدة مات متأثراً بها بعد ذلك اليوم ، فقال خُفَّاف بن نَدْبَةَ يرثيه وكان صديقاً له فى الجاهلية :

أتانى حديثٌ فكذبته وقيل خليك فى المرّسِ
فيا عين بكى حُضِيرَ الندى حُضِيرَ الكتائبِ والمجاسِ
ويومٍ شديدٍ أوارِ الحديدِ تقطعُ منه عراً الأُنسِ
فأودى بنفسِكَ يومُ الوغى ونقى ثيابِكَ لم يدنسِ

وكان هذا اليوم قبيل الهجرة بنحو خمس سنين .

ومن الحروب التي وقعت بين العرب وغيرهم يوم ذى قار ، وهو ماء قريب من البصرة ، وكان بين العرب والفرس ، وهو أعظم أيامهم ، وكان سببه على ما يذكر الرواة أن كسرى استقدم إليه النعمان بن المنذر فى المدائن ، ثم غدر به وقتله ، وفى ذلك اليوم خطب هانىء بن قبيصة الشيبلى يحرّض قومه بكرّاً على القتال بقوله :

يوم ذى قار

« يا معشرَ بكرٍ ! هالكٌ معذور خير من ناج فرور ، النيةُ ولا الدنية ، استقبال الموت خير من استدباره ، وإن الصبرَ من أسباب الظفر . قاتلوا فما للمنايا من بُدّ ، » وكان هذا اليوم بعد مبعث النبي صلى الله عليه وسلم « وأخبر به أصحابه فى حديث مروي أن هذا أول يوم انتصفت فيه العرب من المعجم وبى نصروا » وقد أكثر الشعراء من ذكر هذا اليوم ، ومن ذلك قول الأعشى من قصيدة :

لو أن كل مَعْدٍ كان شاركنا . في يومِ ذى قار ما أخطاهم الشرفُ
لما أمالوا إلى النشابِ أيديهم . ملنا بيضٍ لمثل الهامِ تختطفُ
بطارقٍ وبنو ملكٍ مراريةً . من الأعاجمِ في آذانها الشنفُ
كأئما الآلُ في حافاتِ جمعهم . والبيضُ برقُ بدأ في عارضٍ يكفُ
مافي الحدودِ صدودٌ عن سيوفهم . ولا عن الطعنِ في اللبّاتِ منحرفُ

وللعرب غير ما ذكرنا أيام كثيرة يطول علينا استيعابها ، وقد استوفى معظمها صاحبُ العقد ، ومنها في كتب الأمثال والأغاني وابن الأثير شيء كثير ، فإرجع إليه من أراد .

وقد كانت هذه الحروب كما قدمنا من أعظم المواطن التي تهيج فيها النفوس بالشعر لتحريض على القتال ، وللتنوّح على القتلى ، والافتخار بالانتصار ؛ والشعر كما يقولون : يوحيه الحبُّ والحربُ والموتُ .

النثر الجاهلي والشعر

وأيهما أسبق من صاحبه

من حق هذا البحث أن نصدّره بكلمة موجزة عن الشعر لا نعرض بها إلى مذاهب العلماء فيه ، ولا لاختلافهم في تحديد معناه ، فإن لذلك موضعه من هذا الكتاب . ولكن شيئاً له خطره من خصائص الشعر هو الذي نعرض بهذه الكلمة للقول فيه ، وهو ما أجمع العلماء عليه منذ عرف ذلك الكلام المنظوم في لغات الإنسان ، وذلك أنهم متفقون جميعاً على أن يكون لهذا النوع لرفع من الأدب لغة خاصة ممتازة ، وعلى أن تكون هذه اللغة بحيث تتسع جوانبها لمطرح الخيال الشعري ، وتنهض مادتها بكفاية الشاعر المتخير للفظ الكريم ، والقول الجزل ، وعلى أن يكون له في الجملة حظ من الجمال الفني غير يسير ، وهو عندهم كالغناء والتصوير ، ويشبهون بناظم الدرّ ناظم الكلام ، فلا جرم كان الشعر بهذا الاعتبار - والعرب لا تعرفه إلا متحلياً بإيقاع الوزن ، ومسبوكاً في نظام القافية - يعدّ حضارة في اللغة ، وزينة في بيان المنطق ، وحلية حادثة في الأدب . وإذا ليس من القول أن يكون الشعر خطراً في هذه الحلة هكذا على ظهر الزمان قبل أن يكون النثر المتحرّر من هذه القيود قد ذهب مذاهبه ، وأخذ من الحياة حاجته ، ولكن رأياً جديداً لمحض الخلاف على الناس يزعم صاحبه أن هذا الشعر مشى على قدميه في الأمم القديمة ، وما زال كذلك يمشی قُدماً في الأمم الحديثة قبل أن يتخاق النثر ، وقبل أن يولد بأدهار طوال ، ثم يعود فيخفف من هذه الغلواء بأنه يعني ذلك النثر الأدبي الذي يظهر فيه أثر التعقل ، وعمل الروية . ويتصل بذلك الجمال الفني الذي يعمد به صاحبه إلى التأثير في النفوس ، وكأن الشعر عنده ، وله ماله مما أسلفنا آنفاً محروم من أثر التعقل فارغ من تدبير الروية

وليس في شيء من قوة التأثير ولا جمال الفن ، وهذا ضرب من لغو الحديث قامت فيه هذه الفكرة على أوهام ثلاثة :

الأول : هذه الدعوى بأن الأمم القديمة والحديثة تغنت ونظمت الشعر قبل أن تعرف هذا النثر بزمن طويل ، ويوشك أن يكون هذا النثر الأدبي لم يوجد إلا حين شاعت في الناس هذه الظاهرة الصناعية التي يسمونها الكتابة ، وهذه الدعوى قد لا تدل على شيء أكثر من أن النثر في هذه الأمم القديمة ذهب مع أنفاس المتكلمين به في طيات انقضاء ، ولم يتوافر له من عناية الحفاظ ، ونقل الرواة مثل ما توافر للشعر ، لكثرتة ولسرعة تبدده في الاستماع ، وشدة المثونة في حفظه على الناس ، والأمر ليس كذلك في الشعر لما فيه من لطف المداخلة للنفوس ، والموافقة للطباع ، ولما له من مشاكلة النغم ، وتوافق الجرس ، وحلاوة الإيقاع والوزن ، ولأنه أدب منظوم ، وما زال المنظوم من كل شيء أمتع للنفس وأحلى على القلوب من المنشور من جنسه ، وإذا تأملت رأيت النظام هو سرّ الجمال في مظاهر الوجود حتى في الجماد والحجر .

ونحن مع هذا ان لم تدعنا الجرأة الى الحكم على أدب الأمم الأجنبية القديمة والحديثة نستطيع أن نجعل العرب أنفسهم مقياساً لهذه الأمم إذ كانوا شركاءهم في هذه الموهبة التي لا تختلف في جوهرها في بعض هذه الأمم عن بعض ، ونحن نعلم أن العرب في صدر الاسلام وسعت لغتهم هذين الأدبيين ، ودانت فنونها لجهاذة الكلام ، ومصانع الخطباء ، وسفرت محاسنها لخيال الشعر . وتتابعت عصور الأدب من أموية وعباسية إلى وقتنا هذا ، وهي حافلة بكبار الكتاب ، وفحول الشعراء ، والأدبان متعاصران ، وللشعر قوم يسرونه في الآفاق ، وللأدب المنشور آخرون يذيعونه في الناس ، وفي مصر وغيرها من الأقطار العربية الكتاب والشعراء متطاردون في حلبة الأدب كقبرسي زهان ، وما علمنا أن جيلاً من هذه الأجيال تغنى ، ونظم الشعر ، ثم مضت به الدهور حتى استطاع أن يقول النثر المحبذ والكلام المأثور .

وبعد : فقد نزل القرآن بلغة قريش ، وجزى على المؤلف من أفصح الأساليب العربية ، فهل كان الذي بهر العرب من بيانه وأعجزهم عن معارضته أنه فاق في أعينهم ما كانوا يتبادلونه من الأحاديث المبتذلة والعبارات المقتضبة ، ولم يكن فيهم جدل : ولا لهم بيان مهذب ، أو أدب ممتاز .

وأى فضل يبقى للقرآن بعد أن يكون إنما يوزن بهذه اللغة الضائعة في تضاعيف الحديث المبتذل في شئون الحياة ، التي تكرم مع الانسان في الاصبح والامساء ؛ ألا إنما عارض القرآن هذه المعارضة القوية ، وتحدى ذلك البيان المأثور في بلاغات الخطباء ، ومساجلة الخصوم ، ومقارعة أهل الجدل من قوم كان الكلام سيد عملهم ، وأفضل صناعة في أيديهم ، فعجزوا والعُدَّة حاضرة ، والشمل مجتسع . وكذلك تكون معجزات الأنبياء من جنس الصناعات الشائعة في أزمانهم كالسحر في آل فرعون ، والطب في بني اسرائيل ، وهذا البيان في العرب ليكون العجز من المعارضين مع فضل القدرة ، وتعاطى لهذه الصناعة ، دليلاً على صدق النبوة ، وذريعة دافعة إلى الاذعان .

الثاني : ومن الأوهام التي بنيت عليها الفكرة ، القول بأن الشعر حين ضاقت أوزانه بمظاهر العقل الانساني دعا ذلك إلى التحلل من هذه القيود ، وإرسال الكلام منشوراً متعملاً على ما يدعو الطبع وتمس إليه الحاجة ، ومعنى ذلك أن الناس كانوا أولاً يشعرون ، ثم أنه لما خرج العقل من سداخته ، وانبسط آثار القرائح على ألواح الكون ، عاد الناس فتفككوا من هذه القيود والأوزان ! أى أن اللغة حين فارقت دور الحماكة والإشارة ، وتمسك لها قوام لفظي مداه أن يقوم بالتفاهم الضروري للحياة ، دب إليها الشعر بأوزانه وقوافيه ! وما أشبه هذا القول بمن يزعم أن الإنسان كان يسكن البيوت ، ويحتجز دون الأسوار ، ويعتقل بالآطام والحُصُون ، وكانت له حدود وأوزان من النظام الاجتماعي دعاه تعقله الواسع بعد ذلك إلى أن يأنف من هذا الضيق ، وينطلق من تلك الأسوار ويطلق ذلك النظام الاجتماعي ، فيغور في الصحراء ، ويتطرح على مجاهل الأرض ،

ويخسف الله به، فيعود من كمال إلى نقص، ومن نظام إلى فوضى!! والاستدلال على فساد هذا الوهم لعب بالأفهام، وإضاعة للنفيس من الوقت.

الثالث: القول بأن في البيئات المنحطة، وفي أقاليمنا المصرية من ينظمون الشعر بغائتهم العامية، وهم لا يحسنون شيئاً من هذا النثر إلا إذا أخذوا بحظ من التعليم، وهذه أيضاً مشاهدة ناقصة إذ أن الذين يلبسون العامة، ويدخلون أهل القرى، يعرفون في لحن كلامهم أن منهم من هو سمح اللفظ قريب الأعراب له قصص، وله فصاحة على قدره في عاميته، كما أن منهم القدم الجافي الذي يعيا بالإبانة عن أهون مافي نفسه من المعاني، هذا وذاك يوجدان في العامة كما يكونان في الخاصة. ومن قال ان فطرة الشعر أو طبع الأدب وقف على فئة من أجناس الناس دون فئة، وانها لا تكون إلا في الخاصة دون العامة، وفي المتعلمين دون الجهلاء؟ أنها كما توجد في هؤلاء توجد في أولئك لأنها خلقة موهوبة أو ملكة متوارثة، وما هو إلا أن تأخذ لسان هذا الجاهل الذي يظهر منه شعور الشعر، أو فصيح المنشور العامى، فتضعه على فصيحة غير عاميته، حتى يخرج منه الشاعر، أو الكاتب المضارع للفحول المقدمين من الشعراء والكتاب، وليس الأدب هو الشعر وحده، وإنما هو هذا الطبع الذي يكون في أحد من الناس شعراً وفي غيره انشاء وترسلا، ومن الناس من يوهب فطرة الشعر فهو دهره لا يحسن أن يكتب، وان فعل جاء له من النثر المتكلف أو المسجوع ما لا يكون شعراً، ولا يبلغ أن يكون نثراً مطبوعاً، ومنهم من هو منشىء ومرسل فهو أبداً كاتب أو خطيب، ولا يحسن أن يكون شاعراً، ويندر جدا أن يجمع الواحد بين الموهبتين، وتستوى بلاغته في الأدبين - فطرة الله التي فطر الناس عليها -.

والقول الفصل في هذا الموضوع أن ظهور الشعر في الأمم القديمة لا ينبغي أن يحمل في جملته على شيء أكثر من أنه هو الذي وعته الصدور، وتوارثته الأعقاب، وظفر من عناية الحفاظ، وتناقل الرواة بما لم يظفر بشيء من مثله النثر، فضع على كثرته، ولم يبق منه إلا قليل يوشك أن يكون شيئاً لا يذكر بجانب ما حفظ.

من الشعر لما بيناه ، ولما كان الأمية عند العرب خاصة ، وعند أكثر الأمم القديمة عامة ، وهذا بعينه لا يزال شأن الشعر والنثر حتى في العصور التي نشت فيها الكتابة ، وتوافرت آلات التقييد والحفظ ، فخطباء العرب وكتابهم في صدر الإسلام ، وفي سائر العصور العربية ، وفي عصرنا هذا لا يجد كلامهم من حظ العناية ، وحرص الناقلين ما يجد الشعر من ذلك ، وهم على هذا عماد الملوك ، وضباط الجبايات ، ووزراء الدواوين ، وطلائع الانقلابات في كل أمة ، وفي كل عصر ، والتاريخ أعدل شاهد : أما أن يكون الناس قد وقع لهم في منشورهم قديماً ما يشبه الشعر في لطف خياله ، وحسن تصويره ، فلا يزال هذا من الأدب المنشور كما قال حسان لابنه^(١) ، وكما قيل لبشار في أبياته في المشورة تقریظاً لكلمته (أن المشاورَ بين صواب يفوز بثمرته ، أو خطأ يشارك في مكروهه) أنت في هذا أشعر ! ودعوى المجازفين بهذا الفرض أنهم إنما يقصدون بالنثر صناعة الكتابة تعتبر هرباً من التحقيق ، وفراراً من إقامة الدليل ، إذ لا خلاف بين الناس في أن النثر بهذا المعنى متأخر في الظهور عن الشعر ، على أن بعض كبار المستشرقين من علماء الألمان كجلد زهر وبروكلان ، على الرأي القائل بأن السجع كان المرحلة الأولى التي عبرها النثر إلى الشعر عند العرب كما سيأتي .

ونعود فنقول إن كلا من الأدبين يفيض عن الطبع ، ويتصل بعواطف النفوس ، وهما يقاسمان بقية الفنون الجميلة وظائفها الطبيعية من نقل صور الأشياء ، وتمثيل صفاتها وخصائصها وألوانها في جمالها ودماستها ، من غير تشويه ولا مجاملة ،

(١) وكان قد لسمته نخلة أو نحوها ، وجاء أباه يبكي فاستوصفه ما أصابه ، فقال : كأنه ملتف في برد حبرة ! فقال له شعرت يا بني . وكما قال لبيد لابنته حين قالت لوليد أمير الكوفة فيما ردت به من أبياتها عن أبيها :

فعد إن الكريم له معادٌ وظنى بابن أروى أن يعودا

فقال لها أبوها : أحسنت يا بنية لولا أنك استطعتي ، فقالت : يا أبتى ان الملوك لا يستجيا من مسألهم . فقال لها : وأنت في هذه أشعر .

بزيادة أو نقص ، وإن الأديب المطبوع بلطف تأليفه وسلامة أقسامه ، يريك من الحروف والكلمات شمائل الأشياء ، وصور الكائنات ، ويتجاوز ذلك إلى تحصيل المعاني الوجدانية ، التي قلما تناولها تهاويل النقش ولا أصباغ التصوير ، وكان الأدب من هذه الناحية أرقى طبقات الفنون وأكثرها أثراً في النفوس ، وهو بلا ريب نتيجة الهبة الفطرية المتصلة بمشاعر النفس وقوة الخيال ، لا يختلف فيه الشاعر والكاتب إلا بأن يكون في أحدهما كلاماً موزوناً ، وفي الآخر طليقاً مرسلًا ، ينفذان كلاهما عن الخيال ، ويصدران عن الطبع ، ولا يحرمان جميعاً عمل العقل الذي يمثل في الموازنة المفضية إلى خلوص صفحة الأدب من بعض ما يكون فيها من المهجنة أو خطأ الفكرة . ولوصح أن تكون قوة العقل مصدرًا لأحد الأديبين لكان أولئك الرياضيون ، وعلماء الفلك والتبحرون في علوم الطبيعة والمنطق والفلسفة كتابا أو شعراء ! والأمر ليس كذلك ، بل التجربة الواقعة تدل على أن الذين تنضج عندهم قوة التفكير ، يضعف فيهم التخيل وتحميل الحافظة ، والذين يسمو خيالهم يقصر مداهم في التفكير ، ويقل تعمقهم في البحث . وكذلك قوى النفوس لا تستوى في أحد إلى درجة من الرقي واحدة إلا أن يكون من أفاض الحلقة الحارقة للعادة .

وإنك لتري أكثر ما يغلب على الأديب ، أن يكون هادئ الفكر ، نقوراً من الاستقصاء ، قليل الإيمان في استخراج المعاني من مظانها البعيدة المجهدة ، إذ كانت وظيفته الاسفار عن محاسن الوجود ، وتمثيل ما يتصل بالاجتماع من ألوان الأخلاق والعادات ، وتوجيه الرسالة دائماً إلى العاطفة النافذة من سماجة الفلسفة ، بثقل التكاليف العلمية والمباحث العميقة ، وحسبه أن يصف السماء والأرض وما بينهما من غير أن يقول : إن هذا الأديم الصافي المحيط بالأفق وهم لا وجود له ناشئ من خطأ النظر ، وإنما هو طبقات الهواء المتكاثف ، ولا أن يتناول شيئاً من نبات أو حيوان ، فيذكر فصائله ، ويعلل لقاحه كما يفعل علماء النبات والحيوان ، وذلك الذي جعل النقاد من أهل الأدب يعتبرون أمثال أبي تمام وأبي الطيب والمعري حكماً ، وإنما الشاعر البحتري .

ومن جهة اتصال الأدب بالحياة البشرية صحّ اعتباره كذلك موجوداً حياً ،
يتختم أن يتعرض وجوده لأدوار النشوء والارتقاء ، وأن تكون له طفولة تاريخية ،
شأن جميع الموجودات الحية ، لم يكن يزيد فيها على أن يكون جملة أوجنتين
يتصلان بفيض الشعور ، ويحملان بعض ما في الوجود من الجمال .
وحيث كان الأدب كله كلاماً منشوراً مضى في هذه النشأة دهنياً لم يتميز فيه
أحد قسميه عن صاحبه ، حتى أصغى الإنسان إلى تلك الطبيعة الراقصة الغنية
بضروب من الإيقاع والنغم على مضاربها وأوتارها المختلفة . وما لبث أن اختمر
الطرب في نفسه ، فأرسله على نبرات صوته كهتاف الحائم ، وبغأم الأطباء ،
وتناوح الرياح ، ثم أنف أن يكون يضاهي الحيوان الأعجم فعمد إلى تصوير تلك
السذاجة الصوتية كلاماً مفهوماً موقفاً على تلك المسافات المتساوية من ثقرات
الحوافر ، ودقات الأخفاف ، فنشأ الوزن ، وتولدت الأقسام في الكلام ، وهي
طفولة الشعر المتمثلة في صورة الفقر القصيرة من الأسجاع الموزونة والفواصل
المتساوية ، وكان السجع بالطبع كالفصل لذلك الوليد الناهض حتى تحرك ،
وأخذت تتمدد به أوزانه الواسعة ، وأعارضه المختلفة ، وامتاز حينئذ عن سائر
الكلام المنشور ، على الأقل بالوزن الذي لا يخلو منه في لغة من لغات الناس .
وإذا كانت نشأة الأوزان متأخرة في الظهور عن الإرسال والبسط للكلام ،
وكان الشعر بهذا الاعتبار متولداً من النثر ، ومتأخراً عنه في الوجود ،
ولا يقال إنه كان في ذلك الوقت شعراً فنياً يقابل كلاماً متبدلاً لما يترتب على
ذلك من أنه يكون ولداً مخلقاً كاملاً مناقضاً لسنة الوجود في جميع الأشياء وهو كما
يرى كلام ظاهر الفساد والبطلان .

ومن هنا يتبين خطأ التقليد وسوء النقل من المتبعين لآراء الأفرنج وهم
ينسبونها كذبا مع هذا لاختراعهم ، واحتيال عقولهم في درس نظريتهم القائلة
بظهور الشعر في الآداب القديمة قبل النثر ، لأن ذلك على ما يظهر محمول على أنه
كان قايلاً طريفاً مكنت العناية من الاحاطة به ومن تدوينه ، وخفت المثونة

على الناس في تحمله وروايته ، وهو شأنه في كل أدواره التاريخية ، قلنا يساويه
النثر في حظه من هذه العناية . وأنت تجد لكل شاعر ديوانا يتناوله العلماء
بالتأويل والشرح حتى المتشاعرين من أدعياء زماننا ، ولا تجد لأبلغ الكتاب
إلا متفرقات في بطون الكتب ، لا تعد شيئاً بجانب ماضع من آثارهم وثمرات
قرائحهم ، وهذا جرير والفرزدق والأخطال ، ولكل منهم ديوان حافل ، قد زها
زمانهم بجهاذة البيان المنشور ، كزياد والحجاج وعبد الملك وابن صفوان وأضرابهم ،
وليس بأيدي الناس من بلاغاتهم على سعة شهرتهم وامتداد حياتهم ، سوى هذه
الخطب القليلة و بعض النثف المتضبة من رسائلهم وأحاديثهم ، ويمضى بك التنقير
في عصور الأدب ، فلا تجد حظ النثر من التدوين إلا على هذا النمط الذي بيناه
لك حتى في أجمع الكتب لأشتات هذا الأدب من أمثال الأغاني وأشباهه .

ولعلك تقول : فما بال هذه المؤلفات النافعة وتلك الكتب العلمية لا تكون
دواوين لهذا النثر؟ وما بحسب أن أحداً من الناس يقول إن مؤلفاً في النحو
والاشتقاق ، ولا جاهماً في الأصول أو الفلسفة ، ولا كتاباً في الكيمياء والمنطق ،
بل ولا محيطاً من جوامع اللغة يضح أن يسمى نثراً أدبياً . وأنت تعرف أن
لهذه العلوم والصناعات حدوداً واصطلاحات تخضع لها الأقلام ، وترتبط بقوانينها
اللغات ، إلى ما يتصل بأبحاثها دائماً من أثر الفكر المتعمق والمبالغة في بحث بواطن
الأمور وعلل الأشياء ، وما يزال الأدب المنشور مستثقلاً لهذه المثونة كارهاً كما
قدمنا لهذا الاستقصاء . وإنما يكون أدباً مطبوعاً إذا كان سهلاً ممتنعاً صادراً
عن شعور النفس ، ومتحلاً من ذوب القلوب جمالاً وبياناً للناس ، ولا تقول
بحرمان هذه اللغات التأليفية في العلوم والصناعات المختلفة من آثار الأدب ، فقد
يفيض عليها قلم الكاتب توخياً لتقريب الأسلوب ، وتسهيل التناول بقدر ما يسمح
به المقام ، كما لا تقول بتجرد الأدب من المعاني الحكيمة والأمثال المضروبة ،
الناشئة من تجارب الحياة ووقائع المشاهدة مما يعرفه الناس سواء ، تجميء من عفو

الخواطر غير مكدودة ولا متعملة ، فتكون كالثمرة اليانعة بين نواضر الزهر حين يستسلم الأديب لعواطفه الوطنية ، ويهيب بالجماعة إلى ابتغاء المنزلة بالحكمة والموعظة الحسنة ، والله الموفق إلى الصواب .

منزلة النثر الجاهلي من الأدب والتاريخ

الحفاظة والرواية عند العرب واتصالهما بطبقات الرواة الإسلامية .

المعلوم أن العصر الجاهلي يمتد إلى ما قبل الاسلام بنحو قرنين تقريباً ، وأن اللغة خلال ذلك التاريخ ، وعند اقترابها من ظهور الإسلام ، كانت ملحمة لقراع الألسنة ، وتساؤل الفصحاء في الأسواق الأدبية والمحافل الجامعة ، وأنه لم يكن لأشراف العشائر عند تقاوم الفتن ، ولا لحكام القبائل عند ترفع الحُصُوم ، ولا للأبطال في صعصعة الحروب ولا للآباء عند تصرُّم الأعمار ، ولا للأمهات مع بناتهن عند الإهداء ، ولا للفتيان في المناقاة والسمر ، لم يكن لهؤلاء جميعاً بُدٌّ من كلام بل من كلام طويل يجنون به قرون الفتنة ، ويصيرون مقاطع الرأي ، ويصرفون الناس من قبله إلى السلامة . فأين ذلك النثر كله ، وما بال هذا الكلام ليس من جلته بأيدي الرواة إلا قليل يستطيع كاتب في عصر واحد أن ينشئ مثله ، ولا يبلغ أن يكون في عرض أدب ابن المقفع ، ولا في سعة بلاغات الجاحظ ؟ وهذا قسُّ بن ساعدة خطيب العرب وقاضي خطبائها في عكاظ ، ليس له إلا هذه الأسطر القليلة من خطبة لو لم يشهدا رسول الله ماتناقلها الرواة ، وما اتصل خبرها بنا إلى اليوم ! لاجرم لقد عدت عليه أسباب التضييع ، وتبدد لكثرته على الأسماع ، وثقلت المثونة في حفظه على الناس ، وشغل العرب عنه بالشعر لاستطرافهم له ، وغلبته على عقولهم ، ولو فاته بما حرصوا عليه من تقييد مآثرهم ، وتخليد مناقبهم وأيامهم ، حتى مست الحاجة في ذلك الوقت إلى من يتخصص في حفظ أنساب القبائل والاحتياط لما يفوت على الكافة من جملة

أخبارها ، فنشأت طبقة النساين الذين من أشهرهم : دَغْفَلُ الشَّيبَانِي ، وزَيْدُ ابن الكَيْسِ النَّمَرِي وَوَزْءَاءُ بن الأشعر المعروف بابن لسان الحُمرة وأضرابهم . وإذاً لا ينبغي لما بقي من هذا النثر - على أن له خطراً من الوجهة الأدبية - أن يكون له قيمة تاريخية يعتمد عليها الباحثون في استخراج صورة واضحة لحياة العرب في هذا العصر الجاهلي .

ولما كانت حظوة الشعر بتوافر الرواة على تتبعه ، وضرفهم وجوه العناية لروايته ، وتسييره مع قوة إثبات المحفوظ منه في الصدور ، إنما حدثت لمكان الوزن والقافية . وإن النثر لم يحظ بكل هذا في الجاهلية ولا في غيرها من العصور الأدبية كما قدمنا ، كان ذلك غير قادح في الحافظة العربية التي بلغت من القوة والوعى عند العرب إلى ما لم يصل إليه غيرهم من الأميين من أم التاريخ ، لأنهم - فوق أميتهم ، وقلة اشتغالهم بغير الكلام من الصناعات - كانوا أهل حجاج وجدل ، قد فشت فيهم عادة المساجلة ، وانتشر بينهم التفاخر بالمآثر والتناز بالآلقاب ، فتداعوا إلى ما يرتبطون به مناقبهم ويشهدونه على جملة تاريخهم ، وأصبح العربي منهم كلفاً بأن يتخذ من قوة حافظته سجلاً جامعاً يساعفه عند الخاطر الهاجس والحجة البادية ، وعند محاولة الإقناع ، والظفر بالغلبة عند المناظرة ، ولا تغنى في ذلك الكتابة ، حتى لو كانت ممكنة حاضرة وصناعة فاشية ، ما عدلوا إليها ولما استغنوا عن الحافظة بها .

وقد يقال إن الحافظة قلما تسلم من خطأ أو تبرا من غفلة أو سهو مهما ألحنا في الإيمان بعجائبيها ، ومهما قلنا إن في أيامنا هذه من الأميين من لهم أعمال واسعة ، وتجارات كثيرة ورؤوسهم دفاتر أعمالهم ، وسجل حسابهم ، وتقولون ما ظنك بالخطيب يقوم على الناس بالكلمة الطويلة يسمعها الراوية لأول مرة ، فيحفظها على استوائها وأنت لو حاولت من التكلم نفسه أن يعيد عليك كلامه ، فقد يعجزه ذلك ، وربما غير فيه وبدل . وهبك توقفت إلى تصحيح الخطبة وتعديل الكلمة في المقام الواحد لكثرة الحضور ، وحرصهم على الاستماع والحفظ

وقلت ما عسى أن يفوت أحدهم من عبارة أو لفظ ، قد لا يفوت الآخرين ، فكيف بهذا الكلام يبقى مصوناً في تلك السلسلة الطويلة من المتناقضين من راوية إلى راوية ، ومن جيل إلى جيل ، حتى يُنسخ في الكتب كما قيل من غير تغيير ولا تبديل !! ونحن نُسلم بما تقولون ، ونحسب أن شيئاً من هذا لا يقدر في أصل الخبر ، ولا يزيد على أن يدخله بعض التحريف من زيادة أو نقص ، والأصل على الجملة صحيح ثابت ، حتى لقد يتحل الخبر المروي باعتبارات قوية تظاهر الناس على حفظه ، وشدة الأمانة في أدائه كسرف قائله إذ كان في حفظه تشریف لهم ، أو كاشتماله على تفصيل لدين أو تأويل لشبهة في حلال أو حرام كما في خطب النبي صلى الله عليه وسلم وأحاديثه ، وبعضها طول ، وفي بعضها قصص ، وهي لم تكتب إلا بعد زمن طويل ، وكذلك خطب الخلفاء ، وأعيان التكلمين في العصرين الإسلامي والأموي من بعده ، ومع ذلك لم تسلم هذه على الأقل من الاختلاف في الرواية كما تعلمون .

واقدم قويت العناية بالرواية والحفظ للشعر واللغة ، في الصدر الأول لما ظهر من الحاجة إلى ذلك في التفسير والتأويل ، حتى اتصلت هذه الآثار بطبقات الرواة الإسلاميين طبقة بعد طبقة ، وصار آخرهم كأولهم في الاستبصار والتثبت ، إلى أن استبحر التدوين في القرنين الثاني والثالث الهجريين ، وبذلك وصلت اللغة أو التاريخ اللغوي والأدبي في جملة إلى الأُخلاف من العصور المتأخرة ، وكانت أولية ذلك على يد الطبقة الثالثة من الرواة التي رأسها الخليل بن أحمد المتوفى بعد منتصف القرن الثاني الهجري ، وهو واضع كتاب العين الذي هو أول كتاب جمعت فيه اللغة .

وبعد : فنستطيع أن نمشى بقدم ثابتة على هذه القاعدة فيما نورد من أقسام الكلام العربي من الخطب والوصايا والمجاورات والحكم والأمثال ، بقدر ما يهتدى إليه اجتهادنا في التوقي ، وحرصنا على تحرى الصواب والله الموفق .

الخطابة عند العرب

لا شك أنه كان للعرب خطابة ممتازة ، وكان فيهم سادة مُقدّمون لهم غارضة ، وفيهم بيان ولسن ، وأنه كان لهم من أشرف عشائرهم خطباء يقومون فيهم مقام المؤدّين من الوُلاة في الأمم ذات النظام الثابت والدولة القائمة ، وكان لهذا الفن من الكلام دواعٍ حاضرة تكون في كل جماعة تضمهم رقعة من الأرض ، وذلك أن العرب كغيرهم من الأمم كانوا خاضعين لضرورة الاجتماع البشري الذي يحتم على القبيل من الناس أن يلتقوا بأيديهم إلى واحد منهم ، يتميز بما يكون له دون سائرهم من فضل العقل ، أو بسطة الغنى ، أو قوة البأس ، أو ما يشبه ذلك ، مما يُصَيِّرُ الناس إلى التسليم له اختياراً من عند أنفسهم ، واستكفافاً للعادية من شفاهتهم ، وهذا هو معنى قول علماء الاجتماع: إن الملك منصب طبيعي في الإنسان . إذ لا ينبغي أن يكون الأصل في معنى الملك شيئاً أكثر من هذه السيادة الناشئة عن التفوق الطبيعي لبعض أفراد الجماعة على بعض ، واعتبر ذلك بالآباء في أبنائهم وأهلهم ، وهم الأسرة الصغرى ، وما الجماعات والأمم إلا أمثلة مكبرة على نحو هذا النظام الاجتماعي الصغير ، فالعرب على أنه لم تكن لهم دولة ، ولم يجمعهم ملك ولا انتظامتهم شريعة ، كان حتماً عليهم أن يخضعوا كما يخضع سائر البشر لهذه الظاهرة السابقة ، التي كانت السيادة فيها مصدراً للهداية ، ومادة للإصلاح ، وأداة لحراسة الاجتماع ، وتنظيم ما فيه من قوى الحياة ، وأسباب تنازع البقاء ، واستتبع ذلك بالضرورة الحاجة إلى استعمال الجارحة التي هي في الحقيقة مترجمة عن الفكر ، مؤدية إلى هذه المعونة الاجتماعية وهي اللسان ، وكانت هذه الحاجة الماسة هي التي فتحت له وجه الحيلة في تأليف هذا النوع من الكلام ، ونشأت حينئذ الخطابة تالية في الوجود لاستقرار الجماعات البشرية ، وظهور هذه الرياسات المختلفة ، وهي لا تزيد في معناها على أن تكون كلاماً له شأنه من التأثير، يلقى على

نشأة
الخطابة

معنى الخطبة

الجمع من الناس لإقناعهم بما فيه الخير لعامتهم في معاشهم ومعادهم ، وقد جرت العادة أن يكون بطش الحكام متأخراً في الوجود عن الإعذار بالكلام .

ومن هنا نستطيع أن نتصور كيف كانت الخطابة صفة لازمة للأنبياء والرسل ، فيما يباغون عن الله من الدعوة إلى الهدى ودين الحق ، وكيف كانت عماد القادة من هداية الأمم ، يتقدمون بها في مفاتيح الانقلابات العامة حين يتجرّد المصلحون منهم للدفاع عن مذاهبهم والانتصار لآرائهم ، وجعل الناس على اتباع سبيلهم وكيف يستفحل شأنها حين يستجر النزاع في الأمة الواحدة وفي الأمم المتجاورة ، على تجاذب المنافع المؤدى إلى كثير من ألوان الخصومات السياسية والمذهبية ونحوها ، وكيف تعير إلى الفتور والسكون حين تبلغ الأمة إلى دعة الأمن ، واستقرار النظام ، وقيام الحدود العادلة من الشرائع المنزلة ، والقوانين الموضوعية ، وحين ينبعث الناس في وجوه معاشهم في ظل هذه الطمأنينة الشاملة ، وتتصرف العقول إلى ضروب أخرى من الإصلاح في الابتكار والتأليف ، والعمل على استكمال ما وهب للإنسان من خير وما أعد له من سعادة واصلاح .

دواعيها
العامة

وهناك دواع أخرى يوشك أن تكون خاصة بالعرب في هذا العهد دعت إلى بلوغ الخطابة عندهم درجة قد تكون تجاوزت حد الغضاضة إلى شيء من النضج والكمال ، ينبغي أن يجعل من أهمها: تأصل ملكة البيان فيهم ، وضرورة الكلام صناعة لهم ، وتداعيتهم إلى شهود المواسم الجامعة لتفاخر بهذه الآثار الأدبية ، وقد سبقت الإشارة إلى شيء من ذلك في الكلام على الأسواق ، ومن ذلك أيضاً شيوع الأمية بينهم وتباعدهم في ديارهم ، واستقلالهم في عشائرهم وهم أهل حل ورحلة ، فكانت الضرورة ماسة إلى أن يقوم الوافد الرفيق لهم مقام الرسائل الإضافية في سفارات الصلح ، وعقد المحادثات وتأمين السبيل ، وكانت بعد ذلك حروبهم ، وأيام منافراتهم ، وأندية ساداتهم مثاراً لهذه الخطب يقصرونها ، أو يظنون فيها على مقتضى الأحوال الداعية والمقامات المختلفة . ولو كان العرب يكتبون في الرقوق ، أو ينقشون كغيرهم من أمم التاريخ على الأحجار لاستطاع

دواعيها
الخاصة
بالعرب

الناس أن يجدوا من آثار بلاغتهم في المساجلة بالخطب ، والمحاورات شيئاً كثيراً غير أنك لا تزال تعذ كثيراً من أسماء خطبائهم وساداتهم ، ولا تجد لهم أو للأكثر منهم شيئاً يذكر .

أشهر خطباء
العرب في
الجاهلية

وهم يعدون كعب بن لؤي ، وهو الجدة السابع للنبي صلوات الله عليه من أقدم خطبائهم ، ولا يعرفون عنه إلا أنه كان يخطب على العرب عامة ، ويحضر كنانة خاصة على البر ، وأنه لما مات أكبوا موته وأرخوا به إلى عام الفيل . ويعدون من أشهرهم قيس بن خزيمة خطيب حرب داحس والغبراء ، وليس له كلام إلا قوله حين سئل عما عنده في حمالات داحس والغبراء : عندي قرى كل نازل ، وأمان كل خائف ، وخطبة من لدن تطلع الشمس إلى أن تغرب ، أمر فيها بالتواصل ، وأنهى عن التقاطع . وكذلك خويرة بن عمر الغطفاني خطيب الفجار ، وقس بن ساعدة خطيب عكاظ ، وأكثم^(١) بن صيفي حكيم العرب وقاضيا وزعيم خطبائها ، وغير هؤلاء كثيرون لا يعرف تاريخ الأدب غير أسمائهم ، ولم يضل إليه إلا الشيء القليل من آثارهم .

وإننا نورد هنا بعض ما أعتد عليه التوفيق من أمثلة الخطابة الجاهلية مما تحرفت عنه عادة التضيق ، ثم تتبعها بكلمة عن الوصايا ليكون ما نصف به النثر في هذا العصر مأخوذاً من هذه المادة إن شاء الله .

(١) روى صاحب المقدم أن النعمان بن المنذر أوفد أكثم بن صيفي إلى كسرى بالمداين ، ومعه رهط من أشرف العشائر العريسة وخطبائها وسادتها ، فيهم حاجب بن زرارة التيمي والحارث بن عبادة البكري ، وعمرو بن العريد السلمي ، وعامر بن الطفيل ، وعلقة بن علاثة العامريين ، والحارث بن ظالم ، وعمرو بن معد يكرب الزيندي وغيرهم ، وقد أورد صاحب المقدم مقالاتهم بين يدي كسرى ، وما رد به عليهم ، ومن الناس من يستبعد صحة هذه الوفادة .

خطبة المأمور الحارثي

روى أبو علي القالي بسنده عن أبي عبيدة قال : (رواه أبو علي بالنون
مكان الراء . فقد المأمور الحارثي في نادي قومه فنظر إلى السماء والنجوم ، ثم
فكر طويلاً ، ثم قال : أرعوني أسماعكم ، وأصغفوا إلي قلوبكم يَبْلُغُ الوعظُ
منكم حيث أريد ؛ طَمَحَ ^(١) بالأهواء الأشر ^(٢) ، ورانَ علي القلوب الكدر ^(٣) ،
وطَخَطَخَ ^(٤) الجهلُ النظرَ . إن فيما نرى لمعتبراً لمن اعتبر : أرضٌ موضوعة ، وسماءٌ
مرفوعة ، وشمسٌ تطلعُ وتغربُ ، ونجومٌ تسرى فتعزُبُ ، وقرٌ تطامعُه النُجُورُ
وتَمَحُّقُهُ أدبارُ الشهور ، وعاجزٌ مُثَرِّ ، وحولٌ ^(٥) مكيدٌ ^(٦) ، وشابٌ مُخْتَصِرٌ ^(٧) ،
ويفنٌ قد غبر ^(٨) ، وراحلون لا يثوبون ، وموقوفون لا يفترون ، ومطرٌ يرسل
بقدر ، فيحیی البشر ، ويورق الشجر ، ويطلع الثمر ، وينبت الزهر ، وماءٌ
يتفجر من الصخر الأير ^(٩) ، فيصعد المدر ^(١٠) عن أفنان الخضر ، فيحیی الأنعام ،
ويُسبِعُ السَّوام ، ويُنمي الأنعام ، إن في ذلك لأوضح الدلائل على المدبر المقدر
البارئ المصور . يا أيها العقول النائرة والقلوب النائرة ! ^(١١) أنى تُؤفكون ^(١٢)

-
- (١) طمَحَ : ذهب والطماح ككتاب : النشوز والجماح .
(٢) الأشر : كالفرح معناه المرح . (٣) ران : غطى . الكدر : ضدّ الصفو .
(٤) الطخطنخة : تسوية الشيء أو ضم بعضه إلى بعض .
(٥) حول : شديد الاحتيال وهو كصرد وبومة وهمة وسكر .
(٦) مكيد : قليل الخير من أكدي الرجل : بخيل أو قلّ خيره .
(٧) مختصر : ميت في فتوته يقال اختصر الشاب : إذا مات في شبابه .
(٨) اليفن : الشيخ الكبير . غبر : بقى أو مضى ضد . (٩) الأير : الشديد الصلب
ويقال : صخرة يراء أيضاً ، ولا يقال كذلك لنحو الماء والطين .
(١٠) المدر : محرّكة قطع الطين اليابس . (١١) النائرة : العداوة ، وهو إما أن
يكون من الوصف بالمصدر أو في الكلام حذف أي ذات العداوة .
(١٢) تؤفكون : أي تصرفون ، وفماه أفك يافك .

وعن أيّ سبيل تَعْمَهُونَ^(١) ، وفي أيّ حيرة تَهَيِّمُونَ ، وإلى أيّ غاية تُوفِضُونَ^(٢) لو كشفت الاغطية عن القلوب وتجلّت الغشاوة عن العيون ، لصرّح الشكّ عن اليقين ، وأفاق من نشوة الجهالة ، من استولت عليه الضلالة .

خطبة أكرم بن صيفي في قومه يدعوهم إلى الاسلام.

روى في مجمع الأمثال عن ابن سلام الجمحي قال : لما ظهر النبي صلى الله عليه وسلم بمكة ودعا الناس إلى الإسلام بعث أكرم بن صيفي ابنه حبيشاً فأتاه بخبره ، فجمع بني تميم وقال : يا بني تميم ! لا تُخْضِرُونِي سَفِيهاً ، فإنه من يسمعُ يَحَلُّ أن السفية يُوهِنُ من فوقه ويتبَطُّ من دونه ، لا خير فيمن لا عقل له ، كَبِرَتْ سِنِي وَدَخَلْتَنِي ذِلَّةً ، فإذا رأيتُم مني حسناً فاقبلوه ، وإن رأيتُم مني غير ذلك فقوموني أستقم . إن ابني شافه هذا الرجل مشافهة وأتاني بخبره ، وكتابه يأمر فيه بالمعروف وينهى عن المنكر ، ويأخذ فيه بمحاسن الأخلاق ، ويدعو إلى توحيد الله تعالى ، وخلع الأوثان ، وترك الحلف بالنيران ، وقد عرف ذوو الرأي منكم أن الفضل فيما يدعو إليه ، وأن الرأي ترك ما ينهى عنه . إن أحق الناس بمعونة محمد صلى الله عليه وسلم ومساعدته على أمره أتم ، فإن يكن الذي يدعو إليه حقاً فهو لكم دون الناس ، وإن يكن باطلاً كنتم أحقّ الناس بالكف عنه وبالستر عليه ، وقد كان أُسْتَقْفُ نَجْرانَ يُحَدِّثُ بصفته ، وكان سُفْيَانُ ابن مَجْشَعٍ يحدث به قبلُ وسمى ابنه محمداً ، فكونوا في أمره أولاً ، ولا تكونوا آخراً ، أثوا طائعين قبل أن تأتوا كارهين ، إن الذي يدعو إليه محمد صلى الله عليه وسلم لو لم يكن ديناً كان في أخلاق الناس حسناً ، أطيعوني واتبعوا

(١) تعهون : تتحIRON وفعله عمه كنج وفرح وهو التردد والتخير في الضلال .

(٢) توفضون : تسرعون .

أمرني أسأل لكم أشياء لا تُزَعُّ منكم أبداً ، وأصبحتم أعزَّ عني في العرب ،
وأكثرهم عدداً ، وأوسعهم داراً ، فإني أرى أمراً لا يجتنبه عزيز إلا ذل ، ولا
يلزمه ذليل إلا عز ، إن الأول لم يدع للآخر شيئاً ، وهذا أمر له ما بعده ، من
سبق إليه غمر المعالي ، واقتدى به التالي . والعزيمة حزم ، والاختلاف عجز . فقال
مالك بن نويرة قد خرف شيخكم ! فقال أكرم : وَيَلِّ الشَّيْخِي مِنَ الْخَلِي !
والهنيء علي أمر لم أشهده ولم يسبقني ! !

معارضة
مالك بن نويرة
لأكرم

ومن هذا الباب أيضاً مقامات الوفود بين يدي الملوك في التهنئة بالحجاب
والتعزية عند المصائب . ويتحدث الرواة أن سيف بن ذي يزن لما ظفر
بالحبشة وأجلاهم عن بلاده ، أتته وفود العرب تهنته ، وكان فيهم وفد من قريش
وسيدهم ومثكلهم عبد المطلب بن هاشم ، فلما مثلوا بين يديه قال عبد المطلب :
إن الله تعالى أيها الملك - أحلك محلاً رفيعاً صعباً منيعاً باذخاً شامخاً ، وأنبئك منبتاً
طابت أرومته ، وعزت جرتومته ، ونبل أصله ، وبسوق فرعه ، في أكرم معدن ،
وأطيب موطن ، فأنت - أبيت اللعن - رأس العرب ، وربيعها الذي به تُخصب ،
وملكها الذي به تنقاد ، وعمودها الذي عليه العماد ، ومعقلها الذي يلجأ إليه
العباد ، سلفك خير سلف ، وأنت لنا بعدهم خير خلف ، ولن يهلك من أنت خلفه ،
ولن يحمل من أنت سلفه ، نحن أيها الملك أهل حرم الله وذمته وسدنة بيته ،
أشخصنا إليك الذي أبهجتنا بكشفك الكبر الذي فدحنا ، فنحن وفد التهنئة
لا وفد المرزئة .

مقام
عبد المطلب
عند سيف
ابن ذي يزن

وعزى أكرم بن صيفي عمرو بن هند ملك العرب عن أخيه ، فقال له :
أيها الملك ! إن أهل هذه الدار سفر لا يجلون عقد الترحال إلا في غيرها ،
وقد أتاك ما ليس بمردود عنك ، وارتحل عنك ما ليس براجع إليك ، وأقام معك
من سيظعن عنك ويدعك . إن الدنيا ثلاثة أيام : فأمس عظة وشاهد عدل
فجمعك بنفسه وأبقى لك وعليك حكمه ، واليوم غنيمته وصديق أتك ولم
تأته ، طالت عليك غيبته ، وستسرع عنك رحلته ، وغد لا تدري من أهله

تعزية أكرم
لعمر بن هند

وسياتيك إن وجدك ، فما أحسن الشكر للنعم ، والتسليم للقادر ، وقد مضت لنا
أصول نحن فروعها ، فما بقاء الفروع بعد أصولها !! واعلم أن أعظم من المصيبة
سوء الخلف منها ، وخير من الخير معطيه ، وشر من الشر فاعله .

ومن قصار خطبهم في الإملاك :

خطبة أبي طالب عم رسول الله صلى الله عليه وسلم ، في تزويجه خديجة بنت

حويلد وهي :

الحمد لله الذي جعلنا من ذرية إبراهيم ، وزرع إسماعيل ، وجعل لنا بلداً
حراماً ، وبيتاً محجوجاً ، وجعلنا الحكم على الناس ، ثم إن محمد بن عبد الله بن
أخي من لا يُوزن به فتى من قريش إلا رجح عليه برّاً وفضلاً وكرماً وعقبلاً
ومجداً ونُبلاً ، وإن كان في المال قلٌّ فالمال ظلٌّ زائل وعارية مُسترجعة ، وله
في خديجة بنت خويلد رغبة ولها فيه مثلُ ذلك ، وما أحببتُم من الصّدق فعلى .

ومن الخطب الماثورة خطبة قس بن ساعدة الأيادي في عكاظ :

روى أبو الفرج الأصبهاني عن ابن عباس رضي الله عنهما قال : لما قدم
وفد إياد على النبي صلى الله وسلم قال : ما فعل قس بن ساعدة ؟ قالوا مات .
يا رسول الله ، قال كأنى أنظر إليه بسوق عكاظ على جبل له أورك ، وهو يتكلم
بكلام عليه حلاوة ، ما أجدنى أحفظه ، فقال رجل من القويم : أنا أحفظه
يارسول الله ، قال كيف سمعته يقول ؟ قال سمعته يقول :

أيها الناس : اسمعوا وبعوا ، من عاش مات ، ومن مات فات ، وكل ما هو
آت آت ، ليلٌ داج ، وسماء ذات أبراج ، بحارٌ تزخر ، ونجوم تزهر ، وضوء
وظلام ، وبرٌّ وآثام ، ومطعم ومشرّب ، وملبس ومركب . مالى أرى الناس
يذهبون ولا يرجعون ؟ أرضيوا بالمكان فأقاموا ؟ أم تركوا فناموا ؟ وإله قس ما على
وجه الأرض دين أفضل من دين قد أظلكم زمانه ، وأدرككم أوانه ، فطوبى
لمن أدركه فاتبعه ، وويل لمن خالفه ، ثم أنشأ يقول :

خطبة أبي
طالب في
تزويج خديجة

خطبة قس
في عكاظ

فِي الذَّاهِبِينَ الْأَوَّلِينَ مِنْ الْقُرُونِ لَنَا بَصَائِرُ
لَمَّا رَأَيْتُ مَوَارِدًا الْمَوْتَ لَيْسَ لَهَا مَصَادِرُ
وَرَأَيْتُ قَوْمِي نَحْوَهَا يَمْنِي الْأَصَاغِرُ وَالْأَكْبَرُ
أَيَقَنْتُ أَنِّي لَا مَحَا لَتَحَيْثُ صَارَ الْقَوْمُ صَائِرُ

وإن التأمّل في هذه الخطبة ، وفي خطبة المأمور السابقة يجد بينهما مشابهة تدلّ على اتفاق الخواطر ، أو تَوَارُدِهَا على مُشَاهَدَاتٍ واحدة ، هي التي أنتجت هذا التشابه .

كلمة قبيصة بن نعيم

في وفد بني أسد حين قدّموا على امرئ القيس بعد مقتل أبيه

وهي على مافي الأغاني وصبح الأعشى في روايات بعضها يُتمّم بعضها قالوا: وفد على امرئ القيس - بعد مقتل أبيه - رجالات من بني أسد كهول وشبان ، فيهم عبّيد بن الأبرص الشاعر ، والمهاجر بن خدّاش ، وقبيصة بن نعيم ، فلما علم امرؤ القيس بمكانهم ، أمر بانزّالهم وتقدّم في إكرامهم والإفضال عليهم ، واحتجب عنهم ثلاثاً ، فقالوا لمن يبأه من رجال كندة : ما بال الرجل لا يخرج إلينا ؟ فقال : هو في شغلٍ بإخراج مافي خزائن حُجرٍ من العُدّة والسلاح . فقالوا اللهم غفراً ! إنما قدّمنا في أمر تتناهى به ذكر مافات ، ونستدرك ما فرط فليبلغ ذلك عنا . فخرج عليهم في قبأ وخفٍ وعمامة سوداء ، وكانت العرب لا تعتمّ بالسواد إلا في التّرات .

فلما رأوه نهضوا له وبدّر قبيصه فقال : إنك في المحلّ والقدر ، والمعرفة بتصرف الدهر وما تُحدثه أيامه ، وتنتقل به أحواله ، بحيث لا تحتاج إلى تبصير واعظ ، ولا تدّ كيرة مجرّب ، ولك من سُودد منصبك ، وشرف أعراقك ،

وكرم أصلاك في العربِ مُتَحِدٍ يَحْتَمِلُ مَا حَمَلَ عَلَيْهِمْ مِنْ إِقَالَةِ الْعَثْرَةِ ، وَالرَّجُوعِ عَنِ
الْمَفْوَةِ ، وَلَا تَتَجَاوَزُ الْهَمَمُ إِلَى غَايَةِ إِلَّا رَجَعْتَ إِلَيْكَ ، فَوَجَدْتَ عِنْدَكَ مِنْ فَضِيلَةِ
الرَّأْيِ ، وَبُصِيرَةِ الْفَهْمِ ، وَكُرْمِ الصَّفْحِ ، مَا يُطَوِّلُ رَغْبَاتِهَا وَيَسْتَغْرِقُ طَلِبَاتِهَا ،
وَقَدْ كَانَ الَّذِي كَانَ مِنَ الْخَطْبِ الْجَلِيلِ الَّذِي عَمَّتْ رَزِيَّتُهُ نِزَارًا وَالنِّينَ ، وَلَمْ
تُخَصَّصْ بِهِ كِنْدَةُ دُونَهَا ، لِلشَّرَفِ الْبَارِعِ الَّذِي كَانَ لِحِجْرٍ ؛ التَّاجِ وَالْعِمَّةِ فَوْقَ
الْجَبِينِ الْكَرِيمِ وَإِخَاءِ الْحَمْدِ وَطَيْبِ الشِّيمِ ، وَلَوْ كَانَ يُفْدَى هَالِكٌ بِالْأَنْفُسِ
الْبَاقِيَةِ بَعْدَهُ لَمَا بَخَلَتْ كَرَامَتُنَا عَلَى مِثْلِهِ بِبَدَلِ ذَلِكَ وَلَقَدْ يَنَاهُ مِنْهُ ، وَلَكِنْ مَضَى
بِهِ سَبِيلَ لَا تَرْجِعُ أَوْلَاهُ عَلَى أُخْرَاهُ ، وَلَا يَلْحَقُ أَقْصَاهُ أَدْنَاهُ ، فَأَحْمَدُ الْحَالَاتِ
فِي ذَلِكَ أَنْ تَعْرِفَ الْوَاجِبَ عَلَيْكَ فِي إِحْدَى خِلَالَ ثَلَاثٍ : أَمَا أَنْ اخْتَرْتَ مِنْ
بَنِي أَسَدٍ أَشْرَفَهَا بَيْتًا ، وَأَعْلَاهَا فِي بِنَاءِ الْمَكْرُمَاتِ صَوْتًا ، فَقَدْ نَاهُ إِلَيْكَ بِسَعَةِ ،
تَذْهَبُ مَعَ شَفَرَاتِ حُسَامِكَ بِيَاقِ قَصْرَتِهِ ، فَيُقَالُ رَجُلٌ امْتَحَنَ بِهَيْلِكَ عَزِيزَ عَلِيٍّ
فَلَمْ تُسْتَلْ سَخِيمَتُهُ إِلَّا بِتَمَكِينِهِ مِنَ الْإِنْتِقَامِ أَوْ فِدَاءِ بِمَا يَرُوحُ عَلَى بَنِي أَسَدٍ
مِنْ نَعْمَتِهَا ، فَهِيَ أَلُوفٌ تَجَاوِزُ الْحِسْبَةَ ، وَكَانَ ذَلِكَ فِدَاءً تَرْجِعُ بِهِ الْقَضْبُ إِلَى
أَجْفَانِهَا ، لَمْ يَرُدُّهُ تَسْلِيطُ الْإِحْنِ عَلَى الْبِرَاءِ . وَإِنَّمَا أَنْ تَوَادَعْنَا حَتَّى تَضَعَ
الْحَوَامِلُ فَتَسْدُلُ الْأَزْرَ وَنَعْقِدَ الْحُمْرُ فَوْقَ الرَّاياتِ ، قَالُوا : فَبِكَيْ أَمْرٍ الْقَيْسِ
سَاعَةً ، ثُمَّ رَفَعَ طَرْفَهُ إِلَيْهِمْ فَقَالَ : قَدْ عَلِمْتَ الْعَرَبُ أَنْ لَا كُفَّاءَ لِحِجْرٍ فِي
دَمٍ ، وَإِنِّي لَنْ أَعْتَاضَ بِهِ نَاقَةً أَوْ جَمَلًا ، فَأَكْتَسَبَ بِذَلِكَ سَبَّةَ الْأَبَدِ وَفَتَّ
الْعَضُدَ ، وَأَمَا النَّظْرَةُ فَقَدْ أَوْجَبَتْهَا الْأَجِنَّةُ فِي بُطُونِ أُمَّهَاتِهَا ، وَلَنْ أَكُونَ أَعْطَبَهَا
سَبِيًّا ، وَسَتَعْرِفُونَ طَلَاتِحَ كِنْدَةَ مِنْ بَعْدِ ، تَحْمَلُ فِي الْقُلُوبِ حَنْقًا وَفَوْقَ الْأُسْنَةِ عَلَقًا
إِذَا جَالَتِ الْخَيْلُ فِي مَازِقٍ تُصَافِحُ فِيهِ الْمَنَايَا النَّفُوسَا

رد
امرى القيس

أَتَقِيمُونَ أَمْ تَنْصَرِفُونَ ؛ قَالُوا بَلْ نَنْصَرِفُ بِأَسْوَأِ الْإِخْتِيَارِ ، وَأَبْلَى الْإِجْتِرَارِ الْحَرْبِ
وَبَلِيَّةٍ وَمَكْرُوهٍ وَأَذِيَّةٍ ، ثُمَّ نَهَضُوا عَنْهُ وَقَبِيصَةً يَقُولُ مِثْلًا :

لعلك أن تستوخم الورْدَ إن غَدَّتْ كتائبنا في مآزقِ الموتِ تمطرِ
فقال امرؤ القيس: لا والله لأستوخمه، فرويداً ينكشف لك دُجَاهَا عن فُرسَانِ
كِنْدَةٍ وكتائبِ حمير! ولقد كان ذكر غير هذا أولى بي، إذ كنت نازلاً بزبَعِي
ومتحرماً بدمامي، ولكنك قلتَ فأجبتُ. قال قبيصة: إن ما نتوقع فوق قدرِ
المعاتبَةِ والاعتابِ، قال امرؤ القيس: فهو ذاك!
وفي ذلك يقول عبيدُ بن الأبرص:

يا ذا الخوفنا بقتل أيه إذلالا وحيننا
هلاً على حُجْر بن أم قطام تبكي لاعلينا
نحن الألى فاجع جمو عك ثم وجههم إلينا
نحمى حقيقتنا ونعض القوم يسقط بين بيننا

الوصايا

ثم نقول في الوصايا - وهي أيضاً من الخطب - وإنما تكون من حكيم لقومه أو
من سيد لعشيرته أو أب لبنيه أو أم لأبنتها، ويغلب أن يكون ذلك عند
الاحساس بالأجل، أو العزم على الرحلة. فمن ذلك وصية النعمان بن ثواب
العبدى. قال في مجمع الأمثال: وكان رجلاً يوصى بنيه ويحملهم على أدبه،
فأوصى أحدهم، وكان صاحب حرب قال: يا بُني! إن الصارمَ ينبو، والجوادَ
يكبو، والأثرَ يعفو، فإذا شهدت حرباً فرأيت نارها تُسعر، وبطلها يخطر،
وبحرها يزخر، وضعيفها يُنصر، وجبانها يجسر، فأقلل المسكت والانتظار، فإن
الفرارَ غيرُ عار، إذا لم تكن طالبَ ثار.

وصية النعمان
ابن ثواب

ومنها ما قاتته امرأة عَوْف بن محمَّ الشيباني (وكان يقال فيه لأحرَّ بوادي
عَوْف، لابنتها أم إياس، وكان عمرو بن حُجْر جد امرئ القيس الشاعر قد خطبها

إلى أبيها فزوجها منه، فلما كان بناؤه بها أوصتها أمها وصيئة لم تدع شيئاً من تأديب المرأة وكفايتها إلا وعتته فيها، قالت : أي بُنيّة ! إنك فارقت بيتك الذي منه خرجت وعُشيك الذي فيه درجت ، إلى رجل لم تعرفه وقرين لم تألفيه ، فكوني له أمة ، يكن لك عبداً ، واحفظي له خصالاً عَشْرًا ، يكن لك ذُخْرًا ؛ أما الأولى والثانية : فالخشوعُ له بالقناعة ، وحسنُ السمع له والطاعة ، وأما الثالثة والرابعة : فالتفقدُ لموضع عَيْنه وأَنْفِه فلا تقع عينه منك على قبيح ، ولا يشمُّ منك إلا أطيّبَ ريح ، وأما الخامسة والسادسة : فالتفقدُ لوقت منامه وطعامه ، فان تواتر الجوع مَلْهَبَةٌ وتنغيصُ النوم مَغْضَبَةٌ ، أما السابعة والثامنة : فالاحتراسُ بماله والإزْعاءُ على حَسْمِهِ وَعِيَالِهِ ، ومِلَاكُ الأَمْرِ في المال حسنُ التقدير ، وفي العِيَالِ حسنُ التدبير ، وأما التاسعة والعاشرَة : فلا تعصينَ له أمرًا ولا تُفْشِينَ له سرا ، فإنك إن عضيتِ أمره أو غرّيتِ صدره ، وإن أفشيتِ سرّه لم تأمني غدره ، ثم إياك والفرحَ بين يديه إذا كان مُهْتَمًا ، والسكّابَةَ بين يديه إذا كان فَرِحًا .

أمامة بنت
الحارث
وابتها أم
لباس

المنافرة .

. ومن النثر المأثور عن أهل هذا العصر ، ما كان يقع أولاً على جهة المحاورة بين رجلين ، ثم يتورط أحدهما أو كلاهما فينزِعُ بهما الجدل إلى المنافرة ، وهي التعاحم إلى الأشراف ! من حُكَّام العرب ، ليفصلوا بينهما ويقضي الحَكْمُ لأحدهما أو يسوي بينهما . ومن ذلك ما وقع لعامر بن الطفيل وعلقمة بن علاثة العامريين وحديثهما مشهور .

قالوا : إن عامراً وقف لعلقمة يوماً فجعل ينازعه الشرف في قومه ، وتفاقم بينهما الأمر ، وكان مما قاله عامر : والله لأنا أشرف منك حساباً وأثبت منك نسباً وأطول قصباً ! قال علقمة : أنا فرك وإني لبرّ وإني لفاجر ، واني لولود وانك لعافر ، واني لوفى وانك لعادر ! قال عامر : أنا فرك واني أنشر منك أمة ، وأطول

عامر بن
الطفيل
وعلقمة

قمة ، وأبعد همة ! وطال بينهما الكلام ، فتواعدا على الخروج إلى من يحكم بينهما ، وبجلا يطوفان الأحياء ، وهاب الناس أن يحكموا بينهما خيفة أن يقع في حبيتهما الشر ، حتى دفعا إلى هريم بن قطبة الفزاري (وهو غير هريم بن سنان المرئي ممدوح زهير) فلما علم بأمرها أمر بنيه أن يفرقوا جماعة الناس تقاديا من الفتنة . وجعل يطاولهما ويخوف كل واحد منهما من صاحبه ، حتى لم يبق لواحد منهما هم سوى أن يسوى في حكمه بينهما ، ثم دعاها بعد ذلك والناس شهود فقال لهما : أتما كركبتي البعير تقعان إلى الأرض معاً وتقومان معاً ! فريضاً بقوله وانصرفا عنه إلى حبيهما . وقد عمّر هريم هذا إلى أيام عمر بن الخطاب رضي الله عنه ، فقال عمر : أيهما كنت منفرأ ؟ فقال : يا أمير المؤمنين لو قلتها الآن لعادت جذعة (يعني الفتنة أو الحرب) فقال له عمر : إنك لأهل لموضعك من الرياسة .

حكم هريم
ابن قطبة

سؤال
عمر بن
الخطاب لهرم

الحكمة والمثل

قد تصل صورة العبارة إلى الغاية من إيجاز اللفظ وصحة المعنى وصواب التشبيه ، فتصيح إليها الأسماع وتأنس بها الأفئدة ، وتسمى حينئذ بالحكمة والمثل . والحكمة : قول موجز يتضمن حكما مسلما في الحث على الخير ، أو الكف عن الشر ، والعرب - على بدواتهم - أكثر الناس إرسالا للحكمة وضربا للأمثال ، لاقتدارهم على ألسنتهم ، ولطائفة الكلام لهم ، واتفرغهم لصناعة الكلام ، والمساجلة بالبيان . وقد اشتهر من حكمائهم في الجاهلية أكثر صيفي وذو الأصبع العدواني (وهو حرثان بن محرث) وسمى ذا الأصبع لأن حية نهشته في أصبعه ، وعامر بن الظرب وهو من عدوان أيضا ، وقس بن ساعدة الإيادي . ومن أقدم حكمائهم لقمان المشهور وينسب إليه أنه أول من قال : رب أخ لك لم تلده أمك ، الصمت حكم وقليل فاعله ، آخر السوء الكي .

تعريف
الحكمة

أشهر
حكماء العرب

ومن حكم أكرم بن صبيح : خير الأعوان من لم يراء بالنصيحة ، وشر الملوك من خافه البريء ، آفة الرأي الهوى ، رب قول أنفذ من صول ، مقتل الرجل بين فكَّيه ، رب عجلة تهب ريثًا .

وقد تجيء الحكمة في الشعر ، ومن عرف بالحكمة من شعراء الجاهلية : أمية ابن أبي الصلت ، وزهير بن أبي سلمى ، وطرفة بن العبد ، وغيرهم . ومعلقة زهير التي أولها (أمن أم أوفى دمنة لم تكلم) حالية بضروب شتى من الحكم . وحسب الحكمة فائدة أن يضمنها الكاتب أو المتكلم عبارته ، فلا تزال تورثها من البهاء والقبول ، ما يرتفع به جانبها ويشرف حسبها ، فتكون أمتع في الصدر وآنف في الأسماع وأسير في الآفاق ، إلى ما تثيره في النفوس من حب الفضيلة والهداية إلى مكارم الأخلاق وصالح الأعمال .

أثر الحكمة
في الكلام

أما المثل فهو كالحكمة في شرائطها السابقة ، غير أنه قد يشير إلى قصة أو يرتبط بمحادثة أو يقع جواباً في مناقلة . وعرفه بعضهم : بأنه قول موجز سائر يشبه به حال الذي حكي فيه بحال الذي قيل لأجله . والأمثال تصدر من وحي الفطرة السليمة والحس الصادق والتجربة الصائبة ، ولم تخصص بها العرب دون سائر الأمم : وهي ميزان تعرف به قيمة انتزاع العقول وإسعاف الخواطر ، والقدرة على الإيحام . وقد عني المتقدمون بجمعها وشرحها ، وأشهر ما بأيدي الناس من ذلك : مجمع الأمثال الميداني ، وكتاب الأمثال المفضل الضبي ، وفي غير هذين من كتب الأدب منشور منها كثير . وهي كالحكمة تهب ما تقع في تضاعيفه من الكلام روتقاً ، وتفرغ عليه قبولا وحسناً ، وناهيك من المثل ما يعطيك من بلاغ الحجة وانقطاع الخصم ، والاستغناء به - على قلة ألفاظه - عن بسط المعنى المتنازع عاينه فيما تحكيه صورة المثل من رفعة أوضعة أو من مدح أو ذم ، فهي من مظاهر الإيجاز في اللسان العربي .

أثر المثل

ومن أمثالهم : إن العوان لا تعلم الحيرة (والعوان النصف التي بلغت مبلغ النساء ، والحيرة لبس الحمار . ويضرب للعالم بالأمر الجرب له) تجوع الحرة

ولا تأكل بثديها (أى لا تكون الحرة ظئراً وإن آذاها الجوع . يضرب لترفع
الكريم عن ملابسة الحسيئة ، قاله الحرث بن سليل الأَسَدِيّ) أساء رَعِيَا فسق
(يضرب لمن يفرط في الأمر ثم يروم صلاحه فيفسده) عينك عَبرِي والفؤادُ
في دَدٍ (الدد اللهو : يضرب لمن يظهر لك خلاف ما يبطن) . يداك أو كَتَا وفوك
نَفَخَ (أو كَتَا: أى ربطنا . يضرب لمن يقع في شر ما يفعله) إن البلاء موكل بالمنطق
(يضرب لمن يتورط بقوله فيما يؤذيه . وقائل هذا المثل أبو بكر حين أُحِرَّ
رسولُ الله أن يمرض نفسه على قبائل العرب . قالوا إن رسول الله صلى الله
عليه وسلم خرج ومعه أبو بكر وعلى رضى الله عنهما ، قال على : فدفعنا إلى
مجلس من مجالس العرب فتقدم أبو بكر . وكان نَسَابَةً - فلم فردوا عليه السلام
فقال : ممن القوم ؟ قالوا من ربيعة . فقال : من هامتها أم من لهازها ؟ قالوا
من هامتها العظمى قال : فأى هامتها العظمى أتم ؟ أتم ذُهل الأكبر ؟ قالوا :
نعم . قال : أفنكم عوف الذى يقال له لاجرٌ بوادى عوف ؟ قالوا لا ! قال
أفنكم بسطام^(١) ذو اللواء ومنتهى الأحياء ؟ قالوا لا ! قال أفنكم جسّاس بن
مرة حامى الذمار ومانع الجار ؟ قالوا لا ! قال أفنكم الحوفزان^(٢) قاتل الملوك وسالها
أنفسها ؟ قالوا لا ! قال أفنكم المزديف^(٣) صاحب العِمامة الفرّدة ؟ قالوا لا ! قال
فأتم أخوال الملوك من كندة^(٤) ؟ قالوا لا ! قال فأتم أضهار الملوك من لحم^(٥) ؟
قالوا لا ! قال فلستم ذُهلاً الأكبر ، أتم ذُهلُ الأصغر . فقام إليه غلام منهم حين
بَقَلَ وجهه يقال له دَعْفَل فقال :

إن على سائلنا أن نسأله والعبء لا تعرفه أو تحمله

- (١) هو بسطام بن قيس بن مسعود الشيباني ، أفرس فرسان بكر في الجاهلية .
(٢) لقب الحارث بن شريك ، لقبه به قيس بن عاصم حين حفره بالرمح ففاته .
(٣) عمرو بن أبي ربيعة بن ذهل الشيباني ، سمي بذلك لازدلافه إلى العدو وحده بين الصفيين ،
وكان إذا اعتم لا يجرؤ بكبرى أن يلبس مثل عمامته ، ومثله في الاسلام سعيد بن العاص .
(٤) هم كليب ومهلل وأختهم فاطمة أم امرئ القيس الشاعر .
(٥) هم النمر بن قاسط من ذهل بن شيبان ، منهم ماء السماء أم المنذر أحد ملوك الحيرة .

يا هذا ! إنك سألتنا فلم نكنتمك شيئاً من أمرنا ، فمن الرجل أنت ؟ قال رجل من قريش . قال بئح بئح ! أهل الشرف والرياسة ، فمن أي قريش أنت ؟ قال من تيم بن مرة . قال أمكنت والله الرامي من صفاء الثغرة ! أفنكم قصى بن كلاب الذي جمع القبائل من فيهر وكان يُدعى مجعاً ؟ قال لا ! قال أفنكم هاشم الذي هشم الثريد لقومه ورجال مكة مُسننون عجاف ؟ قال لا ! قال أفنكم شيبه الحمد مطعم طير السماء الذي كأن بوجهه قمر ابيض ليل الظلام الداخي ؟ قال لا ! قال أفن المفيضين بالناس أنت ^(١) ؟ قال لا ! قال أفن أهل الندوة أنت ؟ قال لا ! قال أفن أهل الرفاة ^(٢) أنت ؟ قال لا ! قال أفن أهل الحجابة أنت ؟ قال لا ! قال أفن أهل السقاية ^(٣) أنت ؟ قال لا !

واجتذب أبو بكر زمام ناقته ورجع إلى رسول الله ، فقال دغفل :

صادف در السيل درا يدفعه يرفعه حيناً وحيناً يضعه

أما والله لو ثبت لأخبرتكَ أنك من زمعات قريش ، أو ما أنا بدغفل ! !

قال فتبسم رسول الله صلى الله عليه وسلم ، قال علي : قلت لأبي بكر لقد وقعت من الأعرابي على باقعة ، قال أجل ! إن لكل طائفة طائفة ، وإن البلاء موكل بالمنطق .

وقد يمثّل بالقول على لسان طائر أو بهيمة تقاديا من جور حاكم ، أو قصدا الأمثال الفرضية

إلى الاستطراف في انتزاع الحكمة ووضعها في صورة التسلية واللهو ، ويسمى هذا

النوع «بالأمثال الفرضية» ومن ذلك قولهم (في بيته يؤتى الحكم) ويزعمون في

أصل هذا المثل أن أرباباً التقطت تمرة فاختمتها الثعلب ، وانطلقا بختصان إلى

الضّب ، فقالت الأرنب يا أبا الحسل ! قال سميعا دعوت . قالت أتيناك لنحتكم

إليك . قال عادلا حكمتما . قالت فاخرج إلينا . قال في بيته يؤتى الحكم . قالت

(١) الإفاضة من ما بق قريش في الجاهلية ، وكانت في آل صوفان من بني سعد بن زيد مناة

ثم انتقلت إلى عبد الدار وإليهم كانت السدانة . (٢) كانت لبني نوفل .

(٣) كانت لبني هاشم في العباس بن عبد المطلب والحجابة أيضاً .

إني وجدت ثمرة . قال حنوة فكأياها . قالت فاختمسها الثعالب . قال لنفسه بغى .
الخير . قالت فاطمته . قال بمحتمك أخذت . قالت فلطمني . قال حر انتصر . قالت
فاقض بيننا . قال قد قضيت . . . فذهبت أقواله كلها أمثالا .

نثر الكهان

وهذا باب واسع من كلام الجاهليين ، قوامه السجع الذي يعتمد به غالبا إلى
زيادة التأثير في السامعين ، وإلهائهم عن التبع لما يلقى إليهم من الأخبار ، التي
كانت منتهية إلى غاية من الغرابة ومستدعية للعجب . وقد كانت الكهانة
شائعة في الجاهلية ، وخاصة قبيل مبعث النبي صلوات الله وسلامه عليه . ويذكر
العلماء أن من الكهان من كان له رثى من الجن يسترق له السمع من الملائكة ، ثم
يلقيه إليه فيخبر به الناس عند استبهام أمر ، أو حدوث ريبة لامرأة ، أو عند افتقاد
ضالة من متاع أو مال . ومنهم من كان يعتمد على قوة نفسه وتسليط خواطره
على إنتاج ما يقوله من مقدمات تظهر له ، ولا عجب فإن للنفوس الإنسانية
استعدادا للانسلاخ من البشرية والتخليق في عالم الأرواح ، وإن ذلك ليقع
لكثير من الناس في حال النوم واليقظة ، ويأتي بعضه صدقا وبعضه كذبا . على أن
استراق الجن للسمع واصطفاءها لكثير من الإنس ، مما لا يجوز إنكاره بعد الذي
استفاض من ذكره في القرآن .

ويتحدث الرواة بأعاجيب كثيرة لأولئك الكهان والكواهن ، في تعرفهم
الحوادث وصدق كثير من أخبارهم ، وانطباقها على الحقيقة في الأمور الماضية
والحاضرة . أما أخبارهم عما يأتي به الغيب في المستقبل ، فإن صدق بعضها فإنما
يحمل على المصادفة أو القراسة ، ومعظمها من قبيل حديث الخرافة كإفتاء الكاهن
في قضية هند .

ويقولون إن هند بنت عتبة - وهي أم معاوية بن أبي سفيان - كانت في
الجاهلية في بيت الفاكه بن المغيرة الخزومي ، وكانت داره مثابة يغشاها الناس ،

قصه هند
مع زوجها
وأبيها .

فاطلع عليها زوجها يوما وهي نائمة وقد خرج من عندها رجل ، فاتهما به واستلحقها بأبيها ، وفشا في الحديث الخبر عنها . فخرج بها أبوها إلى بعض الكهان يستخبره عن أمرها ، وأخرج معهن نسوة من قومها ، وأقبل معهم الفاكه بن المغيرة في رجال من قومه ، فلما شارفوا ديار الكاهن رأى عتبه من ابنته انكساراً وتغيراً فقال لها أبوها : يا بنية ! لا تكتميني من أمرك شيئاً ، فإن كان ما بك لريبة نرجع ولا بأس عليك ، فقالت هند (وكانت امرأة عاقلة منجبة) لا والله يا أبت ! ما ذاك لريبة ولا فاحشة ، ولكنكم تقدمون على بشر يخطئ ويصيب ، وأخشى أن يسمنى بسمة ، تبقى على وصمة عارٍ آخر الدهر . قال سأبلوه لك ! ثم خبا خبيثاً ، وأقبلوا حتى أتوا الكاهن فأخبرهم بخبيثهم ، ثم استنظروه في أمر النسوة فجعل يتصفحهن واحدة واحدة حتى أقبل على هند فقال : انهضى غير رسحاء ولا زانية ، وستلدين ملكا اسمه معاوية !!

ويذكرون من كواهنهم طريفة الكاهنة وكانت باليمن ، وفاطمة الخشمية وكانت بمكة ، ولها حديث مع عبد الله بن عبد المطلب أبي رسول الله صلى الله عليه وسلم ، قبل زواجه بأمنة بنت وهب الزهرية رضى الله عنها . ومن أشهر كواهنهم شق أنمار ، وسطيح الذئبي . ويتولون إن شق هذا كان نصف إنسان ، له عين واحدة ويد ورجل واحدة . وأن سطيحاً كان يدرج كما يدرج الثوب ، لا عظم فيه إلا الجمجمة ، وأن وجهه كان في صدره ، وأنهما اتفقا على تعبير رؤيا رآها ربيعة بن نصر اللخمي أحد ملوك العرب ، وأخبره سطيح بإغارة الحبشة على بلاد اليمن بسجع متكلف يبعث على التردد في تصديقه إذ قال : أحلف بما بين الحرثين من حنش ، ليهبطن أرضكم الحبش ، وليلكن ما بين أئين إلى جرث (١) . وقال شق : أحلف بما بين الحرثين من إنسان ، ليهبطن أرضكم السودان ، وليلكن ما بين أئين إلى نجران . ويزعمون أن عبد المسيح بن بقليلة الغساني أرسله كسرى إلى سطيح الذئبي ، لما حصلت الآيات بمولد النبي صلى الله

أشهر الكهان والكواهن

عليه وسلم ، فوافاه وقد أشرف على الموت فلما كلمه رفع رأسه إليه ثم قال :
عَبْدُ الْمَسِيحِ ، عَلَى جَمَلٍ مُشِيحٍ ، إِلَى سَطِيحٍ ، وَقَدْ أَوْفَى عَلَى الضَّرِيحِ ، بِبَثْكَ
مَلِكِ بَنِي سَاسَانَ ، لَارْتَجَاسِ الْإِيوَانِ ، وَخُمُودِ النِّيرَانِ ، وَرُؤْيَا الْمَوْبَدَانِ ، رَأَى
إِبِلًا صِعَابًا ، تَقُودُ خَيْلًا عَرَابًا ، قَدْ اقْتَحَمَتْ فِي الْوَادِ ، وَاتَّشَرَتْ فِي الْبِلَادِ !
عَبْدَ الْمَسِيحِ ! إِذَا ظَهَرَتِ التَّلَاوَةُ ، وَغَاضَ وَادِي السَّمَاءِ ، وَظَهَرَ صَاحِبُ الْهَرَاوَةِ ،
فَإَيْسَتْ الشَّامُ لِسَطِيحِ بَشَامٍ ، يَمْلِكُ مِنْهُمْ مَلُوكٌ وَمَلِكَاتٌ ، عَدَدَ سَقُوطِ
الشُّرُفَاتِ ، وَكُلِّ مَا هُوَ آتٍ آتٍ ! فَرَجَعَ عَبْدُ الْمَسِيحِ إِلَى كَسْرَى ، فَأَخْبَرَهُ فَعَمَهُ
ذَلِكَ ثُمَّ تَعَزَّى فَقَالَ : إِلَى أَنْ يَمْلِكَ مِنْهَا أَرْبَعَةَ عَشَرَ مَلِكًا يَدُورُ الزَّمَانُ ! ! قَالُوا
فَهَلِكُوا كُلُّهُمْ فِي أَرْبَعِينَ سَنَةً وَاللَّهِ أَعْلَمُ .

على أننا بعد ذلك لانستطيع الجزم بصحة هذه النصوص ، لما قدمناه من
الرأى فى الرواية والحفظ ، وإن كان ذلك لا يبنى صحة هذه الحوادث أو بعضها
على الأقل . وقد آن لنا أن نصف هذا النثر بما يجعله نقدًا له فى ألفاظه ومعانيه .
وأساليبه ، ثم نذكر شيئًا من خصائص الخطابة والموازنة بينها وبين الشعر ، وما
يذكره العلماء من أدب الخطباء والله المستعان .

أقسام النثر الجاهلى

قد رأيت فيما سقناه من الأمثلة السابقة كيف كان يغلب على أكثرها
السجع ، وهو التزام التقية وتساوى الفواصل من كل فقرتين أو أكثر ، كما فى
خطبة قس بن ساعدة والمأمور الحارثى ، وكيف كان بعضها مفصلاً مزدوجاً
(والتفصيل والازدواج : أن يبنى الكلام على جمل متساوية ، ذات مقاطع
تستقل غالباً بمعناها ، وينتهى الكلام باتهاؤها من غير التزام قافية ولا اتحاد
فاصلة) كما فى أكثر كلمة قبيصة بن نعيم ، وبعضه كان نثراً مرسلًا ، وهو الخالص
من تساوى الجمل والتزام التقية ، كما فى تعزية أكرم بن صيفى لأحد الملوك .

وإذاً يكون النثر العربي في الجاهلية دأراً بين السجع والازدواج والترسل أو المنشور المرسل ، وقد جاء القرآن الكريم على هذه الأنواع الثلاثة : فنه المرسل كآية الميراث في سورة النساء ، ومنه السجع كسورة المدثر وغيرها من قصاص السور ، ومنه الازدواج أو المفصل وهو كثير (١) .

صفات
الألفاظ .

من المحقق أن نثر الجاهليين لم يكونوا - في الجملة - أهل تحبير وروية ، وقد كانت لهم بديهة وكان لهم ارتجال يُعجبهم في كثير من الأحيان عن تخيير الألفاظ واجتناب الجفاء والحشونة . يعرض لقائلهم المعنى فيرسله فيما يحضر من اللفظ ، وقد يكون بالغاً إلى حد الغرابة والنفرة من ذوق أهل العصور المتأخرة كقول الخارثي (طخطخ الجهل النظر) و (كالصخر الأير) في كلمته السابقة ، ولا ينبغي أن يحمل هذا إلا على نبوة الطبع وجفاء الفريزة ، ولا يبرأ الكلام العربي في هذه الجاهلية من ذلك العيب وإن أحسنت به الظن . نعم قد تكون جفوة اللفظ وغرابته في ذاته ، غير قاذحة في لطف موقعه وغنائه في مكانه ، ولكن ذلك معوز إلى تمهر وتتمام حذق في تهيئة الموضوع اللائق له ، وتأنيس غيره من الكلمات به ، والاجتهاد في المجانسة بينها وبينه . وذلك إنما يكون برعاية المقامات ، وإحكام الصلة بين المعنى وعديله من اللفظ ، وقلما يتهيأ ذلك إلا عند طول الروية والعمود لاختيار الكلام ، وحسبك أن ترى ذلك في قوله تعالى : (ألكم الذكر وله الأنثى تلك إذا قسمة ضيزى) فان هذه الفاصلة الأخيرة لو ذهبت تضع

(١) غير أنه يلاحظ أن في نظم القرآن على هذه الأساليب المعروفة للعرب ضرباً من التحدى ، الغرض منه المبالغة في قطع العلل عنهم ، وإفساح الطريق لمن يتقدم إلى المعارضة منهم ، ويكون بعد ذلك عجزهم عن التحدى والمعارضة ناشئاً من قصور مقادير البشر عن محاكاة هذا الكلام ، ويلاحظ أيضاً ما بين سجع العرب وسجع القرآن من الفرق الكبير في التقدير الأدبي ، فقد تطول السجعات في القرآن وهي مبنية على حرف واحد كالراء في سورة القمر ، والبال في البروج والراء في المدثر ، ولا تجد فاصلة قلقة ولا حرفاً مستكرها ، بخلاف السجع العربي فلن يبرأ في الجملة من التكاف والاستكراه ، ومن أطف ما في القرآن أنه قد يسجع الفقرة المسجوعة وفي هنا من جمال القسمة ولطف الأسلوب ما يعرفه الذوق ، كالذي تراه في قوله تعالى (ولستم بأخذيه إلا أن تمضوا فيه واعلموا أن الله غني حميد) .

مكانها أدمت الألفاظ جانبا وأرقها حاشية ، ما أصبت من الغناء والكفاية مثل ما تصيب من هذه اللفظة الجاسية الغليظة . وكان القرآن عادل هذه الغرابة في تلك اقسمة الجائرة عن مواقع الصواب والمقاربة ، بما في هذه اللفظة من الغرابة وقوة الشكيمة محاكاة ، لها على طريق التبريع والتهكم ، كما تعيد كلام محدثك وتحكى صوته وشمائله عند قصد الاستهجان والسخرية .

وإنكم لتجدون لتركيب اللفظ من حروف قوية كحروف الإطباق والقلقلة وكحروف الجهر وبعض أحرف الخلق ، أو من حروف رخوة لطيفة النطق كأحرف الشفتين من اللام والميم والنون ونحوها ، تجدون لتلك دخلا في قوة اللفظ وجزالته ، وفي سلاسته ولينه ، وكذلك تضعيف بعض الحروف أو تكريرها ، وكون الكلمة زائدة على ثلاثة أو على صيغة من صيغ المبالغة ، أو كونها تدل على معاني العلاج والقوة ، كل ذلك له شأن في تصوير معنى جزالة الكلمة وقوة مُنتها ، كما أن عكس ذلك له أثره في تصيير الكلمة إلى الدمثة والرقة والعدوثة ، وقد يختلف على المعنى الواحد لفظان أحدهما قوى مجهد والآخر لطيف سهل : كالمهيج والسبيل ، وكالحوَّاء والنفس ، وكالحِضْرِم والكثير ، وأشباه ذلك مما لا يخفى على أهل البصر بهذه الصناعة .

ومن مميزات الألفاظ الإيجاز والخلو من اللحن ، ومن تكلف المحسنات اللفظية كالجناس والتورية وما إلى ذلك من أنواع البديع الإملجاء من ذلك عفواً وإن التأمل في معانيهم ليراها في الأكثر معاني فطرية ، مسيطرة لطبائع الأشياء ، مشتقة من هذه المشاهدات البدوية التي لم تصل بهم إلى حد الفلسفة والتعمق في استخراج المعاني البعيدة ، ولا إلى ما يقع في خواطر الأمم المتحضرة ذات المدنيات الصناعية والمظاهر المتنوعة ، وبذلك يمكن التمييز بين معاني هذا العصر والعصور التي استبحر فيها العمران وتنوعت المشاهدات وتغير الوطن العربي من بداوة إلى حضارات إقليمية عظيمة كان لها شأنها في استحداث كثير من المعاني المنتزعة من هذه المشاهدات الجديدة التي تختلف من

تعد الألفاظ
من حيث
الجزالة
والسلاسة

صفات
المعاني

وجوه كثيرة عن محارى البدو ومراتع الماشية ومطارد الوحوش ودوارس الأطلال
وتلك الآفاق البدوية المالكة على العربى سمعه وبصره وتفكيره . على أن لهم
فى حِكْمهم ومضارب أمثالهم وكثير من وصاياهم من المعانى الاجتماعية الخالدة ،
ما لا يزال أهل الأجيال الحاضرة يبتغونها ، ويسلكون سبيلها ويتجملون فى
أقوالهم بما يمتثلون به من محاسنها .

• ومن أظهر صفات المعانى الجاهلية خلوها من المبالغات المفضية غالباً إلى
الكذب ، وذلك لما ركب فى طباع أهل البدو من حب الصراحة وإيلاف
الصدق فى حكاية الحال الراهنة ، بما هى عليه من قوة أو ضعف لا يزيدون
ولا ينقصون .

أسلوب النثر الجاهلى

ينبغى أن يدخل فى نقد الأسلوب ما يأتى :

أولاً - صور وضع الألفاظ على وجه من وجوه النثر السابقة من سجع أو
ازدواج أو ترسل .

ثانياً - طريقة الأداء من الحتمية أو الخيال ، باتباع الطريف من طرق
التعبير ، كالكنايات القريية ، وتجاهل العارف ، وخطاب ما لا يعقل من
الحيوان والجماد .

ثالثاً - النظر فى جملة الأسلوب من حيث الجزالة أو الرقة النامئة عما يتركب
منه من المفردات على نحو ما أسلفنا فى نقد الألفاظ .

رابعاً - النظر إلى الربط والملاءمة بين العبارات ، ثم النظر إلى ما يكون من
فضول وترادف أو حذف واختصار .

خامساً - مراعاة قواعد الإعراب من جهة سلامة الأسلوب من الحذف
وطول الفصل والتقديم والتأخير ، ومن جهة استعمال كنايات بعيدة ، أو

استعارات غريبة مع المطابقة لمقتضيات الأحوال ، ويزاد على ذلك براءة المعاني من الإحالة أو الكذب .

وإنك لو نظرت في الأسلوب بهذه المقاييس السابقة تستطيع أن تصل إلى حكم صحيح في النقد الأدبي للكلام . وانظر بعد في هذا الأسلوب الجاهلي ، فقد نرى أن الذي يغاب عليه السجع خصوصاً في تخرصات الكهان وفي الوصايا وفي أكثر الخطب كما قدمناه ، وكانت طريقتهم في الأداء الاتجاء إلى الحقيقة ، وقلمنا نظفر منهم بكلام مبني على التخيل أو مخاطبة الجماد ، إلا أن يكون ذلك في الشعر لا في النثر .

وفي أسلوبهم الجزالة وقوة الأسر ، مع شيء من عُنْجُوبِيَّةِ البداوة في ارتفاع الغريب والوغر من الكلمات ، أما العناية بالربط والتجنيس بين الجمل فقد يفوتهم ذلك أحياناً ، كما في أكثر المأثور عن أكرم بن صيفي . وجملة الأسلوب قوية من الفضول واطرادف إلا عند دعوة المقام ومساس الحاجة ، كما رأيت في قول قيس بن خارجة (وأنهى عن التقاطع ؛ بعد قوله أمرٌ فيها بالتواصل) على أن الحكم على أهل البدو جملة بالخشونة والقوة في الكلام ، قد لا يسلم من الإسراف إذ كانت سنة التكوين تقضي أن يوجد في كل جملة من الناس خالقة وجملة ، من يكون كزاً غليظ الطبع ومن يكون سهلاً سمح السجية رقيق الحاشية ، بل قد يعرض ذلك للشخص الواحد في حالين مختلفين : يتوعر في إحداها حتى ليكاد يعجم ما يعرب ، ويتسهل في الأخرى حتى ليكاد يذوب عذوبة وسلاسة ، وإن كنا لانستطيع أن نجد الدليل على ذلك من كلامهم المشور لقلّة ما بأيدينا منه .

أغراض الخطابة

لم تكن الخطابة في هذا العصر تتعدى معظم الشئون العامة ، التي تكون في أمة بدوية كالعرب في الجاهلية ، فكان من أهم أغراضها إصلاح ذات البين لكثرة ما كان يتبع من التنافر والمشاحنة ، ثم التحريض على القتال عند نشوب الحروب ، وكانت لهم سفارات إلى القبائل المتفرقة والأمم المجاورة في عقد المحالفات وتأمين السبل واحتمال الديات ، ذلك إلى ما كانوا يتنازعونه بينهم من قواعد الشرف والتفاخر بالحسب والعدد ، وكان لهم خطبة إهلاك يضمنونها ما يشاءون من الترغيب في الصبر والتنوية بالروسين ، مع التزام القصد في المديح بما يجري مع الواقع المعروف .

أدب الخطيب

وكانوا يعدون للخطيب خصالا . لا يكمل عندهم إلا بها ، فمنها شرف الأصل وصدق الحديث وجَهارة الصوت وقلة التأنث وكثرة الريق ونظافة البرقة ، وكانوا يخطبون على رواحهم أو قياما على نشز من الأرض ، مع اعتجار العمامة واتخاذ الخصرة أو العصا ، والغرض من ذلك كله استكمال ما يكون الخطيب به أكثر تأثيراً ، وتكون النفوس لقوله أكثر قبولا .

الخطابة والشعر

ولم تقم الخطابة للشعر في الجاهلية ، وما زال الشاعر عندهم أكثر فضلا وأرفع شأنا من الخطيب ، وإن كان لبعض خطبائهم ذكر وحرمة لم ينلها شاعر ، ورغم ذلك كان الشأن في الجملة للشعر ، وما زال الأمر كذلك حتى أفضى الشعر إلى قوم آخذوه أداة للكسب ، وانتجعوا به أقاصي البلاد ووضعوه

عند الملوك والشوكة ، فاستخذي منه الأشراف وتحاماه السادة ، ونهت الخطابة بعض نباهة ، ومع ذلك فما بدت الشعر ولا قامت له وبقي الشعراء على هذا أسير ذكراً وأعزاً جانباً ، حتى جاء الإسلام واشتغل الناس بما سحرهم من بيانه ، فسكتوا حيناً عن الشعر ، وحينئذ عظمت الخطابة ولم يستطع في ذلك الصدر أن يقوم لها الشعر .

الشعر

تمهيد : قد يتعذر على الباحثين أن يهتدوا بين ثنايا الأحقاب إلى الوقت الذي يُورثون به مولد هذا الفن الجميل في لغات الإنسان ، ومن المحقق أن الزمان دار بعينيه فيما حوله ، فإذا هو يرى الإنسان وهذه الطبيعة الساحرة تُخطر بين يديه في رداها المرقتش ، فتلهم طبعه أسراراً ما استودعته من محاسن هذه الحياة ، حتى شاقه ذلك إلى التغمي بدائع مارسمته بين القدر على صحائف الوجود من لطيف الأثر . وكانت هذه الفطرة الشاعرة تختمر في صدره ، وتماثل إلى الكمال في نفسه ، حتى غلبته على احتمالها ، وتبدت في ذلك المثال العذب من جمال الأدب على لسانه . وإذا الغناء والشعر يُخلقان كزوج الطائر فوق رؤوس الربي وبين خجائل الزهر ، يتناغيان بنجوى النفوس ويوقعان على أوتار الأفتدة ، وقد ضاعت أوائلهما من حساب الزمن ، كما اختفت عن عينيه أوليات كثير من الأحداث التاريخية ، كاصطناع الثياب والنخاز الأبنية واستيقاد النيران وأشباب ذلك مما فطن الإنسان إلى استنباطه بفضل حيلته ، واهتدى بقوة الحاجة إليه . وكان الشعر باعتبار أنه شعور منبعث عن النفس ووجدان طبيعي في تركيب الخلقة ، شبيهاً بحلاوة الحلوقة التي هي أساس لحون الغناء ، كلاهما قديم على الزمن ، وهو بهذه المثابة لا يتميز عن النثر ، بل هو من قبيل ماسماه المتأخرون من أهل الأدب بالشعر المنشور ، وإما حدث للإنسان اصطناع أقيسة

نشأة الشعر
في لغات
الناس

الغناء واختراع أوزان الشعر في دهر متأخر ، وصلت فيه اللغات إلى مدى من الرقى ، يساير هذين الفئتين إلى ما يُعَوِّزُهُما من الكلام ، وهكذا مشى الشعر يتسرّب في أعقاب المعور ، حتى ظهر أيضاً على غنائه من التاريخ في هذه البادية العربية ، فرتح ما شاء الله بين آفاقها المجاورة وسمائها الصافية ، ورسم لهذه الأمة الخالدة صفحة ناصعة حايّت بها صدور الأسفار ، وتمثلتها الأجيال بعد الأجيال عليها تماثيل الحياة الجافية البدوية فيما بقي من هذا الشعر الجاهلي ، الذي آن أن نُفصل القول فيه ومن الله التوفيق .

تعريف الشعر عند العرب

العرب تعدّه من الفنون الجميلة التي يُسمونها الآداب الرفيعة ، وقد اختلف العلماء في تعريفه فمنهم من جعله كلاماً وأجوده أشعره ، ولم يشترط له وزناً ولا قافية ، ويدخل فيه حينئذ ما يُشبهه أن يسمى شعراً منشوراً من حكمة أو مثل ، يُبنى غالباً على صواب التشبيه وإيجاز اللفظ ولطف التصور ، ومنهم من اشترط فيه الوزن دون القافية ، ومنهم من جعله موزوناً مقفى وأجاز تعدد القافية ، والجمهور على اشتراط الوزن ووحدة القافية . قال صاحب المقدمة (الشعر هو الكلام المبني على الاستعارة والأوصاف ، المفصلُ بأجزاء متفقة في الوزن والروي ، مستقلٌ كل جزء منها عما قبله وبعده ، الجارى على أساليب العرب المخصوصة) . وهم وإن اختلفوا - كما رأيت - في تعريف الشعر متفقون جميعاً على أنه لا يكون شعراً إلا إذا كان صادراً عن الطبع ومتصلاً بهذا البهاء من جمال الفن ولطف التخيل ، وإلا فهو نظم لا غير ، وإذا كان المحوّرُ البارغُ يعرضُ عليك الصورة من نقشه فتأخذها عينك وتحيرك فيما تستحسن منها أو تدع ، فكذلك الشاعر يحمل إلى خيالك في تماثيل ألفاظه صور الأشياء مُتَجَلِّيةً في أزيائها الطبيعية ، حتى لتكاد تراها ماثلة بين عينيك . ذلك هو الشعر يتحدث عن الرياض

فيكاد يَشْطَعُ طَيْبُهَا ، وَيَصِفُ الْغَانِيَاتِ فَيُسَاقِطُ عَلَيْكَ اللُّوْلُوَ مِنْ حَدِيثِهَا ،
وَيَحْكِي طِيرَادَ الْفَرَسَانِ فَتُمْسِكُ جَنْبَيْكَ حِذَارًا مِنْ وَقَعِ رِمَاحِهَا ، فَهُوَ أَغْنِيَةٌ
الزَّمانِ وَحِلْيَةٌ هَذَا الْبَيَانِ .

أَوْلِيَّةُ الشَّعْرِ الْعَرَبِيِّ

يكاد الرأى يستقر على أن التاريخ المعروف للشعر الجاهلى الحديث ينسب
أقدم مَطْوَلَاتِهِ إِلَى عَدِيِّ بْنِ رَبِيعَةَ أَخِي كَلْبِ بْنِ حَرْبِ الْبَسُوسِ الَّتِي أَثَارَهَا
مَقْتَلُ أَخِيهِ بَيْنَ بَكْرٍ وَتَغْلِبَ . وَيَنْتَهَى أَقْدَمُ مَقْطُوعَاتِهِ إِلَى شِعْرَاءِ آخِرِينَ مِنْهُمْ
مِنْ عَصْرِهِ ، وَأَكْثَرُهُمْ لَا يَبْعُدُونَ عَنْهُ طَوِيلًا كَدُوَيْدِ بْنِ زَيْدِ بْنِ نَهْدٍ ، وَالْأَفْوَهِ
الْأَوْدِيِّ ، وَعَمْرُو بْنِ قَيْثَةَ ، وَزُهَيْرِ بْنِ جَنَابِ الْكَلْبِيِّ ، وَأَبِي دُوَادِ الْيَادِيِّ ،
وَمَنْ غَيْرِ الْمَعْقُولِ أَنْ يَكُونَ عَدِيٌّ وَالَّذِينَ تَبَعُوهُ كَأَمْرِ الْقَيْسِ وَعَبِيدِ بْنِ الْأَبْرَصِ
وَطَرَفَةَ وَغَيْرِهِمْ هُمُ الَّذِينَ وَثَبُوا هَذِهِ الْوَثْبَةَ بِالشَّعْرِ عَلَى تَعَدُّدِ قَوَافِيهِ وَتَنوعِ أَوْزَانِهِ
وَنَضْجِ صِنَاعَتِهِ ، إِذْ كَانَ ذَلِكَ يَحْتَاجُ إِلَى عِرَاسِ قَوِيٍّ وَدِرَاسَاتِ طَوِيلَةٍ تَخْرُجُ
فِيهَا هَذِهِ الْمَوَاهِبُ الْفَنِيَّةُ ، وَتَعْلُقُ إِلَى مَا يَتَّحِقُ لَهَا مِنْ دَرَجَاتِ التَّكْوِينِ وَالتَّنْقُلِ
بَيْنَ أَسْبَابِ النَّمُوِّ وَالْإِرْتِقَاءِ ، وَإِنْ التَّمَامِلُ فِي قَوْلِ أَمْرِ الْقَيْسِ :

أوائل الشعراء .

عُوجًا عَلَى الطَّلَالِ الْمَحِيلِ لِأَنَّنا نَبْكِي الدِّيَارَ كَمَا بَكَى ابْنُ خِزَامٍ
(وَهُوَ طَائِيٌّ قَدِيمٌ لَا يَعْرِفُ عَنْهُ شَيْءٌ فِي غَيْرِ هَذَا الْبَيْتِ) وَفِي قَوْلِ
زُهَيْرِ الْمَزِينِيِّ :

مَا أَرَانَا نَقُولُ إِلَّا مُعَارًا أَوْ مُعَادًا مِنْ قَوْلَانَا مَكْرُورًا

وقول عائشة :

هَلْ غَادَرَ الشُّعْرَاءُ مِنْ مُتَرَدِّمٍ أَمْ هَلْ عَرَفْتَ الدَّارَ بَعْدَ تَوَهُّمٍ .

لَيَعْرِفُ أَنَّ الشَّعْرَ الْجَاهِلِيَّ أَقْدَمُ مِمَّا يُظَنُّ بِكَثِيرٍ ، وَأَنَّهُ تَدْرُجُ مِنَ السَّجْعِ إِلَى
لَرْجِزٍ ، ثُمَّ إِلَى الْمَتَطَعَاتِ وَالتَّقْصِيدِ ، ثُمَّ إِلَى هَذِهِ الضَّرُوبِ مِنَ الْأَوْزَانِ وَالتَّقَوَافِي

قبل هذا العهد بزمن طويل . وإذا كان الباحثون إلى الآن لم يوفقوا إلى العلم بشيء من أولية الشعر وراء هذا التاريخ ، فمن العبث إذاً محاولة الكلام فيما ينسب من الشعر إلى العرب البائدين ، وإلى الجن والملائكة وإلى آدم صلوات الله عليه ، وقد قال ابن عباس رضي الله عنه (من زعم أن آدم قال الشعر فقد كذب على الله ورسوله) .

نشأة أوزان الشعر الجاهلي

قد بينا فيما سبق كيف كانت الطبيعة بمنزلة الأستاذ التاريخي الذي يرجع إليه أكثر الفضل في اهتداء الإنسان إلى كثير من معارفه الضرورية الأولى ، وما كان العربي إلا إنساناً كغيره من أجناس البشر ، له حسٌ وفيه عاطفة. وبين جنبه نفس متأثرة بحبّ الجمال ، وقد طال إصغابها لهذه الأغاني الطبيعية المترددة في أسجاع الطيور وحنين الإبل وتناوح الرياح ، فما هو إلا أن حكى صداها وشدا معها وصار وترّاً آخر من أوتارها ، دعته تكاليف العيش في تلك البادية القاحلة إلى قطع المسافات وهو على ظهر راحلته في مثل أزجوحة الطفل ، تُرَقِصُه تلك الإيقاعات المتوالية التي أخذ يُلقَى على ضروبها من ألحانه الساذجة حذاءً لناقته. وأنيباً له في وحشته ، إلى أن هدته تلك النفس الشاعرة إلى لون من الكلام المؤنّف الموزون على هذه المقاطع المتساوية يُوشكُ أن يكون هو الرجز ، الذي لو تأملته في تقطيعه وتفاعيله لوجدته أكثر شيء شبيهاً وأشدّه مساواة لحركات الإبل في اهتزازها ومسافات سيرها ، ثم جعل ذلك الميزان الجديد من الكلام يُطربُه ويستولي عليه ، فألفه وأخذ يزيد فيه ويحتفل في تأليفه ، ومضت طفولته مع الزمن فنهض إلى صباه وقام ينبعث مع الحياة على قدميه ، وتنازعت حينئذ الألسنة استحلاء لموقعه ، واسترواحاً للراحة من التّعنى به ، فتفتحت له عيون وتخلّقت أوزان ، وأوشك أن يكون صناعة فنية آخذة كسائر الصناعات طريقها

إلى النضج ، و متمشية إلى ما تهبها لها من الكمال ، وساعد على ذلك ما في هذه النفوس العربية من لطافة الفطرة وصفاء القرينة وقوة الاستعداد ، وكذلك دعوتهم حاجتهم إلى الأخذ بنصيب من الجمال ، أن يتغوا ذلك في حسن التعبير وجمال الكلام ، إذ كانت آفاق بلادهم فقيرة من تلك الألوان الزاهية لجمال الطبيعة ، من بحار وجزر وجبال وأنهار وحقول وخمائل ، فكان طبيعياً أن يقضوا هذا الأرب في جمال الشعر فأرهبوا له الألسنة وشحنوا به العقول ، وما لبثوا أن ملأوا به الحياة البدوية فصار ديوان تاريخ وسجل حكمة وينبوع جمال ، وعلى ذلك أكثر الباحثين^(١) في نشأة الشعر الموزون الذي هو بعد هذا يعد أشهى ثمرات العبقرية العربية في هذا العصر الجاهلي .

شاعرية العرب

وما كان للناس عجباً أن يمتاز العرب بهذا الشعر ، وأن يفوقوا فيه سائر الأمم ، وأن يقوله منهم الرجال والنساء والسادة والصعاليك والرعاة والاصوص ، إذ لم يعرف عنهم أنهم يميلون إلى الفلسفة أو ينشطون لتعلم العلوم أو مزاولة الصناعات ، وإنما كانت صناعتهم ، وإنما كان اهتمامهم مصروفين إلى هذا الفن الجميل من الكلام ، ولم يزد ما أثر عنهم من ضروب الحكم على أن يكون في جملته أشبه بالحقائق المجردة التي لا تتباعد عن تناول الفطرة وإنتاج التجربة والمشاهدة ، وكان الذي أعان هذه الموهبة الفنية على مثل هذا الإنتاج

(١) ذلك ومن المؤرخين من يجعل مبدأ السجع ، وهو كما تعلمون قسم من المنثور ويقول بهذا الرأي بعض كبار المتعربة من علماء الألمان كجلد زهر وبروكلان وفي معجم المراجع لهذا العالم ، أن ذلك أيضاً كان شأن الشعر عند الأبحاش وهم أقرب أقرباء العرب ، وعند غيرهم من الأمم القديمة ، وهو يؤيد ما ذهبنا إليه من قدمه النثر في الميلاد عن الشعر كما بينا في غير هذا المكان .

الغزير ، (أولاً) هذه اللغة العربية التي هي بإجماع علماء اللغات لغة شعرية غنائية ، أسبابها ذات جرس ورفين في مفرداتها وتراكيبها ، غنية بما فيها من دقة التعبير وأساليب الكنايات وكثرة الترادف المعينة على تنويع القافية وتسهيل النظم ، و (ثانياً) تلك الحياة البدوية ، وهذا أمر له خطره ، فإن من شأن تلك الحياة أنها تجعل الطباع البشرية أقوى وجوداً وأشدّ التهاباً وأكثر تأثيراً ، يهيجها الحبّ ويطيش بها الغضب وتهزها الرغبة ويثيرها الطرب ، وهذه كلها تعتبر من أقوى فواعل الشعر ودواعيه . وإذا لم يكن للعربي كما قدمنا من الصناعات ما يشغله عن التفرغ لهذا الفن والاتقطاع لإتقان صناعته ، فقد كان ذلك سبيل التجويد وذريعة الكمال والارتقاء ، مع ما كان في هذه النفس العربية من صفاء ، وما كان في تلك العواطف البدوية من قوة ، وما تأثرت به من طول التأمل في المشاهدة الطائفة بها ، وما كان يدفع العربي في هذه البادية إلى المحاماة عن النفس والدفاع عن النّمار من الانتصار بالعصبية ، التي صار الشعر عندهم من أقوى أدواتها وأوثق أسبابها ، وأصبح الشاعر بينهم صاحب المقام الأعلى في إثارة الحروب وإطفاء الفتن والتنويه بمفاخر القبيلة ، فانتجت لهم هذه الحياة الخاصة من الشعر ما لم تفقههم فيه أمة من الأمم ، ولولا ما عدا على هذا التراث الأدبي من عوادي الضياع ، كشيوع الأمية وموت كثير من الحفاظ في المغازي والفتوح الإسلامية ، لبلغنا منه الخير الجَمّ والشعر الكثير ، وقد قال أبو عمرو ابن العلاء « ما بلغكم مما قالت العرب من الشعر إلا أقله ، ولو جاءكم وافراً لبلغكم منه علم وشعر كثير » .

طبيعة هذا الشعر ونوعه (١)

يقول بعض الغلاة من المستشرقين : إن فكرة التوحيد نشأت عند العربي من وحدة الحياة في أقطه . وذلك أنه - على زعمهم - عاش في حياة جامدة قليلة التنوع تسير على وتيرة واحدة . هي التي أكسبته هذه السنداجة في تصوّره وأساليب حياته .

فهو قد قضى دهرًا طويلاً في هذه البادية الجرداء ، لم ير فيها من حلى الأرض إلا ذلك النخل المصعد وتلك الصحراء المحرقة ، فأثر ذلك اللون الثابت من ألوان الطبيعة في خياله وإنتاج نفسه ، إذ كان الاجتماع يصور الشاعر - والشاعر كما يقولون صورة من الاجتماع - حتى صار قليل الميل إلى التحول ، شديد الإعجاب بالنفس ، والإيثار للوطن ، والرضا بما لديه ، على ما في ذلك من شظف وسوء عيش ، وكان طبيعياً أن يكون مستقرّ الفكر ، غير نزاع إلى الاستقصاء والتعمق في البحث ، وألا يكون له ذلك القلق العقلي ولا تلك الحيرة الفكرية التي تدعو صاحبها إلى الدخول في أعماق الأشياء ، والتغلغل في أسرار الكون ، وكان لهذا الاعتبار أثره الظاهر في قصر الخيال عند العرب ، لانتهاهم إلى تصور الأشياء من هذه الطريق الفطرية البعيدة عن الاستقصاء والبحث ، فلم يكونوا لذلك أهل أساطير ولا أصحاب قصص ، يحتاج إلى مثل ذلك الخيال البعيد وهذا النفس الممتد الطويل ، ولا نغنى بقوانا الخيال ذلك الذي ينبني على نقل صورة من وضع إلى ما يشبهه لعلاقة بينهما مما يسمى تشبيهاً أو مجازاً ، وإنما هو ذلك الانطلاق الفكري وراء تصوّر الأشياء وتلوينها بألوان من الوهم ، قد لا يكون لها في الواقع وجود كالتخرافات والأساطير اليونانية التي هي ثمرة من ثمار العقل الحائر والفكرة المتحركة الجائلة ، بل إن العرب زادوا على هذا أيضاً أنهم

(١) رجعتنا في تأليف هذا الفصل إلى كتاب الشهاب الراصد لوضعه العالم الجليل الأستاذ لطفى جمعه الكتاب المعروف .

عدوا إلى الاختصار والإيجاز ، فضمنوا الجملة القصيرة من ضروب الحكمة ، وساقوا المعاني الكثيرة في الألفاظ اليسيرة ، حتى جعلوا البيت الواحد من الشعر قائماً بمعناه مستقلاً عما قبله وبعده ، وكان الشعر أفضل آثار العقول وخير ثمار الألسنة ، فتجلت فيه هذه النزعة الفطرية الساذجة ، وأظهرت منه البديهة والارتجال ذلك المدى القصير من جولة الفكر وعمل الروية .

ونحن نقول إن هذا الكلام وإن كان في جملة صحیحاً ، إلا أن فيه مبالغة وتحملاً ظاهراً ، تستطيع أن تلمسه في هذه المحاولة التي يقصد منها تهجين هذه العقيدة الصادرة عن دين صحیح ، لأن أئمة أخرى سامية كانت تقول بتوحيد الخالق قبل العرب ، وكانت تعيش في ريف خصيب وطبيعة متنوعة وحضارة قديمة معروفة ، ولأن العرب تصوّروا كما تصور اليونان آلهة كثيرة نسبوا لها الأنصاب والتمسوا بها الزلفى ، وسموا أنفسهم بأسمائها كيعقوب ويعوق والعزى ومناة الثالثة الأخرى ، وتصوروا فوق ذلك أرواحاً خفية من الجن كانت توجي إليهم عبقريتهم الشعرية كما سنفصل ذلك بعد .

الشعر
القصصى

الحق أن نعترف بأن الشعر العربى لم يكن شعراً قصصياً بالمعنى المفهوم عند الأمم الآرية أو الأوربية الحديثة ، لأن ذلك يعتمد في جوهره على سعة القافية وطول القصيدة ، إلى حدّ لم يألفه العرب ولم يعرفوه ، إذ قد تبلغ القصيدة الواحدة آلافاً من الأبيات ، وهو يذكر الوقائع والعادات ويصور الشعوب ويصف أحوال الاجتماع وسير الأبطال ، ويذكر الآلهة ويستوحىهم الكلام وجمال الإلهام . والحق أن الشعر العربى لم يكن فيه قصص بهذا المعنى ، وإن كان فيه قصص فهو بغير هذا اللون المفهوم عند غيرهم من الأمم الأخرى ، وكذلك

الشعر التمثيلى

لم يكن فيه شعر تمثيلى من شأنه أن يعتمد على المحاورة بين قائلين وأكثر من قائلين ويختلط بحركات جوارحهم ومجموع هيئاتهم وشمائلهم وأغانيتهم ، وليس لنا أيضاً مثل هذا النمط من الكلام في الشعر العربى . ولكن أيعض ذلك من

الشعر العربي أو ينقص من بهائه وجمال ألوانه ؟ كلا ! ولو عرفت العرب هذا القصص وهذا التمثيل لأخرجوا منه للناس عجباً ، وهم الذين حين جمعهم الملك واستوت لهم الحضارة ؛ وثبوا على آداب الفرس وفلسفة اليونان وأنظمة الرومان فخلطوا ذلك بانغمهم وآدابهم ، وصيروا منه مزاجاً بديعاً تنوّرت به مدنيت العالم الحديثة إبان عصورها المظلمة ، فالشعر العربي شعر غنائى غنى بوفرة أوزانه وتعدد قوافيه ، وجدانى يصف آثار النفوس وصور العواطف المبسطة من الإحساسات النفسية ، ويتناول طبائع الأشياء من حيث هي من غير مبالغة ولا إصراف ، ويعتمد على الحقائق الثابتة البريئة من تكلف الاختلاق والكذب اللذين هما في الغالب عتاد القصاصين وأصحاب الخرافات من الأساطير ، وهو في مجموعه مظهر من مظاهر الاجتماع العربي ، فيه مسحة البادية وعلى مخايله كثير من آثار الأعراب ، وهو شعر فطرى فى معانيه التى هى حقائق مكشوفة لا يعالج الفكر عناء كبيراً فى انتزاعها من معادنها الطبيعية ، وربما كانت هذه السداجة فى تركيبه واستنباط معانيه ، هى سرٌّ مافيه من المتانة وخفة الظل والموافقة لكثير من الطباع .



تنقل الشعر في القبائل

والقراية بين الشعراء

ذكر أبو عبد الله محمد بن سلام الجمحي في كتاب طبقات الشعراء ،
وذكر غيره من المؤلفين أن الشعر كان أولاً في ربيعة ، وهي شعوب وقبائل
كثيرة منها بكر وتغلب وعبد القيس والبر بن قاسط ويشكر وعجل ولجيم
وضبيعة وشيبان وذهل وسدوس ، وكانوا يقيمون قديماً في اليمن ثم في نجد ثم
نزحت بكر وتغلب نحو العراق ، ونبع منهم - وهم في نجد - المهلهل وهو عدى بن
ربيعة أخو كليب ، ومن شعرائهم المرقش الأكبر وهو عمرو بن سعد وقيل
عوف بن سعد شاعر قديم يقال إنه نشأ في ربيعة قبل خروجها من اليمن ،
والمرقش الأصغر وهو أشعر المرقشين واسمه عمرو بن حرمة وهو عم طرفة بن
العبد ، ومنهم سعد بن مالك ، وعمرو بن قميئة ويقال إنه أخو المرقش الأكبر
أو ابن أخيه ، وطرفة بن العبد ، والمتلمس وهو خال طرفة واسمه جرير بن
عبد المسيح ، والحارث بن حلزة ، والأعشى وهو ميمون بن قيس ، وخاله
المسيب ابن علس واسمه زهير ، وعمرو بن كلثوم التغلبي . ثم تحوّل الشعر في
قيس وهي قيس عيلان ، ومن بطونها عبس وذبيان وخطمان وهوازن وسليم
وعدوان وثقيف وعامر بن صعصعة ومير وجعدة وقشير وعقيل ، وكانت هذه
القبائل في نجد وأعلى الحجاز ، ومن شعرائها النابغتان الديان والجدى ،
والثاني منهما مخضرم أدرك الإسلام ، ويقال إنه كان أسن من النابغة الديان ،
ومنهم زهير بن أبي سلمى المزني ، وكعب ابنه ، ولبيد بن ربيعة العامري ،
والخطيئة ، والشماخ واسمه معقل بن ضرار ، وعنترة العبسي ؛ ثم استقر الشعر في

تميم وهي قبيلة كبيرة من مضر ، ومن بطونها مازن وداريم ويزبوع ومجاشع ومالك وبهذلة ، وكانت تميم في تهامة ثم نزحت في أواسط القرن الثاني قبل الهجرة إلى بادية العراق وما يليها جنوبا ، ومنهم أوس بن حجر وكان شاعر مضر في الجاهلية غير مدافع . ثم ظهر الشعر بعد ذلك في بطون مذكورة وهي هذيل وأسد وكنانة وقريش والدليل وكل هؤلاء من أهل البادية . وأما الجواضر فكانت قبيلة في بلاد العرب وهي مكة والمدينة والطائف ولم ينبغ منها شعراء كثيرون ، وعندهم أن أشعر أهل المدر في الجاهلية حسان بن ثابت شاعر رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وكان لكل شاعر راوية يحفظ شعره ويذيعه في القبائل ، فيتناشد الرجال والولدان في أسمارهم وأنديتهم ، وتتغنى به الركبان والرعاة ، ويأنس به المدايح في ظلمة الليل ، وينشده المائح على البئر ، ومن هذا وأشباهه سار الشعر في الآفاق وغلب على أكثر أهل البادية حتى اتكاد تحسبهم كلهم شعراء .

فنون الشعر ووحدة اللغة بين الطبقات المختلفة من السكان

يذكر العلماء فنون الشعر وهم يقصدون بها تلك الأنواع المبتوثة في تضاعيف الكتب ، من المدح والحماسة والفخر والنسيب والوصف والاعتذار والحكمة والهجاء ، ومنهم من يدخل بعض هذه الأنواع في بعض فيجعل الرثاء والفخر والنسيب داخلية في باب المديح ، بل منهم من يجعل الشعر كله قائما على المدح والهجاء لا غير ، ولكن الحق أن بعض هذه المقامات يختلف عن بعض ، وأن الرثاء مثلا وإن كان فيه ذكر ممدوح المرثى ، غير أن ذلك في الجملة منحرف عن قصد الشاعر حين تنصدع نفسه ويضرب الهم بين جوانحه ، ويكون هم الشكوى من الدهر والبكاء لفقد الحميم ، وكذلك في النسيب وغيره مما ذكرناه ، ومما

يحسن التنبيه إليه هنا أن هذه الأنواع لا ينبغي أن تكون هي ضروب الشعر أو أقسامه في ذاته ، ولكنها أنواع فمن واحد منه كما أسلفناه : هو ذلك الشعر الغنائى الذى يتحدث عن عواطف النفوس وما يحيط بها من مظاهر هذه الطبيعة الفطرية فى إخلاص وصدق وسداجة ، هى سر ما فيه من جمال وظل ، أو من طريق آخر هى أنواع ذلك الشعر العربى (١) .

فقد كان العربى يفتخر بنفسه وقومه ، فلا يدعو الإسراف ولا يجره الغلو إلى وصف نفسه بما ليس فيه ، وإنما يذكر الإسراع إلى الصريح والصبر عند اللقاء ، ويذكر الخيل والسلاح والغناء فى الحرب ، واعتبر ذلك فى قول ودّك ابن ميميل المازنى فى يوم كان لهم على شيان :

رَوَيْدَ بَنِي شَيْبَانَ بَعْضَ وَعَيْدِكُمْ تَلَّاقُوا غَدًا خَيْلِي عَلَى سَنْفَوَانٍ (٢)
تَلَّاقُوا جِيَادًا لَا تَحِيدُ عَنِ الْوَعَى إِذَا مَا غَدَّتْ فِي الْمَازِقِ الْمُتَدَانِي (٣)
عَلَيْهَا الْكُمَاةُ الْفَرُّ مِنْ آلِ مَازِنٍ لِيُوثُ طِعَانٍ عِنْدَ كُلِّ طِعَانٍ (٤)
مَقَادِيمُ وَصَّالُونَ فِي الرَّوْعِ خَطُومِهِمْ بِكُلِّ رَقِيقِ الشَّفَرَتَيْنِ يَمَانٍ
إِذَا اسْتُنْجِدُوا لَمْ يَسْأَلُوا مِنْ دَعَاهُمْ لِأَيَّةِ حَرْبٍ أَمْ بِأَيِّ مَكَانٍ

مساواة
بين كلام
الجاهليين
وكلام غيرهم
من العصور
الأخرى

فأنت ترى كيف انتزع هذا الشاعر مفاخره من هذه المظاهر البدوية الصادقة ، ولم يدع فيها ما ادّعاه ابن سناء الملك - بعد هذا العصر - من مغالبة النهر واختراع الكذب إذ يقول :

تَوَقَّدَ عَزْمِي يَتْرُكُ الْمَاءَ جَمْرَةً وَحِيلَةَ حِمْيِ تَتْرُكُ السَّيْفَ مِبْرَدًا

(١) الذى توحدت لفته بين شعراء الجبال وسكان الأودية وبين أهل الحواضر وفى السنة الرجال والنساء والرعاة والصالحين واللصوص ، وكان ذلك من الأسباب التى ألفت بين القبائل المختلفة وصيرتهم كأمة فأئمة قبيل ظهور الإسلام .

(٢) اسم ماء كانت عنده الموقعة . (٣) المكان الضيق من أزق كفرح وضرب .

(٤) واجده كى ، وهو الشجاع أو لابس السلاح .

ولو مَدَّ نَحْوِي حَادِثُ الدَّهْرِ كَفَّهُ . لَحَدَّثْتُ نَفْسِي أَنْ أُمِدَّ لَهُ يَدَا
وَإِنَّكَ عَبْدِي يَا زَمَانُ وَإِنِّي عَلَى الرَّغْمِ مِنِّي أَنْ أَرَى لَكَ سَيِّدًا !
وكانوا يمدحون فلا يبالغون في رفعة المدوح ، وإنما يؤثرون إصابتها
الصواب ، ويحفلون للحقائق ككل الأمم البدوية التي لم تتأوت طبائرها
بأكاذيب المدنية ، وانظر إلى ذلك في قول زهير بن أبي سلمى في حصن بن
حذيفة بن بدر الفزاري :

وأبيضَ قِيَاضٍ يَدَاهُ غَمَامَةٌ عَلَى مُعْتَفِيهِ مَا تَغِيبُ فَوَاضِيَهُ (١)
بَكَرَتْ عَلَيْهِ غُدُوءٌ فَرَأَيْتُهُ قُعُودًا لَدَيْهِ بِالصَّرِيمِ عَوَازِلُهُ (٢)
بُغْدِيئَهُ طَوْرًا وَطَوْرًا يَأْمَنَهُ وَأَعْيَا فَمَا يَدْرِيْنَ أَيْنَ نَحَاتِلُهُ
فَأَقْصَرْنَ مِنْهُ عَنْ كَرِيمِ مُرْزَا عَزُومٍ عَلَى الْأَمْرِ الَّذِي هُوَ فَاعِلُهُ
أَخِي ثِقَّةٍ لَا تُتْلَفُ الْخَرُّ مَالَهُ وَلَكِنَّهُ قَدْ يُتْلَفُ الْمَالُ نَائِلُهُ
تَرَاهُ إِذَا مَا جِئْتَهُ مُتَهَلِّلًا كَأَنَّكَ تُعْطِيهِ الَّذِي أَنْتَ سَائِلُهُ

وكم بين هذا وبين قول علي بن جبلة وهو العكوك ، في بعض
الأمرء العباسيين :

مدح الجاهلين
ومدح غيرهم

أَنْتَ الَّذِي تُنْزِلُ الْإَيَّامَ مَنْزِلَهَا وَتَنْقُلُ الدَّهْرَ مِنْ حَالٍ إِلَى حَالٍ
وَمَا مَدَدْتَ مَدَى طَرْفٍ إِلَى أَحَدٍ إِلَّا قَضَيْتَ بَارِزَاقٍ وَأَجَالَ
وكانوا إذا هجوا تباعدوا عن المهجر وعفوا عن ذكر السوءات ، وإنما
يتهاجون بالعجز عن اكتساب الجهاد والتشبهه بالآباء ، وبالنقص من صفات
المروءة والنجدة ، ومن أمثلة ذلك قول قريظ بن أئيف العبدي يهجو قومه
ويخلط ذلك بمدح أعدائهم ، ليكون ذلك أبلغ في غيظ صدورهم يقول :
لو كنتُ من مَازِنٍ لَمْ تَسْتَبِحْ إِلَيَّ بَنُو اللَّقِيْطَةِ مِنْ ذُهْلِ بْنِ شَيْبَانَ

(١) المعتق : الطالب المروف . تغيب : تنقطع . (٢) الصريم : الفصر أو الصباح .

إِذَا لَقَامَ بِنَصْرِي مَعْشَرُهُ خُشُنٌ
عَبْدَ الْحَفِيظَةِ أَنْ ذُو لُوثَةٍ لَنَا
قَوْمٌ إِذَا الشَّرُّ أَبَدَى نَاجِدِيهِ لَهُمْ
طَارُوا إِلَيْهِ زُرَافَاتٌ وَوُحْدَانَا
ثُمَّ يَقُولُ :

لَكِنَّ قَوْمِي وَإِنْ كَانُوا ذَوِي عَدَدٍ
لَيْسُوا مِنَ الشَّرِّ فِي شَيْءٍ وَإِنْ هَانَا
يَجْزُونَ مِنْ ظَلَمِ أَهْلِ الظُّلْمِ مَغْفِرَةً
وَمِنْ إِسَاءَةِ أَهْلِ الشُّوءِ إِحْسَانًا
كَأَنَّ رَبَّكَ لَمْ يَخْلُقْ لَخَشِيَّتِهِ
سِوَاهُمْ مِنْ جَمِيعِ النَّاسِ إِنْسَانًا!
فَلَيْتَ لِي بِهِمْ قَوْمًا إِذَا رَكِبُوا
شَدُّوا الْإِغَارَةَ فُرْسَانًا وَرُكْبَانًا
وَيُرثُونَ فَلَا يَزْعُمُونَ أَنَّ السَّمَاءَ قَدْ وَقَعَتْ عَلَى الْأَرْضِ ، وَأَنَّ الْأَفْلَاقَ
تَحِيْرَتْ فِي مَدَارِجِهَا ، وَإِنَّمَا يَبْكُونَ فِي الْمَرْثَى صَبْرَهُ فِي الْمَسْكُورِ وَوَفَاءَهُ فِي الْمَمَاتِ
وَحَفْظَهُ لِلْعَوَاقِبِ ، كَمَا يَقُولُ دَرِيدُ بْنُ الصَّمَةِ فِي رِثَاءِ أَخِيهِ عَبْدِ اللَّهِ :

فَإِنْ يَكُ عَبْدُ اللَّهِ خَلَى مَكَانَهُ
فَمَا كَانَ وَقَافًا وَلَا طَائِشَ الْيَدِ
كَمِيشُ الْإِزَارِ خَارِجٌ نِصْفُ سَاقِهِ
بَعِيدٌ مِنَ الْآفَاتِ طَلَّاعٌ أَنْجِدِ
قَلِيلُ التَّشَكُّي لِلْمُصِيبَاتِ حَافِظٌ
مِنَ الْيَوْمِ أَعْقَابَ الْأَحَادِيثِ فِي غَدِ
وَهَوْنٌ وَجَدَى أَنْنَى لَمْ أَقْبَلْ لَهُ
كَذَبْتَ وَلَمْ أُجَلِّ بِمَا مَلَكَتْ يَدِي

وإذا اعتذروا من ذنب أو تنصّلوا من هفوة ، تلطّفوا في الدعاء إلى العفو ،
وقدّموا بأدب العتب المزوج بالخوف من الوعيد ، والقلق من موجدة المعتذر
إليه ، وفارس هذه الجلّبة في الجاهلية النابغة في النعمانيّات التي منها :

نُبِّئْتُ أَنْ أَبَا قَابُوسَ أَوْعَدَنِي
وَلَا قَرَارَ عَلَى زَأْرِ مِنَ الْأَسَدِ
فَلَا لَعْمَرُ الَّذِي طَيِّفَتْ بِكَعْبَتِهِ
وَمَا هُرَيْقَ عَلَى الْأَنْصَابِ مِنْ جَسَدِ
مَا قُلْتُ مِنْ سَيِّءٍ مِمَّا أُتَيْتَ بِهِ
إِذَا فَلَا رَفَعَتْ سَوَاطِي إِلَى يَدِي
إِذَا فَعَاقَبَنِي رَنَى مُعَاقِبَةً
قَرَّتْ بِهَا عَيْنٌ مِنْ يَأْتِيكَ بِالْحَسَدِ

وقد بالغوا في باب الوصف وأكثروا منه ، فوصفوا ديارهم ومواردهم وما كان

في باديتهم من نبات ووجش وطير، ووصفوا الخيل والإبل والسما والرياح والمطر، وكانت المرأة أنفس مظاهر الجمال عندهم، فهموا بها ووصفوا محاسنها وتقدموا بذكرها في مفاتيح الكلام، حتى عند الرثاء والفخر، وتحدثوا إليها بما يجيش في صدورهم، وشبهوها بالظبية والمهاة والماء والشمس والنار، وما كان الوصف يزيد في بيانهم على اتزاع الحقائق من معادنها محلاة بألوانها الطبيعية فيما كانوا يستخرجونه من بيئة البادية ومظاهرها هذه الحياة العربية من حرب وسلم وظعن وإقامة، ويقول طرفة بن العبد وهو أحد الوصافين للإبل من معلقته المشهورة:

وإني لأَمْضِي الهَمَّ عند اخْتِضَارِهِ بَعْوَجَاءِ مِرْقَالٍ تَرُوحُ وَتَعْتَدِي (١)
 أَمْوُنٍ كَالْوِاحِ الْإِرَانِ نَسَأَتْهَا عَلَى لَاحِبٍ كَأَنَّهُ ظَهَرَ بِرُجْدٍ (٢)
 جُمَالِيَّةٍ وَجَنَاءِ تَرْدِي كَأَنَّهَا سَفَنَجَةٌ تُبْرِي لِأَزْعَرَ أُرْبِدٍ (٣)
 لَهَا فِخْدَانٌ أَكْمِلُ النَّحْضُ فِيهَا كَأَنَّهَا بَابَا مُنِيفٍ مُمَرِّدٍ (٤)
 وَجُجْمَةٌ مِثْلُ الْعَنَلَةِ كَأَنَّمَا وَعَى الْمُلتَقَى مِنْهَا إِلَى حَرْفِ مِبْرَدٍ (٥)
 وَخَدٌّ كَقِرْطَاسِ الشَّامِيِّ وَمِشْفَرٍّ كَكَيْبَتِ الْيَمَانِيِّ قَدَّهُ لَمْ يُحْرَدٍ (٦)

ويقول العبسي في وصف روضة، استطرد إلى ذكرها من التشبيب

بصاحبته:

(١) العوجاء: الناقة لا تستقيم في سيرها لنشاطها. المرقال: مبانة من الإرقال وهو ضرب من السير. (٢) أمون: مأمونة العثار. الإيران: ككتاب البابت العظيم. نسأتها: ضربتها بالعصا. لاحب: طريق واضح. البرجد: كساء مخطط. (٣) جمالية: تشبه الجمل في وثاقة الخلق. الوجناء: المكنتزة أو العظيمة الوجنات. الرديان: ضرب من السير أيضاً. السفنجة: النعامة. الأزعر: القصير الشعر. الأربد: الذي لونه يشبه التراب ويقصد به الظلم. (٤) النحض: اللحم. (٥) العلاة: السندان. وعى: اجتمع. (٦) السبت: الجلد المدبوغ. يحرده: يعوج.

إِذْ تَسْتَبِيكَ بِذِي غُرُوبٍ وَاضِحٍ عَذِبٍ مُقَبَّبٍ لَنَيْذِ الْمَطْعَمِ (١)
 وَكَأَنَّ فَارَةً تَاجِرٍ بِقَسِيمَةٍ سَبَقَتْ عَوَارِضَهَا إِلَيْكَ مِنَ الْقَمِ (٢)
 أَوْ رَوْضَةً أَنْفًا تَضَعْنَ نَبْتَهَا غَيْثٌ قَلِيلٌ الْبِئْسَ لَيْسَ بِمُعْلَمِ (٣)
 جَادَتْ عَلَيْهِ كُلُّ عَيْنٍ ثَرَّةً فَتَرَكَنَ كُلُّ قَرَارَةٍ كَالَّذَرْتَمِ (٤)
 سَحَابًا وَتَسْكَابًا فَكَلَّ عَشِيَّةً يَجْرِي عَلَيْهَا الْمَاءُ لَمْ يَتَصَرَّمِ
 وَجَلَا الذَّبَابُ بِهَا فَلَيْسَ بِبَارِحٍ غَرَدًا كَفَعَلَ الشَّارِبِ الْمُتَرَّمِ
 هَزَجًا يَحْكُ ذِرَاعَهُ بِذِرَاعِهِ قَدَحَ الْمَكِيبِ عَلَى الزَّنَادِ الْأَبْذَمِ (٥)

ولا ترى أبداع من رقة هذا العربي في وصف فرسه ، حين ازور من كثرة ما ناله من أرماع الأعداء إذ يقول :

لَمَّا رَأَيْتُ الْقَوْمَ أَقْبَلَ جَمْعُهُمْ يَتَذَامَرُونَ كَرَّرْتُ غَيْرَ مُذَمِّمِ (٦)
 يَدْعُونَ عَنَتَرَ وَالرَّمَاحُ كَأَنَّهَا أَشْطَانُ بِيْرٍ فِي لَبَانِ الْأُذْهِمِ (٧)
 مَا زِلْتُ أُرْمِيهِمْ بِشُعْرَةٍ نَحْرَهُ وَابْنَانَهُ حَتَّى تَسْرَبِلَ بِاللِّمِ (٨)
 فَأُزَوَّرَ مِنْ وَقَعِ الْقَنَا بَلْبَانَهُ وَشَكَا إِلَى بَعْبِرَةٍ وَتَحْمَحُمِ (٩)
 لَوْ كَانَ يَدْرِي مَا الْمُحَاوِرَةَ اشْتَكَى وَلَكَانَ لَوْ عَلِمَ الْكَلَامَ مُكَلِّمِي

ولعنتر بن الأخرس يصف ثعبانا :

لَعَلَّكَ تُمْنِي مِنْ أَرَاقِمِ أَرْضِنَا بِأَرْقَمٍ يُسْقِي السَّمَّ مِنْ كُلِّ مَنْطَفِ (١٠)

- (١) الاستبَاء : الأسر . الغروب : جمع غرب وهو الحد .
 (٢) الفارة : حقة المسك (٣) الروضة الأنف : التي لم ترع بعد . الدمن : السرجين .
 (٤) العين : المطر يدوم أياماً . الثرة : الكمية الماء . (٥) الأجدم : المقطوع اليدين .
 (٦) يتذامرون : يتحاضون على القتال . (٧) الأشطان : الحبال جمع شطن .
 واللبان : الصدر . (٨) الشعرة : كالقبرة وزناً ومعنى . (٩) الازورار : الميل .
 التحمحم : صميل فيه حنين . (١٠) الأرقم : أخبث الحيات وأطعمها للناس . المنطف :
 مكان من نطف أي سال ، ويراد منه هنا موضع السم الخالص .

تراه بأجواز الهشيم كأنما
كان بضاحي جلده وسراته
كان مثنى نسعة تحت حلقه
ويقول الأعشى يصف فرساً :

ولقد أعتدى إذا صقع الذئب
مدمج سابع الذلوع طويل الشخص
يملا العين عادياً ومقوداً
مستخفاً على القياد ذفيفاً

ومن أطف ما قيل في وصف القوم ، عند تبويت العزم على الارتحال ،
وتصايحهم وتناديهم عند الإصباح ، واختلاط أصواتهم حيثئذ بأصوات الخيل
ولجب المتاع ، قول الحارث بن حلزة :

أجمعوا أمرهم عشاءً فلما
أصبحوا أصبحت لهم ضوضاء
من منادٍ ومن مجيبٍ ومن تصها
ل خيلٍ خلال ذلك رغاء

ومن قول طرفة بن العبد في وصف نداماه ومغنيته :

ندامى بيض كالنجوم وقينة
تروح علينا بين بردٍ ومجسد
إذا رجعت في صوتها خلت صوتها
تجاوب أظارٍ على ربيعٍ ردى

- (١) الأجواز : جمع جوز هو الوسط . الهشيم : اليابس المتكسر من النبات والشجر .
المن : الظهر . المفوف : المنقوش . (٢) السراة : الظهر . اللتان : عرقان في جاني
العنق . التهاويل : النقوش . الزخرف : الزينة والحسن . (٣) النسعة : سير من جلد
ينسج عريضاً . المتخضف : المثنى . (٤) صقع : صاح . مشذب : كهذب .
(٥) المدمج : المحكم . سابع : عظيم . الشوى : الأطراف . المر : الفتول .
(٦) الصافى : الذى يثنى سنبله . (٧) الذفيف : الشيط الحاد .
(٨) القينة : الجارية المغنية . والمجسد : المصبوغ بالجماد وهو صبغ .
(٩) الأظار : جمع ظئر ، وهى الرضعة من الإبل والنساء : والربيع كصرد : الفصيل .
الردى : الهالك .

إذا قلت هاتي أسمعينا أنبرت لنا على رسلها مطرُوفة لم تشدد
كيف ترون أنه كان في تشبيه نعمة المرأة بحنين الإبل المتجاوبة على فصيل
هالك جافيا بدويا ، وهو في هذا الموضع قد كان يعذر على الاختراع والمبالغة إلا
أنه كالمقل ينفق بما في يده ؟ ؟

ويقول لبيد في وصف بقرة وحشية ، وفيها أيضا وصف تعقب الرماة لها ،
وإرسالهم جوارح الكلاب عليها ، بعد أن خلص من صفة أتان وحشية بلغ
غاية في الغرابة :

أفتلاك أم وحشية مسبوعة^(١) خذلت وهادية الصوار قوامها^(٢)
خنساء ضيعت الفرير فلم يرم^(٣) عرض الشقائق طوفها وبغامها^(٤)
لعفر قهد تنازع شلوه غبس كوامب ما يمن طعامها^(٥)
صادفن منها غرة فأصبناها إن المنايا لا تطيش سهامها

إلى أن يقول :

حتى إذا يئس الرماة وأرسلوا غضفا دواجن قافلا أعصامها^(٦)
فأحقت واعتكرت لها مدرية كالسمهرية حدتها وتمامها^(٧)
لتدودهن وأيقنت إن لم تذد أن قد أحم مع الخوف حمامها
فتقصدت منها كساب وضرجت يدم وغودر في المكر سخامها^(٨)

(١) المسبوعة : التي أصابها السبع . الهادية : المتقدمة . والصوار : القطيع من البقر .
(٢) الخنساء : من الخنس ، وهو تأخر أرنبة الأنف . الفرير : ولد البقرة . يرم : يبرح .
الشقائق : جمع شقيقة ، وهي أرض صلبة بين رملتين . البغام : صوت رقيق .
(٣) القهد : الأبيض . الشلو : بقية الجسد أو العضو . والغبس : جمع أغبس أو غبساء
من الغبسة ، وهي لون يشبه الرماد . يمن : يقطع . (٤) الغضف : المسترخية الأذن .
الدواجن : الملمات . قافلا : يابساً . الأعصام : العذبات تكون في أعناق الكلاب ، الواحد
عصبة وعصام . (٥) اعتكرت : عطفت . المدرية : القرون .
(٦) تقصدت : تقطعت وقتلت . كساب : اسم كلبة وكذلك سخام .

وأما الغزل عندهم - وأكثر الناس لا يفرقون بينه وبين النسيب ولا التشبيب - فهو باب واسع لم يخل منه في الغالب مقام من مقامات الشعر ، لأن المرأة كما قدمنا كانت هي كلُّ الجمال في آفاق البادية ، فجعل العربي حديثه كله إليها ، فذكرها عند الافتخار ببلائه وكرمه ، وعند صباوته وعشقه ، وعند حله ورحلته ، وفي كلِّ مقام وعلى كلِّ حال ، وقد يكون من الخير لنا أن نذكر - بقدر ما نستطيع - شيئاً يجعله شبيهاً بالتحديد لهذه الكلمات العامة غير المضبوطة في قولهم الغزل والنسيب والتشبيب ويترجح عندنا أن الغزل هو الاشتهار بمودات النساء وتتبعهن والحديث إليهن والعبث بذلك في الكلام ، وإن لم يتعلق القائل منهن بهرى أو صباية وأما التشبيب فهو ما يقصد إليه الشاعر من ذكر المرأة في مطالع الكلام ، وما يضاف إلى ذلك من ذكر الرسوم ومساءلة الأطلال ، توخيّاً لتعليق القلوب وتقييد الأسماع قبل المفاجأة بغرضه من الكلام ، ويذكر أحياناً ما يحاول المتيمون من العشاق ستره من المحبوبة ، كالوعد واللقاء وإفشاء الأمر إلى بعض ما يستمتع به المحب من المحبوب في الخلوات وأما النسيب فهو أثر الحب وتبريح الصباية ، فيما يثبه الشاعر من الشكوى وما يصفه من التجنى وما يعرض له من ذكر محامن النساء ، وهو بلا شك مظهر الرقة وينبوع السلاسة في الشعر العربي ، إذ كان حديثاً عن هذه الآلام العذبة ، ودموعاً تنحدر من أجنان الكلام ، ويقول الجزجاني في الوساطة « وترى رقة الشعر إنما تأتيك من قبل العاشق المتيم والغزل المُتهالك » وسنورد من ذلك طرفاً - وأعله يعين على تحقيق ما أشرنا إليه - يقول عنتره العبسي في معرض الذكرى وهي تهيج عواطف الشوق وتثير آثار الصباية :

سَقْتِكْ يَا عَلمَ السَّعْدِيِّ غَادِيَةً	من السَّحَابِ وَرَوَى رَبْعَكَ المَطَرُ
كَمْ لَيْلَةٍ قَدْ قَطَعْنَا فِيكَ صَالِحَةً	رَغِيْدَةً صَفْوُهَا مَا شَابَهُ كَدْرُ
مَعَ فِتْيَةٍ تَتَعَاطَى الكَاسَ مُتْرَعَةً	من خَمْرَةٍ كَلْهَيْبِ النَّارِ تَزْدَهْرُ
تُدِيرُهَا من بِنَاتِ العُرْبِ جَارِيَةً	رَشِيْقَةً القَدِّ في أَجْفَانِهَا حَوْرُ

الفرق بين
الغزل والنسيب
والتشبيب

إن عشتُ فهي التي ماعشتُ مالِكتي وإن أمتُ فالليالي شأنها العبرُ
ولمالك بن الصَّمصامة وهو أحد الشعراء العشاق ، وكان يهوى جنوب بنت
مُحصن الجعدى ، وكان أخوها أحد الأشراف الفرسان ، فحلف لئن ذكرها مالك
أو عرض بها في شعره ليقْتلنّه :

أحبُّ هبوطَ الواديين وإني كُشْتَهَرُ بالواديين غريبُ
أحقاً عباد الله أن لستُ غادياً ولا زائماً إلا على رقيبُ
ولا زائراً وحدي ولا في جماعةٍ من الناس إلا قيل أنت مرّيبُ
وهل ريبه في أن تحنَّ نجيبه إلى إلفها أو أن يحنَّ نجيبُ
(وتروى هذه الأبيات لابن الدُمينة).

ذلك وأكثر الناس لا يفرقون بين هذه الثلاثة ، وبعضها عندهم يخلف
بعضاً ، وقد قربنا لك على قدر اجتهادنا مسافة ما بينها من خلاف ، على أن شيئاً
منها لم يكن يوجد منحرفاً عن غيره من أغراض الشعر في هذا العصر ، إلا ما كان
مثل هذا من قول شاعر عاشق ، لم يرو له كلام في غير هذه الشكوى من
لوعة الصباية .

وأما الحكمة ، فقد كان لكثير من شعرائهم نصيب منها ، كأمية بن أبي
الصلت وزهير بن أبي سلمى وطرفة بن العبد وغيرهم ، وإن طويلة زهير
التي مطلعها :

أمن أم أوفى دمنة لم تكلم بمحو مائة الدراج فالتسلم
قد حليت بكثير من ضروب الحكمة كقوله :

ومن يك ذا فضل فييخل بفضله على قومه يستغن عنه ويذمهم
إلى آخر مقاله في « ومن ومن » ، ولطرفة من المدلثة أيضاً قوله :

أرني الموت أعداد النفوس ولا أرى بعيداً غدا ما أقرب اليوم من غد
لعمرك إن الموت ما أخطأ الفقى لسكا لطول المرخى وثدياه باليد

متى ما يثأ يوماً يقده لحتفه . ومن يك في جبل المنية ينقد

إلى قوله :

ستبدي لك الأيام ما كنت جاهلاً . ويأتيك بالأخبار من لم تزود

ومن أمثالهم في الشعر قول الأسود :

لا تقطن ذنب الأفعى وترسلها . إن كنت شهماً فأتبع رأسها الذبأ

وقول النابغة :

ولست بمستبقي أخا لا تلته . على شعث أي الرجال المهذب

الحياة الاجتماعية والشعر العربي

لو استطاع المنقبون أن يستخرجوا آثار الأمم القديمة كالمصريين واليونان ، مما زينوا به معابدهم ونقشوه على صفايح قبورهم وقصورهم ، لقد يستطيع الباحث المنقب أن يرى مثل هذه الصورة أو قريباً منها في ذلك السجل الباقي من تاريخ العرب في الشعر الجاهلي ، فهو القائم عندهم مقام الآثار المنقوشة والرقوق المكتوبة عند غيرهم من أهل الحضارة القديمة من أمم التاريخ ، وإنك لتنظر في صفحة الشعر الجاهلي فتعكس على خيالك من مرآته صورة واضحة لتلك البادية العربية ، ترسم فيها على ذلك البساط الممدود من رمال الصحراء مضارب خيامهم ، وملاعب ولبانهم ، وأسماء منازلهم ، وموارد مياههم ، وأحاديث مادتهم ، ومنجبات نسائهم ، وعتاق خيولهم ، وأوصاف سيوفهم وآلاتهم ، وكثيراً من أيامهم ووقائعهم وعاداتهم وأخلاقهم ، مما صح أن يتخذ المؤرخون مصدراً يعتمدون عليه في وصف هذه الحياة الجاهلية ، فقد كان الشاعر يبدأ قصيدته بذكر الديار ومساءلة الأطلال ، ثم يصف هذه الأماكن ويذكر مواقعها ويعرفها كما يفعل الباحثون في علم تقويم البلدان ، ألا ترون كيف فعل امرؤ القيس بعد قوله :

قِفَا نَبِكِ مِنْ ذِكْرِي حَيْبٍ وَمَنْزَلٍ

أَنَّهُ يَقُولُ بِسِقْطِ اللَّوِيِّ بَيْنَ الدَّخُولِ فَخَوْمَلٍ

فَتَوْضَحُ فَالْمِقْرَاءَةُ لَمْ يَعْفَ رَسْمُهَا لَمَّا نَسَجَتْهَا مِنْ جَنُوبٍ وَشِمَالٍ
وَنَحْنُ نَذَكُرُهَا نَمَازِجَ مِنْ هَذَا الشَّعْرِ ، هِيَ الَّتِي أَخَذَ التَّارِيخُ مِنْهَا مَا أَخَذَ
مِنْ هَذِهِ الْعَادَاتِ وَالْآدَابِ ، وَهِيَ الَّتِي كَانَتْ فِي مَجْمُوعِهَا مَظْهَرًا صَادِقًا لِهَذَا
الاجتماع العربي .

عقب
الرواحل
على قبور
الأبطال

كَانَ مِنْ عَادَاتِهِمْ فِي الْجَاهِلِيَّةِ أَنْ يَعْتَرُوا رِوَاحِلَهُمْ عَلَى قُبُورِ أَبْطَالِهِمْ
وَسَادَتِهِمْ ، وَقَدْ مَرَّ حَسَانُ بْنُ ثَابِتٍ عَلَى قَبْرِ زَيْبَةَ بْنِ مَكْدَمٍ (وَهُوَ الشَّابُّ
الَّذِي يُقَالُ إِنَّهُ حَمِيٌّ ظَعِينَتُهُ وَهُوَ مَيِّتٌ) فَقَالَ :

نَفَرْتُ قَلُوصِي مِنْ حِجَارَةِ حَرَّةٍ بُنِيَتْ عَلَى طَلْقِ الْيَدَيْنِ وَهَوْبٍ (١)

لَوْلَا السَّفَارُ وَبَعْدُ حَرْقٍ مِمَّهِ لَتَرَكْتُهَا تَحْبُؤُ عَلَى الْعُرْقُوبِ (٢)

(وَفِي الْأَغَانِي أَنَّ الْأَبْيَاتَ لِكُرْزِ بْنِ خَفْصٍ أَوْاضِرَارِ بْنِ الْخَطَّابِ الْفَيْهْرِيِّ) .

وَكَانَ السَّارِي إِذَا جَنَّهُ اللَّيْلُ ، وَلَمْ يَجِبْ هَدًى نَبِحَ كَمَا تَنبِحُ الْكَلَابُ فَتَنبِحُ عَلَى
نُبَاحِهِ ، فَيَهْتَدِي بِذَلِكَ إِلَى مَكَانِ الْحَيِّ ، وَلَهُمْ فِي ذَلِكَ أَشْعَارٌ كَثِيرَةٌ مِنْهَا قَوْلُ
نَابِغَةَ بِنِي جَعْدَةَ (٣) :

عادتهم في
الاستنباح

وَمُسْتَنْبِحٌ تَسْتَنْكِشِطُ الرِّيحُ ثُوبَهُ لِيَسْقُطَ عَنْهُ وَهُوَ بِالثَّوْبِ مُعْصِمٌ

عَوَى فِي سِوَادِ اللَّيْلِ بَعْدَ اعْتِسَافِهِ لِيَنْبِحَ كَلْبٌ أَوْ لِيَفْزَعَ نَوْمٌ

فَجَاوِبُهُ مُسْتَسْمَعُ الصَّوْتِ لِلْقَرِيِّ لَهُ نَسْدٌ إِتْيَانِ الْهُيَّيْنِ مَطْعَمٌ

يَكَادُ إِذَا مَا أَبْصَرَ الضَّيْفَ مَقْبَلًا يُكَلِّمُهُ مِنْ حُبِّهِ وَهُوَ أَعْجَمٌ

وَكَانَ مِنْ عَادَتِهِمْ فِي التَّزِينِ ، الدَّقُّ بِالنُّثُورِ وَهُوَ الْوَشْمُ ، وَيَقُولُ طَرْفَةٌ فِي مَعْلَقَتِهِ :

(١) القلوص من الإبل : الشابة الباقية على السير . الحررة : أرض ذات حجارة .

(٢) السفار : مصدر سافر . الحرق : التفرق والأرض الواسعة . والمهنة : الفائزة .

(٣) وتروى هذه الأبيات لابن هرمة .

لِحَوْلَةِ أَطْلَالٍ بِرُقَّةٍ تَهْمِدُ تَلُوحُ كِبَاقِي الْوَشْمِ فِي ظَاهِرِ الْيَدِ
وَكَقَوْلِ زُهَيْرٍ :

وَدَارَتْ لَهَا بِالرَّقْمَتَيْنِ كَانِيهَا مَرَاجِيْعُ وَشْمٍ فِي نَوَاشِرِ مِعْتَمٍ

الطلاق كان العرب يطلقون الثلاث بالتفريق ، ومن ذلك قول الأعشى وقد هدده
أهل امرأته بالضرب أو يطلقها :

أَيَا جَارَتِي بَيْنِي فَإِنَّكَ طَالِقَةٌ كَذَلِكَ أُمُورُ النَّاسِ غَادٍ وَطَارِقَةٍ
فَقَالُوا لَهُ : ثَانِيَةٌ ! فَقَالَ :

وَبَيْنِي فَإِنَّ الْبَيْنَ خَيْرٌ مِنَ الْعَصَا وَإِلَّا تَرَى لِي فَوْقَ رَأْسِكَ بَارِقَةٍ
فَقَالُوا : ثَالِثَةٌ ! فَقَالَ :

وَبَيْنِي حَصَانُ الْفَرْجِ غَيْرُ ذَمِيمَةٍ وَمَوْمُوقَةٌ قَدِ كُنْتُ فِيْنَا وَوَامِقَةٍ

وكان العرب يحميون ساداتهم وملوكهم في الأعياد بطاقات الزهر كما يصنع
الفرنجية في زماننا ، ومن ذلك قول النابغة في ملوك غسان :

رِقَاقُ النِّعَالِ طَيِّبٌ حُجْرَاتِهِمْ يُحْيِيُونَ بِالرِّيحَانِ يَوْمَ السَّبَاسِبِ
وَمِنْ ذَلِكَ قَوْلُ عَنْتَرَةَ فِي مَقْتَلِ مَالِكِ بْنِ زُهَيْرٍ :

فَاللَّهِ عَيْنًا مِنْ رَأْيِ مِثْلِ مَالِكٍ عَقِيرَةٌ قَوْمٍ إِذَا جَرَى فَرَسَانِ
فَلَيْتَهُمَا لَمْ يَجْرِيَا قَيْدَ غُلُوعَةٍ وَلَيْتَهُمَا لَمْ يَرْسَلَا لِرِهَانِ

الخلبة والرهان وقد أشار عنتره إلى بعض أنواعه عندهم في تشبيهه المشهور وهو قوله
في الروضة :

وَخَلَا الذِّبَابُ بِهَا فَلَيْسَ يَبَارِحُ غَرْدًا كَفِعْلِ الشَّارِبِ الْمُتَرَشِّمِ
هَزَجًا يَحْكُ ذِرَاعَهُ بِذِرَاعِهِ قَدَحَ الْمَسْكِبِ عَلَى الزِّنَادِ الْأَجْذَمِ

وقد قدمنا لكم في أيام العرب من الأشعار الدالة على أسماء هذه الوقائع من
كلام مهلهل والأعشى وغيرها ، فلا نطيل بذكر ذلك هنا . ولم يكن لهم غنى عن

ذكرهم
الموارد

ذكر المياه والشوق إلى ورودها وتعريف مواقعها ، إذ كانت عزيزة نادرة في هذه الصحراء القاحلة ، ويقول جابر بن الأزرق ، وكان أبو عمرو بن العلاء يقرظ هذه الأبيات ويتعجب من حسنها :

فيالهفَ تَقِي كَمَا التَّخْتُ لَوْحَةً عَلَى شَرَبَةٍ مِنْ مَاءِ أَحْوَاضِ مَأْرِبِ
بَقَايَا نِطَافٍ أَوْدَعَ النِّيمُ صَفْوَاهَا مُصَقَّلَةَ الْأَرْجَاءِ زُرُقَ الْمَشَارِبِ
تَرْقُقُ دَمْعُ الْمُزْنِ فِيهِنَّ وَالتَّوْتُ عَلَيْهِنَ أَنْفَاسُ الرِّيحِ الْغَرَائِبِ

أسماء
الحيول

وكذلك كانوا يذكرون أسماء خيولهم التي يدركون عليها الأوتار ويصلون بها في الحروب ، كقول الحارث بن عباد :

قَرَّبَا مَرِبَطَ النِّعَامَةِ مِنْي لَقِحَتْ حَرْبُ وَاثِلٍ عَنْ حِيَالِ

في أبيات مشهورة ، وكقول خالد بن جعفر :

فَمَنْ يَكُ سَائِلًا عَنِّي فَاتِّ وَحَذْفَةً كَالشَّجَا تَحْتِ الْوَرِيدِ

(حذفة : فرسه)

منجنيات
النساء

ويذكرون النساء النجيات ويفخرون بولادتهن ، كقول لبيد «نحن بنى أم البنين الأربعة» في رجز أنشده النعمان بن المنذر ، فنفره به من الربيع بن زياد العبسي ، وكان بينه وبين العامريين - رهط لبيد - شحنة فكسره بذلك لبيد ونفاه .

البحار
والسفن

وتجد في الشعر الجاهلي ما يدل على أن الحاجة كانت تدعوهم أحياناً إلى ركوب البحار ، وأنهم قد وصفوا سفنها ، ومن ذلك قول طرفة :

كَأَنَّ حُدُوجَ الْمَالِكِيَّةِ غُدُودٌ خَلَايَا سَفِينٍ بِالنَّوْصِفِ مِنْ دَدِ (١)
عَدْوَلِيَّةٌ أَوْ مِنْ سَفِينِ بْنِ يَمِينٍ يَجُورُ بِهَا الْمَلَّاحُ طَوْرًا وَيَهْتَدِي

(١) الحدوج . جمع حدج وهي من مراكب النساء . الخالايا : جمع خلية وهي السفينة العظيمة . النواصف : جمع ناصفة وهي أماكن متسعة من نواحي الأودية . دد : اسم واد .

يشق حَبَابُ الماءِ حَيْرُومُها بِها كما قَسَمَ التُّرْبُ المُفائِلُ بِاليدِ

وما يدل كذلك على ظهور الكتابة عندهم كقول المرقس الأكبر :

الدارُ وَحَشٌّ والرَّسومُ كما رَقَّشَ في ظُورِ الأديمِ قَلَمٌ

وقول لبيد :

وجلا السيولُ عن الطلولِ كأنها زُبُرٌ تُجِدُّ متونها أقلامها

وكان من أشرفهم من حرم الخمر على نفسه في الجاهلية ، ومن هؤلاء قيس

ابن عاصم المنقري وهو الذي يقول :

لعمرك إن الخمر ما دمتُ شارباً لَسَابَةٌ مالى ومُذْهَبَةٌ عَقلى

وتاركةٌ بين الضيوفِ قِرَاهُمُ ومورثةٌ حَرَبَ الصديقِ بلا ذخل

وكان من عاداتهم تعليق حلى النساء على اللديغ ، تفاؤلاً له بالشفاء ، ومن

ذلك قول النابغة :

فبت كَأنى ساورتنى ضئيلة من الرُقشِ فى أنيابها السَّمُّ نَاقِعٌ (١)

يسهَدُ من ليل التمامِ سليمها حَلَى النساءِ فى يَدَيِّهِ قَعاقِعٌ (٢)

وكان الرجل يتزوج امرأة أبيه بعد موته ، ويدل عليه قول عمرو بن

معديكرب فى امرأة أبيه حين كرهته من أبيات :

فلولا إخوتى وَبَنِيَّ مِنْها ملأت لها ندى شُطْبِ عيني

وكان فى جوف هذه الوثنية المظلمة ، من أدرك بثقوب رويته ، أن للخلق

خالقاً وأن لهم معاداً ولأعمالهم حساباً ، ويقول زهير بن أبى سلمى :

فلا تَكْتُمُنَّ اللهُ ما فى نفوسكم ليخفى ومهَّما يكتم الله يعلم

يُوخَّرُ فيوضع فى كتابٍ فيُدخَرُ ليوم الحسابِ أو يُعَجَّلُ فيُنقَمُ

(١) ساورتنى : نازلتنى . الضئيلة : الخيبة . الرُقش : جمع رُقشاء وهى حية ذات نقط

فى لونها . (٢) ليل التمام : ككتاب أطول ليل الشتاء .

تأثير الشعر . منزلة الشاعر . التكسب بالشعر

عظمة الشاعر
في الجاهلية

ومن جملة ما قدمناه تعلم كيف كانت منزلة الشعر من آدابهم ، وما كان للشاعر من المكانة فيهم ، حتى كانوا لا يهنتون إلا بشاعر ينبغ أو فرس تنتج ، وكانت القبيلة إذا نبغ فيها الشاعر أقبلت إليها وفود القبائل يهنتونها به ، وتبأشر الرجال والولدان وتصنع الأطعمة ويقبل النساء يلعبن بالمزاهر كما يفعلن في الأعراس ، توقيراً للشعر واعتداداً بفضل الشاعر ، الذي هو لسانهم المدافع عنهم والمخلد لمفاخرهم . ولقد كان الشاعر يمدح الحامل المغمور فلا يزال قد رفعه وسير في الآفاق ذكره ، وكان يهجو الشريف المذكور فيغض منه ويضعه . . وهذا المخلق الكلابي وهو عبد العزى بن عامر ، وكان رجلاً كثيراً البنات سيء الحال قد كسدت بناته ورغبت عنهن الأزواج لفقره ، قد مدحه الأعشى بقصيدته التي مطلعها

الأعشى
والمخلق
الكلابي

أرقت وما هذا الشهاد المؤرق
وما بي من سقم وما بي تعشق

ويقول منها :

أبا مسمع سار الذي قد فعلتمو فأنجد أقوام به ثم أعرفوا
وإن عتاق العيس سوف يزوركم ثناء على أعجازهن معلق
ترى الجود يجرى ظاهراً فوق وجهه . كما زان من الهندواي رونق
يداه يداً صدق فكف مبيدة وأخرى إذا ما ضن بالمال تنفق

فأر ذكره وحسنت حاله وتزوجت بناته .

حسان وبنو
عبد المدان

وهما حسان بن ثابت بن عبد المدان وكانوا أشرافاً طوال الاجسام بقوله :

لابأس بانقوم من طول ومن غلظ جسم البغال وأحلام العصافير
فغيرهم الناس بذلك حتى قالوا والله يا أبا الوليد لقد تركتنا ونحن نستحي

من طول أجسامنا بعد أن كنا نفتخر به على الناس ! فقال لهم سأصلح منكم ما أفسدت ثم قال فيهم :

وقد كنا نقولُ إذا رأينا لذي جسمٍ يُعدُّ وذى بيانٍ
كأنك أيها المعطى بيانا وجسما من بنى عبد المدان

الحطيطية وبنو
أنف الناقة

وذكر ابن رشيق « في العمدة » أن هذا التأثير قد بقي بعد الاسلام قال :
ولقد كان بنو أنف الناقة (وهم رهط من تميم لهم مؤدود وشرف) يفرقون من هذا
الاسم. ويسأل الرجل منهم عن نسبه فيقول من بنى قريع بن عوف ، يتجاوز
جعفرا أنف الناقة ، إلى أن نزل الحطيطية ببغيض بن عامر أحد رؤسائهم مغاضبا
للزبرقان بن عمه فأحسن مشواه فقال فيهم :

سيري أمامُ فإن الأكثرين حصا والأكرمين إذا ما ينسبون أبا
قوم هم الأنف والأذنان غيرهم ومن يسوي بأنف الناقة الذنبا

فصاروا بعد ذلك يتناولون على العرب بهذا النسب ويفتخرون به

وكانت نمير إحدى جرات العرب إذا سئل الرجل منهم عن نسبه يقول
نميري ويمد بها صوته ، حتى صنع جرير قصيدته التي هجأ بها عبيد بن حصين ،
وهو الراعي النميري يقول منها :

جرير والراعي
النميري

فغض الطرف إنك من نمير فلا كعبا باغت ولا كلابا

فأخزاهم بذلك وأطفا جرتهم ، وصاروا بعد ذلك لا ينتسبون إلى نمير ، وإنما
ينتسبون إلى أبيه عامر بن صعصعة .

وكان مولى لباهلة يرد سوق البصرة فيعيب به النميريون ، فعلمه مواليه
البيت فاجتاز بهم بعد ذلك وأراد البيت فسيه فقال : غمض وإجاءك

ما تكره !! فانقطعوا عنه . ومرت بجماعة منهم جارية فأخذوا إليها النظر فقالت :

والله يا معشر نمير ما امتثلتم في واحدة من اثنتين ، لا قول الله تعالى (قل

المؤمنين يغضوا من أبحارهم) ولا قول الشاعر :

غمض الطرف إنك من نمير . . البيت . . فكأنما أغمضتهم حجرا

النجاشي وبنو
العجلان

وكان بنو العجلان - وهم رهط بن مقبل الشاعر - يفتخرون بلقب أبيهم
هذا ، لزمهم أنه إنما سمي به لتعجيله القرى للأضياف ، فهجأهم النجاشي
الشاعر واستعدوا عليه عمر بن الخطاب رضي الله عنه فسألهم ماذا قال فيهم ؟
فأنشدوه قوله :

إذا الله عادى أهل لؤم ورقة فمادى بنى العجلان رهط بن مقبل

فقال عمر : إنما دعا عليكم وامله لا يجلب ! فقالوا إنه قال :

قبائله لا يفتخرون بذمة ولا يظلمون الناس حبة خرّ دل

فقال عمر : ليت آل الخطاب كذلك ! . . قالوا إنه قال :

ولا يردون البناء إلا عشية إذا صدر الوراؤد عن كل منهل

فقال عمر : هذا أقل للسكك « يني الزحام » ! . . قالوا إنه قال :

وما سُمي العجلان إلا لقوله خذ القعب وأحلب أيها العبد واعجل

فتوى عمر
في الاستعداد
وأوليته في ندب
المختصين

فدعا عمر حسان بن ثابت ، وكان يعلم ما قال النجاشي إلا أنه أراد أن
يدرأ الحد بالشبهة ، فقال حسان إنه قد سلح عليهم !! فحينئذ أمر به عمر
إلى السجن ، وكذلك فعل بالحطيئة حين هجا الزرقان ، وهي إحدى أوليات
عمر في استفتاء الخبراء ، وقد صارت من سنن الناس إلى يومنا هذا .

ذلك كان شأن الشعر وتلك كانت هيبة الشاعر ومكانته عند العرب ،

وما كانوا في إبان هذه النهضة الشعرية يقولون الشعر إلا في المقاصد النبيلة من
المدح العفيف والفخر الصادق ، ولم يقولوه تعرضاً للصلات ولا تشفياً من

الأشخاص ، حتى ظهر فيهم عبيد الشعر الذين انحوا عليه بالتهذيب وتبعوه
بالصناعة والتنقيح ، استدرارا المغانم وانتجاعا للكسب وطمعاً في جوائز الملوك .

ومن هؤلاء النابتة مع ملوك الحيرة من المناذرة وأبناء جفنة من ملوك الشام ،

وكذلك حسان مع هؤلاء وهؤلاء ، وزهير مع هرم بن سنان ، والأعشى مع

الملوك والشوكة ، فتطامنت بذلك منزلة الشعراء وترفع كثير من أشراف العرب

عبيد الشعر

عن الشعر لمكان هؤلاء ، ورغبوا عنه إلى الخطابة ، وإن كان الشعر في ذاته
بقي صاحب الصولة على العمول كما قدمنا في غير هذا المكان .

طبقات الشعراء

أما من حيث الشنعر والشهرة ، فالعلماء مختلفون في ترتيب طبقاتهم ،
وتقديم بعضهم على بعض ، ولكل واحد من الفحول جماعة تقدمه وتتصب
له . فعلماء البصرة مثلاً يقدمون امرأ القيس ، وأهل الكوفة يقدمون الأعشى ،
والحجازيون يقدمون زهيراً والنابغة . ولعلك لا تجد لهذا الخلاف كبير خطر
إذ لم يجز قياس الأئمة بين هؤلاء الفحول على ناحية من النظر واحدة ، فالذين
قدموا امرأ القيس نظروا إلى أوائله وسبقه ، والذين قدموا النابغة نظروا إلى
ديباجته واستوائه ، وذهب أصحاب الأعشى إلى أنه أكثرهم طويلة جيدة ،
ونظر أصحاب زهير إلى حكمه وقلة معاظله وفضوله . وإذاً يكون الخلاف لفظياً
كما يقولون ، وقد جعل أبو عبيدة معمر بن المثنى شعراء الجاهلية ثلاث طبقات :
ووضع في الطبقة الأولى امرأ القيس والنابغة وزهيراً ، وأسقط الأعشى وجعله في
الطبقة الثانية مع طرفة بن العبد وليد بن ربيعة ، وجعل شعراء الطبقة الثالثة
عنزة وعروة بن الورد ودريد بن الصمة وعمرو بن كلثوم والمرقس وحاتم الطائي .
ونحن نذهب إلى هذا الرأي لاختصاره .

رأى
أبي عبيدة

وأما الشعراء عامة من حيث عصور التاريخ فهم أربع طبقات : الجاهليون
والخضرمون (وهم الذين أدركوا الجاهلية والإسلام وقالوا فيه الشعر كحسان
والحطيئة) وإذاً لا ينبغي أن يكون لبيد من الخضرمين ، لأنه وإن أدرك
الإسلام ، لكنه لم يقل فيه شعراً إلا بيتاً أو بيتين ، ولعلهما قوله :

تقسيم
الشعراء من
حيث العصور

الحمد لله إذ لم يأتني أجلى حتى اكتسبت من الإسلام سرباً
أو قوله :

ولقد سئمت من الحياة وطولها وسؤال هذا الناس كيف لبيد
ثم الشعراء الإسلاميين إلى أواخر العصر الأموي ، ثم المولدون وهم الذين
فسدت سليقتهم باختلاطهم بشعوب الأمم الأخرى من الترك والفرس والمصريين
وغيرهم من الدولة العباسية إلى ما شاء الله .

تقسيم
الشعراء من
حيث الإجابة

والعلماء تقسيم آخر للشعراء من حيث الشاعرية والإجابة ، فعندهم الشاعر
الحنيد : وهو الذي يجمع إلى جيده رواية الجيد من شعر غيره ، ثم الشاعر
الفحل : وهو الذي يجيد ولا يروى لغيره ، ثم شاعر فوق الرديء بدرجة : وهو
الوسط ، ثم شعور أو شويعر : ليس بشيء ، وعندهم أن الشعر والغناء والملح
مما لا يحسن وسطه وإنما يحسن طرفاه وهما الحار والبارد ، فجيد الشعر معجب ،
وردئه مضحك ، والوسط بين الحار والبارد ساقط ، وكذلك الغناء ، وكذلك النكته
تستخف إلى السرور والعجب من طرفها ، ووسطها فاتر لا فضل فيه لسرور
الاستحسان ولا لضحك الهزؤ والسخرية .

شياطين الشعراء :

هبيد شيطان
عبيد

يزعم العرب أنه كان لبعض الفحول من شعرائهم شياطين يلهمونهم هذه
العبرية في كلامهم ، ونقل صاحب الجهرة أن صاحب عبيد بن الأبرص واسمه
هبيد هو الذي لقنه قصيدة :

طاف الخيال علينا ليلة الوادي من أم عمرو ولم يلمم بميعاد
وهي التي يقول فيها :

لا أعرفنك بعد الموت تندبني وفي حياتي ما زودتني زادي
الخير أبقى وإن طال الزمان به والشر أخبت ما أوعيت من زاد

مسجل
ولا فظ
وهاذر

وزعم أن للأعشى شيطانا اسمه مسجل ، ولا مري القيس آخر اسمه لا فظ ،
وللنابغة صاحب اسمه هاذر ، وقد يكون ذلك جاريا على تصور الإنسان لهذه
الأرواح الخفية ، وشدة قدرتها على ما يعجز عنه البشر ، وإن العرب لفرط كلفهم

بالشعر وحبهم للإبداع فيه ، نسبوا تلك الأشعار إلى من هو في ظنهم أقدّر منهم على اختراع ما لا يكاد يخطر على العقول البشرية . وقد قالوا في كلمة عبقرى وهو الفائق أو غير المشارك في أوصافه ، أنه منسوب إلى عبقر وهم طائفة من الجن أو هو وادّ لهم استرجاحا لحسنه وتعجبا من فوقانه ، وليس العرب وحدهم من بين أمم العالم هم الذين كانوا يستلهمون الجن أو يعتقدون بوجودهم ، فمن قدماء الهنود طوائف كثيرة لم تكن تعتقد وجود هذه الجنيات فقط ، بل كانت فوق ذلك تعبدها عبادة : وشعراء العالم القديم والحديث لا يزالون يذكرن هذه الأرواح الطيبة والخبيثة ، مما ينطبق عندنا على معنى الملاك والجنى ، ويستوحونهم مثل هذا الإلهام في أشعارهم ورواياتهم ، والقرآن يحدثنا عن هذه الأرواح بسورة (قل أوحى إلىّ أنه استمع نفرّ من الجن) فلم يبق من سبيل إذا إلى استنكار هذه العجيبة ، وعدّها من ضروب الخرافات كما يقول بعض المتعنتين ، وقد حكى أن

عبقرى

الرشيد وكتاب
أبي السرى
في الجن

أبا السرى سهل بن أبي غالب الخزرى وضع كتابا في الجن وأخبارها وحمله إلى الرشيد ، فقال له في بعض حديثه : إن كنت رأيت ما ذكرت فقد رأيت عجبا ، وإن لم تكن رأيتَه فقد وضعت أدبا !! وظاهر من هذا الكلام أن الرشيد لم ينكر من الأمر شيئا . على أن بعض أدباء العرب قد حاولوا تعليل هذا الضرب من الشعر ، الذى زعم بعض الأعراب أنه للجن ، ومنهم أبو اسحق المتكلم من أصحاب الجاحظ وهو فى رأيه يبين كيف نشأت هذه الفكرة عند العرب قال :

إن أصل ما يذكره بعض الأعراب من عزيف الجنان وتقول الغيلان ، أن العرب لما نزلت بلاد الوحش عملت فيهم الوحشة ، ومن انفراد وطال مقامه فى القلاة والخلاء والبعد من الإنس استوحش ، ولا سيما مع قلة الأشغال والمذاكرين ، والوحدة لا تقطع أيامهم إلا بالمنى والتفكير ، والفكر بما كان من أسباب الوسواس ، وقد ابتلى بذلك غير حاسب ، وإذا استوحش الإنسان مثل له الشيء الصغير فى صورة الكبير ، وارتاب وتفرق ذهنه وانتقضت أخلاطه فبرى ما لا يرى ، ويسمع ما لا يسمع ويتوهم على الشيء الصغير الحقير أنه عظيم

رأى
أبى إسحق
المتكلم فى
نشأة هذه
الفكرة

جليل ، ثم جعلوا ما تصوّر لهم من ذلك شعراً تناشدوه وأحاديث توارثوها ، فازدادوا بذلك إيماناً ، ونشأ عليه الناشئ ، وزُبي به الطفل ، فصار أحدهم حين يتوسط الفيافي ، وتشتمل عليه الغيطان في الليالي الحناديس ، فعند أول وحشة أو فزعة ، وعند صياح بُوم ، أو مجاورة صدّى ، تجده وقد رأى كل باطل ، وتوهم كل زور ، وربما كان في الجنس وأصل الطبيعة نقاجاً كذاباً ، وصاحب تشنيع وتهويل ، فيقول في ذلك من الشعر على حسب هذه الصفة ، فعند ذلك يقول رأيت الغيلان وكلمت السعلاة ، ثم يتجاوز ذلك فيقول قتلتها ، ثم يزيد فيقول رافقتها ، ثم يتجاوز ذلك إلى أن يقول تزوجتها ، ومما زادهم في هذا الباب وأغراهم به ومدّ لهم فيه ، أنهم ليس يلقون بهذه الأخبار إلا أعرابياً مثلهم وإلا غيبوا لم يأخذ نفسه قطّ بتمييز ما يوجب التصديق أو التكذيب أو الشك ، ولم يسلك سبيل التوقف والتثبت في هذه الأجناس .

وهذا الكلام من أبي إسحق ، وإن كان صادراً عن حسن صادق وتمييز صحيح ، لا يكاد يدفع وجود هذه العقيدة عند العرب ، ومهما بلغت هذه الأسباب من الصحة ، فلن تكون هي وحدها التي دعت العرب إلى الاعتقاد بوجود الجن بعد الذي قدمناه من البيان .

المعلقات

أكثر الرواة على أن المعلقة سبع طوال ، امتازت عن شعر هذا العصر بامتداد القوافي وتنوع الأغراض وكثرة الاختراع ، وأصحابها : امرؤ القيس صاحب (قفانبك) وطرفة صاحب (لحولة أطلال بركة تهمد) وزهير بن أبي سلمى صاحب (أمن أم أوفى دمنة لم تكلم) وعنترة وطويلته (.هل غادر الشعراء من متردّم) وعمرو بن كلثوم وواحدته (الأهبي بصحنك فاصبحينا) و (عفت الديار محايا فقامها) للبيد ، و (آذنتنا بينها أسماء) للحارث بن حلزة ، وبعضهم يعد دالية النابغة (يا دارمئة بالعلياء فالسند) ومدحة الأعشى للنبي (ألم تغمض عيناك ليلة أرمدا) من المعلقة ، ويسقط قصيدتي عنترة والحارث بن حلزة ويزيد (أققر من أهله مملحوب لعبيد بن الأبرص .

وقد اختلف الناس في هذه المعلقة ، وأنكر بعضهم تعليقها على الكعبة ، ومنهم أبو جعفر النجاس المتوفى سنة ثلاثمائة وثمان وثلاثين هجرية فقد قال في شرحه عليها ما نتمه (واختلفوا في جمع القصائد السبع ، وقيل إن العرب كانوا يجتمعون بكاظ فيتناشدون الأشعار ، فإذا استحسنت الملك قصيدة قال علقوا انا هذه وأثبتوها في خزانتى) ولم يذكر من هو هذا الملك ، ولعله النعمان بن المنذر وقد أسلفنا أنه كان عنده ديوان مكتوب جمع فيه أشعار الفحول ، وأنه صار ذلك إلى بني مروان أو ما بقي منه ، على ما رواه ابن سلام في كتاب الطبقات .

قال أبو جعفر « وأما قول من قال إنها علق بالكعبة فلا يعرفه أحد من الرواة » وهو يستند في رأيه هذا ، إلى أن حمادا الراوية لما رأى زهد الناس في الشعر ، جمع لهم هذه القصائد السبع ، وقال هذه هي المشهورات ! فسميت القصائد المشهورة ، ويؤخذ من ذلك أن تسميتها بالمعلقة على فرض

سبب تسمية
هذه القصائد
بالمعلقة

انكار
أبي جعفر
النجاس
لتعليقها في
الكعبة

النسليم منه بقدم هذه التسمية ، يرجع إلى قول الملك علقوا لنا هذه ، لا إلى أنها علقت في الكعبة .

رأى
ابن عبد ربه
صاحب العقد

وأما صاحب العقد وهو أحمد بن عبد ربه القرطبي ، وكان قد ساه في بلاد المشرق وسمع من العلماء ، فهو يخالف أبا جعفر النحاس وكانا متعاصرين وهذا كلامه « وقد بلغ من كلف العرب بالشعر وتفضيلها له ، أن عمدت إلى سبع قصائد تخيرتها من الشعر القديم ، فكتبتها بماء الذهب في القباطي^(١) المدرجة ، وعلقتها بأستار الكعبة ، فمنه يقال مذهبنا امرئ القيس ، ومذهبه زهير ، والمذهبات سبع يقال لها المعلقات » وقد يلاحظ على قوله هنا ، إن هذه المعلقات كتبت كلها في وقت واحد ، وهذا لا يتفق مع ما ذكره أبو جعفر النحاس من أن الملك النعمان كان يأمر بتعليق القصيدة الجيدة من الشعر وإثباتها في خزائنه ، ولا مع ما سند كره غيره من مخالفيه .

صاحب
العمدة

وذكر ابن رشيق في العمدة ، وهو ممن يوافق صاحب العقد في الرأي قال « وكانت المعلقات تسمى المذهبات ، وذلك أنها اختيرت من سائر الشعر القديم فكتبت في القباطي بماء الذهب ، وعلقت على الكعبة فلذلك يقال مذهب فلان إذا كانت أجود شعره . ذكر ذلك غير واحد من العلماء . وقيل كان الملك إذا استجيدت قصيدة لشاعر يقول : علقوا لنا هذه ! لتكون في خزائنه . »

رأى
ابن خلدون

وقال صاحب المقدمة (وهو أيضاً ممن يقطع بتعليقها في الكعبة) ويظهر أن كل هؤلاء جروا وراء ابن عبد ربه « بعد كلام له » : . . . حتى انتهوا - أي العرب - إلى البهاة في تعليق أشعارهم بأركان البيت الحرام موضع حجهم وبيت أبيهم إبراهيم ، كما فعل امرؤ القيس والنابغة الذبياني وزهير بن أبي سلمى وعنترة ابن شداد العبسي وطرفة بن العبد وعلقمة بن عبدة والأعشى وغيرهم من أصحاب المعلقات السبع . وينكر بعض المستشرقين من الفرنجة وبعض الأدباء من باحثي زماننا ، تعليق هذه الأشعار على الكعبة ، ولعل شبهتهم في ذلك أن الذين نقلوا

(١) جمع قبطي بضم القاف على غير قياس نسبة إلى قبط مصر بكسرها ، وهي ثياب كانت تنسج بمصر .

تعليق هذه المعلقات على الكعبة لم يذكرها تفصيلاً شافياً عن كيفية تعليقها ، ولا عن الذين كتبوها ، والذين أمروا بتعليقها من الملوك أو الأشراف والقضاة ، وأن الكعبة حين هدمت وجدد بناؤها في زمن النبي صلى الله عليه وسلم ، لم يذكر عن هذه المعلقات شيء وأنه ما كان للعرب - وهم يوقرون هذه البنية - أن يدنسوا أركانها بمثل مجون امرئ القيس ولا فسوق طرفة ، ويرون من هذا أن التسمية حديثة مصنوعة في عصر البدوين أو قبله بقليل .

رأى
الاسكندري

وزير شيخنا الاسكندري أن السبب في تسمية هذه القصائد بالمعلقات ، أن العرب لم تكن تكتب في دفاف ، وأنها لم تكتب قبل القرآن كتاباً مدقفاً ، وإنما كانوا يكتبون في رقاع مستطيلة من الحرير أو الجلد أو الكاغذ ، يوصل بعضها ببعض ثم تطوى على عود أو خشبة ، وتعلق في جدار الرواق أو الخيمة ، بعيدة عن الأرض حرصاً عليها من قرض فأرة أو عث أو نحو ذلك من دواب الأرض ، قال : وذلك تأويل قوله تعالى « يوم تطوى السماء كطي السجل » للكاتب ، إذ يظهر أن السجل ومعناه الصحيفة أو الكاتب الذي كان يعلق الكتب أو يطويها لعله كان يستعمل مثل هذا العود في طي الكتاب وتعليقه .

رأى
البغدادي

وذكر البغدادي في خزنة الأدب في معنى المعلقة قال « إن العرب كانت في الجاهلية يقول الرجل منهم الشعر في أقصى الأرض فلا يعاب به ولا ينشده أحد حتى يأتي مكة في موسم الحج . فيعرضه على أندية قريش فإن استحسنوه روى وكان فخراً لقائله وعلق على ركن من أركان الكعبة حتى ينظر إليه » على أننا نقول والعقل لا يرى مانعاً من صحة تعليق هذه القصائد في الكعبة على نحو ما يراه البغدادي ، ويجوز أن يقع ذلك في أيام الموسم كلها أو بعضها ، ويجوز أن يكون في ساعة من نهار وهم لا يتكرون أن قريشاً حين تأمروا على قطيعة بني هاشم ، كتبوا بذلك صحيفة وعلقوها بأستار الكعبة ليهظموا أمرها ، وليحملوا أنفسهم على المبالغة في تنفيذها ، والوفاء بما تعاهدوا عليه فيها . وأن الرشيد حين كتب العهد للأمين والمأمون ابنيه بالخلافة بعده ، أمر به فعلق في أستار الكعبة

ترجيح
رأى البغدادي

تعليق قريش
للصحيفة

تعليق الرشيد
لكتاب
العهد

ليزيد بذلك نفاذاً وهيبةً وليزداد الناس له إذاعاتاً وتسليماً وإذاً لا مانع أن يكون العرب - وللشعر عندهم من المنزلة ماله - قد فعلوا ذلك بهذه المعلقات ، لفرط شغفهم بها وحمل الناس على روايتها وتعظيم أمرها ، ومما يسقط شبهة القائلين بأن العرب كانوا يأنفون أن يضعوا في أركان البيت الحرام هُجراً امرئ القيس وتعاهراً طرفة ، أن عبد الله بن عباس كانت له مجالس في مسجد رسول الله ، يسمع فيها شعر ابن أبي ربيعة في ديبه وغزله ، وما كان له مع إسلامه وقرابته ومكانه من صاحب هذه الروضة المباركة أن يسمع بمثل ذلك في هذا المكان ، لولا أن استجداة العرب للشعر لم تكن تتوقف على شرف معناه كما يزعم أصحاب هذه الشبهة الواهية !

أما مكانها من التاريخ ومنزلتها من الشعر فينبغي ألا نستعجل بالفتوى فيها ، قبل أن ينسط من كل واحدة أبياتا ، تبين ما اشتملت عليه من أغراض وما وقع أمثالها من صواب ، وما توفيق إليه من اختراع في وصف أو حكمة أو تشبيه ، ليكون ذلك كالتهديد لما نصفها به بعد ذلك ، من رفعة أو ضعة ومن قوة أو ضعف ، ونبدأ بمعلقة امرئ القيس .

معلقة امرئ القيس (١)

قفا نَبِكْ من ذِكْرِي حَبِيبٍ وَمَنْزِلِ بِسِقْطِ اللَّوِي بَيْنَ الدَّخُولِ كَجَوْمَلِ (٢)
فَتَوْضِحَ فَأَلْمَقْرَأَةَ لَمْ يَعْفُ رَسْمَهَا لِمَا نَسَبَجَتْهَا مِنْ جَنُوبٍ وَشَمَالِ (٣)

(١) ادرو القيس بن حجر بن الحارث بن عمرو المقصور ، وينتهي نسبه إلى كندة ويكنى أبا وهب وأبا الحارث ، وقيل اسمه خندج ، وفي كتب الروم اسمه قيس وعاش بين القرنين الخامس والسادس من ميلاد المسيح وستأتي ترجمته . (٢) السقط : مثلث الناء وهو منقطع الرمل . اللوي : حيث يلتوى الرمل ويدق . الدخول وجومل : موضعان .
(٣) توضح والمقراة موضعان . نسج الرياح : مجاز عن اختلافها على المكان بما تحماه من التراب . وقوله لما نسبجتها البيت تعليل المعنى لاللفظي ، ومعنى ذلك أن يقال اتنى عناء الرسم لسبب آخر غير نسج الرياحين لأن ذلك من أسباب العفاء لكنه غير مراد هنا .

وَقُوفًا بِهَا تَحْبِي عَلَى مَطِيئِهِمْ يَقُولُونَ لَا تَهْلِكِ أَسَى وَتَجَمَّلِ
وَأَنَّ شِيفَانِي عَسْبْرَةٌ مُهْرَاقَةٌ فَهَلْ عِنْدَ رَسْمِ دَارِسٍ مِنْ مَعْوَلٍ ^(١)
كَدَأْبِكَ مِنْ أُمَّ الْحُوَيْرِثِ قَبْلَهَا وَجَارَتِهَا أُمَّ الرَّبَابِ بِمَاسَلٍ ^(٢)
إِذَا قَامَتَا تَضَوَّعَ الْمِسْكُ مِنْهُمَا نَسِيمَ الصَّبَا جَاءَتْ بِرِيَا الْقَرَنْفَلِ ^(٣)

وقال :

أَلَا رَبَّ يَوْمٍ صَالِحٍ لَكَ مِنْهُمَا وَلَا سِيَّامًا يَوْمٍ . بِدَارَةِ جُجُلٍ ^(٤)
وَيَوْمَ عَقَرْتُ لِالْعَذَارَى مَطِيئِي فَيَا عَجَبًا مِنْ كُورِهَا الْمُتَحَمَّلِ ^(٥)
فُظِّلَ الْعَذَارَى يَرْتَمِينَ بِلَحْمِهَا وَشَجِيمٍ كَهُدَابِ الدَّمَقْسِ الْمُفْتَلِ ^(٦)

وفيه يقول :

أَفَاطَمَ مَهَلًا بَعْضَ هَذَا التَّدَلُّ وَإِنْ كُنْتِ قَدْ أَرَمَعْتِ صَرْمِي فَأَنْجَلِي
أَغْرَكِ مِنِّي أَنْ حَبَّكَ قَاتِلِي وَأَنَّكَ مَهْمًا تَأْمُرِي الْقَابَ يَفْعَلِ
وَمَا ذَرَفْتُ عَيْنَاكَ إِلَّا لِتَخْرِبِي بِسَهْمِيكَ فِي أَعْشَارِ قَلْبٍ مُفْتَلِ

ثم قال :

وَبَيْضَةَ خِذْرِ لَا يُرَامُ خِبَاؤُهَا تَمْتَعْتُ مِنْ لَهْوِهَا غَيْرَ مُعْجَلٍ ^(٧)
تَجَاوَزْتُ أَحْرَاسًا إِلَيْهَا وَمَعْشَرًا عَلَى حِرَاصًا لَوْ يُسِرُّونَ مَقْتَلِي ^(٨)

(١) العبرة : الذمعة . مهراقة : مصبوبة فلها هراق وأراق أيضا . المعول : إما المتعمد
ولما مصدر عوات أى بكيت كعوات . (٢) مأسل : مكان .
(٣) الريا : الرائحة . (٤) دارة جلجل : غدير معروف .
(٥) الكور : الرجل . المتحمل : المحمول . (٦) الهداب والهدب : المسترسل .
الدمقس : الحرير أو الأبيض منه . (٧) بيضة خدر : كناية عن المرأة وهي تشبه بالبيضة
لصفائها وسلامتها وبياضها . والحباء : البيت من قطن أو شعر أو وبر .
(٨) لاسرار : الإضرار والإظهار جميعاً ، فهو من الأضداد وبها فسر البيت .

ثم مضى يصفها بقوله :

تَصُدُّ وَتُبْدِي عَنْ أَسِيلٍ وَتَتَّقِي بِنَاظِرَةٍ مِنْ وَحْشٍ وَجَرَّةٍ مُطْفَلٍ (١)
وَتُضْحِي فَتَيْتُ الْمَسْكِ فَوْقَ فِرَاشِهَا نَوْوَمُ الضُّحَى لَمْ تَنْتَطِقِ عَنْ تَفَضُّلٍ (٢)

ثم خرج من ذلك إلى وصف الليل والمناجاة له بقوله :

وَأَيْلٍ كَمَوْجِ الْبَحْرِ أَرْخَى سُدُولَهُ عَلَى بَأْنَوعِ الْهُمُومِ لِيَبْتَسِلِي (٣)
فَلَتُ لَهُ لَمَّا تَمَطَّى بِصُلْبِهِ وَأَرْذَفَ أَعْجَازًا وَنَاءً بِكَلْكَلٍ (٤)
أَلَا أَيُّهَا اللَّيْلُ الطَّوِيلُ أَلَا أَنْجَلِي بِصُبْحٍ وَمَا الْإِصْبَاحُ مِنْكَ بِأَمْثَلِ
فِيَا لَكَ مِنْ لَيْلٍ كَأَنَّ نُجُومَهُ بِكَلِّ مُغَارِ الْفَتْلِ شُدَّتْ بِيذُبِلٍ (٥)

ثم قال يصف الفرس :

وَقَدْ أَغْتَدِي وَالطَّيْرُ فِي وَكُنَاتِهَا بِمَنْجَرِدٍ قَيْدِ الْأَوَابِدِ هَيْكَلٍ (٦)
مِكْرٍ مِفْرٍ مُقْبِلٍ مُدْبِرٍ مَعَا كَجَلْمُودِ صَخْرٍ حَطَّهَ السَّيْلُ مِنْ عَلٍ

ثم قال يصف البرق والمطر ، ومرح الطيور وطررها بصفاء السماء بعد المطر :

أَصَا - تَرَى بَرْقًا أَرِيكَ وَمِيضُهُ كَلَمَعِ الْيَدَيْنِ فِي حَيٍّ مُكَالٍ (٧)
يُضِي سَنَاهُ أَوْ مَصَابِيحُ رَاهِبٍ أَمَالِ السَّلِيطِ بِالذَّبَالِ الْمُفْتَلِ (٨)
عَلَى قَطَنِ بِالشِّيمِ أَيْمَنُ صَوْبِهِ وَأَيْسَرُهُ عَلَى السَّتَارِ فَيَذُبِلٍ (٩)

- (١) الصدود : الإعراض والليل . الأسيل : الحد النقي على امتداد وطول . وجرة : مكان . المطفل : ذات الولد . (٢) نؤوم الضحى : كناية عن الدعة والنعمة والسكافية . تنتطق : تلبس المنطقة ، وعن بمعنى بعد ، أي لم تصر عزيزة بعد ذلة بل هي ناعمة عزيزة منذ كانت . (٣) السدول : جمع سدول وهو السر . الابتلاء : الاختبار . (٤) الاعجاز : المآخِر جمع عجز . ناء : مقلوب نأى . الكلكل : الصدر . (٥) يذبل : جبل . مغار الفتل : وثيقه ومحكمه . (٦) الوكنات : الأوكار واحدها وكنة . المنجرد : الماضي أو الفصير الشعر . الأوابد : الوحوش جمع آبدة ، الهيكل : المرتفع . (٧) الوميض : لمعان البرق وتحركه . الحى : السحاب . (٨) السليط : الزيت . الذبال : جمع ذبالة وهي الفتيلة . (٩) قطن : جبل . الشيم : النظر إلى البرق مع توقع المطر . الصوب : المطر أو انصبابه . الستار ويذبل : جبلان وبينهما وبين قطن مسافة بعيدة .

فَأَنْجَى يَسْحَ الْمَاءِ حَوْلَ كَثِيفَةٍ يَكْبُ عَلَى الْأَذْقَانِ دَوْحَ الْكَنْهَبِلِ (١)
 كَانَ ثَبِيرًا فِي عَرَانِينٍ وَوَبَلِه كَبِيرُ أَنْاسٍ فِي بِيحَادٍ مَزْمَلِ (٢)
 كَانَ مَكَارِكِي الْجِيَاءِ غُدِّيَّةً سُبْحَنَ سُلَافًا مِنْ رَحِيقِ مُقْلَلِ (٣)
 كَانَ السَّبَاعِ فِيهِ غَرَقَى عَشِيَّةً بِأَرْجَانِهِ الْقُصُوى أَنَابِيشُ عُصَلِ (٤)

فأنت ترى أنه بدأ هذه القصيدة بما عده الأديباء بحق أجود مطالع الشعر الجاهلي جملة ، وضربوا بحسنه المثل فقالوا « أحسن من قفانبك ! » وإن كانوا يريدون القصيدة كلها ، وقد جمع في شطر هذا المطع بين أشياء عدها الناس من أوالياته ، لأنه وقف واستوقف ، وبكى وبكيا معه ، وذكر الحبيب والمنزل ، ثم جعل يذكر حبايبه ويصفهن بالطيب والنعمة في عذوبة ورشاقة ، ويتحدث عن قصته معهن يوم الغدير ، ويرجع أنه نظم قصيدته بسبب هذه القصة ، وما كان من تخالعه المزوج بمطاوعة الشباب ونبل الملوك ، وكان في مثل عذوبة الشلاف حين رقى الغزل في قوله « أغرك مني » إلى قوله « وما ذرفت عيناك - البيت » وحين وصل إلى وصف الدبيب والاستهتار في الحب ، والتعرض للهلكة في مخاتلة الأحراس الحراص على قتله ، ثم انتهى نحواً آخر في وصف طول الليل ، ووصف الفرس ، بما هو فيه أول بالإجماع ، ثم وصف البرق والمطر ، وجعل الطيور - وهي المكاركي - من شدة سرورهن بصفاء السماء بعد المطر الذي غرقت في أقاصيه السباع ، كأنما شربن رحيقاً مقللاً ، وكل هذا مفرغ في ذوب من ماء العربية بين الجزالة والعذوبة ، تستطيع بعد ذلك أن تحكم بهما على هذه المعلاقة بأنها أجل أثر تاريخي اتلك الفصاحة العربية في العصر الجاهلي ، وهي في جملة أغراضها وأوصافها ونسبها وكناياتها ، المثال الذي احتذى عليه الشعراء بعده ، وجعلوه به رئيس فحولهم والمقدم عليهم غير مدافع .

(١) كثيفة : موضع . الدوح : عظام الشجر . الكنهبل : ضرب منه في البادية .
 (٢) ثبير : جبل . العرانيين : الأنوف مستعار لأوائل المطر البجاد : الكساء الخياط . المزمل : الملقوف . (٣) المكاركي : ضرب من الطير ، الواحد مكاء .
 الجواء : الوادي . (٤) الأنابيش : أصول النبات الواحدة أنبوشة . العنصل : البصل البري

معلقة زهير بن أبي سلمى المزني (١)

وقد بدأها أيضاً بالتشبيب ومساءلة الدمن ، ثم مضى يصف تلك الآثار
والظعائن واجتيازهن في السراب إذ يقول :

أَمِنْ أُمَّ أَوْفَى دِمْنَةٌ لَمْ تَكَلِّمْ بِحَوْمَانَةِ الدَّرَاجِ فَالْمُتَشَلِّمِ (٢)
وَدَارٌ لَهَا بِالرَّقْمَتَيْنِ كَانَهَا مَرَاجِيعُ وَشَمٌّ فِي نَوَاشِرِ مِعْصَمِ (٣)
بِهَا الْعَيْنُ وَالْأَرَامُ يَمْشِينَ خَلْفَةً وَأَطْلَاؤُهَا يَنْهَضُنَ مِنْ كُلِّ مَجْمَمِ (٤)

حتى قال :

فَلَمَّا عَرَفْتُ الدَّارَ قَلْتُ لِرَبْعِهَا أَلَا أَنْعَمَ صَبَاحًا أَيُّهَا الرِّبْعُ وَأُسَلِّمِ
تَبَصَّرَ خَلِيلِي هَلْ تَرَى مِنْ ظَعَائِنِ تَحْمَلْنَ بِالْعَلْيَاءِ مِنْ فَوْقِ جُرْثُمِ (٥)
عَلَوْنَ بِأَنْمَاطٍ عِتَاقٍ وَكَلَّةٍ وَرَادٍ حَوَاشِيهَا مُشَاكِهِةَ الدَّمِ (٦)
وَفِيهِنَّ مَاهِيٌّ لِلصَّدِيقِ وَمَنْظَرٌ أَنْيَقُ لَعَيْنِ النَّاطِرِ التَّوَسِّمِ
فَلَمَّا وَرَدَنَّ الْمَاءَ زُرْقًا جِامُهُ وَضَعْنَ عَصِيَّ الْحَاضِرِ الْمُتَخَيِّمِ (٧)

(١) هو ابن أبي سلمى ربيعة بن رباح وقيل بالياء بن قررة بن الحارث ، وهو من مزينة ونزل في أخواله من بني عبد الله بن غطفان ، وستأتي ترجمته . (٢) الدمنة : ما أسود من آثار الديار بالبحر والرماد ، حومانة الدراج والمثلث : موضعان بالعالية ، والدراج بفتح الدال وضمتها والأول أشهر . (٣) الرقمتان : حرتان احدهما قريبة من البصرة والأخرى قريبة من المدينة ، وأزاد دارين فاجتزأ بواحدة لأمن اللبس . المراجيع : واحدها رجوع أى معاد . الوشم : معروف . النواشر : العروق ، الواحدة ناشرة . المعصم : موضع السوار من اليد . (٤) العين : جمع عيناء وأعين وهي بقر الوحش ، أى واسعة الأعين . الآرام : الظباء الخالصة البياض ، الواحد رثم . الأطلاء : جمع طلا وهو ولد الظبية والبقرة الوحشية . المجمم : موضع الجثوم وهو بمنزلة المناخ للبعير . (٥) الظعائن : النساء في الهوادج واحدها ظعينة . جرثم : ماء . (٦) الأنمط : جمع نمط ضرب من الثياب . العتاق : البكرية . السكلة : الست الرقيق . الورد : جمع ورد وهو الأحمر . المشاكهة : المشابهة . (٧) الجمام : جمع جمه وهي مجتمع الماء . المتخيم : الضارب الخيمة .

وفرغ من وصف هذه الطعان إلى غرضه الشريف من نظم هذه المعلقة وهو مدح عظيمي شغلان ، اللذين أصلحا بين عبس وذبيان في الحرب قال :

سعى ساعياً غيظ بن مرة بعد ما تبزل ما بين العشيبة بالدم (١)
فأقسمت بالبيت الذي طار حوله
يميناً لنعم السيدان وجدتما
على كل حال من سجيل ومبرم (٢)
تداركتما عبساً وذبيان بعد ما تفانوا ودقوا بينهم عطر منشم (٣)
ثم انتقل إلى ذكر ربانيتها وعلمه بقوله :

فلا تكتمن الله ما في نفوسكم ليتخفى ومهما يكتم الله يعلم
يؤخر فيوضع في كتاب فيدخر ليوم الحساب أو يعجل فينقم
ثم ذكر رزايا الحرب وهول من شأنها وعظم من مصائبها، وذكر ما أراقته من دماء أشرافهم وساداتهم ، وخلص من ذلك إلى الوجه الذي أتم فيه الشعراء به من الحكم السائرة التي سلكها في هذا النسق المتكرر في (ومن ومن) حيث يقول :

وما الحرب إلا ما علمتم وذقتم وما هو عنها بالحديث المرجم
متى تبعثوها تبعثوها ذميمة وتبخر إذا ضرئتموها فتضرم
فتقر ككم عرك الرحابها وتلقح كشافاً ثم تنتج فتشم
فتنتج لكم غلمان أشام كلهم كأحمر عاد ثم ترضع فتفطم
وحيث يقول :

ومن يعص أطراف الزجاج فإنه يطبع العوالى ركبته كل لهدم (٤)
ومن لم يذ عن حوضه بسلاحه
إلى أن جعل خاتمة مطافه قوله :

(١) تبزل : تفتح . (٢) السجيل والمبرم : الضعيف القتل والقوى المحكم .
(٣) منهم : عطارة يتشام بها . (٤) الزجاج : جمع زج وهو الحديد تكون في أسفل الرمح . العوالى : جمع عالية وهي ضد سافلة الرمح . والهدم : السنان الفاطم .

أَلْنَا فَأَعْطَيْتُمْ وَعُدْنَا فَعُدْتُمْ وَمَنْ يُكْثِرِ التَّسَالَ يَوْمًا سَيُحْرَمُ .
وقد ترون أنه سلك في مطلع قصيدته مسلك امرئ القيس ، وبعد أن فرغ
من وصف الظعائن ودمن الديار وجام الماء والأتماط اعتاق والكلال
الوراد، دخل في أمر الصلح واحتمال الديات ومدح السيدين « الحارث بن عوف
وهرم بن سنان » ثم وصف الحرب وخرج منها إلى هذه الأشتات البديعة
من حكمه ، التي فتح للشعراء بعده عُيونها وأنهج لهم سبيلها ، مما يُعَدُّ أظهر ميزة
لهذه المعلقة ، عدا ما في أسلوبها من القوة وحسن الاختصار والتشابه القوي بين
أبياتها من أولها إلى آخرها .

وكان السبب في إنشاء هذه القصيدة ، هو تلك المكرمة الفاخرة التي قام
بها هرم والحارث من الإصلاح بين الحيين ، واحتمال ديات القتلى منهما
في أمولهما .

معلقة طرفة بن العبد^(١)

وهي كذلك مُحتدَاة في مطلعها على معلقة امرئ القيس :
نَحْوَةَ . أَطْلَالٍ بِبُرْقَةِ شَهْمَدٍ تَلُوْحُ كِبَاقِي الْوَشْمِ فِي ظَاهِرِ الْيَدِ^(٢)
وقد وقع خاطره على ما سبق به امرؤ القيس من ذلك الأسلوب ، الذي لم
يقع لشاعرين - علي ما نعلم - إلا لهما في هذا الأدب وهو قوله :
وَقُوفًا بِهَا صَحْبِي عَلَى مَطِيئِهِمْ يَقُولُونَ لَا تَهْلِكِ أَسَى وَتَجَلَّدَ .
ولم يغير فيه سوى القافية . وهو وإن لم يكن من جمال الشعر بالمكان البعيد ،

(١) طرفة بن العبد بن سفيان بن سعد بن مالك بن ضبيعة ينتهي نسبه إلى بكر بن وائل ،
وهو من أشرفهم ، ويسمى ابن العشرين قيل لأنه مات وهو ابن عشرين سنة ، وقيل قتل وهو
ابن ست وعشرين سنة . وطرفة بالفتح والتحريك في الأصل واحدة شجر الأثل .

(٢) أطلال : جمع طلال وهو ما شخص من رسوم الدار . برقة : مكان اختلط ترابه
بججارة أو حصي . شهمد : موضع .

أسلوب خاصّ بهما ، وقد شبه خُدُوج المالكية بخَلَايا السّفِين وجعل يصف السفينة نفسها ، وفعالها بالماء في شق حَيْزُومِها له ، ثم وصف المرأة فشَبَّهها بالظبي الشادن الأحموي ، وشبه ثغرها بنور الأفاحي النّديّة ، ثم دخل في بابهِ الذي لا يَنازع فيه وهو وصف الناقة من قوله :

وَإِنِّي لَأَمْضِي أَلْهَمَّ عِنْدَ اخْتِضَارِهِ
بِعَوَجَاءِ مِرْقَالٍ تَرُوحُ وَتَغْتَدِي (١)

إلى قوله :

عَلَى مِثْلِهَا أَمْضَى إِذَا قَالَ صَاحِبِي
وَبَدَأَ بَعْدَ ذَلِكَ فِي فِخَارِهِ وَذَكَرَ فَتُوْتَهُ ، وَانْدَفَاعَهُ مَعَ أَسْبَابِ الْمَجُونِ وَاللَّهُوِ
فِي نَدَامَاهُ وَقِيَانِهِ قَالَ :

إِذَا الْقَوْمُ قَالُوا مَنْ قَتَى خِلْتُ أَنِّي
وَلَسْتُ بِحَلَالِ التَّلَاعِ مَخَافَةً
فَإِنْ تَبَغْنِي فِي حَلَقَةِ الْقَوْمِ تَلْقَنِي
وَإِنْ يَلْتَقِ الْحَيُّ الْجَمِيعُ تَلَاقِنِي
نَدَامَايَ بِيضٌ كَالنُّجُومِ وَقِيْنَةٌ
رَحِيبٌ قِطَابِ الْجَيْبِ مِنْهَا رَفِيقَةٌ
إِذَا قُلْتُ هَاتِي أَسْمِعِينَا أَنْبَرْتُ لَنَا

ثم ساقته غرّة الشبّاب وسكرة الصّبا ، إلى الاعتراف بمجونه والتحدث بأمانيه فقال :

(١) الهمّ : النية والعزم . اختضاره : حضوره . العوجاء الناقة : التي تعوج في سيرها مرحا ونشاطا . المرقال : وصف من أرقل ضرب من السير .
(٢) التلاع : جمع تلة وهي مسيل الماء . ويسترفد : من الرّفد وهو العطاء .
(٣) الحوانيت : جمع حانوت ، وأراد منازل الخازنين . (٤) الندامى : جمع نديم كيتامى ويتم ، وهو الجليس على المراب والمديث . القينة : الجارية المغينة . والجسد : الثوب الذي يلي الجسد أو المصقول الذي يكاد يقوم من الصقلاب . الجساد : صبغ وهو الزعفران .
(٥) الجيب : مدخل الرأس من الثوب . قطابه : فتحة واتساعه . البضة : الناعمة . المتجرد : الجسد ، (٦) الرسل : الهل .

وما زال تشرابي الخُمورَ ولذتني وبيعتني وإِنفاقِي طَرِيفِي ومُتَلَدِي (١)
إلى أن تحامنتني العَشِيرَةُ كُلُّهَا وأفردتني إفرادَ البعيرِ المَعْبُدِ (٢)
ثم قال وهو في أمانيه هذه - على جاهليته - صادق النظر ، ولو لم يُحْمَلْ
ما وصفه من الشراب والمرأة على ما يحل دون ما يحرم :

ولولا ثلاثٌ هُنَّ من عيشَةِ الفَتَى وَعَيْشِكَ لَمْ أَحْفَلِ مَتَى قَامَ عَوْدِي .
فمنهن سَبَقُ العاذِلَاتِ بِشَرِبَةِ كَمَيْتٍ مَتَى مَا تُعَلِّ بِالماءِ تُزِيدُ (٣)
وكرّمتني إذا نادى المُضَافُ مُحَنَّبًا كَسَيِّدِ الفَضَا نَبْهَتَهُ المُتَوَرِّدُ (٤)
وتَقْصِيرِ يَوْمِ الدَّجْنِ والدَّجْنُ مُعْجِبٌ بِبَهْكَتِهِ تَحْتَ الخِباءِ المَعْمَدِ (٥)

ثم أفاق من هذه البنشوة وصحا من تلك الغواية ، فأخذ يذكر الموت واصطفاه
لعقيلة الفاحش الحريص ويستبكي حبيته عليه يوم موته ، استعزازاً منه لنفسه ،
ثم انطلقت هذه النفس الشابة بفريضة من الحكمة لاتزال مثلاً سائراً بين الأدباء
لا يُبَاغُ شَأُوهُ ، قال :

أرى الموتَ يَعْتَامُ الكِرَامَ وَيَصْطَفِي عَقِيلَةَ مالِ الفَاحِشِ المَتَشَدِّدِ (٦)
أرى العيشَ كَنزاً ناقصاً كُلَّ لَيْلَةٍ وما تَنْقُصِ الأَيَّامُ والدَّهْرُ يَنْفَدُ
لعمرك إنَّ الموتَ ما أخطأ الفَتَى لَكَاطُولِ المُرْخَى وَثَنِيَاهُ بِاليَدِ (٧)
إذا مِتَّ فابْكيني بما أنا أهله وشقِّي على الجَيْبِ يَا بِنَةَ مَعْبُدِ
إلى قوله :

(١) الطريف : الحديث . المتلد : القديم . (٢) المعبد : المذلل والمطلبي بالقطران .
(٣) الكميت : الحمر ، والكميتة لون حمرة إلى صفرة . (٤) المضاف : المستغيث .
المحنب : الفرس الذي في يديه انحناء . السيد : الذئب . المتورد : الوارد للماء .
(٥) الدجن : الباس الغيم آفاق السماء . البهكنة : الجميلة الناعمة الرابية .
(٦) يعتام : يقصد . العقيلة : الكريمة على الشخص من ماله وغيره . الفاحش : البخيل .
(٧) الطول : الحبل ترسل به الدابة في الربعى . الثنى : الطرف .

سَأُبْدِي لَكَ الْآيَاتُ مَا كُنْتَ تَجَاهِلًا وَيَأْتِيكَ بِالْأَخْبَارِ مَنْ لَمْ تَزُودِ
والرواة يجمعون على أن هذه المعلقة أكثرهن أسراً ، وأجزلهن عبارة ،
ولو أنها خلت من عُجْبِيَّة الغريب فيما تعاطاه طرفه من وصفه لناقته ، لكان بها
أجودهم طويلاً ، وهي كعاقبة امرئ القيس لم يتعلق بإنشادهما غرض معروف سوى
هذه الطبيعة الشعرية ، وسوى ما يذكر من أن امرأ القيس ساقها في غزله بفاطمة
وقعته معها يوم الغدير ، ويسح أن يكون طرفه أنشأ طويلاً في الوصف والفخر
أيضاً أو في استرداد الإبل الضائعة كما سيأتي .

معلقة أبيد بن ربيعة العامري^(١)

وهذه المعلقة لا تكاد تعثر فيها بيت واحد تستطيع وحدك أن تفهمه من غير
استعانة بغريب اللغة ، فهي مخفوفة من أطرافها بوحشة البداوة ، متناهية في
الإغراب والحشونة ، قال أبيد يذكر عفاء الديار ودروسها ويشبب بخلته نوار :
عَفَّتِ الدِّيَارُ مَجَلَّهَا فَهَقَامُهَا بِمَعْنَى تَأَبَّدَ غَوَّهَا فَرَجَامُهَا^(٢)
فَدَافِعُ الرِّيَّانِ عَرِيَّ رَشْمُهَا خَلَقًا كَمَا ضَمِنَ الْوُحْيَ سِلَاقُهَا^(٣)
ثم جعل يصف الرعد والمطر وتدافع السنينول على الطلول ، وقد يكون في
بيته هذا وانحاً بعض الوضوح إذ يقول :

(١) هو أبيد بن ربيعة بن عامر بن مالك بن جعفر بن كلاب من بني عامر ثم من هوازن ،
وينتهي نسبه إلى قيس عيلان من مضر ، وكان أبوه ربيعة يسمى « ربيعة المفترين » لجوده
وأبيد أحد الشعراء الفرسان الأجواد الفتيان ، وهو معمر أدرك الإسلام . ومات
سنة ٤٠ للهجرة .

(٢) عفا : لازم ومتعد ، ومعناه تغير . المحل : مكان الإقامة القصيرة . المقام : بالعكس
تأبد : توحش . الغول والرجام : جبالان . (٣) المدافع : جمع مدفع وهي مساقط المياه .
الريان : جبل معروف . الخلق : البالي . الوحي : جمع وحى وهو الكتابة . السلام : جمع
سلمة بكسر اللام المجارة .

وَجَلَّ الشُّيُولُ عَنِ الطُّوَلِ كَأَنَّهَا زُبُرٌ تُجَدُّ مُتُونَهَا أَقْلَامُهَا

وبعد أن وقف في الرسوم وذكر تحمل الحى وتشوقه لظمائن المحبوبة ،
أطاف بناقته فشبها. تارة بالأتان الوحشية في السرعة وخفة التوحُّس ، وتارة
بالبقرة المدعورة التي فقدت فريرتها ، وقد أغرب هنا إغراباً تعرفه مما نسوقه في
آياته الآتية حين يشبه الناقة بحمارة الوحش إذ يقول :

أَوْ مُلْمَعٌ وَسَنَقَتْ لِأَحْقَبِ لَاحَهُ طَرْدُ الْفُحُولِ وَضَرْبُهَا وَكِدَامُهَا (١)
يَعْلُوبُهَا حَدَبُ الْإِكَامِ مُسْحَجٌ قَدْ رَابَهُ عِصْبَانُهَا وَوِحَامُهَا (٢)
بِأَحْزَةِ الثَّلْبُوتِ يَرَبُّهَا فَوْقَهَا قَفَرٌ الْمَرَاقِبِ خَوْفُهَا آرَامُهَا (٣)

وحين يصفها بالبقرة الوحشية في قوله :

أَفْتَلِكَ أُمٌ وَحْشِيَّةٌ مَسْبُوعَةٌ خُدَلَتْ وَهَادِيَّةٌ الصُّوَارِ قَوَامُهَا

وقد مضت هذه في أغراض الشعر مع وصفه كلاب الصيد ، فلا نطيل به
هنا ، وما زال يقيه في هذه الغرابة الدامسة ، حتى تخلص إلى الفخر بنفسه ،
والتحدث إلى نواره ، ومقامرته لإخوانه ، وإكرامه لأضيافه ، قال :

أَوْ لَمْ تَكُنْ تَدْرِي نَوَارُ بِأَنْبِي وَصَالٌ عَقْدُ حَبَائِلِ جَدَامُهَا (٤)

- (١) الملمع : المشرفة الطيين . وسنت : حمت . الأحقب : العير في وركيه يياض .
لاحه : غيره . الكدام : المكادمة مفاعلة من الكدم وهو العض .
(٢) الحدب : المحدوب . الإكام : واحده أكمة وهي التلّ دون الجبل . المسحج :
المعضض . الوحام والوحم : اشتواء الجبل لشيء . (٣) الأحزة : جمع حزير وهو المكان
الغليظ البتقاد . الثلبوت : كحلزون ، واد أو أرض من طي أو ذبيان . يربأ : يرقب ومنه
الريثة لمن يستطلع أمر العدو . المراقب : جمع رقب وهو مكان الريثة . الآرام : جمع أرم
وهي أعلام الطريق . وقوله خوفها آرامها مبتدأ وخبر - أي آرامها موضع مخافتها .
(٤) الحبائل : جمع حباله وهي مستعارة للعهد . الجذال : مبالغة في الجذم هو القطع .

تَرَكَ أَمَكِينَةً إِذَا لَمْ أَرْضَهَا أَوْ يَرْتَبِطُ بَعْضَ النَّفُوسِ حَمَامِهَا (١)

تَبْلُ أَنْتِ لَا تَدْرِينَ كَمْ مِنْ لَيْلَةٍ طَلَقِ لَدَيْدِ لَهْوُهَا وَنِدَامِهَا (٢)

حتى قال وقد ظُرف في هذه الاستعارة :

وَعَدَاةٍ رِيحٍ قَدْ وَزَعَتْ وَقِرَّةٍ إِذْ أَصْبَحَتْ بِيَدِ الشَّمَالِ زِمَامِهَا (٣)

وَلَقَدْ حَمَيْتُ الْخَيْلَ تَحْمِيلُ شِكَّتِي فُرْطٌ وَشَاخِي إِذْ غَدَوْتُ لِحَامِهَا (٤)

ثم ذكر فصله للعظيمة ، ونحره للأيسار ، وعطف على قومه فقخر بكثرة

ساداتهم وما سنه لهم آباؤهم ، إذ يقول :

وَكَثِيرَةٌ غُرْبَاؤُهَا مَجْهُولَةٌ تُرْجَى نَوَافِلُهَا وَيُنْخَشَى ذَامِهَا (٥)

أَنْكَرْتُ بَاطِلَهَا وَبُوتُ بِحَقِّهَا يَوْمًا وَلَمْ يَفْخَرْ عَلَى كِرَامِهَا

وَجَزُورٍ أَيْسَارٍ دَعَوْتُ لِحَنِّهَا بِمَخَالِقٍ مُتَشَابِهٍ أَعْلَامِهَا (٦)

فَالضَّيْفُ وَالْجَارُ الْقَرِيبُ كَأَمَّا هَبَطًا تَبَالَةً مُخَصَّبًا أَعْضَامِهَا (٧)

إِنَّا إِذَا التَقَّتِ الْمَجَامِعُ لَمْ يَزَلْ مِمَّا لِرِزَاؤِ عَظِيمَةٍ جَشَامِهَا (٨)

وَمُقَسَّمٍ يُعْطَى الْعَشِيرَةَ حَقَّهَا وَمُعْذَمِرٍ لِحُقُوقِهَا هَضَامِهَا (٩)

(١) الحمام : الموت . (٢) الندام : النادمة . (٣) وزعت : كشفت . القرية : البرد . الشمال : ريح تهب من الشمال وهي باردة . (٤) الشكة : السلاح . الفرط : الفرس الحظيفة المتقدمة السريعة . (٥) وكثيرة . البيت يريد رب دار يكثر الوافدون عليها . ممن لا يعرفونها . النوافل : العطايا . الذام : العيب والعار ، وكأنه يشير إلى المناظرة التي جرت بينه وبين الربيع بن زياد العبسي عند النعمان بن المنذر ، ولعل لإنشاءه له هذه المعلقة قد يكون من أسبابه تقييد هذه الفخرة للعامرين بعد كبره وليد وإدراكه .

(٦) الجزور : الذبيحة . الأيسار : جمع يسروم القامرون . المخالق : سهام الأيسر . (٧) تبالة : واد مخصب من أودية اليمن . الأعضام : الأراضي المطمئنة ، الواحد هضم . (٨) الرزاز : الذي يلز الخصوم أي يقهرهم ويغلبهم حين يقرب بهم . التجم : ركوب الخطر والمشقة . (٩) العذمة : الغضب مع مهمة . الهضم : الكسر والظلم .

فَضْلًا وَذُو كَرَمٍ يُعِينُ عَلَى النَّدَى سَمِخٌ كَسُوبٌ رَغَائِبٌ غَنَامُهَا
 مِنْ مَعْشَرٍ سَنَّتْ لَهُمْ آبَاؤُهُمْ وَلِكُلِّ قَوْمٍ سُنَّةٌ وَإِمَامُهَا

وهذه القصيدة القوية النسيج ، تمتاز أيضاً بتساويها من كل جهاتها فيما هي مُفرَّغة فيه من الإغراب الذي قد تَسْتَجْفِيهِ الأذان ولا تقع عليه الطباع ، غير أنها بعد ذلك كله تعتبر في شدتها وصدق انتزاعها من ضمير الصحراء ، أجمل وثيقة تاريخية تدل على صدق هذا الأدب الجاهلي .

معلقة عنتره العبسي (١)

ومن الغريب أن يكون عنتره ، وهو في نشأته راع طريد وفي شبابه فارس مُقَدَّم ، يتجلى عن هذه الشيمة الكريمة ، ويثبث في قوله ذلك الطبع السهل الذي بدا منه على هذه المعلقة . في غير موضع أثر من السلاسة ورقة الحاشية ، وإن لم تخرج عن أدب العصر بالانحراف عن الغريب والحشونة في الجملة ، قال العبسي :

هَلْ غَادَرَ الشُّعْرَاءُ مِنْ مُتَرَدِّمٍ أَمْ هَلْ عَرَفْتَ الدَّارَ بَعْدَ تَوَهُمٍ (٢)
 يَا دَارَ عَيْلَةٍ بِالْجَوَاءِ تَكَلَّمِي وَعَمِي صَبَاحًا دَارَ عَيْلَةٍ وَأَسْمِي (٣)
 وَتَحُلُّ عَيْلَةٌ بِالْجَوَاءِ وَأَهْلُنَا بِالْحَزَنِ وَالصَّمَانِ فَالْمَتَّلَمِ (٤)

(١) هو عنتره العبسي ابن شداد بن عمرو بن قراد ، وقيل شداد جده غلب على أبيه وقيل عمه كقله بعد أبيه ، والعنتر في الأصل الذباب الأزرق ، الواحد عنتره ويرجع أن السبب في ارتجاله هذه المعلقة ما وقع له من بعض العبسين في تعبيره إياه بالسواد ، وعدم قول الشعر . ذكر ذلك البغدادي في الخزانة ونقله أيضاً ابن قتيبة في طبقات الشعراء ، وعاش عنتره إلى حدود القرن السادس الميلادي . (٢) المتردم : المكان الذي يحتاج إلى إصلاح أو هو من التردم كالترنم وزناً ومعنى . (٣) الجواء : موضع وفي غير البيت جمع جوار . (٤) الحزن والصمان والتملم : مواضع .

دَارُ لَأْنِسَةٍ غَضِيضٍ طَرَفُهَا طَوْعِ الْعِنَاقِ لَنِيذَةِ الْمُتَبَسِّمِ (١)
فوقفتُ فيها نَاقِي وَكَأَنَّهَا قَدْنٌ لِأَقْنِي حَاجَةِ الْمُتَلَوِّمِ (٢)

وبعد ذكر حبه اعبلة وقتاله لقومها ، وأنه على هذه الحال كالطامع في الشراب ، جعل يصف حلاوتها وثمرها ، فشبهه طيبه مرةً بفأرة المسك ، وأخرى بالروضة الأنف ، واستطرد إلى ذلك التشبيه الدقيق التصوير في قوله :

وَخَلَا الذُّبَابُ بِهَا فَلَيْسَ بِبَارِحٍ غَرْدًا كَفِعْلِ الشَّارِبِ الْمُتَرَتِّمِ
هَزَجًا يَحْكُ ذِرَاعَهُ بِذِرَاعِهِ قَدَحَ الْمَسْكِ عَلَى الزَّنَادِ الْأَجْذَمِ (٣)

وجهاً بذة البيان لا يزالون يستجيدون هذا التشبيه ويقرون حسنه ويعلمونه من التشبيهات العقم ، ثم عاد يصف تنعمها وشقاءه وأنهما كما يقول :

نُحْسِي وَتُصْبِحُ فَوْقَ ظَهْرِ حَشِيَّةٍ وَأَيْدِيٌ فَوْقَ سَرَاةٍ أَدْهَمَ مُلْجَمِ (٤)
وَحَشِيَّتِي سَرَجٌ عَلَى عَيْلِ الشَّيْ نَهْدٌ بِرَاكِلِهِ نَبِيلِ الْمُحْزَمِ (٥)

ثم جعل يصف الناقة على مثال طرفة ، ولم يسرف ، وتخلص إلى ذكر كرمه وإبائه وكرهه ظلمه قال :

أَنْ تُغْدِي دُونِي الْقِنَاعَ فَإِنِّي ظَلْتُ بِأَخْذِ الْفَارَسِ الْمُسْتَلْمِ (٦)

(١) الأاسة : المؤنسة . الغضيين : المكسور من الحياء . المتبسم : الفم .

(٢) القدن : القصر . المتلوم : الباقي المتكث .

(٣) المسكب : المطأطىء . الأجذم : القطوع المكف .

(٤) كأنها فعيلة بمعنى مفعولة أى المحشوة . السراة : الظهر . الأدم : الذى تضرب

زرقة لونه إلى السواد . (٥) العيل : الغليظ . الشوى : الأطراف جمع شواة . النهدي :

المشرف الضخم . المراكل : جمع مراكل مواضع عقب الراكب من جب الفرس . المحزم :

موضع الحزام . نبيل : بمعنى عظيم وسمين . (٦) الإعداف : الإرسال والإرخاء .

الطب : العالم الحاذق . المستلم : اللابس الامة ومعنى عدة الحرب .

أَتْنِي عَلَىٰ بِمَا عَلِمْتُ فَإِنِّي سَهْلٌ مُّخَالِقٌ إِذَا لَمْ أُظَلَّمْ
فَإِذَا ظَلَمْتُ فَإِنَّ ظُلْمِي بَاسِلٌ مَرَّةً مَذَاقَتُهُ كَطَعْمِ الْعَلَقَمِ
وَلَقَدْ شَرِبْتُ مِنَ الْمُدَامَةِ بَعْدَ مَا رَكَدَ الْهَوَاجِرُ بِالْمَشُوفِ الْمُعَلِّمِ (١)
فَإِذَا شَرِبْتُ فَإِنِّي مُسْتَهْيِكٌ مَالِي وَعِرْضِي وَافِرٌ لَمْ يُكَلِّمْ
وَإِذَا خَمَوْتُ فَمَا أَقْصَرُ عَنْ نَدَى . وَكَمَا عَلِمْتُ شِمَائِلِي وَتَكَرُّمِي

وقد أسلفنا في أغراض الشعر شيئاً من وصفه لنجدته ، وحديثه عن منازلته
قرنه ، وشكوى أدهمه ، ولم يُلْهِه ذلك عن العودة إلى الغزل ، إذ قال بعد ذلك
وهو من رقيق الكلام وحلو القريض :

وَلَقَدْ ذَكَرْتُكَ وَالرَّمَاحُ نَوَاهِلُ مَنِي وَبِيضُ الْمُنْدِ تَقَطَّرُ مِنْ دَمِي
فَوَدِدْتُ تَقْبِيلَ الشُّيُوفِ لِأَنَّهَا لَمَعَتْ كِبَارِقِ تَغْرِكِ الْمُتَبَسِّمِ !
ثم ختم طويلته بما ساقه من الوعيد لابني ضمضم ، وكان قتل أباهما فتوعداه
ونذرا دمه قال :

وَلَقَدْ خَشِيتُ بَانَ أَمُوتَ وَلَمْ تَدْرُ لِلحَرْبِ دَائِرَةٌ عَلَى ابْنِي ضَمْضَمِ
السَّائِمِي عِرْضِي وَلَمْ أَشْتَهُمَا وَالنَّاذِرِينَ إِذَا لَمْ أَلْتَهُمَا دَمِي
إِنْ يَفْعَلَا فَلَقَدْ تَرَكْتُ أَبَاهَا جَزَرَ السَّبَاعِ وَكُلَّ نَشْرِ قَشَعَمِ

معلقة عمرو بن كلثوم (٢)

وقد ساقها بعد التشبيب في الفخر بقومه وذكر أيامهم وبلائهم في الحروب ،

(١) المدامة : الخمر . ركد : استقر . الهواجر : جمع هاجرة شدة الحر . المشوف :
المجلو المحسن . (٢) هو عمرو بن كلثوم بن مالك بن عتاب بن سعد بن زهير التغلبي ،
أحد فتاك العرب المشهورين ، وأمه ليلى بنت مهلهل أخت كليب ، وأبوه فارس تغلب ، فقد
أحاط به العرف والعز من كل نواحيه توفي سنة ٥٢ قبل الهجرة .

والتهديد لعمر بن هند الملك ، وقد كانت سيادته وشغله برياسة قومه مما صرفه عن الإكثار من الشعر ، فلم يُشهر إلا بهذه الواحدة التي كان يُنشدُها في عكاظ ، وكانت تغلب تعظمها وتحفل لإنشادها ، ويفتخرون بها حتى عيّرهم بذلك بعض الشعراء المتأخرين إذ يقول :

أَلْهَى بَنِي تَغْلِبٍ عَنِ كُلِّ مَكْرُمَةٍ قَصِيدَةُ قَالِمَا عَمْرُو بْنِ كَلْثُومِ !
ومطلعها :

أَلَا هُبِّي بِصَخْنِكَ فَاصْبِحِينَا وَلَا تُبْقِي خُمُورَ الْأَنْدَرِينَا (١)
وقال بعضهم إن الطلع هو :

فِي قَبْلِ التَّفْرِقِ يَا طَعِينَا نُحَبِّرُكَ الْيَقِينَ وَنُحْبِرِينَا

وبعد أن أطل في وصف صاحبه ، بدأ يهدد عمرو بن هند ، وجعل يذكر آباءه وأيامهم وصنائعهم قال :

أَبَا هِنْدٍ فَلَا تَعْجَلْ عَلَيْنَا وَأَنْظِرْنَا نُحَبِّرُكَ الْيَقِينَا
بِأَنَّا نُورِدُ الرِّايَاتِ بِيضًا وَنُصَدِرُهُنَّ خُمْرًا قَدْ رَوِينَا
وَأَيَّامَ لَنَا غُرٌّ طَوَالَ عَصَبِنَا الْمَلَكِ فِيهَا أَنْ نَدِينَا
ثم قال :

وَرِثْنَا مَجْدَ عَلْقَمَةَ بْنِ سَيْفٍ أَبَاحَ لَنَا حُصُونَ الْمَجْدِ دِينَا
وَرِثْتُ مُهْلِلًا وَالْحَسِيرَ مِنْهُ زَهِيرًا نِعَمَ ذُخْرِ الذَّاخِرِينَا
وَعَتَابًا وَكَلْثُومًا جَمِيعًا بِهِ نُحَمِّي وَنُحَمِّي الْمَحَبَّرِينَا (٢)
وَمِنَّا قَبْلَهُ السَّاعِي كَلِيبُ فَأَيُّ الْمَجْدِ إِلَّا قَدْ وَلِينَا
مَتَى نَعْقِدُ قَرِينَتَنَا بِحَبْلِ تَجِدُّ الْحَبْلَ أَوْ تَقِصُّ الْقَرِينَا (٣)

(١) الأندرين : قرى بالشام طيبة الحمر . (٢) الحجر : المنوع أو اللتجى .

(٣) تَبَدُّ : تقطع . تقص : من الوقس وهو القتل .

ثم قال :

وَقَدْ عَلِمَ الْقَبَائِلُ مِنْ مَعَدٍ إِذَا قُبِبَ بِأَبْطَحِهَا بِنِينَا
 يَا نَا الْعَاصِمُونَ إِذَا أُطِعْنَا وَأَنَا الْعَارِمُونَ إِذَا عُصِينَا (١)
 وَأَنَا الْمَنِعْمُونَ إِذَا قَدَرْنَا وَأَنَا الْمَهْلِكُونَ إِذَا أُبْتُلِينَا
 مَلَأْنَا الْبِرَّ حَتَّى ضَاقَ عَنَّا وَنَحْنُ الْبَحْرَ نَمْلُؤُهُ سَفِينَا
 إِذَا بَلَغَ الرَّضِيعُ لَنَا فِطَامًا تَحَرَّ لَهُ الْجَبَابِرُ سَاجِدِينَا
 وَمَنْ جِيءَ مَا جَاءَ فِيهَا قَوْلُهُ :

عَلَى آثَارِنَا بِيضٌ حِسَانٌ نَحَازِرُ أَنْ تُفَارِقَ أَوْ تَهَوَّنَا
 ظَعَانٌ مِنْ بَنِي جُشَمِ بْنِ بَكْرِ خَلَطْنَ بِمَيْسَمٍ حَسَبًا وَدِينَا (٢)
 أَخَذْنَ عَلَى فَوَاسِيهِنَّ عَهْدًا إِذَا لَاقُوا فَوَاسِ مَعْلَمِينَا (٣)
 لَيْسَتْ أَبْنُ أَبْدَانًا وَبَيْضًا وَأَسْرَى فِي الْحَدِيدِ مُقَرَّنِينَا
 يَقْتَنُ جِيَادَنَا وَيَقَانُ لَسْتُمْ بُعُولَتَنَا إِذَا لَمْ تَمْنَعُونَا

والتأمل في هذه المعلقة والتي قبلها يرى فيهما شيئاً من أثر الرقة والسهولة ،
 قد يكون أكثر ظهوراً في هذه الأخيرة ، ويلحظ فيها شيئاً من المعاني المتكررة ،
 والفخر المبالغ فيه كما في قول ابن كَثُوم (إِذَا بَلَغَ الرَّضِيعُ لَنَا فِطَامًا . الْبَيْتُ)
 وإلى جانب ذلك معاني حسانا وألفاظا رشيقة .

ولعل ما يتصل بارتجال هذه القصيدة من فتكه بعمرو بن هند على النحو
 المروي في قصته المشهورة مما يصح أن تؤخذ تفصيلاته بشيء من التحفظ ، إذ
 لا يبعد - وإن كانت الحادثة في ذاتها مسلمة - أن يكون شيء مما أحاط بها غير

(١) العاصم : المانع والحامي . العارم : الشديد الثقيل الوطأة .

(٢) الميسم : الحسن . (٣) المعلم : الذي يعلم نفسه في الحرب بعلامة ليكون

معروف البلاء .

صحيح ، لأن لأحد أن يقول : وكيف يقتل ابن كلثوم هذا الملك على سرير ملكه
وفي وسط أعوانه و بين الطائفين به من جنده وحراسه ثم لا يسمع الناس خبراً ولا
يجنون من أحد تكيراً ؟ وقد يكون هذا القول اعتراضاً ، بل ربما سهل السبيل
إلى القول باتصال هذا العبث من افتعال الرواة بأبيات من القصيدة نفسها ،
خصوصاً حين تقرءون معلقة الحارث بن حازمة اليشكري ، وهي قد قيلت لهذا الملك
بعينه من شاعر معاصر لابن كلثوم وفيها بداوة قوية ، وفي هذه أين وسهولة .

ولكن هذا الاعتراض سيداعى من أساسه حين تفقون على الاعتبارات
الآتية ، وهي في جانب من الاعتبار والشأن ، وذلك أن هذا الملك كان قد طالت
أيامه ، وثقلت على الناس وطأته ، ودوخهم عسفه وجوره ، حتى باتوا يرقبون له
داهية القرون ، و يتر بصون به دوائر السوء ، وكان في آل المنذر من يتطلع إلى
هذا الملك من بعده . وهم حين ضعفت عصبيتهم في العراق ولم يكن لهم من المنعة
إلا هذه الولاية التي يمنحها لهم ملوك الفرس على سنة سلفت وعادة جرت ،
ويومئذ كان العز والعدو في ربيعة قد انتهى إلى هذين الحيين من بكر وتغلب ،
وكانت السيادة والشرف فيهما امرو وأبيه وجده ، ومن اليسير إذاً أن تكون
هذه الفتكة وايدة فكرة مختصرة وتأمير مدبر ، استروح الناس منها العافية وتولوا
إلى ظل من الطمأنينة والدعة ، وذلك هو السر في تخاذل الأعوان وتقاعد التبغ ،
عن أراحهم من هذا الجبار في اللحاق بهم والتعقب لآثارهم ، حتى انصرفوا
موفورين لم يصب أحد منهم بكلم .

وأما ما عسى أن تعجبوا منه من الفرق بين القصيدتين ، في أين واحدة وقوة
أخرى ، فأعجب منه أن تسلموا بأن من الناس من يكون له عدة بنين في دار
واحدة ومن صاب واحد وهذا غبي قدم وذلك فصيح مُعرب ، وأشد من ذلك عجيباً ،
أن تقولوا إن الرجل الواحد قد تمر به حالتان مختلفتان ، يكون في إحداها سهلاً
دمثاً ، وفي الأخرى غليظاً متوعراً ، وما كان العرب إلا خلقتا من خلق الله ،

يكون فيهم القوى كما يكون فيهم الضعيف ، وتختلف طباعهم كما اختلفت ألوانهم ، وأتم تعلمون أن من آثار البادية تعويد الناس البأس والحشونة والنجدة ، وفي العرب من كان جباناً هراباً ونفاجاً مخوعاً ، والطباع ما زالت قسمة بين الناس .

معلقة الحارث بن حلزة اليشكري^(١)

وكان السبب في ارتجالها أن دماء كانت بين بكر وتغلب ، اختلفوا عليها وترافعوا فيها إلى عمرو بن هند ليحكم بينهم ، وعلم الحارث أن ضلع الملك على رهطه من بكر مع تغلب ، فوقف - وكان به وضح - فألقى الملك بينه وبينه ستراً ثم جعل يعجبه قوله حتى رفع الستر عنه وأدناه فأجلسه معه وحكم لبكر على تغلب :

أَذْنَتْنَا بَيْنِنَا أَسْمَاءَ رَبِّ ثَاوٍ يُمَلُّ مِنْهُ الثَّوَاءُ^(٢)

بَعْدَ عَهْدٍ لَنَا بِرُقَّةٍ شَمَاءَ ءَ فَأَذْنِي دِيَارِهَا الْخَلْصَاءُ^(٣)

وبعد أن مضى قليلاً في هذا التشبيب ، أخذ يصف الناقة ويشبهها بالنعامة في الإسراع والخفة ، ثم تركها مكانها وجعل يذكر تجني تغلب على قومه ، ويرد عليهم ويذكر ما لقومه من المنعة والأيام والمآثر ، واتصل من ذلك بمدح الملك ، وتذكيره بأياديهم عنده ، وتعييره تغلب باستخدامها له ، وهو في هذا أشبه بمن كان يهدد الملك ويتوعده ، لا بمن كان يمدحه ويتزلف إليه قال :

غَيْرَ أَنِّي قَدْ اسْتَعِينُ عَلَى الْأَمِّ إِذَا خَفَّ بِالثَّوِيِّ النَّجَاءُ^(٤)

(١) الحارث بن حلزة ومعناها القصيرة والبخيلة والسيئة الخلق ، ابن مكروه بن عبد الله ابن مالك ينتهي نسبه إلى يشكر رهط من بكر بن وائل ، وهو من أصحاب الواحدة الجيدة ، عمر طويلاً ومات قبل الهجرة بنحو خمسين سنة . (٢) البين : الفراق : الثاوي : المقيم : (٣) برقة شماء : مكان . الخالصاء : كذلك . (٤) الثوي : المقيم . النجاء : الاسراع .

بَرْقُوفٍ كَأَنَّهَا هَيْقَلَةٌ أُمُّ رِثَالٍ دَوِيَّةٌ سَقْفَاءُ (١)
آنَسَتْ نَبَأَهُ وَأَفْزَعَهَا الْقَنَاصُ عَقْرًا وَقَدَدْنَا الْإِمْسَاءُ (٢)

ثم قال :

إِنَّ إِخْوَانَنَا الْأَرَاقِمَ يَذَلُّوْنَ عَلَيْنَا فِي قَبِيلِهِمْ إِخْفَاءُ (٣)
زَعَمُوا أَنَّ كُلَّ مَنْ ضَرَبَ الْعَيْسَرَ مَوَالٍ لَنَا وَأَنَا الْوَلَاءُ (٤)
أَجْمَعُوا أَمْرَهُمْ عِشَاءً فَلَمَّا أَصْبَحُوا أَصْبَحَتْ لَهُمْ ضَوْضَاءُ
مِنْ مُنَادِيٍّ وَمِنْ مُجِيبٍ وَمِنْ تَصْنِئَةٍ لِي خَيْلٍ خِلَالِ ذَلِكَ رُغَاءُ
أَيُّهَا النَّاطِقُ الْمُرْقَشُ عَنَّا عِنْدَ عَمْرٍو وَهَلْ لَدَاكَ بَقَاءُ (٥)
لَا تَخْلُنَا عَلَى غَرَائِكَ إِنَّا قَبْلُ مَا قَدَّوْشِي بَنَاءَ الْأَعْدَاءِ (٦)
فَبَقِينَا عَلَى الشَّنَاءَةِ تَنْمِينًا حُصُونٌ وَعِزَّةٌ قَعْسَاءُ (٧)
وَكَانَ الْمُنُونَ تَرْدِي بِنَا أُرُ عَنْ جَوْنًا يَنْجَابُ عَنْهُ الْعَمَاءُ (٨)
إِرْمِي بِمِثْلِهِ جَالَتِ الْخَيْلُ فَاَبْتِ لِحَصْمِهَا الْإِجْلَاءُ
مَلِكٌ مُقْسِطٌ وَأَفْضَلُ مَنْ يَمْسِي وَمِنْ دُونِ مَا لَدَيْهِ الشَّنَاءُ

وقال :

-
- (١) الزيف : إسراع النعامة في سيرها ، وقد يستعار لسير غيرها كما هنا ، فالزفوف
مبالغة في وصف الناقة بالسرعة . الهقلة : النعامة . الرثال : أولادها ، الواحد رأل . الدو :
المفازة ، والدوية المنسوبة إليها . السقفاء : الطويلة مع انحناء .
(٢) آنست : أحست . النبأة : الصوت الخفي . القناس : الصيادون .
(٣) الأراقم : بطون من تغلب . الفلو : مجاوزة الحد . القيل : الفول . الإخفاء : الإلحاح .
(٤) العير : الحمار وقد يكون بمعنى السيد وبهما فسر البيت .
(٥) الترقيش : الزخرف والتزيين . (٦) الغرأة : اسم بمعنى الاغراء ، وفي العبارة
حذف أي لا تظن أننا خضعنا . (٧) الشنأة : البغض . تنمينا : ترفعنا وتمننا . القعساء :
الثابتة العزيرة . (٨) تردى : ترمى من باب ضرب . الأرعن : الجبل الشامخ .
الجون : الأبيض ، والأسود ضد . الانجياب : الانكشاف . العماء : السحاب .

هَلْ عَلِمْتُمْ أَيَّامَ يُنْتَهَبُ النَّارُ مِنْ غَوَارٍ أَلِكُلِّ حَيٍّ عَوَاءٍ (١)
 إِذْ رَفَعْنَا الْجَمَالَ مِنْ سَعْفِ الْبَحْرَيْنِ سَيْرًا حَتَّى نَهَاها الْحِسَاءُ (٢)
 ثُمَّ مَلْنَا عَلَى تَمِيمٍ فَأَخْرَمْنَا وَفِينَا بَنَاتُ قَوْمٍ إِمَاءُ
 لَا يُقِيمُ الْعَزِيزُ بِالْبَلَدِ السَّهْلِ وَلَا يَنْفَعُ الدَّلِيلُ النَّجَاءُ
 لَيْسَ يَنْجِي مَوَائِلًا مِنْ حِذَارٍ رَأْسُ طَوْدٍ وَحَرَّةٌ رَجْلَاءُ (٣)
 مَلِكٌ أَضْرَعَ الْبَرِيَّةَ لَا يُورِدُ جَدُّ فِيهَا لِمَا لَدَيْهِ كِفَاءُ (٤)
 كَتَّ كَالَيْفٍ قَوْمِنَا إِذْ غَزَا النَّاسُ نَحْنُ لِأَبْنِ هِنْدٍ رِعَاءُ
 مَا أَصَابُوا مِنْ تَغْلِيٍّ فَمَطُّوا لِعَلِيٍّ إِذَا أُصِيبَ الْعَفَاءُ (٥)
 إِذْ أَحَلَّ الْعَلِيَاءُ قُبَّةً مَيْسُورًا نَفَادَى دِيَارِهَا الْعَرِصَاءُ
 فَتَأَوَّتْ لَهُ قَرَاظِبَةٌ مِنْ كُلِّ حَيٍّ كَأَمِّهِمْ أَلْقَاءُ (٦)
 فَهَدَاهُمْ بِالْأَسْوَدَيْنِ وَأَمْرُ اللَّهِ بَلَّغٌ تَشَقَّى بِهِ الْأَشْقِيَاءُ (٧)

ثم مضى بعد ذلك يذكر أياديهم على عمرو بن هند ، ثم حَجْر بن أم قِطَامٍ
 وعلى امرئ القيس من بعده ، وغيره من الملوك والأشراف الذين نصرهم في
 الحرب ، ثم جعل يذكر تغلباً بما كان بينهما من الحلف ، وانتهى من ذلك إلى
 العتاب المزوج بالإنكار ، والغرابة لما تريد عليهم عليه تغلب من الهوان
 والتسليم قال :

وَاذْكُرُوا حِلْفَ ذِي الْمَجَازِ وَمَا قَدَّمَ فِيهِ الْعُهُودُ وَالْكَفَلَاءُ

- (١) الغوار : المغاورة مفاعلة من الفارة أى الهجوم من الجانبين .
- (٢) رفعا الجمال : سيرناها . سعف البحرين : أطرافها ، وأصل السعف للنخلة . نهاها : كفها . الحساء : مكان بعينه . (٣) الموائل : الهارب الطالب الموثل . الطود : الجبل . الحرة الرجلاء : الغليظة الشديدة . (٤) الكفاء : الجزاء والنظير .
- (٥) المطاول : المهدر الدم . العفاء : التراب والمراد هنا الفناء والذهاب .
- (٦) تأوتت : اجتمعت . القراضبة : اللصوص . والألقاء : جمع لقوة وهى العقاب .
- (٧) الأسودان : التمر والماء . بلغ : بالغ .

واعلموا أَنَّا وَإِيَّاكُمْ فِيمَا اشْتَرَطْنَا يَوْمَ اخْتَلَفْنَا سِوَاهُ
أَعْلَيْنَا جُنَاحُ كِنْدَةَ أَنْ يَغْنَمَ غَازِيَهُمْ وَمِنَّا الْجَزَاءُ
والقصيدة كلها من هذا النمط القوي ، وفيها من أثر الأرتجال الإقواء في قوله :
فَمَلَكْنَا بِذَلِكَ النَّاسَ حَتَّى مَلَكَ الْمُنْذِرُ بِنُ مَاءِ السَّمَاءِ

هكذا بالجر ، والقافية كلها مرفوعة ، على أننا نرجح أن هذه القصيدة غير مرتجلة ، وإنما هي محبرة فكر فيها الشاعر وأعدّها إعداداً لهذا المقام ، الذي لم يكن مفاجئاً ولا معجلاً عن الروية كما هو ظاهر .

وهذه هي القصائد السبع ، ممتازة عن سائر الشعر الجاهلي ، بأوليتها وسعة قوافيها ، وتلك الأغراض المتنوعة ، وبهذا الأسلوب البدوي المشتغل على إثارة من الحسن في الجزالة والرقّة ، مع المعاني الكثيرة والأدب الشعري الذي كانت هذه القصائد خير مثال منه مضى في أثره الشعراء من بعد .

أوصاف الشعر في لفظه وأسلوبه ومعانيه

أما من حيث اللفظ فهو كما ترى تغلب عليه الجزالة ويكثر فيه الغريب وخاصة عند تعاطي الوصف للشيء من حيوان وجماد وطيرونبات ، وهو أيضاً لفظ معرب لا ترى فيه لحناً ، وقد قدمنا أن ذلك كان جبلة وكان طبعاً ، والمعروف أنه لم يؤثر عن واحد من أهل هذه الجاهلية لحن يذكر ، ومن أوصاف الألفاظ أنها كانت غالباً تستعمل في معانيها الحقيقية ، كما أسلفنا في النثر ، إلا ما كان في باب الوصف والغزل وبعض المادح من التشبيهات البارعة المصوّرة وبعض الكنايات الرائعة الحسن ، كمثل « نؤوم الضحى » في قول امرئ القيس وإن كانت نومة الضحى قد أصبحت لاتعجب أهل هذا العصر النشيط المتحرك ، إلا أنها مع ذلك كانت ولا تزال تدلّ على مقدار النعمة والفراغ .

لفظه

وكذلك لم يكن لهم في لفظهم من دخيل أعجمي إلا ما عرفوه من قبل وخطوه بأوضاع لغتهم في إبان التكوين ، وقد أشرنا إلى ذلك في الكلام على أصل العربية ، وقد وقع للأعشى بعض ذلك الأعجمي كان يتظرف به في شعره كقوله :

لَهَا جُلْسَانٌ عِنْدَهَا وَبَنَفْسَجٍ وَسَيْدَسْبِرٍ وَالْمَرْزُجُوشُ مِنْهَا (١)

وأما الأسلوب فأظهر أوصافه ما تراه من غلبة الإيجاز وحذف الفضول والطراد التعبير من طريق الحقيقة والتشبيه في الغالب ، وكذلك ما فيه من الطابع البدوي الذي يكاد يمتاز به شعر الجاهليين من إيراد المعاني في صورة الخطاب لما لا يعقل من طلل أو ناقة أو فرس .

وهذا النسيب أو ذلك الحديث إلى النساء الملم بأطراف كلامهم ، والداخل في أكثر أغراض الشعر عندهم ، وهناك شيء آخر في الأسلوب هو قلة العناية بترتيب الأفكار وعدم الحرص على الربط بين أجزاء الكلام ، حتى ليخرجون من غرض إلى غرض من غير توطئة ولا تمهيد ، في مفاجأة واقتضاب ، ولم يعرف أنه دخل في أسلوبهم شيء من المحسنات البديعية التي يصح أن تكون من اختراعات العصور الأخرى كالجناس والتورية وما أشبه ذلك .

أما معاني الشعر الجاهلي فأظهر أوصافها أنها كانت معاني فطرية قريبة التناول ، متزحزحة عن هذه النزعات الفلسفية ، وذلك الاستقصاء العميق في استخراجها من مظانها ، وكانت في الغالب بريئة من المبالغات المفرطة المفوتة لمحسن الكلام ، مفرغة في هذه الألوان الزاهية من الصراحة والصدق ، تكتسب من هذه السداجة الظاهرة في ترتيبها وقلة الاكتراث لتحقيق التناسب الظاهر بينها لونا آخر من جمال الفطرة المحبوبة .

(١) أنواع من الرياحين .

الأوزان والقوافي

والحق أن العرب نظموا الشعر على تلك الأوزان الغنائية ، أو التي كان استحداثها في الأصل لإيجاد مادة غزيرة من المقاطع ، يعتمد عليها الساجع في تطريبه وما كان امرؤ القيس حين قال « قفا نبك » يعلم أن الخليل بن أحمد الفراهيدي سيقطعها على قوله « فعولن مفاعيلن » وإنما وقعوا على هذه الأبحر الشعرية من طريق الفطرة وطول المعاناة ، ونظموا في بعضها أكثر من بعض وأكثروا في قوافيهم من بعض حروف الهجاء دون بعض ، كما يتبين ذلك من النظر في أشعارهم وقوافيهم .



النقد

يكاد النقد يكون عملاً من أعمال الفطرة ، تأثرت به قديماً مبادئ الحياة نشاته وأثره البشرية ، تتمثله في ذلك التعليل الواضح لاهتداء الإنسان إلى كثير من علومه الأولى ، بمقتضى ما في تركيبه الخلقى من القدرة على تعرف مواطن الكمال والنقص ، وإدراك الفرق بين النفع والضرر ، والشعور بمعنى اللذة والألم عند امتحانه المتكرر لطبائع الأشياء المختلفة ، كما يشاهد من عمل الأطفال في ابتداء تيقظ التمييز في أنفسهم ، من اختيارهم لأكبر الأشياء ، واستحسانهم لأزهى الألوان ، ومن حركاتهم القلقة المنبعثة عن عدم الاكتفاء بمجرد اللمس والنظر لما يقع في أيديهم ، حتى لتراهم يكسرون دُمائم ويفككون لُعبهم ، خضوعاً لحب الاستطلاع وإشباعاً لشهوة هذه الغريزة ، من الحرص على استظهار بواطن الأمور ، والاستكثار من العلم بمجئيات الأشياء ، للتمكن من تقرير الأحكام المناسبة لمدى مداركهم الصغيرة ، إلى أن تعرفهم التجربة في مؤتلف الحياة بما في أحكامهم من الصحة والفساد عند اكتمال الخبرة واستحكام العقل . وذلك بالضرورة هو منشأ الترجيح والتخير أو التمييز والحكم المؤلفين في الجملة لمعنى النقد ، الذي أصبح - حين فطنت لآثاره العقول - أداة دائمة في تدرّيج الانسان بين مراتب الترقى ، والسير به رويداً إلى مناهج المدنية ، حتى أوشك أن يبلغ به حسن انتخابه للأكل من مظاهر الحياة العامة من العلم والفن والصناعة والنظام ، إلى ما ينبغي له من الكمال . وكان الأدب - وهو في أوسع معانيه - ذلك المجهود النفسى البارز في الصورة اللغوية ، طبيعة من الطبائع وفناً من الفنون ، تعقب النقد خطاه ومضى في الحياة معه ، حتى تبوأ مكانه بين سائر الكلمات المعنوية ، وصار وسيلة جديدة من وسائل تهذيب الاجتماع ، لاسبيل إلى إنكار ثمراتها الغزيرة ، في تصيير النفوس البشرية إلى ظلال وارفة من جمال الوجود وسعادة الحياة .

وحيث نحاول أن نضع لهذا النقد الأدبي قاعدة جامعة ، أو نعرفه بقياس صحيح ، ينبغي لنا أن نبين ما يصح أن يتوقف عليه من الأمور ، ليكون محققا لرغبة المتعقبين من أهل العلم فيما يسنح لهم من إصلاح حال أو استكمال منفعة . ومن أهم هذه الشروط الاقتدار على حسن الفهم للكلام ، والأصابة لدقائق أسرار البلاغة ، والتجرد من استبداد الهوى الخاص ، والإستناد بالضرورة إلى طبيعة صالحة من الأدب ، مع الاستعانة بالدراسة الواسعة للأطوار الأدبية المختلفة في جملة لغات أو في لغة واحدة منها على الأقل .

وعلى هذا الاعتبار يمكننا تعريف النقد الأدبي بأنه : بيان مافى الكلام من جمال أو عيب ، وإنما يكون ذلك بصحة تصوّر المعاني المفردة للألفاظ ، وإدراك الأغراض الأصلية للعبارات ، وتعيين مقدار الصواب والخطأ ، أو الجمال والعيب من جهة أوضاع اللغة ومن قبل الاستعمال الأدبي . ويكون الحكم المتأثر بالذوق اللغوي ، المتعارف لأوساط البلغاء من أهل اللغة ، وهو المسمى في اصطلاحهم بالذوق السليم تيمّنة مقررّة لحظ القائلين من جمال الأدب وبلاغة الكلام ، يزداد بها المحسن ويقطع السوء ، ويتسامى الأدب إلى منزلة من الرفعة ، تعين على اجتلاء محاسن الأشياء وتخفيف مافى الحياة من أعباء .

وبذلك يتضح معنى حرص العلماء على تحرير أحكام النقد من الخضوع للأذواق الخاصة ، لاحتمال تخلفها ، أو فساد قياسها ، أو مجانبتها جملة لهذه الطبيعة الفنية من الأدب ، كأذواق أهل الصناعات العلمية المختلفة من الطب والمنطق والهندسة ومن الفقه والنحو ، وأكثر أجناس العلوم التي يكسب مراسها مزاجا علميا قد لا يتصل بفهم جمال الكلام والشعور بمواطن البلاغات ، على أن من المحتمل أن يسلم بعض هذه الأذواق من عيب العصبية للصناعة أو العلم الخاص ، فلا مانع حينئذ أن يكون طريقا للحكم المسلم والرأى المقبول .

النقد الأدبي عند العرب

لا ريب أن تنقل اللسان العربي في المراحل اللغوية المسماة في تاريخ الأدب تاريخه وآثاره «بأطوار تهذيب اللغة» بعد عملا من أعمال النقد ونتيجة ظاهرة من نتائجه ، وإن كنا لا نجد لهذا التنقل دليلاً أكثر من الاستنتاج المعقول ، لبقاء الأصول التاريخية للغة العربية غامضة كما كانت ، لم يكشفها إلى الآن تنقير الباحثين ولا تناولها أحد من العلماء برأى قاطع ، ومهما يكن من شيء فقد ظهر النقد - على الأقل - مع الشعر الجاهلي في تاريخه المعروف منذ الطبقة الأولى إلى غيرها من الشعراء الجاهليين وخاصة عند ما فشا التكسب بالشعر ، ونشأت طبقة الصناع المتقنين المعروفين « بمبيد الشعر » أمثال الأعشى وزهير والنابعة ، وكانت الأسواق العربية محكا لتراجم الأدباء من العرب ، تناول فيها النقد أطراف الكلام من الخطب والأشعار والمحاورات ، ونهضت اللغة من وراء ذلك نهضتها القوية قبل ظهور الإسلام .

تقد طرفه
وهو صبي

ونورد هنا بعض ما فصلناه فيما سيأتي من تراجم الشعراء من الأمثلة ، إيفاء للبحث وتمة للفائدة . فقد روى أن طرفه بن العبد سمع وهو صبي منشداً من قومه في بعض مجالسهم يقول :

وقد أتناسى الهم عند احتضاره
بناج عليه الصيغرية مكدّم

فجابه بقوله « استنوق الجمل » لأنه وصف الفحل بالصيغرية وهي عندهم من سمات أنث الإبل . وكذلك حكومة أم جندب الطائية بين امرئ القيس وعلقمة الفحل ، فيما تناوله شعرهما في البائيتين من وصف الفرس ، حين قال امرؤ القيس :

فلسوط ألحوب والساق درة
وللزجر منه وقع أفرج منعب

وقال علقمة :

فأدرك لم يجهد ولم يثن شأوه
يمر كمرّ الراح المتحلب

حكومة
الطائية بين
امرئ القيس
وعلقمة

وإن كان صاحب اللسان لا يذكر هذا التحكيم ، ويحمل القصة على مجرد المعارضة من علقمة لامرئ القيس ، وظاهر على الاعتبارين أن الأمر لم يخرج عن معنى النقد ، لما تضمنه المعارضة من معنى تعقب المتأخر ومحاولته الغلبة للمتقدم بالتجويد والزيادة . وكان النابغة كغيره من شعراء الجاهلية يقوى في شعره فدخل المدينة وأهل الحجاز يُعجَبُونَ به ويقدمونه فدسوا له قينةً تغنيه بشعره في المتجرّدة وفيه الإقواء ، وهو اختلاف حركة الروى فلما بلغت قوله :
 زعمَ البوارحُ أن رحلتنا غداً وبذاك خبرنا الغرابُ الأسودُ
 أطالت ضمة الدال ، والقافية كلها بالكسر ، ففطن لهذا العيب وأصلحه بما يأتي « وبذاك تنعابُ الغرابِ الأسودِ » ثم قال « دخلت يثرب وفي شعري عاهة وخرجت وأنا أشعر الناس »

الفينة المغنية
 وشعر النابغة

وكان من الوافدين عليه ، وهو يقضى بين الشعراء في عكاظ ، حسان بن ثابت والخنساء ، أوها والأعشى ، فأنشده حسان قصيدته :
 لنا حاضرٌ فَعَمَّ وبادٍ كأنه شمرايحُ رَضوى عِزَّةٍ وتكرُّماً
 وقيل أنشده غيرها ، وأنشدته الخنساء :

الأعشى
 وحسان
 والخنساء
 في عكاظ

قَدَى بَعِينِكَ أُمُّ بِالْعَيْنِ عَوَارُ أُمُّ ذَرَفَتْ مُذْخَلَتْ مِنْ أَهْلِهَا الدَّارُ
 وهى من جيد رثائها لأخيها صخر ، وأنشده الأعشى « ما بُكَّاءَ الكبير بالأطلال ؟ » وهى من مدائح الأعشى وطواله وستأتى فى ترجمته . فيروى أنه قال للخنساء لولا أن أبا بصير « يعنى الأعشى » سبقك لقلت إنك أشعر من بالسوق ، وقال لحسان إنك لشاعر ! فأغضبه ويروى أنه قال له فى بيتيه من القصيدة :

لنا الجفَنَاتُ العُرُ يُلمَعْنَ بالضحى وأسيافنا يقطُرُن من نَجْدَةٍ دَمًا
 ولدنا بنى العنقاء وابنى مُحَرَّقٍ فأكرم بنا خالاً وأكرم بنا ابناً

أضعفت فحرك وأقلت جفانك وفخرت بمن ولدت ولم تفخر بمن ولدك !!
 وفى الأمالى لأبى على القالى أنه قال له وللخنساء : إنك لشاعر وإنها لبكاءة !!
 وهو الأقرب إلى الصواب .

حكم
 النابغة على
 شعر حسان

وذكر المرزباني في الموشح أن الأعشى أنشد قيس بن معديكرب أحد
أشراف الين ، مديحاً له أتى فيه على قوله :

وَنُبِّئْتُ قَيْسًا وَلَمْ أَبْلُهُ وَقَدْ زَعَمُوا سَادَ أَهْلَ الْيَنِّ

الأعشى مع
قيس بن
معديكرب

وزعموا - كما يقولون - مطية الكذب ، فعابه قيس ، ولم ينفعه أصلحه
البيت بقوله :

وَنُبِّئْتُ قَيْسًا وَلَمْ آتِهِ عَلَى نَأْيِهِ سَادَ أَهْلَ الْيَنِّ

وأكثر ما يذكره الرواة من أسباب تسمية السبع الطوال بالمعلقات ، ظاهرة
قوية من ظواهر النقد ، فهم يقولون إن العرب عمدت إلى قصائد تخيرتها من
الشعر القديم ، ويقولون كان الملك إذا استجيدت قصيدة يقول : علقوا لنا هذه
وأثبتوها في خزاتي ! يعنون النعمان بن المنذر .

ذلك وجاء الإسلام وأقبل المشركون من العرب يحادون الله ورسوله ،
ويقارعون المسلمين في المجالس ، ويتهاجون ويتناظرون بالأشعار والخطب ، ومن
ذلك ما روى أبو الفرج في الأغاني عن وفد تميم من أهم قدموا على رسول الله
بخطيبهم وشاعرهم وفيهم يومئذ سادتهم قيس بن عاصم والأقرع بن حابس
والزبير قان بن بدر وعمرو بن الأهمم وعطارد بن حاجب فخطب خطيبهم وأنشد
شاعرهم ، ثم دعا رسول الله قيس بن شماس فرد عليهم بخطبة طويلة وأنشد
حسان قصيدته :

وفد تميم عند
رسول الله
صلى الله
عليه وسلم

أَنَّ الذَّوَابَّ مِنْ فِئْرِ وَإِخْوَتِهِمْ قَدْ بَيَّنُّوا سُـنَنَنَا لِلنَّاسِ تَتَّبِعُ

يَرْضَى بِهَا كُلُّ مَنْ كَانَتْ سَرِيرَتُهُ تَقْوَى الْإِلَهِ وَبِالْأَمْرِ الَّذِي شَرَعُوا

فقال قائلهم - يريد النبي - والله إن هذا الرجل لمؤثر له ، والله لخطيبهم أبلغ
من خطيبنا ، ولشاعرهم أجود من شاعرنا . وهم الذين نزل فيهم (إن الذين
ينادونك من وراء الحجرات أكثرهم لا يعقلون)

ثم مست الحاجة لأجل تصحيح التأويل وفهم السنة ، إلى تتبع الشعر

القديم وروايته وترتيب أبوابه وطبقات شعرائه ، وحفلت مجالس المسلمين بالأدب والنظر والمحاورات ، وكان عمر بن الخطاب وابن عباس من خير الناظرين في الشعر وترتيب الشعراء ، ولهما في فحولهم وأجود أشعارهم أقوال أتينا على أكثرها في تضاعيف هذا الكتاب . وظهرت الطبقة الأولى من رواة المسلمين بأبي الأسود وتلاميذه ، وأمره علي بن أبي طالب أوزياد بوضع النحو ، أو وضعه نصر بن عاصم الليثي ، أو وضعه غيرها على ما هو مروى . فكان ذلك ولا ريب تطوراً جديداً في النقد الأدبي ، عاجله السلف حين أحسوا الخطر على الكتاب والسنة واللغة من طروء اللحن ، ومن تلاميذ هذه الطبقة أبو عمرو بن العلاء ومعاصروه والآخذون عنه ، كالخليل وأبي عبيدة والأصمعي ويونس وأضرابهم ، ولا تكاد الرواية في الأدب تتجاوز هؤلاء إلى أشياخهم من الطبقة الأولى ، واستبحرت حينئذ رواية الأشعار وأخبار العرب وأيامهم ، ورحل الرواة إلى بوادي الأعراب للسمع والأخذ . واضطرب الناس في الموازنة بين ثلاثة الفحول الإسلاميين جرير والفرزدق والأخطل ، وكانت مجالس عبد الملك بن مروان أبدا زاخرة بأدباء العرب ، فلما خلا مقام منها من المفاوضة في الحديث والشعر ، وذكروا أنه صنع ذات يوم طعاماً فأكثر وأطيب ، ودعا إليه الناس فلما فرغوا قال بعض القوم : ما رأيت كاليوم طعاماً أكثر ولا أطيب ، فقال أعرابي من ناحية السماط : أما أكثر فنعم ! وأما أطيب فقد والله أكلت أطيب منه ! وبعد أن ذكر حالاً وقعت له في البادية ، أدناه الخليفة وكلمه فوجده لبيباً عارفاً فقال ألك علم بالشعر؟ فقال سألني عما بدا لك يا أمير المؤمنين ! فقال أي بيت تقول العرب أمدح؟ قال قول جرير (وجرير في المجلس) :

ألستم خير من ركب المطايا وأندى العالمين بطون راح

فاستشرف لها جرير وحرك رأسه ، قال عبد الملك فأى بيت تقوله أغزل؟

قال قول جرير :

إن العيون التي في طرفها حوز قتلنا ثم لم يحين قتلانا

أبو الأسود
الدؤلي زعيم
الطبقة الأولى
من الرواة
وضع النحو

الموازنة بين
ثلاثة الفحول
الإسلاميين

أعرابي
على سماط
عبد الملك

قال فأي بيت أفخر؟ قال قوله أيضاً :

إذا غضبت عليك بنو تميم حسبت الناس كلهم غضابا
قال فأيهما أهجى؟ قال قوله :

ففض الطرف إنك من نمير فلا كعباً بلغت ولا كلابا

قالوا فهم جرير بأعطائه جائزته ، فأرضاه عنه عبد الملك .

سؤال هشام
وهو أمير
لخالد بن
صفوان عن
الشعراء
الثلاثة

وذكر أبو الفرج الأصبهاني أن هشام بن عبد الملك - وهو أمير - سأل خالد بن صفوان ، وهو من بلغاء الناس ، أن يصف له أولئك الثلاثة فقال (وكلامه يشبه في كثير من الوجوه ما يسميه المعاصرون بالنقد التحليلي) أما أعظمهم فخراً ، وأبعدهم ذكراً ، وأحسنهم عذراً ، وأشدهم ميلاً ، وأقلهم غزلاً ، وأحلامهم عللاً ، الطامى إذا زخر ، الحامى إذا زار ، والسامى إذا خطر ، الذي إن هدر قال ، وإن خطر صال ، الفصيح اللسان ، الطويل العنان ، فالفرزدق ؛ وأما أحسنهم نعتاً ، وأمدحهم بيتاً ، وأقلهم فوتاً ، الذي إن هجا وضع ، وإن مدح رفع ، فالأخطل ؛ وأما أغزرهم بحراً ، وأرقهم شعراً ، وأهتكمهم لعدوه ستراً ، الأغر الأبلق ، الذي إن طلب لم يسبق ، وإن طلب لم يلحق فجرير ؛ وكلهم ذكي الفؤاد ، رفيع العماد ، وارى الزناد . فقال له هشام : ما سمعنا بمثلك يا خالد في الأولين ، ولا رأينا في الآخرين ، وأشهد أنك أحسنهم وصفاً ، وألينهم عطفاً ، وأعفهم مقالا ، وأكرمهم فعلا . فقال خالد : أتم الله عليكم نعمه ، وأجزل لديكم قسمه ، وآنس بكم الغربة ، وفرج بكم الكربة ، وأنت والله - ما علمت - أيها الأمير كريم الغراس ، عالم بالناس جواد في الحل ، بسام عند البذل ، حلیم عند الطيش ، في ذروة قریش ، ولباب عبد شمس ، ويومك خير من أمس ، فضحك هشام وقال : ما رأيت كتخلصك يا بن صفوان في مدح هؤلاء ، ووصفهم حتى أرضيتهم جميعاً ، وسلمت عليهم .

قالوا وإن الفرزدق قدم الكوفة فأتاه الكيميت بن زيد الأسدي ، وهو
شاعر عَصَبِيٌّ لبني هاشم ، وأجود شعره في مدحهم ، فقال يا عم أنت شيخ مضر
وشاعرها ، وقد قلت شعراً أحببت أن أعرضه عليك ، فإن كان حسناً أمرتني
بإذاعته ، وإن كان قبيحاً سترته عليّ ، فقال له الفرزدق : أما عقلك فحسن ،
وأرجو أن يكون شعرك على قدر عقلك ، فهات ما قلت ! فأنشده (وهي إحدى
قصائده المعروفة بالهاشميات) :

طَرِبْتُ وما شوقاً إلى البيضِ أطربُ . فقال له : فإلى من تطرب ؟
فقال :

ولا لعباً مني وذو الشوقِ يلعبُ . قال : بلى فالعب فإنك في أوان اللعب !
قال :

ولم يُلِهني دارٌ ولا رسمُ منزلٍ ولم يتطرَّ بنِي بنانٌ مُخَضَّبُ
قال : فإلى من تطرب ويحك ؟
فقال :

ولا السانِحَاتُ البارِحَاتُ عَشِيَّةً
أمرَّ سليمُ القرنِ أم مرَّ أعضبُ
فقال : نعم لا تنطير !!
فقال :

ولكن إلى أهلِ الفضائلِ والثَّقَى وخيرِ بني حَوَاءٍ والخيرِ يُطَلَّبُ
فقال : من هؤلاء يا بني ؟
فقال :

إلى النفرِ الغرِّ الذين بحُبِّهم إلى اللهِ فيما نابى أتقربُ
فقال : من هؤلاء ويحك أرحنى ؟
فقال :

بني هاشمٍ رهطِ النبيِّ وأهلِهِ بهم ولهم أرضى مراراً وأغضبُ

فقال له الفرزدق - وكان شيعياً أيضاً - يا بُنى! أذِ ع ثم أذِ ع ، فأنت أشعر
من مضى ومن بقى !!

وكانت سُكَيْنَةُ بنتُ الحسينِ أديبةً ظريفةً ، تقعدُ للرجال ، ويغشى ناديتها
الشعراء ، فقالت يوماً لكثيرٍ عَزَّةَ أنتِ القائل :

فما رَوْضَةٌ بِالْحَزْنِ طَيِّبَةٌ الثَّرَى يَمْجُجُ النَّدى جَثْبَانُهَا وَعَرَارُهَا
بِأَطْيَبِ مَنْ أُرْدَانَ عَزَّةَ مَوْهِنًا وَقَدْ أُوقِدَتْ بِالْمَنْدَلِ الرِّطْبِ نَارُهَا
أى زنجية منتنة تتبخر بالمندل الرطب ، إلا طاب ريحها !! ألا قلت كما قال
سيدك امرؤ القيس :

ألم ترَ باني كلِّما جِئتُ طارقًا وَجَدْتُ بِهَا طيبًا وإن لم تَطَّيبْ

وهو كما يرى فقد في موضعه . ولقد بلغ الحال بجهاذة البلغاء وحناقهم في
هذا الصدد أن يلحقوا الكلام بقائله ، وقد أتى الحجاج بكتاب من يزيد بن
المهلب عامله على خراسان وفيه (انا لقينا العدو ففعلنا وفعلنا واضطررناهم إلى
عُرْعُرَةِ الجبل) فقال ما لابن المهلب ولهذا الكلام ؟ فقيل له ان يحيى بن يعمر
عنده قال فذاك إذن ، وكان الحجاج سأله يوما أتجدنى ألحن ؟ قال نعم وفي
كتاب الله !! قال ذاك أشنع ! ففي أى كتاب الله ؟ قال قرأت (قل إن كان
آبائكم وأبناؤكم وإخوانكم وأزواجكم وعشيرتكم وأموالٌ اقترفتموها وتجارةٌ
تخشون كسادها ومساكنٌ ترضونها أحب إليكم من الله ورسوله) فقلت أحبُّ
بالرفع وهو منصوب ، فقال لا تسابكنى ببلد أنا فيه ! ونفاه إلى خراسان ، وهو
من تلاميذ أبي الأسود وكان مشهورا بالغريب .

كتاب
ابن المهلب
والحجاج

ويطول بنا الكلام ان حاولنا استيعاب جميع الأمثلة الدالة على شيوع النقد
بين طبقات المتأدين في ذلك العصر ، وما خلا القرن الثانى من الهجرة حتى
نهض الرواة والعلماء إلى وضع الكتب في معانى الشعر وطبقات الشعراء والتعريف
بمذاهبهم وجملة أوصافهم ، ولم يكتفوا بما كان متبعاً من قبل من الاتصاف على

النقد للبيت وللابيات من كلام الشاعر ، بل عرضوا لتاريخ الشاعر نفسه ،
وشرح بعض خصائصه البارزة في شعره ، وألما في الجملة بما أخذه وعبوب كلامه
ومقدار اختراعه وصدقه وكذبه في معانيه ، ونظروا في أسباب الانتحال ،
وما اتصل بالشعر والأدب من عبث المتزידين وأهل السمر من الرواة ، وتمائل
البحث إلى درجة بلغ فيها النقد حالة من النضج .

وكان من خير ما وضع في ذلك الوقت كتاب «طبقات الشعراء» لابن سلام
الجمحي ، وقد أتى في صدوره على أهم النظريات الأدبية التي اتخذها المتأخرون
حتى المعاصرون أمامهم في البحث ، يفصلون إجمالها ويطولون فيها ، وهم يظلمون
الناس حين يزعمون أنهم يأتون بشيء أو يجددون في الأدب ، وجاء بعده كتاب

ظهور كتاب
الطبقات
للجمحي

«الشعر والشعراء» لابن قتيبة ، على مثل هذا النمط من النظر والتعقب . ووضع
الجاحظ كتاب «البيان والتبيين» فأذهب في مفاتيحه في وصف البلاغة وقيمة تأليف
الألفاظ ، ونبه إلى مخارجها الكريمة وصنيعها بالعقول ، وتناول أقسام الكلام كلها

الشعر
والشعراء .
لابن قتيبة
والبيان
والتبيين
للجاحظ

بالتحصيل والنقد . ووضع أبو الفرج كتابه «الأغاني» أحاط فيه بتراجم أكثر
الشعراء وأشهر الكتاب والمغنين ، في أسلوب عذب فصيح ونقد حسن . وظهرت

الأغاني
لأبي الفرج

الكتب المختارات الخاصة بالشعر ، من المفضليات إلى حماسة أبي تمام ، والجامعة
بين الأدب والتاريخ وبعض المباحث اللغوية واللسانية الأخرى ، ككامل المبرد
وأمالى القالى وغيرها ، وكان طول تأمل الأدباء وأهل العلم في كلام العرب ،

المفضليات
والحماسة
والكامل

مترقيا بالنقد إلى مرحلة أخرى ، ترتب عليها وضع قواعد البلاغة التي لا يزال
أفضل مؤلفاتها إلى الآن كتب الإمام عبد القاهر الجرجاني «دلائل الإعجاز»

عبد القاهر
وأبو هلال

و«أسرار البلاغة» ومثلهما كتاب «الصناعتين» لأبي هلال العسكري ،
ويصح أن يلحق بها كتاب «نقد الشعر» لقدامة بن جعفر ، فإنه - مع صغر

حجمه - متعلق في الجملة بمباحث البلاغة ، ولو توفيق المتأخرون من العلماء إلى

المضى في مناهج هذه الكتب ، لأمكن أن تؤتى هذه العلوم ثمرات أكرم مما يجنيه المتعلمون من دراستها الآن .

وفي أواخر القرن الرابع الهجري تقدم اهتمام العلماء بوضع الموازنات بين الشعراء والكتاب ، ونشأت المناظرات الأدبية ، ومال في ذلك الوقت اتجاه النقد الأدبي إلى صورة من التعمق يراد بها تناول الشخصيات الأدبية بالتكشيف والشرح ، وعقد الصلات بين الشاعر وشعره ، وبينها وبين البيئة المنشئة لهما ، وهو النوع الذي يلهج المعاصرون من رواة الأدب الأجنبي بتسميته « النقد

الموازنة بين
الطائيف
والوساطة
بين المتنبي
وخصومه

التحليلي » وأهم مظهر لهذه الحالة الجديدة كتاب الأمدى في « الموازنة بين أبي تمام والبحرئى » وكتاب الإمام الناقد على بن عبد العزيز الجرجاني « الوساطة بين المتنبي وخصومه » ثم ظهر كتاب « العمدة » لابن رشيقي في نقد الشعر ، والإمام ابن خلدون يقرظه ويعتد به أنه أوعى كتاب في النقد ، وقد تناول فيه أكثر ما قيل إلى عهده في الشعر والشعراء من عيوبه ومحاسنه ، وقوافيه وأوزانه وطبقات شعرائه ، ولم تتغير طريقتة في البحث الأدبي حتى في هذا العصر ، إلا من حيث ما يظهر من بعض المحاولات الكلامية في تزيين الألفاظ ، والمخالفة للأوضاع الأدبية المتعارفة ، المسماة في عرف كثير من المعاصرين « بالتجديد » ولا يزال البحث في صميمه وجوهره كما أداه إلينا القدماء ، لم نزد عليه ولم تنقص منه ، مع انقطاع العذر وكثرة المشتغلين وسهولة التحصيل ، ومع توافر أسباب البحث واتصال أطراف العالم ، وكثرة العارفين باللغات الأجنبية ، ذلك كله ولا نجد لدينا كتاباً واحداً ، يصح أن يزاحم أسفار القدماء ، لا في الأدب ولا في غيره ، إلا شيئاً قليلاً يرجع في جملته إلى الاقتباس من كلام القدماء ، مع بعض تصرف في العبارة أو تغيير في التبويب ، من غير اختلاف في الجوهر أو الموضوع .

ما يتوخاه
الناقد

أما ما يصح أن يتوخاه الناقد ، فقد أشرنا في الكلام على أوصاف النثر إلى شيء منه ، ونزيد هنا أنه يجب أن يحرص الناقد على الغاية النافعة من النقد ،

وهي إبلاغ ما يتناوله من الأدب ومنشئه إلى المرتبة اللائقة بهما ، توصلنا لجعله
- كما قدمنا في صدر هذه الكلمة - وسيلة إصلاح للاجتماع ، والطريقة المثلى في
ذلك ألا يكون النقد ذريعة إلى شفاء حزازة الصدر ، ومظهراً للنيل من أعراض
الناس ، والتدنى إلى المهاترة بالتعرض لما قد لا يكون له علاقة بأدب الكاتب
أو الشاعر ، من بعض صفاته الشخصية ، فإن ذلك في الغالب داع إلى نبوة
النفوس وإعراض الأدباء عن الانتصاح ، ولكن ينبغي أن يلين مس الناقد
وتلطف مداخلة ويعتدل ميزانه ، فيذكر الحسنة والسيئة ، ويشير في رفق وأدب
لسان إلى الأخذ بما يراه ، ولا ينبغي له أن يغض من الأدب لقلته إمعانه في المعاني
الفلسفية أو نخلوه من الأفكار المحترعة ، أو لأنه غير مجاز لآداب لغات أخرى ،
كأولئك الذي يعيبون الشعر العربي نخلوه من التمثيل والقصص لمجرد أنهما
يوجدان في الأدب الأجنبي ، وإذ كنا بيننا كيف يكون أخذ اللفظ والمعنى
والأسلوب وشخص الكاتب والشاعر والوطن الأدبي بالنقد فيما أسلفنا في أبواب
النثر الجاهلي ، فلا نطيل بذكرها هنا ، وسنعاود البحث في هذا الموضوع مرة
أخرى ، ونرجو أن نستدرك ما فاتنا منه إن شاء الله .



تراجم الشعراء

١ - امرؤ القيس

نشأته في بلاد نجد ، وبين رباها المعشبة وأوديتها الغريضة ، كان ذلك الشاعر صبياعربيا يلهو مع لداته ، ويمرح في أعطاف الصبا بين رعية أبيه ، وما كان يدرى أنه بعد قليل سيفضى إلى الدنيا بسر من أسرار العظمة ، ولا أنه سينزع على جبين الزمن ذلك الإكليل الفاخر من الخلود والشهرة ، فبين تلك الأدواح الظليلة وفي خلال رَيَا العرَّار الشَّيْذِيّ ، رسمَ شاعرُ التاريخ مدارجَ طفولته وملاعبَ صباه ، في تلك الأرض التي كانت الطبيعة المتجهمة في سائر بقاع الجزيرة العربية تقترّ فيها اقترارا عن بعض محاسنها ، التي أكثر الشعراء من تواصف طيها ، وجمال مُصطافها ومُترَبِّعها .

وما بلغ مبلغ الفتيان ، حتى مدَّ عينيه إلى تلك العزة الشاملة ، تحيط به من طرفيه ، وذلك المجد العربي يتلقاه من قبل أبويه ، فمضى على غلوائه مُسْتَقْنَا في مَيْعة الشباب كأمثاله من أبناء الملوك ، محبا للتَّبَطُّل ، مُؤَثِّرًا للذات الفراغ ، لا تشغله تكاليفُ العيش عن الإمعان في هذه الفتوة ، فجرَّر مآزر اللهو وترنَّح في مسكرة الحدائث ، وألِفَ الفتيان يغشى بهم مناقع الماء ، ويرتاد أكنان الخلاعة والقَصْف ، وهو في خلال ذلك يسمعُ الشعر ويرويهِ لشعراء عاصروه ، ومنهم من كان في حاشية أبيه .

وكان منهوما بالشراب والصيد ، مفتونا بصهوات الخيل ، فما لبث أن تفتحت في نفسه عيون هذه الغريزة الشاعرة بألوان من الكلام ، تجرى مع هذا المسلك الخليع ، من وصف النساء وركوب الخيل ومجالس الشراب وحكاية

الديب واختداع الأحراس . وشهر بذلك في الشعر ، حتى أنف له أبوه من هذه الحياة الخليعة التي ارتقى في حَمَاتِهَا ، ولم يعد في رأيه صالحاً لما كان يرشحه له من الملك بعده ، فنفاه وطرده ، فزاده ذلك استمراء لمذاق هذا العبت ، ومضيا في أسباب المجانة ، وتناوحت بركابه حينئذ أحياء العرب ، ينزل مياهها وينقل بين مراتبها ، فتضرب له القباب ، وتنحرج الجزر ، وتغنيه القيان .

وكان أبوه - وهو حُجْر بن عمرو أحد ملوك كِنْدَةَ - قد عتا في بني أسد وأحلافها من رعيته ، وبغى عليهم وسامهم صنوفاً من العنف ، أو شكوا معها أن يطيروا به طَيْرَةً بطيئاً سقوطها ، وقعدوا يتناذرون به ، ويَبغون له غائلة الدهر ، حتى دشوا إليه غلاماً منهم كان حجر قد قتل أباه ، فاغتاله على غِرَّة من جنده وحاشيته . وفي بعض الكتب أن كاهنة لهم تنبأت بقرب مصرعه ، ودلتهم على مكانه فاغتالوه ، وانتهى نَعْيُهُ إلى امرئ القيس بدَثْمُون - إحدى قرى حَضْرَمَوْت من بلاد اليمن - وهو على شراب مع نديم له يلاعبه الزد ، فقال كلماته المأثورة : ضَيْعِي صَغِيرًا ، وَحَمَلْنِي عِيبٌ الثَّارَ كَبِيرًا ، لَا تَحْوِ الْيَوْمَ ، وَلَا سُكْرَ غَدًا ، الْيَوْمَ خَمْرٌ وَغَدًا أَمْرٌ . ثم تجهز للأخذ بثار أبيه واسترداد ملكه ، فجمع جموعاً من بكر وتغلب وغزا بهم أسداً ، وكانوا قد نذروا به فارتحلوا عن ديارهم ، وأصابت جموعه بني كنانة ولم يكونوا له موضع ثأر ، فتشام به جنده وخذلوه وتفرقوا عنه ، وفي ذلك الوقت أَلَحَّ المنذرُ الالخي أحد ملوك الحيرة ، في طلبه لموجدة كانت لآل المنذر على ملوك كِنْدَةَ ، وأعانه على ذلك كسرى قباد أحد ملوك الفرس ، فلم يكن له بهما طاقة ، فأقبل يطوف بقبائل العرب ويستنجد بأشرافهم ، حتى دُفِعَ إلى السموع بن عاديا أحد أشرف اليهود في حصنه الأَبْلَقَ بَدِيَاءَ بالقرب من المدينة ، فاستودعه سلاحه وأمواله وابنته ، ثم ارتحل إلى بلاد الشام متوجهاً إلى قيصر الروم « جوستينيان ^(١) » بالقسطنطينية

سيرة
أبيه حجر
في قومه
ومثله

تشر
امرئ القيس
للأخذ بثار
أبيه

رحلته إلى
قيصر الروم

(١) وكانت إمارة كِنْدَةَ في الجزيرة موالية للملوك الروم ، وكانوا هم والفسانيين معهم في خروبهم على ملوك العراق والفرس .

نونوز المؤرخ
الرومانى
وامرو القيس

يستعين به على أعدائه ، فأمدّه ذلك القيصر بجيش ثم بدا له فاسترد الجيش .
وقد ذكر صاحب شعراء النصرانية ما يأتى : وقد جاء ذكر امرئ القيس
فى تواريخ الروم ، مثل نونوز وبركوب وغيرها ، وهم يسمونه قيساً ، وقد أخبر
هذا المؤرخ الرومانى نونوز أن جوستيان قلده إمرة فلسطين ، إلا أنه لم يسع فى
إصلاح أمره وإعادة ملكه ، فضجر امرؤ القيس وعاد إلى بلاده . وأصيب وهو
عائد من بلاد الروم بعلّة قروح كالجدري مات منها بأقره . وذكر صاحب شعراء
النصرانية ، أن قيصر لما بلغه موته أمر بأن ينحت له تمثال وينصب على قبره ،
وقد بقى هذا التمثال إلى أيام المأمون العباسى ، ورآه هذا الخليفة فى أيام غزو
الصائفة ببلاد الروم .

وما كان امرؤ القيس بدعاً فى ذلك ، فمن قبله سيف بن ذى يزن استعان
بأكاسرة الفرس على استرداد ملكه وطرد الأحباش من بلاده ،
وكانت ملوك أوربة تستعين فى مثل هذه الأحوال بعينها ببعض ملوك القسطنطينية
من الأتراك ، وما زال التاريخ يكرّر الأمثال لهذه الحوادث ، وهذه ملوك الشرق
وأمرء العرب لا يزالون يجتازون إلى أمم أوربة ، يستعينون بملوكها وليس فى ذلك
كبير غرابة ولا عجب .

ويرجح أنه نظم معلقته ولاميته الأخرى ، التى مطلعها « الأعم صباحاً أيها
الطلل البالى » فى الشطر الأول من حياته ، أما حياته بعد مقتل أبيه فكانت
شاغلة لمثله عن اللهو ، صارفة له عما كان فيه من الاستهتار وقلة المبالاة ، وكان
طول قلبه فى الأحياء وكثرة ما لاقاه من المحن ، زائداً فى تجربته ، ناهضاً به
إلى تعرف ما فى طبائع الناس من الوفاء والقدر ، فلانت شكيمته ، وتظامنت
نفسه ، وشكا الزمان وتنكر الإخوان ، وتعرض على غير عادته لشيء من
المدح والهجاء لمن كانوا يكرمون جواره أو يقعدون عن نصرته ، وتلك كانت
حياة هذا الشاعر العظيم حافلة فى شطرها الأول بأنواع اللذة والقصف ، وفى

شطرها الثاني بضروب من البلاء والفتن ، فلم يكن غريباً أن تفيض نفسه بهذا العجب من الشعر ، الذي عد به رأس الفحول من الطبقة الأولى في الجاهلية .

يعتبر امرؤ القيس من شعراء العالم الذين طبقت شهرتهم الآفاق ، ولئن جاز في عقل امرئ أن يشك في حياة أحد من أولئك الجاهليين ، ليكون امرؤ القيس آخر من يتطرق إليهم الشك أو تتصل التهمة بحياتهم ، ولقد روى شعره ثمانية من ثقات الرواة ، ودونوه وتناولوه بالانتقاد والشرح ، ونهبوا على المنحول منه ، حتى قال بعضهم : إن كثيراً من الشعر المنسوب إليه ليس له ومن ذلك يعلم مبلغ عناية العلماء بأثر هذا الشاعر في اللغة والأدب ، ومن هؤلاء الرواة أبو عمرو بن العلاء أحد القراء السبعة ، وأبو سعيد عبد الملك بن قُريب الأَصمعي ، والإمام ابن السكيت ، والوزير أبو بكر عاصم بن أيوب وغيرهم ، وليس في شعراء الجاهلية من تشعر بقوة شخصيته في شعره مثل امرئ القيس ، وأنت قد عرفت حياته الأولى فاطلبها في معلقته التي أسلفنا لك فيها رأياً ، وأثبتنا من مختارها أبياتاً ، في شرحنا للمعلقات في الجزء الأول من الكتاب ، وسند ذكر لك منها بعض ما أغفلناه هناك .

شعره

قال بعد أن ذكر وقوفه وبكائه ووصف عشقه وذكر قصته مع صواحبه يوم الغدير ، وما كان من عقره لمن ناقته واقتسامهن متاعه ، وركوبه على رحل صاحبه فاطمة ، يذكر حالة أخرى له معها :

وَبَيْضَةٍ خَدِرٍ لَا يُرَامُ خِبَاؤُهَا تَمَعْتُ مِنْ لَهْوٍ بِهَا غَيْرَ مُعْجَلٍ
تَجَاوَزْتُ أَحْرَامًا إِلَيْهَا وَمَعَشْرًا عَلَيَّ حِرَاصًا لَوْ يُسْرِوْنَ مَقْتَلِي
إِذَا مَا الثَّرِيَّا فِي السَّمَاءِ تَعَرَّضَتْ تَعَرَّضَ أَثْنَاءِ الْوِشَاحِ الْمُفْصَلِ
قَالَتْ يَمِينُ اللَّهِ مَالِكٌ حَيْلَةٌ وَمَا إِنِ أَرَى عَنْكَ الْغَوَايَةَ تَنْجَلِي
قَمْتُ بِهَا أُمْسِي تَجْرُ وَرَاءَنَا عَلَيَّ أَثْرَيْنَا ذَيْلِ مِرْطٍ مَرَحَلِي
فَلَمَّا أَجَزْنَا سَاحَةَ الْحَيِّ وَانْتَحَى بِنَا بَطْنٌ حَبَّتْ ذِي قِفَافٍ عَقْنَقَلِي

الفصل في شعره

هَصْرَتْ بِفَوْدَى رَأْسِهَا قَتْمًا يَلْتُ
 مَهْفَهْفَةً بِيَضَاءٍ غَيْرِ مُفَاضَةٍ
 كَبِكرِ المَقَانَةِ البِيَاضِ بِصُفْرَةٍ
 تَصُدُّ وَتُبْدِي عَن أُسَيْلٍ وَتَتَّقِي
 وَجِيدٍ كَجِيدِ الرِّيمِ لَيْسَ بِفَاحِشٍ
 وَفَرَعٍ يَزِينُ المَتْنَ أَسْوَدَ فَاحِمٍ
 غَدَائِرُهَا مُسْتَشْرِزَاتٌ إِلَى العُلا
 وَتُضْحِي فَتَيْتُ المِسْكِ فَوْقَ فَرَاشِهَا
 تُضِيءُ الظَّلَامَ بِالعِشَاءِ كَأَنَّهَا
 إِلَى مِثْلِهَا يَرَوْنَ الحَلِيمُ صَبَابَةً
 عَلَى مَهْضِيمِ الكَشْحِ رِيًّا المِخْلَجَل
 تَرَائِبُهَا مَصْقُولَةٌ كَالسَّجَنَجَل
 غَدَاهَا نَمِيرُ المَاءِ غَيْرُ المِحْلَل
 بِنَاطِرَةٍ مِنْ وَحْشٍ وَجَرَّةٍ مُطْفَل
 إِذَا هِيَ نَصْنَهُ وَلَا بِمُعْطَل
 أَثَيْتِ كَقِنْوِ النَّخْلَةِ المَتَعَشِكِل
 تَضِلُّ العِقَاصُ فِي مُشْنَى وَمُرْسَلِ
 نَوْمِ الضَّحَى لَمْ تَنْتَطِقْ عَن تَفْضَلِ
 مَنَارَةٌ مُمَسِي رَاهِبٍ مُتَبَتَّلِ
 إِذَا مَا سَبَكَرَتْ بَيْنَ دِرْعٍ وَمِجْوَلِ

وصف
 زينة المرأة
 وما بلغت
 من المدينة
 في الجاهلية

وهي أيضا قصة من مذاهب الشباب والتوافر على ابتعاث اللذات ، يتناول فيها
 زينة المرأة العربية وما كانت تبلغ إليه من التمتع ، فذكر خدرها وأحراسها ،
 وأنه خرج بها من الحى إلى مكان حرير يتهنأ فيه بالانفراد معها ، وتعفيتها الأثر
 بأذيال مرطها المرحل ، وجعل صفاء ترائبها وسلاستها كالمرأة المصقولة ، ولونها
 كبكر المقناة « وهي اللؤلؤة ، والمقناة الخالطة ، يريد ميل بياضها إلى الصفرة
 وهو أمدح للون المرأة » وذكر شعرها فجعله كقنو النخلة وأنه فاحم أسود ،
 تضل عقاصه في مثناه ومرسله لغزارته وسبوطه ، ثم مثل تنعمها وعدم تبذلها
 بما تبته فوق فراشها من فتيت المسك وبنومة الضحى ، وبأنها لم تنتطق عن
 تفضل ، أى أنها منذ نشأتها متقلبة في هذه الحالة من الخفض ، فلم تكن تلبس ثوبا
 واحداً للبدلة والعمل ثم لبست بعده المنطقة ، والغرض أنها لم تصر عزيزة بعد
 بؤس ، وأراد بذكر الدرع والمجول « وهو ثوب قصير يعمل فيه أو هو خاص
 بالجارية الناشئة » أراد بذلك أنها ليست صغيرة لا تشتهى ولا كبيرة فارطة ،
 بل هي بين الحالتين ، أو يريد أنها تلبسها جميعا وتمتد بينهما ، وانتهى من هذه

تخليل
 الآيات

الحالة الثانية إلى وصف الليل والخيل بما شرحناه في المعلقات ، وذكر الصيد والطهارة وَصَفِيفَ اللحم وشواءه ، وخلص من القصيدة إلى ذكر العاصفة والبرق والمطر ، وقد عقدنا لذلك موازنة بينه وبين أوْس بن حَجَر في ترجمته فلا حاجة إلى الإطالة به هنا .

وابنُها أيضا في هذه القصيدة الآتية ، فأنت لاشك واجد الأثر الواضح لهذه الشمائل الملكية ، وواقع على الشباب الناعم وما فيه من أفراح الحياة وتمجيد لندات العيش ، ومطلعها :

ألا عِمَّ صباحا أيها الطللُ البالي وهل يَعِمَّنْ من كان في العَصْرِ الخالي
وهو يقول :

سموتُ إليها بعد ما نامَ أهلها سُمُوَ حَبَابِ المَاءِ حَالاً على حَالِ
فقلت سبأكَ اللهُ إنكَ فاضِحِي أَلَسْتَ تَرَى السُّمَارَ والنَّاسَ أحوالِي (١)
فقلت يمينُ اللهُ أُبْرَحُ قاعداً ولو قَطَعُوا رَأْسِي لَدَيْكَ وَأَوْصَالِي
حَكفْتُ لها باللهِ حِلْفَةً فاجر لَنَامُوا فَمَا إنْ من حديثٍ ولاصالِ (٢)
فلما تنازعنا الحديثَ وَأَسْمَحَتْ هَصَرْتُ بَعْضِنِ ذِي شَمَارِيخِ مَيَالِ (٣)
وصِرْنَا إلى الحُسْنَى ورقَّ كلامنا وَرُضْتُ فَذَلَّتْ صَعْبَةً أَيَّ إِذْلالِ
فَأَصْبَحْتُ مَعْشُوقاً وَأَصْبَحَ بَعْلُهَا عليه القَتَامُ سَيِّءِ الظنِّ والبَالِ (٤)
يَغِطُّ غَطِيطَ البَكْرِ شُدَّ خِناقُهُ لِيَقْتُلَنِي والمرءُ ليس بَقَتَالِ (٥)
أَيَقْتُلَنِي والمَشْرِفِيُّ مُضَاجِعِي وَمَسْنُونَةٌ زُرْقُ كَأَنْيابِ أَعْوَالِ

مثال آخر
من ديبه
وقصصه

(١) السمار : جمع سامر وهو الجليس المنادم ، وهو أيضاً متحدث القوم بالليل . الأحوال : جمع حول ، ويقال أحول القوم فلانا أي صاروا حوله .
(٢) الصال : المصطلي بالنار . (٣) أسمحت : لانت . هصرت : عطفت .
(٤) القتام : الغبار . (٥) الغطيط : صوت يتردد في الصدر .

وَلَيْسَ بِيذِي رُمَحٌ فَيَطْعُنُنِي بِهِ وَلَيْسَ بِيذِي سَيْفٌ وَلَيْسَ بِنَبَالٍ
وقد علمت سلمى وإن كان بعلمها بأن الفتى يهذي وليس بفعال

ثم اقرأ فيها وصفه لفرسه وتشبيهه بالعقاب في شدة الهوى وسرعة الكثرة :

كَأَنِّي بَفَتْخَاءِ الْجَنَاحَيْنِ لِقُوَّةِ صَيُودِمِنَ الْعُقْبَانِ طَاطَاتٍ شِمَالِي (١)

تَصِيدُ خِزَانَ الشَّرْبَةِ بِالضُّحَى وقد حُجرت منها ثعالبُ أوزال (٢)

كَأَنَّ قُلُوبَ الطَّيْرِ رَطْبًا وَيَابَسًا لدى وَكْرِهَا الْعُنَابُ وَالْحَشْفُ الْبَالِي

وقوله في ذكر صبوته وقتائه :

كَأَنِّي لَمْ أَزَكِّبْ جَوَادًا لِلذِّدِّ وَلَمْ أُسْبِئِ الزَّقَّ الرَّوِيَّ وَلَمْ أَقُلْ

وَلَمْ أَشْهَدْ الْخَيْلَ الْمُغِيرَةَ بِالضُّحَى على هَيْكَلٍ نَهْدِ الْجُزَارَةِ جَوَالٍ (٤)

إلى قوله :

فَلَوْ أَنَّ مَا أَسْعَى لِأَذْنِي مَعِيشَةً كَفَانِي وَلَمْ أَطْلُبْ قَلِيلٌ مِنَ الْمَالِ

وَلَكِنَّمَا أَسْعَى لِمَجْدٍ مُؤَثَّلٍ وقد يُدْرِكُ الْمَجْدَ الْمُؤَثَّلُ أَمْثَالِي

وفي هذه العينية التي كشف بها عن رغائبه من لذات العيش فيما صح

أن يكون مثلاً احتذاه طرفه في ذكر أمانيه ، كما سيأتي في ترجمته ، وهي

تشير أيضاً إلى اتصال هذا المذهب بشعر ابن أبي ربيعة في عينيته

« ألم تسأل الأطلال فآلمتر بعا »

قال امرؤ القيس :

(١) الفتخاء : اللينة الجناح في طول . اللقوة : السريعة الخطف . طاطات : دانيت .

الشمال : السريعة وهي فرسه . (٢) الخزان : جمع خزز كصرد هو ذكر الأرناب .

حجرت : تخلفت من الخوف . الشربة : أوزال : موضعان .

(٣) سبأ الحجر وسباؤها : شراؤها . (٤) الهيكل : العظيم المصرف . النهدي : الغليظ

العصب . الجزارة : القوائم .

التشبيها
الملفوف في
شعره

علو نفسه
ونبله

وأصْبَعْتُ وَدَعْتُ الصَّبَا غَيْرَ أَنِّي
فَمِنْهُمْ قَوْلِي لِلنَّدَايِ تَرَفَّقُوا
وَمِنْهُمْ رَكْضُ الْخَيْلِ تَرْجُمُ بِالْقَنَا
وَمِنْهُمْ نَصُّ الْعَيْسِ وَاللَّيْلِ شَامِلٌ
خَوَارِجٌ مِنْ بَرِّيَّةٍ نَحْوِ قَرْيَةٍ
وَمِنْهُمْ سَوْفُ الْخَوْدِ قَدْ بَلَّهَا النَّدَى
يَعِزُّ عَلَيْهَا رِيْبِي وَيَسُوُّهَا
بَعَثْتُ إِلَيْهَا وَالنُّجُومُ ضَوَاجِعُ
فَجَاءَتْ قَطُوفُ الْمَشِيِّ هَيَّابَةَ السَّرَى
تَقُولُ وَقَدْ جَرَّدْتُهَا مِنْ ثِيَابِهَا
وَجَدَّكَ لَوْ شِئْتُ أَنَا رَسُولُهُ
تَصُدُّ عَنِ الْمَأْتُورِ بَيْنِي وَبَيْنَهَا
إِذَا أَخَذَتْهَا هَزَّةُ الرَّوْعِ أَمْسَكَتْ

أمانيس
الأربع في
الحياة

فوجد هذا الحديث العذب والخيال البارع والتدفق المعجب ، وهذه الفتوة ولطافة الخالعة ، وذلك الابتكار في التشبيه ، وهذه اللذات العجيبة التي وصفها من الركوب والشراب والديب والعشق ، هي امرؤ القيس في حياة صبوته ، وامرؤ القيس في ذلك الوقت هو هذه الأشياء ، أو هو ذلك الشعر الذي لم تشهده جزيرة العرب قبل هذا الأمير العربي .

ثم انظر إليه في ابتداء محنته بموت أبيه ، وتشميره للأخذ بثأره وهو يذكر أرقه وميئته بليلة ذى الأرمذ ، وما أعده للحرب من السلاح والآلة في قوله :

(١) المداجاة : المساترة . النشاج : المصوت والقصود به الزق .

(٢) النص : أقصى ما عند الدابة من السير .

(٣) السوف : التشميم . الخود : الناعمة الحسنة .

(٤) المأثور بين الرجل والمرأة في الخلوة معروف وهو ما يجري بينهما من الدعاية والتجميش ونحو ذلك .

تَطَاوَلَ لَيْلُكَ بِالْأَمِّدِ وَنَامَ الْخَلِيُّ وَلَمْ تَرَ قُدِ
وَبَاتَ وَبَاتَتْ لَهُ لَيْلَةٌ كَكَلِيلَةِ ذِي الْعَائِرِ الْأَزْمَدِ (١)

وحين يقول :

فَإِنْ تَدْفِنُوا الدَّاءَ لَا نُخْفِهِ وَإِنْ تَبَعَثُوا الْحَرْبَ لَا تَقْعُدِ
وَإِنْ تَقْتُلُونَا نَقْتُلْكُمْ وَإِنْ تَقْصِدُوا لِدِمِّ تَقْصِدِ
وَأَعَدَدْتُ لِلْحَرْبِ وَثَابَةً جَوَادَ الْمَحْثَةِ وَالْمُرُودِ (٢)
سَبُوحًا جَمُوحًا وَإِحْضَارُهَا كَعَمْعَةِ السَّعْفِ الْمَوْقَدِ (٣)
وَمَطْرَدًا كَرِشَاءِ الْجَرُودِ رَمَنْ خُلِبَ النَّخْلَةَ الْأَجْرَدِ (٤)
وَإِذَا شَطَبَ غَامِضًا كَلَمَهُ إِذَا صَابَ بِالْعِظْمِ لَمْ يَنَادِ (٥)
وَمَشْدُودَةَ السَّكِّ مَوْضُونَةً تَضَائِلُ فِي الطَّيِّ كَالْمَبْرَدِ
تَفِيضُ عَلَى الْمَرْءِ أَرْضَانِهَا كَفَيْضِ الْأَتِيِّ عَلَى الْجَدَجِدِ (٦)

تهديده
لأعدائه
واستعداده
لحربهم

تراه لا يزال قوياً اللفظ ، نائراً إلى الانتقام ، غضوباً على الأعداء ، متأهباً
للاخذ منهم بما اعتده لهم من خيل وسلاح .

وانظر إليه فيما يأتي من قوله وقد ظفر ببعض قبائل أسد من قصيدته التي
مطلعها « يادار ماوية بالحائل » :

قُولَا لِدُودَانَ عَبِيدِ الْعِصَا مَا غَرَّكُمْ بِالْأَسَدِ الْبَاسِلِ
قَدِ قَرَّتِ الْعَيْنَانِ مِنْ مَالِكٍ وَمَنْ بَنَى عَمْرٍو وَمَنْ كَاهِلِ
وَمَنْ بَنَى عُمَيْرِ بْنِ دُودَانَ إِذْ تَقْدِفُ أَعْلَاهُمْ عَلَى السَّافِلِ

(١) العائر : فاعل بمعنى المصدر وهو وجع العين ، ويقال أيضاً للسهم يصيب
ولا يسلم مأناه . (٢) المحثة : السرعة . المرود : التمهل . (٣) العمعة : صوت
الحريق ، السعف : خوص النخل . (٤) المطرد : الرمح ، ومعناه المستقيم . الرشاء :
الحبل . الجرور : البئر البعيدة القاع . الخلب : الليف . (٥) يناد : يثني .
(٦) الأتي : السيل . الجدجد : الأرض المستوية ، أو الفيف الأملس .

نَطَقْتُهُمْ سُلُكِي وَمَخْلُوجَةٌ كَرَّكَ لِأَمِينٍ عَلَى نَابِلٍ (١)
 حَتَّى تَرْكَنَاهُمْ لَدَى مَعْرَكٍ أَرْجُلُهُمْ كَالخَشَبِ الشَّائِلِ
 حَلَّتْ لِي الخَيْرُ وَكُنْتُ امْرَأً عَنْ شُرْبِهَا فِي شُغْلٍ شَاغِلِ
 فَالْيَوْمَ أَشْرَبْتُ غَيْرَ مُسْتَحَقِّبٍ إِثْمًا مِنْ اللَّهِ وَلَا وَاعِلِ

تراه نازعا إلى البأس ، متنكباً عن اللذات ، عازفا عن النساء والشراب ، ممعنا
 في الافتخار بالحرب ، والنيل من العدو ، قد شغلته هذه المحن عن صبوته ،
 وكذلك تجده حين تقرأ قوله من قصيدته التي مطلعها :

(حَتَّى الخُمُولَ بِجَانِبِ العَزْلِ إِذْ لَا يُلَامُ شَكْلَهَا شَكْلِي)
 أَقْبَلْتُ مَقْتَصِداً وَرَاجِعِي حِلْمِي وَسُدَّدَ لِلنَّدَى فِعْلِي
 وَاللَّهُ أَنْجَحُ مَا طَلَبْتَ بِهِ وَالْبِرُّ خَيْرُ حَقِيبَةِ الرَّحْلِ
 وَمَنْ الطَّرِيقَةَ جَائِزٌ وَهُدًى قَصْدُ السَّبِيلِ وَمَنْهُ ذُو دَخَلِ
 وَأَخِي إِخَاءِ ذِي مَحَافِظَةٍ سَهْلِ الخَلِيقَةِ مَا جِدِ الأَصْلِ
 حُلُوٍ إِذَا مَا جِئْتُ قَالَ أَلَا فِي الرَّحْبِ أَنْتَ وَمَنْزِلِ السَّهْلِ
 نَازِعَتُهُ كَأَسِّ الصَّبُوحِ وَلَمْ أَجْهَلَ مُجِدَّةَ عِذْرَةِ الرَّجُلِ
 إِنِّي بِجِبَالِكَ وَاصِلٌ حَبْلِي وَبَرِيشَ تَبْلِكَ رَأْسٌ تَبْلِي
 وَشِمَائِلِي مَا قَدْ عَلِمْتَ وَمَا نَبَّحْتُ كَلَابُكَ طَارِقًا مِثْلِي

صورة
 من العبرة
 والحكمة في
 شعره

جمال الكناية
 عن نفسه

أوشك أن يثوب إلى ما يجمل بثله ، حين يمضي به العمر وتلح عليه
 الأيام ، فتخرجه من عز الكفاية والدعة إلى مثل ما صار إليه ، من مقاساة
 الشدائد ومعاداة الرجال والتقلب في اختبار الأمور ، والاتهاء بعد ذلك إلى هذا
 الوضع من الحكمة ، في الاستنجاح للطلب والاختقاب للبرِّ واتباعه للقصد
 من السبيل .

ثم اقرأ قوله من قصيدة « سمالك شوق بعد ما كان أقصرا » وهي من شعره

(١) سلكي : طعناً مستويًا . مخلوجة : الطعنة الموجهة عن يمين وشمال . اللأم : السهم .

في حياته الثانية ، بعد ما صار أمره إلى الشتات والفرق ، واختلفت به البلاد في الاستنجد والطلب :

ولو شاء كان الغزو من أرض حِمْيَرٍ ولكنه عمداً إلى الروم أنفرا
بكي صاحبي لما رأى الدرب دونه وأيقن أنا لاحقان بقيصرا
قلت له لا تُبكِ عينيكَ إنما نحاول ملكاً أو نموت فنعدرا
وقوله :

خروجه إلى
قيصر

إذا قلتُ هذا صاحبٌ قد رَضِيتهُ وقرتُ به العينانِ بدلتُ آخرًا
كذلك جدِّي ما أصحبُ صاحبًا من الناس إلا خانتني وتغيَّرًا
وكنا أناساً قبل غزوةِ قرمَلٍ ورثنا الغنى والمجداً كبراً كبرًا
ثم اقرأ قوله يمدح رهط المعلى من بني تيم ، وكانوا أنزلوه وأحسنوا جواره :

مدحه لرهط
المعلى

كأنِّي إذ نزلتُ على المعلى نزلتُ على البواذخِ من شَمَامِ
فما ملكُ العِراقِ على المعلى بمقتدرٍ ولا ملكُ الشَّامِ
أقرَّحشاً امرئُ القيسِ بنِ حُجْرٍ بنو تيمٍ مصاييحُ الظلامِ
ثم اقرأ قوله من قصيدة « أَرَانَا مَوْضِعِينَ لِحَمِّ غَيْبٍ » :

شكواه من
الدهر

وقد طوّفتُ بالأفاقِ حتى رَضِيتُ من الغنيمَةِ بالإيابِ
أبعد الحارثِ الملكِ بنِ عمرو وبعد الحَيْرِ حُجْرِ ذِي القَبَابِ
أرجى من صُرُوفِ الدهرِ لِينًا ولم تنفُلْ عن العُصمِ الصُّلابِ
وأعلمُ أنني عمّا قليلٍ سأنشَبُ في شَبَا ظفِرٍ ونَابِ

ثم قوله من قصيدة « أَلِمَّا عَلَى الرَّبْعِ القَدِيمِ بَعَسَعَسَا » :
فإمّا ترينى لا أغمضُ ساعةً من الليلِ إلا أن أكبَّ فأنعَسَا
فياربُّ مكروبٍ كررتُ وراءه وطاعنتُ عنه الخيلَ حتى تنفَسَا
وياربُّ يومٍ قد أروحُ مرَجَلًا حَبِيبًا إِلَى البِيضِ الكَوَاعِبِ أمَلَسَا

أَرَاهُنَّ لَا يُحِبُّنَ مِنْ قَلِّ مَالُهُ وَلَا مِنْ رَأْيِنَ الشَّيْبِ فِيهِ وَقَوْسَا
فَلَوْ أَنَّهَا نَفْسٌ تَمُوتُ جَمِيعَةً وَلَكِنهَا نَفْسٌ تَسَاقَطُ أَنْفُسَا
وَبَدَّلْتُ قَرْحًا دَامِيًا بَعْدَ صِحَّةٍ فَيَا لَكَ مِنْ نَعْمَى تَحْوَلُنَ أَبُو سَا

وصفه
لتقلب النساء
وغدرهن

اقرأ هذا وأمثاله من شعر امرئ القيس بعد مقتل أبيه ، تر ذلك الشاعر ،
وقد صحا باطله وتكشفت غوايته ووهن بعض الوهن شعره ، وعاد فشكا الدهر
وتقلب الاخوان ، وبكى على ما ألم بنفسه ، وتوقع ما غال آباءه من قبله ، ذلك
أيضا هو امرؤ القيس في أيام مجنته ، وانك لتجد لشعره مميزات قلما تلمحها في شعر
غيره ، فهو أبداً صادر عن نفس نبيلة ، لا تلهيها الصروف القاسية عن الحديث
عن الشرف ، والارتباط بأسباب النبالة والمجد . ألا ترى إلى قوله وهو يعالجها ،
ويتقلب على أشواك محنة وغربة :

فقلت له لا تبك عينيك إنما نحاول ملكا أو نموت فنعدرا

ولا تكاد ترى له عبارة نازلة لإقليلا ، وإنما كلامه كله أو أكثره متصل
بفصاحة البداوة المزوجة بنعيم الحياة وترف الغنى ، وهو حوك الفطرة القادرة
والطبع السليم .

وكذلك يعتبر أهل العلم أن امرأ القيس سبق الشعراء جميعا إلى أشياء ابتدعها
واستحسنها الشعراء بعده فاحتذوا عليها ، بل ولم يكفهم ذلك حتى أخذوا من
أساليبه أبياتا بعينها أو أنصاف أبيات ، وعندكم قول طرفة «وقوفا بها صبحي . البيت»
وأتم تعلمون أنه لم يختلف عن قول امرئ القيس في شيء إلا في القافية ،
وقوله في ناقته أيضا «أمون كألواح الإيران . البيت» مأخوذ من قول
امرئ القيس :

منزلته
وما قدمه
الناس به

وعنس كألواح الإيران نسأتها على لاحب كالبرد ذي الحبرات

وقول زهير في معلقته :

تبصّر خليلي هل ترى من ظمآن تحمّلن بالعلياء من فوق جرّم

مأخوذ منه في قوله :

أخذ طرفه
وزهير منه

تَبَصَّرَ خَلِيلِي هَل تَرَى مِنْ ظَعَائِنِ سَوَالِكِ نَقَبًا بَيْنَ حَزْمِي شَعْبَعَبِ

ومما قدمه الناس به ، أنه أول من وقف واستوقف وبكى واستبكى وشبه النساء بالبَيْض والظباء والمها ، والخيل بالعُقبانِ والعِصِيَّ ، وهو أول من رقق النسيب ، وفرَّق بين الغزل وغيره من فنون الشعر ، وهو أول من قيَّد الأوبد وهذا المعنى سَبَقَ إليه امرؤ القيس ولم يُلْحَقْ فيه ، وذلك أنه جعل الفرس لسرعة عدوه كأنه قيد لهذه الأوبد - وهي طرائد الوحش - إذا رأته يعدو خلفها ، أيقنت بسرعة اللحاق فتقف عن الجري كأنها مقيدة ، وهو أول من اخترع هذا النوع من التشبيه الذي سماه العلماء بعد « بالتشبيه الملفوف » في مثل قوله :

كَأَنَّ قُلُوبَ الطَّيْرِ رَطْبًا وَيَابِسًا لَدَى وَكْرِهِا العُنَابُ والحَشْفُ البَالِي

حسب
بشار له

وكان بشار الأعمى يقول : ما زلت أحسُّدُ امرأ القيس على جمعه بين تشبيهه

شيئين بشيئين في بيت واحد حتى قلت :

كَأَنَّ مُنَارَ النَّعْمِ فَوْقَ رُءُوسِنَا وَأَسْيَافِنَا لَيْلٌ تَهَاوَى كَوَاكِبَهُ

فجمعت فيه بين ثلاثة وثلاثة !

ومما يذكره علماء البلاغة ، ويطيون العجب من استحلانته قوله :

كَأَنَّ عِيُونَ الوَحْشِ حَوْلَ خِبَائِنَا وَأَرْحَلِنَا الجَزْعُ الَّذِي لَمْ يُشَقَّبْ (١)

ومن اختراعاته المتنازعة في الحسن ، قوله في عرفان الأطلال الدارسة

المتنكرة ، بما في نفسه من الشوق والشغف :

لَمَنْ طَلَّلَ دَرَسَتْ آيُهُ وَغَيْرُهُ سَالَفُ الأَحْرَسِ

تَنَكَّرَهُ العَيْنُ مِنْ حَادِثٍ وَيَعْرِفُهُ شَغْفُ الأَنْفُسِ

أخذه شاعر قرشي فقال من أبيات :

(١) الجزع : خرز يمانى فيه سواد وياض تشبه به الأعين .

لو بُدِّلَتْ أَعْلَى مَنَازِلِهَا سَفَلًا وَأَصْبَحَ سَفُلُهَا يَغْلُو
لَعَرَفْتُ مَعْنَاهَا بِمَا اخْتَمَلَتْ مَتَى الضَّوْعُ لِأَهْلِهَا قَبْلُ

وقد سمع بعض النقاد منشداً ينشد هذه الأبيات فقال : ما بقي على هذا إلا
أن يدعو على ديار صاحبه بحجارة من سجيل تجعل عاليها سافها !! وأخذه
آخر فأحسن وجعل الحديث عن هداية راحته :

لَا تَقْفُهَا عَلَى السَّبِيلِ وَدَعَّهَا يَهْدِيهَا شَوْقٌ مِّنْ عَلَيْهَا السَّبِيلَا

وقد تبعه النابغة في وصف طول الليل في قصيدته « كليني لهم » وهي من
فاخر الكلام الجاهلي .

قال الشيخ أبو عبد الله المرزُبَانِي في «الموشح» . . . وأبيات امرئ القيس في
طول الليل ، قد اشتمل عليها الإحسان ، وليس فيها معاب إلا هذا التضمين
في قوله :

قُتِلَتْ لَهُ لِمَا تَمَطَّى . . . الْبَيْت ، وقوله : أَلَا أَيُّهَا اللَّيْلُ الطَّوِيلُ . . . الْبَيْت

قال : وإنما يبرأ الشعر من هذا العيب ، إذا كان كل بيت منه مستقلاً
بمعناه عن غيره ، وأفضل من هذا أن يستقل بعض أجزاء البيت عن بعض كقول
امرئ القيس :

وَاللَّهِ أَنْجَحَ مَا طَلَبْتَ بِهِ وَالْبِرُّ خَيْرُ حَقِيبةِ الرَّحْلِ

قال : وقد غبر الناس يذكرون طول الليل ، ويجعلونه وحده مألّف المهوم
ومراح الأحران ، كقول النابغة هذا وكقول غيره :

أَقْضَى نَهَارِي بِالْحَدِيثِ وَبِالْمُنَى وَيَجْمَعُنِي وَالْمَهْمُ بِاللَّيْلِ جَامِعُ

ولم يخالفهم إلى غير ذلك إلا أحذقهم وأجودهم طبعاً امرؤ القيس ، فإنه جعل
ليله ونهاره سواء في حزنه وهمه ، وإن كان ذلك منحرفاً عن المعقول ولم تجر به
العادة ، وقد صبّ الله على امرئ القيس من أراه استحالة معناه في المعقول ،
لما في النهار من إرسال العين وبعض الشغل بتأمل مشاهد الكون ، مما قد

تفريظ
صاحب
الموشح
لأبيات امرئ
القيس في
وصف الليل

ينسى الهم ويسرى عن النفس ، وذاك أبو نقر الطرمّاح بن حكيم حيث قال
وقد أخذ من امرئ القيس :

ألا أيها الليلُ الذي طالَ أصبحَ بِيمِّ وما الإصباحُ منك بأرواح
ثم استدرك فقال :

بلى إن للعينين في الصُّبحِ راحةً لطرَّحيهما طرفَ فيهما كلُّ مطرَح
فأتى في قليل كلامه من الحجة ، ما لوعاناه أحنق المتكلمين بكثير مشوره
لما زاد عليه ، وتبعه عمر بن أبي ربيعة في غزله وديببه وتعرضه ، ورأية عمر التي
أولها « أمن آل نعم . . . » وعينته التي أولها :

ألم تسأل الأطلالَ فالترَّبَّعا ببطنِ حُلَيَّاتِ دوارسٍ بلقما
يدلان على ذلك ، ومن عجب الأمر أنك ترى من يستبعد صدور هذا
التعاهر من امرئ القيس على جاهليته وملكه ، ويدعيه لعمر على إسلامه وقربه
من المسجدين ، ويدعى بعد ذلك أن هذا الشعر مدموس على ابن حُجْر وإنه
بابن أبي ربيعة أشبه ! !

وقد عابوا قولَ طرفة :

أشدُّ غيلٍ فإذا ما شربوا وهبوا كلُّ أُمونٍ وطيرٍ
بأنه جعل سخاءهم في هذا الوقت الذي تذهل فيه العقول ، وقدّموا عليه
قول عنتره :

فإذا شربتُ فإني مستهلك مالى وعرضى وافِرٌ لم يُكَلِّم
وإذا سحوتُ فما أقصر عن ندى وكما علمتِ شمائلِي وتكرّمي
إلا أنهم قالوا إنه جعل المعنى في بيتين ، وصاحب هذا المعنى امرؤ القيس

وفاه وصححه في بيت واحد من بيتين هما قوله :

ونعرفُ فيه من أبيه شمائلًا ومن خاله ومن يزيدَ ومن حُجْر

سماحةُ ذا وبرُّ ذا وَوَفَاءُ ذا وَنَائِلُ ذا إِذَا سَحَا وَإِذَا سَكِرَ
وهذا بعض ما أوسع المقام من المعاني التي اخترعها امرؤ القيس ، وصارت
بعده سنةً من سنن الشعر في هذا العصر الجاهلي ، بل وفي غيره من العصور الأخرى .
قد تعلمون أن الفُرَاعِغَ من الفتيان يَحَاوِلُ لهم السَمَرَ ، بمناقلة الحديث
والتنادُرُ بِإِلْقَاءِ الأَحَاجِيِّ والتلمح بمطارحة الأشعار ، تماجُنًا في الخلوات وتفرُّجًا من
الهموم ، وجماما لنشاط النفوس ، وما زالت هذه المجاذبة بين الإخوان مادة
الظرف ، وبقية اللذات ، وكانت البديهة الصالحة ، كاسرة من سَوْرَةِ الجبابة ،
ومحصنة لرقاب المأخوذِين ، وآثار الأوائِل حافلة بالعريض من الشواهد على
اتصال هذه العادة بطبقات الناس في أسماهم ومجالسهم ، وفي كتب الأدب
فصول معقودة للجواب القاطع والبادرة المرتجلة ، وجردها أحد أئمة القرن السابع
الإمام علي بن ظافر في كتاب له سماه « بدائع البدائنه » وهو كاسمه قد حوى من
طرائف المشاركة وأدباء الأندلس ، ومن كلِّ عصور الأدب إلى وقت المؤلف ،
ما ترجعون إليه فترون شذوراً من أدب المنثور والمنظوم ، صادرة عن هذا
الارتجال في أوجي من خطف البارق والسهم المارق .

تعرضه
لشعراء
عصره

وإذا فما كان بعجيب أن يبغى امرؤ القيس حظه من هذه اللذة في مُمَاتِنَةِ
الشعراء ، ومُحَاجَاتِهِم والعُرَامِ عليهم ، وقد ذكر غير واحد من العلماء أن عبيد
ابن الأبرص الأَسَدِي لقيه مرة فقال له : كيف علمك بالأوابد ؟ « وهى الدواهي أو
شوارد القوافي » فقال له : ألق منها ما أحببت !

موقفه مع
عبيد بن
الأبرص

فقال عبيد :

مَا حَيَّةٌ مَيِّتَةٌ حَيَّتْ بِمَيِّتِهَا دَرْدَاءٌ مَا أَنْبَتَتْ سِنًّا وَأَضْرَاسًا

فقال امرؤ القيس :

تِلْكَ الشَّعِيرَةُ تُسْقَى فِي سَنَابِلِهَا فَأَخْرَجَتْ بَعْدَ طَوْلِ الْمَكْثِ أَكْدَاسًا

فقال عبيد :

ما السودُ والبييضُ والأسماءُ واحدة لا يستطيعُ لهنَّ الناسُ تمسّاسا
فقال امرؤ القيس :

تلك السحابُ إذا الرحمنُ أرسلها رَوَى بها من مُحولِ الأرضِ أيباسا
ثم مضيا يتقاولان في النجوم والرياح والموت والحيل والمنى والموازن ، بمثل
هذا النمط من الشعر الوارد على البديهة المعجلة عن أرهاف اللسان وتجويد
مقاطع الكلام .

قالوا وإنه لقي التوأم اليشكري - وهو الحارث أبو شريح - فقال أجز
مع التوأم
اليشكري ما أقوله إن كنتَ شاعرا ! ثم قال :

أحارٍ ترى بُرَيْقًا هَبَّ وَهنا^(١)

كنارِ الفُرْسِ تَسْتَعِرِ اسْتَعَارا

أرقتُ له ونام أبو شريح

إذا ما قلتُ قد هدأ استطارا

كَأَنَّ هزیزه بوراء غيب^(٢)

عِشَارٌ وُلَّه لَاقَتْ عِشَارا^(٣)

فلما أن علا كنفِي أضاح^(٤)

وَهتَ أعجازُ رَيْقِه فَحَارا^(٥)

فلم يترك بذاتِ السَّرِّ ظبِيا

ولم يترك بجملتها حمارا^(٦)

فلما رأى امرؤ القيس أنه قد ماتنه ، آلى ألا ينزع الشعر أهدأ بعده .

(١) الوهن والموهن : الساعة بعد ساعة ، ماضية من الليل . (٢) الهزير : الصوت .

(٣) العِشَار : النوق ، الواحد عَمْرَاء كنفساء . الوله : جمع واله وهي التي تقدمت ولدها .

(٤) أضاح : موضع . (٥) الرَيْق : أول المطر .

(٦) الجلهة : ناحية الوادي الذي يستقبلك .

ويذكر أن أيضا منازعتته لعلقمة بن عبدة التميمي، وهو شاعر قوي القافية فاخر الاختيار للكلام، وذكره ابن سلام في غير طبقة امرئ القيس قال « وله ثلاث روائع جياذ لا يفوقهن شعر » منها هذه القصيدة التي سنلم بطرف منها، والثانية « طحا بك قلب في الحسان طروب »، والأخرى « هل ما علمت وما استودعت مكتوم » .

وكان من حديثهما أن علقمة جاءه يوما، وعنده امرأته أم جندب الطائية، فجعل يتذاكر الشعر فقال امرؤ القيس: أنا أشعر منك! قال علقمة: بل أنا أشعر منك! فقال امرؤ القيس أقول وتقول، وتحاكما إلى أم جندب، فقال امرؤ القيس قصيدته التي أولها:

خَلِيلِي مَرَّابِي عَلَى أُمِّ جُنْدَبٍ لِنَقْضِ لُبَانَاتِ الْفَوَادِ الْمُعْدَبِ

ونحن ذاكرون من كلتا القصيدتين أبياتا، نقف منها عند موضع الحكومة بينهما، وهو ما تعرضا له من وصف الفرس، ثم نبين ما اتصل بنقد هذه المرأة للشاعرين من خطأ أو صواب، وسترون أنهما اتفقا في أكثر الأبيات اتفاقا في لفظها كله أو أكثره .

قال امرؤ القيس يصف الفراق والناقة والفرس:

فَلِلَّهِ عَيْنَا مَنْ رَأَى مِنْ تَقَرُّقٍ	أَشْتَّ وَأُنَائِي مِنْ فِرَاقِ الْمُحْصَبِ
فَرِيقَانِ مِنْهُمْ جَارِعٌ بَطْنِ نَخْلَةٍ	وَآخِرُ مِنْهُمْ قَاطِعٌ نَجْدَ كَبْكَبِ
وَإِنَّكَ لَمْ يَفْخَرْ عَلَيْكَ كِفَاخِرِ	ضَعِيفٍ وَلَمْ يَغْلِبْكَ مِثْلُ مُغَلَّبِ (١)
وَإِنَّكَ لَمْ تَقْطَعْ لُبَانَةَ عَاشِقِ	بِمِثْلِ غَدُوٍّ أَوْ رَوَاحِ مُؤَوَّبِ (٢)
بِأُدْمَاءِ حُرْجُوجٍ كَأَنَّ قَتُودَهَا	عَلَى أَبْلَقِ الْكَشْحَيْنِ لَيْسَ بِمُغْرِبِ (٣)

(١) تمثل بهذا البيت عثمان رضي الله عنه، وهو محصور في الدار، من رسالة بعث بها إلى علي رضي الله عنه. (٢) اللبانة: الحاجة، الرواح: السير من آخر النهار. الغدو: من أوله. (٣) الأدماء: الناقة، والأدومة لون مشرب بسواد. الحرجوج: الشديدة النشيطة. القنود: أداة الرحل. الكشح: الحاصرة. المغرب: الأبيض الجماليق.

يغرّد بالأسحار في كل سُدْفَةٍ تَغْرُدُ مَيَّاحِ النَّدَامَى الْمُطْرَبِ (١)
ثم يقول :

وقد أُغْتَدَى والطير في وُكُنَاتِهَا وماء الندى يجري على كل مَذْنِبِ (٢)
بمُجْرَدِ قَيْدِ الأَوَابِدِ لَاحَهُ طِرَادُ الهَوَادِي كُلِّ شَأْوٍ مُغْرَبِ (٣)
له أَيُّطَلَا ظِي وَسَاقَا نَعَامَةٍ وَصَهْوَةٌ عَيْرٍ قَائِمٍ فَوْقَ مَرْقَبِ (٤)
وعينُ كَرَاةِ الصَّنَاعِ تُدِيرُهَا لِأَجْرِهَا مِنَ النَّصِيفِ الْمُنْقَبِ (٥)
له أذنانُ تعرفُ العِثْقَ فِيهِمَا كَسَامِعَتِي مَذْعُورَةٌ وَسَطَ رَبْرَبِ (٦)
فَبَيْنَا نَعَاجٌ يَرْتَمِينَ خَمِيلَةً كَشَى العِدَارِي فِي المَلَاءِ المُهْدَبِ (٧)
فَلَايَا بِلَايٍ مَا حَمَلْنَا غُلَامَنَا عَلَى ظَهْرِ مَحْبُوكِ السَّرَاةِ مُحَنَّبِ (٨)
وَوَلَّى كَشُوبُوبِ العَشِيِّ بَوَابِلِ وَيَخْرُجْنَ مِنْ جَعْدِ ثَرَاهُ مُنْصَبِ (٩)

- (١) السدفة : قطعة من الليل . الميَّاح : التمايل من النشوة . الندامى : جمع ندمان ونديم ،
وهم فتيان يجتمعون للشراب والحديث .
- (٢) الوكنات : جمع وكنة، وهي وكر الطائر . المذنب : مسيل الماء إلى الروض .
- (٣) المنجرد : اتقصير الشعر . الأوابد : جمع آبدة وهي طريدة الوحشى لآحه : أهزله
طراد : مطاردة : الهوادي : السوابق . الشأو : جرى مرة إلى الغاية . المغرب : البعيد .
- (٤) الأيطل : الحاصرة . الصهوة : الظهر . العير : الحمار . المرقب : المكان المرتفع .
- (٥) الصنّاع : المرأة المحسنة . الحجر : بفتح الميم ما دار بالعين وبدا من البرقع .
النصيف : الحمار .
- (٦) المذعورة : الظبية الخائفة . الربرب : قطع الطباء والبقر .
- (٧) النعاج : إناث بقر الوحش . الخميلة : رمل فيه شجر .
- (٨) اللأى : البطاء . المحبوك السراة : الجدول الظهر . المحنب : القوس .
- (٩) الشؤبوب : الدفعة الشديدة من المطر ، الوابل : الشديد الغزير . الجعد : التراكب
بعضه فوق بعض . الترى : التراب الندى . المنصب : القائم المعطى .

فلساق ألهوبٌ وللسوطِ درّةٌ (١)
 فأدرك لم يجهدٌ ولم يثنِ شأوه
 وللزجر منه وقعُ أهوجٍ منعَب (١)
 يمرُّ كخذروف الوليد المثقب (٢)
 فعادى عداءً بين ثور ونعجة (٣)
 وظلَّ لثيرانِ الصريمِ غماغمٌ (٤)
 فكابٍ على حرّ الجبين ومُتقى
 فقلت لفتيان كرام ألا انزلوا
 وبين شُبُوبٍ كالتضيمَةِ قرهَب (٣)
 يداعسها بالسهمريِّ المَلَب (٤)
 فمَدْرِيَّةٍ كأنها ذلقُ مشعَب (٥)
 فعالوا علينا فضلَ ثوبٍ مُطَنَّب
 إلى كل حاريٍّ جديدٍ مُشَطَّب (٦)
 كأنَّ عيونَ الوحشِ حولَ خبايِننا
 وأرْحَلنا الجزعُ الذي لم يثَقَّب (٧)
 ثم قال علقمة قصيدته التي مطلعها :

ذهبت من الهجران في غير مذهب ولم يك حقا كلُّ هذا التجنُّب

وفيه يقول معارضاً لامرئ القيس في وصف الفراق والناقة والفرس أيضاً :

فإنك لم تقطعُ لبانة عاشقٍ
 بمثل بُكورٍ أو رَوَاحٍ مؤوَّب
 بمُجْفِرَةِ الجَنَّبِينِ حَرْفٍ شِمْلَةٍ
 كهَمِّكَ مرِّقَالٍ على الأينِ ذِعْلِبِ (٨)

- (١) الألهوب : شدة جري الفرس . الدرّة : جرى في لين ، وأصله ما يدرّ من اللبن .
 الأهوج : الأحق . المنعَب : الذي يستعين بصوته .
 (٢) الخذروف : الدوارة التي يلعب بها الصبيان .
 (٣) العداء : الموالاة بين الشيعين . الشبوب : الثور أو الوعل . التضيمَة : الصحيفة البيضاء . قرهَب : ضخم .
 (٤) الصريم : رمل متقطع . الغماغم : جمع غمغمة ، وهي أصوات الأبطال في الحرب .
 المداعسة : الطعان . السهمري : الريح . المَلَب : المعصوب بالعباء ، وهي سير من الجلد تشدّ به العصي إذا خيف عليها الكسر .
 (٥) الكابى : العائر الساقط . المدرية : القرن . والذلق : الحدّ . المشعَب : الخرز .
 (٦) الحارى والحيرى : المنسوب إلى الحيرة ، وأراد به هنا السيف أو الرجل . المشطَب : ما فيه الشطب ، وهي جمع شطبة بضمّ الشين وكسرهما أى الطريقة .
 (٧) الجزع : خرز فيه سواد وبياض . (٨) المجفرة : الواسعة . الحرف : الشديدة الشملة : النشيطة . مرِّقَال : سريعة . الأين : التعب . الذعلب : الخفيفة السريعة .

إذا ما ضربت الدُّفَّ أو صُلَّتْ صَوَّلَةٌ
بعين كمرآة الصَّنَاعِ تُدِيرُهَا
ثم يقول :

وقد أَعْتَدِي وَالطَّيْرُ فِي وَكُنَاتِهَا
بمنجرد قيد الأوابد لآحه
كَمَيَّتِ كَلَوْنِ الْأَرْجُوانِ نَشْرَتَهُ
له حُرَّتَانِ تَعْرِفُ الْعِتْقَ فِيهِمَا
وَجَوْفُهُ هَوَاءٌ تَحْتِ مَتْنٍ كَأَنَّهُ
إلى أن قال :

إذا ما اقْتَنَصْنَا لَمْ نَخَاتِلِ بِجَنَّةِ
أَخَائِقَةٍ لَا يَلْعَنُ الْحَيُّ شَخْصَهُ
رَأَيْنَا شَيْئاً يَرْتَعِنُ خِمِيلَهُ
وَأَقْبَلَ يَهْوِي ثَانِيًا مِنْ عِنَانِهِ
فَظَلَّ لَثِيرَانَ الصَّرِيمِ غَمَغِمًا
فَهَاوٍ عَلَى حُرِّ الْجَبِينِ وَمُنْتَقِ
فَعَادَى عَدَاءَ بَيْنِ ثُورٍ وَنَعْبَجَةٍ
فَقَلْنَا أَلَا قَدْ كَانَ صَيْدٌ لِقَانِصٍ
كَأَنَّ عَيُونَ الْوَحْشِ حَوْلَ خِبَائِنَا
ولكن نُنادِي مِنْ بَعِيدٍ أَلَا أَرَكَبُ^(١)
صَبُورًا عَلَى الْعِلَاتِ غَيْرَ مُسَبِّبِ
كَمَشَى الْعَذَارَى فِي الْمَلَأِ الْمَهْدَبِ
يَمُرُّ كَمَرِّ الرَّاحِ الْمُتَحَلِّبِ
يُدَاعِسُهُنَّ بِالنَّضِيِّ الْمَلَبِّ
بِمَدْرِيَّةٍ كَأَنَّهَا ذَلَقُ مِشْعَبِ
وَتَيْسٍ شَبُوبٍ كَالْمَشِيمَةِ قَرَّهَبِ
فَخَبَّوْا عَلَيْنَا فَضْلَ بُرْدٍ مَطْنَبِ
وَأَرْحَلْنَا الْجَزْعُ الَّذِي لَمْ يَنْقَبِ

تقد
أم جندب

قالوا فلما فرغ علقمة من إنشاده ، قضت له أم جندب على امرئ القيس ،
قالت : فرس علقمة أجود من فرسك ، لأنك حرركه بساقلك وامتريته بسوطك
وزجرته بصوتك ، وأدرك فرس علقمة ثانياً من عنانه . «أى هو لم يبلغ غاية حضره»

(١) الهضبة : الصخرة المرتفعة . الخلقاء : النساء . (٢) الخائلة : الأخذ في خفية .

والذين يعرفون أن امرأ القيس كان مفرّاً كما تكرهه النساء ، وأن هذه المرأة بعينها كانت تكرهه وكانت ضامعاً مع علقمة ، يدركون في سهولة أنها جارت في حكمها على امرئ القيس ، لأن الذي قصد من ذكر السوط والساق والزجر - وإن كان فيه شيء من الهجنة - إنما هو التنبيه على مبلغ عنايته بريضة فرسه وتأديبه ، وإن عنده أفانين من الجرى ، فيعطى راكبه من كل حالة ما يشبهها من العدو ، وقد ألمّ بهذا المعنى في غير هذا الموضع فهو يقول :

على لاحقٍ يعطيك قبل سؤاله أفانين جري غير كزٍ ولا وان

على أنه مع ذلك قال من هذه القصيدة بعد بيته الذي ذكر فيه الساق والزجر والسوط « فأدرك لم يجهد . . . البيت » وهو يدل على ما يدل عليه بيت علقمة من أنه أدرك طريقته ، وهو لا يزال كما هو لم يتعب ولم يثن شأوه ، أي لم يعد الشوط بل أدركه من أول حضر . وإن كان العلماء لا يزالون يذكر هذه الحكومة من غير تعليق ولا تعقب ، كأنهم يوافقون هذه المرأة في تقدما بادي الرأي ، ولكنكم ترون عند التأمل وإنعام النظر ، أن فرس امرئ القيس يجزى بفرس صاحبه في الإدراك وسرعة اللحاق ، ويزيد أنه معلم مرتاض مفتن في الجرى ، ومما يزيد في ضعف هذا النقد أن علقمة خلف امرأ القيس على أم جندب ، وبذلك سمى علقمة الفحل ، وهذا كما أسلفنا يدل على مبلغ ميلها له على صاحبه والله أعلم .

ومن ساق هذه الحكاية أيضاً عبد الله بن المعتز وذكر هذه القصيدة فيما أنكره من شعر امرئ القيس :

ما أخذہ الناس علیہ

و بعض أهل العلم يعيب عليه قوله :

أغرِكِ منى أن حُبِّكَ قاتلي وأنك مهما تأمرى القلبَ يفعل

ويقول إذا لم يغرها ذلك منه ، فأى شىء يغرها بعد ؟ وهذا زعم أوقع فيه تأويل البيت على أن الاستفهام فيه على وجهه ، وقد يكون الأمر على أنه نوع من الشكوى ، ساقه الشاعر على معنى التقرير والإثبات فى هذه الصورة الدالة على غاية ما يصل إليه الصبّ المتهاك فى صبايته وعشقه :

و بعضهم يعيب عليه قوله :

كأنى لم أركب جواداً للذة ولم أتبطن كاعبا ذاتَ خلخال

ولم أسبأ الزق الروى ولم أقل لخيلى كرى كرة بعد إجحال

ويقول كان عليه أن يضع شـطر بيته الأول مع الشطر الثانى من بيته الآخر ، وهذا أيضاً خطأ ، إذ يكون البيت الثانى « ولم أسبأ الزق الروى للذة » وعليه تكون هذه الفاصلة فضلة لا غناء فيها ، لأن الخمر لا تشتري إلا لذلك ، وشىء آخر وهو أنه لما ذكر ركوب الخيل ، وهو لذة من لذات الفتيان وجمال لهم فضلاً عما فيه من اللذالة على معنى الفتوة ومرح الشباب ، ناسب أن يذكر معه ما يدخل فيه من لذة الاستمتاع بالنساء ، ثم لما ذكر الخمر وهى داعية إلى ظهور القدرة وذهاب الخوف واعتداد الإنسان بالنفس ، ناسب أن يذكر مع ذلك القتال والكر والفر ، وهذه ناحية خفية قد تدق على بعض الأفهام ، على أن أبا الطيب المتنبى قد احتج لصحة هذا الكلام فإنه لما أنشد سيف الدولة قوله من قصيدة « على قدر أهل العزم تأتي العزائم » :

وقفت وما فى الموت شك لواقف كأنك فى جفن الردى وهونائم

تمر بك الأبطال ككسى هزيمة ووجهك وضاح وثرعك باسم

اعترض عليه سيف الدولة أو بعض جلسائه بهذا الوجه بعينه ، فقال المتنبي
« إن كنت أخطأت في هذا فقد أخطأ امرؤ القيس أيضاً في قوله وذكر
البيتين . » لا ! ولكن العرب تضع الشيء مع غير نسيبه ظاهراً أحياناً ، ليكون
ذلك طرف له وأدعى لانتباه النفس إليه ، وشبيهه بهذا قول الله تعالى « إِنَّ لَكَ
أَلَّا تَجُوعَ فِيهَا وَلَا تَعْرَى وَأَنَّكَ لَا تَظْمَأُ فِيهَا وَلَا تَصْحَى » إذ كان المناسب أن
يجمع بين الجوع والظمأ وبين العرى والضحاء ، ولكن الأمر جاء على خلاف
ذلك لما قدمناه لك فتنبه .

وقد يكون لهم وجه فيما عابوه عليه من قوله في صفة الفرس :

وَأَرْكَبُ فِي الرُّوعِ حَيْفَانَةً كَسَى وَجْهَهَا سَعْفٌ مُنْتَشِرٌ

يقول وأركب في الخفافات فرساً طويلة القوائم مخطفة البطن ، ينتشر شعر
ناصيتها كالسعف على وجهها ، قال شارح ديوانه وهذا الوصف غير مستحسن
لأن الشعر إذا غطى العين كان عيباً وهو الغمم ، والحسن منه أن تكون الناصية
قصيرة مجتمعة .

ويعدون من صغره همته قوله

فَمَلَأَ بَيْتَنَا أَقْطَا وَسَمْنَا وَحَسْبُكَ مِنْ غِنَى شَبْعٍ وَرِيٍّ

إذ لم يجعل همهم من الغنى في غير الشبع والري ، وكان الأصمعي لا يرويها
لامرئ القيس ويقول إنها من المنحول ، وهي أشبه بشاعر سئول كالحطيئة . قال
صاحب الأغاني « ومن المنحول على امرئ القيس قصيدة أولها :

طَرَقَتْكَ هِنْدٌ بَعْدَ طُولِ تَجَنُّبٍ وَهَنًا وَلَمْ تَكْ قَبْلَ ذَلِكَ تَطْرُقُ

وهي في مدح السموءل حين استرهنه أذراعه ، قال ويظن أنها من وضع

دارم بن عقال من ولد السموءل . »

وقد عاش امرؤ القيس بين القرنين الخامس والسادس من الميلاد ، ويظن

أنه مات قبيل البعثة بنحو قرن ، وكان يسمى حُنْدُجَا « وهي في الأصل الرملة الطيبة » ويسمى امرأ القيس أى رجل الشدة ، وذا القُروح ، والملك الضليل والذائد ، ويكنى أبا وهب . وقد مات ولم يعقب وله ديوان مطبوع شرحه الوزير أبو بكر عاصم بن أيوب والله أعلم .

٢ - النابغة الذبياني

ستجدون هنا طرازاً آخر من حياة أهل البادية ، لم يسرف فيه هو الفتيان ولا أكثر من العبث بدنياجته أحلام الشباب ، له اتصال قوى بهذه النزعة العالية التي امتزجت بحياة هذا الشاعر منذ صباه . ففي أخريات العصر الجاهلي كان النابغة يعيش كما عاش امرؤ القيس في نجد ، وهي منازل قومه من ذبيان بين الحجاز وتيماء ؛ فرعى أيضاً تلك المسارح الفينانة ، وتنسم ذلك الشميم العطر ، ولكنه ما كان فتى خليعاً ولا مستهترا ، وإنما كان مؤثراً لعادة الجد ، نازحاً إلى غايات الشرف ، وقد اتصل أول دهره بقصور الحيرة ، وتقلب حيناً على هذا العطف اللين من نعيم الحضارة ، وأنست نفسه بهذه الحظوة الفاتكة عند ملوك المناذرة ، وما كان له من غنى عن شعر فيه مديح وفيه شكر لهذه الألفاظ الملكية ، تعمل فيه الروية ويأتي عليه التهذيب ، حتى يصير أهلاً لما يتضمنه من الثناء على الملوك ويومئذ امتدت إليه الأعناق ، والتقت على أبوابه السبل ، ونفس الناس عليه هذه المنزلة التي أضافها من جديد إلى مجده الثالث وشرفه الموروث ، فسعوا به إلى النعمان فأقصاه وأوعده ، فالحق بقومه ثم اتجع ملوك الشام من غسان ، والرواة لا يتفقون على شيء في هذا الإقصاء . فهم يقولون مرة انه وصف المتجرّدة ، وبالغ في تكشيفها من مواضع السترف فيها ، وأن أحد ندماء الملك وهو المنخل الشكري - وكان قسيماً وسيماً متهماً بالمتجرّدة - أغرى به الملك وحمله عليه . ويقولون أيضاً إنه كان أخيره من حاشية النعمان - وهو مرة بن سعد

المنخل
الشكري
ومرة بن سعد
والنابغة

القريني - سيف لطيف الفرند يقال له ذو الريقة ، وصفه النابغة للنعمان حتى طلبه من مرة فدفعه إليه كارهاً ، وعلم أن الذي فعل به ذلك هو النابغة .
ومن الناس من يقول إن اتجاع النابغة لملوك الشام ومدحه إياهم مع ما كان بينهم وبين المناذرة من النفاسة والمحاسدة هو الذي غاظ النعمان وأغراه به .
ونحن نرجح أن حياة النابغة مع النعمان وشدة مداخلته له ، هي التي كادت له هذه المكيدة ، وهي التي أطلعت رءوس الحقد الكامن من نفوس مناظريه على هذه الزلفي عند الملك ، وأنهم ربما كادوا له بكل هذه الأسباب المروية التي جعلوها مرة وصفه للمتجردة ، وأخرى هجاءه للنعمان ، بأبيات مصطنعة جاء فيها قوله :

قَبَّحَ اللهُ ثُمَّ ثَنَّى بَلَعْنِ وَاثَ الصَّائِغِ الْجَبَانَ الْجَهُولَا
« يعرض للنعمان بأبي أمه وكان صائغاً في الحيرة » وأنتك لتستطيع أن تلمح الإشارة إلى هذه الدسائس ، في غير موضع من شعره في مثل قوله « لئن تكُّ قد بُلِّغْتَ عَنِّي خِيَانَةً . . . البيت » وقوله « ما قلتُ من سَيِّءٍ مما أُتيتُ به . . . البيت »

وعلى كل حال فقد عاش النابغة حيناً آخر مقرباً معروفة المكان عند ملوك آل غسان ، وساعده على هذه الخطوة عندهم ما كان بينهم وبين آل المنذر كما قدمنا من المنافسة والخصومة . وقد تجاوزت منزلته هذين الإقليمين من العراق والشام ، إلى قبائل العرب في الحجاز ونجد ، فلم يكن سفيرهم لدى الملوك وشفيعهم عند النواب والحقوق ، بل كان مع هذا زعيماً من زعمائهم يصدرهم ويوردهم ، وهم يطيعون ويسمعون لقوله .

حياة
النابغة عند
ملوك غسان

وهكذا بلغ هذا الشاعر حظاً من الحياة لم ينله شاعر قبله ولا بعده ، تتنافس فيه الملوك ، وتتملقه بالألطف ، وتغريه وتستزيده بالتأنق في الحياء ، وهو مع ذلك ينمى إلى ذوائب المجد في عشيرته ، وعن المنعة والعدد في قومه .

أما شعره فهم يخصونه بالديباجة والرونق وقلة السقط ، ويقصدون من ذلك شعره أنه متشابه من أطرافه في جزأته وإشراق أسلوبه ، والحجازيون كما أسلفنا يقدمونه من هذه الناحية على الشعراء ، ولعمري بن الخطاب رضى الله عنه وغيره من العلماء رأى في ذلك . ويذكرون من أسباب ما اتصل بشعره من القوة والجزالة ووضوح الأسلوب ، أنه قال الشعر وهو كبير ، ولم يمض به العمر حتى تبين أثر الهرم في شعره ، وتستطيع أن تعرف ذلك في أول شعر نسب إليه وهو قوله (١) :

المرء يأمل أن يعيشَ وطولَ عيشٍ قد يضرُّه
تفنى بشاشته ويبقى بعد حلو العيش مره
وتخونه الأيام حتى لا يرى شيئاً يسره
كم شامتٍ بي إن هلكتُ وقائلٍ لله دره

إذ لا ينبغي أن يكون مثل هذا الكلام صادراً عن غير التجربة الممتدة والحياة الطويلة ، ونقول من ناحية أخرى إن النابغة كان شاعراً مضرباً محبباً ولم يكن مرتجلاً ، وكان يحدو على شعر زهير وأوس بن حجر وغيرهم ممن سبقوه أو عاصروه ، وكانوا يقولون : إن أوساً كان شاعر مضر في الجاهلية حتى ظهر النابغة وزهير فأخلاه . وأنت لا تزال تجد هذه الصفة المادية في التشبيه والوصف ملازمة له ، إذ كانت طابعاً من طوابع الشعر القديم كله ، لا يختلف فيها قول شاعر عن آخر ، فهي أيضاً لازمت امرأ القيس في تشبيهاته ، وزهيراً في مدائحه وحكمه ، وغاية الأمر أنك - مثلاً - إذا وازنت بين امرئ القيس والنابغة ، فقد تجد للأول رشاقة تتصل بهذا النوع المعشق من سلاسة الأسلوب ، وتجد للثاني قوة وأسراً يسيران إلى هذه الصلصلة من فخامة الكلام وجزأته .

وقد كانت هذه الذكرى من حياة النابغة في قصور النعمان ومناظر الحيرة ،

(١) ومن الناس من يروى هذه الأبيات للنابغة الجعدي .

تهيج في نفسه الشغف بمراجعة هذه الأيام، فجعل هذا الشوق ينحدر على لسانه حيناً إلى النعمان وتلطفاً في التنصيف، واحتيالاً على جميل العذر حتى بلغ الغاية في هذا من بين شعراء الجاهلية، وأضاف إلى أبواب الشعر القديم فناً آخر يمتاز به، وهو صاحبه بل هو كما يقولون فارس حلبته، وصاحب عذرتة، ذلك هو التنصل والاعتذار.

التنصّل
والاعتذار

وكذلك فعل الشعراء من هؤلاء الفحول، فلكل واحد منهم في بناء هذا الهيكل الأدبي أثر ظاهر، وموضع معروف، والحق أن اختراعات النابغة وما سبق إليه من المعاني العجيبة، كان وليداً لهذه الشكوى في «نعمانياته» التي ساقها في نحو بديع من لطيف العتب وجميل الاعتذار، وسترى أن الذي بأيدي الرواة من أشعاره، يتردد بين الاستعطاف والمدح لآل غسان، وبين الاعتذار والمدح للنعمان، وفي أغراض بدوية أخرى دعت إليها حياة قومه في نجد، وسنلم بشيء من هذه الأقسام على قدر ما يسمح المقام، ذلك ولم تكن هذه المنزلة الشعرية وحدها التي قلده القضاة بين الشعراء في عكاظ، وإنما كانت هذه المنزلة وهذا الجاه العريض، وذلك النفوذ الكامل، عند آل المنذر في العراق والغساسنة في الشام، وبين سروات القبائل في نجد، وسترون شيئاً من أوصاف شعره في قصيدته التي يعد مطلعها من جياذ المطالع الجاهلية، وهي في مدح عمرو بن الحارث الجفني، وكان عنده أسرى من قومه فأطلقهم له بها قال.

إمارته
للشعراء في
عكاظ

كِلِينِي لِهْمٍ يَا أُمَيْمَةَ نَاصِبٍ وَلِيلٍ أَقَاسِيهِ بَطِيءِ الْكَوَاكِبِ
تَطَاوَلُ حَتَّى قَلْتُ لَيْسَ بِمُنْقَضٍ وَلَيْسَ الَّذِي يَرَعَى النُّجُومَ بِآئِبِ
وَصَدْرٍ أَرَاخَ اللَّيْلِ عَازِبَ هَمِّهِ تَضَاعَفَ فِيهِ الْحَزْنُ مِنْ كُلِّ جَانِبِ
عَلَى لِعَمْرٍ وَنِعْمَةٌ بَعْدَ نِعْمَةٍ لِوَالِدِهِ لَيْسَتْ بِذَاتِ عِقَارِبِ
وَتَثَقَّتْ لَهُ بِالنَّصْرِ إِذْ قِيلَ قَدْ غَزَتْ كِتَائِبُ مِنْ غَسَّانَ غَيْرُ أَشَائِبِ
بُنُو عَمَّةٍ دُنْيَا وَعَمْرُو بْنُ عَامِرٍ أَوْلَيْكَ قَوْمٌ بِأَسْهُمٍ غَيْرُ كَاذِبِ

مدحنته
للحارث
الجفني

إِذَا مَاغَزَوْا بِالْجَيْشِ حَلَّقَ فَوْقَهُمْ
 يُصَاغَتُهُمْ حَتَّى يُغْرِنَ مُغَارَهُمْ
 جَوَائِحَ قَدْ أُيْقِنَ أَنَّ قَبِيلَهُ
 لَهْنٌ عَلَيْهِمْ عَادَةٌ قَدْ عَرَفْنَاهَا
 عَلَى عَارِفَاتٍ لِلطَّعْمَانِ عَوَائِسِ
 إِذَا اسْتُنزَلُوا عَنْهُنَّ لِلطَّعْمِ أَرْقَلُوا
 فَهُمْ يَتَسَاقَوْنَ الْمَنِيَّةَ بَيْنَهُمْ
 يَطِيرُ فُضَاضًا بَيْنَهَا كُلُّ قَوْنَسٍ
 وَلَا عَيْبَ فِيهِمْ غَيْرَ أَنَّ سُيُوفَهُمْ
 تُخَيَّرْنَ مِنْ أَرْمَانٍ يَوْمَ حَلِيمَةِ
 تَقْدُ السَّلُوقِ الْمُضَاعَفِ نَسْجُهُ
 بِضَرْبٍ يُزِيلُ الْهَامَ عَنْ سَكَنَاتِهِ
 لَهُمْ شِيْمَةٌ لَمْ يُعْطِهَا اللَّهُ غَيْرَهُمْ
 جَعَلَتْهُمْ ذَاتُ الْإِلَهِ وَدِينَهُمْ
 عَصَائِبُ طَيْرٍ تَهْتَدِي بِعَصَائِبِ
 مِنَ الضَّارِيَاتِ بِالدَّمَاءِ الدَّوَارِبِ (١)
 إِذَا مَا التَّقَى الْجَمْعَانِ أَوَّلُ غَالِبِ
 إِذَا عَرَّضَ الْخَطِيءُ فَوْقَ الْكَوَائِبِ (٢)
 بَيْنَ كَلُومٍ بَيْنَ دَامٍ وَجَالِبِ (٣)
 إِلَى الْمَوْتِ إِذْ قَالَ الْجَمَالَ الْمَصَائِبِ
 بِأَيْدِيهِمْ بِيضٌ رِقَاقُ الْمَضَارِبِ
 وَيَتَّبِعُهَا مِنْهُمْ فَرَّاشُ الْحَوَائِبِ (٤)
 بَيْنَ فُلُولٍ مِنْ قِرَاعِ الْكُتَائِبِ
 إِلَى الْيَوْمِ قَدْ جُرِّبْنَ كُلَّ التَّجَارِبِ
 وَتُوقَدُ بِالصَّفَاحِ نَارَ الْجُبَابِ (٥)
 وَطَعْنُ كَايَزَاغِ الْمَخَاضِ الضُّوَارِبِ (٦)
 مِنَ الْجُودِ وَالْأَخْلَامِ غَيْرُ عَوَازِبِ
 قَوِيمٌ فَمَا يَرُجُونَ خَيْرُ الْعَوَاقِبِ

- (١) الضاريات : المودات . الدوارب : من الدربة ، وهي الجرأة في الحرب .
 (٢) الخطي : الرمح . الكوائب : جمع كائبة ، وهي منسج السرج أمام القربوس .
 (٣) الكلوم : الجراح . الجالب : الذي قد يبس دمه .
 (٤) الفضاض : ما يفرق من الشيء عند الكسر . اقرونس : أعلى البيضة . الفرش :
 عظام الحوارج ، أو كل عظم رقيق . (٥) السلوقى : الدرع منسوب إلى بلدة
 بالروم . الصفاح : عراض الحجارة . الجباب : ذباب له شعاع بالليل .
 (٦) الهام : الرؤوس ، جمع هامة . السكنات : مواضع السكون والاستقرار .
 الايزاغ : دفع الناقة بيولها . المخاض : النوق الحوامل . الضوارب : التي تضرب برجلها
 إذا أرادها الفحل .

رِقَاقُ النِّعَالِ طَيِّبٌ حُجْرَاتُهُمْ يُحْيُونَ بِالرَّيْحَانِ يَوْمَ السَّبَاسِبِ (١)
 تُحْيِيهِمْ بِيضُ الْوَلَانِدِ بَيْنَهُمْ وَأُكْسِيَّةُ الْإِضْرِيحِ فَوْقَ الْمَشَاجِبِ (٢)
 يَصُونُونَ أَجْسَادًا قَدِيمًا نَعِيمًا بِمَخَالِصَةِ الْأُرْدَانِ خُضْرِ الْمَنَاكِبِ
 وَلَا يَحْسَبُونَ الْخَيْرَ لِأَشْرَ بَعْدَهُ وَلَا يَحْسَبُونَ الشَّرَّ ضَرْبَةَ لَازِبِ (٣)
 حَبَوْتُ بِهَا غَسَّانَ إِذْ كُنْتُ لَاحِقًا بِقَوْمِي وَإِذْ أُعِيْتُ عَلَى مَذَاهِبِي

وهذه قصيدة أخرى ، عدّها أبو زيد - صاحب الجمهرة - في المعلقات :

معلقته

عُوجُوا فَحْيُوا لِنَعْمِ دِمْنَةَ الدَّارِ مَاذَا تُحْيُونَ مِنْ نُؤْيٍ وَأَحْبَارِ
 ويقول فيها :

فَاشْتَعَجَمْتُ دَارُ نَعْمٍ مَا تُكَلِّمُنَا وَالدَّارُ لَوْ كَلَّمْتُنَا ذَاتُ أَخْبَارِ
 وَقَدْ أَرَانِي وَنَعْمًا لَاهِيَيْنِ مَعَ وَاللَّهْرِ وَالْعَيْشِ لَمْ يَهْمُ بِإِمْرَارِ

(١) الحجرات : الأوساط ، ويراد بطيها العفة . يوم السباسب : هو يوم السعائين أحد أعياد النصارى . (٢) الإضريح : الحزّ الأحمر . المشاجب : معالق الثياب في البيوت . اتخذ العرب ثيابهم من أوبار الابل وأشعارها ، ومن أصواف الغنم ومن الكتان والحرير الذين كانوا يجلبان من مصر والشام ، وكانت ثيابهم مختلفة في تفصيلها وألوانها : فلهم «الرداء» يلتقي على ظهورهم و«الإزار» يأترون به و«الشعار» يلي أجسادهم و«العباءات» يتلفعون بها و«الأقيسة» وهي الثياب ذات الجيوب و«الأردان» يظهرون بها . وكان أهل الحضر يفتنون في كسوتهم ، فالكاهن لا يلبس المصنغ ، والعراف لا يدع تدليل قيصبه وسحب ردائه ، والحكم لا يفارق الوبر ، والشاعر إذا أراد الهجاء دهن أحد شق رأسه وأرخى إزاره وانتعل نعلا واحدة ، وكان لحرائر النساء زيّ ، ولدوات الرايات زيّ ، واشتهر من ألوان ملابسهم البياض لملاءمته جوهم ، ولا يزال إلى الآن الغالب عليهم ، وقد حثت الفريضة على ارتدائه والتكفين فيه ، وبليه اللون الأصفر والمصر ، وهو الأحمر المصرب بياض ، وقد ورد في أشعار العرب ما يدل على اتخاذهم التصاوير والتقوش فيها فمن ذلك الرجل (فيه صورة رجل) والمرحل (فيه صورة رجل) وهكذا الخيل والسهم والمصلب والمضلع والمؤرنب . وكانوا يتوجون رءوسهم بالعمامات والعصائب ، يرخون فضلها من خلفهم ، أو يطوقون بها أحيانا عوارضهم وذقونهم . (٣) اللازب واللازم واحد ، والأول أفصح .

ثياب العرب

أَيَّامَ تُخْبِرُنِي بِنُعْمٍ وَأُخْبِرُهَا
لَوْلَا حَبَائِلُ مِنْ نُعْمٍ عَلَّقْتُ بِهَا
فَإِنْ أَفَاقَ لَقَدْ طَالَتْ عَمَائِتُهُ
نُبِّئْتُ نَعْمًا عَلَى الْهِجْرَانِ عَابَةً
ويقول فيها :

أَلْحَمَّةُ مِنْ سَنَا بَرَقَ رَأْيِ بَصْرِي
أَمْ وَجْهُ نُعْمٍ بَدَأَ لِي أَمْ سَنَا نَارِ
ثم يقول :

وَمَهْمُهُ نَارِ حِ تَعْوِي الذُّنَابُ بِهِ
جَاوَزَتْهُ بَعْلَنْدَاةٌ مُنَاقِسَةٌ
تَجْتَابُ أَرْضًا إِلَى أَرْضٍ بِنْدَى زَجَلٍ
نَأَى الْمِيَاهِ عَنِ الْوُرَادِ مِقْفَارِ^(١)
وَعَرَّ الطَّرِيقَ عَلَى الْأَحْزَانِ مِضْمَارِ^(٢)
مَاضٍ عَلَى الْهَوْلِ هَادٍ غَيْرِ مِجْمَارِ^(٣)

و بعد أن مضى في وصف الناقة ، وشبهها بالثور الوحشي ، عاد فوصف هذا
بالخوف من القانص ، واستطرد من ذلك إلى ذكر الصيد ، ووصف جوارحه
من الكلاب ، قال :

أَهْوَى لَهُ قَانِصٌ يَسْعَى بِأَكْلِهِ
مُخَالِفٌ الصَّيْدَ هَبَّاشٌ لَهُ لَحْمٌ
يَسْعَى بَغُضْفٍ بَرَاهَا فَهَى طَاوِيَةٌ
حَتَّى إِذَا الثَّوْرُ بَعْدَ النَّفْرِ أَمَكَنَهُ
عَارِي الْأَشَاجِعِ مِنْ قُنَاصِ أُنْمَارِ^(٤)
مَا إِنْ عَلَيْهِ ثِيَابٌ غَيْرُ أَطْمَارِ^(٥)
طَوَّلُ ارْتِحَالٍ بِهَا مِنْهُ وَتَسْيَارِ^(٦)
أَشْلَى وَأَرْسَلَ غُضْفًا كُلَّهَا ضَارِ^(٧)

وصفه
لكلاب
الصيد

(١) المهمة : المفازة البعيدة . (٢) العلنداة : الفليضة ، وهو صفة لناقته . الأحزان : جمع حزن ، وهو من الأرض ضد السهل . (٣) تجماب : تقطع . الزجل : رفع الصوت .
(٤) الأشاجع : أصول الأصابع التي تتصل بعصب ظاهر الكف ، الواحد كأحد وأصبع . (٥) الهباش : ككتان الكسوب الجموع . اللحم : الأكل للحم
القرم ، الفعل ككرم وعلم . (٦) الغضف : المسترخيات الأذان ، الواحد أغضف
وغضفاء . (٧) النفر : السرعة والتباعد . أشلى : أغرى وأصله أن ترى الدابة الخلاة
لتأني إليك . الضاري : التعود الاقتراس .

فَكَرَّ مَحْمِيَّةً مِنْ أَنْ يَفِرَّ كَمَا كَرَّ الْمُحَابِي حِفَاظًا خَشِيَّةً الْعَارِ
ثم خُص من هذا ، إلى النصح لقومه والتحذير لهم من النعمان ، والاعتداد
بالخوف منه والانتفاء من العار من خشيته ، إذ يقول :

لَقَدْ نَهَيْتُ بَنِي ذُبْيَانَ عَنْ أَقْرِ^(١) وَعَنْ تَرْبُعِهِمْ فِي كُلِّ أَصْفَارِ^(٢)
فَقُلْتُ يَا قَوْمِ إِنَّ اللَّيْثَ مُنْقَبِضٌ عَلَى بَرَائِثِهِ لِلْوَثْبَةِ الضَّارِي
إلى أن يقول :

وَعَيَّرْتَنِي بَنُو ذُبْيَانَ خَشِيَّتَهُ وَهَلْ عَلَى بَأْسِ أَخْشَاكَ مِنْ عَارِ !
فأنت ترى أنه جرى على ما صار من بسنن الشعر قبله ، من تحية الأطلال ،
وابستخار الرسوم ، والإيلام بالمرأة ، والإتيان بذلك النوع الطريف من تجاهل
العارف في قوله « ألحمة من سنا برق . . . البيت »

واقترض إلى وصف الناقة والصيد وكلاب القانص في أسلوب قوى وقافية
متدفقة ، ثم انتهى إلى حيث علمت من النصح والتجذير ، أو إلى ذلك النوع
من الحكومة في قومه والسيادة عليهم ، وختم القصيدة بهذا البيت الظاهر البراعة
في توريث النعمان واختداعه بقوله « وهل على بَأْسِ أَخْشَاكَ مِنْ عَارِ ! »
وهذا مثل آخر من شعره ، ستجد فيه من أثر التنصل كثيراً من الأبيات
المفردة ، وشيئاً من المعاني المحترعة التي تمثلها الشعراء من بعد ، وهي نعمانية
أيضاً قال :

يَا دَارِمِيَّةَ بِالْعِلْيَاءِ فَالْبَسْنَدِ^(٣) أَقْوَتْ وَطَالَ عَلَيْهَا سَالِفُ الْأَمَدِ^(٢)
وَقَفْتُ فِيهَا أَصِيلَانًا أُسَائِلُهَا^(٣) حَيَّتْ جَوَابًا وَمَا بِالرَّبْعِ مِنْ أَحَدِ^(٣)

اعتنانه
للنعمان

(١) أقر بضمين : واد واسع مملوء حمضاً ومياها ، وكان النعمان يحميه . الأصفار :
جمع صفر وهو الشهر . (٢) السند : ما يقابلك من الجبل وفوق السفح . أنوت :
أنفرت وخلصت . الأمد : الدهر . (٣) أصيلاناً : تصغير أصلان وهو اسم من الأصيل ،
وليس جماله كالنجلان والغنران . عيت : عجزت عن الجواب .

إِلَّا الْأَوَارِيَّ لَأَيًّا مَا أُبَيِّنُهَا . وَالنُّؤْيَى كَالْحَوْضِ بِالْمَظْلُومَةِ الْجَلْدِ (١)
ثم ترك هذا ، وذهب يصف الناقة والصيد والكلاب ، كما فعل في رأيته
السابقة قال :

فَمَدَّ عَمَا تَرَى إِذْ لَا ارْتِجَاعَ لَهُ . وَأَنْتُمْ الْقُتُودَ عَلَى عَيْرَانَةٍ أُجْدِ (٢)
مَقْدُوفَةٍ بِدَخِيسِ النَّحْضِ بَارِئُهَا . لَهُ صَرِيْفٌ صَرِيْفُ الْقَعْوِ بِالْمَسَدِ (٣)
كَأَنَّ رَحْلِي وَقَدْ زَالَ النَّهَارُ بِنَا . يَوْمَ الْجَلِيلِ عَلَى مُسْتَأْنِسٍ وَحَدِ (٤)
مِنْ وَحْشٍ وَجُرَّةٍ مَوْشَى أَكَارِعُهُ . طَاوِي الْمَصِيرِ كَسَيْفِ الصَّيْقَلِ الْفَرْدِ (٥)

ثم خلع منه إلى النعمان إذ يقول :

فَتَلَكَّ تُبْلَغُنِي النُّعْمَانَ إِنْ لَهُ . فَضَلَّ عَلَى النَّاسِ فِي الْأَدْنَى وَفِي الْبُعْدِ
وَلَا أَرَى فَاعِلًا فِي النَّاسِ يُشْبِهُهُ . وَمَا أُحَاشِي مِنَ الْأَقْوَامِ مِنْ أَحَدٍ
إِلَّا سُلَيْمَانَ إِذْ قَالَ الْإِلَهُ لَهُ . قُمْ فِي الْبَرِّيَّةِ فَاحْدُدْهَا عَنِ الْفَنَدِ (٦)
حتى قال :

مديحه
للنعمان .

- (١) الأوارى : جمع آرية وهي الآخية التي تشد بها الدابة ، وقال الخليل إنها الملقب .
اللاى : الجهد والشدة . النؤى : الحنيرة حول البيت والحيمة تمنع المطر والسيل . الجلد :
الأرض التي يصعب حفرها . (٢) عد : انصرف وترك . انم : بألف موصلة ، ارفع
واعل . القنود : جمع قند وهو خشب الرحل . العيرانة : الصلبة الحوافر ، شبهها بالعير في
ذلك . الأجد : الموثقة الخاق . (٣) مقذوفة : مرمية . الدخيس : الكثير المكتنز .
النحض : اللحم . الصريف : صوت احتكاك الأنياب . القعو : محور بكر البئر . المسد :
الحبل من الليف . أو القعو هو البكرة . والسد : المحور الذي تدور عليه .
(٤) الجليل : موضع ينبت الثمام كغراب . المستأنس : الوحشى الذي زال توحشه ، أو الذي
أحس إنسيا وهو المراد هنا . الوحد : بفتح الحاء وكسرهما المنفرد ، يصف بذلك ثوراً وحشياً .
(٥) وجرة : موضع بين مكة والبصرة ليس به منزل ، مشهور بكثرة وحشه وفراسته .
الموشى : الزين أو المنقط . الأكارع : القوائم جمع كراع كغراب ، أو مستدق الساق بمنزلة
الوظيف من الفرس . المصير : كماير المي جمع أمصرة ومصران . الفرد : المنرد من الفهد
وبه أراد المسؤل . (٦) الحد : المنع . الفتد : الكذب والباطل .

الواهبُ المِائَةَ المعكأ زَيْنَهَا . سَعْدَانُ تُوضِحُ فِي أَوْ بَارَهَا اللَّبَدُ (١)
وَالرَّاكضَاتِ ذِيولَ الرِّيطِ فَفَنَقَهَا بِرُودِ الهَوَاجِرِ كَالغَزَلَانِ بِالجَرَدِ (٢)
وَالخَيْلُ تَمزَعُ غَرَبًا فِي أَعْنَتِهَا كَالطَّيْرِ تَنْزِجُ مِنَ الشُّؤْبُوبِ ذِي البَرَدِ (٣)

ثم ذكر الحمام وحكم فتاة الحى في عِدَّتِهِ ، مشيراً إلى حديث لاندري مبلغه
من الصحة ، وبعد ذلك قال :

فلا لعمرُ الذى مَسَّحَتْ كَعْبَتَهُ وَالمُؤْمِنِ العَائِدَاتِ الطَّيْرِ تَمَسَّحُهَا
وما هُرِيْقُ عَلَى الأَنْصَابِ مِنْ جَسَدِ (٤)
رُكْبَانُ مَكَّةَ بَيْنَ الغَيْلِ وَالشُّعْدِ (٥)
إِذَا فَلَا رَفَعَتْ سَوَطِي إِلَى يَدِي
مَا قَلْتُ مِنْ سَيِّءٍ مِمَّا أُتَيْتَ بِهِ
قَرَّتْ بِهَا عَيْنٌ مِنْ يَأْتِيكَ بِالْحَسَدِ
إِذَا فَعَاقَبَنِي رَبِّي مُعَاقِبَةً
وَلَا قَرَارَ عَلَى زَأْرِ مِنَ الأَسَدِ
مَهَلًا فِدَاءً لَكَ الأَقْوَامُ كُكَاهُمُ
وما أُتْمِرُ مِنْ مَالٍ وَمِنْ وَآدِ
ثم يقول :

حسن تنصلي

فَمَا الفُرَاتُ إِذَا هَبَّ الرِّيحُ لَهُ تَرْمِي أَوَازِيَهُ العِبْرِينَ بِالزَّبَدِ (٦)
يَظَلُّ مِنْ خَوْفِهِ المَلَّاحُ مُعْتَصِماً بِالخَيْزُرَانَةِ بَعْدَ الأَيْنِ وَالنَّجْدِ (٧)

- (١) المعكأ : الغلاظ الشداد يوصف به الواحد والكثير . السعدان : نبات تسمن عليه الإبل . توضح : موضع ، وقيل كان مرعى لإبل الملوك .
(٢) الراكضات : ويروى الساحبات وهن الجوارى . الريط : جمع ريطه وهى الملاءة ، فنقها : فنقها . الهواجر : واحدها هاجرة وهى شدة الحر . الجرد : الأرض الفضاء .
(٣) تمزع : تمرّ مرّاً سريعاً . الغرب : الجدد والنشاط . الشؤبوب : المطر المتدافع الشديد . (٤) هريق : صب . الأنصاب : جمع نصب وهى الحجارة التى كانوا ينصبونها حول الكعبة وينبجون لها . الجسد : الزعفران والدم وهو المراد هنا .
(٥) العائدات : اللاجئات أو الحديثات الولادة والطيير بدل منها . الغيل : بفتح الغين الماء ، وبالكسر الغيضة أو الشجر الملتف . السعد : قال أبو عبيدة و الغيل والسعد أجتان كاتنا مناقع ما بين مكة ومنى . (٦) الأواذى : جمع آذى وهو الموج الشديد . العبرين : واحده عبر وهو الناحية . (٧) الخيزرانة : سكان السفينة . الأين : الأعياء . النجد : العرق والكرب .

يَوْمًا بِأَجْوَدَ مِنْهُ سَيْبَ نَافِلَةٍ وَلَا يَحُولُ عَطَاءَ الْيَوْمِ دُونَ غَدٍ
هَذَا الثَّنَاءُ فَإِنْ تَسَمَّعَ بِهِ حَسَنًا فَلَمْ أُعَرِّضْ أُبَيَّتَ اللَّعْنَ بِالصَّفَدِ (١)

ولا نستطيع أن نشرح هذا الكلام كلمة كلمة وبيتاً بيتاً ، وإنما نكلّم إلى ما قدمناه من قوانين النقد للفظ والمعنى وللأسلوب ، فإنكم ستحسون بما في هذا الشعر في جماته من اطراد النسق وقوة السياق وجزالة اللفظ ، ومن أبرع هذه المعاني وأعجبها قوله « ولا قرار على زار من الأسد » ولن نجد في وصف الخوف ، وما يركب النفوس من الدهش والذعر مثل هذا .

وقد يكون قوله « فلم أُعَرِّضْ أُبَيَّتَ اللَّعْنَ بِالصَّفَدِ » ومعناها خلوص النية في المدح وانتفاؤه من أسباب الرغبة ، تصريحاً بليغاً بالحاجة إلى هذا الصنف والعطاء .

أما وصفه للمتجرّدة فيقول بعض الرواة إن النعمان هو الذي أراده عليه ، وكان يظن أنه لا يبعد فيه ولا يبلغ ، ومن الحق أن تكون الأبيات التي فيها ذكر للورة مدسوسة على النابغة وهي ليست في ديوانه ، ويؤخذ ذلك من تصريحه في بعض اعتذاراته في مثل قوله « ما قلت من بىء مما أتيت به » باعتبار أن هذا كان من أسباب غضبه عليه ، وكان الأصمعي لا يسندها ولكنه يحققها له وهما هي ذه :

قصيدته في
المتجرّدة

أَمِنْ آلِ مِيَّةٍ رَائِحٌ أَوْ مُعْتَدِي
عَجْلَانَ ذَا زَادٍ وَغَيْرِ مُزَوِّدٍ
أَفِدَ التَّرْحُلُ غَيْرَ أَنْ رِكَابَنَا
لَمَّا تَزَلْ بِرِحَالِنَا وَكَأَنَّ قَدَ (٢)
زَعَمَ الْبَوَارِحُ أَنْ رِحَلْتَنَا غَدَا
وَبَدَاكَ تَنْعَابُ الْغَرَابِ الْأَسْوَدِ (٣)
لَا مَرْحَبًا بَعْدٍ وَلَا أَهْلًا بِهِ
إِنْ كَانَ تَفْرِيقُ الْأَحِبَّةِ فِي غَدٍ
فِي إِثْرِ غَانِيَةٍ رَمَّتْكَ بِسَهْمِهَا
فَأَصَابَ قَلْبَكَ غَيْرَ أَنْ لَمْ تُقْصِدِ

(١) السيب والصنف : معناهما العطاء . (٢) أفد : ذنا وقرب . كأن قد : أى
وكان قد زالت . (٣) البوارح : ضدّ السواح يتشاؤم بها .

بالدَّرِّ والياقوتِ زِينَ نُحْرُهَا ومُفَصَّلٍ من لؤلؤٍ وزَبَرَجَدِ
 صَفْرَاءِ كالسَّيْرَاءِ أَكْمَلِ خَائِهَا كَأَمْضُنِ في غُلُوَانِهِ المُتَأَوِّدِ (١)
 مَخْطُوطَةُ التَّنِينِ غَيْرُ مُقَاضَةٍ رِيَا الرِّوَادِفِ بِيضَةُ المُنَجَّرِدِ
 قَامَتْ تَرَائِي بَيْنَ سَجْفَى كَلَّةٍ كالشَّمْسِ يَوْمَ طُلُوعِهَا بِالأَسْعَدِ (٢)
 أَوْ ذُرَّةٍ صَدْفِيَّةٍ غَوَاصُهَا بِهَيْجٍ مَتَى يَرَاهَا يَهْلُ وَيَسْجُدِ
 أَوْ دُمِيَّةٍ من مَرْمَرٍ مَرْفُوعَةٍ بُنِيَّتِ بِأَجْرٍ يُشَادُ بِقَرْمَدِ (٣)
 سَقَطَ النِّصِيفُ ولم تُرَدِّ إِسْقَاطَهُ فَتَنَاولَتْهُ وَاتَّقَنَّا بِالْيَدِ (٤)
 بِمُخَضَّبِ رَخِصٍ كَانَ بَنَانَهُ عَنَّمْ عَلَى أَغْصَانِهِ لم يُعْقَدِ (٥)
 نَظَرْتُ إِلَيْكَ بِحَاجَةٍ لم تَقْضِهَا نَظَرَ السَّقِيمِ إِلَى وُجُوهِ العُودِ
 تَجَلَّوْا بِقَادِمَتِي حَمَامَةَ أَيُّكَةِ بَرَدًا أُسِفٌ لِثَاتُهُ بِالإِئْمَدِ (٦)
 كَالأَقْحُوانِ غَدَاةً غِيبٌ سَمَائِهِ جَفَّتْ أَعَالِيهِ وَأَسْفَلُهُ نَدِ
 لَوْ أَنَّهَا عَرَضَتْ لِأَشْمَطِ رَاهِبٍ عَبَدَ الإِلَهَ صَرُورَةَ المُنْعَبِدِ (٧)
 لَرْنَا لِرُؤُوتِهَا وَحُسْنِ حَدِيثِهَا وَنَحَالَهُ رَشْدًا وَإِنْ لَمْ يَرْشُدِ

زينة المرأة
وجالها ودلها

وأتم ترون أيضاً أن هذه القصيدة من شعر النابغة الذي وصفناه لكم بما
 أسلفناه من أشعاره السابقة .

- (١) السراء : ثوب من حرير فيه خطوط . غلواء الغصن : امتداده وطوله . المتأود :
 الشيء من اللين والنعمة : (٢) السجف : بفتح أوله والكسر : الستر الرقيق المشقوق
 الوسط . الكلاة : غشاء رقيق يتقي به البعوض . الأسعد : برج الحمل .
 (٣) الدمية : المثال أو الصورة من العاج . الرمر : الناعم المرتج . يشاد : يطلى بالشيء
 وهو الجص . القرمذ : الخزف المطبوخ .
 (٤) النصيف : الخمار ، وهو غطاء الرأس والوجه .
 (٥) العنم : تمر دقيق مستطيل أحمر يشبه أطراف الأصابع .
 (٦) الأيكة : الأراكمة شجرة تتخذ منها المساويك . أسف : بالسين أى خلط ودهن .
 اللثات : جمع لثة وهي مغرز الأسنان في اللحم . الإئمد : نخيزر يكتحل به وهو بكسر الهمزة
 (وبفتحها اسم موضع) . (٧) رجل صرور وصرورة : لم يحج أو لم يتزوج .

ومن مدائح النعمان واعتذاراته البليغة قصيدته التي مطلعها :
أتاني أبيت الآمن أنك لمتني وتلك التي أهتم منها وأنصب
وقد كرر هذا البيت بعينه في قصيدته التي أولها :
عفا ذو حسا من قرتنا فالقوارع^(١) فجنبنا أريك فالتلاع الدوافع^(٢)
يقول :

أتاني أبيت اللعن أنك لمتني وتلك التي تستك منها المسامع^(٣)

ومن الأولى يقول في المقايسة والإدلاء بالحجة والعدر القاطع

لئن تك قد بلغت عني خيانة
ولكنني كنت أمرا لي جانب
ملوك وإخوان إذا ما أتيتهم
كفعلك في قوم أراك اضطنعتهم
فلا تتركني بالوعيد كأنني
لم تر أن الله أعطاك سورة
فإنك شمس والملوك كواكب
ولست بمستبق أحبا لآله
لمباغك الواشي أغش وأكذب
من الأرض فيه مستراد^(٣) ومذهب
أحكم في أموالهم وأقرب
فلم ترهم في شكر ذلك أذنبوا
إلى الناس مطلي به القار أجرب
ترى كل ملك دونها يتذبذب
إذا طلعت لم يبد منهن كوكب
على شعبي أي الرجال المهذب

مدح
للنعمان
واحتجابه
لنفسه

ومن الثانية يقول بعد بيته السابق :

فبت كأني ساورتني ضئيلة
يسهد من ليل التمام سليمها
من الرقش في أنيامها السم نافع^(٤)
لحلي النساء في يديه قماقع^(٥)

(١) عفا : تغير . حسا : كإلى موضع . فرتنا : اسم امرأة . القوارع : أعلى الجبل أو مكان

بعينه . جنبنا أريك : موضع . التلاع : جمع تلة ، وهي مسيل الماء .

(٢) تستك : تضيق وتضم . (٣) مستراد : إقبال وإدبار .

(٤) ساورتني : نازلتني . الضئيلة : الحية . الرقش : جمع رقشاء أي مغطاة بسواد وبياض .

(٥) يسهد : يورق ويمنع النوم . ليل التمام : أطول ليالي الشتاء . السليم : اللديغ وسمى

بذلك تباؤلا ، وكانوا يرقونه بوضع الحلي في يديه .

فَإِنْ كُنْتَ لَأَذَا الضُّغْنِ عَنِّي مُنْكَلًّا وَلَا خَلْفِي عِنْدَ الْبَرَاءَةِ نَافِعُ
فَإِنَّكَ كَاللَّيْلِ الَّذِي هُوَ مُدْرِكِي وَإِنْ خِلْتَ أَنَّ الْمُنْتَأَى عَنكَ وَاسِعُ
خَطَاطِيفُ حُجْنٍ فِي حِبَالِ مَتِينَةٍ تَمُدُّ بِهَا أَيْدِي إِيْلَيْكَ نَوَازِعُ (١)

ويعد من أعجبها وأعلاها ما اشتمل عليه قوله :

نُبِّتُ أَنْ أَبَا قَابُوسَ أَوْعَدَنِي وَلَا قَرَارَ عَلَى زَارٍ مِنَ الْأَسَدِ
وقد تمثل به الحجاج حين غضب عليه عبد الملك بن مروان وأراد عزله ،
ومنها قوله :

فَلَوْ كَفَى الْيَمِينُ بَعْتِكَ حَوْنًا لِأَفْرَدْتُ الْيَمِينَ مِنَ الشَّمَالِ

وهو من أوائل النابغة ، أخذه المثقب العبدى فقال من نوبته :

وَلَوْ أَنِّي تُخَالَفُنِي شِمَالِي بِنَصْرِ لَمْ تُصَاحِبْهَا يَمِينِي

وقوله أيضاً :

فَحَمَلْتَنِي ذَنْبَ امْرِئٍ وَتَرَكَتَهُ كَذِي الْعُرْيُكُوسِ غَيْرُهُ وَهُوَ رَاتِعُ

وهي من أدل الكلام على الحدق في لطف التنصّل بتوجيه النفس إلى تلك

الحالة الغريبة الممثلة لهذا النوع من الظلم ، وقد أخذه الكميّ إذ يقول :

وَلَا أَكُوسِي الصُّحَّاحَ بِرَاتِعَاتِ بَيْنَ الْعُرْيِ قَبْلِي مَا كُورِنَا

وبيت النابغة أعلى ولفظه أجل ، وقوله :

وَاسْتَبَقِي وَذَلِكَ لِلصَّدِيقِ وَلَا تَكُنْ قَتْبًا يَعْضُ بِغَارِبِ مِلْحَاحَا

أخذه ابن ميادة فقال :

مَا أَنْ أُيْلِحَ عَلَى الْإِخْوَانِ أَسْأَلُهُمْ كَمَا يُلِحُّ بِعَضِّ الْغَارِبِ الْقَتْبُ

أما قوله « فإنك كالليل ... البيت » فقد أشرنا فيما سبق إلى معناه ،

واختصاصه بالنابغة ، وقد جعله من إحدى مفاخره الشعرية حين رده به على

(١) الحجن : الموجة واحدها أوجن وحجاء . نوازع : جواذب .

معانيه
التنازعة
وكلماته
المأخوذة

حسان في عكاظ ، إذ قال له : يا بني إنك لا تحسن أن تقول . وأنشده البيت
استعظاما لمعناه أن تلذه قرائح الشعراء . ومن أبياته التي لا نظير لها في اللفظ
والمعنى ، والتي تستغنى بشرط البيت فيها ، بل وبعض الشطر ، فيتجلى لك ما فيه
من الحكمة والموعظة الحسنة ، قوله :

ولست بمسّبق أخا لا تلمه على شعث أي الرجال المهذب

ومما سبق إليه قوله في صفة فتور الطرف :

نظرت إليك بحاجة لم تقضها نظر السقيم إلى وجوه العود

وقد تنازعه الشعراء بعده وأحسن فيه أبو نواس إذ يقول :

ضعيفة كثر الطرف تحسب أنها قريبة عهد بالإفاقة من سقم

ومما أخذ من قوله « لو أنها عرضت . . . البيتين »

أخذها بأكثر ألفاظهما أحد شعراء ضبة وهو ربيعة بن مكرم ، قال :

لو أنها عرضت لأشمط راهب في رأس مشرفة الدرى يتبتل

لرنا لبهجتها وحسن حديثها ولهم من ناموسه يتنزّل

هذه بعض آثار النابغة على الشعر ، وذلك بعض ما بلغ من التأثير في

الشعراء ، وقد أشرنا في أول الكلام على شعره ، إلى مقدار تأثيره هو بالذين

سبقوه وكانوا بمنزلة الأساتذة له .

إفراطه في
المبالغة

وقد يؤخذ عليه إفراطه في المبالغة في وصف العنق بالطول إذ يقول :

إذا ارتفعت خاف الجبان رعاها ومن يتعلق حيث علق يفرق

وقوله من هذا الوجه أيضاً في صفة السيوف :

تقد السلوق المضاعف نسبجه وثوقد بالصفاح نار الحباب

فقد زعم أنها تقطع الدرع المضاعف والفارس والفرس ثم تغادرها إلى

الحجارة فتقدح منها الشرر ، وسماجة اللفظ وكراهة الفصل في قوله

« مِنْ الضَّارِيَاتِ بِالدَّمَاءِ الدَّوَارِبِ » وَتُؤْخَذُ عَلَيْهِ مِنْهُ عَلَى النِّعْمَانِ بِمَدْحِهِ إِيَّاهُ -
فِي قَوْلِهِ :

وَكُنْتُ أَمْرًا لَا أَمْدَحُ الدَّهْرَ سُوْقَةً فَلَسْتُ عَلَى خَيْرِ أَتَاكَ بِجَاسِدٍ

قتراه. قد امتن عليه بمدحه إياه ، وجعله خيراً أتاه ، لا يحسده عليه ، وإنما
يحسن الثناء إذا كان خالصاً من كدر المن .

ومما سبق إليه ولم يحسن تشبيهه ، الثور في بياضه والتماعه بالسيف المجرد
من الغمد ، في قوله :

مِنْ وَحْشٍ وَجَرَّةٍ مَوْشِيٍّ أَكْرِعُهُ طَاوِي الْمَصِيرِ كَسَيْفِ الصَّيْقَلِ الْفَرْدِ

موازنة بينه
وبين الطرماع

وقالوا ولم تسمع كلمة الفرد إلا في هذا وقد أحسن فيه الطرماع إذ يقول :

يَبْدُو وَتُضْمِرُهُ الْبِلَادُ كَأَنَّهُ سَيْفٌ عَلَى شَرَفٍ يُسَلُّ وَيُعْمَدُ

وهذا أكل في التشبيه لدلالته على الظهور والاختفاء ، المأخوذ من
حركات هذا الثور الوحشي .

وكان في شعره الإقواء وهو اختلاف إعراب القافية كقوله في قصيدة
المتجردة :

الاقواء
في شعره

زَعَمَ الْبَوَارِحُ أَنْ رِحَلْتَنَا غَدًا وَبِذَاكَ خَبَرْنَا الْغَرَابُ الْأَسْوَدُ

وقوله :

بِمُخْضَبٍ رَخِصٍ كَأَنَّ بِنَانَهُ عَمَّ يَكَادُ مِنَ اللَّطَافَةِ يُعْقَدُ

وقد هاب الناس أن يخبروه بهذا العيب فدمسوا له قينة حجازية غنته بهذه
الآبيات وأطالت من قوافيها حتى فطن من نفسه لهذا العيب وأصلحه بما
ذكرناه لكم . وكان يقول « دخلت يثرب وفي شعري بعض العاهة ، ثم خرجت
حنياً وأنا أشعر الناس » .

وبعد فأنت تستطيع أن تعرف صدق ما شرحناه لك من وصف شعر
النايعة من حيث الديباجة والاستواء ، وليس ذلك بمجيب فهو كما يقولون من
« عبيد الشعر » الذين انحروا عليه بالتهذيب ، طمعا في غصاير النعمان ورغبة في
حبا آل جفنة من ملوك غسان ، ولذلك يقولون « إنه كان شريفاً غص منه الشعر
باتخاذ إياه أداة للكسب » وهو زياد بن معاوية ويلقب بالنايعة قيل لنبوغه في
الشعر فجاء وقيل لقوله « فقد نبغت لنا منهم شؤون » ويكنى أبا أمامة وهو من
أشراف ذبيان إحدى قبائل قيس عيلان من مضر ، والله أعلم .

لسبه
في ذبيان

٣ - زهير

كان طبيعياً أن تكون هذه الجاهلية المتأخرة ، مظهراً لطلائع نهضة عامة
تتناول الاجتماع واللغة والشعر ، بسبب العوامل الكثيرة التي اختلفت في أزمان
متعاقبة على ضروب هذا الإصلاح ، ولا ريب أن زهيراً والذين معه كالنايعة
والأعشى وغيرهم من شعراء هذه الحلة ، قد تأثروا بهذه الثقافة وتمثلوا تلك
المذاهب ، وأتاحت لهم فرصة التأخر في العصر أن يتمقبوا على الأوائل ،
وأن لا يكتفوا بالعفو من الخاطر دون إرهاب الفكر ، وإعمال الروية ، وطول
الأناة ، والذمار في تجويد هذه الصناعة ، ولم يكن لهم محيص عن الاتصال بأثار
الأمم القديمة ، وشيء من ذلك غير قليل كان تسرب منذ حين إلى الجزيرة
العربية ، وكذا لم يكن لأحد منهم يد عن الرواية لشاعر ، والاحتذاء على
طريقته . فزاد ذلك في ثقافتهم وبلغ بهم إلى هذه الغاية من الإحسان والشهرة ،
ويتحدث الرواة أن زهيراً كان راوية لأوس بن حجر ، وهو زوج أمه ،
وكان يصطنع مذهبه في تمثيل مظاهر البرية العربية فيما يتناول الشعر من التشبيه
والوصف ، وإن كان ذلك في الجملة شأن الشعر القديم كله ، لم يختص به شاعر
دون سواه ، وكذلك كان يتأدب بأدب خاله أو خال أبيه بشامة بن الغدير وهو

نشأته. تأثره
بالتنهضة
الأخيرة

بشامة بن
الغدير
وزهير

من سادة غطفان ، وكان مقعداً كثير المال ، ولم يكن له ولد ، وكانت غطفان تعظمه وتستشيريه ، وتعرف حزمه وحكمته ، وإلى ذلك ما كان يوصف به زهير من الغنى والعفاف والحلم ، ومن شأن هذه التربية المزوجة بمثل تلك الأوصاف أن يتصل أثرها بمذهبه الشعري وأن يكون جديراً - كما يصفه الرواة - بالبعد من السخف والتزهد عن الفضول ،

أثر زهير
في النهضة

وإذا لقد تأثر زهير بهذه النهضة ، ولكنه من جانبه أيضاً قد أثر فيها ، فهم يذكرون أنه كان - كالنابغة - من « عبيد الشعر » ويضيفون إليه تلك القصائد المسماة بالحوليات ، وظاهر من هذا أنه كان إلى طبيعته الفنية ، صانعاً مصلحاً ، لا يعبأ بالحول كله يذهب وهو يحادث كلامه بالصقال ويعاوده بالتمذيب والإصلاح ، ليضع لنفسه من هذا النسق التقى في صدر ذلك الأدب حلية ناصعة ، يزداد بها بهاء وخصباً ويكتسب روتقا وقبولاً .

ومهما يكن من شيء فقد أضاف إلى معاني الجاهليين هذه الأمثال والحكم الشعرية ، التي اشتهر بها كما اشتهر النابغة مثلاً بالاعتذار ، وابن العبد بوصف الإبل ، وابن كثوم بالفخر ، وليس معنى ذلك أن أحداً من أولئك الفحول لم يقل الحكمة أو يضرب المثل ، وإنما هو كالذي تقول من أنه لم يشتهر أحد من هؤلاء بالإكثار من هذه المذاهب ، كما اشتهر زهير ، وإذا كان زهير - من غير شك - عاملاً آخر من عوامل هذه النهضة ، التي كانت في ذلك الوقت تزداد نمواً ونشاطاً واستعداداً صحيحاً ، لاستقبال عصر انغوى جديد هو عصر الإسلام . ولنعرض بعد لدراسة شيء من شعر زهير بمقدار ما يوشك أن يكون دليلاً على صدق ما يثبته له الرواة من وصف خاص ، أو مذهب مشترك .

شعره

وهم يعدونه من شعراء الطبقة الأولى ، ويضعونه مع النابغة وامرئ القيس ، ويختلفون فيما بينهم في تقديم أحد الثلاثة على الآخر ، ولهم في ذلك آراء لا تكاد تهض بنجحة على دعوى ، لعدم ابتناء الموازنة فيها على جهة من النظر واحدة .

ويقول ابن سلام الجمحي « إن من يقدم زهيرا ، يحتج بأنه كان أحسنهم شعراً ،
وأبعدهم من سخف ، وأجمعهم للكثير من المعنى في القليل من اللفظ ، وأشدهم
مبالغة في المدح ، وأكثرهم أمثالا في شعره » ويروون عن عمر بن الخطاب
رضي الله عنه أنه كان يقدمه يقول « لأنه كان لا يعاقل في المنطق ، ولا يتبع
الغريب الحوشي ، ولا يقول إلا ما يعرف . ولم يمدح أحداً إلا بما فيه » ويتمثل
ببيته الآتية :

إِذَا ابْتَدَرْتُ قَيْسُ بْنُ عَيْلَانَ غَايَةً مِنْ الْمَجْدِ مَنْ يَسْبِقُ إِلَيْهَا يُسَوِّدُ
سَبَقَتْ إِلَيْهَا كُلُّ طَلْقٍ مُبَرِّزٍ سَبُوقٍ إِلَى الْغَايَاتِ غَيْرِ مَزُنْدٍ

وقد رأيتم فيما سبق أن عمر قدم النابغة أيضاً لقوله « إلا سليمان إذ قال
الإله له . . البيت » وقوله « حلفت فلم أترك لنفسك ريبة . . البيت » .
وتحدث الأحنف عند معاوية فقدمه أيضاً قال : لأنه ألقى عن المادحين
فضول الكلام حيث يقول :

وَمَا يَكُ مِنْ خَيْرٍ أَتَوْهُ فَإِنَّمَا تَوَارَتْهُ آبَاءُ آبَائِهِمْ قَبْلُ

وأتم ترويض أن هذا التقديم والتأخير ، إنما كان في الغالب متأثراً بميل
خاص إلى ضرب بعينه من الكلام ، وإنما تقع الموازنة بين شاعرين موقعها
من الصواب ، حين تضعهما معاً على ميزان التقدير والنقد ، فتلمّ بجملة شعرها
وتفصيله ، وتقص أثرهما فيما سلكا من غرض ، وما أصابا من صواب أو خطأ ،
وما اخترعا من تشبيه أو ابتدعا من فكرة أو صوراً من حكمة أو فضيلة ، على
أنه بعد ذلك كله قد يكون أحدهما سابقاً مخترعاً والآخر تالياً تابعا ، وبينهما
فضل ما بين نظيريهما في قول الشاعر :

ولكن بكت قبلي فهاج لي البكا بكها فقلت الفضل للمتقدم

وقد تقرأ ديوان زهير فيما صح له عن ثقات الرواة ، فقلها تراه أفاض في
غير المدح والوصف والحكمة والمثل ، وإن كان لا بد له - كما تقدم - من بث

شهادة
الأحنف عند
معاوية له

الأغراض
الغالبية على
شعره

العذر وتقديم الوعيد والتعرض لما كان يكره من الهجاء أحياناً . ولا ينبغي أن يكون القول بأن زهيراً كان شديد المبالغة في المدح محمولا على أنه كان يصنع صنيع المتأخرين من تعريض المدوح للسخرية بالصفة الباطلة والمدح الكاذب في وصفه ، بأنه أهول من الزمان وأعظم من السماء وأقدر من القدر المتاح ، وإنما هو القصد إلى الإكثار من المدح والاستيعاب لأوصاف المدوحين ، ولو وقع له ما ينبغي ألا يكون من الأوصاف المبنية على الادعاء الباطل ، صرح بعدم إمكانه ، وصدر في قوله ما يخفف موقعه ويلزم النفوس قبوله مثل قوله :

وَلَوْ أَنَّ حَمْدًا يُخْلِدُ النَّاسَ أَخْلَدُوا وَلَكِنَّ حَمْدَ لَرَّءٍ لَيْسَ بِمُخْلِدٍ

وقوله :

لو كان يقعدُ فوق الشمس من كرم قرمٌ بأولهم أو مجدهم قعدوا
ويتصل شعره بمظاهر البادية اتصالاً فيه تصوير لطباع الأشياء ، قريب
الانزياح لطيف الموقع ، يكاد البيت والأبيات منه يعطيك صورة واضحة لما يتعاطاه
من وصف طلل أو مرتع وحش ، أو ارتحال ظعينة أو ما مائل ذلك .
وكان مخصوصاً بآل أبي حارثة المري ، مداحا لهم وخاصة هرم بن سنان
الجواد المشهور ، وأول ما عرف من مدحه له ولصاحبه الحارث بن عوف المري
ميمية المعلقة ، وكان الذي دعا زهيراً إلى مدحهما تلك المكرمة العظيمة التي قاما
فيها باحتمال ديات القتلى من حَيٍّ عَبَسَ وذبيان في حروب داحس والغبراء ،
وفيهما يقول بعد الطلع :

اتصال شعره
بالبادية

وَدَارٌ لَهَا بِالرَّقَمَيْنِ كَأَنَّهَا مَرَّاجِيعٌ مُوشِمٌ فِي نَوَاشِرٍ مِعْصَمٍ (١)
بِهَا الْعَيْنُ وَالْآرَامُ يَمْشِينَ خَلْفَهُ وَأَطْلَاؤُهَا يَنْهَضْنَ مِنْ كُلِّ مَجْمَمٍ (٢)

(١) مراجيع : جمع مرجوع وهو الذي أعيد سواده مرة أخرى . نواشر : عروق
باطن الذراع . (٢) العين : بقر الوحش . الآرام : جمع رثم وهو الظبي الحالمس البياض .
الأطلاء : جمع طلا وهو الولد من ذوات الظلف . المجمع : المربض .

وَقَفْتُ بِهَا مِنْ بَعْدِ عَشْرِينَ حِجَّةً فَلَأَيَّا عَرَفْتُ الدَّارَ بَعْدَ تَوَهُّمٍ -
 أَثَانِي سُنْعًا فِي مَعْرَسِ مِرْجَلٍ وَنَوِيًّا كَجِذْمِ الحَوْضِ لَمْ يَتَهَدَّمِ (١)
 فَلَمَّا عَرَفْتُ الدَّارَ قُلْتُ لِرَبِّهَا أَلَا أَنْعِمَ صَبَاحًا أَيُّهَا الرِّبْعُ وَأَسْلَمَ
 تَبَصَّرَ خَلِيلِي هَلْ تَرَى مِنْ ظَعَانٍ تَحْمَلْنَ بِالْعُلْيَاءِ مِنْ فَوْقِ جُرْشَمِ -
 عَلَوْنَ بَأَنْمَاطٍ عِتَاقِي وَكِلَّةٍ وَرَادِ حَوَاشِيهَا مُشَاكِهَةَ الدَّمِ (٢)
 وَفِيهِنَّ مَلْهُىً لِلصَّدِيقِ وَمَنْظَرَ أَنْيَقَ لِعَيْنِ النَّاطِرِ الْمُتَوَسِّمِ -

تشبيب
القصيدة:

وهنا نقف وقفة قصيرة ، نشرح ما ألم به الشاعر من تلك الصور
 والمناظر الطبيعية ، فهو يقول « ولها بالرقمتين دار » أى بينهما - وإحدى الرقمتين
 بالمدينة والأخرى بالبصرة .. (كأنها خطوط وشم في جوانب معصم) يريد أن
 ما بقى من آثار الديار في دقته وتواليه ، يشبه سطور الوشم التي كانت النساء
 يزينن بدقه على أيديهن ، وسترى أنه في هذا قد اتبع طريقة في قوله في هذه
 الصفة بعينها (تلوح كباقي الوشم في ظاهر اليد)

تحليل هذه
الآيات

ثم انتقل إلى هذه الصورة اللطيفة من قطعان البقر وأسراب الطباء ، هذه
 تجيء وتلك تذهب ، وحوها بنوها يقمن يتبعنها من مجاثمهن ألا ترى أنك الآن
 تشاهد بخيالك من هذا البيت ، منظر قطعة من البادية عليها هذه الصورة
 الطبيعية ، كأنك تراها بعينك ويمكنك أن تنقلها إلى إطار التصوير بريشتك ا
 ثم يقول إنه وقف من بعد دهر غير ، فبدأ عليه ما يبدو على المتردد المتفرس ، ثم
 أدركه ما يدرك العارف المتحقق من ألم الذكرى والحنين إلى القطين ، وللحالين
 مخيلة واضحة تبدو على الوجوه وتعرف في العيون .

(١) الأثاني : حجارة توضع القدر عليها . السفع : جمع أسفع وهو الأسود . المرس :
 موضع الرجل . النوى : حفيرة تخمر حول الحباء ، وقيل حاجز من تراب يرفع حوله لئلا
 يدخله الماء . الجذم : الأصل .

(٢) الأنماط : ضرب من الثياب يفرش على الهودج . مشاكهة : مشابهة .

ثم ذكر الأثافي وهي الحجارة التي تنصب عليها المراحل أو القدور ، والنوى وهو الحفير حول الخيمة يمنع المطر ، وشبه ذلك بأصل الحوض الذي ربما ذهب أعلاه وبقي ذلك الأصل لم يتهتم .

ثم أراد أن يشير في النفس حالة من الحزن يخونها الجلد على فراق الأحباب ، فرض هذه الصورة الشائقة من تحمل الطعام ، وتتبعهن في منازلهن بالعين ، حتى يغبن عن الأبصار ، وما تودعه هذه الحالة من الحسرة في النفوس . .

ثم ترك هذا الوجه من الكلام إلى غرضه من القصيدة قال :

سَعَى سَاعِيَا غَيْظِ بْنِ مُرَّةَ بَعْدَ مَا تَبَزَّلَ مَا بَيْنَ الْعَشِيرَةِ بِاللَّيْلِ
فَأَقْسَمْتُ بِالْبَيْتِ الَّذِي طَافَ حَوْلَهُ رِجَالُ بَنُوهِ مِنْ قُرَيْشٍ وَجُرْهُمُ
بِمِينًا لِنَعْمِ السَّيِّدَانِ وَجِدْتُمَا عَلَى كُلِّ حَالٍ مِنْ سَحِيلٍ وَمُبْرَمٍ (١)

مدح السيدين

ثم أخذ يصف ما في طبائع الناس من العجز عن الكتمان ، ومحاولة الإخفاء لما تتطامن عليه النفوس وتعلنه فلتات الألسنة ولحظات العيون ، وخرج من ذلك إلى وصف الحرب ، فطرحها أمام النظر في جملة صور ، فمرة جعلها سبباً يضرى بالفريسة ، وأخرى جعلها كالرحى تعرك ثفالها ، وأنها تحمل ثم تلد ذراري شوم ، ثم شبهها بالقرى العراقية متهاكاً ، وأنها تكسبهم ما يكسب أهل هذه القرى من القفيز والدرهم ، ثم تناول حالة المصر على الجريمة المتردد في الإقدام عليها والإحجام عنها ومحاولة إخفاء ما في نفسه ، ثم عاد فجعل ورد الحرب تلك الغمار السائلة بالدماء والرماح وصدورها ذلك الكلا الويل للوخيم قال :

إبلاغه في وصف الحرب

فَلَا تَكْتُمَنَّ اللَّهُ مَا فِي نَفُوسِكُمْ لِيَخْفَىٰ وَهَمَّائِكُمْ اللَّهُ يَعْلَمُ
يُؤَخِّرْهُ فَيُوضِعْهُ فِي كِتَابٍ فَيُدْخِرْ لِيَوْمِ الْحِسَابِ أَوْ يُعَجِّلْ فَيَنْقَمُ

(١) السحيل : الخيط المفرد ، وهو كناية عن الرخاء . المبرم : الذي يجمع بين مفتولين ، وهو كناية عن الشدة .

وصف
الحرب

وَمَا الْحَرْبُ إِلَّا مَا عَلِمْتُمْ وَذُقْتُمْ
مَتَى تَبَعْتُوهَا تَبَعْتُوهَا ذَمِيمَةٌ
فَتَعْرُكُمْ عَرَكَ الرَّحَى بِثِفَالِهَا
فَتُنْتِجُ لَكُمْ غِلْمَانَ أَشْأَمَ كَأَهْمِ
وَمَا هُوَ عَنْهَا بِالْحَدِيثِ الْمُرْجَمِ
وَتَضْرِبُ إِذَا أَضْرَيْتُمُوهَا فَتَضْرِبُ
وَتَلْقَحُ كِشَافًا ثُمَّ تَنْتِجُ فَتُنْتِجُ (١)
كَأَحْمَرَ عَادٍ ثُمَّ تُرْضِعُ فَتَنْطِمْ

ثم قال :

لَعَمْرِي لَنِعْمَ الْحَيُّ جَرٌّ عَلَيْهِمْ
وَكَانَ طَوًى كَشَعًا عَلَى مُسْتَكِنَةٍ
بِمَا لَا يُؤَاتِيهِمْ حُصَيْنٌ بِنُ ضَمِّمْ
فَلَا هُوَ أَبْدَاهَا وَلَمْ يَتَجَمِّمْ (٢)

وقال :

سَأَأْضِي حَاجَتِي ثُمَّ أَنْتِي
فَشَدَّ وَلَمْ تَفْزَعْ بِيوتَ كَثِيرَةٍ
رَعَوْا ظَمْتَهُمْ حَتَّى إِذَا تَمَّ أَوْرَدُوا
فَقَضَوْا مَنَائِيا بَيْنَهُمْ ثُمَّ أَصْدَرُوا
عَدَوِي بِالْفِ مِنْ وَرَائِي مُلْجَمِ
لَدَى حَيْثُ أَلَقْتُ رَحْلَهَا أُمَّ قَشَعِمِ
غِمَارًا تَسِيلُ بِالرَّمَّاحِ وَبِالْدَمِ
إِلَى كَلَاءِ مُسْتَوْبِلٍ مُتَوَخِّمِ

ثم ذهب إلى ما اشتهر به من ضرب الأمثال ، وإرسال الحكم ، والتعريف
بشيء من أحوال الاجتماع ، وآثار لأخلاق في الحياة ، قال :

سَمِيتُ تَكَالِيفِ الْحَيَاةِ وَمَنْ يَعِشْ
رَأَيْتُ الْمَنَائِيَا خَبَطَ عَشْوَاءَ مَنْ تُصِيبُ
وَأَعْلَمُ عِلْمَ الْيَوْمِ وَالْأَمْسِ قَبْلَهُ
وَمَنْ لَمْ يُصَانِعْ فِي أُمُورِ كَثِيرَةٍ
عَلَى قَوْمِهِ يُسْتَعْنِ عَنْهُ وَيُدْمِ
تَمَانِينَ حَوْلًا لَا أَبَا لَكَ يَسَامِ
تَمْتُهُ وَمَنْ تُحْطِي يَعْمَرُ فِيهِرَمِ
وَلَكِنِّي عَنْ عِلْمِ مَا فِي غَدِ عَمِ
يُضْرَسُ بِأَنْيَابٍ وَيُوطَأُ بِمَنْسَمِ

(١) الثفال : جلدة توضع تحت الرحى . تلقح : يقال للناقة عند ما تقبل ماء الفحل .
كشافا : سنين متواليين . تنم : تلد توأمين . (٢) طوى كشعا : أضر . المستكنة :
النية المستورة . يتجمم : يتردد .

وَمَنْ يَجْعَلِ الْمَعْرُوفَ مِنْ دُونِ عِرْضِهِ يَفِرَّهُ وَمَنْ لَا يَتَّقِ الشَّيْءَ يُشْتَمُ

و بعض الناس يجعل في أبياته الأخيرة ما ليس منها .

وهاتان قصيدتان له ، أول كل منها «صحا القلب عن سلمى» ومطلع الأولى :

صَحَا الْقَلْبُ عَنْ سَلْمَى وَأَقْصَرَ بَاطِلُهُ وَعَرَّتْ أُرْسُ الصَّبَا وَرَوَّاحِلُهُ

وفي هذه القصيدة وصف للصيد ، يعد في الطبقة الأولى مما أثر عن الجاهليين ، ومنها مديح لحِصْنِ بْنِ حُدَيْفَةَ على طريقة زهير من التمثيل والتوضيح غاية في الحسن والقوة .

قال يصف النبات والمطر والفرس والصيد ، وما يتبع ذلك من المحاتلة والتأني

فأبدع ما شاء :

وَنَعَيْتُ مِنَ الْوَشْمِيِّ حَوْ تِلَاعُهُ أَجَابَتْ رَوَابِيهِ النَّجَاءَ هَوَاطِلُهُ (١)

هَبَّطْتُ مَمْسُودِ النَّوَائِرِ سَابِحٍ مُمَرٍّ أَسِيلِ الْخَدِّ نَهْدٍ مَرَاكِلُهُ (٢)

تَمِيمٌ فَلَوْنَاهُ فَأَكْمِلْ صُنْعَهُ قَمٌّ وَعَزَّتْهُ يَدَاهُ وَكَاهِلُهُ (٣)

ثم قال :

فَبِينَا نُبغِي الصَّيْدَ جَاءَ غُلَامُنَا يَدِيبُ وَيُخْفِي شَخْصَهُ وَيُضَائِلُهُ

فَقَالَ شَيْءٌ رَاتِعَاتُ بِقَفْرَةٍ بِمُسْتَأْسِدِ الْقُرْيَانِ حَوْ مَسَائِلُهُ (٤)

وصف
الفرس
والصيد

(١) النعيت : المطر أو الكلاء الذي ينبت بمائه . الوشمي : الحو : أول المطر . الحو : جمع حواء

وهو وصف من الحوة وهي أسوداد أطراف النبات من شدة الحصب والنماء . التلاع :

مسائل الماء . الروابي : جمع رابية المكان المرتفع . النجاء : جمع نجوة ، وهي أيضاً المكان

المرتفع الذي تظن أنه نجاؤك وهي نعت الروابي . الهواطل : السحب يدوم ماؤها في

لين والسكاب . (٢) المسود : المفتول . النواشر : عصب الذراع ، جمع ناشرة . المر :

الحكم الوثيق الخلق . الأسيل : السهل . المراكل : مواضع عقب الفارس من الفرس ،

أراد أنه ضخم الجوف وهو من علامات عتق الفرس .

(٣) تميم : تام الخلق كامله . فلوناه : فطمناه ، وإذا فطم فهو فلوي . الكاهل : مجتمع

الكفتين في أصل العنق . عزته يدها : فانت سائر أعضائه .

(٤) الشياه : المراد بها هنا حمر الوحش . المستأسد : ما طال من النبات وقوى .

القريان : جمع قرى كغنى ، مسيل الماء إلى الروض . المسائل : جمع مسيل ، فإن كان من سال

فوزنه مفعول ، والقياس ألايهز الجمع ، وإن كان من مسل فوزنه فمعل والقياس همزه في الجمع .

ثَلَاثٌ كَأَقْوَاسِ السَّرَّاءِ وَمِسْحَلٌ^(١) قَدْ أَخْضَرَ مِنْ لَسِّ الْغَمِيرِ جَحَافِلُهُ^(١)
 وَقَدْ خَرَّمَ الطَّرَادُ عَنْهُ جِحَاشَهُ فَلَمْ يَبْقَ إِلَّا نَفْسُهُ وَحَلَاثِلُهُ
 فَقَالَ أَمِيرِي مَا تَرَى رَأَى مَا نَرَى انْخَتَلَهُ عَنْ نَفْسِهِ أَمْ نُصَاوِلُهُ^(٢)
 فَبِتْنَا عُرَاةً عِنْدَ رَأْسِ جَوَادِنَا يَزَاوِلُنَا عَنْ نَفْسِهِ وَنُزَاوِلُهُ
 وَنَضْرِبُهُ حَتَّى اطْمَأَنَّ قَدَّالُهُ وَلَمْ يَطْمَأَنَّ قَلْبُهُ وَخَصَائِلُهُ^(٣)
 فَلَايَا بِلَايٍ مَا حَمَلْنَا وَلِيَدِنَا عَلَى ظَهْرِ مَحْبُوكٍ ظِمَاءٌ مَقَاصِلُهُ^(٤)
 وَقَاتُ تَعَلَّمْ أَنْ لِلصَّيْدِ غِرَّةً وَإِلَّا تُضَيِّعُهَا فَإِنَّكَ قَاتِلُهُ

ثم انتقل من هذا ، إلى مدح حصن بن حذيفة بن بدر الفزاري كما
 قدمنا قال :

وَأَبْيَضَ فَيَاضٍ يَدَاهُ غَمَامَةٌ عَلَى مُعْتَفِيهِ مَا تَعَبُ فَوَاضِلُهُ
 بَكَرَتْ عَلَيْهِ غَدْوَةٌ فَرَأَيْتُهُ قُعُودًا لَدَيْهِ بِالصَّرِيمِ عَوَازِلُهُ^(٥)
 يُفَدِّينَهُ طَوْرًا وَطَوْرًا يَلْمَنُهُ وَأَعْيَا فَمَا يَدْرِينِ أَيْنَ مَخَاتِلُهُ
 فَأَقْصَرَنْ مِنْهُ عَنْ كَرِيمٍ مُرْزَاءً عَزُومٍ عَلَى الْأَمْرِ الَّذِي هُوَ فَاعِلُهُ^(٦)
 أَخِي ثِقَةً لَا يُتْلَفُ الْحَمْرُ مَالَهُ وَلَكِنَّهُ قَدْ يُهْلِكُ الْمَالَ نَائِلُهُ
 تَرَاهُ إِذَا مَا جِئْتَهُ مَهْلَلًا كَأَنَّكَ تُعْطِيهِ الَّذِي أَنْتَ سَائِلُهُ

(١) السراء : شجر تتخذ منه القسي . المسحل : الحمار ، مأخوذ من السجيل وهو صوت الحمار . اللس : الأكل بمقدم القم . الغمير : نبت أخضر غمره اليبس . الجحافل : جمع جحفة ، وهي من الحمر كالشفة من الإنسان .

(٢) الأمير : الذي يؤامره ويستشير . انختل : تخادعه . نصاوله : نجاهره .

(٣) الفدال : العذار من رأس الفرس . الحصائل : جمع خصيلة ، وهي كل لحة في عصبه .

(٤) المحبوك : الوثيق المحكم . الظماء : اليابسة . الفاصل : جمع مفصل ، وهو مجتمع

كل عظيمين . (٥) الصريم : الصبح أو الفصر . (٦) المرزأ : المصاب بماله كثيراً .

ثم التفت إلى خطاب المدوح ، فعرض من أوصافه الأخرى صورة جامعة
لمناقب الشرف ، من عمومته بالمعروف وحسن مدافعتة للخصوم واستعلائته بالحلم
وإصابته بالمنطق ، في نسيج من جزالة العربية قلما تظفر بمثله ، قال :

المناقب
العربية في
مدح زهير

وَذِي نَسَبٍ نَأَى بَعِيدٍ وَصَلَّتْهُ
بِمَالٍ وَمَا يَدْرِي بِأَنَّكَ وَاصِلُهُ
وَذِي نِعْمَةٍ تَمَّتْهَا وَشَكَرْتَهَا
وَخَصْمٍ يَكَادُ يَغْلِبُ الْحَقَّ بَاطِلُهُ
دَفَعْتَ بِمَعْرُوفٍ مِنَ الْقَوْلِ صَائِبٍ
إِذَا مَا أَضَلَّ النَّاظِقِينَ مَفَاصِلُهُ
وَذِي خَطَلٍ فِي الْقَوْلِ يَحْسَبُ أَنَّهُ
مُصِيبٌ فَمَا يُبْمِمْ بِهِ فَهَوَّ قَائِلُهُ
عَبَّاتٌ لَهُ حِلْمًا وَأَكْرَمَتْ غَيْرُهُ
وَأَعْرَضَتْ عَنْهُ وَهُوَ بَادٍ مَقَاتِلُهُ

وهذه هي القصيدة الثانية :

صَحَا الْقَلْبُ عَنْ سَعْيٍ وَقَدْ كَادَ لَا يَسْلُو
وَأَقْفَرَ مِنْ سَمَى التَّعَانِيقِ فَالْتَقَلُ (١)
وَقَدْ كُنْتُ مِنْ سَمَى سِنِينَ تَمَانِيًا
عَلَى صَيْرِ أَمْرٍ مَا يَمُرُّ وَمَا يَحُلُو (٢)

(وفي ديوانه أنها لسنان بن أبي حارثة المري أبي هرم بمدوحه ، ولكنكم
سترون أنه ساقها في مدح سيدي غطفان اللذين مدحهما بمعلقته السابقة .)

وبعد أن ذكر ما يلم بنفس المحب الصادق من اتصال الشوق ومراجعة
الذكريات وإن نأت عنه الأحباب ، عاد فقال في مدح ذينك السيدين :

إِذَا فَرَعُوا طَارُوا إِلَى مُسْتَغِيثِهِمْ
طِوَالِ الرَّمَاكِ لِأَضِعَافٍ وَلَا نُكْلُ
بُخَيْلٍ عَلَيْهَا جِنَّةٌ عَبْرِيَّةٌ
جَدِيرُونَ يَوْمًا أَنْ يَنَالُوا فَيَسْتَعْلُوا
عَلَيْهَا أُسُودٌ ضَارِيَاتٌ لَبُوءُهُمْ
سَوَابِغُ بِيضٍ لَا تُحْرِقُهَا النَّبَلُ
إِذَا لَفِحَتْ حَرْبٌ عَوَانٌ مُضِرَّةٌ
ضُرُوسٌ تُهْرِئُ النَّاسَ أَنْيَابَهَا عُصْلُ (٣)

مدح زهير

(١) التعانيق والتقل : موضعان . (٢) على صير أمر : انتهاء وغايته .

(٣) لفحت : اشتدت . العوان : الحرب التي قوتل فيها مرة قبل هذه . تهريئ الناس :

تصيرهم يكرهونها . العصل : الكالحة الموجة .

قُضَاعِيَّةٌ أَوْ أُخْتَهَا مُضَرِّيَّةٌ يُحَرِّقُ فِي حَافَتَيْهَا الحَطْبُ الجَزَلُ
تَجِدُهُمْ عَلَى مَا خَيَّلَتْهُمْ إِزَاءَهَا وَإِنْ أَفْسَدَ المَالُ الجَمَاعَاتُ والأَزَلُ^(١)

إلى أن يقول :

فَرِحْتُ بِمَا خُبِرْتُ عَنْ سَيِّدَيْكُمْ رَأَى اللهُ بِالإِحْسَانِ مَا فَعَلَا بِكُمْ
وَكَانَا أُمْرَأَيْنِ كُلُّ أَمْرِهِمَا يَعْلُو فَأَبْلَاهُمَا خَيْرَ البَلَاءِ الَّذِي يَبْلُو
وَذُبْيَانٍ قَدْ زَلَّتْ بِأَقْدَامِهَا النَّعْلُ تَدَارَكْتُمَا الأَخْلَافَ قَدْ نُلَّ عَرْشُهَا

ثم يقول :

وَفِيهِمْ مَقَامَاتٌ حِسَانٌ وَجُوهُهُمْ عَلَى مُكْثَرِيهِمْ رَزَقٌ مَنْ يَعْتَرِيهِمْ
وَأَنْدِيَّةٌ يَنْتَابُهَا القَوْلُ وَالفِعْلُ وَإِنْ جِئْتَهُمْ أَلْفَيْتَ حَوْلَ بُيُوتِهِمْ
وَعِنْدَ المُقْلِينَ السَّمَاحَةُ وَالبَدَلُ فَمَا يَكُ مِنْ خَيْرٍ أَتَوْهُ فَإِنَّمَا
مَجَالِسَ قَدْ يُشْفَى بِأَخْلَامِهَا الجَهْلُ وَهَلْ يُنْبِتُ الخَطِيَّ إِلَّا وَشَيْجُهُ
تَوَارِثُهُ آبَاهُ آبَائِهِمْ قَبْلُ وَتُغْرَسُ إِلَّا فِي مَنَابِتِهَا النَّخْلُ

فتراه هنا تناول وصفهم بالنجدة والإسراع إلى المستغيث بخيلهم ، وسوابقهم عند نشوب الحرب الضروس العَصَلَاءُ الأنياب ، ثم ذكر ما هاجه إلى المديح لهما من تداركهما الأَحْلَافَ من ذبيان وعبس بعد أن كاد يُثَلُّ عرشها وتزل بها القدم ، ثم عطف بهذا المدح الآخذ بأطراف الحسن ، وذكر الأندية والمجالس الشافية لطيش الجهالة ، ومدح أغنيائهم وفقرائهم ، ويقول عبد الملك ابن مروان في قوله « على مكثريهم . . . البيت » [ما ضر من مدح بهذا البيت ألا يكون يلي أمور الناس « يعني الخلافة ! »] ثم ساق الدليل على دعواه من اتصال هذا الكرم بالفروع من الأصول بهذا المثل الذي ضربه من منابت النخل ووشيج الخطى .

(١) المال : الإبل . الأزل : حبس الإبل وعدم إرسالها للرعى .

وهذه قصيدة أخرى في مدح هرم بن سنان :

إِنَّ الْخَلِيْطَ أَجَدَّ الْبَيْنَ فَانْفَرَقَا وَعُلِقَ الْقَلْبُ مِنْ أَسْمَاءِ مَا عَلِقَا
 وفارقتك برهنٍ لآفكاك له يومَ الوَدَاعِ فأمسى الرَّهْنُ قَدْ غَلِقَا
 قامتُ تراءى بذي ضالٍ لتعزُّني وَلَا مَحَالَةَ أَنْ يَشْتاقَ مَنْ عَشِقَا
 بجسدٍ مُغزلةٍ أدماءٍ خاذلةٍ مِنْ الظُّبَاءِ تُرَاعِي شَادِنًا خَرِقَا^(١)
 كأنَّ ريقَها بعدَ الكرى اعتبقتُ مِنْ طَيِّبِ الرَّاحِ لَمَّا يَعْدُ أَنْ عَتَقَا

قطعة من
غزل زهير

وخلص من تصويره الأسماء بهذه الظبية الأدماء ، وما إلى ذلك من طيب

فيها وحلاوة ريقها إلى وصف الركاب ، ثم إلى ممدوحه هرم حيث قال :

قَدْ جَعَلَ الْمُبتَغُونَ الْخَيْرَ فِي هَرَمٍ وَالسَّائِلُونَ إِلَى أَبْوَابِهِ طُرُقَا
 إِنَّ تَلَقَّ يَوْمًا عَلَى عِلَاتِهِ هَرَمًا تَلَقَّ السَّمَاحَةَ مِنْهُ وَالنَّدَى خُلُقَا
 إلى قوله :

لَوْ نَالَ حَيٌّ مِنَ الدُّنْيَا بِمَكْرُمَةٍ أَفُقَ السَّمَاءَ لَنَالَتْ كَفَّهُ الْأَفُقَا

وروى شارح ديوانه ، وهو الأعم النحوى الشنتمرى المتوفى سنة ٤٧٦ ،

هذه القصيدة عن أبي عمرو الشيباني والمفضل الضبي ، وهي أيضاً من جواد مدائمه

في هرم بن سنان ومطلعها :

غَشِيْتُ دِيَارًا بِالْبَقِيْعِ فَهَمِدِ دَوَارِسَ قَدْ أَقْوِينَ مِنْ أُمَّ مَعْبَدِ

وقد أخذ بعد المطلع يصف ناقته ، متأثراً في ذلك بمذهب طرفه ، وأخذاً

بشيء من ألفاظه وعباراته ، ثم قال :

جُمَالِيَّةٍ لَمْ يُبْقِ سَيْرِي وَرِحْلَتِي عَلَى ظَهْرِهَا مِنْ نَيْهَا غَيْرَ مُحْفِدِ^(٢)

(١) مغزلة : ظبية ذات غزال . أدماء : بيضاء . الشادن : الذي اشتد وقوى

على المشي .

(٢) الجمالية : المشبهة للجمل في تمامها وعظم خلفها : التي : الشحم . المحفد : أصل السنام .

مَتَى مَا تُكَلِّفَهَا مِائَةَ مَنَهْلٍ قُتِسْتَعْفَ أَوْ تُتَهَكَّ إِلَيْهِ فَتَجْهَدِ^(١)
 تَرْدُهُ وَلَمَّا يُخْرِجِ السَّوْطُ شَأُوهَا مَرُوحًا جَنُوحَ اللَّيْلِ نَاجِيَةَ الْغَدِ^(٢)
 كَهَمِّكَ إِنْ تَجْهَدُ تَجِدْهَا نَجِيحَةً صَبُورًا وَإِنْ تَسْتَرْخِ عَنْهَا تَزِيدُ

ثم يقول :

تُبَادِرُ أَغْوَالَ الْعَشِيِّ وَتَتَّقِي عَلَاةَ مَلُويٍّ مِنْ الْقَدِّ مُحْصِدِ^(٣)
 كَخَنَسَاءِ سَفْعَاءِ الْمَلَاظِمِ حُرَّةِ مُسَافِرَةٍ مَزْءُودَةٍ أُمَّ فَرْقَدِ^(٤)
 غَدَّتْ بِسِلَاحٍ مِثْلَهُ يُتَّقَى بِهِ وَيُؤْمِنُ جَاشِ الْخَائِفِ الْمُتَوَحِّدِ
 وَسَامِعَتَيْنِ تَعْرِفُ الْعِتْقَ فِيهِمَا إِلَى جِذْرِ مَدْلُوكِ الْكُعُوبِ مُحَدِّدِ^(٥)

حتى قال :

فَأَنْقَذَهَا مِنْ غَمْرَةِ الْمَوْتِ أَنَّهَا رَأَتْ أَنَّهَا إِنْ تَنْظُرِ النَّبْلَ تَقْصِدِ^(٦)
 ثُمَّ خَلَصَ إِلَى الْمَدِيحِ لَهْرَمٍ إِذِ يَقُولُ : إِلَى هَرَمٍ تَهْجِيرُهَا وَوَشِيحُهَا
 إِلَى هَرَمٍ سَارَتْ ثَلَاثًا مِنَ اللَّوِي فَنِعْمَ مَسِيرُ الْوَائِقِ الْمُتَعَمِّدِ
 سِوَاءٍ عَلَيْهِ أَيَّ حِينٍ أَتَيْتَهُ أَسَاعَةَ نَحْسٍ تَتَّقِي أُمَّ بِأَسْعَدِ^(٧)

(١) تستعف : يؤخذ عفوها في السير وهو من غير جهد .

(٢) الشأو : غاية الحضر أو آخر العفو من السير . (٣) الأغوال : جمع غول ، وهو ما يقول الإنسان أي يهلكه . الملوي : السوط . القد : ماقد من الجلد . المحصد : الشديد القتل ؛
 (٤) الخنساء : القمرة القصيرة الأنف ، والخنس نظامن الأنف وقصره . السفعاء :
 السوداء في حمرة . الملاطم : الحدود . المزءودة : الخائفة . الفرقد : ولد البقر .

(٥) السامعتان : الأذنان . الجذر : الأصل . مدلوك : أملس . الكعوب : عقد
 العصي ، يصف بذلك قرنها . (٦) قوله « فَأَنْقَذَهَا مِنْ غَمْرَةِ الْمَوْتِ أَنَّهَا » أخذ هذا
 الشطر بتمامه أبو تمام فقال من قصيدته التي مطلعها : غدت تستجير الدمع خوف نوى غد :
 وأنقذها من غمرة الموت أنه صدود فراق لا صدود تعمد

وهي من جياذ سوائره .

(٧) الوشيح : السير السريع .

مديح هرم
 أَلَيْسَ بِضَرَّابِ الْكُمَاةِ بِسَيْفِهِ وَفَكَكِّ أَغْلَالِ الْأَسِيرِ الْمُقَيَّدِ
 وَمِذْرَهٍ حَرْبٍ حَمِيهَا يُنْتَقَى بِهِ شَدِيدِ الرَّجَامِ بِاللَّسَانِ وَبِالْيَدِ
 أَلَيْسَ بِفِيَّاضٍ يَدَاهُ غَمَامَةٌ عِمَالُ الْيَتَامَى فِي السَّنِينَ مُحَمَّدِ
 إِذَا ابْتَدَرَتْ قَيْسُ بْنُ عَيْلَانَ غَايَةً مِنْ الْمَجْدِ مَنْ يَسْبِقُ إِلَيْهَا يُسْوَدُ
 سَبَقَتْ إِلَيْهَا كُلَّ طَلْقٍ مُبَرِّزٍ سَبُوقٍ إِلَى الْغَايَاتِ غَيْرِ مُجَدِّدِ

إلى قوله :

فَلَوْ كَانَ حَمْدٌ يُخْلِدُ النَّاسَ لَمْ تَمْتُمْ وَلَكِنَّ حَمْدَ النَّاسِ لَيْسَ بِمُخْلِدِ
 وهي والتي قبلها كما ترون من روح زهير ومذهبه في اختيار الكلام وتوقي
 الفضول ، صادرة عن هذا الطبع المتدفق ، وعمّا أثر عن زهير من التنقيح والماودة
 والتزام التبع من نفسه على نفسه .

ولم كان زهير من العفة ، لم يعرض لأعراض الناس ، إلا أنه كان يتوعد
 بالهجاء ، ويومئذ كان الناس يتقون الشعراء اتقاءً شديداً ، وقد هجا قوما ثم ندم
 على ما فعل .

توعد زهير
 ومن توعدده قصيدته الكافية ، وكان الأصمعي يقول « ليس على الأرض
 كافية أجود منها ومن التي لأوس بن حجر » . وكان الحارث بن ورقاء من
 بني الصيداء ، قد أخذ إبلا لزهير وأسر راعيه يساراً ، فقال يعاتبه ثم يتوعدده
 بالهجاء إن لم يرد عليه ما أخذ منه ، وأول القصيدة :

بَانَ الْخَلِيطُ وَلَمْ يَأُؤُوا لِمَنْ تَرَكَوْا وَزَوَّدُوكَ اشْتِيَاقًا أَيْةً سَلَكَوْا^(١)
 ثم يقول :

يَا حَارِ لَا أَرْمِينِ مِنْكُمْ بِدَاهِيَةٍ لَمْ يَلْقَهَا سُوقَةٌ قَبْلِي وَلَا مَلِكُ

(١) لم ياءوا : لم يرحوا .

أَرْدُدُ يَسَارًا وَلَا تَعْنُفَ عَلَيْهِ وَلَا تَمَعُكَ بِعَرَضِكَ إِنَّ الْغَادِرَ الْمَعِكُ^(١)
ثم يقول :

تَعَلَّنْ هَا ! لَعَمْرُ اللَّهِ ذَا قَسَمًا فَاقْدِرْ بِذَرْعِكَ وَاَنْظُرْ أَيْنَ تَنْسَلِكُ
لِيَأْتِيَنَّكَ مِنِّي مَنْطِقٌ قَدَعُ^(٢) بَاقٍ كَمَا دَنَّسَ الْقُبُطِيَّةَ الْوَدَكُ^(٣)
وفيها وصف الناقة والفرس ، وشبهها بالقطاة التي يطاردها كاسر من
جوارح الطير ، وهي في ذلك الوقت أسرع طيرانا وأشد هويًا ، ثم ذكر الماء
والنبات ، وتخلص إلى ما ذكرناه من العتاب والوعيد .

وقصيدته في الهجاء - وهي واحدة - قالها في قوم غدروا برجل كان جارًا هجاء زهير
لهم ، وأخذوا ماله في قصة مذكورة ، أولها :

عَفَا مِنْ آلِ فَاطِمَةَ الْجَوَاءِ فَيَمُنُّ فَالْقَوَادِمُ فَالْحِسَاءُ

وفيها ذلك التشبيه الحسن الذي ينسب اختراعه إلى زهير ، ويسميه
البيانون « التشبيه المجل ثم الفصل » قال :

لَقَدْ طَأْتَبْتُمَا وَلِكُلِّ شَيْءٍ وَإِنْ طَالَتْ لِحَاجَتُهُ انْتِهَاءُ
تَنَازَعَهَا الْمَاهَا شَبَهًا وَدُرُّ النُّحُورِ وَشَاكَهَتْ فِيهَا الظُّبَاءُ
فَأَمَّا مَا فُوَيْقَ الْعِقْدِ مِنْهَا فَمِنْ أَدْمَاءِ مَرْتَعَهَا الْخَلَاءُ^(٣)
وَأَمَّا الْمُقْلَتَانِ فَمِنْ مَهَاةٍ وَلِلدَّرِّ الْمَلَاخَةُ وَالصَّرْفَاءُ

ثم ذكر أصحابه وشرابهم وطربهم ووصفهم فأحسن صفتهم إذ يقول :

رَقَدْتُ أُغْدُو عَلَى ثَبَّةٍ كِرَامٍ نَشَاوَى وَاجِدِينَ لِمَا نَشَاءُ^(٤)

(١) المعك : بكسر العين الشديد المطل . (٢) القدع : أذبح الشتم . القبطية :

ثياب من كتان منسوبة إلى القبط . الودك : الدسم من اللحم والشحم .

(٣) الأدماء : الظبية البيضاء . الخلاء : الموضع الخالي .

(٤) الثبة : الجماعة من الناس .

لَهُمْ رَاحٌ وَرَاوُوقٌ وَمِسْكٌ تُلُّهُ بِهِ جُودُهُمْ وَمَاءٌ
يَجْرُونَ الْبُرُودَ وَقَدْ تَمَشَّتْ حَمِيًّا الْكَأْسِ فِيهِمْ وَالْغِنَاءُ
تَمَشَّى بَيْنَ قَتْلَى قَدْ أُصِيبَتْ نُفُوسُهُمْ وَلَمْ تَهْرُقْ دِمَاءُ

ثم هجا من هجاهم حيث يقول :

وَمَا أَذْرِي وَلَسْتُ إِخَالُ أَذْرِي أَقَوْمٌ آلُ حِصْنِ أُمِّ نِسَاءِ
فَإِمَّا أَنْ يَقُولَ بَنُو مَصَادٍ إِلَيْكُمْ إِنَّا قَوْمٌ بَرَاءُ
وَإِمَّا أَنْ يَقُولُوا قَدْ وَفِينَا بِذِمَّتِنَا فَعَادَتُنَا الْوَفَاءُ
وَإِمَّا أَنْ يَقُولُوا قَدْ أَيْبْنَا فَشَرُّ مَوَاطِنِ الْحَسَبِ الْإِبَاءُ
وَإِنَّ الْحَقَّ مَقْطَعُهُ ثَلَاثٌ يَمِينٌ أَوْ نِفَارٌ أَوْ جَلَاءُ

إلى أن يقول :

فَهَلَّا آلَ عَبْدِ اللَّهِ عَدُّوا مَخَازِي لَا يُدَبُّ لَهَا الضَّرَاءُ (١)
أَرُونَا سُنَّةً لَا عَيْبَ فِيهَا يُسَوَّى بَيْنَنَا فِيهَا السَّوَاءُ
فَإِنْ تَدَعُوا السَّوَاءَ فَلَيْسَ بَيْنِي وَبَيْنَكُمْ بَنِي حِصْنِ بَقَاءِ
وَيَبْقَى بَيْنَنَا قَذَعٌ وَتَلْفُؤُوا إِذَا قَوْمًا بِأَنْفُسِهِمْ أَسَاءُوا
وَتُوقَدُ نَارُكُمْ شَرًّا وَيُرْفَعُ لَكُمْ فِي كُلِّ مَجْمَعَةٍ لُؤَاءُ

ومن حديث الرواة ، عن المفضل الضبي وحماد بن ميسرة الراوية ، عند أمير المؤمنين المهدي ، إقرار حماد بما وضع على زهير من قصيدته التي أولها :

ما وضعه
حماد الراوية
في شعر
زهير

دَعُ ذَا وَعَدَّ الْقَوْلَ فِي هَرَمٍ خَيْرِ الْبِدَاةِ وَسَيِّدِ الْخَضِرِ
تَاللَّهِ قَدْ عَلِمْتُ سَرَاةَ بَنِي ذُبْيَا نَ عَامَ الْحَبْسِ وَالْأَضْرِ
أَنْ نَعَمَ مُعْتَرِكُ الْجِيَاعِ إِذَا حَبَّ السَّقِيرُ وَسَابِيُ الْحَمْرِ

(١) لا يدب لها الضراء : لا يستر أمرها ولا يخفي ، والضراء ما تواريت به من شجر ونحوه ، ويقال دب الضراء إذا ستر أو أخفى أمره .

ولنعم حشو الذرع أنت إذا دُعيت نزال ولج في الذعر
وهو ثلاثة الأبيات الآتية :

لَمِنَ الدِّيَارِ بُقَّةَ الحَجْرِ أَقْوِينَ مُذْ حَجَجٍ وَمُذْ دَهْرٍ
لَعِبَ الزَّمَانُ بِهَا وَغَيْرَهَا بَعْدِي سَوَافِي المُورِ والقَطْرِ
قَفْرًا بِمُندَفِعِ النَّحَائِتِ مِنْ ضَفْوَى أُولَاتِ الضَّالِّ والسَّدْرِ

وينسب إليه قصيدة قالها في النعمان بن المنذر حين طلبه كسرى وأراد
الغدر به ، فهرب وضافته عبس ثم ارتحل عنهم وأثنى عليهم ، قالوا وهي لا تشبه
كلام زهير وليست له وإنما هي لغيره وأولها في ديوانه :

أَلَا لَيْتَ شِعْرِي هَلْ يَرَى النَّاسُ مَا أَرَى مِنْ الأَمْرِ أَوْ يَبْدُو لَهُمْ مَا بَدَأَ لِيَا
وفي ديوانه ثلاثة الأبيات الآتية :

إِنَّ الرِّزْيَةَ لَأَرَزِيَّةَ مِثْلَهَا مَا تَبْتغِي غَطْفَانَ يَوْمَ أَضَلَّتْ
إِنَّ الرِّكَّابَ لَتَبْتغِي ذَا مِرَّةٍ بِجُنُوبِ نَحْلٍ إِذَا الشُّهُورُ أَحَلَّتْ
ولنعم حشو الذرع أنت لنا إذا نَهَلْتِ مِنَ العَلَقِ الرِّمَاحُ وَعَلَّتِ

قيل انه رثى بها أبا حارثة أو غيره ، وفي طبقات الشعراء لابن سلام عن
أبي عبيدة أنها ليست له وإنما هي لعُراد بن حنَّس من شعراء غطفان ، قال
أبو عبيدة « وكان جيد الشعر قليله ، وكانت شعراء غطفان تغير على شعره
فتأخذه وتدعيه ، منهم زهير بن أبي سلمى ادعى هذه الأبيات اه » .

نسبه واتصال
الشعر في
عقبه

وهو زهير بن أبي سلمى واسمه ربيعة بن رياح من مزينة ونشأ في غطفان ،
قالوا ولم يتصل الشعر في أهل بيت من العرب مثل ما اتصل في بيت زهير ، كان
أبوه شاعراً ، وابناه كعب وبيير شاعرين ، وابن ابنه المضرب شاعر ،
وأخته الخنساء شاعرة أيضا ، وحفيده هو القائل ولعله يعني مُصَعَّب بن الزبير :
إني لأصرف نفسي وهي صابرة عن مُصَعَّب ولقد بانَّت لي الطُّرُقُ

رَعَوَى عَلَيْهِ كَمَا أَرْعَى عَلَى هَرَمِ جَدِّي زُهَيْرٌ وَفِينَا ذَلِكَ الْخَلْقُ
مَدْحُ الْمُلُوكِ وَسَعَى فِي مَسَرِّهِمْ ثُمَّ الْغِنَى وَيَدُ الْمَدُوحِ تَنْطَلِقُ
ولا ينبغي أن يكون زهير - إلى حد ما - من المكتسبين بالشعر ، إذ لم
يعرف إلا قليلاً أنه اختصّ بغير آل أبي حارثة كما أسلفنا والله أعلم .

٤ - أعشى قيس

قد لا يكون يسيراً أن يتصل بحث الأدب بالحياة الأولى ، التي يحتمل أن
يكون نشأ فيها الأعشى كغيره من شعراء هذه الجاهلية المتأخرة ، وكل ما يستطيع
البحث أن يتخذه وسيلة لتصوير هذه النشأة ، أن يتكى على ما أجمع الرواة
عليه من أنه بدأ حياته بالرواية لخاله المسيّب بن عكس ، وينبغي أن يكون غلاماً
حين بلغ أشده يلزم خاله ، فيحفظ شعره ويرويّه ويذيعه ، وتكون هذه التربية
الخاصة بعض ما أعان على نُضج موهبته الفنية في نفسه ، ويتصل بذلك اشتراكه
في شهود الملاحم الأدبية التي كانت يومئذ تنهض نهوضاً حثيثاً بالاجتماع العربي
من سائر أقطاره في الأسواق العامة والمواسم الجامعة ، وقد صارت آخر هذا
العصر - كما قدمنا في أكثر من موضع - مجالاً للتمحيص والنقد ، وأداة
قوية للإصلاح العام . وطبيعي أن يكون الأعشى - وهو شاعر - أكثر شيء
مسايرة لهذه النهضة وإذكاء لسعيها بما سير في الآفاق من الشعر ، وبما نهض
به من التجويد والصنع .

نشأته

اتصاله بخاله
المسيب

ويقول الرواة إنه أول من سأل بشعره ، وانتجع به أقاصى البلاد ، ويؤخذ من
ذلك أنه كان في نفسه عامل آخر يعتبر من أقوى دواعي الشعر وفواعله ، ذلك
هو حب الكسب والرغبة في تحصيل المال ، وستهامون مما سنقعه من أخباره
أنه كان منهوماً بكثير من الشهوات ، كالشراب والغناء والقمار والزنا ، وأن هذه
الآفات . « وكذلك تفعل بالناس » هي التي أمرضت نفسه ، وطامنت من عزته ،

فلم يكن يبالي من يمدح ولا من يسأل ، إذ كان همه كله مصروفاً إلى تحصيل المال ، لإرضاء هذه الشهوات من كل وجه وعلى أى حال .

شعره
وشهادته
الأدباء له

وينبغي ألا يكون الأعشى في الجملة مقصراً عن طبقات الفحول الذين سبقوه أو عاصروه ، كأمريء القيس والنابغة وزهير وأشباههم ، وسترون أن بعض أهل العلم يقدمه حتى على هؤلاء ، ويحتج بكثرة طوالة الجياد ، وتصرفه في أكثر فنون الشعر من المدح والفخر والهجاء والوصف والغزل ، ويقول ابن سلام إن أبا جعفر المنصور أرسل إلى حماد الرواية رسبولا يسأله عن أشعر الناس فقال : نعم ذلك الأعشى صنّاجها ! وسئل مروان بن أبي حفصة وهو شاعر عباسي كان يتشبه بزهير في تنقيح أشعاره فقال أشعر الناس الذي يقول :

قول مروان بن
أبي حفصة
في الأعشى

كِلَا أَبَوَيْكُمْ كَانَ فَرْعَ دِعَامَةٍ وَلَكِنَّهُمْ زَادُوا وَأَصْبَحَتْ نَاقِصًا

يعنى الأعشى . قال وكان أبو عمرو بن العلاء يقول « عليكم بشعر الأعشى فاني شبهته بالبازي يصيد ما بين الكركي إلى العندليب » وقال عبد الملك بن مروان لمؤدب ولده « أدبهم برواية شعر الأعشى ، فإنه - قاتله الله - ما أصلبَ صخره وأعدبَ بحره . »

وكانوا يسمونه صنّاجة العرب ، لأنه كان يتغنى في شعره ، وقيل لجهارته وحسن إنشاده وجلبة شعره ، قالوا حتى كأنك حين تسمعه تظن أن منشداً آخر ينشد شعره معه ، ويقولون إنه كان أشعر الناس إذا طرب ، ويقولون ذلك في أمريء القيس إذا ركب ، وفي النابغة إذا رهب ، وزهير إذا رغب .

وستجدون أنه كان حقا صادق العاطفة حين يتجه مع هذه الطبيعة المترددة في نفسه بين الشهوة والطمع ، وحين يتحدث عن الشراب واللهو مع من كانوا ينادمونه من خلعاء الفتيان ، وحين تهزه أريحية كريم قد أجزل حباه أو وصله على إقلال وفاقة ، والصلة حينئذ كالغيث في الأرض الجذبة واقعة موقعها بالغة أثرها ، وأنه كان يُقذع في هجاء الأشراف ، ويكذب عليهم لالترّة ولا ذنب سوى أنهم لم يوقفوا إلى بل هذه اللهوات الصادية بجزيل العطاء .

ثم يمدد الطمع إلى ما عندهم ، أو تدفعه الحاجة إلى حماهم ، فيعود فيمدحهم ويتوب إليهم ، وهو في ذلك أدنى إلى العذر من أمثال أبي الطيب المتنبي الذي مدح كافوراً فرفعه على الناس ، ثم لما يئس مما كان يطمع فيه عنده رجع قدمه بما لم يسمع بمثله إقذاعاً وبذاذة ، ومهما يكن من شيء فلا بد من الإقرار للأعشى بأنه كان ممتازاً بغزارة الشعر ، وكثرة الطوال الجياد ، ومدائح الملوك ، ونعت الخمر ، وقد كان له معصر يستخرج فيه ما يهديه إليه الناس من أعنابهم ، وكان يختلف إلى نصارى الحيرة وأساقفة نجران ، ويقوم عندهم على الشراب والغناء ، ويتلقن بعض عقائدهم ، فلم يكن بدعا أن يجيد صفة الخمر ويتنوق في وصف سقاتها وشرابها . .

ما يمتاز به
الأعشى

ولذهب شعره في الآفاق العربية ، ونفاقه عند الملوك والسوقة ، ولقماماته في عكاظ ، وما كان من تنويه قضائها بأمره ، رهبه الناس رهبة شديدة ، ولم يغض منه التكسب بالمديح ، وصار لشعره من الجلالة والتأثير ما ليس لشعر غيره ، فكان يرفع الحامل المتروك ، ويطأطي من كبرياء الأشراف ، وهو من هذه الناحية يعتبر عاملاً قويا من عوامل نهضة الشعر في هذا العصر .

وقد أشرنا فيما سبق إلى قصته مع المخلق وشعره فيه ، ويذكرون أنه هجارجلا

هجاؤه رجلا
من كلب

من كلب بقوله :

بَنُو الشَّهِرِ الحَرَامِ فَلَسْتَ مِنْهُمْ وَلَسْتَ مِنَ الكَرَامِ بَنِي عُبَيْدٍ
وَلَا مِنْ رَهْطِ جَبَّارِ بنِ قُرْطِ وَلَا مِنْ رَهْطِ حَارِثَةَ بنِ زَيْدٍ

فقال الكلبي : لا أبالك ! أنا أشرف من هؤلاء ! ولزمه هجاء الأعشى ،

فغيره الناس به ، واتفق أن أغار الكلبي على أهل حبي وفيهم الأعشى ، فأسره

وهو لا يعرفه ، ثم أقبل حتى نزل بشرح بن السموئل بحصنه الأبلق ، ومرا

شرح بالأسرى فناده الأعشى بقوله :

حديثه مع
شرح بن
السموئل

شَرِيحُ لَا تَتْرُكُنِي بَعْدَ مَا عَلِقْتَ حَبَالُكَ اليَوْمَ بَعْدَ القِدِّ اظْفَارِي

وهي قصيدة وسند كرها بعد ، فاستنقذه شريح من أسره وسرحه قبل أن يعرفه أو يوقع به .

السبب في هجائه لعقمة

ويدكرون السبب في هجائه لعقمة بن عُلَاثة - أحد أشراف بني عامر بن صَعَصَعَة - أنه كان عائداً من بلاد اليمن بجِباة الأسود العنسي ، وكان فيما حباه به متاع وبزوطيب ، فنزل بعقمة وقد خاف ذؤبان العرب على مامعه ، فقال : له أتجبرني من العرب ؟ فقال بل من بني الأحوص . فأخذ حباه وتحول عنه ، فأتى عامر بن الطفيل - وهو ابن عم عقمة ومنازعه في الشرف - فسأله ما سأل عقمة من الجوار ، فقال : نعم أجيرك من العرب ومن الجن والإنس والموت !! فقال : وكيف تجبرني من الموت ؟ فقال له : إن مت وأنت في جوارى بعثت إلى أهلك بديتك ، فقال : الآن علمت أنك أجرتني ! ثم مدحه وهجا عقمة بما كان يتوَجع منه وهو قوله :

إجارة عامر له من الموت

تَبَيُّتُونَ فِي الْمَشْتَى مِلاءً بَطُونُكُمْ وَجَارَاتُكُمْ غَرَثِي يَبِينَنَّ خَمَائِصَا
وكان يقول : لعنه الله ما أكذبه ! أنحن نعمل هذا بجيراننا ؟

قصده الرسول ثم رجوعه قبل لقاءه

وقد بلغ به الحرص أن قصد رسول الله صلى الله عليه وسلم حين ظهر بمكة بمدخته الدالية ، ولم يكن - على ما يظن - صادق النية فيما قاله ، بدليل أن أشراف قريش اجتمعوا له فصرفوه عن وجهه ، قالوا إنه نزل بدار عتبة بن ربيعة ، فأتاه أبو جهل [وقيل أبو سفيان] فقال يا أبا بصير ! إنه ينهاك عن خلال مالك عنهن من غنى ، فقال وماهن ؟ فذكر له القمار والربا والزنا والخمر ، فتلوّم قليلاً ، ثم كرّ راجعاً بعد أن أخذ ما جمعه له قريش من المال ، فمات بعد قليل (بِمَنْفُوحَةٍ) إحدى قرى اليمامة ، وبها كان منزله .

ونحن الآن نعرض لشيء من شعره ، نفصل منه بعض ما يتسع له المقام ، من مدائحه وأوصافه وخاصة نعته للخمر ، لنبين كيف كان في هذا إماماً للأخطل ، وكيف أن الوصافين للخمر في العصر العباسي وأستأذهم الحسن

ابن هاني ، كانوا يتأثرون طريقته ويصطنعون مذهبه .

قال يمدح الأسود بن المنذر أبا النعمان لأنه ، وكانت من تيم الرباب وهي قبائل من إلياس بن مضر ، وكان أخوه ولاء عليهم . ويقول غير أبي عبدة إنه المنذر بن الأسود ، وكان عنده أسرى من بني سعد بن ضبيعة ، فأتاه الأعشى فدحه وسأله أن يطلقهم ففعل :

مَا بُكَاءَ الْكَبِيرِ بِالْأَطْلَالِ وَسُؤَالِي وَمَا تَرُدُّ سُؤَالِي
دِمْنَةُ قَهْرَةٍ تَعَاوَرَهَا الصَّيْفُ بِرِيْحَيْنِ مِنْ صَبَا وَشَمَالِ
لَاتَ هَذَا كَرَى جُبَيْرَةَ أَوْ مَنْ جَاءَ مِنْهَا بِطَائِفِ الْأَهْوَالِ

وبعد أن عدل نفسه لوقوفه - على كبرته - بالأطلال وبكائها وهي قفر قد اختلف عليها الرياح لا ترد السؤال ، وأنه لم يبق عنده مكان لذكرى جبيرة ، لما بينهما من البعد ، عاد كالمثأسي يذكر ما كان يتنعم به منها ، تعزيا بالذكرى لمعاودة ما فات من اللذات ، قال :

فَلَنْ شَطَّ بِي الْمَزَارُ لَقَدْ أَغْدُوا قَلِيلَ الْهُمُومِ نَاعِمَ بَالِ
إِذْ هِيَ الْهَمُّ وَالْحَدِيثُ وَإِذْ تَعَصَّى إِلَى الْأَمِيرِ ذَا الْأُقْوَالِ
ظَبْيَةٌ مِنْ ظِبَاءٍ وَجُرَّةٌ أَدْمًا تَسْفُ الْكَبَاثَ تَحْتَ الْهَدَالِ (١)
وَكأن السَّمُوطَ عَلَقَهَا السَّلْكُ بَعِطْفِي جَيْدَاءَ أُمَّ غَزَالِ (٢)
وَكأن الْحَجَرَ الْعَتِيقَ مِنَ الْإِسْفَنْطِ مَمْزُوجَةً بِمَاءِ زُلَالِ (٣)
بَا كَرَّتْهَا الْأَغْرَابُ فِي سِنَةِ النُّوْمِ فَتَجْرِي خِلَالَ شَوْكِ السِّيَالِ (٤)

غزله ووصفه
للخمر

- (١) الكبات : ثمر الأراك . الهدال : ما استرسل من أغصانه .
(٢) السموط : جمع سمط ، وهو القعد . علقها : عكفها .
(٣) الإسفنت : أجود الحجر وأغلاها . (٤) الأغراب : الأسنان . واحده غرب .
السيال : نبات له شوك أبيض مستطيل .

فاذهبي ما إليك أدركني الحليمُ عداني عن هيجكم أشغالي
ثم جعل هذا البيت الأخير بمثابة التلخيص إلى ما هو أحق بالذكر مما
هو فيه ، من الإفاضة في أوصاف المدوح ، ومهد لهذا الغرض بذكر الناقة التي
أتعبها في المسير إليه ولم يطل حتى قال :

لا تشكني إلى وانتجعي الأشودَ أهلَ الندى وأهلَ الفعالي
فرعُ نبعٍ يهترُ في غصنِ المجدِ غزيرُ الندى شديدُ الحال
عنده البرُّ والثقي وأسا الصدُّ ع وحملُ المعضلات الثقال
وصلاتُ الأرحامِ قد علمَ النَّا س وفكُّ الأسرى من الأغلال
وهوانُ النفسِ الكريمةِ للذِّكْرِ إذا ما التقتُ صدورُ العوالي
أزيحي صلتُ يظلُّ له القوُّمُ رُكوداً قيامهم للهلال
إن يعاقبُ يكنُ غراماً وإن يقطُّ جزياً فإنه لا يبالي

مدح
للأسود

وبعد أن وصف أريحته ، وذكر ما يهب للمتجعين في عطياه من الإبل
المطافيل والخيل الجياد ، والجواري في أكسية الإضريح والصحاف
والمكايك ، أخذ يعنفه كذلك بالنجدة واستحكام الأمر ، ويذكر جنده
وعدته وقوة ولايته لرعيته وإخضاعه لها قال :

جندك التالذ العتيق من السا دات أهل القباب والآكال^(١)
غير ميل ولا عواوير في الهيسبجا ولا عزل ولا أكفال^(٢)
ودروع من نسج داود في الحر ب وسوق يحمئن فوق الجمال^(٣)
لم ينشرن للصديق ولكن لقتال العدو يوم القتال

(١) الآكال : قطائع كانت الملوك تطعمها الأشراف . (٢) الميل : جمع أميل ، وهو
الجبان أو الذي يميل على سرجه . العواوير : مفردة عوار كرمان ، وهو الجبان أيضاً . العزئ :
جمع أعزل ، وهو من لا سلاح معه : الأكفال : جمع كفل من لا يثبت على الخيل ، أو من
يتأخر في الحرب تلمساً للفرار . (٣) الوسوق : جمع وسق ، وهو الحمل .

لامرئٍ يجعلُ الأداةَ لربِّ الدَّهْرِ لا مُسْنَدٍ ولا زَمَالٍ (١)
كُلُّ عامٍ يقودُ خيلاً إلى خَيْلٍ دِفَاقًا غَدَاةً غِيبَ الصِّيَالِ (٢)
ثم ختمها بقوله :

لن تزالوا كذلكم ثم لازلت لهم خالداً خلوداً الجبال
هكذا رويت القصيدة في شرح أبي العباس أحمد بن يحيى الملقب بشعوب
النحوى ، المتوفى سنة إحدى وتسعين ومائتين ببغداد ، من رواية الأصمعي وأبي
عبيدة وأبي عمرو وغيرهم ، وهي على هذا لم تخالف ما جرت عليه عادة الشعر في
المدح ، من الابتداء بذكر الديار ، والإلمام بالغزل والوصف ، والانتهاء إلى
ذكر شمائل المدوحين والتنويه بمفاخرهم وآثارهم ، ولكن في غير هذا الشرح
من الكتب ، كجمهرة أشعار العرب وبعض المعلقات ، تضاف إليها أبيات
طويلة ، ترونها فيها قد عدل من المدح إلى الحديث عن نفسه ، وما يتصل
بها من وصف الشراب والصيد والفرس والأصحاب ، وانتهى من ذلك
كله بقوله :

ذَاكَ عَيْشٌ شَهِدْتُهُ ثُمَّ وَلَّى كُلُّ عَيْشٍ مَصِيرُهُ لِلزَّوَالِ
وقد أسلفنا لكم بعض هذه الأبيات في الأبواب السابقة ، وقد تكون هذه
من قصيدة أخرى ، لبس على الناس اتفاقها مع تلك في العروض والقافية ، على
أن الأعشى له مثل هذا الخلاف في غير هذه أيضا . وعلى كل حال فهي مسوقة
في ذيل هذا الشرح وحدها مما روى الناس للأعشى مما ليس في ديوانه ، وتعد
مدحته هذه عند بعض العلماء من المعلقات ، وبعضهم يعد مكانها لاميته الأخرى
« ودع هُرَيْرَةَ إِنَّ الرِّكْبَ مُرْتَحِلٌ » وستأتى بعد ، وقد رأيتم فيما سقناه من

(١) المسند : الضعيف . الزمّال : الجبان .

(٢) الدفاق : ككتاب وغراب السريعة . الصيال : الإقدام .

شعره مثلاً من صلابة الكلام واستوائه ، ونسوق مثلاً آخر وهو مديحه لقيس
ابن معد يكرب الكندي من قصيدته التي مطلعها :

رَحَلَتْ مُسَمِّيَةُ غُدْوَةً أَجْمَلًا غَضِبِي عَلَيْكَ فَمَا تَقُولُ بَدَا لَهَا

وفيها تناول حالة من حالات لذاته ، في ميته بهذه الروضة ، التي شبه زهرها
وأنوارها بما تنشره التجار من البرد والرحال ، ومخاتلة الغيور الحذر عن حبة
قلبه ، قال :

مدحته
لقيس بن
معد يكرب

وَمَصَابِ غَادِيَةٍ كَأَنَّ تِجَارَهَا نَشَرَتْ عَلَيْهِ بُرُودَهَا وَرَحَالَهَا (١)
قَدِ بَتُّ رَائِدَهَا وَشَاةٌ مُحَاذِرُ حَذْرًا يُعِلُّ بَعَيْنَهُ إِغْفَالَهَا
فَظَلَّتْ أُرْعَاهَا وَظَلٌّ يَحُوطُهَا حَتَّى دَنَوْتُ إِذَا الظَّلَامُ دَنَا لَهَا
فَرَمَيْتُ غَفْلَةَ عَيْنِهِ عَنِ شَاتِهِ فَأَصَبْتُ حَبَّةَ قَلْبِهَا وَطِحَالَهَا (٢)
حَفِظَ النَّهَارَ وَبَاتَ عَنْهَا غَافِلًا فَحَلَّتْ لِصَاحِبِ لَذَّةٍ وَخِلَالَهَا
وَسَيْئَةٌ مِمَّا تُعْتَقُ بِأَبْلِ كَدَمِ الدَّبِيحِ سَلَبْتُهَا جِرْيَالَهَا (٣)
وَعَرِيبَةٌ تَأْتِي الْمُلُوكَ حَكِيمَةً قَدْ قَلَّتْهَا لِيُقَالَ مِنْ ذَا قَالَهَا

إحدى
أوليائه في
الخر

وبعد ذلك جعل يصف الناقة ، ويذكر حملها إياه إلى قيس ، كما فعل في
القصيدة الأولى ، ثم انتهى منها إلى المدح ، فذكر النيل وفاضل بينه وبين يد
المدوح في العطاء ، وكثيرا ما يتردد ذكر النيل والفرات في شعره ، قال :

مَا النَّيْلُ أَصْبَحَ زَاخِرًا فِي مَدَّة جَادَتْ لَهُ رِيحُ الصَّبَا جَرَى لَهَا
زَبْدًا بِمِصْرَ وَكَانَ يَسْقَى أَهْلَهَا رَغْدًا تُفَجِّرُهُ النَّبِيطُ خِلَالَهَا
يَوْمًا بِأَجْوَدَ نَائِلًا مِنْهُ إِذَا نَفْسُ الْبَخِيلِ تَجَهَّمَتْ سُؤَالَهَا

(١) مصاب غادية : مكان صوب الغادية ، وهي السحابة وشبه نوره وزهره يبرود التجار
ورحالها . (٢) يقصد بالشاة المرأة .

(٣) السيئة : الخر . جريالها : حرمتها « يقول شربتها فظهرت حمرة لونها في وجهي
وأعطاني »

الواهبُ المائة الهيجانَ وعبدها عوداً تزجى بينها أطفالها
ثم أطلال في ذكر مآثر المدوح ومساعيه في كندة حتى قال :
وإذا تجيء كتيبة مأمومة^(١) خرءاء يخشى الدارعون نزالها
كنتَ المقدمَ غيرَ لابسِ جنةٍ بالسيفِ تضربُ معلماً أبطالها
وعلمتَ أن النفسَ تلتقى حثفها ما كان خالقها المليكُ قضى لها

وقد ترون أنه يكاد يخالف طريق الجاهليين بما قد يظهر منه من بعض الإسراف في المدح ، مما يوشك أن يكون مبالغة غير معهودة في الشعر في هذا العصر .

وهذه مدحة أخرى لسلامة ذى فائش أحد ملوك اليمن ، وهي على هذا النمط من الطول والجودة وقوة الاطراد والتدفق ، وفي صدرها وصف للخمر سترون أن العباسيين الذين اشتهروا بها ، وخاصة أبا نواس ، قد اصطنعوا في ذلك مذهب الأعشى وطريقته بعينها ، وهذا مطلع القصيدة :

مديحه
لسلامة
ذى فائش

أجدك لم تغتمض ليلةً فترقدَها مع رقادِها
قال بعد أبيات :

أتاني يؤامرني في الشمولِ ليلاً فقلتُ له غادِها
فرحنا نباكرُ جدَّ الصبوحِ قبل النفوسِ وحسادِها
فقمنا ولما يصح ديكنا إلى جونةٍ عندَ حدادِها^(١)
تنخلها من بكار القططافِ أزيقُ آمنُ أكسادِها^(٢)
فقلنا له هذه هاتِها بأدماءٍ في حبلٍ مقتادِها^(٣)

حديثه في
ارتداد الخمارين
ووصفه للسوم
في الخمر
والساقى

(١) الجونة : الخمر أو الخاية التي توضع فيها . حدادها : صاحبها الذي يحد الناس عنها .
(٢) تنخلها : تخيرها . (٣) الأدماء : الناقة التي يياضها إلى سمرة .

فقال تزيدونني تسعةً وليست بعدلٍ لأندادها
 قلتُ لمنصَـفِنا أعطه فلما رأى حرصَ شهادها^(١)
 أضاءَ مظلتَهُ بالسرا جـ والليلُ غامرُ جدادها^(٢)
 دراهمنا كلها جيِّدٌ فلا تحسبنا بتنقادها
 فقام فصبَّ لنا قهوةً تسكننا بعد إزعاجها
 كميئاً تكشَّفُ عن حمره إذا صرَّحتُ بعد إزبادها
 فجال علينا بإبريقه مخضبٌ كفيِّ بفرصادها^(٣)
 فباتتُ ركابٌ بأكوارها لدينا وخيالٌ بأبادها
 ثم ترك هذا القصص الجميل ، إلى ذكر البداء ، والناقة المشبهة للأتان
 المطردة الخائفة ، وانتهى إلى ذكر المدوح فقال :

توأمٌ سـلامه ذى فائسٍ هو اليومَ حُمِّ لميعادها
 وكم دون بيتك من صفصِفٍ ودَ كدالكِ رملٍ وأعقادها^(٤)
 ويهماءُ بالليل غطشى الفلا ةِ يؤنسنى صوتُ فيادها^(٥)
 فإن حميرٌ أضلحت أمرها وملت تسافه أولادها
 ووجدت إذا اصطلحوا خيرهم وزندك أثقبُ أزندها
 إلى قوله :

وقومك إن يضمنوا جارةً يكونوا بموضع أنضادها^(٦)

(١) النصف : الخادم . (٢) المظلة : الخيمة . الليل غامر جدادها : شامل ومنطى .
 الجداد : الأهداب . (٣) الفرصاد : صبغ أحمر ويطلق على الثوب الأحمر أيضاً .
 (٤) الصفصيف : المستوى من الأرض لا يثبت شيئاً . الدكدالك : أرض فيها غلظ .
 الأعقاد : جمع عقد بفتحين ، ما انعقد وتراكم من الرمل .
 (٥) الیهماء : الأرض لا يهتدى فيها . غطشى : مظلمة سوداء . النیاد : ذكر البوم .
 (٦) الأنضاد : من الجبال جنادل بعضها فوق بعض ، ومن القوم جاعتهم ، والغرض منها
 في البيت يكونون حماها .

فَلَنْ يَطْلُبُوا سِرَّهَا لِلغِنَى وَإِنْ يُسَامِوهَا لِأَزْهَادِهَا
أُنَاسٌ إِذَا شَهِدُوا غَارَةً يَكُونُونَ ضِدًّا لِأُنْدَادِهَا

وله قصيدة أخرى مثل هذه في العروض وتختلف عنها في حرف القافية،
ساقها في مدح قيس بن معديكرب ويزيد بن عبد المدان من ملوك نجران
وهي التي يقول فيها :

وَكَأْسٍ شَرِبْتُ عَلَى لَذَّةٍ وَأُخْرَى تَدَاوَيْتُ مِنْهَا بِهَا
لَكِنِّي يَعْلَمُ النَّاسُ أَنِّي أَعْرُؤُ أَتَيْتُ الْمَسْرَةَ مِنْ بَابِهَا

تداويه من
الكأس
بالكأس

وهذا المعنى بعينه هو الذي قاله أبو نواس في مطلع خمرة له :

دَعَّ عَنْكَ لَوْمِي فَإِنَّ اللُّومَ إِغْرَاءُ وَدَاوِي نِي بِأَلَّتِي كَانَتْ هِيَ الدَّاءُ

ثم قال :

وَكَعْبَةُ نَجْرَانَ حَتْمٌ عَلَيْكَ حَتَّى تَنْأَخِي بِأَبْوَابِهَا
تَزُورُ يَزِيدَ وَعَبْدَ الْمَسِيحِ وَقَيْسًا مُمْ خَيْرُ أَرْبَابِهَا
إِذَا الْحَبْرَاتُ تَلَوَّتْ بِهِمْ وَجَرُّوا أَسْفَلَ هُدَايِهَا
لَهُمْ مَشْرُبَاتٌ لَهَا بَهْجَةٌ تَرُوقُ الْعَيْسُونَ بِتَعَجَّابِهَا

وله مدائح كبيرة في هُوَذَةَ بن علي الحنفي صاحب اليمامة ، وفي غيره من
أمرء العرب ، ونحب أن نذكر لكم أبياتا من قصيدة له في شيبان بن شهاب
يهجوه مطلعها « يا جارتى ما كنتِ جارة » وإنما يريد بذلك أن نوقفكم على وزن
مرقص ، لا يكثر في السنة الشعراء لاستعصائه على القرائح ، واحتياجه إلى قدرة
فطرية بارعة ، قال بعد المطلع :

تُرْضِيكَ مِنْ دَلٍّ وَمِنْ حُسْنِ مُخَالَطِهِ غَرَارَةٌ (١)
بِيضَاءُ ضَحْوَتِهَا وَصَفْرَاءُ الْعَشِيَّةِ كَالْمَرَارَةِ (٢)

(١) الفرارة : الحدأة وقلة التجربة . (٢) الفرارة : شجر له نور أصفر قمر شهر .

رقة النزول
في شعره

وَسَبْتِكَ حِينَ تَبَسَّمَتْ بَيْنَ الْأَرِيكََةِ وَالسَّنَارِ
بِقَوَامِهَا الْحَسَنِ الَّذِي جَمَعَ الْمَدَادَةَ وَالْجِهَارَةَ
وَبِحَيْدِ مُغْزَلَةٍ إِلَى وَجْهِهِ تَزِينُهُ النَّضَارَةَ
وَمَهَّأَ يَرِفٌ غُرُوبُهُ يَشْفِي الْمُنِيمَ ذَا الْحَرَارَةَ (١)
كَذُرَى مُنْسُورٍ أُفْحُوا نِ قَدْ تَسَامَقَ فِي قَرَارِهِ
وَعْدَائِرِ سُودٍ عَلَى كَفَلٍ تَزِينُهُ الْوَنَارَةَ
وَأُرْتِكَ كَفًّا فِي الْخِضَاءِ بِ مِعْصَمًا مَلءَ السَّوَارَةَ
وَإِذَا تُنَازَعُكَ الْحَدِيثُ ثَبَّتْ فِي النَّفْسِ أُرُورَارَةَ

وله قصائد أخرى طوال على هذا الروي في المدح والمهجاء ، وليس من شأننا هنا استقصاء كل ذلك ، ولا الإحاطة بكل من مدح الأعشى ولا كل من هجا ، وحسبنا ما ذكرنا من مدائحه وخمرياتة ، ونذكر الآن بعض أهاجيه ، واستعطافه لشريح بن السموم حين استنقذه من الكلبى ، ومدحته في رسول الله صلى الله عليه وسلم ، ثم نختم ترجمته بذكر ما قال الرواة في نقد كلامه من جيده ورديته ، ونضيف إلى ذلك ما نراه في هذا النقد .

فمن أهاجيه لاميته المشهورة وهى فى يزيد بن مسهر الشيبانى ، وكان أبو عبدة يقول « لم تقل جاهلية على رويها أجود منها ، كما لم تقل إسلامية أجود من قصيدة القطامي التى مطلعها : إنا محيوك فاسلم أيها الطلل » قال الأعشى :

أحد مطالعه
المذكورة

وَدَعَّ هُرَيْرَةَ إِنْ الرَّكْبَ مَرَّحِلُ وَهَلْ تُطِيقُ وَدَاعَا أَيُّهَا الرَّجُلُ
غَرَاءُ فَرَعَاءُ مَصْنُوقٌ عَوَارِضُهَا تَمْشِي الْهُوَيْنِي كَمَا يَمْشِي الْوَجِي الْوَحِلُ (٢)
كَأَنَّ مَشِيَّتَهَا مِنْ بَيْتِ جَارَتِهَا مَرُّ السَّحَابَةِ لَا رَيْثُ وَلَا عَجَلُ

(١) للمها : جمع مهاة ، وهو هنا الأسنان . الرفيف : اللعان . الغروب : الحدود أو أطراف الأسنان . (٢) الوجى : الذى يشتكى حافره .

صِفْرُ الْوِشَاحِ وَمِلْءُ الدَّرْعِ بِهَيْكَنَةٍ إِذَا تَثَنَّتْ يَكَادُ الْخَصْرُ يَنْخَزِلُ (١)
إلى أن قال :

مَارَوْضَةٌ مِنْ رِيَاضِ الْحَزَنِ مُعْشِبَةٌ خَضْرَاءُ جَادَ عَلَيْهَا مُسْبِلٌ هَطِلٌ (٢)
يُضَاحِكُ الشَّمْسَ مِنْهَا كَوْكَبٌ شَرِيقٌ مَوْزَرٌ بَعِيمٌ النَّبْتِ مُكْتَهِلٌ (٣)
يَوْمًا بِأَطْيَبِ مِنْهَا نَشْرًا رَائِحَةٌ وَلَا بِأَحْسَنَ مِنْهَا إِذْ دَنَا الْأَصْلُ (٤)
عُلِقَتْهَا بَعْرَضًا وَعُلِقَتْ رَجُلًا غَيْرِي وَعُلِقَ أُخْرَى ذَلِكَ الرَّجُلُ

وقد مضى يصف المطر والبرق ، وأجاد في هذا وفي كل ما في القصيدة من الأغراض ، وهو الذي أعجب أبا عبيدة وغيره ، أما الهجاء فهو غير فاحش ، وقد يكون أشبه بالعتاب والتوعيد ، لأنه يتعرض فيه لرجل من قومه

قال في الخالسة ، وهي من المعاني التي يكررها الأعشى في هذا الموضع

من قصائده :

وَقَدْ أَخَالِسُ رَبَّ الْبَيْتِ غَفَلْتُهُ وَقَدْ يُحَازِرُ مِنِّي ثُمَّ مَا يَبْلُ (٥)
وَقَدْ أَقْوَدُ الصَّبَا يَوْمًا فَيَتَّبِعُنِي وَقَدْ يُصَاحِبُنِي ذُو الشَّرَّةِ الْغَزَلُ
وَقَدْ غَدَوْتُ إِلَى الْخَانُوتِ يَتَّبِعُنِي شَاوٍ مِثْلُ شَاوٍ شَلْشُلٌ شَوْلٌ (٦)
فِي فِتْيَةٍ كَسِيُوفِ الْهِنْدِ قَدْ عَلِمُوا أَنْ لَيْسَ يَدْفَعُ عَنْ ذِي الْحِيلَةِ الْحَيْلُ
نَازَعْتُهُمْ قُضِبَ الرِّيحَانِ مُتَكِيًّا وَقَهْوَةٌ مُرَّةٌ رَاوُوقَهَا خَضِلٌ (٧)
يَسْعَى بِهَا ذَوْزُجَاتٍ لَهُ نَطْفٌ مُقْلَصٌ أَسْفَلَ السَّرْبَالِ مُعْتَمِلٌ (٨)

خالسته
ووصفه
للشراب
والساقى

وبعد ما تناول هذا اللهو العجيب في ذكر الخالسة والصبأ ، وصحبة الماجن

(١) صفر الوشاح : ضامرة الكشح دقيقة الخصر ، ولكنها ملء القميص . الهيكنة : الكبيرة الخلق ، وقيل الجارية الحليفة الروح (٢) الحزن : المرتفع من الأرض .
(٣) يريد بكوكب هنا جماعة الزهر الذي يفتح ويشرق عند شروق الشمس . المؤزر : المنطى . المكتهل : الكامل التام . (٤) الأصل : جمع أصيل ، الوقت من العصر إلى العشاء . (٥) بثل : ينجو . (٦) شاو : شواء . المثل والشلول والشلش : الخفيف في الحاجة ، السريع في الخدمة ، وكذلك الشول .
(٧) الراووق : الصفاة . الخضيل : البتل . (٨) مقلص : مشمر .

الغزل والإخوان المسعفين ، وتنقلهم بالرياحين على الشراب ، ووصف اعتمال الساقى وجهه فى متابعتهم على الشراب ، وقد أجاده وصوره وشمر سرباله ، جعل يقرع يزيد ، ويذكره بهوان نفسه وضعفه عما يحاول من قرع صفاتهم ونحت أثلتهم ، قال .

تهريعه ليزيد
الشيبانى .

أَبْلِغْ يَزِيدَ بَنِي شَيْبَانَ مَأْلَكَةً أَبَا ثُبَيْتٍ أَمَا تَنْفَكُ تَأْتِكِلُ (١)
أَلَسْتَ مُنْتَهِيًا عَنِ نَحْتِ أَثْلَتِنَا وَلَسْتَ ضَائِرَهَا مَا أَطَّتِ الْإِبِلُ (٢)
كَنَاطِحِ صَخْرَةٍ يَوْمًا لِيُوهِنَهَا فَلَمْ يَضِرْهَا وَأَوْهَى قَرْنَهُ الْوَعِلُ

ثم ختمها بالافتخار بقومه ، وذكر بلأثم يوم الحنو وهو يوم ذى قار المشهور ، وقال :

نَحْنُ الْفَوَارِسُ يَوْمَ الْحِنُوِّ ضَاحِيَةٌ جَنَبِيْ فُطَيْمَةٌ لَامِيْلَةٌ وَلَا هُرُلُ
قَالُوا الطَّرَادَ فَقَلْنَا تِلْكَ عَادَتُنَا أَوْ تَنْزِلُونَ فَإِنَّا مَعْشَرٌ نَزُلُ

وقد ذكر ناسب هجائه لعقمة بن علاثة ، وله فيه جملة قصائد ، نذكر منها :

شاقك من قتلة أطلالها بالشط فالوتر إلى حاجر

وقد أساء فيها إلى عقمة وكذب عليه وأخس ، وفى صدرها غزل خير لنا أن نورده لكم لرقته وحسنه ، قال :

وصفه لقتلة .

وقد أراها وسط أترابها فى الحى ذى البهجة والسامر
كدمية صُورٍ محرابها بمذهب فى مرمرٍ مائر
أَوْ بَيْضَةٍ فى الدَّعْصِ مَكْنُونَةٍ أَوْ دُرَّةٍ شَيْفَتُ لَدَى تَاجِرِ (٣)
يَشْفَى غَلِيلَ النَّفْسِ لِأِهْلِهَا حَوْرَاءُ تَسْبِي مُقَلَّةِ النَّاضِرِ
عَهْدِي بِهَا فى الْحَى قَدْسُرِبِلَتْ هَيْفَاءُ مِثْلُ الْمُهْرَةِ الضَّامِرِ

(١) المألكة : الرسالة . تأكل : تمقد وتتهب من الغيظ . (٢) الأثلة : الأصل .

أطت : أنت تعبا . (٣) الدعص : المجتمع من الرمل . شيفت : جليت .

قد نهدَ الثدى على نحرها في مشرق ذى صبحٍ نأثر
لو أسندتُ ميتاً إلى صدرها عاشَ ولم يُنقل إلى قابر
حتى يقولَ الناسُ مما رأوا يا عجيباً للميتِ الناشر
دعها فقد أعذرتَ في حُبها واذكرُ خنا علقمةَ الفاجر
علقمُ ما أنتَ إلى عامرٍ الناقيصِ الأوتارِ والواترِ

هجاؤه لعلقمة
ابن علاثة

وعلى هذا النمط أطال وتعرض للحكومة بين عامر وعلقمة ، وهجاء أيضاً
بغير هذا ، ولكنه عاد فمدحه وندم واعتذر إليه مما كان منه ، وكذلك كان
يفعل ، ويضاف إليه قوله في أوس بن لام الطائي ، من أبيات ليست في ديوانه
الذي شرحه ثعلب وفيها يقول :

سأُخو بمدحٍ فيك إذ أنا صادقٌ كتابَ هجاءٍ سارٍ إذ أنا كاذبٌ

أما استعطافه لشريح ، فقد أشار فيه إلى أبيه السموع ، وما كان من
وفائه بودائع امرئ القيس ، ورضاه بقتل ولده رغبة عن معرفة الغدر ، وإيثاراً
لفضيلة الوفاء الذي جعله على الدهر مضرب المثل ، ولا يزال يقال «أوفى من
السموع» ثم قال :

شريحُ لا تتركني بعد ما علقيت جبالك اليومَ بعد القِدِّ أظفارى
كنُ كالسموعِ لِي إذ طاف الهمامُ به في جَحْفَلِ كَسَوادِ اللَّيْلِ جَرَّارِ
بالأبلى الفرد من تيماء منزله حصنٌ حصينٌ وجارٌ غيرُ غدارِ
إذ سامه خُطتي خَسَفِ فقال له قل ما تشاء فإني سامِعٌ حَارِ
فقال تُكلِ وغدري أنتَ بينهما فاخترِ وما فيهما حظٌّ لِمُخْتَارِ
فشكَّ غيرَ طويلٍ ثم قال له أقتل أسيرك إني مانعٌ جَارِي
وسوف يُعقِبُنِيه إن ظفرتَ به رَبُّ كَرِيمٌ وبييضٌ ذاتُ أَطْهَارِ
لا سِرُّهُنَّ لدينا ذائعٌ أبداً وحافظاتٌ إذا استودعنَ أسرارِي

حديثه مع
شريح بن
السموع

مدحته في
رسول الله

وهي طويلة نكتفي بهذا منها ، وقد كان من أمره معه ما ذكرناه لكم آنفاً .
أما قصيدته التي مدح بها النبي صلى الله عليه وسلم ، فقد سبق أنه لم يبلغه
بها ، لما كان من اجتماع قريش له وصرّفهم إياه عن وجهه ، بما أجزلوا له من
الخباء ، وهي من الأدلة على ما كان لشعره من التأثير في العرب ، وشدة توقيهم
له وحذرهم منه ، ومطلعها :

ألم تَغْتَمِضْ عَيْنَاكَ لَيْلَةَ أَرْمَدَا وَعَادَكَ مَا عَادَ السَّلِيمَ الْمَسْهَدَا
وفيها يقول :

وَمَا زِلْتُ أَبْغِي الْمَالَ مُذْ أَنَا يَافِعٌ وَلِيداً وَكُهْلاً حِينَ شَبْتُ وَأَمْرَدَا
فَإِنْ تَسْأَلِي عَنِّي فَيَا رَبِّ سَأَلِي حَنِيٍّ عَنِ الْأَعْشَى بِهِ حَيْثُ أُصْعَدَا
أَلَا أَيُّهَا السَّائِلِي أَيْنَ يَمْتَمُتُ فَإِنَّ لَهَا فِي أَهْلِ يَثْرِبَ مَوْعِدَا

يعني ناقته ، التي جعل يصفها بالمضاء وخفة التوجس ، والنشاط في السير ،
حتى قال :

فَالَيْتُ لَا أَرِثِي لَهَا مِنْ كَلَالَةٍ وَلَا مِنْ حَنِيٍّ حَتَّى تَزُورَ مُحَمَّدَا
مَتَى مَا تُنَاخِي عِنْدَ بَابِ ابْنِ هَانِمٍ تُرَاحِي وَتَلْقِي مِنْ فَوَاضِلِهِ يَدَا
نَبِيٌّ يَرَى مَا لَا تَرُونَ وَذَكَرَهُ أَغَارَ لَعْمَرَى فِي الْبِلَادِ وَأُنْجَدَا
لَهُ صَدَقَاتٌ مَا تَعِبْتُ وَنَائِلٌ وَلَيْسَ عَطَاءُ الْيَوْمِ مَانِعَهُ غَدَا
أَجِدْكَ لَمْ تَسْمَعْ وَصَاةَ مُحَمَّدٍ نَبِيِّ الْإِلَهِ حِينَ أَوْصَى وَأَشْهَدَا
إِذَا أَنْتَ لَمْ تَرْحَلْ بَزَادٍ مِنَ التُّقَى وَلَا قَيْتَ بَعْدَ الْمَوْتِ مِنْ قَدْ تَزَوَّدَا
نَدِمْتُ عَلَى أَلَا تَكُونُ كَمَثَلِهِ فَتُرْصِدَ لِلْأَمْرِ الَّذِي كَانَ أَرْصَدَا

ثم ذكر أشياء من آثار الدعوة الدينية مما تأمر به أو تنهى عنه ، وكان
الأعشى يعرف ما يعرف من ذلك عن أحبار اليهود ونصارى الحيرة والشام ، في
طوافه وتقلبه في تلك البلاد .

روى الأصمعي (وهو أبو سعيد عبد الملك بن قُريْب) قال : تناظر رَبْعِي ومُضْرِي في الأعشى والنابغة فقال المضري للربعي : صاحبك أخنث الناس حين يقول :

قد القدماء
لشعره

قالت هريرة لما جئتُ زائرَها ويلي عليك وويلي منك يا رَجُلُ
فقال الربعي : أفعلِي صاحبِكُمُ تعوّل ؟ وهو الذي يقول :
سقط النَّصيفُ ولم تُردْ إسقاطَه فتناولتَه واتَّقمتنا باليَد
لا والله ما أحسن هذه الإشارة إلا مخنث !!

محاوره ربعي
ومضري في
بيت الأعمشى
والنابغة

وعندنا أن بيت النابغة أطف في هذا المعنى ، فإنه تناول إشارة وحركة يصحبها في الغالب كلام من كلام النساء في مثل هذه الأحوال ، أما الأعشى فذكر « ويلا » وكلاما تفعله مواجن النساء ، وقد لا يتصل بهذا النوع المحبوب في المرأة من الحياء والخفر ، ولا يزال دل الفعل وحركات الجوارح ، أعشق للمتغزلين حتى من خنث الكلام .

وروى محمد بن يزيد المبرد . قال : أنشد عبد الملك بن مروان بيت الأعشى
أتاني يُوأمرُني في الشمول ليلا قلتُ له غادِها
فقال عبد الملك : أساء ، ألا قال هاتها ! وهو نقد حسن إذ كان الليل بساط
الشراب ومسرح السمر والتكشف .

نقد
عبد الملك له

وروى المرزباني في « الموشح » عن بعض شيوخه قال : أدركت الناس وهم يزعمون أن أكذب بيت قالته العرب في الجاهلية قول أعشى بنى قيس ابن ثعلبة :

ما نسب فيه
الكذب إلى
الأعشى

لو أسندت مَيِّتاً إلى صدرِها عاش ولم يُنقل إلى قَابِر
ولك أن تقول ليس في هذا شيء ، لاحتمال أن يقع ذلك لأحد المفتونين بهواها ، كالذي كان يتفق لكثير من عشاق العرب وخاصة العذريين ، فلقد كان الواحد منهم يلتبظ بالأرض ، وتظن به الظنون وأنه قد مات ، فما هو

إلا أن ينادى باسم صاحبه أو تدعى له ، فتمسه أو تحمله بين يديها حتى يصحو ويفيق وكأن لم يكن به شيء على أن مثل هذه المبالغة قد يخف ويسوغ لمكان «لو» في صدر الكلام ، وهي التي سوغت ماورد من مثل قوله تعالى : « قُلْ لَوْ أَنَّكُمْ تَمْلِكُونَ خَزَائِنَ رَحْمَةِ رَبِّي إِذًا لَأَمْسَكْتُمْ خَشْيَةَ الْإِنْفَاقِ » .

تفصيل
الشعبي له على
الأخطل
واقرار
الأخطل ذلك

وروى صاحب «الأغاني» قال: دخل الأخطل وهو يفوح خمرًا وطيبًا على عبد الملك بن مروان وعنده عامر الشعبي فلما رآه قال يا شعبي فعل الأخطل بأهيات الشعراء جميعا لا يكتفى ! فقال له الشعبي بأى شيء؟ قال حين يقول :

وتظل تنصُفنا بها قرويةً إبريقها برقاعه ملثوم^(١)
فإذا تعاورت الأَكفُ زُجَّاجها نَفَعَت فِشْمَ رِيَّاحها المَزكُومُ

ثم قال هل سمعت بمثل هذا يا شعبي؟ قال إن أمتك قلت لك، قال أنت آمن فقال له أشعر منك والله الذي يقول :

وأذ كن عاتق حجل ربحل صبغتُ براحه شربا كراما^(٢)
من اللاتي حُملن على المطايا كريج المسك تستل الزكاما

جعلها الأخطل لقوة ريحها يستطيع المزكوم أن يشم نفتحها ، وجعلها الأعشى تستل الزكام أصلا . فقال الأخطل ويحك من يقول هذا ؟ قال قلت الأعشى ، أعشى بنى قيس بن ثعلبة فقال : قد دوس ! فعل والله الأعشى بأهيات الشعراء جميعا ولا يكتفى أيضا !

وذكر المرزباني أيضا أشعارا عدها من سقط الأعشى ورديته - وكذلك هي - ومن ذلك قصيدته التي مطلعها :

لعمرك ما طول هذا الزمن على المرء إلا عناء معن

جاء فيها :

(١) تنصُفنا : تحدمنا . ملثوم : مغطى . (٢) الأدكن : المائل إلى السواد . العاتق : القديم . الربحل : العظيم والواسع العطاء .

وَلَمْ يَسْعَ فِي الْحَرْبِ سَعَىٰ امْرِئٍ إِذَا بَطْنَةٌ رَاجَعَتْهُ سَكَنَ
عَلَيْهَا وَإِنْ قَاتَهُ أَكَلَتْهُ تَلَافَى لِأُخْرَىٰ عَظِيمِ الْعُكْنِ
يَرَىٰ هَمَّهُ أَبَدًا خَصْرَهُ وَهَمُّكَ فِي الْغَزْوِ لَا فِي السَّمَنِ

قال ومثل هذا الشعر مما يُصدى الفهم ، والحق أن المرء إذا لم يفضل
الفضلاء ، فلا خير فيه ولا فضل له ، وفي هذه القصيدة مما استهجنه المدوح بها
نفسه ورده قوله :

وَنُبِّئْتُ قَيْسًا وَلَمْ أَبْلُهُ وَقَدْ زَعَمُوا سَادَ أَهْلَ الْبَيْنِ

فعابه هذا الشك ، قيل فجعل مكان « وقد زعموا » قوله « على نأيه »
ولم يغنه ذلك ، وروى أن كثيراً أنشد عبد الملك بن مروان قوله فيه :

عَلَىٰ ابْنِ أَبِي الْعَاصِي دِلَاصٌ حَصِينَةٌ أَجَادَ الْمَسْدَىٰ سَرْدَهَا وَأَذَاهَا

فقال له عبد الملك : وصفتني بالجن ! هلا قلت كما قال الأعشى في قيس
ابن معديكرب :

وَإِذَا تَكُونُ كَتَيْبَةً مَلُومَةٌ خَرَسَاءُ يُخَشَىٰ الدَّارِ عُونَ نِزَالَهَا

كنتَ المقدم غير لابسِ جُنَّةٍ بِالسِّيفِ تَضْرِبُ مُعَلِّمًا أَبْطَالَهَا

فقال وصفتك يا أمير المؤمنين بالحزم ووصف صاحبه بالخرق ! يريد بذلك
أن يعيب على الأعشى ويحتج لنفسه ، وليس الأمر كما قال ، ذكر أبو الحسن
على بن عبد العزيز الجرجاني المتوفى سنة ٣٦٦ هجرية « صاحب الوساطة بين
المتنبي وخصومه » ما يراه في هذا المقام بعينه قال : إن مذاهب العرب
المحمودة عندهم ، المدوح بها شجعانهم ، التفضل عند اللقاء ، وترك التحصن في
الحرب ، وأنهم يرون الاستظهار بالجنين ضرباً من الجن ، وكثرة الاحتفال
والتأهب دليل على الوهن ، وأنشد البيهقي السابقين للأعشى .

قالوا وإن مروان بن أبي حفصة ، أتى حلقة يونس بن حبيب النحوي المتوفى
سنة اثنتين وثمانين ومائة ، وعمره نحو مائة سنة ، فقال : أصلحك الله ، إني أرى

عبد الملك
وكثير
والأعشى

مذاهب
العرب في
التأهب
والتفضل
عند الحرب

تقد يونس
النحوي له

أقواما يقولون الشعر ، لأن يكشف أحدهم عن سواته ليمشى في الطريق أحسن به من أن يظهر مثل ذلك الشعر ! وقد قلت شعراً أعرضه عليك فإن كان جيداً أظهرته ، وإن كان رديئاً سترته ، وأنشده :

طَرَقَتْكَ زَائِرَةٌ فِي خِيَالِهَا بِيضَاءِ تَخْلُطُ بِالْجَمَالِ دَلَالِهَا
قَادَتْ فَوَادِكَ فَاسْتَقَادَ وَمِثْلُهَا قَادَ الْقُلُوبَ إِلَى الصَّبَا فَأَمَّا لَهَا

وفي هذه القصيدة يقول : يمدح أمير المؤمنين المهدي ويعرض بأعدائه :

هَلْ تَطْمِسُونَ مِنَ السَّمَاءِ نُجُومَهَا بِأَكْفِكُمْ أَوْ تَسْتُرُونَ هِلَالَهَا
أَوْ تَمْجِّحُونَ مَقَالَةَ مَنْ رَبِّكُمْ جَبْرِيلُ بَلَّغَهَا النَّبِيَّ فَقَالَهَا
شَهِدَتْ مِنَ الْأَنْفَالِ آخِرُ آيَةٍ بِتَرَاتِيمِهِمْ فَأَرَدْتُمْ إِبْطَالَهَا

قالوا ، فقال له يونس : يا هذا ! اذهب فأظهر هذا الشعر ، فأنت والله أشعر فيه من الأعشى . يريد قصيدته « رَحَلَتْ سَمِيَّةٌ غُدُوَّةً أُجْمَلًا » فقال له مروان : سوؤتى وسررتنى ا سررتنى لارتضائك الشعر ، وسوؤتى لتقديمك إياى على الأعشى . وأنت تعلم مكانه ، فقال له إن الأعشى قال :

فَرَمَيْتُ غَفْلَةً عَيْنِهِ عَنْ شَاتِهِ فَأَصَبْتُ حَبَّةَ قَلْبِهَا وَطَعَا لَهَا
وَالطَّحَالُ لَا يَدْخُلُ فِي شَيْءٍ إِلَّا أَفْسَدَهُ ، وَأَنْتَ لَمْ تَقُلْ ذَلِكَ .

وهذه أيضا نقد عالم بمواقع الألفاظ ، فان كلمة الطحال هنا بشعة ساقطة ، وهى أشبه بمن يريد أن يعظمك ويحلف بك فيقول وحق يافوخك (مكان رأسك) قال صاحب الموشح « وهم يذكرون القلب والفؤاد والكبد عند ذكر الهوى والشوق والمحبة ، وما يجده الغرم في هذه الأعضاء من الحرارة والكرب ، ولم يجدوا الطحال استعمال في هذه الحال إذ لا صنع له فيها ، ولا هو مما يكتسب حرارة ولا حركة في حزن ولا عشق ، ولا بردا وسكونا في فرح أو حزن ، فاستهجنوا ذكره » .

وعاب الأصمعى قول الأعشى :

تمشي إلى بيتها من بيت جاريتها مرة السحابة لا ريث ولا تجل
فقال جعلها خراجة ولاجة ! هلا قال كما قال الآخر :

ما عابه
الأصمعي من
شعره

ويكرمها جاريتها فيزونها وتعتل عن إتيانهم فتعذر
وأظن أن هذا النقد لا يجرى إلى البغاية من الصواب ، فما لامرأة غنى عن
أن تأتي يوما جاريتها ، وإنما أراد الأعشى صفتها في لين مشيها وحسنه .

ومن عجيب أمر الأعشى ، أنه على جلالاته ورهبة الناس له ، أحد الذين
غلبوا في الهجاء بالكلام ، وذلك أنه كان يهاجى عمرو بن عبد الله بن المنذر وهو
جُهَنَام ، وهو ابن عمه ، وكان عمرو يهجو به أبيه قيس الذي يسمى قتيل الجوع ،
ذكروا أنه دخل غاراً يستظل فيه من الحر ، فوقعت على فم النار صخرة عظيمة
فسدته فمات فيه جوعاً ، قال له الأعشى يوماً :

الأعشى مع
جهنم يهجو
فيفحسه
بالكلام

فأنت من أهل الحجون ولا الصفاً ولا لك حق الشرب من ماء زمزم
فقال له جُهَنَام : لكنك يا أبا بصير من أهله ! يعرض به أنه مثله في ذلك
فإن هجاه به فقد هجا نفسه معه ، ثم قال له :

وما بواً الرحمن بيتك في العلاء بأجساد شرقي الصفا والمحرم
فقال له جهنم : لكنك يا أبا بصير عريض المباءة بها ! يعرض به أيضاً .
قال أبو عمرو بن العلاء : ومثله في ذلك الأخطل ، قال لشقيق بن ثور أو
قاله لسويد بن منجوف :

وما جذع سوء خرَّق السوس جوفه لما حملته وائل بمطيق
فقال له : يا أبا مالك ! أردت هجائي فمدحتني ! والله ما تحملني ذهل أمرها ،
وقد حملتني أنت أمر وائل طراً ! فغلبه .

الأخطل
وشقيق بن
ثور أو سويد
ابن منجوف

وفضالة بن شريك قال لعبد الله بن الزبير :
ومالي حين أقطع ذات عرق إلى ابن الكاهلية من معاد

فضالة بن
شريك وابن
الزبير

فقال ابن الزبير : غيرني بشر جداتي وهي خير عماته ! فغلبه .

والأعشى هو ميمون بن قيس بن ثعلبة ينتهي نسبه إلى بكر بن وائل .
ويكنى أبا بصير ، وإنما سمي الأعشى لسوء بصره ، وقد عمى في آخر عمره وأدرك
الإسلام ولم يسلم ، والله أعلم .

ه - لبيد بن ربيعة العامري

يستطيع الباحثون أن يجدوا شعاعا من ضوء التاريخ ، يهتدون بسناه إلى
صورة قريبة من الحق في تقدير النشأة الخاصة التي درج هذا الشاعر في خلالها ،
وتأثرت مواهبه منذ صباه بآثارها ، فهو حدث قد تحرك ، وما أثر قومه وشهرة
آبائه تملأ الآفاق في نجد ، وما كان لشيء أن يصرفه عن الإصغاء لما يتخذت
به الناس عنهم ، وما يذكرونه من مناقبهم ، وهذا أبوه « ربيعة » الذي كان يسمى
ربيعة المعتز بن لجوده ونجدته ، وأولئك أعمامه « عامر ملاعب الأسننة »
والطفيل فارس قرزل^(١) « ومعاوية مموذ الحكاء » بنو أم البنين ، إحدى
المنجيات من نساء الجاهلية . وكانت أمه إحدى بنات جذيمة بن رواحة العبسي^(٢) .

(١) اسم فارس له ولخديفة بن بدر .

(٢) ومن المنجيات : أم البنين فاطمة بنت الحارث الأبخارية ، وتسمى أم الكلمة ، ولدت
الربيع وعامرة وقيسا وأنسا أبناء زياد العبسين وقد سئلت عن بنيتها ، أيهم أفضل ؟ فقالت
« الربيع لا بل عامرة ، لا بل قيس ، لا بل أنس ، نكلتهم إن كنت أدري أيهم أفضل .
كالحلقة المفرغة لا يدري أين طرفاها » ومنهن أيضا معاوية بنت عبد مناة بن عبد الله بن حرام ،
أم حاجب ولقيط وعلقمة ، أبناء زرارة بن عدس التيمي ، وحاجب هو الذي وفد على كسرى
فرهنه قوسه لضمانة السواد ووفى له بذلك ، وكانت مفخرة لقيم في الجاهلية ؛ قال الشاعر يمدح
بلاء الشيبانيين من بني بكر يوم ذى قار ، ويقايس بين هاتين المنجيتين :

إذا أفتخرت يوما تميم بقوسها وزادت على ما وطلدت من مناقب
فأتم بذي قار أمالت سيوفكم عروش الذين أسترهنوا قوس حاجب

وكان بين العيسيين وبين بني عامر بن صعصعة - رهط لبيد - عداوة آثارا
 أن خالد بن جعفر أحد ساداتهم وقوادهم ، قتل زهير بن جذيمة أبا قيس بن زهير
 صاحب داحس والغبراء ، وخلص قومه وسائر بطون هوازن من ذل الإتاوات
 التي كان يجبيها منهم بالعسف والقسر ، وكان العامريون يقدون كل سنة على
 قصور الحيرة عند النعمان بن المنذر ، وكان الربيع بن زياد مخصوصا به أثيراً
 عنده ، يستخلصه لنفسه ويناديه ، فكان يسيء إليهم وينقصهم ويؤخر إياهم ،
 واتفق أنهم عادوا ليلة من عند الملك إلى رحلم غضابا ، فقعدها يأمرون فيما
 بينهم ، ولبيد معهم فسألهم ما بهم ، فلم يجيبوه استصغارا لشأنه فحلف بإلهم
 لا يحفظ لهم متاعا ولا يرعى لهم راحلة إن لم يخبروه بشأنهم ، فقال له عمه عامر بن
 مالك ملاعب الأسنة وهو زعيم الوفد ورئسهم : خالك الربيع يسيء إلينا عند
 الملك ، فقال لهم : أتقدرون أن تجمعوا بيني وبينه ؟ قالوا : وما تصنع ؟ قال : أزجره
 عنكم ، بقول ممض مؤلم ، لا يلتفت إليه الملك بعده أبدا ، قالوا : فإنا نبؤك
 بشتم هذه البقلة ، وقدامهم بقلة دقيقة القضبان ، قليلة الورق ، لاصقة بالأرض ،
 تدعى التربة ، فقال : هذه التربة التي لا تؤهل داراً ، ولا تُدكي ناراً ، ولا تسرُّ
 جاراً ، عودها ضئيل ، وفرعها كليل ، وخيرها قليل ، نبتها خاشع ، وآكلها
 جائع ، والمقيم عليها ضائع ، أخبث البقول مرعى ، وأقصرها فرعا ، فتعسا لها
 وجدعا ! ألقوا بي أبا عيس ، أردت عنكم بتعس ، وأتركه من أمره في لبس . فلما
 أصبحوا حلقوا رأسه وألبسوه حلة ، وغدوا به معهم على باب الملك ، والدار
 والمجالس مملوءة بالوفود وجماعات الناس ، وكان أمرهم قد تقارب والربيع مع الملك
 يطاعمه فتقدم لبيد ، فلما كان بحيث يسمعه الملك رجز بالربيع وتناوله بهجاء
 مقدح ، في مقطوعة^(١) له مروية فصرف عنه وجه الملك ، وأذن لبني عامر فأكرم
 وفادتهم وقضى حوائجهم ، وكان هذا أول ما عرف من كفاية لبيد ونجاته .

الربيع بن زياد
والعامريون
عند النعمان

وصفه التربة

غلبته للربيع
أن زياد

(١) جاء فيها قوله :

مَهْلًا أَيْدِيَتَ اللَّعْنِ لَا تَأْكُلُ مَعَهُ إِنَّ اسْتَهُ مِنْ بَرَصٍ مُلْتَمَعَةٍ
 وَإِنَّهُ يَدْخُلُ فِيهَا إِصْبَعَهُ يَدْخُلُهَا حَتَّى أُيُورِي شَجَعَهُ
 * كَأَنَّمَا يَطْلُبُ شَيْئًا أَوْدَعَهُ *

ويذكرون أن الحارث الأعرج الغساني أحد ملوك الشام جعله على رأس
مائة من جلداء الفتيان ، فاغتالوا بعض ملوك الحيرة من المناذرة ، وقد نجا لبيد
فيمن بقي من تعقب التبع والجنود ، روقع بسبب ذلك يوم خليعة المضروب به
المثل في قولهم « ما يوم خليعة بسير . »

فتك لبيد
ببعض ملوك
الحيرة

ومن رهط لبيد عروة الرحطال مجير لطيمة الثعمان ، وقد عرقت شيئاً من خبره
فيما أسلفنا من أيام العرب عند ذكر حروب الفجار ، وابن عمه عامر بن الطفيل
من أوسع فرسان العرب ذكراً وشهرة ، ذكر أبو الفرج الأصبهاني في ترجمة
عمرو بن معديكرب الزبيدي صاحب الصمصامة المشهور ، قال ؛ قال عمرو : لو
سرت بظمينة وحدي على مياه معدٍ كلها ما خفت أن أغلب عليها ما لم يلقي
حرها أو عبداها ! فأما الحران فعامر بن الطفيل وعتيبة بن الحارث بن شهاب ،
وأما العبدان فأسود بن عابس « يعني عنزة » والسليك بن الشلكة ، وكلهم
قد لقيت ، فأما عامر فسرّيع الطعن على الصوت ، وأما عتيبة فأول الخيل إذا
أغارت وآخرها إذا آبت ، وأما عنزة فقليل الكبوة شديد الجلب ، وأما السليك
فبعيد الغارة كالليث الضاري .

عروة الرحال
وعامر بن
الطفيل

عمرو بن
معديكرب
يصف
فرسان
العرب
الأربعة

أولئك هم قوم لبيد ، وهم بنو جعفر بن كلاب الذين يقول فيهم طفيل الغنوي
أحد شعراء الجاهلية الوصّافين للخيل وبها كان يسمى :

مدح طفيل
الغنوي لقوم
ليد

جزى الله عنا جعفرًا حين أزلت بنا نعلنا في الواطئين فزلت
مهمم خلطونا بالنفوس وألجئوا إلى حجرات أدفأت وأظلت
أبوا أن يملأونا ولو أن أمنا تلاقى الذي لأقوه منا مللت

وأتم ترون ما في هذا الشعر الكريم من جمال العاطفة ورقة التصوير
وتقدير غاية المدوحين في كرم الإيواء وحسن الجوار .

وقد ورث لبيد من أبيه ربيعة خلة الجود ، فنذر على نفسه في الجاهلية ألا
تهب الصبأ إلا نحر وأطم ، وألزم نفسه ذلك حتى آخر دهره ، وسند كرمه
تمة ذلك خبراً يأتي بعد إن شاء الله .

ذلك شيء من حياة لبيد في الجاهلية ، بين ذوائب العرب في العريض
الباذخ من العز والعدد والشرف ، ومنه تستطيعون أن تدركوا بسهولة كيف
اتصلت تلك الشئال العالية بنفسه ، حتى تحدث عنه الرواة أنه كان من الشعراء
الأشراف الفتاك الأجواد الشجعان المعمرين .

ذكر صاحب الأغاني عن ابن جرير الطبري عن روى عنهم قال : قدم
وفد بني عامر بن صعصعة على رسول الله صلى الله عليه وسلم وفيهم عامر بن
الطفيل وأربد بن قيس - أخو لبيد لأمه - وحَيَّانُ بن سلمى بن مالك ، وهؤلاء
الثلاثة هم رؤوس القوم وشياطينهم ، فهم عامر بن الغدر برسول الله وقد قال له
قومه : يا عامر إن الناس قد أساموا فأسلم ، فقال : والله لقد كنت آيت ألا أنتهى
حتى تتبع العرب عقي أفتابع أنا عقب هذا الفتى من قريش ؟ وكان قد تآمر
مع أربد على قتله صلى الله عليه وسلم فجعل يُقاوله ويشغله رجاء أن يعلوه أربد
بسيفه ، فيقول له : اجعل الأمر لى سنة ولك سنة ، أو يكون لى الوبر ولك المدر ،
فلم يرضه رسول الله ، فقال : والله لأملأنها عليك خيلاً جرداً ورجلاً مرداً ،
ولأربطن بكل نخلة فرساً ، وعاد ولم يسلم ، فأدركته دعوة رسول الله فمات فى
الطريق ، أصابه الطاعون فلاذ بيت امرأة من ساول وجعل يقول « أغدة كغدة
البكر وموت فى بيت امرأة من ساول ؟ » وأما أربد فأصابته صاعقة فأحرقته ،
وحزن لذلك أخوه لبيد ، وورثاه بمرات كثيرة سندكر منها بعض ما يسع المقام .
قالوا وإن بنى عامر بعد ذلك أرسلوا ابيداً إلى رسول الله ، فأسلم وحسن
إسلامه ، وعاد إلى قومه يذكركم البعث والجنة والنار ، ويقرأ لهم القرآن ، وأقام
بالبادية على إسلامه ، حتى مضى عمر الكوفة فنزلها ، وبها أقام إلى أن مات فى
صدر خلافة معاوية ، وعمره نحو مائة وثلاثين سنة رحمه الله .

وفادته على
النبي صلى الله
عليه وسلم
وإسلامه

تآمر عامر
ابن الطفيل
وأربد أخو
لبيد على النبي

إسلام لبيد

متجدون لهذه النشأة الصالحة أعظم الأثر فيما اصطنعه لبيد لنفسه من
مذهبه الشعري الخاص ، فسترون أنه أبداً كان مولماً بنفسه يتحدث عن فتوته

شعره

وترفعه ، ويذكر فتكّه وفضيلة نفسه في الإيواء وقرى الأضياف والتقدم
بالإيثار لإخوان الصّدق ، ويعود فيذكر أعظم مناقبه عند نفسه ، وعلى مبلغ
تقديره من أنه كان يفصل الخطّة الصّعبة ويكسر شرة الخضم الألد بين يدي
الملك المحجّب ، وعند احتفال المقام الجامع ، ثم يذكر ما يتصل بذلك من
مفاخر آبائه وآثار قومه ، ويعدّ أيامهم وججاج ساداتهم والمذكورين من
فرسانهم وقتّاهم ، وجملة ما كان لهم من مناقب الشرف في الجاهلية ،
لا يتجاوز ذلك إلى مدح ملك ولا إلى هجاء سوقة ، حتى لقلما كان يُعنى
بذكر المرأة في مطالع أشعاره ، كما كان يفعل الشعر في ذلك العصر وأكثر
ما كان يُعلم في باب الوصف بذكر راحلته ، يشبهها بالبقرة المسبوعة ، أو بالأتان
المطرّدة ، أو بالنعامة الخائفة ، بأسلوب يكاد يكون خاصا به ، يذكره على صورة
الاستفهام كقوله :

فتيك أم وحشية مسبوعة^١ خذلت وهادية الصوّار قوامها

أو قوله :

أفذاك أم صعل^٢ كان عفاءه أوزاع ألقاء على أغصان^(١)

أو قوله :

أذلك أم عراق^٣ شتيم^٤ أرن^٥ على نحائص كالمقالي^(٢)

أو قوله :

(١) الصعل : الدقيق العنق من النعام . العفاء : الريش . الأوزاع : القطع . الألقاء :
الأشياء الملقاة . (٢) العراق : الحمار ، أراد أنه يأتي من العراق . الشتيم : الكره .
الارنان : الصياح . النحائص : جمع نحوص وهي الحائل أو التي لا ولد لها ، هكذا ذكره الطوسي
في شرحه . المقالي : واحده مقلاء . قاله أيضاً بالمد ، والذي في القاموس مقلاء بالقصر ، وهو
عود القلة وهي العصا التي تكون بأيدي الصبيان يلعبون بها .

أَتَيْكَ أَمْ سَمَّحَجٌ تَخَيَّرَهَا عَجِجٌ تَسْرَى نَحَائِصًا شُبَّابًا (١)

وكل ذلك كما قدمنا معناه تشبيه الناقة بالبقرة أو الثور ، ثم العدول عن ذلك إلى تشبيهها بالأتان الوحشية ، أو النعامة المدعورة ، ثم لا يزال يذكر مواعبة القنَّاص لهذه الثيران والحمر ، وإرسالهم الغُضف الدَّواجِن من جوارح الكلاب ذوات الأعصام القافلة والقلائد اليابسة ، وأحياناً يصف ألوان الزهر ، ويذكر البرق والمطر على طريقة امرئ القيس ، ويقتبس من ألفاظه ، ويرسل ذلك كله في نسق من الغريب ، قوى العبارة فخم الألفاظ ، عليه مسحة من بأس البادية وخشونة الضحراء وفيض من فضائل هذه النفس العالية وتلك التربية الكريمة ، ولقد ذقت نفسه الشكل وهو صبي ضعيف الجناح قليل الحيلة ، بأب تعظم بمثله المصيبة ويشدد فقدّه على العشيرة ، فوهنت نفسه بعض الوهن ، وكان قومه أصحاب غارات وفيهم بأس وتعرض للترات ، فوقع فيهم القتل وألحت عليهم المصائب فتتابعت أحزانه ، ومات أخوه أربد وكان به صَبًا وعليه عَطُوفًا فأولعه ذلك بتجويد النوح وفتق له معاني المرائي ، ولذا يُعتبر من الجاهليين المجيدين للرثاء ، وهو في هذا الباب رقيق حواشي الكلام ، واضح متنهل لا يكاد يأتي بغريب ، وخلاصة ما نذكره من الرأي فيه أنه اقتصر على ضربين من فنون الشعر لم يتجاوزها إلى شيء آخر ؛ وهما : الفخر والرثاء .

تكله أباه
وهو صغير

سهولة شعره
في الرثاء

وكان مع ذلك قليل التصرف ، متقيداً في فخرياته بعمان محدودة ، يرددها في أكثر قصائده ، حتى يسوغ لك أن تقول إن شعره في الفخر كأنه قصيدة واحدة ، إذ لا يختلف كلامه في هذا الباب عن التصدير بذكر الناقة وتشبيهها في نجائها وخفتها بالثور والبقرة والأتان والنعامة ، ثم يهطف على أصحابه ويفتخر بإنزاله لهم وجميل مبادرته إليهم ، ويعدّ بعد ذلك ما يعد من مفاخر نفسه وآبائه ، لا يعدل

(١) . السنجح : الطويلة . التسرى : التخير . الشبب : الضاربة الواحد شاسب .

عن ذلك إلا بأن يضيف إلى هذه المعاني شيئاً من وصف الطبيعة ، وقلنا يفعل ، وقد يكون في الرثاء أحسن حالاً وأكثر اختراعاً وأوسع تصرفاً ، غير أنه لا يزال يكرر ما هدى إليه من معانيه في أكثر مرثياته ، ولقد تقرأ شعره في الفخر فيكاد يمشك الضجر وتداخلك السامة ، لقلة ما تفهم من غرابته ، وشئنا ما تسمعه من خشونة اللفظ وقوة العبارة ، وقد تشعر بالفتور حين تراه يقبل على آباءه وأعمامه وغيرهم من سادة قومه فيسردهم تباعاً في سلك من النظم أشبه بعد الحاسبين ، وليس فيه من جمال الشعر إلا فضل القافية والوزن كما في قصيدته التي مطلعها :

أعاذل قومي فأعذلي الآن أو ذري فلست وإن أقصرت عني بمقصر

قد عدت في هذه القصيدة « وأبياتها ثمانية وثلاثون » أكثر من ستة وعشرين اسماً لآبائه وغيرهم ، على أنه رزق نصيباً من الحظوة عند النحاة فيما استشهدوا به من شعره ، وعند الذين كانوا يؤثرون الدين والتقوى ، وذكر الخوف من الموت والقبر والآخرة وما يتصل بذلك من تهوين أمور الحياة والتحذير من السكون إليها ، وإن لم يكن لهذا كبير شأن في نقد شعره ، ولا في تقيظه بمدح أو ذم .

قد القدماء
شعره

وإنه لمن تمام الفائدة أن نذكر شيئاً من آراء القدماء فيه ، عسى أن يكون منها ما يظاهرتنا على مذهبنا فيه ، ثم نجتهد ألا نخلى كلاماً من نقد على قدر ما يهديننا إليه الخاطر الكليل فنقول :

ذكره محمد بن سلام ، فعده في الطبقة الثالثة وقرنه بالناطقة الجعدى وأبي ذؤيب الهذلي والشماخ بن ضرار ، قال : وكان لبيد بن ربيعة أبو عقيل فارساً شاعراً شجاعاً وكان عذب المنطق رقيق حواشي الكلام ، وكان مسلماً رجلاً صدق ، وكان في الجاهلية خير شاعر لقومه يمدحهم ويرثيهم ، ويعد أيامهم ووقائعهم وفرسانهم . وذكر محمد بن عمران المرزباني عن أبي حاتم عن الأصمعي قال : شعر لبيد

كأنه طَيْلَسَان طَهْرِيٌّ ، « يعني أنه جيد الصنعة » وليست له حلاوة ، قال أبو حاتم
فقلت له : أفجل هو ؟ قال : ليس بفجل ، وقال مرة ، كان رجلاً صالحاً ! فكأنه
ينفي عنه جودة الشعر .

وعن أبي عمرو بن العلاء قال : ما أحد أحب إليَّ شمرًا من لبيد ، لذكره
الله عزَّ وجل ، ولإسلامه ولذكره الدين والخير ، ولكنه رجي بزُر « يريد أنه
خشن » قد لا يستحليه السمع .

رأى
أبي عمرو
والأصمعي
وابن سلام

وذكر أبو الفرج الأصبهاني عن حماد الراوية قال : نظر النابغة إلى لبيد
مع أعمامه على باب النعمان في الحيرة فسأل عنه فنُسِبَ له فقال له : يا غلام ! إن
عينيك لعينا شاعر أفقرض من الشعر شيئاً ؟ قال نعم يا عم ! قال فأنشدني .
فأنشده « ألم ترَّ بَع على الدَّمَنِ الخوَالِي » وهي قصيدة سنمٌ بذكر طرف منها
فقال له زدني . فأنشده « عَفَّت الديارُ محلُّها فبقامُها » وهي المعلقة فقال له النابغة :
أذهب فأنت أشعر قيس كلها ، أو قال هوازن كلها ، وفي بعض الروايات قال له
أنت أشعر العرب !

ولعلك لو تأملت ترى رأي الأصمعي وأبي عمرو بن العلاء لا يبتعد كثيراً عما
يذكره ابن سلام ، فهو يقول إنه كان مسلماً رجلاً صدق ، ويذكر أنه كان
عذب المنطق ، ولعله نظر إلى شعره في مراثيه ، وهما يقولان إنه شاعر ولا يريان له
من الحلاوة ما يريانه لشاعر آخر - كالأعشى مثلاً - في مدائحه وغزله وخمرياتة ،
وهذه في الغالب مواطن حلاوة الكلام ، أما المفاخر والمراثي وهما ما آثره لبيد
على غيره من ضروب الشعر ، فقلما تظفر فيهما بموطن حلاوة ، لتعلق الكلام
فيهما بالحقائق الواقعة والمآثر الصادقة ، ولكنهما في الجملة يثبتان له جودة الشعر
وقوة أسر الكلام :

وأما إعجاب النابغة به فقد يضاف إلى أسبابه ما كان من غلومية لبيد وجماله

وشرف آباؤه ، على أن معلقة لبيد معدودة - بإجماع الرواة - من الشعر الرفيع
الدرجة ، فشهادة النابغة إذا لا تزال ذاهبة في طريقها إلى الصواب .

الفَرزدق
وسجدة
الشعر

وذكر المفضل الضبي قال : قديم الفرزدق الكوفة فمر بمسجد بني أقيصر
وعليه رجل ينشد قول لبيد :

وجالاً الشيولُ عن الطلول كأنها زُبُرٌ تُجِدُّ مُتُونَهَا أَقْلَامُهَا

فمسجد الفرزدق ، فقيل له ما هذا يا أبا فراس ؟ فقال أتم تعرفون سجدة
القرآن وأنا أعرف سجدة الشعر ! وهم يعتبرون هذا التشبيه لبقايا الأطلال في
دقتها وتابعها واستطالة أعلامها ، كأنها سطور في كتاب من التشبيهات العالية الطبقة ،
وقد أولع به الناس حتى المتأخرون من أئمة هذا الفن في العصر العباسي ، وروى
أبو الفرج أيضاً قال : جلس المعتصم يوماً للشرب فغناه بعض المغنين بقوله :

المعتصم
والمغني في
حضرة بشعر
لبيد

وبنو العباس لا يأتون لآ

وعلى ألسنتهم خفت نعم
زيت أحلامهم أحسابهم وكذلك الحلم زين للكرم

فقال : ما أعرف هذا الشعر فلن هو ؟ قيل للبيد ، فقال : وما للبيد وبنو
العباس ؟ قال المغني : إنما قال « وبنو الرزيان لا يأتون لا » فاستحسن فعله ووصله ،
وكان يُعجب بشعر لبيد فاستنشدهم قوله « بلينا وما تبلى النجوم الطوالع »
وهي مرثية له في أخيه أربد من خير مرثيه - وسند ذكر منها شيئاً - فأنشده
إياها ، فجعل يبكي ، وذكّر المأمون ويترحم عليه ، ويقول هكذا كان
رحمة الله عليه .

ويذكر رواية الحديث عن رسول الله قوله في الصحيحين : أصدق كلمة
قالها شاعر قول لبيد « ألا كُلتُ شيء ما خلا الله باطل » على بعض الروايات .
ولكن هذا ليس تقدماً شعرياً ، وإنما التقرُّب هنا لهذه الحكمة الصادقة
في وقت تمس فيه حاجة الإسلام إلى إغراء الكافة بتوحيد الله ، والاعتقاد
ببطلان ما سواه ، والعهد بالوثنية لا يزال غير بعيد ، بدليل أن أبا بكر

رضى الله عنه حين أنشده الشاعر هذا البيت قال له في شطره الأول صدقت !
وفي شطره الثاني وهو قوله « وكل نعيم لا محالة زائل » قال له كذبت ! عند الله
نعيم لا يزول ، أو قال نعيم الجنة لا يزول .

وأتم ترون أن الشاعر لم يذهب إلى هذا ، ولم يفكر في نعيم الجنة ولا في
عذاب النار ، وإنما أراد ما يراه الناس من أجوال الدنيا في تغييرها وقلة ثباتها ،
وأنه ليس لشأن من شئونها ولا حال من أحوالها ثبات ولا بقاء ، فهي مرة نعيم
ومرة بؤس ، وكلاهما زائل متحول ، ومتغير متقلب .

وبعد فنحن إذا كرون طرفاً من أشعاره في الفخر ، ثم نعقب بشيء من
مراثيه ، ثم نختم قولنا فيه ببعض آثاره في الإسلام ، وما يحكى عنه في جوده ،
وما قاله لأبنتيه ولأبن أخيه عند احتضاره . وقد ظفرنا بمجموعتين فيهما شعر له ،
إحداهما رواية أبي الحسن علي بن عبد الله الطوسي . من رِوَاة القبائل وأشعار
الفحول في القرن الثالث الهجري وفيها شرح موجز وروايات لألفاظ الأبيات ،
والأخرى مطبوعة أوروبية تختلف عن الأولى في أكثر الأحيان ، فاقتطنا من
المجموعتين ما ظنناه جديراً بالاستشهاد على ما وصفنا به لبيداً ، وهو في أرجح
الظن خير ما أثبتناه له في تقرير الحجة والاستئناس بالدليل ، قال من قصيدة
بائية مطامها :

أرى النفس لجت في رجاء مُكذَّب وقد جرّبت لو تقتدى بالمجرب
تناول فيها نفسه فجعل يصفها بالتفضل على الإخوان ، وأنه يحسن
مبادرتهم بما يشتهون من لحم طرى وشراب عتيق ، وأنه ضمين بما ينتقص منه ،
ثم يذكر جميل مواسباته ، وحلاوة شمائله ، وسرعة فكاهه للعاني ، وتجمشه
سرى الليل بأصحابه ، وهدية إياهم في سُدُفته ، وإجابته لدعوة المرهوب ، وطاعته
الذي يرفع صوت النائحة المُسَلَّبة ، قال :

وفثيانِ صدقي قد غدوتُ عليهم
بمجتزفٍ جَوْنٍ كأن خفَاءه
إذا أرسلت كِفُّ الوليدِ عصامه
فهما يَفِضُ منه فإن ضمانه
جميل الأسا فيما أتى الدهرُ دونه
من المسبلين الرَيطَ لَدِيٍّ كأنما
وعانٍ فككت الكبلَ عنه وسُدفةٍ
ودعوةٍ مرهوبٍ أجبتُ وطعنةٍ

بلا دَخِنٍ ولا رَجِيعٍ مُجْتَبٍ (١)
قَرَا حَبْشِي فِي السَّرْوَمَطِ مُجْتَبٍ (٢)
يَمُجُّ سُلَافًا مِنْ رَحِيقِ مَقْطَبٍ (٣)
عَلَى طَيِّبِ الْأَرْدَانِ غَيْرِ مُسْتَبٍ
كريمُ الثَّنَا حُلُوُ الشَّمَائِلِ مُعْجَبٍ
تَشْرَبُ ضَاغِي جِلْدِهِ لَوْنُ مُذْهَبٍ
سَرَيْتُ وَأَصْحَابِ هَدِيْتِ بَكْوِ كَبٍ
رَفَعْتُ بِهَا أَصْوَاتَ نُوحٍ مُسْلَبٍ (٤)

ليسد في
فتسوته
ولا كرامته
لإخوانه

ثم ترك هذا ، وأقبل يصف الغيث وجمال ألوان النبات ، وما يتزين به
للزهر من حمرة وصفرة وخضرة ، وما تكسوه الشمس بإشراقها من البهجة وتمام
الحسن ، وأنه بكر إلى هذا الوادي الجميل ، بفرس جعل يصفه ، ويذكر ارتفاع
لبانه ، واطمئنان عذاره ، وخيفة جريه ، وطاعته لراكبه ، ومضى إلى ذكر الناقة
ولم يطل ، قال :

وغيثٍ بدِّ كذاك يزِين وهَادَه
بذِي بَهْجَةٍ كَنَّ الْمَقَانِبَ صَوْبَهُ
جَلَاهُ طُلُوعُ الشَّمْسِ لَمَّا هَبَطَتْهُ

نباتٌ كَوْشِي الْعَبْقَرِيِّ الْمُخَلَّبِ (٥)
وَزِينُهُ الْأَوَانُ نُورٌ مُشْرَبٍ (٦)
وَأَشْرَفْتُ مِنْ قُضْفَانِهِ فَوْقَ مَرَقَبٍ (٧)

جمال الطبيعة
في شعر لبيد

(١) الدخن : الشواء الذي أصابه الدخان . الرجيع : الشراب الفاسد .
(٢) المجتزف : الزق الذي يشتري جزافاً . الخفاء : ما يوضع فيه الزق من جلد أو
تجويز . القرا : الظهر . السرومط : الحبل . المحقب : الشدود خلف الراكب .
(٣) العصام : الرباط . المقطب : المزوج ، وإن قيل بالعين فهو المطيب .
(٤) المرهوب : الخائف . النوح : النساء الثاعمات . المسلب : اللابس للسلاب ، وهي
ثياب الحداد . (٥) الكدك : المستوى المرتفع من الأرض . الوهاد : المطنئات جم
وهدة . الخلب : المخطط بألوان الصبغ . (٦) المقاب : جماعات الحبل .
(٧) القضفان : الشوز والمرتفعات .

بَسْرَتْ نِدَاهُ لَمْ تَسْرَبْ وَحُوشُهُ بَغْرَبٍ كَجَذَعِ الْهَاجِرِيِّ الْمُسْتَدْبِ (١)
 بِمَطْرِدٍ جَلَسٍ عَلَّتَهُ طَرِيقَبَةٌ لِسِمِّكَ عِظَامَ عَرَضَتْ لَمْ تُنْصَبِ (٢)
 رَفِيعِ اللَّبَانِ مَطْمِئِنِ عِدَارُهُ عَلَى خَدٍّ مَذْحُوضِ الْغِرَارِيِّنِ صُلْبِ (٣)
 فَلَمَّا تَغَشَى كُلَّ نَعْرِ ظِلَامُهُ وَأَلْقَتْ يَدَا فِي كَافِرٍ مُسَى مَغْرِبِ (٤)
 تَجَافَيْتُ عَنْهُ وَاتَّقَانِي عِنَانُهُ بِشَدِّ مِنَ التَّقْرِيبِ عَجْلَانَ مُلَهَبِ (٥)

ثم عاد إلى ذكر مفاخره ، فوصف وقوف الأقران له ومخاصمتهم إياه ،
 وأنهم من سرّوات الناس قد علام المسك والديباج ، يجلسون بالعشايا على
 أبواب الملوك فلا يزالون يخطون الأرض بقسيهم يعددون أيامهم ومآثرهم ،
 وذلك هو شينهم لصحاح البيد ، وهو من أعجب الاستعارات والظفها ، وأنه
 أصدرهم بعد ذلك متفرقين ، وقسيهم مائلة مسترخية كقرون الجماعة من البقر
 المتعبة ، قال :

وَخَصْمٍ قِيَامٍ بِالْعَرَاءِ كَأَنَّهُمْ قُرُومٌ غَيَارِي كُلُّ أَزْهَرَ مُصْعَبِ (٦)
 عَلَا الْمَسْكُ وَالذِّبْيَاجُ فَوْقَ نُحُورِهِمْ فَرَّاشَ الْمَسِيحِ كَالْجُمَانَ الْمُثَقَّبِ (٧)

(١) بسرت نداء : كنت أول من أتاه . الغرب : الحد ، وهو هنا الفرس . الهاجري :
 المنسوب إلى هجر . المشذب : الذي أخذ عنه كربه وليفه ، وغرضه وصف فرسه
 بطول العنق . (٢) المطرد : المهتز . المجلس : المصرف أو الغليظ . الطريقة : المتن وما
 امتد منه . سمك العظام : ارتفاعها . لم تنصب : لم تستو ، بل هي عوج مقوسة وذلك
 أشد لها . (٣) اللبان : الصدر . المنحوض : القليل اللحم . الغراري : الجانب .
 (٤) الكافر : الليل ، والضمير في ألقت يعود على الشمس وهو كالمثل . مسى مغرب :
 وقت غروبها . (٥) تجافيت عنه : ارتفعت عن سرجه . الشد : الجري . التقريب :
 فوق المشى . (٦) الخصم : الحصوم . القروم : الفحول . الأزهر : الأبيض .
 (٧) فراش المسيح : قطء العرق . الجمان : اللؤلؤ .

نَشِينُ صِحَاحِ الْبَيْدِ كُلِّ عَشِيَّةٍ بِعُوجِ السَّرَّاءِ عِنْدَ بَابِ مُحْجَبٍ (١)
 شَهِدْتُ فَلَمْ تَنْجَحْ كَوَاذِبُ قَوْلِهِمْ لَدَيَّْ وَلَمْ أَحْفَلِ ثَنًا كُلِّ مِشْغَبٍ (٢)
 وَأَصْدَرْتُهُمْ شَيْئِي كَأَنْ قَسِيهِمْ قُرُونُ صِوَارٍ سَاقِطٍ مُتَلْغَبٍ (٣)
 فَإِنْ يُسْهَلُوا فَالسهل حَظِّي وَطُرُقِي وَإِنْ يُحْزِنُونَا أَرْكَبْ بِهِمْ كُلَّ مَرَكَبٍ

ظهوره على
 خصومه
 بالحجة في
 الجامع
 الحافظة

وقد ترون جمال هذا الشعر ، في كل ما تناوله من وصف أو فخر ، وما اشتمل عليه من تشبيه بارع أو استعارة حسنة ، وهو على بعض ما فيه من الغريب ، يعد من خير ما أثر عن الجاهليين ، وهذه جملة من قصيدة أخرى له ، مطلعها : « رَاحَ الْقَطِينُ بِهَجْرٍ بَعْدَ مَا ابْتَكُرُوا » وفيها شيء من شكوى الزمان ، والتنويه بنفسه في الصبر على أحداثه ، وأنه في ذلك كالسيف الذكر ، الذي لا تغيره حوادث الدهر ، ثم جعل يذكر شيئاً من مفاخره ، وقبل ذلك ألم بذكر المرأة ، لا على أنها تيمته وأصبت قواده ، بل على أنها تعيره بالشيب والكبر ، وهو من المواضع القليلة التي أشار فيها إلى النساء في كلامه ، ثم مضى فيها إلى وصف ناقته وسرعتها ، وشبهها بالأتان وبالثور وذكر الكلاب والصيادين ، على عادته وأغرب ما شاء ، قال بعد أبيات من المطلع :

وَفِي الْخُدُوجِ عَرُوبٌ غَيْرُ فَاحِشَةٍ رِيًّا الرُّوَادِفِ يَعِشِي دُونَهَا الْبَصْرُ (٤)
 كَانَ فَاذَا إِذَا مَا اللَّيْلُ أَلْبَسَهَا مَيَابَةَ مَا بَهَا عَيْبٌ وَلَا أَثْرُ (٥)
 قَالَتْ غَدَاةً انْتَحَيْنَا عِنْدَ جَارَتِهَا أَنْتَ الَّذِي كُنْتَ لَوْلَا الشَّيْبُ وَالْكِبَرُ (٦)

حديثه إلى
 المرأة

(١) نشين صحاح البید : نؤثر في الأرض المستوية بتخطيطنا بالقسي عليها . باب المحجب : الملك . (٢) مشغب : الصابر على الشغب . (٣) الصوار : القطيع من البقر ، المتلغب : المتعب . (٤) الخدوج : جمع حديج ، وهو مركب من مراكب النساء . العروب : العاشقة لبعليها . (٥) الميابة : البلحة . (٦) قوله أنت الذي كنت أي كنت تعجبي .

فَقَلْتُ لَيْسَ بِيَاضُ الرَّأْسِ مِنْ كِبَرٍ لَوْ تَعْلَمِينَ وَعِنْدَ الْعَالِمِ الْخَبِيرِ
 لَوْ كَانَ غَيْرِي سُلَيْمِي الْمَدَّهْرَ غَيْرِهِ وَقَعُ الْحَوَادِثِ إِلَّا الصَّارِمُ الذَّكْرُ
 إِنِّي أَقَاسِي خُطُوبًا مَا يَقُومُ لَهَا إِلَّا الْكِرَامُ عَلَى أَمْثَالِهَا الصَّبْرُ
 وَلَا أَقُولُ إِذَا مَا أَزْمَةٌ أَزَمْتُ يَا وَيْحَ نَفْسِي بِمَا قَدْ أَحْدَثَ الْقَدْرُ (١)
 وَلَا أَضِلُّ بِأَصْحَابِ هَدْيَتِهِمْ إِذَا الْمُعْبَدُ فِي الظُّلْمَاءِ يَنْتَشِرُ (٢)
 وَأَرْبِحُ النَّجْرَ إِنْ عَزَّتْ فِضَالُهُمْ حَتَّى يَعُودَ سُلَيْمِي حَوْلَهُ نَفْرُ (٣)
 غَرِبُ الْمَصْبَةِ مَحْمُودٌ مَصَارِعُهُ لَأَهِيَ النَّهَارِ لِسِيرِ اللَّيْلِ مُحْتَقِرُ (٤)
 يَرَوِي قَوَامِحَ قَبْلِ اللَّيْلِ صَادِفَةً أَشْبَاهَ جِنَّةٍ عَلَيْهَا الرِّيطُ وَالْأُزْرُ (٥)
 إِنْ يُتْلَفُوا يُخْلَفُوا فِي كُلِّ مَنْقَصَةٍ مَا أَتْلَفُوا لِابْتِغَاءِ الْحَمْدِ أَوْ عَقَرُوا (٦)
 نُعْطِي حُقُوقًا عَلَى الْأَحْسَابِ ضَامِنَةً حَتَّى يُنَوَّرَ فِي قُرْيَانِهِ الزَّهْرُ (٧)

افتخاره
بالشجاعة
والبذل

ثم خرج من هذا إلى وصف الناقة كما قدمناه ، ولا تزال هذه الأبيات على نمط من جزالة الكلام كسابقها ، وليست دونها في إشراق الديباجة وجمال الوقع على السمع ، وهكذا أكثر شعره في فخرياته قوى مُكْتَنَفٌ بِالْغَرِيبِ ، إلا في بعض قصائد عددها آباءه ومن فقد من حُجَمَاءِ قَوْمِهِ ، وليس فيها شيء من جمال كما أشرنا إلى ذلك من قريب ، وقبل أن تُغَادِرَ هذا الباب إلى ذكر مرثيته ، ينبغي أن نريك شيئاً من أوصافه الأخرى التي ذكرنا أنه تأثر فيها بأمرى القيس خاصة ، وهي وصفه للربيع والغيث والبرق وما يشبه ذلك ، قال من قصيدته التي

(١) الأرملة : الشدة . (٢) المعبد : الطريق المذلل .

(٣) الفضال : جمع فضلة بقية الخمر في الدن ، والمهاء في حوله يعود على زفها .

(٤) الغرب : الكثير . المصبية : العطاء ، وقوله محمود مصارعه : معناه أنه إذا شرب

وصرعه المراب أعطى ولم يبخل . (٥) القمامح : الشارب أو التارك للشرب . والمعنى

أنه يسقى الفتيات اللاتي يصدفن عن الشرب ، ووصفهن بالنعمة وبما عليهن من الريط والأرز .

(٦) يقصد بذلك نفسه وأصحابه . (٧) نطمع الناس أيام القحط حتى يخلصوا .

القريان : مجارى المياه ، والواحد قرى كغنى .

مظلمها « أَلَمْ تُلْمِ عَلَى الدَّمَنِ الْحَوَالِي » بعد ما أطلال في وصف ناقته على النخيل
الذي أثبتنا له غير مرة ، ثم انتهى من ذلك بذكر قومه ، والنصح لهم والتعريض
فما صاروا إليه من بعض الظلم قال :

أَصَاحِ تَرَى بُرَيْقًا هَبَّ وَهَنًا كَمَصْبَاحِ الشَّعِيبَةِ فِي الدُّبَالِ
أَرِقْتُ لَهُ وَأُنْجِدَ بَعْدَ هَدَاهُ وَأَصْحَابِي عَلَى شُعْبِ الرَّحَالِ
يُضِيءُ رَبَابُهُ فِي الْمُنْزِ حُبْشًا قِيَامًا بِالْحِرَابِ وَبِالْأَلَالِ (١)
وَأَصْبَحَ رَاسِيَا بِرِضَامٍ دَهْرٍ وَسَالَ بِهِ الْخَمَائِلُ فِي الرَّمَالِ (٢)
وَحَطَّ وَحُوشَ صَاحَةً مِنْ ذُرَاهَا كَأَنَّ وَعُوهَا رُمُكُ الْجِمَالِ (٣)
عَلَى الْأَعْرَاضِ أَيْمَنُ جَانِبِيهِ وَأَيْسَرُهُ عَلَى كَوْرِي أَثَالِ (٤)
أَقُولُ وَصَوْبُهُ مَنِي بَعِيدٍ يَحِطُّ الشَّتَّ مِنْ قَلَلِ الْجِبَالِ (٥)
سَقَى قَوْمِي ابْنِي مَجْدٍ وَأَسْقَى مُنِيرًا وَالْقَبَائِلَ مِنْ هِلَالِ (٦)
رَعَوَهُ مَرَبَعًا وَتَصَصَّيْفُوهُ بَلَا وَبَاءُ سُمِّيَ وَلَا وَبَالِ
هُمُ قَوْمِي وَقَدْ أَنْكَرْتُ مِنْهُمْ شِمَائِلَ بَدَلُوهَا مِنْ شِمَالِ
يُنَارُ عَلَى الْبَرِيِّ بِغَيْرِ جُرْمٍ وَيَفُضِّحُ ذُو الْأَمَانَةِ وَالْفَعَالِ

وصفه
للسحاب
والمطر
والبرق

ونكتني بهذا القدر من فخرياته ، وقول في مراثيه وهي كثيرة ، تقتصر منها
على تنف من العينيتين وهما في أربد أخيه ، ومن اللامية وهي في النعمان بن
المنذر ملك العرب ، وستجدون قوله في هذا الرثاء واضحاً سهلاً ، لا يحتاج

(١) يريد أن التماع البرق وسط السحاب الأسود يشبه الحباشان الواقفين بالحراب .
الألال : جمع آلة ، وهي آلة الحرب أيضاً . (٢) الرضام : جمع رضية ، وهي صخور بعضها
فوق بعض . دهر : جبل . الخمائل : منابت الشجر والعشب . (٣) صاحة : مكان .
الرمك : السود ، الواحد أرمك . (٤) الأعراض : القرى وأحد عرض . أثال : جبل
وكوراه جبلان قريبان منه . (٥) الشت : شجرة اللؤلؤ : الأعلى .
(٦) مجد : اسم امرأة .

إلى تعليق ولا شرح ، أما معلقته فقد أسلفنا منها أبياتا وذكرنا لنا فيها رأيا في الكلام على المعلقات قال :

رثاؤه لأخيه
أريد

بَلِينَا وَمَا تَبَلَى النُّجُومُ الطَّوَالِعُ وَتَبَقَى الدِّيَارُ بَعْدَنَا وَالْمَصَارِعُ
وَقَد كُنْتُ فِي أَكْنَافِ جَارِ مَضِنَّةٍ ففَارَقَنِي جَارٌ بِأَرْبَدٍ نَافِعُ
فَلَا جَزَعُ إِنْ فَرَّقَ الدَّهْرُ بَيْنَنَا وَكُلُّ فِتَى يَوْمًا بِهِ الدَّهْرُ فَاجِعُ
وَمَا النَّاسُ إِلَّا كَالدِّيَارِ وَأَهْلِهَا بِهَا يَوْمَ حَلُّوْهَا وَعَدُوًّا بَلَاقِعُ
وَمَا الْمَرْءُ إِلَّا كَالشَّهَابِ وَضَوْئِهِ يَحُورُ رَمَادًا بَعْدَ إِذْ هُوَ سَاطِعُ
وَمَا الْمَالُ وَالْأَهْلُونَ إِلَّا وَدَائِعُ وَلَا بُدَّ يَوْمًا أَنْ تُرَدَّ الْوَدَائِعُ
إلى أن يقول :

أَلَيْسَ وَرَأَى إِنْ تَرَخْتِ مَنِيَّتِي لُزُومُ الْعَصَى تُحْنِي عَلَيْهَا الْأَصَابِعُ
أَخْبِرْ أَخْبَارَ الْقُرُونِ الَّتِي مَضَتْ أَدَبٌ كَأَنِّي قَتَّ إِذْ أَنَا رَاكِعُ
لَعَمْرُكَ مَا تَدْرِي الضُّوَارِبُ بِالْحَصَى وَلَا زَاجِرَاتُ الطَّيْرِ مَا اللَّهُ صَانِعُ

وهذه قصيدته الأخرى وهي مروية في المجموعة المطبوعة في أوربا قال
أَيَا مَيِّ قَوْمِي فِي الْمَاتِمِ وَأَنْدَبِي فَتَى كَانَ مِنْ يَبْتَنِي الْجَدَّ أَرْوَعَا
وَقَوْلِي أَلَا لَا يُبْعِدُ اللَّهُ أَرْبَدًا وَهَدَى بِهِ صَدْعَ الْقَوَادِ الْمُفْجَعَا
عَمِيدُ أَنْاسٍ قَدِ أَتَى الدَّهْرُ دُونَهُ وَخَطُّوا لَهُ يَوْمًا مِنَ الْأَرْضِ مَضْجَعَا
لَعَمْرُكَ أَيْبُكَ الْخَيْرِ يَا أُبْنَةَ أَرْبَدٍ لَقَدْ شَفَّنِي حُزْنٌ أَصَابَ فَأَوْجَعَا
إلى أن يقول :

فَتَى عَارِفٌ لِلْحَقِّ لَا يُنْكِرُ الْقِرَى تَرَى رِفْدَهُ لِلضَّيْفِ مَلَانَ مَتْرَعَا
لِحَا اللَّهِ هَذَا الدَّهْرَ إِنِّي رَأَيْتُهُ بَصِيرًا بِمَا سَاءَ ابْنِ آدَمَ مَوْلَعَا

وتلك قصيدته اللامية وهي في المجموعة الأوربية أكثر من خمسين بيتا ،
وفي الخزانة وغيرها مختصرة إلى نحو ثلاثة عشر بيتا وها هي ذه :

رثاؤه للنعمان

أَلَا تَسْأَلَانِ الْمَرْءَ مَاذَا يُحَاوِلُ أَنْحَبُ فَيُقْضَى أَمْ ضَلَالٌ وَبَاطِلٌ
حِبَائِلُهُ مَبْثُوتَةٌ فِي سَبِيلِهِ وَيُنْفَى إِذَا مَا أَخْطَأَتْهُ الْحَبَائِلُ
إِذَا الْمَرْءُ أُسْرِيَ لَيْلَةً خَالَ أَنَّهُ قَضَى عَمَلًا وَالْمَرْءَ مَا عَاشَ عَامِلٌ
إلى أن يقول :

أَرَى النَّاسَ لَا يَدْرُونَ مَا قَدَرُ أَمْرِهِمْ بَلَى كُلُّ ذِي رَأْيٍ إِلَى اللَّهِ وَائِلٌ
أَلَا كُلُّ شَيْءٍ مَا خَلَا اللَّهَ بَاطِلٌ وَكُلُّ نَعْمٍ لَا مَحَالَةَ زَائِلٌ
وَكَلُّ أَنْاسٍ سَوْفَ تَدْخُلُ بَيْنَهُمْ دُورِيهِيَّةٌ تَصْفَرُّ مِنْهَا الْأَنَامِلُ
وَكَلُّ أَمْرٍ يَوْمًا سَيَعْلَمُ سَعِيَهُ إِذَا كَشِفَتْ عِنْدَ الْإِلَهِ الْحَصَائِلُ
لِيَبْكِ عَلَى النُّعْمَانِ شَرْبٌ وَقَيْنَةٌ وَتُخْتَبِطَاتٌ كَالسَّعَالِي أَرَامِلُ
فَأَمْسَى كَأَخْلَامِ النَّيَامِ نَعِيمُهُمْ وَأَيُّ نَعِيمٍ خَلَّتَهُ لَا يَزَائِلُ

نسب لبيد

ثم نذكر ما وعدنا به من بعض أخبار لبيد في الإسلام ؛ ونسبه أبو الفرج وابن سلام ، فاتفقا على أنه ابن ربيعة بن مالك بن جعفر بن كلاب من بني عامر بن صعصعة ، ينتهي نسبه إلى قيس عيلان من مضر ؛ وذكر البغدادي أنه ابن ربيعة بن عامر بن مالك ، وهو يرجح أنه مات بالكوفة في خلافة عثمان ، ولم يدرك معاوية .

وقال البغدادي وغيره : كتب عمر بن الخطاب إلى عامله المغيرة بن شعبه بالكوفة ، أن استنشد من عندك من شعراء مصرك ما قالوه في الإسلام ، فأرسل إلى الأعمش العجلي أن أنشدني فقال :

لبيد والأعجب
العجلي في
خلافة عمر

أَرْجَزًا تُرِيدُ أَمْ قَصِيدًا لَقَدْ طَلَبْتَ هَيْنَا مَوْجُودًا

وفي بعض الكتب بتقديم أحد الشطرين مكان الآخر ، ثم أرسل إلى لبيد أن أنشدني فقال ، إن شئت ما عفى عنه ؟ « يعني الجاهلية » قال : لا ! ما قلت في الإسلام ، فانطلق إلى بيته فكتب سورة البقرة في صحيفة ، ثم أتى

بها فقال: أبدلتني الله هذه في الإسلام مكان الشعر، فكتب بذلك المغيرة إلى عمر فتقص من عطاء الأغلب خمسمائة، فكتب الأغلب إلى عمر: يا أمير المؤمنين! تنقص عطائي أن أطعك؟ فرد عليه خمسمائة وأقر لبيداً على عطائه. فلما كان زمن معاوية رضى الله عنه، وأراد أن يجعل عطايا الناس ألفين قال له هذان الفودان «يعني بهما الألفين» فما هذه العلاوة؟ «يقصد بها الخمسمائة»، فقال لبيد: أموت ويبقى لك الفودان والعللاوة، وإنما أنا هامة اليوم أو غد! فرق له وترك عطاءه على حاله، فمات بعد ذلك يبسير ولم يقبضها.

القول في
صنيع عمر
لبيد

وينبغي أن ننظر هنا نظرة في صنيع عمر رضى الله عنه، وما يصح أن يحمل عليه فعله مع الأغلب، وقد تعلمون مقامات عمر في نقد الشعر والمفاضلة بين الشعراء، وأنه كان من أشد الناس بصراً به ومعرفة بأوابده، وكان يحث الناس عليه ويأمرهم بزوايته، وأثر عنه في تحبيب الرياضات المادية والمعنوية إلى النفوس قوله «علموا أولادكم السباحة، وعروهم فليثبوا على ظهور الخيل، ورووهم الشعر تعذب ألسنتهم» لما كان يعرف من فضيلته في ترقيق المشاعر، والحض على مكارم الأخلاق، ومجالس عمر وآثاره في هذه الوجه خير مثل لتشجيع الخلفاء للأدب ورواية الشعر، وإذا تكون معاقبته للأغلب على أنه صدع بأمره وأطاعه قد جاءت من وجه آخر، كان عمر عليه أشد حرصاً وبه أكثر وجداً، ذاك هو إغراء الناس بالقرآن، وحملهم على تفهم أسراره واستظهار آياته، إذ كان سراج التشريع وجامع أحكام الإسلام، فكان صنيع عمر مظهرة واضحة لما تقدم به لبيد، لكيلا يكون القائم بالأمر والخليفة المتبع، أقل حفاظاً على دعامة الدين ممن استرعوه أمرهم واتخذوه إماماً لهم.

وذكر أبو الفرج والبغدادى وغيرها عن محمد بن يزيد البرد وغيره، قال:

كان لبيد شريفاً في الجاهلية والإسلام، وكان قد نذر الأتهب الصبا إلا نحر وأطعم، وأنها هبت يوماً وهو بالكوفة مقتراً مملق، فعلم بذلك الوليد بن

نسر لبيد في
الجاهلية ووالى
الكوفة

عُقْبَةُ بن أبي مُعَيْطٍ ، وكان أميراً عليها لعثمان ، فخطب الناس فقال : إنكم قد عرفتم نذر أبي عَقِيلٍ وما وَكَّده على نفسه ، فَأَعِينُوا أَخَاكُمْ ، ثم نزل فبعث إليه بمائة ناقة وبعث الناس إليه فقتل نذره وكتب إليه الوليد :

رسالة الوليد
ابن عقبة إلى
ل.د.

أَرَى الْجَزَارَ يَشْحَدُ شَفْرَتَيْهِ إِذَا هَبَّتْ رِيَّاحُ أَبِي عَقِيلٍ
أَغْرُ الْوَجْهَ أَبْيَضُ عَامِرِيٌّ طَوِيلُ الْبَاعِ كَالسَّيْفِ الصَّقِيلِ
وَفِي ابْنِ الْجَعْفَرِيِّ بِحُلْفَتَيْهِ عَلَى الْعِلَاتِ وَالْمَالِ الْقَلِيلِ
بِنَخْرِ الْكُومِ إِذْ سَجَبَتْ عَلَيْهِ ذُيُولُ صَبَاً بِجَاوِبُ بِالْأَصِيلِ

فقال لبيد لأبنته : أجيبيه ، فقد رأيتني وما أعيا بجواب شاعر ، فقالت :

رد ابنة
ليبيد على
هذه الرسالة

إِذَا هَبَّتْ رِيَّاحُ أَبِي عَقِيلٍ دَعَوْنَا عِنْدَ هَبَّتِهَا الْوَلِيدَا
أَسْمُ الْأَنْفِ أَصِيدَ عَشْمِيًّا أَعَانَ عَلَى مُرُوءَتِهِ لَبِيدَا
بِأَمْثَالِ الْمِضَابِ كَأَنَّ رَكْبًا عَلَيْهَا مِنْ بَنِي حَامٍ قُعُودَا
أَبَا وَهَبٍ جَزَاكَ اللَّهُ خَيْرًا نَحْرُنَاهَا وَأَطْعَمَنَا الثَّرِيدَا
فَعُدُّ إِنَّ الْكَرِيمَ لَهُ مَعَادٌ وَظَنِّي بِابْنِ أَرْوَى أَنْ يَعُودَا

فقال لها أبوها : أحسنت لولا أنك استزدته ، فقالت : يا أبت إن الملوك

لا يُسْتَحْيَا مِنْ مَسْأَلَتِهِمْ ، فقال لها : وأنت في هذه أشعر !

ما يتمثل به
من شعره
وما يستشهد
به النحاة

كانت السيدة عائشة تتمثل بقول لبيد :

ذَهَبَ الَّذِينَ يَعْاشُ فِي أَكْثَانِهِمْ وَبَقِيَتْ فِي خَلْفِ كَجِلْدِ الْأَجْرَبِ
وتقول : رحم الله لبيداً كيف لو أدرك زماننا هذا ؟ ونحن تقول كما قال
غيرنا رحم الله أم المؤمنين فكيف لو أدركت زماننا هذا ؟ وما يتمثل به منه
أيضاً ، قوله من قصيدة له طويلة مطلعها « إِنَّ تَقْوَى رَبِّنَا خَيْرٌ نَفَلٌ » :
وَكَذِبَ النَّفْسَ إِذَا خَدَّتْهَا إِنَّ صَدَقَ النَّفْسَ يُرْزَى بِالْأَمَلِ

وكثيراً ما يُتمثلُ بقوله « أَلَا كُلُّ شَيْءٍ مَا خَلَا اللَّهَ بَاطِلٌ . . . البيت »
وَيُتمثلُ أيضاً بيت له سائر وهو قوله :

مَا عَاتَبَ الْحَرَّ الْكَرِيمَ كَنَفْسِهِ وَالْمَرْءَ يُضَاهِيهِ الْقَرِينُ الصَّالِحُ

قالوا ولم يقل غير هذا البيت في الإسلام ، أو قوله :

الْحَمْدُ لِلَّهِ إِذْ لَمْ يَأْتِنِي أَجَلِي حَتَّى أَكْتَسَيْتُ مِنَ الْإِسْلَامِ سِرّاً بِالْأَلْفِ

ولذا عدّه العلماء جاهلياً وإن عاش في الإسلام ، ويستشهد النحويون بقوله :

وَمَا الْمَرْءُ إِلَّا كَالشَّهَابِ وَضَوْؤُهُ . . . يَحْجُورُ رَمَاداً بَعْدَ إِذْ هُوَ سَاطِعٌ

على أن « حاز » من الأفعال الناقصة التي تستعمل بمعنى صار ، وبقوله :

فَأَرْسَلَهَا الْعِرَّاكَ وَلَمْ يَذُدْهَا وَلَمْ يُشْفِقْ عَلَى نَعْصِ الدَّخَالِ

على مجيء الحال جامدة مؤولة بالمشتق أى معتركة ، وبقوله :

رَأَيْتُ التَّقَى وَالْجُودَ خَيْرَ تِجَارَةٍ رَبَّاحًا إِذَا مَا الْمَرْءُ أَصْبَحَ ثَاقِلًا

على استعمال « رأيت » بمعنى علمت الناصبة للمفعولين ، وبقوله :

حَتَّى تَهْجُرَ فِي الرِّوَاكِ وَهَاجَهُ . . . طَلَبَ الْمُعْتَبِ حَقَّهُ الْمَظْلُومُ

على أن « المظلوم » بالرفع صفة المعتب ، باعتبار محله لأنه مضاف إلى طالب من

إضافة المصدر إلى فاعله ، وفي الخزانة كلام طويل في تأويل هذا البيت

وإعرابه ، فمن أراد فليرجع إليه هناك ، كذلك يستشهدون بقوله :

فَإِنْ لَمْ تَجِدْ مِنْ دُونَِ عَدْنَانَ وَالِدًا وَدُونََ مَعَدٍّ فَاتَزَعِكِ الْعَوَازِلُ

على أن « دون » بالنصب عطف على محل الجار والمجرور أعنى قوله « من دون عدنان »

وكذلك أورده سيديويه قال : وكأنه قال فان لم تجد دون عدنان

والدا ودون معد .

ومما تعسف فيه النحاة روايتهم البيت الآتى ببناء الفعل في صدره المجهول

وهو قوله :

لَيْتِكَ يَزِيدَ ضَارِعٌ لِحُصُومَةٍ . وَنُحْتَبِطُ مِمَّا تُطِيحُ الطَّوَائِحُ .
ويتكلمون على هذا جعل « ضارع » فاعلا لفعل محذوف أى يكيه مع أن
البيت يروى بفتح ياء بيك ونصب يزيد ، وعلى ذلك فلا شاهد ولا حذف ،
وبعضهم . يوجه هذه الرواية بما ورد في القرآن من قراءة بعضهم الآية
« يُسَبِّحُ لَهُ فِيهَا بِالْغُدُوِّ وَالْآصَالِ رِجَالٌ » ببناء يسبح للمجهول ، وحينئذ
تكون رجال فاعلا بفعل محذوف ، أى يسبحه على نحو ما في البيت على أن
صاحب الخزانة يروى هذا البيت لنهشل بن حرى ، من أبيات يرثى بها يزيد
ابن نهشل . منها :

لَعَمْرِي لئن أمسى يزيدُ بنُ نهشلٍ حَسًا جَدَّتْ تَسْفِي عَلَيْهِ الرِّوَايُحُ
لقد كانَ ممنَ يَنسُطُ الكَفَّ بالندى إذا ضَنَّ بالخير الأَكُفَّ الشَّحَايُحُ
وهى فى ديوان لبيد ، وقد نسبها ابن هشام والنحاس له أيضاً ، وحكى
الزمخشري أنها لمزرد أخى الشماخ ، وحكى غيره أنها لغيره ، وصوب صاحب
الخزانة أنها لنهشل بن حرى ولم يذكر السبب فى هذا التصويب .
وقوله :

لو كانَ غَيْرِي مَبْلِيْمِي الدَّهْرَ غَيْرَهُ وَقَعُ الحَوَادِثِ إِلاَّ الصَّارِمُ الذِّكْرُ
أورده فى [المغنى] شاهداً على أن « إلا » تكون بمعنى غير فيوصف بها
وبتاليها شبه جمع المنكر ، قال فإن « الصارم » صفة لغيرى ، و « سليمان » منادى ،
و « الدهر » متعلق بمحذوف خبر كان .

وقوله :
ألا تَسْأَلانِ المرءَ ماذا يُحَاوِلُ أَنحَبُ فيَقْضَى أم ضلالٌ وباطلٌ
أورده فى [المغنى] أيضاً شاهداً على أن « ما » اسم استفهام مبتدأ غير مركبة
مع ذا ، وهى اسم موصول خبر ، بدليل رفع البدل وهو نحب ، ولو كانت « ذا »

مركبة مع « ما » لوجب أن تكون في محل نصب بالفعل بعدها ، وكان يجب إذا أن ينصب البدل وهو « نَحْبٌ » .

ويروى أنه لما حضرته الوفاة قال لابن أخيه ، ولم يكن له ولد ذكر :

ما أثر عنه
عند وفاته

يا بني ! إِذَا قَدَّيْ أَبُوكَ فَأَقْبِلْهُ الْقِبْلَةَ ، وَسَجِّهْ بِثُوبِهِ ، وَلَا تُصْرِحَنَّ عَلَيْهِ
صَارِخَةً ، وَاَنْظُرْ جَفْنَتِي اللَّتَيْنِ كُنْتَ أَصْنَعُهُمَا ، فَاصْنَعِيَهُمَا ثُمَّ أَحْمِلِيَهُمَا إِلَى الْمَسْجِدِ
فَإِذَا سَلَّمَ الْإِمَامُ فَقَدِّمِيهِمَا إِلَيْهِمْ ، فَإِذَا طَعِمُوا فَقُلْ لَهُمْ فَلْيَحْضُرُوا جَنَازَةَ أَخِيهِمْ ، ثُمَّ
أُنْشِدْ قَوْلَهُ :

وصية لبيد
لابن أخيه
قبل موته

وَإِذَا دَفَنْتَ أَبَاكَ فَاجْعَلْ فَوْقَهُ خَشَبًا وَطِينًا
وَسِقَاتِنًا صُمًّا رَوَاسِيَهَا يُسَدُّنَ الْغُضُونَا
لِيَقِينَ حُرَّ الْوَجْهِ سَفْسَا فَا التُّرَابِ وَلَنْ يَقِينَا

وهي أبيات من قصيدة له طويلة منها

أَبْنَى لَوْ أَبْصَرْتَ أَعْمَا مِي بَنِي أُمِّ الْبِنِينَا
وَأَبِي الَّذِي كَانَ الْأَرَا مِلُّ فِي الشِّتَاءِ لَهُ قَطِينَا
مَا إِنْ رَأَيْتُ وَلَا سَمِعْتُ بِمِثْلِهِمْ فِي الْعَالَمِينَا
فَبَقِيتُ . بَعْدَهُمْ . وَكُنْتُ بِطُولِ مُحَبَّتِهِمْ ضَنْبِينَا
دَعْنِي وَمَا مَلَكَتْ يَمِينِي إِنْ شَدَدَتْ بِهَا الشُّؤْنَا
وَافْعَلْ بِمَالِكَ مَا بَدَا لَكَ مُسْتَعَانَا أَوْ مُعِينَا

وفي هذه الأبيات غناء لإسحق بن إبراهيم الموصلي ، وكذلك التي قبلها

رثاؤه لنفسه . فيها غناء لغيره ، وفيها أيضا أنه يعتبر ممن رثى نفسه قبل موته ، وقال لأبنتيه وهو

محتضر أيضا :

تَمَنَّى ابْنَتَايَ أَنْ يَعِيشَ أَبُوهُمَا وَهَلْ أَنَا إِلَّا مِنْ رَبِيعَةٍ أَوْ مُضَرٍّ

فَإِنْ حَانَ يَوْمًا أَنْ يَمُوتَ أَبُوكَمَا فَلَا تَحْمِشًا وَجْهًا وَلَا تَحْلِقًا شَعْرَهُ
وَقَوْلًا هُوَ الْمَرْءُ الَّذِي لَا حَلِيفَةَ أَضَاعَ وَلَاخَانَ الصَّدِيقَ وَلَا غَدْرَ
إِلَى الْحَوْلِ ثُمَّ اسْمُ السَّلَامِ عَلَيْكُمَا وَمَنْ يَبْكُ حَوْلًا كَامِلًا فَقَدْ اعْتَذَرَ
فكانت ابتناه تلبسان ثيابهما في كل يوم، ثم تأتيان مجلس بني جعفر بن
كلاب فترثيانه ولا تندبان، فأقامتا على ذلك حولا ثم انصرفتا .
وكان لبيد رضى الله عنه صحابيا ، وهو وابن عمه علقمة بن علاثة من المؤلفات
قلوبهم ، والله أعلم .

٦ - طرفة

لعلنا حين نؤلف بين الأحاديث القليلة للرواة عن طرفة ، وبين ما صح
له عند ثقاتهم من الشعر ، نستطيع أن نقرب من تحصيل الصورة الواضحة
لحياته القصيرة ، التي قضاها في منازل قومه من بكر بادية العراق وبغيرها من
بقاع الجزيرة ، حتى مات أو قتل على اختلاف الرواة في تحقيق الصواب من الأمرين
بما سنأتى فيما يلي على تفصيله . ولسنا نشك فيما اتصل بحياته طرفة حين تحرك
من تجنيه على قومه ، وتضييعه لما في يده ، وإمعانه في الإسراف على نفسه ،
حتى نبا به المنزل ، وتحامته العشيرة ، واضطر أن ينتقل بين الأحياء مطردا إلى
بلاد اليمن ، وتجاوزها إلى النجاشي في الحبشة ، ثم عاد بعد حين إلى قومه
واتصل بعد ذلك بقصور الحيرة ، وتأثر - بالضرورة - بمشاهد تلك البلاد ،
وبما في هذه الحاضرة العربية من آثار المدينيات القديمة ، وامتزجت وثنيته
بشيء من أدب الديانات المختلفة الطائفة يومئذ بأبناء الجزيرة .

لأن ذلك بالإضافة إلى تكبير نبوغه وقوة فطرته ، يفسر لنا ما صيره أهلا
لإنشاء هذه الثمرات الأدبية ، التي صعدت به إلى مراتب الفحول في مطلع صباه .
ونحن نعتقد على قلة ما عند الرواة من الخبر عن حياته ، أننا سنظفر بما نصفه

حين تفقده بين تلك القصائد والأشعار القليلة ، التي لا تخلو أن يكون تحدث فيها عن نفسه ، وأعلن بها مذهبه ، وأفضى بغير واحدة من خصائصه المفردة وصفاته المشتركة .

ويذكر الرواة معه دائماً أخته الخرنق الشاعرة ، وخاله المتلمس ، وابن عمه عبد عمرو ، من بطانة عمرو بن المنذر الثالث ملك الحيرة وهو المعروف بابن هند ، لما بينه وبينهم من قرابة ولما لهم من تاريخه من صلة ، ويقولون إنه كان صغيراً يلعب مع الصبيان وسمع المتلمس^(١) أو شاعراً آخر ، هو المسيب بن علس ، ينشد شعراً له في صفة الجمل في مجلس من بني ثعلبة ، فعابه طرفه بما اتخذه قومه مثلاً ، وبدأ لهم حينئذ أول ما عرف من تمامه وإقدامه .

قالوا وإنه وفد مع خاله المتلمس إلى عمرو بن هند ، فأقاما عنده زماناً ينادمانه ويخرجان معه إلى الصيد ، وكان ابن عمه عبد عمرو مغاضباً له ، فوشى به إلى الملك بما سئد كره من هجائه له ، فسيره مع المتلمس إلى عامله بالبحرين وكتب مع كل واحد منهما صحيفة^(٢) يأخذان بها حياء الملك ، ولما فصلوا من الحيرة

أخته الخرنق
وخاله المتلمس
وعبد عمرو
ابن عمه

انتقاده لحاله
في بيته

منادمتهم عمرو
بن هند

(١) المتلمس هو جرير بن عبد المسيح ، شاعر بكرى مقل ، وهو أخو وردة أم طرفة ، وكان ما أنشده مما عابه طرفة قوله :

وقد أتتني الهمة عند احتضاره بناج عليه الصعيرية مكم
كيت كزاز اللحم أو حيرية مواشكة تنفي الحصى بلم

والصعيرية صمة للإناث من الإبل خاصة ، فقال له طرفة « قد استنوق الجمل ١٠ »
وذهبت مثلاً للتخليط ، أو للقوى يصير إلى الضعف والذلة .

(٢) وبصحيفة المتلمس يضرب المثل لما يتشاورم به من الكتب ، ومن قوله حين ألقاها في الماء :

رمىت بها في الشئى من جنب كافر كذلك أقنوا كل قطي مضلل

رضيت لها بالماء لما رأيتهما يجول بها التيار في كل جدول

وينسب إليه البيتان :

ارتاب المتلمس في أمر الملك ، لما تقدم من هجائه إياه ، وأشفق أن يكون أمر
فيها بشر ، فأقرأ صحيفته غلاما من نصارى الحيرة ، وغلم بما تحمله من المكروه
له ، فألقاها في الماء وهرب إلى الشام .

صحيفة المتلمس

وأما طرفة ، فأكبر أن يجترى عليه الملك ، لرهطه وحسبه ولمكان قومه من
المنعة في نجد - وكانوا من أنجب الأحياء وأعدّها وأكثرها فرسانا في العرب -
فشخص إلى البحرين ، وهناك لقي حتفه لهذا السبب المتقدم ، أو لغيره لحقت
الملك منه على أخته ، أومات حتف أئمه وهو ابن عشرين سنة أو خمس وعشرين
على الأرجح ، بدليل ما في ديوان أخته الخرنق^(١) من رواية أبي عمرو بن العلاء ،
ولم تتعرض الكتب التي تناولت حديث طرفة إلى أكثر من ذكر السبب
في موته ، وتقد قليل لبعض معانيه ، أو التنبيه على منزلته من شعراء عصره ،
ولم يشر واحد منها إلى تاريخ ميلاده ، ولا إلى تحديد السنة التي قتل فيها ،
ولا إلى شيء ذي قيمة عن حقيقة حياته ووصف شعره .

اغتيال
أمير البحرين
لطرفة بأمر
الملك

البغدادي
وترجمة طرفة

وقد ترجم له البغدادي في [الخرانة] بما لا يتجاوز هذا القدر من التحقيق
والاختصار ، وذكره الامام ابن قتيبة ، وابن سلام الجُمحى في كتابيهما [الشعر
والشعراء ، وكتاب الطبقات] وذكره أيضا مؤلف سُورِيّ نَشْر كتابه « روضة
الأدب في طبقات شعراء العرب » في بيروت في أوائل النصف الثاني من القرن
التاسع عشر ، وقال إنه مات قبل الإسلام بنحو سبعين سنة ، وبين أيدينا الآن

ابن قتيبة
وابن سلام
واسكندر
ابكار يوس

ولا يُقِيمُ على ضِيمٍ يُرَادُ به إلا الأذْلَانِ عَيْرُ الحَيِّ والوَدِيدُ
هذا على الحَسَفِ مَرْبُوطِ بِرُمَّتِهِ وَذَا يُشَجُّ فلا يَرَهُنَّ له أحدُ

(١) وكانت تحت بشر بن مرثد من سادات بكر وهي الفائلة ترثي طرفة :

عددنا له خمساً وعشرين حِجَّةً فلما توفاهما استوى سيِّداً ضَخْمَا
فُجِعْنَا به لما رَجَوْنَا إِيَّاهُ على خير حال لا وُلَيْدًا ولا قَحْمَا

وينسب البيدان لطرفة في ديوانه وهو خطأ .

شرح ديوان طرفة للإمام يعقوب بن السكيت من أئمة القرن الثالث الهجري توفي سنة ٢٤٣ ، مأخوذ بالتصوير الشمسي عن نسخة بدار الكتب ، مخطوطة من قلم الإمام الشنقيطي الكبير ومجموعة تسمى [العقد الثمين] تشتمل على شعر ستة من شعراء الجاهلية ، وهم امرؤ القيس والنابغة وعنترة وطرفة وعلقمة الفحل وزهير ، وهي مذيبة بتعليقات لطيفة فيما صحَّ من هذه الأشعار لقائلها ، وفيما صنعه الرواة عليهم ، وقد جاء في آخرها أن جامعها والذي عنى بترتيبها هو الفقير إليه تعالى « وليم بن الورد البروسي » من كبار علماء الألمان في نهاية القرن التاسع عشر ، وشرح آخر للأعلم الشنتمري ، ومعه ترجمة فرنسية بقلم عالم مستعرب ألماني - على الراجح - يسمى « مكس سيلغسون » كتب رسالة عن حياة طرفة ، تقدم بها إلى جامعة باريس ، ونال لقباً علمياً في التاريخ واللغات سنة ١٨٩٢ ، وقد اتخذ شعر طرفة وخذة أساساً لبحثه ، واستطاع بهذه الطريقة - على ما في بعض استنباطه من الخطأ - أن يهتدى إلى كثير مما أغفله المؤرخون من حياة طرفة ، ومن ظريف ما يزعمه في دينه أنه لم يكن وثنيا ولا يهوديا ولا نصرانيا ، وإنما هو يؤمن بالعقائد الشعبية ، وله إله أو آلهة أخرى لا يحبون إلا الأحياء ، أو لا تتعلق إرادتهم بالأموات ، بناء عن ما تأمله في كلام طرفة ، من قلة اعتداده بالآخرة ، وضعف ثقته بالجزاء على العمل في غير هذه الحياة الفانية ، وأنه لم يكن يدعو إلهه لأحد من عدوه أو من شيعته ، إلا بما يقع للناس في هذه العاجلة من ضرر أو نفع ، وما كان يستنزل الرحمة لأرواحهم بعد المات .

الأعلم
الشنتمري
ووليم بن
الورد البروسي
جامع
الدواوين
الستة

رسالة في حياة
طرفة لمكس
سيلغسون

وأرّخه ضاحب « شعراء النصرانية » بما لا يختلف عما في المراجع السابقة ، وعده من شعراء النصارى ، كما عدّه غيره من الجاهليين ، ولم يبن دعواه في نصرانيتها على أيّ دليل ، وذكره كتاب « الوسيط » على طريقته من الإحاطة والإدماج ، وتعرض له كتاب « الأدب الجاهلي » على نمطه الحديث ، في البحث الأدبي بما يشبه بعض ما تناولته به الترجمة الفرنسية من التحليل والنقد .

طرفة
وصاحب
شعراء
النصرانية
الوسيط
وكتاب
في الأدب
الجاهلي

ذلك - على أكبر الظن - كل ما عند الناس من أخبار طرفة ، وهو يمثل لنا حياة بدوية ، مترددة بين اليأس والحزن ، وبين الشباب والأمل متأثرة إلى حد غير بعيد بما يجعلها أرقى من حياة أهل البادية الذين لم يَرُمُوا الصحراء ولم يَتَقَلَّبُوا في البلاد .

وشتعر حين تمتحن شعره بما يصفونه به من العُجب والجرأة ، ومن الصلة الظاهرة بالضحيم من الحسب في قومه ، وشتعر مع هذه الأوصاف أيضاً بحياة شابة قوية ، يُطيل صاحبها الحديث عن نفسه ، ويسرف في ذكر شهواته ، وتقدير أمانيه ، ويذكر اغترابه وحزنه ، وتعثره أحياناً بالبيت والأبيات يتعرض بها لما في الطبائع من قلة الوفاء ، والعجز عن تحصين الأسرار ، والنفاسة بين القرايات المؤذنة بضروب من سوء المكافأة ومضاضة الظلم ، ويذكر الحب ، وقد يستخفه الشباب إلى قلة الاكتراث بدلّ المحبوب وتجنّيه ، حتى ليصير إلى مُطَارحته وصلاً بوصل وهجراناً بهجران ، وهو معنى ما يوصف به من العُجب ، على غير اليهود من العشاق الذين يستعذبون في الحب شديد العذاب ، ويتصلون عن محبوب من الذنوب .

زهير وطرفة
في وصفها
للحرب

وكذلك يذكر الحرب ، ولكنه لا يزال يُلمُّ بنفسه ، ويصف بلاء قومه ، ولا يكاد ينهض إلى صنيع زهير حين أوشك أن يتجرّد من نفسه ووقف يتحدث إلى قومه عن الحرب ، وهي أكثر شيء من أحوال الاجتماع البدوي وقوعاً ، وأهولُه خطراً فيما تهلك من أنفُس ونسب ، وبما تُورث من شنانٍ وضغنٍ ، في نسق من التصوير بالغ إلى الغاية من جمال المعرض ولطيف التمثيل ، بل أنت ترى طرفة مُفْرِطاً في الذهاب مع خواطره إلى صحابّ العيش ونزوات الشباب ، إلى ما يشبه أن يكون مجانّة واستهتاراً ، إلا ما استقام له من أبياته السائرة ، التي نفّتها عن خاطر ثاقب وفطرة عجيبة ، وما زالت على الزمان غضةً يمثّل الناس بها ، ولا يقضون العجب من استحسانهم لها .

وسوف تعرف أنه كان مع استئثاره للذات نفسه ، طمّوح العين إلى
عَلِيَّاتِ الأُمُور ، فتراه مع الشَّدَّاذِ والحِشْوَةِ في حوائِثِ الخَمَّارِينَ ، ثم إذا هو
يَثِبُ فيكون في حَلْقَةِ المَلَأِ مِنَ الأَشْرَافِ وَبَيْنَ السَّرَوَاتِ مِنَ عَلِيَّةِ القَوْمِ ،
ويذكر في أمانيه الشراب والمرأة ، ولا ينسى نصيبه من المجد بإسراعه إلى
المُضَافِ ، وصبره على المكروه ، بما يدل على احتفاله بموقع المعونة عنده ، ومنزلة
الفضيلة من نفسه .

نبل طرفه
وصباه

ويتصل شعره بالبادية ، فيصف ما فيها من نبات ووحش وطير ، ويذكر
الأمطار والبحار والسفن ، وقد تعلق بناقته فأمضى بها الهم عند احتضاره ، ثم
تناول جوارحها وأخلاقها وضروب سيرها بما لم يدع لقائل معه متعلقاً ، ووجد
بذلك من أوصف الجاهليين للإبل .

وصف الإبل

ثم ينتهي شعره إلى مجد القبيلة ، بما عهدته البادية من المفاخر العربية ،
التي لا تبعد عن تمثيل وقار المجلس وحماية الجار وقرى الضيف والغناء
في الحرب .

مجد القبيلة

وستقرأ شعره فتحسّ بجلبة قوية من أسر اللفظ ونخامة الأسلوب ، وقوة
القافية ، وقد يتوعر عليك حين يمضي به الوصف لناقته ، فلا تجد لك حينئذ
غنى عن الاستعانة بغريب اللغة لتفهّمه ، فتعلم إلى أي حدّ يتعلل هذا الكلام
بالحياة البدوية ، وكيف يمثلها أصدق تمثيل ، وقد تشعر له حين يتحدث عن
اغترابه وحزنه وبعض غزله ، برقة وسهولة ، تلمحها - على الأخص - في قصيدة
غزلية له ذاهبة من السلاسة إلى الغاية ، سنعرض لدراستها ، وستقول في نفسك
إنها ليست له ، وأولى أن تكون من صنعة العصور المتأخرة ، ونحن نحيلك على
ما قدمنا غير مرة ، من اختلاف مقامات الكلام ، وما يتبع ذلك من اختلاف
الأساليب ، ومن صحة اجتماع القوة والضعف للشاعر الواحد في الحالين المختلفين ،
إذ ليس من يذكر مشافر الناقة وأخفاف البعير ، كمن يترقق في الحديث
والشكوى إلى المرأة ، ويدعوه الغزل إلى اجتلاب اللفظ السّمح والنعمة الكريمة :

رقة الكلام
في الغزل

ونجد له مديحاً قليلاً ، لا يعرف حين يجاول منه بلاغاً خيراً للمندوح من سقيا الديار بصوب الربيع ؛ وله هجاء ، وفي شعره آلام يثبها في شكواه مما أصابه من قومه وما لقيه أثناء سياحاته وهو طريد منفي ، يعرغه في لفظ قريب وأسلوب سهل ، وذلك أيضاً شعر طرفة ، أو إن شئت قلت إنه طرفة متمثلاً في شعره ، وسترى عند اعتراضنا لتقدمه ودراسته ما تطمئن به إلى ما أسلفناك من الرأي فيه إن شاء الله .

منقولته من
الشعراء

رأى ابن سلام
في طرفة

ولا يتفق الرواة على شيء في طبقتهم من الشعراء أيضاً ، وقد جعله ابن سلام في الطبقة الرابعة مع عبيد بن الأبرص وعلقمة الفحل وعدي بن زيد ، قال :
وهم أربعة رءط فحول موضعهم مع الأوائل وإنما أخل بهم قلة شعرهم بأيدي
الرواة ، وأما طرفة فأشعر الناس واحدة وهي قوله :

نَحْوَلَةُ أَطْلَالٍ بِبُرْقَةٍ تَهْمَدِ وَقَفْتُ بِهَا أَبْكِي وَأُبْكِي إِلَى الْغَدِ^(١)

هكذا ذكره ابن سلام ، وهي رواية في مطلع المعلقة ، والمشهور غيرها كما سيأتي ، قال : ويلها أخرى مثلها وهي :

أَبْجَعَوْتَ الْيَوْمَ أُمَّ شَاقَتِكَ هِرٍ وَمِنَ الْحُبِّ جُنُونٌ مُسْتَعِرٍ^(٢)
وَمِنْ بَعْدُ لَهُ قِصَائِدٌ حَسَنٌ .

وذكره ابن قتيبة في كتابه «الشعر والشعراء» قال : وهو أجودهم طويلاً ، رأى ابن قتيبة
وله بعدها شعر حسن ، وليس عند الرواة من شعره وشعر عبيد إلا القليل ، ثم
ساق ما قدمناه في ترجمة لبيد عن أبي عبيدة من رأيه في طرفة ، وقد سماه مرة
الغلام القليل ، وأخرى بابن العشرين ، وهو يجعله ثاني الشعراء بعد امرئ
القيس . وذكر أيضاً عن أبي عبيدة قال : طرفة أجودهم واحدة ، وأجده

(١) برقة : مكان اختلط تراه بحجارة أو نحى .

.. (٢) هر : اسم امرأة . مستعر : ملتهب .

لا يلحق بالبحور - يعنى امرأ القيس والنابغة وزهير - ولكنه يوضع مع أصحابه ،
الحارث بن حلزة وعمرو بن كلثوم وسويد بن أبي كاهل .

وفي شرح ديوانه لابن السكيت ، رأى لجرير يقدمه به على الناس ، وفي
الأغاني في الجزء الخامس ، وفي العشرين كلام للفرزدق . ولالأخطل بهذا المعنى ،
وذكره المرزبانى فى « الموشح » ولم يرتبه فى طبقة ، غير أنه جعله فى الكتاب
بعد الأعشى ، وحكى شيئاً من شعره يعاب بعضه ويستحسن الآخر ولم يزد ،
وجعله البغدادي ثانياً الشعراء بعد امرئ القيس ، قال : ومرتبه ثانياً مرتبة ،
ولهذا تى بمعلقته .

جرير
والفرزدق
والأخطل
يقدّمونه

الثنية بمعلقته
وتعليق
البغدادي

ونحن نميل إلى الأخذ برأى ابن سلام على الأقل فيما يختص بطرفة ، فإن جودة
شعره ترفعه حقاً إلى درجة الفحول ، ويؤخره عنهم قلة ما تركه من الشعر ،
وأما أصحابه - غير علقمة - فليس لهم على مبلغ ظننا حظ يذكر من جودة
الكلام ، فلا موضع لهم مع الأوائل ، ثم نبدأ الآن بشرح ما يتسع له المقام من
أشعاره مستفتحين بالمعلقة .

وكذلك يختلف الرواة فى السبب الذى حمل طرفه على قولها ، فمنهم من
يقول - وهو الأقرب إلى الصواب - إنه كان لطرفة ولأخيه معبد إبل يرعيانها
يوماً ويوماً ، فأغبتها طرفه فى المرعى فلأمه أخوه على فعله ، قال : رأيت إذا
ذهبت إبلنا أ كنت تردّها بشرك ؟

دراسة
المعلقة

ومنهم من يذكر سبباً غير هذا ، ولكنهم لم يختلفوا فى أن هذه القصيدة
لطرفة ، ومن شعر طرفه لا غير ، وأنها نظمت بعد عودته من منفاه إلى قومه ،
وقبل اتعاله بالخاصية الملكية بالحيرة .

السبب فى
نظم المعلقة

ويرى مترجم ديوانه أنها لم توضع مرة واحدة ، لما يجده من تنوع أغراضها ،
وقلة الحرص على المجانسة بين مقاطعها ، ويزعم أن الأبيات المتعاقبة بخولة من المطلع
إلى وصف الناقة ليست منها ، وقد تكون من وضع جامع القصيدة ، ولعل هذه
الريبة نشأت عنده من اعتقاده بأن القصيدة إنشائيات لاسترداد الإبل

رأى المترجم
فى ذلك وفى
الآبيات
المتعلّفة بخولة
وأنها من
وضع جامع
الديوان

الضائعة ، فلا محلّ في رأيه حينئذٍ لذكر خولة ولا غيرها ، والمقام مقام جدِّ تنصرف فيه النفس عن مثل هذا اللهو والغزل ، ونسى أن الشعر القديم كله يفسح في صدره مكاناً للمرأة ، يقف لها الشاعر فيستلهم من وحيها ، ويستعين بإعجابها على ما امتلأت به آفاق البادية من المآثر العربية ، وهي عنده بمنزلة آلهة الشعر عند الأمم القديمة ، ولدورها في تاريخ الاجتماع البدوي مكان لا يُجْهَل ، وهي لا تقل في شغله بها واهتمامه بتقديم الحديث إليها عما يُثمر من مال وما يدخر من قنينة أو متاع .

رأيه
في وصف
الناقة

ويرى أيضاً تأخير الأبيات المتعلقة بوصف الناقة وما يليها إلى ما بعد قوله منها :

عَلَى غَيْرِ شَيْءٍ قَلْتُهُ غَيْرَ أَنِّي نَشَدْتُ فَلَمْ أُغْفِلْ حَمُولَةَ مَعْبَدٍ

لاعتقاده بأن من ههنا يدخل الشاعر في الغرض من نظم هذه القصيدة ، ولكنه يقع فيما حذرَه بهذا الترتيب ، إذ لا يجد علاقة بينها وهي نحو سبعين بيتاً تجاوزت الناقة إلى ذكر شبابه ولهوه وأمانيه وبين هذا البيت السابق ، ولأنه يلزم على هذا أن يكون كل شعر قاله طرفه في الإبل حتى في غير هذه القصيدة متأخراً في الوجود عن هذا البيت ، وأن يكون الكلام في الإبل المأخوذة لا في ناقة واحدة كادت بإبلاغ طرفه في وصفها ، تعدّ حيواناً خرافياً كأنه غير موجود ، ويقول إن قوله :

إِذَا مِتُّ فَأُبْكِينِي بِمَا أَنَا أَهْلُهُ وَشَقِيَّ عَلَى الْجَيْبِ يَا ابْنَةَ مَعْبَدٍ

وبعض الأبيات التالية قالها وهو في سجن البحرين قبل موته بقليل ، وليس ذلك بشيء ، لأن الإنسان كثيراً ما يدعو الاعتداد بمنزلته إلى مثل هذا الكلام ، استعظماً منه لنفسه وإشفاقاً من خلو مكانه في قومه بعد موته ، تباهياً بما يكون له من كفاية أو جدّة ، وإن كان يفرق من الموت ولا يعلم متى يموت ، وكذلك ينكر أن يكون :

لِعَمْرُكَ إِنَّ الْمَوْتَ مَا أَخْطَأَ الْفَتَى لِكَالطُّوْلِ الْمُرْخَى وَثِنْيَاهُ بِالْيَدِ (١)

لطرفه أو على الأقل من هذه القصيدة ، لعدم مناسبتها في رأيه للموضع الذي ظهر فيه منها .

خطؤه في قده وقد ترون عند التأمل في هذا النقد ، أنه في الجملة غير صواب ، وأنه ناشئ في الواقع من أمرين :

أحدهما ما هو معروف عن نظم القصيدة الجاهلية في حالة البديهة المعجلة ،

من قلة العناية بينائها على تأليف ، يتصل فيه أول الكلام بآخره ، بحيث لو تأخر البيت أو أسقط من مكانه يخل الكلام ويظهر النقص ، لأن الوقت ما كان يتفسخ للشاعر ، حين تزدحم الخواطر المختلفة في نفسه ، فيرسلها كما هي مرتجلة غير مرتبة ، وإن كانت عند تمحيص الكلام وتدقيق النظر متناسبة.

متجانسة لالتقائها في مرأى العين على بساط البادية ، وما الطلل والمرأة والناقة والمهاة والخيل والليل والوحش والمطر في نظر البدوي ، إلا حبات متناثرة يصح

أن يجمعها خاطره وتنتظمها عقود شعره ، على أن القصيدة العربية حين يَصْنَعُهَا الشاعر صناعة ، ويأتيها بفضل الأناة والروية ، ويتعقبها بالتمقيح والمعاودة ، وحين تشتمل على قصة أو تصف حالا واقعة ، سترى لها طبعاً ونسيجاً موصولاً في تلازم أجزائها واطراد أسلوبها ، وكذلك هي حين تشتمل أغراضاً مختلفة ، تتحدث على الأقل عن الوحدة في هذه الأغراض ، بمعنى أنك لا تستطيع أن تنزع شيئاً من وصف الناقة مثلاً فتضعه مع أبيات أخرى في وصف المطر أو

الليل أو نحو ذلك . ولكن المحدثين من النقاد الذين يقلدون المستشرقين من غير كبير نظر ، يُسْرِفون في ذم الشعر العربي ، لإخاذه - في زعمهم - بما يسمونه تقليداً « بوحدة القصيدة » ولأنهم يتوهمون أن الشعر العربي يجب

(١) الطول : الجبل يطول للدابة لترعى فيه .

أن يكون قصصاً يونانياً ، يتصل بحكاية الخرافات ، ويعمد قائله أبداً إلى إلقاء
خواتمه المتصلة في سلسلة متتابعة من الألفاظ ، ولئن كان هذا في رأيهم
كلاماً لغوياً فقد أصاب الشعرُ بعضه وما بلغه كله في الجاهلية .

أما الثاني فهو ما يعترف به هذا العالم المنصف ، عند ما تناول الأئمة
الأقدمين من علماء العرب في بحثه ، من أنهم - يعني المستشرقين - لن يستطيعوا
أن يبلغوا الآن ولا في المستقبل إلى ما بلغه أولئك العلماء ، وأنهم ينقصهم
على الأقل الشعور اللغوي أو ذوق الأدب العربي ، ومكانه من هذه الأبحاث
مكانه ، ولذا كان إنكاره البيت السابق غير مقارب للصواب ، لما ترونه من
قوة الارتباط الأدبي بينه وبين ما قبله وهو قوله :

الذوق اللغوي
عند علماء
العرب
والأفرنج

أَرَى الْعَيْشَ كَنْزاً نَاقِصاً كُلَّ لَيْلَةٍ وَمَا تَنْقُصُ الْأَيَّامُ وَالْدَّهْرُ يَنْفَدُ

إذ هو يقرر أن الدهر يقص حواشي الأشياء ، وينقص أيام الحياة ،
فهي لا محالة صائرة إلى الذهاب والفاء فينبغي لمن تطول أعمارهم ألا يغتروا
بأنهم قد يفتنون من هذا الحساب ، وإنما يؤخرون ليوم معلوم ، مهما أبطأ
الأجل عليهم أو طاولت الأيام لهم ، وهو معنى البيت المذكور ، وترونه مستقراً
في موضعه ومتصلاً بسابقه ، فلندع هذا إلى دراسة القصيدة كما هي في شرح
ابن السكيت والأعلم الشنتمري وجمهرة أبي زيد والعقد الثمين لوليم الفرت
المذكور .

قال طرفة :

نَحْوَةَ أَطْلَالٍ بَيْرَقَةٍ تَهْمِدُ تُلُوحُ كَبَاقِي الْوَسْمِ فِي ظَاهِرِ الْيَدِ
وُقُوفًا بِهَا صَحْبِي عَلَى مَطِيئِهِمْ يَقُولُونَ لَا تَهْلِكُ أَسَى وَتَجَلِّدُ
كَأَنَّ حُدُوجَ الْمَالِكِيَّةِ غُدُوءَ خَلَايَا سَفِينٍ بِالنَّوَاصِفِ مِنْ دَدِ
عَدْوَلِيَّةٍ أَوْ مِنْ سَفِينِ ابْنِ يَامِنٍ يَجُورُ بِهَا الْمَلَّاحُ طَوْرًا وَيَهْتَدِي

يَشُقُّ حَبَابَ الْمَاءِ حَيْرُومَهَا بِهَا كَمَا قَسَمَ التُّرْبَ الْمُفَايِلُ بِالْيَدِ
 وَفِي الْحَيِّ أَحْوَى يَنْفُضُ الْمَرْدَ شَادِنٌ مُظَاهِرٌ سِمَطَى لَوْلُوٍ وَزَبْرَجِدِ
 خَذُولٌ تُرَاعِي رَبْرَبًا بِخَمِيلَةٍ تَنَاولُ أَطْرَافَ الْبَرِيرِ وَتَرْتَدِي
 وَتَبْسِمُ عَنْ أَلْمَى كَانَ مُنَوَّرًا تَخَلَّلَ حُرَّ الرَّمْلِ دِعْصٌ لَهُ نَدِي
 سَقَّتُهُ إِيَاةُ الشَّمْسِ إِلَّا لِثَانِهِ أُسِفَّ وَلَمْ تَسْكُدْ عَلَيْهِ بِأَمْدِ
 وَوَجْهِ كَانَ الشَّمْسِ أَلْقَتْ رِذَاءَهَا عَلَيْهِ نَقِيَّ اللَّوْنِ لَمْ يَتَّخَذِ

غزل المعلقة

ولا نعرف خولة هذه ، ماخطبها ولا بنت من هي ، غير أنها امرأة من كلب ، ويبعد أن تكون غير المالكية المذكورة بعد ، ويقولون إنها من بنى مالك بن حنيفة بن قيس بن ثعلبة ، ويكون كل ما في الأمر أنها من رهط طرفة ، وسترونه يذكر نساء كثيرة في أشعاره الأخرى ، منهن هريرة وماوية وهند وسلمى ، ولا نعرف أمهن خولة أيضا سماها بهذه الأسماء أم هن صواحبها أم نساء آخر أحبهن طرفة ؟؟ ويصح أن تكون سيرته مهددة لاسترجاح هذا الرأي .

وقد تناول البيت الأطلال - وهي جمع ظلل - لما شخص من آثار الديار ولوحها ظهورها دقيقة متتابعة كالوشم ، وهو الدق بالنور أو الإيتمد على ظاهر اليد ، وبرقة شهمد موضع في ديارهم ، ثم وقف وحبس أصحابه مطيهم عليه ، يؤسسونه ويدعونه إلى الصبر والجلد ، ويصح أن ينصب وقوفا جمع واقف على الحال من فاعل يقولون ، أو أن ينصب على المصدر ، وقد مر هذا البيت بعينه في ترجمة امرئ القيس وشرح معلقته ، ثم أشار إلى ظننها وشبهه مركبها على الناقة وهو الحدج حين يبدو للنظر وسط الصحراء في تعاليه ولين سير الراحلة به ، بخلايا السفين أى العظام منها وهي تنحدر في مجارى المياه إلى الأودية ، وهو معنى النواصف جمع ناصفة ، وهي في هذا الموضع المسمى بدد ، ثم حقق هذا التشبيه بقوله : إنها من السفن المصنوعة في « عدولى »

تحليل هذه
الآيات

قرية بالبحرين أو من سفين ابن يامن وهو ملاح بهجر ، وهي تارة تغلب
قائدها وتجور عن الطريق وأخرى يهتدى بها إلى قصده ، وذلك لصلاحتها
للسير في الجور والقصد .

وحباب الماء زبده وأمواجه ، وقد يكون الحباب ما يظهر من الفقاقيع
على سطح الماء ، والحيزوم المُقَدَّم والصدر ، والفيال والمفايلة لعبة لهم يخبأ
شيء في التراب ويقسه أحدهم بيده ثم يطلب الحباء في أي قسم هو ،
وصورة التشبيه واضحة ، وبعد أن تناولها في رحلتها عاد يصفها في مقامها ،
فشبهها بالظبي الأحمى ، والحيرة لون إلى السواد ما هو ، ويقول شارح ديوانه
في الأحمى ماله خُطَّتَان من سواد وبياض . والمراد ثمر الأراك البالغ ، والشادن
الذي تحرك وقوى ، والمُظَاهِر اللابس ثوبا فوق ثوب . والسَّمَط الخيط من اللؤلؤ
أو نظم في سلكين ، وهو يُشَبَّه المرأة بالظبي في طول العنق وطى الكشع وحسن
العينين ، ويجرد التشبيه بقوله « مظاهر سمطى لؤلؤ وزبرجد » فاللفظ على الظبي
والمعنى على المرأة ثم قال خَدُول ، وهو نعت للأنثى ، وفي البيت السابق ذكر
الظبي على طريق التشبيه ، لأنه إذا شبهها بالظبي فقد شبهها أيضاً بالظبية ، والخدول
التاركة لصواحبها ، وتراعيها تراقبها أو ترعى معها وهي في هذه الحالة تكون منفردة
لطيفة التلفت ، ظاهرة المحاسن ، بخلاف ما إذا كانت في غمار صواحبها ، فانه
لا يتبين ذلك منها ، والْحَمِيلَةُ أرض سهلة ذات شجر ، والبرير ثمر الأراك
الذي لم يدرك ، وترتدى أى يكون ما يتهدل عليها من الأغصان بمنزلة الرداء ،
والمعنى على وصف الظبية بالنعمة والعنق لرعيها في هذا المكان الخصب

قال ، وتبسم عن ألمى أى ثغر أسمر اللثات^(١) وهي مغارز الأسنان في الفم
كأن فيه أقحوانا ظهر نوره ، وأضمر الخبر لظهوره ، وهو حسن اللون ناعمه

(١) والفعل منه لثى كفرح ، ويقال للمرأة إذا كانت رطبة المكان لثاء ، ونساء العرب
يتسابرن بذلك ويقال لعكسها الرثوف ، وهن يحمذن ذلك من أهسن^٢ واللثة كعدة .
وتجمع على لثات ولثين .

لنباته في كثيب من نقي الرمل ، في أسفله الندى من الماء والرى ، يشبه بياض
الأسنان بنور الأقاليم الندية ، وإيأة الشمس شعاعها وضوؤها ، أَسِفَ ذرٌّ على
لِثاته الإمد ، وهو حجر أسود يكتحل بمفتوته ، يقول إنها سمراء اللثات صافية
بياض الأسنان محدثتها ، إذ لم تعض بها شيئاً صلباً فهي باقية على حدتها ودقة
أطرافها ، وقد لطف وأجاد في قوله « ووجه كأن الشمس . . . البيت » وهو
ظاهر المعنى جميل الخيال ، ومعنى لم يتخذ أى لم يسترخ ولم يثن فهي في ريعانها
وَفَتَاءِ سِنِهَا .

وترك خولة وما تناوله من أوصافها فجأة ، إلى ذكر الناقة وقد فرغنا مما فيه

عند قولنا في مقدمة القصيدة قال :

وَإِنِّي لَا مُضِيَّ أَلْهَمَ عِنْدَ احْتِضَارِهِ	بِعَوْجَاءِ مِرْقَالٍ تَرُوحُ وَتَفْتَدِي
أُمُونٍ كَأَلْوَاكِ الْإِرَانِ نَسَائِهَا	عَلَى لَاحِبٍ كَأَنَّهُ ظَهْرُ بُرْجِدٍ
تُبَارِي عِتَاقًا نَاجِيَاتٍ وَأَتَبَعْتُ	وَضِيْفًا وَضِيْفًا فَوْقَ مَوْرِ مُعَبَّدٍ
تَرَبَّعْتُ الْقَفَيْنِ فِي الشَّوْلِ تَرْتَعِي	حَدَائِقَ مَوْلِي الْأَسْرَِةِ أَعْيَدِ
تُرِيْعُ إِلَى صَوْتِ الْمُهَيْبِ وَتَتَّقِي	بِيْدِي خُصْلَ رَوْعَاتِ أَكْلَفِ مُلْبِدِ
كَأَنَّ جَنَاحِي مَضْرَحِي تَكْنَفَانِي	حِفَافِيهِ شُكَا فِي الْعَسِيْبِ عَسْرِدِ
لَهَا فَخِذَانِ أَكْمَلِ النَّحْضِ فِيهِمَا	كَأَنَّهُمَا بَابَا مُنِيْفِ مُمْرَدِ

وصف الناقة

ثم مضى يصف ظهرها ومراقفها ورأسها وعينيها ووجهها وأذنيها وقلبها ، إلى

البيت الأربعين ، حيث يقول بعده :

إِذَا الْقَوْمُ قَالُوا مَنْ فَتَى خِلْتُ أَنْبِي عُنَيْتُ فَلَمْ أَكْسَلْ وَلَمْ أَتَبَدَّلْ

وعاد إلى ذكر الناقة ، ثم تركها ، وجعل يذكر نفسه ويعدّ خلاله ،

ويتحدث عن كرمه وشبابه وأمانيه ، قال :

ولستُ بِحَلَالِ التَّلَاعِ مَخَافَةً وَلَكِنْ مَتَى يَسْتَرْفِدِ القَوْمُ أَرْفِدُ
وَإِنْ تَبَغْنِي فِي حَلَقَةِ القَوْمِ تَلَقْنِي وَإِنْ تَلْتَمِسْنِي فِي الحَوَانِيتِ تَصْطَلِدُ
مَتَى تَأْتِنِي أَصْبَحُكَ كَأَسَا رَوِيَّةً وَإِنْ كُنْتَ عَنهَا ذَاغِنِي فَاغْنِ وَازِدِدِ
وَإِنْ يَلْتَقِ الحَيُّ الجَمِيعُ تَلَاقِنِي إِلَى ذِرْوَةِ البَيْتِ الشَّرِيفِ المُصَدِّدِ
نَدَامَى بِيضٍ كَالنُّجُومِ وَقِينَةٌ تَرُوحُ عَلَيْنَا بَيْنَ بُرْدٍ وَجُجَسِدِ
رَحِيبٌ قِطَابُ الجَيْبِ مِنْهَا رَفِيقَةٌ بِجَسِّ النَّدَامَى بَضَّةً المُتَجَرِّدِ
إِذَا نَحْنُ قُلْنَا أَسْمِعِينَا أَنْبَرْتَ لَنَا عَلَى رِسْلِهَا مَطْرُوفَةٌ لَمْ تَشَدِّدِ

فُتْيَانِيَّتُهُ
وكرمه ونداماه

يقول إنه يتسلى عن همومه بالرحلة على هذه الناقة الضامرة المرقال ، أى
التي تُنغِضُ رَأْسَهَا فِي السَّيْرِ مِنْ سُرْعَتِهَا وَنَشَاطِهَا ، أَوْ أَنَّهُ يَنْفَعُ مَا يَعِزُّ عَلَيْهِ ،
أَوْ يُهَمُّ بِهِ مِنْ الأُمُورِ بِمَعُونَةِ هَذِهِ النَّاقَةِ الَّتِي تُسَاعِدُهُ عَلَى كُلِّ حَالٍ مِنَ الرُّوحِ
وَالغُدُوِّ ، ثُمَّ وَصَفَهَا بِأَنَّهَا مَأْمُونَةٌ العِثَارِ ، عَظِيمَةٌ ، مُشْرِفَةٌ كَأَنَّهَا التَّابُوتُ الَّذِي
يُعَدُّونَهُ لِدْفِنِ سَادَتِهِمْ وَكِبْرَائِهِمْ ، وَأَنَّهُ نَسَّأَهَا - أَيْ دَفَعَهَا - عَلَى طَرِيقِ مُذَلَّلٍ ،
بِهِ مِنْ آثَارِ السَّيْرِ خُطُوطٌ كَثِيرَةٌ ، تُشَبِّهُ ظَهَرَ البُرْجُدِ « وَهُوَ الكِسَاءُ المَخْطُوطُ »
ثُمَّ أَضَافَ إِلَى نَشَاطِهَا وَحِدَّتِهَا ، أَنَّهَا تَبَارَى - أَيْ تَنَافَسَ وَتَسَابَقَ - إِبْلًا كَرِيمَةً
نَاجِيَةً سَرِيعَةً ، فَتَتَّبِعُ وَظِيفَ رِجْلِهَا بِوِظِيفِ يَدِهَا ، فَوْقَ طَرِيقِ مِمَّهَدٍ « وَالوِظِيفُ
مَكَانُ القَيْدِ مِنْ رِجْلِ البَعِيرِ ، أَوْ هُوَ مِنَ الرُّسْعِ إِلَى الرِّكْبَةِ » وَذَكَرَ أَنَّهَا تَرَبَعُ
القُفَيْنِ أَيْ رِعْتَهُمَا فِي الرِّبْعِ ، وَالقَفُ مَا يَرْتَفِعُ مِنَ الأَرْضِ ، وَلَا يَبْلُغُ أَنْ يَكُونَ
جَبَلًا ، وَهُوَ أَحْسَنُ نَبْتًا مِنْ غَيْرِهِ . وَالشُّوْلُ الإِبْلُ الَّتِي مَضَى عَلَى نَتَاجِهَا أَشْهَرُ ،
وَالحِدَائِقُ الرِّيَاضُ وَكُلُّ شَجَرٍ مُلْتَفٍّ ، وَالْمَوَلِيُّ المِطُورُ بِالْوَلِيِّ وَهُوَ المَطَرُ بَعْدَ
المَطَرِ ، أَوْ الأَوَّلُ الوَسْمِيُّ وَالثَّانِي الأَوَّلِيُّ ، وَالأَسِرَّةُ طَرَائِقُ النِّبَاتِ ، وَالأَغْيَدُ
المُتَشْنِي مِنَ النِّعْمَةِ .

تحليل
الآيات

ثم وصفها بالأدب في أنها تستجيب لصوت الداعي ، وهو المهيب إذا دعاها ،

وتحمى نفسها من مقاربة الفحل ، وهو الأكَاف الذى تلبّد ذنبه من كثرة بوله ، بذى خُصِّل أى بذنب ذى شعر كثير ، وشبهه بجناحي المنّرحى وهو العظيم من النسور ، والحفّاف الجانب ، والعسيب عظم الذنب ، والمسرّد المنخرز .
ثم أخذ يصف أعضاءها فقال ، لها فخذان مكتنزان قد كل لهما ، والنّحض اللحم ، والنيف القصر المشرف ، أراد أن فخذها مرتفعان مشرفان كبابى القصر العظيم .

ثم ذهب إلى تقرير اعترافه ، وعكوفه على اللذات ، وتضييعه لما عنده وأفراد عشيرته له ، قال :

وصفه للذاته
وَمَا زَالَ تَشْرَابِي الخُمُورَ وَلَذَّتِي وَبَيْعِي وَإِنْفَاقِي طَرِيفِي وَمُتَلَدِي
إِلَى أَنْ تَحَامَتْنِي العَشِيرَةُ كُأَهَا وَأُفْرِدْتُ إِفْرَادَ البَعِيرِ المُعَبَّدِ

وبعد ذلك انتهى إلى توطين نفسه على المعاقرة ، والأخذ بما يمكنه من اللذات ، وقال إن نفي قومه له لم يناكره مع طبقات الناس من الفقراء والأغنياء ، بل بقي بعد ذلك معروف المكان ، غير مجهول حيث يقول :

رَأَيْتُ بَنِي غَبْرَاءَ لَا يُنْكِرُونَنِي وَلَا أَهْلُ هَذَاكَ الطَّرَافِ المُدَدِّ
أَلَا أَيُّهَا الزَّاجِرِيُّ أَحْضُرِ الوَغَى وَأَنْ أَشْهَدَ اللِّذَاتِ هَلْ أَنْتَ مُخْلِدي
فَإِنْ كُنْتَ لَا تَسْتَطِيعُ دَفْعَ مَنِيَّتِي فَذَرْنِي أَبَادِرْهَا بِمَا مَلَكَتْ يَدِي

وهذا الكلام يصدر عن المتشائمين ، الذين لا يهتمون بما فى أعقاب الأمور ، وإنما لهم ما بين أيديهم ، وقد شرح هذا المعنى وأوضح عن غرضه منه فى أبياته الآتية :

فَلَوْلَا ثَلَاثٌ هُنَّ مِنْ عَيْشَةِ النَّفَى وَجَدَّكَ لَمْ أَحْفِلْ مَتَى قَامَ عُوْدِي (١)

(١) وطرفة من أول من قدر أمانه فى الحياة ، وقد سبقه إلى ذلك امرؤ القيس ، وجعلها أربعا غير أنه استثنأها مما ودعه من صباه ، وقد سبق ذلك فى ترجمته . وفى كتاب

فَمِنْهُنَّ سَبَقُ الْعَاذِلَاتِ بِشَرِبَةٍ كَمَيْتٍ مَتَى تُعَلَّ بِالْمَاءِ تُزِيدُ
وَكَرَّى إِذَا نَادَى الْمُضَافُ مُحْتَبًا كَسِيدِ الْغَضَا نَبْهَتَهُ الْمُتَوَرِّدِ
وَتَقْصِيرُ يَوْمِ الدَّجْنِ وَاللَّجْنِ مُعْجِبُ بَهْكَنَةٍ تَحْتَ الْحَبَاءِ الْمُعَمَّدِ

ثم أشار إلى يأسه ، ورغبته في استعجال لذاته قبل مفارقة هذه الحياة التي

لا يثق بنعيم وشراب في غيرها ، وهو قوله :

فَدَرَنِي أَرَوَى هَامَتِي فِي حَيَاتِيهَا مَخَافَةَ شُرْبٍ فِي الْمَاتِ مُصَرِّدِ
وجعل يحاول العزاء لنفسه ، على ما هو فيه من الحياة المضطربة النهمية في
اكتساب الشهوات البدنية ، بما هو عند نفسه صادق النظر فيه ، ولطيف
الاستنتاج له ، من استواء الشحيح والمفسد بعد الموت ، الذي لا يفرق في أخذه
بين الكريم والفاحش المتشدد قال :

صدق نظره
وانتفاعسه
بعظات الحياة

أَرَى قَبْرَ فَحَّامٍ بِجَحِيلٍ بِمَالِهِ كَقَبْرِ غَوِيٍّ فِي الْبَطَالَةِ مُفْسِدِ
تَرَى جُثُوتَيْنِ مِنْ تَرَابٍ عَلَيْهِمَا صَفَائِحُ صُمٍّ مِنْ صَفِيحٍ مُنْضِدِ
أَرَى الْمَوْتَ يَعْتَامُ الْكِرَامَ وَيَضْطَفِي عَقِيلَةَ مَالِ الْفَاحِشِ الْمُتَشَدِّدِ
أَرَى الْعَيْشَ كَنْزًا نَاقِصًا كُلَّ لَيْلَةٍ وَمَا تَنْقُصُ الْأَيَّامُ وَاللَّهْرُ يَنْقَدِ
لَعَمْرُكَ إِنَّ الْمَوْتَ مَا أَخْطَأَ الْفَتَى لَكَ الطَّوْلُ الْمُرْخَى وَثِنْيَاهُ بِالْيَدِ

ابن قتيبة لعبد الله ابن نهيك بن إساف الأنصاري ، قوله ، وهو مأخوذ من كلام طرفة :

فلولا ثلاث هن من عيشة الفتى وجدك لم أحفل متى قام رامس
فمنهن سبق العاذلات بصرية كأن أخاها مطلع الشمس ناعس
ومنهن تجريد الكواعب كالدمى إذا ابتز عن أكفاهن الملابس
ومنهن تفریط الجواد عنانه إذا استبق الشخص الخنق الفوارس

ومما سبق إليه طرفة وأخذ منه ، قوله «يشق حجاب الماء . . . البيت» أخذه ليبدأ ،

فقال يصف ثوراً :

تشقّ خائل الدهنا يدها كما لعب القامر بالفيال

وذهب بعد هذا يذكر ما كان من ابن عمه مالك معه ، من سوء مكافأته
إياه وحسده له ، وإيذائه بالتقريع واللوم من غير ذنب ، مع أنه ممن يدعون
للجلى وهي الأمور العظيمة ؛ فيكون من حمايتها ويقف نفسه لأعدائه ، ويدافعهم
عنه ، ويوردهم حياض الموت إذا قذفوا عرضه ، وذكر أن ذلك كله ليس بنافعه
عنده ، قال :

فَمَالِي أُرَانِي وَابْنَ عَمِّي مَالِكًا مَتَى أَدْنُ مِنْهُ يَنَاءً عَنِّي وَيَبْعُدُ
يَوْمٌ وَمَا أُدْرِي عِلَامَ يَوْمِي كَمَا لَأَمَنِي فِي الْحَيِّ قُرْطُ بْنُ مَعْبِدِ
عَلَى غَيْرِ شَيْءٍ قُلْتُهُ غَيْرَ أَنِّي نَشَدْتُ فَلَمْ أُغْفَلْ حَمُولَةَ مَعْبِدِ
وَقَرَّبْتُ بِالْقُرْبَى وَجَدَّكَ إِنِّي مَتَى يَكُ عَهْدٌ لِلنَّكِيَّةِ أَشْهَدِ
وَإِنْ أَدْعَ لِلْجَلِي أَكُنْ مِنْ حَمَاتِهَا وَإِنْ تَأْتِكَ الْأَعْدَاءُ بِالْجَهْدِ أَجْهَدِ
وَإِنْ يَقْذِفُوا بِالْقَذَعِ عِرْضَكَ أَسْتَقِيمُ بِشُرْبِ حِيَاضِ الْمَوْتِ قَبْلَ التَّهْدِيدِ
وَالنَّكِيَّةُ آخِرُ الْجَهْدِ إِلَى قَوْلِهِ :

شكواه من
ظلم ذوى
قرباه مع
دفاعه عنهم

فَلَوْ كَانَ مَوْلَايَ أَمْرًا هُوَ غَيْرُهُ لَفَرَّجَ كَرْبِي أَوْ لَأَنْظُرَنِي غَدِي
وَلَكِنَّ مَوْلَايَ أَمْرٌ هُوَ خَانِقِي عَلَى الشُّكْرِ وَالتَّسَالِ أَوْ أَنَا مُفْتَدِ
وَوَظَلُّ ذَوِي الْقُرْبَى أَشَدُّ مَضَاضَةً عَلَى الْمَرءِ مِنْ وَقَعِ الْحُسَامِ الْمُهَنْدِ
فَلَوْ شَاءَ رَبِّي كُنْتُ قَيْسَ بْنَ خَالِدِ وَلَوْ شَاءَ رَبِّي كُنْتُ عَمْرَو بْنَ مَرْثَدِ
فَأَصْبَحْتُ ذَا مَالٍ كَثِيرٍ وَعَادِنِي بَنُونَ كِرَامٍ سَادَةٌ لِسُودِ

ثم أشار إلى أنه ، وإن لم يكن كهؤلاء ، ولكنه يعرف سبب حسدهم له
ونفاستهم عليه ، وهو شوكته وقوته عليهم ، ويهون على نفسه ما يلقاه من
تنقصهم له فيما يقول :

أَنَا الرَّجُلُ الضَّرْبُ الَّذِي تَعْرِفُونَهُ خَشَّاشٌ كَرَأْسِ الْحَيَّةِ الْمُتَوَقِّدِ

غناؤه
واعتداده
ببسالته
وتهديده
لأعدائه

وَأَلَيْتُ لَا يَنْفَكُ كَشْحِي بِطَانَةٍ
لِعَضْبٍ رَقِيقِ الشَّفَرَتَيْنِ مَهْدٍ
أَخِي ثِقَةٍ لَا يَنْثَنِي عَنْ ضَرْبَةٍ
إِذَا قِيلَ مَهَلًا قَالَ حَاجِزُهُ قَدِ
حُسَامٌ إِذَا مَا قُمْتُ مُنْتَصِرًا بِهِ
كَفَى الْعَوْدَ مِنْهُ الْبَدْءُ لَيْسَ بِمَعْضِدِ
إِذَا ابْتَدَرَ الْقَوْمُ السَّلَاحَ وَجَدْتَنِي
مَنْبِعًا إِذَا بُلَّتْ بِقَائِمِهِ يَدِي

ثم اقتضب إلى ذكر ما يصنعه بإبل الحى ، عند إقبال الضيوف ، من ضربه إياها واستلال الآماء لجوارها ، وسعين عليهم بقطع الأسنمة السمينة ، وهو معنى ما فى البيت من قوله « وَيُسْعَى عَلَيْنَا بِالسَّيْفِ الْمُسْرَهْدِ . »

ثم بدأ يعتز بنفسه ويتعزى عنها بما يذكر من مناقبه ، ويستنزف ابنة عمه دموعها عليه بعد موته لأنه أحق من تبكى عليه ، قال :

استبكاؤه
لابنة عمه

إِذَا مِتُّ فَأُبْكِينِي بِمَا أَنَا أَهْلُهُ .
وَشَقَى عَلَى الْجَيْبِ يَا ابْنَةَ مَعْبَدِ
وَلَا تَجْعَلِينِي كَأَمْرِي لَيْسَ هُمَّةُ
كَهَمِّي وَلَا يُغْنِي غِنَائِي وَمَشْهَدِي
بَطِيءٌ عَنِ الْجَلِيِّ سَرِيعٌ إِلَى الْخِنَاءِ
ذَلِيلٌ بِأَجْمَاعِ الرِّجَالِ مُلْهَدِ
فَلَوْ كُنْتُ وَغَلًّا فِي الرِّجَالِ لَضَرَّنِي
عَدَاوَةُ ذِي الْأَصْحَابِ وَالْمَتَوَحِّدِ
وَلَكِنْ نَفَى عَنِّي الرِّجَالُ جِرَاءَتِي
وَصَبْرِي وَإِقْدَامِي عَلَيْهِمْ وَتَحْتِدِي
لَعَمْرُكَ مَا أَمْرِي عَلَى بَغْمَةٍ
نَهَارِي وَلَا لَيْلِي عَلَى بَسْرَمِدِ

الملهد المدفوع بأجماع الرجال ، ومفردها جمع بضم الجيم ومعناه قبض الرجل أصابعه للضرب ، ويختم مطافه بهذه الأفراد السائرة من معانيه يقول :

أمثاله السائرة

أَرَى الْمَوْتَ أَعْدَادَ النَّفُوسِ وَلَا أَرَى
بَعِيدًا غَدًا مَا أَقْرَبَ الْيَوْمَ مِنْ غَدِ
سُبْدِي لَكَ الْأَيَّامُ مَا كُنْتَ جَاهِلًا
وَيَأْتِيكَ بِالْأَخْبَارِ مَنْ لَمْ تُزَوِّدْ

وهذه طويلة طرفة ، ولا أظن أحداً يتردد فى الشعور بما اشتملت عليه من قوة الكلام ، وصدق العاطفة ، والدلالة على ما عند قائلها من فورة الشباب ، وقلة

المبالاة ، والميل مع الشهوات ، وشدة الاعتداد بالنفس ، والظهور أحياناً إلى جانب المناقب العربية ، من شرف الأصل وشجاعة القلب ، وإكرام الضيفان ، عدا ما تجاوز فيه الشاعر من الغريب في وصف ناقتة ، وتقديره في أبيات أخرى قليلة من القصيدة ، مثل قوله « فلو كان مولاي امرأ . . . البيتين » فإن فيه فضلاً يستغنى الكلام عنه ، وما أحق طرفة بطول التجربة ، وامتداد العمر وشدة الرجحان حين يقول « ستبدي لك الأيام . . . البيت » وهو معنى طائف بالوجود على ممر الأيام ، ولا يزال بهي اللفظ جديداً على كثرة التمثيل والتكرار .

وأما رب طرفة الذي لو شاء جعله كقيس بن خالد - وهو ذو الجدين من عظماء سادة الشيبانيين - أو كعمر بن مرثد - وهو ابن عم طرفة - فهو أيضاً رب العرب ، ولا ينبغي أن يكون وثناً من أوثانهم كانوا يعرفون أنه حجر لا يقدر على شيء ، ويزعمون أن عمرو بن مرثد حين سمع قوله هذا ، دعاه فقال : له أما الولد فالله يعطيكه ! وهذا أيضاً يحقق معنى الألوهية لرب طرفة ، قال : وأما المال فلا تبرح حتى تكون من أوسطنا فيه ! وأمر سبعة من أبنائه وثلاثة من بني أبنائه أن يعطوه عشراً عشراً من الإبل .

ثم نذكر شيئاً من قصيدته الرائية ، وإن كان ما قدمناه كافياً في الاستدلال على ما أسلفناكم من الرأي في قوة كلامه ، وجزالة أسلوبه ، ويحتمل أن يكون قائلها بعد عودته إلى قومه أيضاً ، لأنها في الجملة حديث عن مآثرهم ، وتنويه بافتخاره بهم ، وهي في رأي مترجم الديوان القصيدة السابعة لطرفة :

أَصْحَوْتَ الْيَوْمَ أَمْ شَاقَّتْكَ هِرٌّ وَمِنْ الْحُبِّ جُنُونٌ مُسْتَعِرٌّ
لَا يَكُنْ حُبُّكَ دَاءً قَاتِلاً لَيْسَ ذَا مِنْكَ مَأْوِيٌّ بِحُرٌّ
كَيْفَ أَرْجُو حُبَّهَا مِنْ بَعْدِ مَا عَلِقَ الْقَلْبُ بِنَصَبٍ مُسْتَسِرٌّ

ثم قال وأكثرها من هذا النمط الذي لا نستطيع أن نصفه إلا بأنه كلام

قصيدته
الرائية

قوى غريب في بعض الأحيان قليل الحلاوة ضعيف الروعة :

جَازَتْ بِيَدِ الْبَيْدِ إِلَى أَرْحُلِنَا آخِرَ اللَّيْلِ بِيَعْفُورٍ خَدِرٍ (١)
 ثُمَّ زَارَتْنِي وَصَحْبِي هُجَعٌ فِي خَلِيطٍ بَيْنَ بَرْدٍ وَنَمْرِ (٢)
 تَخْلِسُ الطَّرْفَ بَعِينِي بَرْغَزٍ وَبِحَدْيٍ رَشَاءِ آدَمَ غَيْرِ (٣)
 وَلَهَا كَشْحًا مَهَاةٌ مُطْفِلٍ تَفْتَرِي بِالرَّمْلِ أَفْنَانَ الزَّهْرِ (٤)

تشبيها

وهكذا مضى يصف تنعمها وحسن شعرها وجمال شبابها ، وتوجعها من النظر إليه ، وأنها باردة في الصيف مسخنة في الشتاء ، رخيمة الصوت ، عذبة الريق ، وأنها إذا تأسنه يلسنها ، وهو بيته الذي يقول فيه :

وَإِذَا تَلَسَّنِي أَلْسِنُهَا إِنِّي لَسْتُ بِمَوْهُونٍ فَقِرٍّ

أى إذا افتخرت عليه لا يذل لها ، بل يفاخرها أيضا ، لأنه ليس بضعيف ولا دني ، وذلك ما أشرنا إليه في التعريف به من قلة حذقه بصفات العشاق ، الذين يذلون لعزة المعشوقين ، ولذا يعيبه الرواة بقولهم « ما كان طرفه يحسن أن يتعشق » ويذكرون البيت .

وخرج من هذا إلى ذكر ما اقتحمه من البلاد ، وما أصابه في عامه من الخطوب ، وألم بقومه فجعل يذكرهم ويعد آثارهم ، ولا ينسى نفسه من بينهم ، وأطال في ذلك ، قال :

وَبِلَادٍ زَعِيلٍ ظِلْمَانُهَا كَأَلْمَخَاضِ الْجُرْبِ فِي الْيَوْمِ الْخَدِرِ
 قَدْ تَبَطَّنْتُ وَتَحْتِي جَسْرَةٌ تَتَّقِي الْأَرْضَ بِمَلْثُومٍ مَعِرٍ
 ذَاكَ عَصْرٌ وَعَدَانِي أَنِّي نَابِي الْعَامِ خُطُوبٍ غَيْرِ سِرِّ

سباحته
وما لاقاه في
أسفاره

(١) اليعفور : ظلي تعلوه حمرة ، الخدر : الفاتر العظام . (٢) البرد : ثوب وشي ، النمر : جمع نمرة وهي ضرب من الثياب . (٣) البرغز : ولد الناقة ، الآدم : الأسمر الأبيض البان . (٤) تفتري : تتبع أفنان الزهر فترعاها .

مِنْ أُمُورٍ حَدَّثَتْ أَمْثَالَهَا تَبْتَرِي عُوْدَ الْقَوِيِّ الْمُسْتَمِرِّ
وَتَشْكِي النَّفْسُ مَا صَابَ بِهَا فَاصْبِرِي إِنَّكَ مِنْ قَوْمٍ صَبْرٌ
إِنْ تُصَادِفَ مُنْفِسًا لَا تُلْفِنَا فُرْحَ الْخَيْرِ وَلَا نَكْبُو لِضُرِّ
أَسَدٌ غَابَ فَإِذَا مَا فَرَعُوا غَيْرَ أَنْكَاسٍ وَلَا هُوجٍ هُذُرُ
وَلِيَ الْأَصْلُ الَّذِي فِي مِثْلِهِ يُصْلِحُ الْأَبْرُ زَرْعَ الْمُؤْتَبِرِ
طَيِّبُ الْبَاءَةِ سَهْلٌ وَلَهُمْ سُبُلٌ إِنْ شِئْتُ فِي وَحْشٍ وَعِرِّ

وقد أخذ قوله « وبلاد . . . البيتين » عدي بن زيد وليد ، فقال عدي :

وَبِلَادِ زَعِيلٍ ظَلَمَانُهَا كَرَجَالِ الْحَبَشِ تَمَشِي بِالْعَمْدِ
قَدْ تَبَطَّنْتُ وَتَحْتِي جَسْرَةٌ عِزُّ أَسْفَارِ كَمِخْرَاقٍ وَحَدِّ

وقال لبيد :

وَبِلَادِ زَعِيلٍ ظَلَمَانُهَا كَحَزِيقِ الْحَبَشِيِّينَ الزُّجَلِ
قَدْ تَبَطَّنْتُ وَتَحْتِي جَسْرَةٌ حَرَجٌ فِي مِرْفَقَيْهَا كَالْقَتْلِ

وليس لهذا المعنى في نظرنا كبير شأن ، حتى يأخذه شاعر من شاعر ، أو

يسبق به قائل على آخر ، سوى أنه قطعة من الطبيعة البدوية الموحشة وكفى .

يقول : وقد طوفت بهذه البلاد النشيطة النعام ، الذي يشبه في كثرته واجتماعه أولئك الإبل الجرباء ، في اليوم الشديد البرد ، الذي يخدر فيه الناس ، وتحتي ناقة طويلة أو جريئة ، تلثم الأرض بمناسمها أو أخفافها . المعرة أي العارية من الشعر ، وهذا زمان قد سلف ، ويمعنى الآن من هذا الطواف ما أصابني من الخطوب العظيمة المشهورة ، التي تابعت علي ، ولعله يشير إلى ما أصاب قومه وما أصابه منهم ، ويحاول ذكرى ما كان منهم له حين تقوه ، وما تابع عليه من كثرة معاودتهم لما كان يسوؤه ، ثم ينتهي إلى تقرير نفسه بالذنب ، واعترافه بما كان فيه من الغي الذي يحسبه رشداً ، قال :

تحليل
الآيات
السابقة

وَهُمْ مَا هُمُو إِذَا مَا لَبَسُوا نَسَجَ دَاوُدَ لِبَاسٍ مُّخْتَصِرٌ
 ثُمَّ زَادُوا أَنَّهُمْ فِي قَوْمِهِمْ غُفِرَ ذَنبُهُمْ غَيْرُ فُحْرٍ
 لَا تَعْرِزُ الْخَمْرُ إِنْ طَافُوا بِهَا بِسِيَاءِ الشَّوْلِ وَالْكُومِ الْبُكْرِ
 فَإِذَا مَا شَرِبُوهَا وَانْتَشَرُوا وَهَبُوا كُلَّ أُمُومٍ وَطَمِيرٍ
 ثُمَّ رَاخُوا عَبَقَ الْمَسْكِ بِهِمْ يُلْحِفُونَ الْأَرْضَ هُدَّابَ الْأُزْرِ

قال الإمام أبو محمد بن قتيبة ، وقال غيره في قوله « فاذا ما شربوها وانتشروا . . . البيت » من غير نظر إلى قصد الشاعر جعلهم يهبون من الآفة التي تدخل على عقولهم . وأصح من هذا قول عنتره :

موارنة بين
 طرفه وعنتره
 وزهنير
 وحسان في
 معنى مشترك
 بينهم

فَإِذَا شَرِبْتُ فَإِنِّي مُسْتَهْلِكٌ مَالِي وَعَرِضِي وَافِرٌ لَمْ يُكَلِّمْ
 وَإِذَا صَحَوْتُ فَمَا أَقْصَرُ عَنْ نَدَى وَكَمَا عَلِمْتَ شَمَائِلِي وَتَكَرَّمِي
 لولا أنه أتى بالمعنى في بيتين ورجحوا عنهما قول زهير :

أَخِي ثِقَّةٌ لَا تُتَافُ الْخَمْرُ مَالَهُ وَلَكِنَّهُ قَدْ يُتَافُ الْمَالُ نَائِلُهُ

وأخذ حسان بن ثابت بيت طرفه فقصر عنه ، فقال :

وَنَشَرِبُهَا فَتَرَكْنَا مُلُوكًا وَأُسْدًا مَا يُنْهِنُهَا اللَّقَاءُ

فوصفهم بالشجاعة بعد ما يأخذ الشراب من تمييزهم ، وهذا معنى ناقص .

ثم نعود إلى ما بقي من القصيدة ، قال :

نَحْنُ فِي الْمَشْتَاةِ نَدْعُو الْجَفَلَى لَا تَرَى الْأَدِبَ فِينَا يَنْتَقِرُ

ثم قال :

مُسِّكُ الْخَيْلِ عَلَى مَكْرُوهِهَا حِينَ لَا يُمْسِكُهَا إِلَّا الصُّبْرُ
 حِينَ نَادَى الْحَى لَمَّا فَرَعُوا وَدَعَا الدَّاعِيَ وَقَدْ لَجَّ الدُّعْرُ

حتى قال :

وَلَقَدْ كُنْتُ عَلَيْكُمْ عَاتِبًا فَعَقَّبْتُمْ بِذُنُوبٍ غَيْرِ مُرٍّ
 كُنْتُ فِيكُمْ كَالْمُغْطَى رَأْسَهُ فَأُنْجَلِي الْيَوْمَ قِنَاعِي وَخُرُّهُ
 سَادِرًا أَحْسَبُ غَيِّي رَشْدًا فَتَنَاهَيْتُ وَقَدْ صَابَتْ بِقُرُّهُ

يقول إنهم يعمثون بالدعوة إلى الطعام في وقت البرد والشتاء ، والآدب : هو
 الداعي إلى المأدبة ، لا ينتقر أى لا يخص بالدعوة ناساً دون آخرين ، والأبيات
 بعدها ظاهرة ، وأما قوله « فعقبتم بذنوب . . البيت » فمعناه عطفتم بعبء
 لا من فيه ولا مطال فيكون مرًا ، وقوله « فتناهيت وقد صابت بقر » فمعناه
 تركت ما كنت فيه من الغي واتتهيت إلى ما ينبغي لثلى ، وقوله « صابت
 بقر » مثل للشئ إذا بلغ موضعاً يحسن أن يستقر فيه .

ولطرفة بعد هذين ، قصيدتان يحف بإحداها نفسه وقومه في حروبهم
 وسلمهم ، أولها :

إِنِّي مِنَ الْقَوْمِ الَّذِينَ إِذَا أَرِمَ الشِّتَاءُ وَدُوخِلَتْ حُجْرُهُ

يقول منها :

وَإِذَا الْمَغِيرَةُ لِلْهَيَاجِ غَدَّتْ بِسَعَارٍ مَوْتٍ سَاقِطٍ أُرْرُهُ
 وَلَوْأَ وَأَعْطَوْنَا الَّذِي سُبُّوْنَا مِنْ بَعْدِ مَوْتٍ ظَاهِرٍ ذُورُهُ
 إِنَّا لَنَكْسُوهُمْ وَإِنْ كَرِهُوا ضَرْبًا يَطِيرُ خِلَالَهُ شَرْرُهُ
 وَالْمَجْدُ نُنْمِيهِ وَنُنْتَلِيهِ وَالْحَمْدُ فِي الْأَكْفَاءِ نَدَّخِرُهُ
 نَعْفُو كَمَا تَعْفُو الْجِيَادُ عَلَى الْعَمَلَاتِ وَالْمَخْدُولُ لَا نَذَرُهُ

وأخرى يذكر فيها شيئاً من تاريخ قومه في حرب البسوس ، من أمر
 الصلح بينهم وبين تغلب ، وكان ملك الحيرة أوفد قائداً من قواده يسمى الغلاق
 ليقوم بأمر الصلح ، ويظهر أنه كانت ضلعه مع تغلب على بكر ، فإن القوم
 تهادنوا زميناً على ضغن وتوقع لأن تثب إحداها على الأخرى ، ويفهم من

تعرضه
 لتاريخ قومه
 وذكرى
 البسوس

هذا أن طرفة أدرك زمان الهدنة بعد البسوس ، ومعقول أنه لم يدرك يوماً منها
كما سيأتى ، وأول القصيدة :

أَشْجَاكَ الرَّبْعُ أُمُّ قِدْمُهُ أُمُّ رَمَادٍ دَارِسٌ حُمَمُهُ
وفيهما يُشير إلى ذلك بقوله :

فَسَعَى الْغَلَاقُ بَيْنَهُمْ سَعَى خَبٍ كَاذِبٍ شَيْمُهُ
أَخَذَ الْأَزْلَامَ مُقْتَسِمًا فَأَتَى أَغْوَاهُمْ زَلْمُهُ

وله قصيدة أخرى ، قريبة في نسجها وتصويرها من المعلقة ، تناول في
صدرها وصف حالة من حالات الجهد في البادية ، حين يتقطع جهام الغيم في السماء ،
وتشتد الرياح ، ويفرُّ قريع الشول إلى الحى للدَّفءِ وتمتد قطع الجليد على
رعوس الدور ومبارك الأبل ، وأنهم على تلك الحالة يأوى إليهم الطارق فيجد
القري والمأوى ، وتناول في مجزها حالة أخرى مثلها ، حين تقوم الغارة وتهرب
العذارى متتابعة كقطع البقر ، وأنهم حينئذ يحمون حمامهم ويغنون في الحرب
غناءهم ، قال :

وَإِنَّا إِذَا مَا الْغَيْمُ أَمْسَى كَأَنَّهُ سَمَاحِيقٌ تُرْبٍ وَهِيَ حَمْرَاءُ حَرْجَفٌ (١)
وَجَاءَتْ بِصُرَادٍ كَأَنَّ صَقِيْعَهُ خِلَالَ الْبُيُوتِ وَالْمَبَارِكِ كُرْسَفٌ (٢)
وَجَاءَ قَرِيْعُ الشَّوْلِ يَرْقُصُ قَبْلَهَا إِلَى الدَّفءِ وَالرَاعِي لَهَا مُتَحَرِّفٌ (٣)
يَرُدُّ الْعِشَارَ الْمُنْقِيَاتِ شَطِيْهَا إِلَى الْحَى حَتَّى يُمْرِعَ الْمُتَصَيِّفِ (٤)

وصفه لحالة
من الجذب
والشدة
عند العرب

(١) السماحيق : واحدها سماحق وهو الرقيق من الغيم . الثرب : دهن كرش الشاة
وهو على التشبيه . الحرجف : الريح الباردة الشديدة . (٢) الصراد : كرمان ، غيم رقيق
لا ماء فيه . الكرسف : القطن : (٣) قريع الشول : فحل الأبل ، وهي جمع شائلة وهي
ما آتى عليها من حملها أو وضعت سبعة أشهر ، والشائل الناقة التي تطلب الفحل فهي تشول
بذنبها أى ترفعه . المتحرف : الذى يمشى فى شق ، أو المتخلف . (٤) العشار : جمع عشار
وهي الناقة الحامل ، أو هي كالنساء المنقيات : ذوات النقى ، وهو مخ العظام أو الشحم .
الشظية . القوس ، ونظم الساق ، وكل فلكة من شيء .

تَبَيَّتْ إِمَاءَ الْحَيِّ تَطْهَى قُدُورَنَا وَيَأْوِي إِلَيْنَا الْأَشْعَثُ الْمُتَجَرِّفُ (١)
 وَنَحْنُ إِذَا مَا الْخَيْلُ زَايِلُ بَيْنَهَا مِنَ الطَّعْنِ نَشَّاجٌ مُخِلٌ وَمُزْعِفٌ (٢)
 وَجَالَتْ عَذَارَى الْحَيِّ شَتَّى كَانَهَا تَوَالِي صِوَارٍ وَالْأَسِنَّةُ تُرْعَفُ (٣)
 وَلَمْ يَحْمِ فَرَجَ الْحَيِّ إِلَّا ابْنُ حُرَّةٍ وَعَمَّ الدُّعَاءُ الْمُرْهَقُ الْمَتَلَهِّفُ
 فَفِينَا غَدَاةَ الْغَيْبِ كُلِّ يَقِيدَةٌ وَمِنَّا الْكَمِيثُ الصَّابِرُ الْمُتَعَرِّفُ (٤)
 وَكَارِهَةٌ قَدْ طَلَّقَتْهَا رِمَاحُنَا وَأَنْقَذْنَاهَا وَالْعَيْنُ بِالْمَاءِ تَذْرِفُ
 تَرُدُّ النَّحِيبَ فِي حَيَازِيمِ غُصَّةٍ عَلَى بَطَلٍ غَادَرْنَهُ وَهُوَ مُزْعَفٌ (٥)

وله شعر يعتب به على قومه ، وهو أول ما قال من الشعر في زعم أكثر الرواة ، وذلك أن أباه مات وهو صغير ، فأبى أعمامه أن يقسموا ماله ومنعوا أمه حقها منه ، وسترون فيه من المعاني ما قد يكون بعيداً على غلام صغير قليل التجربة ، إلا إذا كان كطرفة ، فيما يوصف به من قوة الفطرة وسلامة النظر ، قال :

أول شعر
قاله وفيه
عتاب لقومه

مَا تَنْظُرُونَ بِحَقِّ وَرْدَةٍ فِيكُمْ صَغَرَ الْبُنُونَ وَرَهْطٌ وَرَدَةٌ غُيِّبُ
 قَدْ يَبْعَثُ الْأَمْرَ الْعَظِيمَ صَغِيرُهُ حَتَّى تَظَلَّ لَهُ الدِّمَاءُ تَصَبَّبُ
 وَالظُّلْمُ فَرَّقَ بَيْنَ حَيِّيٍّ وَآئِلٍ بَكَرٌ تُسَاقِيهَا الْمَنَائِمَا تَغْلِبُ
 قَدْ يُورِدُ الظُّلْمُ الْمُبِينُ آجِنًا مِلْحًا يُخَالِطُ بِالذُّعَافِ وَيُقَشِّبُ

ثم ذكر أن الإثم داء لا يرجى شفاؤه ، والبرّ شفاء لا هلاك معه ، وأن الصدق يألفه اللبيب ، والكذب من أخلاق الدنيء الأخيب ، حتى قال :

أَدُّوا الْحُقُوقَ تَفَرُّاكُمْ أَعْرَاضَكُمْ إِنَّ الْكَرِيمَ إِذَا يُحَرِّدُ يَغْضِبُ

(١) المتجرف : العدم . (٢) النشاج : الصوت . المخل : المنزل . المزحف : القاتل . (٣) الصوار : جماعة البقر . (٤) النقيذة : المستردة . (٥) الحيازيم : جمع حيزوم ، وهو الصدر . المزحف : الهالك من الخوف .

يريد أنه إذا ظلم وهاجه الشر ، لا ينجيم ولا يجبن ، بل يغضب وينتقم وهو بالضرورة يقصد نفسه ، وينكر مترجم ديوانه بيتاً من هذه القصيدة ، وهو قوله :

وَلَقَدْ بَدَأَ لِي أَنَّهُ سَيَعُولُنِي مَا غَالَ عَادًا وَالْقُرُونُ فَاشْعَبُوا

أى تفرقوا وانصدعوا ، ولا مانع مما قاله لظهور قلق البيت في موضعه ، ولتعذر التوفيق بينه وبين ما سبقه من جهة ، ولبعد احتمال صدوره من طرفه على حاله وسنه من جهة أخرى ، ويحتمل أن يكون آخر ما قاله الأبيات الآتية ، لدلالاتها على ما صار إليه بعد الأمر بقتله ، من خذلان قومه ، وغدر أخلائه ، وهي قوله :

آخر ما قاله
من الشعر
قبل موته

أَسَلَّنِي قَوْمِي وَلَمْ يَغْضَبُوا لِسُوءَةٍ حَلَّتْ بِهِمْ فَادِحَهُ
كُلُّ خَلِيلٍ كُنْتُ خَالَاتُهُ لَا تَرَكَ اللَّهُ لَهُ وَاضِحَهُ
كُلُّهُمْ أَرْوَعٌ مِنْ تَعَلَبٍ مَا أَشْبَهَ اللَّيْلَةَ بِالْبَارِحَهُ

وما أصدق طرفه فيما ذم به الناس ، وخاصة الأصحاب فيما لا يزال فيهم طبعاً ، ولهم عادة ، من قلة الوفاء وصفة الدهاء والرياء .

ولم يعرف له مديح لأحد غير نفسه وقومه ، إلا خمسة أبيات مدح بها قتادة ابن سلمة الحنفي صاحب اليمامة ، وكان قومه أتوه في سنة ، فأعطاهم وأكرمهم ، وقد بدأها طرفه بأبيات لا تتفق مع الغرض منها ، ولذا أنكرها مترجم الديوان ، ورجح أنها قد تكون تنمة لقصيدة أخرى من هجائه في ابن عمه ، ونحن نقول ربما كان هذا التعريض منه بابن عمه ، إذا قرن بمدح غيره أبلغ في غيظ صدره ، وأشفى للقائل فيما يريد من النكايه به ، ولتظهر فضيلة الشيء عند اقترانه بضده ، كما يقول المعري :

والشيء لا يكثر مداحه إلا إذا قيس إلى ضده

قال طرفه :

(١) إِنَّ امْرَأً سَرَفَ الْفُؤَادِ يَرَى عَسَلًا بِمَاءِ سَحَابَةٍ شَتَمِي
 (٢) وَأَنَا أَمْرُؤٌ لَا أَكُونُ مِنَ الْقَصْرِ الْبَادِي وَأَغْشَى الدَّهْمَ بِالدَّهْمِ
 (٣) وَأَصِيبُ شَاكِلَةَ الرَّمِيَةِ إِنْ صَدَّتْ بِصَفْحَتِهَا عَنِ السَّهْمِ
 (٤) وَأَجْرُهُ ذَا الْكِفْلِ الْقَنَاءَةَ عَلَى أَنْسَاءِهِ فَيَظَلُّ يَسْتَدْمِي
 (٥) وَتَصُدُّ عَنْكَ مَخِيلَةَ الرَّجُلِ السَّرِيضِ مُوضِحَةً عَنِ الْعَظْمِ
 (٦) بِحُسَامِ سَيْفِكَ أَوْ لِسَانِكَ وَالْكَلِمُ الْأَصِيلُ كَأَرْغَبِ الْكَلِمِ
 (٧) أَبْلِغْ قِتَادَةَ غَيْرِ سَائِلِهِ مِنْهُ الثَّوَابَ وَعَاجِلِ الشَّكْمِ
 أَنِّي حَمَدْتُكَ لِلْعَشِيرَةِ إِذْ جَاءَتْ إِلَيْكَ مَرْقَةَ الْعَظْمِ
 (٨) أَلْقُوا إِلَيْكَ بِكُلِّ أَرْمَلَةٍ شَعْنَاءَ تَحْمِلُ مِنْعَ الْبُرْمِ
 (٩) فَفَتَحْتَ بَابَكَ الْمَكَارِمِ حِينَ تَوَاصَّتِ الْأَبْوَابُ بِالْأَزْمِ
 فَسَقَى بِلَادَكَ غَيْرَ مُفْسِدِهَا صَوْبُ الرَّبِيعِ وَدِيمَةٌ تَهْمِي

مدبجه لفتادة

أما هجاؤه لعمر بن هند ، وهو - على أكثر الأقوال - ما أوغر عليه

بمعص أهاجيه

الملك حتى قتله ، فقد رواه الأعمش في ثمانية أبيات ، أولها :

فَلَيْتَ لَنَا مَكَانَ الْمَلِكِ عَمْرٍو رَغْوَانًا حَوْلَ قُبْتِنَا تَحْوُرُ

- (١) السرف : المخطى الغافل . (٢) القصر : داء يأخذ في قصرة العنق يمنع صاحبه من الالتفات وأراد به الكبر . الدم : الجيش وهو الجماعة من الناس .
- (٣) الشاكلة : طفيفة الخاصرة ، أو هي ما بين عظم الورك إلى القصيرى وهي من أشد المقاتل . (٤) أجره الرمح : تركه فيه يجره ، وهو أشد عليه وأوجع له .
- ذا الكفل : المنعم ، ويعرض بعبد عمر . الأنساء : جمع نساء ، عرق يستبطن الفخذ .
- (٥) العريض : المعترض لما لا يعنيه . (٦) الأربغ : الأوسع . الكلم الثانية بمعنى الجرح . (٧) الشكم : الثواب والجزاء على الصى .
- (٨) البرم : جمع برمة ، كانوا يقومون فيها أنكاث الأخبية ، فاذا أقمن حكنها .
- (٩) الأزم : الأطباق وأغلاق الأبواب .

يريد بقرة حلوبا خيراً منه ، وبقية الأبيات على هذا النمط ، وليست من الشعر بحيث تستحق الذكر ، ورواها ابن السكيت قصيدة طويلة الأبيات ، ومن غريب الأمر أنه ذكر فيها الصحيفة التي حملها طرفة إلى البحرين وبها قتل ، وهذا معناه أن كتابة الصحيفة سابقة على هذا الهجاء الذي ترتب عليه الأمر بقتله ، وهو ما وشى به ابن عمه إلى الملك ، وهذا تناقض ظاهر يرجح الصنعة في تلك التكملة على ما في ذلك من الغفلة وقلة المهارة .

وبهذه المناسبة ، نقول إن القصيدة التي أولها :

سَأَلُو عَنَّا الَّذِي يَمُرُّ فَنَّا بِقُوَانَا يَوْمَ تَجَلَّاقِ اللَّسَمِ

مشكوك أيضاً في صحة نسبتها إلى طرفة ، فالأصمعي ينكرها ويقول إنه أدرك قائلها ، وأبو عبيدة والمفضل يثبتانها له ، ويقال إنه حضر هذا اليوم وأغنى فيه ، ويحققون مع هذا أن سعد بن مالك حضره ، وهو القائل من قصيدة يُعَرِّضُ فِيهَا بِالْحَارِثِ بْنِ عُبَادٍ وَخَذَلَانَهُ لِقَوْمِهِ :

مَنْ صَدَّ عَنْ نِيرَانِهَا فَأَنَا ابْنُ قَيْسٍ لَا بَرَّاحٍ

وأن ذلك كان سبباً في اشتراك الحارث في الحرب ، وانتصار البكرين في هذا اليوم ، وأنه قال له : أتراى صددت عن نيرانها ؟ فقال : لا ، ولكن لا نَحْبَأَ لِعَطْرِ بَعْدَ عَرُوسٍ ! فذهبت مثلاً .

وسعد هذا بينه وبين طرفة أبوان ، فلا يعقل إذاً أن يكون طرفة واقع حَرْبًا في هذا اليوم ، ونظن أنه لم يكن ولد بعد ، أو كان صغيراً لا يقدر على حرب ، وهذا ما يؤيد قول أبي سعيد الأصمعي ، إلا أن يكون طرفة تناوها في شعره ، كما يذكر المتأخر القصة الماضية من تاريخ قومه ، على ما يسمع من شيوخهم وعجائزهم .

ثم نعود إلى ذكر أهاجيه في ابن عمه ، فمنها :

فِيَا عَجِيًّا مِنْ عَبْدِ عَمْرٍو وَبَغِيهِ لَقَدْ رَامَ ظُلْمِي عَبْدُ عَمْرٍو فَأَنْعَمًا

ولا خَيْرَ فِيهِ غَيْرَ أَنْ لَهُ غِنَى وَأَنَّ لَهُ كَشْحًا إِذَا قَامَ أَهْضَمًا
يَظَلُّ نِسَاءَ الْحَيِّ يَعْكُفُنَ حَوْلَهُ يَقُلْنَ عَسِيبٌ مِنْ سَرَارَةِ مَلْهَمًا

ورواها الأعم ستة أبيات ، وفي شرح ابن السكيت أكثر من ذلك .
قالوا : وكان من أحسن الناس جـمـا ، وكذلك كان قابوس أخو عمرو بن
هند ، حتى لكان يسمى قينة العرس ، وأخت طرفة تنهم عبد عمرو هذا
بأفحش مما أشار إليه طرفة ، ومنها :

لَهْنِدٍ بِحِزَانِ الشَّرِيفِ طُلُوقُ تَلُوحُ وَأَذْنِي عَهْدِهِنَّ مَحِيلٌ^(١)
وَبِالسَّفْحِ آيَاتٍ كَأَنَّ رَسُومَهَا يَمَانٍ وَشْتُهُ رَيْدَةٌ وَسَحُولٌ^(٢)
أَرَبَّتْ بِهَا نَاجَةٌ تَزْدَهِي الْحَصَى وَأَسْحَمُ وَكَافُ الْعَشِيِّ هَطُولٌ^(٣)
وينكر المترجم منها قوله :

بِمَا قَدْ أَرَى الْحَيَّ الْجَمِيعَ بِغَبْطَةٍ إِذَا الْحَيُّ حَيٌّ وَالْحُلُولُ حُلُولٌ
وهو نقد حسن ، قال :

أَلَا أَبْلَغًا عَبْدَ الضَّلَالِ رِسَالَةٌ وَقَدْ يُبْلَغُ الْأَنْبَاءُ عَنْكَ رَسُولُ
دَبَبَتْ بِسَرِّي بَعْدَ مَا قَدْ عَلِمْتَهُ وَأَنْتَ بِأَسْرَارِ الْكِرَامِ نَسُولُ
وَكَيْفَ تَضِلُّ الْقَصْدَ وَالْحَقُّ وَاضِحٌ وَلِلْحَقِّ بَيْنَ الصَّالِحِينَ سَبِيلُ

هـجـاؤه
لأن عمه

إلى قوله :

وَأَعْلَمُ عِلْمًا لَيْسَ بِالظَّنِّ أَنَّهُ إِذَا ذَلَّ مَوَالِي الْمَرْءِ فَهُوَ ذَلِيلُ
وَأَنَّ لِسَانَ الْمَرْءِ مَا لَمْ تَكُنْ لَهُ حِصَاةٌ عَلَى عَوْرَاتِهِ لَدَلِيلُ
وَإِنْ أَمْرًا لَمْ يَعْفُ يَوْمًا فُكَاهَةٌ إِنْ لَمْ يُرِدْ سُوءًا بِهَا لَجْهُولُ

(١) حزان : جمع حزين ، وهو الغليظ المتقاد من الأرض . الشريف بالتصغير : واد بنجد .
المحيلي : ما آتى عليه حول . (٢) وشته : طرزته . ريدة وسحول : بفتح أولهما قرينتان
في بلاد اليمن . (٣) أربت : أقامت . ناجية : يريد الريح ، وهو من نأج كنم بمعنى
تحرك . الأسحم : السحاب .

ويظهر أن هذا الكلام قيل في الوقت الذي اضطغن فيه الملك على طرفه
وهمَّ بالغدربه ولكنه كان لا يزال يُداريه حتى يتمكن من الإيقاع به وأظن
أننا في غنى عن التنويه بدرجة هذا الشعر من صحة اللفظ وسلاسة الأسلوب
وهاهنا قصيدتان يُثبتُ الرواةُ إحداها ويثبت بعضهم الأخرى ويظن المترجم
أن هذه مصنوعة ، وهي قصة من عشق طرفه مفرغة حقا في لفظ عذب وأسلوب
بالغ من الرقة مبلغه ؛ وفي رأينا أن القصيدة الأولى ليست دونها في ذلك مع
أنها موضع اتفاق من الرواة لطرفة . ولعل هذا الإنكار من المترجم جرى فيه
على فكرة سخيفة جعلت بعض الناقدین يظن أن كل شعر جاف غليظ من شأنه
أن يكون جاهليا وأن كل كلام لين سهل ينبغي أن يكون من عمل المتأخرين
وعندنا ما يزيل هذه الشبهة ويمنع من هذا التحكم الغريب ، وهواتفاق القصيدتين
غالباً في الأسلوب وما قدمناه لكم في صدر هذه الترجمة من اختلاف مقامات
الكلام الداعية إلى اختلافه من حيث الجزالة والقوة واللين والسهولة . وتلك
هي القصيدة الأولى وقد قالها حين اغترب عن قومه :

اغتراه
وشكواه

قَفِي وَدَعِينَا الْيَوْمَ يَا ابْنَةَ مَالِكِ وَعُوجِي عَلَيْنَا مِنْ صُدُورِ جَمَالِكِ
قَفِي لَا يَكُنْ هَذَا تَعَلَّةً وَصَلِينَا لَبِينٍ وَلَا ذَا حَظْنَا مِنْ نَوَالِكِ
أَخْبِرْكَ أَنَّ الْحَىَّ فَرَّقَ بَيْنَهُمْ نَوَى غَرَبَةً ضَرَارَةً لِي كَذَلِكَ (١)
وَلَا غَرَوُ إِلَّا جَارَتِي وَسُوءُهَا الْأَهْلُ لَنَا أَهْلٌ سَأَلْتُ كَذَلِكَ (٢)

(١) نوى غربة : بفتح الغين ، أى فرقة بعيدة . (٢) ولا غرو : لا عجب ، وابن
قتيبة يعد البيت من جيد كلام طرفه ، وقوله سئلت كذلك : شق عليه سؤالها إياه بقولها :
ألك أهل ؟ فدعا عليها أن تغترب فيسألها الناس كما سألته ، وهو عدا جودته دليل على ما في
شعر الجاهليين من قلة الكلفة وجريه على العادة بين الناس من ردم الدعاء على أصحابه ويشعر
مع ذلك بما في نفس قائله من الشغل والألم . قال ابن قتيبة ومن ظريف الدعاء قول النابغة
في الإشفاق من موحدة النعمان عليه والحرص على نفي الريبة عن نفسه :

أَغْبِرْكَ مَعْقِلًا أَبْيَى وَحِصْنًا فَأَعْيَتْنِي الْمَعْقِلُ وَالْحِصُونُ

تُعَيِّرُ سَيْرِي فِي الْبِلَادِ وَرِحْلَتِي أَلَا رَبَّ دَارِي رِي وَسَى حُرَّ دَارِكِ
 وَلَيْسَ امْرُؤٌ أَفْنَى الشَّبَابِ مُجَاوِرًا سِوَى حَيِّهِ إِلَّا كَأَخْرَ هَالِكِ
 أَلَا رَبَّ يَوْمٍ لَوْ سَقَمْتُ لِعَادَتِي نِسَاءَ كِرَامٍ مِنْ حَيٍّ وَمَالِكِ
 ظَلَمْتُ بَدَى الْأَرْضَى فُوقَ مُثَقَّبِ بَيْبَيْتَهُ سُوءَ هَالِكًا أَوْ كَهَالِكِ (١)
 تَرُدُّ عَلَى الرِّيحِ نُوبِي قَاعِدًا إِلَى صَدَفِي كَالْحَنِيتَةِ بَارِكِ (٢)
 رَأَيْتُ سُعُودًا مِنْ شُعُوبٍ كَثِيرَةٍ فَلَمْ تَرَ عَيْنِي مِثْلَ سَعْدِ بْنِ مَالِكِ
 أَبْرًا وَأَوْفَى ذِمَّةً يَعْقِدُونَهَا وَخَيْرًا إِذَا سَاوَى الدُّرَى بِالْحَوَارِكِ
 وَأَنْمَى إِلَى تَجْدٍ تَلِيدٍ وَسُورَةٍ تَكُونُ تَرَاتُفًا عِنْدَ حَيٍّ لِهَالِكِ

و بعد ذلك بيت يبعد أن يتصل بالقصيدة ويظهر أنه مضاف ، وهو قوله :

أَبِي أَنْزَلَ الْجَبَّارَ عَامِلُ رُمِّهِ عَنِ السَّرَجِ حَتَّى خَرَّبِينَ السَّنَابِكِ

أما القصيدة الغزلية فهي مما رواه ابن السكيت عن غير الأصمعي في رواية
 أَبِي عَمْرٍو إِسْحَاقَ بْنِ مِرَادِ الشَّيْبَانِي مِنْ عُلَمَاءِ النَّاسِ بِأَخْبَارِ الْعَرَبِ وَأَشْعَارِهَا تَوَفَى ،
 سَنَةَ سِتٍّ وَمِائَتَيْنِ فِي خِلَافَةِ الْمَأْمُونِ ، وَهِيَ :

أَتَعْرِفُ رَسْمَ الدَّارِ قَفْرًا مَنَازِلُهُ كَجَفَنِ الْيَمَانِي زَخْرَفِ الْوَشْيِ مَا ثَلُهُ
 دِيَارُهُ لِسَلْمَى إِذْ تَصِيدُكَ بِالْمَنَى وَإِذْ حَبَلُ سَلْمَى مِنْكَ دَانَ تَوَاصِلُهُ
 وَإِذْ هِيَ مِثْلُ الرِّيمِ صَيْدَ غَزَالُهَا لَهَا نَظْرٌ سَاجٍ إِلَيْكَ تَوَاغِلُهُ
 غَنِينَا وَمَا نَخْشَى التَّفَرُّقَ حِقْبَةً كَلَانَا غَرِيرٌ نَاعِمُ الْعَيْشِ بَاجِلُهُ

وَجِئْتُكَ عَارِيًا خَلَقًا ثِيَابِي عَلَى خَوْفٍ تَظُنُّ بِي الظُّنُونُ

وهذا أيضاً على جماله الشعري ما يقوله الناس بعضهم لبعض حين يجب أحدهم أن يؤكد
 لصاحبه مودة أو يلق عن نفسه تهمة .

(١) الأرطى : شجر يدبغ به . مثقب : موضع . (٢) الصدى : البعير منسوب إلى
 صدف قرية باليمن . الحنية : القوس شبهه بها لضموره .

لِيَالِي أَقْتَادُ الصَّبَا وَيَقُودُنِي يَجُولُ بِنَا رِيْعَانُهُ وَنُجَاوِلُهُ

ثم قال :

عشقه

وذكره

للوصل

والفراق

وَكَمْ دُونَ سَلْمَى مِنْ عَدُوٍّ وَبَلَدَةٍ
يَظَلُّ بِهَا عَيْرُ الْفَلَاةِ كَأَنَّهُ
وَمَا خَلْتُ سَلْمَى قَبْلَهَا ذَاتَ رِحْلَةٍ
وَقَدْ ذَهَبَتْ سَلْمَى بِعَقْلِكَ كُلِّهِ
يَحَارُبُهَا الْهَادِي الْخَفِيفُ ذَلَاذِلُهُ
رَقِيبٌ يُخَافِي شَخْصَهُ وَيُضَائِلُهُ
إِذَا قَسَوْرِي اللَّيْلِ جِيئَتْ سِرَائِلُهُ
فَهَلْ غَيْرُ صَيْدٍ أُخْرَزْتَهُ حَبَائِلُهُ
كَمَا أُخْرَزَتْ أَسْمَاءُ قَلْبِ مَرْقَشٍ
وَأَنْكَحَ أَسْمَاءُ الْمُرَادِيَّ يَبْتَغِي
فَلَمَّا رَأَى أَلَّا قَرَارَ يُقْرِئُهُ
تَرَحَّلَ عَنِ أَرْضِ الْعِرَاقِ مَرْقَشُ
إِلَى السَّرْوِ وَأَرْضُ سَاقِهِ نَحْوَهَا الْهُوسَى
فِيَا لَكَ مِنْ ذِي حَاجَةٍ حَيْلَ دُونِهَا
لَعَمْرِي لَمَوْتُ لَا عُقُوبَةَ بَعْدَهُ
فَوَجَدِي بِسَلْمَى مِثْلُ وَجْدِ مَرْقَشٍ
قَضَى نَحْبَهُ وَجَدًّا عَلَيْهَا مَرْقَشُ
بِذَلِكَ عَوَّفُ أَنْ تُصَابَ مَقَاتِلُهُ
وَأَنَّ هَوَى أَسْمَاءَ لَا بَدَّ قَاتِلُهُ
عَلَى طَرْبٍ تَهْوَى سِرَاعًا رَوَاحِلُهُ
وَلَمْ يَدْرِ أَنَّ الْمَوْتَ بِالسَّرْوِ غَائِلُهُ
وَمَا كُلُّ مَا يَهْوَى امْرُؤٌ هُوَ نَائِلُهُ
لِنِي الْبَثِّ أَشْفَى مِنْ هَوَى لَا يُزَايِلُهُ
بِأَسْمَاءٍ إِذْ لَا تَسْتَفِيقُ عَوَازِلُهُ
وَعَلَّقْتُ مِنْ سَلْمَى خِيَالًا أَمَاطِلُهُ

قصة المرفش

م أسماء

صاحبه

ذلك ، ولطرفة بعض مقطوعات أخرى بعضها مطعون فيه والآخر ليس

بشيء ، وهو عمرو بن العبد بن سفيان بن سعد بن مالك بن ضبيغة بن قيس

ابن ثعلبة بن عكابة بن صعيب بن علي بن بكر بن وائل ، وطرفة بالتحريك

لقبه وهي واحدة الطرفاء ضرب من الشجر ، والعرب تسمى أبناءها بذلك

وبأسماء الحيوان وخاصة ما يستكره منها كأسد وحنظلة ، ويسمون عبيدهم

بما يستحب كرباح وأيمن ونحوها ، قالوا لأنهم يسمون أبناءهم لعدوهم وعبيدهم

لأنفسهم ونقل المترجم عن « كوسان دبرسفال » مؤرخ فرنسي وضع كتابا في

ما كانت

العرب تسمى

به أبناءها

وعبيدها

تاريخ العرب بين سنتي ١٨٤٧ - ١٨٤٩ أن عمرو بن هند صعد إلى عرش الحيرة سنة ٥٦٢ ميلادية ، وأن طرفة قتل في ابتداء حكمه ، واستظهر أنه مات سنة ٥٦٣ ، وإذن يكون ولد سنة ٥٣٨ ميلادية ، والله أعلم .

٧ - عبيد بن الأبرص

يرجع الفضل في إنقاذ التاريخ الأدبي لعبيد إلى جمعية « جب » ، وهي جمعية أنشأتها في إحدى المدن الكبرى بإنجلترا سيدة انجليزية تخليداً لذكرى ولدها « جب » المتوفى في أوائل هذا القرن ، وكان في حياته مشغولاً بالبحث في أدب العرب وغيرهم من الأمم الشرقية ، وقد طبعت الجمعية هذا الديوان في لندن إحدى مدن الدانمرك سنة ١٩١٣ بعد ما لاقت في جمعه وتسحيحه من العنت والمشقة ما تعرفه حين تقف على الأصول الخطئية الرديئة التي نقل عنها كثير من هذه الترجمة ، وفي صدره بحث مختصر عن حياة عبيد وشعره لواقعته الكاتب « شارلس ليل » أحد أعضاء الجمعية المذكورة أشار فيه إلى أهم المصادر التي اعتمد عليها في بحثه ككتاب الأغاني لأبي الفرج الأصبهاني ، والشعر والشعراء لأبن قتيبة ، ومختارات هبة الله بن الشجري ، ومراجع أخرى أجنبية لجماعة من علماء المشرقيات ، وقد استعان في وصف ديار بني أسد رهط عبيد وما تناوله من تاريخهم الاجتماعي بآراء كثير من مؤرخي الأجانب ورحالتهم الذين جابوا هذه الأصقاع ، ونشروا شيئاً من مباحثهم عنها في مجلة الجمعية الجغرافية الفرنسية بين سنتي ١٩٠٨ - ١٩١٠ ، ولا ريب أن هذا الجهد الموفق يعتبر معونة علمية خليقة بالذكر ستمدنا بغير قليل فيما نحاول من هذه الترجمة إن شاء الله .

جمه ديوانه
وضبطه

ويؤخذ مما قرأناه من أحاديث الرواة ومما كتب المترجم عنه أنه كان

حياته
وأخباره

معاصراً لِحُجْرِ الكِنْدِيِّ الذي ملك إلى سنة ٤٩٧ م في بني أسد وأحلافهم من القبائل العربية الأخرى ، وكانت منازلهم جنوب تيماء إلى الشرق من طريق الحَاجِّ بين معان والمدينة ، وفي الجنوب والغرب من جبال طى المعروفين بأَجَّاءِ وسَلَمَى ، وأنه قتل قبل سنة ٥٥٤ م ، وهي السنة التي قتل فيها أومات قاتله المنذرُ اللَّخْمِيُّ على أقرب الروايات إلى الصواب ، وإذا تكون حياته محصورةً بين منتصف القرنين الخامس والسادس الميلاديين رغم ما يزعم الرواة من تعميده ، وفي الجزء التاسع عشر من الأغانى ذكر أبو الفرج عن رُوَايَةِ قال كان من حديث عبيد بن الأبرص أنه كان رجلاً محتاجاً ولم يكن له مال فأقبل ذات يوم ومعه أخته مَآوِيَّةُ في غَنِيْمَةٍ له يُرِدُهَا فَمَنَعَهُ رجل من بني مالك بن ثعلبة وَجَبَّهُ ، فانطلق حزينا مهموماً للذي صنع به المالكى حتى أتى شجرات فاستظل تحتهن ونام هو وأخته ، فزعموا أن المالكى نظر إليه وأخته إلى جانبه فقال :

ذالك عبيدٌ قد أصابَ مَيًّا يا ليتَه أَلْقَحَهَا صَبِيًّا

فسمعه عبيدٌ فرفع يديه ثم ابتهل فقال : اللهم إن كان فلان ظلمنى ورمانى بالبهتان فأدبني منه وانصُرْنى عليه ووضِعْ رأسه فنام ، ولم يكن قبل ذلك يقول الشعر ، فذكر أنه أتاه آتٍ في منامه بكبة من شعر فألقاها في فيه فاتبه وهو يرتجز بالمالكى ثم استمرَّ بعد ذلك في الشعر . وكان شاعرُ بني أسد غير مدافع ونحن نستبعد صدق هذه الرواية من قبل أن هـذا الوحي الغريب كان جديراً بالذكر وهو لم يرد مطلقاً في شيء من شعر عبيد ، ولأن الشعر في هذا العصر لم يكن متعذراً على الناس إلى حدِّ يحمل الرواة إلى اختراع مثل هذه المحاولة . وقد لاحظ المترجم من ناحية أخرى على صدر هذا الخبر بأن عليه مسحة الأساطير لما فيه من المخالفة الظاهرة لمذهب عبيد في الفخر بنفسه وكثرة ذكره لأيام فتوته ، وأنه كان مفضالاً كثيراً البذل للمال قال وربما كان إقلاقه ناشئاً من

رؤيا عبيد
في النوم

إسرافه وكرمه . ومعروف أنه عقب ثورة الأسديين بِحُجْر أَبِي امْرِئِ الْقَيْسِ وَقَتْلِهِ كَانَ عَبِيدٌ أَحَدَ رُؤَسَاءِ الْوَفْدِ الَّذِينَ ذَهَبُوا إِلَيْهِ لِاسْتِكْفَافِهِ عَنِ الْحَرْبِ وَالْمُفَاوِضَةِ مَعَهُ فِي قَبُولِ مَا عَرَضُوهُ عَلَيْهِ مِنَ الصَّلْحِ ، وَمَا يَنْبَغِي لِمِثْلِ هَذِهِ السَّفَارَةِ الْخَطِيرَةِ الشَّأْنِ أَنْ تَكُونَ مِنْ عَمَلِ الْعَامَةِ وَلَا مِنْ لَا يَقْدِرُونَ عَلَى مَغَارِمِ الْحُرُوبِ وَاحْتِمَالِ دِيَاتِ الْمُلُوكِ .

ومن المحقق أنه كان لعبيد في تاريخ قومه مقام لا يجهل ، فقد اشترك في قيادة زُحُوفِهِمْ فِي غَارَاتِهِمْ الْمُخْتَلِفَةِ بَيْنَهُمْ وَبَيْنَ كَثِيرٍ مِنَ الْقَبَائِلِ الْعَرَبِيَّةِ فِي دَاخِلِ الْجَزِيرَةِ وَمَعَ بَعْضِ مُلُوكِ الشَّامِ مِنَ الْغَسَانِيِّينَ فِي حُرُوبِهِمْ الْخَارِجِيَّةِ .

ويرجِّحُ كَثِيرٌ مِنْ أَهْلِ النُّقْلِ أَنْ قَاتَلَهُ هُوَ الْمُنْدَرُ الثَّلَاثُ الَّذِي مَلَكَ عَلَى الْعَرَبِ فِي الْعِرَاقِ إِلَى سَنَةِ ٥٤٤ م كَمَا قَدِمْتُ ، وَذَلِكَ أَنَّهُ كَانَ يَتَّخِذُ مِنْ بَطَانَتِهِ رَجُلَيْنِ مِنْ بَنِي أَسَدٍ يُنَادِمَانِهِ وَيَكُونَانِ مَعَهُ وَهُمَا خَالِدُ بْنُ الْمِضَلِّ وَعَمْرُو بْنُ مَسْعُودٍ فَأَغْضَبَاهُ فِي بَعْضِ الْأَمْرِ فَقَاتَاهُمَا وَأَقَامَ عَلَى قَبْرِيهِمَا عَمُودَيْنِ يُسَمِّيَانِ الْقَرِيَّيْنِ (ذَكَرَ يَاقُوتٌ فِي الْجُزْءِ السَّادِسِ مِنْ مُعْجَمِهِ أَنَّ مَعْنَى بِنِ زَائِدَةَ الشَّيْبَانِيَّ أَحَدَ الْأَمْرَاءِ الْعَبَّاسِيِّينَ رَأَاهُمَا بِظَاهِرِ الْكُوفَةِ) ثُمَّ جَعَلَ لِنَفْسِهِ يَوْمَيْنِ فِي السَّنَةِ يَجْلِسُ فِيهِمَا عِنْدَهُمَا ، وَسَمَّى أَحَدَهُمَا يَوْمَ نِعْمَةٍ ، أَوَّلُ مَنْ يَلْقَاهُ فِيهِ يَحْبُوهُ وَيُنَادِمُهُ ، وَالْآخَرَ يَوْمَ بؤْسٍ يَذْبَحُ فِيهِ أَوَّلَ مَنْ يَطَالَعُهُ وَيَنْضَحُ هَذِينَ الْقَبْرَيْنِ بِدَمِهِ ، قَالُوا فَبَيْنَاهُمَا يَسِيرُ فِي يَوْمِ بؤْسِهِ أَشْرَفَ لَهُ عَبِيدُ بِنِ الْأَبْرَصِ ، فَقَالَ لَهُ : هَلَا كَانَ الذَّبْحُ لغيرِكَ يَا عَبِيدُ ؟ فَقَالَ : « أَتَتَّكَبِرُ بِحَائِنِ رِجَالَةٍ » ، وَالْحَائِنُ مِنَ الْحَيْنِ وَهُوَ الْهَلَاكُ فَأَرْسَلَهَا مِثْلًا ، فَقَالَ لَهُ الْمُنْدَرُ : أَوْ أَجَلٌ بَلَغَ إِنَاءَهُ ، ثُمَّ قَالَ لَهُ : أَنْشِدْنِي فَإِنِ شِعْرُكَ يَعْجِبُنِي ، فَقَالَ : « حَالِ الْجَرِيضِ دُونَ الْقَرِيضِ » ، وَالْجَرِيضُ ذَهَابُ الرِّيقِ مِنَ الْخَوْفِ ، وَهُوَ مِثْلُ أَيضًا ، فَقَالَ لَهُ رَجُلٌ مِنَ حَاشِيَةِ الْمَلِكِ : مَا أَشَدَّ جِزْعَكَ مِنَ الْمَوْتِ ، فَقَالَ : « لَا يَرُوحُ رَحْلُ رَحْلِكَ مَنْ لَيْسَ مَعَكَ » فَقَالَ لَهُ الْمُنْدَرُ أَنْشِدْنِي مِنْ قَوْلِكَ : « أَقْفَرُ مِنْ أَهْلِهِ مَلْحُوبٌ » فَقَالَ عَبِيدُ :

حديث عبيد
مع المنذر في
يوم بؤسه

أَفْقَرُ مِنْ أَهْلِهِ عَبِيدُ فَالْيَوْمَ لَا يُبْدَى وَلَا يُعِيدُ
ولم يزل يَأبَى أَنْ يَجِيبَ الْمَلِكُ إِلَى شَيْءٍ حَتَّى أَمَرَ بِهِ قَتْلَهُ ، وَبَعْضُ الرِّوَاةِ
يُضِيفُ إِلَيْهِ شِعْرًا أَنْشَدَهُ الْمَلِكُ وَهُوَ قَوْلُهُ :

مَهْلًا أَيْتَ اللَّعْنَ مَهْلًا إِنْ فِيمَا قُلْتَ آمَهُ (١)
فِي كُلِّ وادٍ بَيْنَ يَثْرِبَ فَالْقُصُورِ إِلَى الْيَمَامَةِ
تَطْرِبُ عَانَ أَوْ دَعَا ، مُحَرَّقٌ أَوْ صَوْتُ هَامَهُ (٢)

إِلَى قَوْلِهِ :

مَهْمَا تَرَكْتَ تَرَكْتَ عَفْوًَا أَوْ أَخَذْتَ فَلَا مَلَامَةَ
أَنْتَ الْمَلِكُ عَلَيْهِمُ وَهُمْ الْعَبِيدُ إِلَى الْقِيَامَةِ

وَالظَّاهِرُ أَنَّهُ مَوْضُوعٌ مِنْ عَمَلِ أَعْدَاءِ بَنِي أَسَدٍ لِأَنَّهُ مَعَ مَنَافَاتِهِ لِحَالِ عَبِيدٍ
مَعَ الْمَلِكِ فِي إِبَائِهِ وَمَا تَمَثَّلَ بِهِ مِمَّا لَا يَغْلِبُ صَدُورَهُ عَنْ مِثْلِهِ وَهُوَ عَلَى مَوْقِفٍ يُقَادُ
فِيهِ إِلَى الْمَوْتِ لَا يَصْلِحُ لِمَصَانَعَةِ الْمَلِكِ وَلَا غَيْرِهِ ، وَبِذَلِكَ تَعْرِفُ قَلَّةَ التَّمْحِيصِ فِي
حَدِيثِ الرِّوَاةِ عَنْ لِقَائِهِ لِحَاتِمِ الطَّائِيِّ مَعَ بَشْرِ بْنِ أَبِي خَازِمِ الْأَسَدِيِّ فِي طَرِيقِهِمْ
إِلَى النِّعْمَانَ بْنِ الْمَنْذَرِ ، وَأَبْعَدُ مِنْ ذَلِكَ فِي الْوَهْمِ وَأَشْبَهَ بِخَرَافَاتِ الْأَسَاطِيرِ قِصَّةُ
الشُّجَاعِ وَهُوَ الْأَفْعَى الْعَظِيمَةُ .

أسطورة
الافعى وعبيد

زَعَمُوا أَنَّهُ خَرَجَ فِي رَكْبٍ مِنْ بَنِي أَسَدٍ ، فَلَمَّا كَانُوا فِي بَعْضِ الطَّرِيقِ
اعْتَرَضَتْهُمْ أَفْعَى لَمْ يَقْدِرُوا مَعَهَا مِنْ أَمْرِهِمْ عَلَى شَيْءٍ ، فَجَاءَ عَبِيدٌ بِفَضْلَةٍ مِنْ مَاءٍ
كَانَتْ مَعَهُ فَصَبَهَا فِي فَمِهَا حَتَّى رَوَيْتَ وَاطْمَأْنَنْتَ فَانْسَابَتْ فِي الرَّمْلِ وَخَلَّتْ لَهُمْ
الطَّرِيقُ ، وَأَنْهَمُ نَزَلُوا عِنْدَ اللَّيْلِ مِنْزَلًا فَتَدَّتْ رَوَاحِلُهُمْ ، وَأَقْبَلَ عَبِيدٌ يَنْشُدُ
رَاحِلَتَهُ ، فَإِذَا هُوَ بِنَجِيبِ مَرَحُولٍ وَهَاتِفٍ يَصِيحُ بِهِ أَنْ أُرْكَبْهُ حَتَّى يَبْلُغَكَ الْحُلَّ ،
ثُمَّ خَلَّهٖ فَقَالَ لَهُ عَبِيدٌ . أَنْشُدْكَ اللَّهُ يَا هَذَا مِنْ أَنْتَ ؟ فَأَنْشَدَهُ :

(١) الأمة : الحصب والعيب ، وهو المراد . (٢) الهامة : رأس كل شيء وطار

من طيور الليل والصدى وسيد القوم .

أنا الشجاع الذي أفتته ظمئاً في قفرة بين دكداك وأعتاد
فجذت بالماء لما ضنَّ حامله وزدت فيه ولم تبخل بأنكاد
الخير يبقى وإن طال الزمان به والشراخبت ما أوعيت من زاد

وهي أبيات في شعر مروى لعبيد . قال الأصمهاني : وهذا الخبر مصنوع
يتبين فيه التوليد ، ويظهر أن هذه الرواية نسجت حول عبيد من بيت في هذه
القصيدة غالباً هو قوله :

فإن لقيت بوادٍ حيةً ذكرًا فأمض ودعني أمارس حية الوادي
وذلك أكثر ما عند الناس من تاريخ عبيد .

أما شعره فستراه قولاً سهلاً صافي اللفظ سمح الأسلوب في انسجام وجزالة
يدلان على قوة الطبع واطف المذهب أكثر فيه من النوح على الشباب وباح بما
جرت عادة الناس بكتمانه عن النساء من التواء العود وبياض الفودين ، وشكا
منهن الإعراض بعد التنويل ، والجفاء بعد المقة ، وجعل يستعرض لمن سوائف
أيامه ، وهو يرتع في مبيعة العمر بين القيان والإخوان تائباً للعزاء والتماساً للرضى
بما استضافه من مكروه الشيب والكبر .

شعره

بكاؤه على
الشباب

وتراه من ناحية أخرى صورة من صور البادية عارية الأديم مقفرة المناهل
إلا في قليل من أغوارها الكسوة بشيء من الزهر والماء يصف نفسه فيه
باعتساف الليل ، واقتحام الأخطار ، وهو على ظهر وجنأ ناجية ، أو في صهوة
جواد ساجح يطيل الافتخار بأثار القبيلة ويذكر انتصاراتها على الأعداء ،
ويتحدث دائماً بثورة قومه بنى أسد وخروجهم على حُجر أبي امرئ القيس
وقته . ويذكر امرأ القيس ويعرض بمخذلانه لأبيه وعجزه عن الأخذ بثأره
ويعارضه في بعض قوافيه ويشير إلى رحلته إلى بلاد الروم للاستعانة بقيصر ثم
يعود إلى نفسه فيذكر بلاءه وأيامه وبذله لإخوانه ويُلِمُّ بالشراب والغناء ولهو

ذكره لديار
قومه

الحياة ، وإنما ذهبت به مفارق الكلام لا ينسى ديار قومه ويمضي في هذه
الناحية حتى لا يدع ماء ولا جبلا ولا تَنْبِيَّة ولا دَارَةً من داراتهم إلا ذكر
أَسْمَاءها وعرف مواقعها وشعره من هذه الجهة شعر تاريخي يتناول الاجتماع
البدوي بما يشبه صنيع المؤرخين في حياة الأمم ، وقد علق من وصف الطبيعة
بذكر العاصفة والأمطار والسحاب ، فأجاد ما شاء في أكثر من موضع على
مذهب واحد متكرر يجعله أحق بما نسب إليه منها ممن يشركه الرواة معه
كأوس بن خَجَر ، وبخاصة في الحائية المشهورة .

المعاني
الاجتماعية
في شعره

وفي شعره دلالة ظاهرة على طول التجربة والانتفاع بمجوادث الأيام وصدق
النظر في عواقب الأمور اكتسبها من الاختبار المتكرر على مرور الأيام في حياته
الطويلة تلمحها في مواضع من شعره ، وفي قصيدة له دالية تراه فيها حكما معلما
يضع للناس قواعد المعاشرة ، ويصف لهم الأمانة ويريهم مقابح الغدر ، وينصح
لهم في طرق الاختيار للأصحاب ، ثم يذكر الموت ويتحدث عن إرصاده
للمفوس ويعظ نفسه بما تعلق بين يديه من صروف الدهر ، وهذه هي المعاني الشعرية
التي تنفقها في شعر عبيد ، فتراه يذكرها في أكثر قصائده قلما تختلف فيها
قصيدة عن أخرى بأكثر من الوزن والقافية حتى ليكنك أن تقول إن شعره
من هذه الجهة كأنه قصيدة واحدة ، وتعثر له أحيانا بالمعنى المبكر والخيال
البديع ، وسوف تأتي على أمثلة من ذلك عند شرحنا له إن شاء الله .

ونشير هنا إلى بعض ما نلخصناه من رأى المترجم وآراء الباحثين من علماء
المستشرقين في شعر العصر الوثني ، وفي شعر عبيد من حيث نسبه لقائله ، ومن
جهة دقة البحث في الاستدلال الأدبي .

يقول المترجم إن شعر العصر الوثني نقل من طريق الرواية ، وكذلك الأدب
الهندي القديم نقل بعد العصر الذي قيل فيه بزمن طويل قال ولا يخلو كل
ما ينقل بهذه الطريقة مما يدخله من الغريب غير أنه لا يصح أن يتهم الشعر

القديم حين يشتمل على مفاخر القبيلة لأن ذلك كان بمثابة الميراث المتناقل يحتفظ به الأبناء عن الآباء ويتوكلون عليه في عصيتهم وتاريخهم ، ويرى أن الملاحظات السبع وهي خير ما روى من أشعار هذا العهد الوثني نتيجة مترجمة عن شخصيات شعرية مختلفة ، ويعتبر من الخيال الغريب إلى أبعد حد أن تكون هي أو الجزء الأعظم منها وضع على أصحابه في عصور متأخرة ، ويقول «بروكلان» في كتابه معجم المراجع :

استدلال
للمترجم على
صدق الشعر
القديم

«ومع ما نرى من تفرق القبائل العربية يظهر أنه كان لهم نوع من الوحدة في الديانة والعمادات تجمعهم كأمة واحدة ، ويؤيد ذلك لغة الشعر التي كانت واحدة عند المسيحيين في الحيرة وعند العرب الرعاة في الجبال جنوب مكة وبحق» يقول (نولدكه) إنه لا يستطيع أن يجعل هذا التساوي اللغوي ناشئاً من تحرير الرواة له وعن اقتراض لغة مصطنعة للشعر .

الوحدة في
الأمة العربية

ويرى المترجم أن في ذكر الشعراء الإسلاميين كجريد وطبقته لأولئك القدماء دليلاً آخر على صحة أشعارهم ، ويقرر أنه من غير المعقول أن تكون هذه الطبقة الإسلامية هي مبدأ الشعر العربي الصحيح وأنهم نسجوه في تلك الأوزان والقوافي ، وفي هذه المعاني والأغراض على غير مثال سابق ، ويكون من التحكم البعيد أن يتهم الشعر القديم وحده ، ولا يتهم الشعر الإسلامي مع أن طريق النقل عن الطبقتين واحدة وهي الرواية ، وأن هذه الآثار الأدبية من وثنية وإسلامية دوّنت كلها تقريباً في وقت واحد .

إنكاره اتخاذ
الشعراء
الإسلاميين
مبدأ للشعر
العربي
الصحيح

ويقول إن العلماء من المسلمين نظروا إلى الشعر القديم بمثل العناية التي كانوا ينظرون بها إلى القرآن والحديث لأنهم كانوا يعتبرون هذه الثلاثة أهم المراجع التي اعتمدوا عليها عند نهوضهم لتدوين اللغة وجمعها .

ويذكر من الأدلة الخاصة بشعر عبيد أنه يشتمل على تاريخ مؤيد بشواهد ثابتة كذكره لقتل حُجْر الكندي وحديثه عن أيام الفجار وغيره مما وقع بين

بنى أسد وغيرهم من قبائل العرب قال وأدق من ذلك في الاستدلال على صحة هذا الشعر التزم الشاعر لذكر كلمات بعينها يكررها في أكثر قصائده نحواً من أربعين كلمة منها كلمة : (خِرْص) و (عُقَاب) و (عَوْمُ السَّفِين) و (دَاوِيَّة) و (لَيْلَةُ رَجَبِيَّة) و (حَرَقُ الْبَوَارِق) و (أَهْلُ الْقِبَاب) و (أَهْلُ الْجُرْد) وأشار أيضاً إلى استعماله ضمير الغائبة على لغة بنى أسد بالكسر وإشكان إلياء حين يقول « وَهِيَ مِنِّي عَلَى بَالٍ » وتلك بلا ريب أمانة قوية تدل على هذا المذهب في تصحيح الكلام لأن الألفاظ كغيرها من أجناس الأشياء تختلف مقاديرها في اعتبار القائلين من قبل الخفة والثقل ويزيد حظها أو ينقص في الاستعمال تبعاً لتأثيرها بشهوات الأدباء من المحبة أو الاستكراه ، وكما يطيب لك أن تشم لونا من الزهر وتستحسن جنساً خاصاً من الجمال كذلك يخف على لسانك لفظ دون لفظ وتاهج بعبارة خاصة فلا تزال تضعها في كلامك وتلمس كل سبيل لأخذها في أسلوبك وتكون نعمة على أدبك ودليلاً عليك .

التزام عبيد
لذكر كلمات
بأعيانها في
شعره دليل
مادى على
صدقه

ويعتبر عبيد من شعراء الطبقة الرابعة كعدي بن زيد ، وعلقمة الفحل ، وطرفة بن العبد ، وقد ذكره ابن سلام الجمحي قال : وهو شاعر قديم الذكرك عظيم الشهرة وشعره مضطرب ذاهب لا أعرف له إلا قوله : « أقفر من أهله ملحوب » والإمام ابن قتيبة يعدها في المعلقات وصاحب الجهمرة يذكرها أول الجهمرات السبع ، ويظهر أن الامام ابن سلام لم يدرك الوقت الذي جمعت فيه أشعار عبيد أو لم يبلغه على الأقل وأنه بنى رأيه في شعره على هذه القصيدة البالغة من رداءة النظم الشعري إلى ما لا مثيل له في كلام العرب كما سيأتي :

وقد روى شعره : أبو عمرو الشيباني ، والإمام أبو عبيدة ، وعبد الملك بن قريظ الأصمعي ، وعلي بن المغيرة المعروف بالأثرم ، وخالد بن كلثوم . ويرجع أكثر الفضل في استحياء معظم آثاره إلى محمد بن كنفاسة أحد رواة الكوفيين ، وكان ينزل في محلة بنى أسد آخر العهد الأموي وصدراً من الدولة

رواة شعر
عبيد

العباسية وفي الأصول الخلفية شروح قصيرة وبعض تعليقات لم يذكر معها اسم جامعها ولا شارحها ونشرع الآن في شرح ما يسعنا من شعره تقريراً لما تناولناه من أوصافه ومذاهبه الشعرية ، وأوله في ديوانه قصيدته الممدودة من المجهرات ويغلب على أكثر أبياتها أنها من مخلع البسيط أو مجزؤه ، وهي :

أَقْفَرٌ مِنْ أَهْلِهِ مَلْحُوبٌ فَأَلْقَطِيَّاتٌ فَالذُّنُوبُ
فَرَاكِسٌ فَتُعِيلِيَّاتٌ فَذَاتُ فَرَقَيْنِ فَالْقَلْبِيُّ
فَعَرْدَةٌ فَقَفَا حَبْرٌ لَيْسَ بِهَا مِنْهُمْ عَرِيبٌ

ملحوب والقطيبيات والذنوب وراكس وتهيبيات وذات فرقين والقلبي وعردة وحبر كلها مواضع في ديوان بني أسد ، وعدة أبيات القصيدة خمسة وأربعون بيتاً لا يخلو بيت منها من حذف في تفاعيله أو زيادة على وزن البحر المذكور قد جعل نظمها كما ترى رديء النغمة مكروهاً على السمع ، وبعد أن وصف هذه الأماكن بالعفاء والدروس أشار إلى حروبهم وما أصابهم من ريب الدهر وبكاهم بعين سرُّوب اللّمع جعل دموعها كأنها تندفق من جدول في واد ، وانتقل إلى التأسّي بتحوّل النعم وذهاب الوارثين بالأموال ، قال :

إِنْ تَكُ حَالَتُ وَحُوّلَ أَهْلُهَا فَلَا بَدِيءٌ وَلَا عَجِيبُ
فَكُلُّ ذِي نِعْمَةٍ مَحْلُوسٌ وَكُلُّ ذِي أَمَلٍ مُسْكَذُوبُ
وَكُلُّ ذِي إِبِلٍ مَوْزُوثٌ وَكُلُّ ذِي سَلْبٍ مَسْلُوبُ
وَكُلُّ ذِي غَيْبَةٍ يَتُوبُ وَغَائِبُ الْمَوْتِ لَا يَتُوبُ
قَدْ يُوصَلُ النَّارِحُ النَّائِي وَقَدْ يُقَطَعُ ذِي الشُّهْمَةِ الْقَرِيبُ
مَنْ يَسْأَلُ النَّاسَ يَحْرِمُوهُ وَسَائِلُ اللَّهِ لَا يَخِيبُ
وَالرُّءُ مَا عَاشَ فِي تَكْذِيبِ طُولِ الْحَيَاةِ لَهُ تَعْذِيبُ
أَفْلِحْ بِمَا شِئْتَ فَقَدْ يُبْلَغُ بِالضَّعْفِ وَقَدْ يُخْذَعُ الْأَرِيبُ

لَا يَعْظُ النَّاسُ مِنْ لَمْ يَعْظِ الدَّ هُرُ وَلَا يَنْفَعُ التَّلْبِيبُ

ثم استطرد بعد هذا إلى ذكر ماء آجن وصف سبيله بالخوف والجذب وتناول ما يكون على أرجائه من ريش الحمام وذرق الطير وأنه قطع هذه السبيل على ظهر ناقة شهبها في سرعتها بالحمر الوحشية وانتقل منها إلى فرس نهدة جعلها كالعقاب التي وصفها بقوة الهوى ولطف الترقب للفريسة ، ولعل الذي جعل الأمام ابن قتيبة بعدها في الملقات ويجعلها صاحب الجمهرة في المجهرات مع خلوها من حلاوة القريض وروعة الشعر ، والجرس الغنائى هو هذه المعانى التي تشبه تصورات العصور الإسلامية في شرحها لكثير من الحقائق الاجتماعية والخلقية الثابتة .

وهذه قصيدة أخرى يذكر فيها قتل حُجْر الكندي ، ويصف الخيل والفرسان والسلاح ويسخر من امرئ القيس في ذهابه إلى قيصر ، وهي في أسلوب سائغ سهل مع تدفق وجزالة قال بعد مطلعها :

تعبيره لا يرى القيس

يَا ذَا المَخَوِّفُنَا بِمَقْتَلِ شَيْخِهِ
لَا تَبْكِنَا سَفَهًا وَلَا سَادَاتِنَا
حُجْرٌ غَدَاةٌ تَعَاوَرْتُهُ رِمَاحُنَا
حَتَّى خَطَرُنَ بِهِ وَهْنٌ شَوَارِعُ
وَالخَيْلُ عَاكِفَةٌ عَلَيْهِ كَأَنَّهَا
مُتَبَارِيَاتٌ فِي الأَعْنَةِ قُطْبًا
سَلَفًا لِأُرْعَنَ مَا يَخْفُ ضَبَابُهُ
حُجْرٌ تَمَنَّى صَاحِبِ الأَخْلَامِ
وَأَجْعَلُ بُكَاءَكَ لِابْنِ أُمِّ قَطَامِ
بِالقَاعِ بَيْنَ صَفَاصِفٍ وَإِ كَامِ (١)
مِنْ بَيْنِ مُقْتَصِدٍ وَآخِرَ دَامِ
سَحُوقِ النَّخِيلِ نَأَتْ عَنِ الجُرَامِ (٢)
يَحْمِلُنَ كُلُّ مُنَازِلٍ قُقَامِ
مُتَقَنَّسٍ بِأَدَى الحَدِيدِ لُهَامِ (٣)

(١) الصفاصف والإكام : جمع صفاصف ، وهي الأرض البقع الخالية . والإكام : واحدة أكمة ، وهي المرتفع لا يبلغ أن يكون جبلا . (٢) السحوق : الطوال ، الواحدة سحوق . الجرام : الذين يجرمون النخل أى يقطعونه . (٣) الأرعن : الجيش . المتقنس : اللابس القونس ، وهي البيضة . اللهام : الكثير العدد .

فيه الحديد وفيه كلُّ مصونةٍ نبعٍ وكلُّ مُتَقَفٍ وحسامٍ
ثم قال :

أزعمت أنك سوف تأتي قيصرًا فلتهلكن إذا وأنت شامي
تأبى على الناس المقادة كلهم حتى نقودهم بغير زمامٍ
وقال أيضاً من قصيدة مطلعها :

يا دارَ هِنْدٍ عفاها كلُّ هَطالٍ بالجوِّ مثلَ سَحِيقِ اليَمَنَةِ البالي

وبعد أن وصف ناقته ولم يُطلِ جعل يفخر بنفسه ويذكر اللهو والشراب
والمرأة ، ثم يعود إلى النوح على فارط العمر وذهاب الشباب ، وفيها أيضاً تناول
عشق الحجر ومدح صاحبها (على غير العادة) بالإفضال وألعب صاحبه
وأعبته . قال :

وكبشٍ مَلُومَةٍ بادٍ نواجذُهُ شهباءَ ذاتِ سَراييلِ وأبطالِ
أوجرتُ جفرتَه خُرصاً فال به كما انثنى مُخضدٌ من ناعمِ الضالِ (١)
وقهوةٍ كَرُضابِ المسكِ طال بها في دنيا كَرِّ حَوَلٍ بعد أحوالِ
با كَرهتُها قبلَ ما يبدو الصُّباحُ لنا في بيتِ مُنهمِرِ الكفينِ مِفْضالِ
وعبسلةٍ كَمهاةِ الجوِّ ناعمةٍ كأنَّ ريقَها شَيبتُ بِسَلْسالِ (٢)
قد بتُّ أَلعِبُها وَهنا وَتَلعِبُنِي ثم انصرفتُ وَهِيَ مِنِّي على بَالِ
بانَ الشَّبابُ فالِي لا يَلِمُ بنا واختلَّ بي من مَشيبِ أَيِّ مُحلالِ
والشيبُ شَيْنٌ لمن يَحْتَلُّ ساحتَهُ للهِ دَرٌّ سوادِ اللَّمةِ البالي

وصف الحجر
والبكاء على
ذهاب الشباب

وقد أسلفنا في شرح خصائصه إشاره لذكر العواصف والأمطار ومرى الريح
السحاب وتحلبه كما يمرى العسيف وهو الراعى عشاره أى نياقه الحافلة الضروع

(١) أوجرت : ملأت . الجفرة : الحاصرة . المخضد : المقطوع .

(٢) مهاة الجوّ : الشمس .

ثم يذكر ضياء البرق من خلاله وضيق ذرعه بالماء وانحلال عزاليه وهي مصاب الماء منه واحداً عزلاء وهذه كما تجدها في القصيدة الآتية من شعره في هذا المعنى حيث يقول :

سقى الرباب مجلجل الأكناف لَمَاحُ برُوقه^(١)
 جَوْنٌ تُكْفِكُهُ الصَّبَا وَهَنًا وَتَمْرِيهِ خَرِيْقُهُ^(٢)
 مَرَى العَسِيفِ عِشَارَهُ حَتَّى إِذَا دَرَّتْ عُرُوقُهُ^(٣)
 وَدَنَا يَضِيءُ رَبَابُوهُ غَابًا يَضْرُمُهُ خَرِيْقُهُ
 حَتَّى إِذَا مَا ذَرَعُوهُ بِالمَاءِ ضَاقَ فَمَا يُطِيقُهُ
 هَبَّتْ لَهُ مِنْ خَلْفِهِ رِيحٌ يَمَانِيَّةٌ تَسُوقُهُ
 حَلَّتْ عَزَالِيَهُ الجَنُوبُ بٌ فَتَجَّ وَاهِيَةً خُرُوقُهُ

وصفه للبرق
والسحاب
والطرير
والعواصف

وفي القصيدة الآتية تناول أخلاق النساء وحلل ثلاثهن في اقبالهن على المال والشباب وصدوفهن عن الصديق إذا قلَّ ماله وحين يدب فيه الهرم والشيب وهو على الأقل من أوائل الشعراء الذين كشفوا هذه المعاني ، واشتهروا بها إن لم يكن هو أول من قالها ، ومترابها تشبه قول علقمة في إحدى قوافيه الفاخرة حين يقول :

فَإِنْ تَسْأَلُونِي بِالنِّسَاءِ فَإِنِّي خَيْرٌ بِأَدْوَاءِ النِّسَاءِ طَيِّبٌ
 إِذَا شَابَ رَأْسُ المرءِ أَوْ قَلَّ مَالُهُ فَلَيْسَ لَهُ فِي وَدَّهِنَّ نَصِيبٌ
 وقول امرئ القيس :

أَرَاهُنَّ لَا يُحِبُّنَّ مِنْ قَلِّ مَالِهِ وَلَا مِنْ رَأْيِنَ الشَّيْبِ فِيهِ وَقَوَّسًا

(١) المججل : المصوت . (٢) الجون : الأسود والأبيض ضد . تكفكه : تردده . تَمْرِيهِ : أي تنزل منه الماء . الحريق : الريح الشديدة الهبوب .
 (٣) العسيف : العبد . العشار : اللقاح آتى عليها عشرة أشهر من حملها أو هي الحافلة الضروع بالبن .

قال عبيد من قصيدته التي مطلعها : لَيْسَ رَسْمٌ عَلَى الدِّفِينِ بِيَالِي
 دَارُ حَيٍّ أَصَابَهُمْ سَالِفُ الدَّهْرِ فَأَنْحَتُ دِيَارُهُمْ كَالْحِلَالِ
 مُقْفَرَاتٍ إِلَّا رَمَادًا غَبِيًّا وَبَقَايَا مِنْ دِمْنَةِ الْأَطْلَالِ^(١)
 بَدَلَتْ مِنْهُمْ الدِّيَارُ نَعَامًا خَاضِبَاتٍ يُرْجِنُ خَيْطَ الرَّئَالِ^(٢)
 وَظَبَاءَ كَانَهُنَّ أَبَارِيْقُ لِحْيِنٍ تَحْنُو عَلَى الْأَطْفَالِ
 تِلْكَ عِرْسِي تَرُومُ قَدَمًا زِيَالِي أَلْبِينِ تُرِيدُ أُمَ لِدَالِ
 إِنْ يَكُنْ طَبِكِ الدَّلَالِ فَلَوْ فِي سَالِفِ الدَّهْرِ وَاللِّيَالِي الْخَوَالِي
 ذَاكَ إِذْ أَنْتِ كَالْمَهَاةِ وَإِذَا آ تِيكِ نَشْوَانٌ مُرْخِيًا أَذْيَالِي
 فَاتْرُكِي مَطَّ حَاجِبِيكِ وَعَيْشِي مَعَنَا بِالرَّجَاءِ وَالتَّأْمَالِ
 أَوْ يَكُنْ طَبِكِ الْفِرَاقِ فَإِنَّ السَّبِينِ أَنْ تَعْطِفِي صُدُورَ الْجِمَالِ
 زَعَمْتُ أَنِّي كَبُرْتُ وَأَنْيَ قَلَّ مَالِي وَضَنَّ عَنِّي الْمَوَالِي
 وَصَحَا بَاطِلِي وَأَصْبَحْتُ كَهَلًا لَا يُؤَاتِي أَمْثَالَهَا أَمْثَالِي
 أَنْ رَأَيْتِي تَغَيَّرَ اللَّوْنُ مِنِّي وَعَلَا الشَّيْبُ مَفْرَقِي وَقَدَالِي^(٣)
 فِيمَا أَدْخَلَ الْحَبَاءَ عَلَى مَهْمُضُومَةٍ الْكَشْحِ طَفَلَةٍ كَالغَزَالِ
 فَتَعَاطَيْتُ جِيْدَهَا ثُمَّ مَالَتْ مَيْلَانَ الْكَثِيبِ بَيْنَ الرَّمَالِ
 دَرٌّ دَرٌّ الشَّبَابِ وَالشَّعْرِ الْأَمْوُودِ وَالضَّامِرَاتِ تَحْتَ الرَّحَالِ^(٤)

(١) الرماد الغي : الذي لا يبين شيئاً من الآثار وهو وصف ظريف .

(٢) الخاضبات : يريد ذكران النعام ، وهي جمع خاضب . وهو الظليم اغتمت فاحمرت ساقاه
 أو أكل الربيع فاحمر ظنبوباه . أو اخضرا أو اصفرا خاص بالذكر لا يعرض للأنتى كما في
 القاموس ، والظنبوب : حرف الساق من قُدَمٍ أو عظمه أو حرف عظمه . الحبط وبكسر الحاء
 لجماعة الرئال : جمع رأل ، وهو ولد النعامة .

(٣) القذال : جمع مؤخر الرأس ومعقد العذار من الفرس خلف الناصية .

(٤) الضامرات : جمع ضامر ، وهو البعير يمسك جرتة في فمه .

وهذه أخرى ترى بها شيئاً من أدب الاجتماع يصل بعده إلى ذكر تجاوزه
 للمهمه المقفر على ناقة مذكرة وهو يتبطن آنسة كعابا رُودَ الشباب تُدْفِئُهُ فِي
 الشتاء وتبرده في الصيف ، ثم شبه حلاوة ريقها بمزاج الأترُجِّ والتفاح وضوء
 سُنَّتْهَا فِي الظلام بنور الصباح ثم انتهى إلى البكاء على إخوانه وعلى نفسه ،
 واثبت الأخير من القصيدة يشبه قول المعري :

خَفَّفَ الوَطْءُ مَا أَظُنُّ أَدِيمَ الأَرْضِ إِلا مِنْ هَذِهِ الأَجْسَادِ

قال بعد المطلع :

حَلَقْتُ بِاللَّهِ إِنَّ اللَّهَ ذُو نِعَمٍ مَنْ يَشَاءُ وَذُو عَفْوٍ وَتَصْفَاحِ
 مَا الطَّرْفُ مَنَى إِلَى مَا لَسْتُ أَمْلِكُهُ مِمَّا بَدَأَ بِبَاغِي الأَحْظِ طَمَاحِ

ثم يقول :

وَمَهْمَهُ مُقْفِرِ الأَعْلَامِ مُنْجَرِدِ نَأَى المَنَاهِلِ جَدْبِ القَاعِ مِزَاحِ
 جَاوَزْتَهُ بَعْلَنْدَاةٍ مُذَكَّرَةٍ كَالعَيْرِ مَوَارَةِ الضَّبْعَيْنِ مِمْرَاحِ (١)
 وَقَدْ تَبَطَّنْتُ مِثْلَ الرِّيمِ آنِسَةً رُودَ الشَّبَابِ كَعَابَا ذَاتِ أَوْضَاحِ (٢)
 تُدْفِي الضَّجِيعَ إِذَا يَشْتُو وَتُخَصِرُهُ فِي الصَّيْفِ حِينَ يَطِيبُ البَرْدُ لِلصَّاحِ
 كَأَنَّ رِيقَ ثَنَائِيهَا إِذَا ابْتَسَمَتْ مِزَاجُ شُهْدٍ بِأَتْرُجٍ وَتُقَاحِ
 كَأَنَّ سُنَّتَهَا فِي كُلِّ دَاجِيَةٍ حِينَ الظَّلَامِ بِهِمْ ضَوْءُ مِصْبَاحِ

إلى أن قال :

كَمْ مِنْ فَتَى مِثْلِ غُصْنِ البَانِ فِي كَرَمِ مُحْضِ الضَّرِيْبَةِ صَلَّتِ الحُدُودَ ضَاحِ (٣)
 فَارَقْتُهُ غَيْرَ قَالِ لِي وَأَسْتُ لَهُ بِالقَالِ أَصْبَحَ فِي مَلْحُودَةٍ نَاحِ

(١) العلنداة : الغليظة الشديدة من الإبل . المور : الجرى . الضبع : القصد كلها
 أو وسطها . (٢) الرود : بالضم والفتح ويهمز وسطه الحسنه الشباب والكعاب :
 الناهدة الثديين . (٣) المحض : الخالص من كل شيء . الضريبة : الطريقة والخلق .
 الصلت : الواضع .

هل نحن إلا كأجسادٍ نَمُرُّ بها تحت الترابِ وأرواحٌ كالأرواحِ .
وينكر المترجم على عبيد وعلى غيره من شعراء العهد الوثني أن يقع في
خواطرم ما يقع في خواطر الشعوب المتدينة من مثل ما في هذه القصيدة ،
ويرى أن أمثال هذا الشعر ينبغي أن يكون من عمل العصور الإسلامية ولكنه
نسى أن في هذه الجزيرة وراثات دينية باقية لأربعة من أنبياء العرب قبل
الإسلام وأنها فوق ذلك قد اتصلت بديانات أخرى كالنصرانية واليهودية في
بقاع مختلفة منها . وترى الشعر القديم كله قلما يخلو من هذه المعاني ومن اللعاء
إلى الله والاعتداد برؤيته حتى وهم يسجدون للأوثان المنصوبة ، وهو ما حكاه
القرآن عنهم حين يقول : (ما نعبدهم إلا ليقربونا إلى الله زلفى) ، ولو كان
هذا الرأي صواباً لأفسد على الناس أكثر الشعر القديم لاشتماله في الغالب على
هذه المعاني ولكنه كما ترون بعيد عن التحيص .

وهذه قصيدة له يعارض بها امرأ القيس في هجائه لقومه وتسميتهم عبيد
العصا في قصيدة له مرت في ترجمته يقول من العروض والقافية :

يا أيها السائلُ عن مجدنا إنك عن مسعاتنا جاهلُ
إن كنت لم تأتِك أيامنا فأسألُ تنبأ أيها السائلُ
سائلُ بنا حُجراً وأجناده يوم تولى جمعه الحافلُ
يوم أتى سعدٌ على ما قَطِ وحاولت من خلقه كاهلُ (١)
فأوردوا سرِّباً له ذُبلاً كأنهنَّ اللهبُ الشاعِلُ (٢)
وعامراً أن كيف يعالوهم إذا التقينا المرهفُ الناهلُ
وجمَّعَ غسانَ لقيناهم بجحفلٍ قسطله ذائلُ (٣)

معارضته
لامرئ القيس

(١) الأقط كمنزل : موضع القتال أو المضيق في الحرب . (٢) السرب : هنا جماعة
الحيل . الذبل : كركع جمع ذابل وهو الضامر . (٣) القسطل والقسطال : الغبار .

قَوْمِي بَنُو دُودَانَ أَهْلُ الْحِجْيِ يَوْمًا إِذَا أُتِّحَتِ الْحَائِلُ (١)
 كَمْ فِيهِمْ مِنْ سَيِّدٍ أَيْدٍ ذِي نَفْحَاتٍ قَائِلٌ فَاعِلٌ
 مَنْ قَوْلُهُ قَوْلٌ وَمَنْ فِعْلُهُ فَعَلٌ وَمَنْ نَأْسَلُهُ نَائِلٌ
 الْقَائِلُ الْقَوْلَ الَّذِي مِثْلُهُ يَنْبُتُ مِنْهُ الْبَلَدُ الْمَاحِلُ
 لَا يَحْرِمُ السَّائِلَ إِذْ جَاءَهُ وَلَا يُعْنِي سَيْبَهُ الْعَاذِلُ
 وَالطَّاعِنُ الطَّعْنَةَ يَوْمَ الْوَعَى يَذْهَلُ مِنْهَا الْبَطْلُ الْبَاسِلُ

وهذه قصيدة له حائية يصف بها الرياح والمطر والسحاب ، والرواة يقولون إنه كان من أوصاف الجاهليين لهذه الطبيعة الخاصة . وهو يكرر هذه المعاني بعينها في غير موضع من كلامه كما قدمنا ، ولذا نحن نرجح أنه صاحب هذه القصيدة لا أوس بن حجر وإن كانت في ديوانه وبعض الرواة ينسبها له وأولها في ديوان أوس :

« وَدَعَّ لَيْسَ وَدَاعَ الصَّارِمِ اللَّاحِي » وفي ديوان عبيد :

هَبَّتْ تَلُومٌ وَلَيْسَتْ سَاعَةَ اللَّاحِي دَلًّا أَنْتَظَرْتِ بِهَذَا اللَّوْمِ إِصْبَاحِي
 يقول منها :

يَا مَنْ لِبَرْقِ أَبِيتِ اللَّيْلِ أَرْقُبُهُ مِنْ عَارِضِ كِبْيَاضِ الصُّبْحِ كَمَاحِ
 دَانَ مُسِفٍ فُوَيْقَ الْأَرْضِ هَيْدَبُهُ (٢) يَكَادُ يَدْفَعُهُ مَنْ قَامَ بِالرَّاحِ (٢)
 فَمَنْ بِنَجْوَتِهِ كَمَنْ بِمَحْفَلِهِ (٣) وَالْمُسْتَكِينُ كَمَنْ يَمْشِي بِقِرْوَاحِ (٣)
 كَانَ رَيْقَهُ لَمَّا عَلَا شَطِبًا أَقْرَابُ أَبْلَقَ يَنْفِي الْخَلِيلَ رَمَاحِ (٤)

(١) أُلِّحَتِ الْحَائِلُ : معناه حملت الأنتى من الأبل بعد امتناع من الحمل ، وهو كناية عن الشدة أو تناهيا . (٢) المسف : الشديد الدنو من الأرض . الهيدب : ماتدلى من السحاب . (٣) النجوة : المكان المرتفع . المحفل : مستقر الماء . القرواح : الأرض المستوية . (٤) الأقراب : الأرفاغ ، وهي أصول الأنثاذ واحدها قرب بالفتح والضم وهو أيضاً الحاصرة .

فالتجّ أعلاه ثمّ ارتجّ أسفله	وضاق ذرعاً بحمل الماء منصاح ^(١)	قافية أخرى في وصف العاصفة والسبرق والمطر والسحاب
كأنما بين أعلاه وأسفله	ريطٌ منشرةٌ أو ضوءٌ منصاح	
كانّ فيه عشراً جلةً نرفاً	بيضا لهاميم قد همت يارشاح ^(٢)	
بمحا حناجرها هُدلاً مشافرُها	تسيم أولادها في قرقر ضاح ^(٣)	
هبت جنوبٌ بأولاه ومال به	أعجازُ مزنٍ يسح الماء دلاح	
فأصبح الرّوضُ والقيعانُ مترعةً	من بين مرتفقٍ فيه ومنطاح ^(٤)	

وله من قصيدة من الرمل يذكر فيها انتجاعهم للحارث الأعرج النساني وقتلهم عدياً ابن أخته وأشار في آخرها إلى ميراثه عن آبائه من المجد والمنعة ويستشهد ببعض أبياتها العروضيون على أجزاء هذا البحر النادر وهو الرمل يقول :

يا خليلي أربعا وأستخبراً الممنزلة الدارس من أهل الخلال
مثل سحيق البرد عني بعدها السقطر معناه وتأويب الشمال
وبعد ذلك يقول :

نحن قدنا من أهاضيب الملا الخيل في الأرسان أمثال الشعالي	انتجاعه للحارث النساني
شرباً ينشئين من مجهولة الأرض وعثاً من سهول وجبال	
فانتجعنا الحارث الأعرج في جحفلي كالليل خطار العوال	
يوم غادرنا عدياً بالثنا الذ ذبل الشمر صريعاً في المجال	
ثم يقول :	

(١) التجّ : صوت . ارتجّ : ترجح . المنصاح : السائل التدفق .
(٢) العشار : جمع عمراء كنفساء ، وهي ما آتى عليها عشرة أشهر من حملها . الجلة :
السان من الإبل . الشرف : الكبيرة ، والواحدة شارف . اللهاميم : الغزار اللبن .
الارشاح : يقال رشحت النافة إذا اشتدّ فصيلها وقوى . (٣) تسيم : ترمي . القرقر :
الأرض السهلة . الضاحي : البارز . (٤) المرتفق : المحتبس بشيء يرتفق به . المنطاح :
السائل الذي لا يمنعه شيء .

ولنا دارٌ ورثنا عزَّها الأقدمُ القُدُموسَ عن عمِّ وخالٍ
منزل دمنه أبوانا المورثونا المجدَ في أولى الليالِ

وهذه داليتها التي أشرنا من قبل إلى ما ضمنها من المعاني الاجتماعية بما يدل
على طول تجربته ، و تراها تشبه في قافيتها ورويتها وأكثر معانيها قصيدة أخرى
لعدي بن زيد التي منها :

عن المرءٍ لا تسألَ وسلَّ عن قرينه فكلُّ قرينٍ بالمقارنِ يقتدي
وفيها بعض أبيات بنصها من قصيدة عبيد ويحتمل أنهما لهما معا أو أخذ
التأخر عن المتقدم ، وذلك كالبيت الآتي :

إذا أنتَ حملتَ الحئونَ أمانةً فإنك قد أسندتها شرَّ مُسندٍ
ومطلع قصيدة عبيد :

لمن دمنة أقوت بحرة ضرغند تلوح كعنوان الكتاب المجدد
وهو كمطلع قصيدة طرفة وإن اختلفا في تشبيه الدمنة هـذا يجعلها
كعنوان الكتاب ، والآخر يجعلها كباقي الوشم في ظاهر اليد ، وهو يقول
بعد تشبيهها :

نصائح
الاجتماعية

إذا كنت لم تعبأ برأي ولم تطع
ولا تتقي ذم العشيرة كلها
وتصفح عن ذي جهلها وتمحوطها
وتنزل منها بالمكان الذي به
فلست وإن علأت نفسك بالمني
لعمرك ما يخشى الخليل تفحشي
ولا أبتغي ود امرئ قبل خبره
وإني لأظني الحرب بعد شوبها
نصيحا ولا تصغي إلى قول مرشد
وتدفع عنها باللسان وباليد
وتقمع عنها نخوة التهديد
يرى الفضل في الدنيا على المتحمد
بذي سودد باد ولا كرب سيد
عليه ولا أنأى على المتودد
وما أنا عن وصل الصديق بأصيد
وقد أوقدت لغى في كل موقد

وَإِنِّي لَدُوٌّ رَأَى يُعَاشُ بِفَضْلِهِ وَمَا أَنَا مِنْ عِلْمِ الْأُمُورِ بِمُبْتَدَى
 إِذَا أَنْتَ حَمَلْتَ الْخُنُونَ أَمَانَةً فَإِنَّكَ قَدْ أَسْنَدْتَهَا شَرًّا مُسْنَدِ
 وَالْعَرَاءُ أَيَّامٌ تُعَدُّ وَقَدْ رَعَتْ حِبَالُ الْمَنَايَا لِلْفَتَى كُلِّ مَرَّصِدِ
 فَمَنْ لَمْ يَمُتْ فِي الْيَوْمِ لَا بَدَّ أَنَّهُ سَبَّعِقِلُهُ حَبْلُ الْمَنِيَّةِ فِي غَدِ

وله غير هذا قصائد ومقطوعات من بيت ومن بيتين ، ومما لا يبلغ أن يكون قصيدة اقتطعها المترجم من كتب الشواهد وغيرها ، ونحسب أن في هذه الأمثلة التي ذكرناها من شعره كفاية ، ويحسن قبل أن نختم هذه الترجمة أن نشير إلى بعض معانيه وأبياته المتنازعة ، والتي يظن أن غيره أخذها منه وإن كنا نسلم بإمكان اتفاق الخواطر في توارد الشاعرين على المعنى أو البيت الواحد حتى بأكثر ألفاظه فمن ذلك قول عبيد :

تَرَى الْمَرْءَ يَصُبُّو لِلْحَيَاةِ وَطُولِهَا وَفِي طُولِ عَيْشِ الْمَرْءِ أُبْرَحُ تَعْدِيْبِ
 وَهُوَ مَعْنَى قَوْلِ النَّرْبِ بْنِ تَوْلَبٍ :
 يَوَدُّ الْفَتَى طُولَ السَّلَامَةِ جَاهِدًا فَكَيْفَ تَرَى طُولَ السَّلَامَةِ يَفْعَلُ
 وَقَوْلِ الْآخَرِ :

أَرَى بَصْرِي قَدْ رَأَيْتَنِي بَعْدَ صِحَّةٍ وَحُسْبُكَ دَاءٌ أَنْ تَصِحَّ وَتَسَلَّمَ
 وَقَوْلِهِ :

إِذَا تَخَمَّطَ جَبَّارٌ ثَنُوهُ إِلَى مَا يَشْتَهُونَ وَلَا يُثْنُونَ إِنْ خَطُّوا
 وَقَوْلِهِ :

نَأْبَى عَلَى النَّاسِ الْمَقَادَةَ كُلِّهِمْ حَتَّى نَقُودَهُمْ بِغَيْرِ زِمَامِ
 فِي مَعْنَاهُ قَوْلُ السَّمَوِيِّ :

وَنُنَكِّرُ إِنْ شِئْنَا عَلَى النَّاسِ قَوْلَهُمْ وَلَا يُنَكِّرُونَ الْقَوْلَ حِينَ نَقُولُ
 وَقَوْلِ الْفَرَزْدَقِ :

العاني
 المخترعة
 والمشاركة
 في شعره

تَرَى النَّاسَ مَاسِرًا نَا يَسِيرُونَ خَلْفَنَا وَإِنْ نَحْنُ أَوْ مَأْنَا إِلَى النَّاسِ وَقَفُوا
وإن كان بيت السموءل أروع الثلاثة وأجلها ، وبيت عبید أشدها
وأقواها ، ومن ذلك قوله :

وَالنَّاسُ يَلْحَوْنَ الْأَمِيرَ إِذَا عَوَى خَطْبَ الصَّوَابِ وَلَا يُلَامُ الْمُرْشِدُ
هو ما أخذه القَطَامِيُّ حين يقول :

وَالنَّاسُ مِنْ يَلْتَقِ خَيْرًا قَائِلُونَ لَهُ مَا يَشْتَهِي وَلَا يَلَامُ الْمُخْطِئُ الْهَبْلُ
ويقول في وصف المرأة بالحر في الشتاء ، وبتربط الجسد في الصيف ،
واعتبار ذلك من محاسنها :

تُدْفِي الضَّجِيعَ إِذَا يَشْتُو وَتُخَصِرُهُ فِي الصَّيْفِ حِينَ يَطِيبُ الْبُرْدُ لِلصَّاحِي
أخذه الْأَعَشَى إِذ يَقُول :

وَتَبْرُدُ بَرْدَ رِدَاءِ الْعَرُوِّ سِ رُقْرُقَتَ الصَّيْفِ فِيهِ الْعَبِيرَا
وَتَسْخَنُ لَيْلَةً لَا يَسْتَطِيعُ نُبَاحًا بِهَا الْكَلْبُ إِلَّا هَرِيرَا
وَأتى به في بيتين ولم يزد على ما صنع عبید . وله :

زعم البوارح أن رحلتنا غداً وبذاك خبرنا الغداف الأسود
وهو أيضا للنابعة في قصيدة المتجردة ، وإن كان شطره الأخير يختلف
في بعض الألفاظ وفي حركة الروى كما هو معلوم وله من داليتة الأخرى :

وَتَبَسِّمُ عَنْ عَذْبِ اللَّثَاتِ كَأَنَّهُ أَقَاحِي الرَّبِّي أَخْحَى وَظَاهِرُهُ نَدَى
وهو قول طرفة : (وتبسم عن ألمى كان منورا) البيت ، ويقول :

إِنَّا إِنَّمَا خَلَقْنَا رُءُوسًا مَنْ يُسَوِّى الرَّءُوسَ بِالْأَذْنَابِ؟
لَا نَدْقِي بِالْأَحْسَابِ مَالًا وَلَكِنْ نَجْعَلُ الْمَالَ جَنَّةَ الْأَحْسَابِ
والبيت الأول في معنى قول الحطيئة :

قَوْمٌ هُمُ الْأَنْفُ وَالْأَذْنَابُ غَيْرُهُمْ وَمَنْ يُسَوِّى بِأَنْفِ النَّاقَةِ الذَّنْبَا

ويظهر أن الذي أعان الحطيئة على بيته هو لقب جعفر أنف الناقة لا بيت عبيد هذا .

وله يصف طول العنق ويكنى عن ذلك بانكسار القُرْط قبل أن يلاقى لبة صاحبه إذا زل عن مكانه ، وهو من المباغة المفرطة :

نَاطُوا الرِّعَاثَ بِمَهْوَى لَوِيزِثْ بِهِ لَا نَدَقَ دُونَ تَلَاقِ اللَّبَةِ الْقُرْطِ
ويشبهه قول النابغة ، ويغلب أنه مأخوذ منه :

إِذَا ارْتَعَثَتْ خَافَ الْجَبَانُ رِعَاثَهَا وَمَنْ يَتَعَلَّقُ حَيْثُ عُلِقَ يَفْرَقِ
ومما يمثله من أبياته قوله :

لَا أَعْرِفَنَّكَ بَعْدَ الْمَوْتِ تَنْدُبُنِي وَفِي حَيَاتِي مَا زَوَّدْتَنِي زَادِ
وقوله أيضاً :

الْخَيْرُ يَبْقَى وَإِنْ طَالَ الزَّمَانُ بِهِ وَالشَّرُّ أُخْبِتُ مَا أَوْعَيْتَ مِنْ زَادِ
وقوله :

لَا يَعْظِرُ النَّاسُ مَنْ لَمْ يَعْظِرِ الدَّ هَرُ وَلَا يَنْفَعُ التَّلْبِيبُ
وقوله منها :

أَفْلِحْ بِمَا شِئْتَ قَدْ يُفْلِحُ بِالضَّعْفِ وَقَدْ يُخْذَعُ الْأَرِيبُ
وقوله أيضاً :

مَنْ يَسْأَلِ النَّاسَ يَحْرِمُوهُ وَسَأَلِ اللهُ لَا يَخِيبُ

ومن لطيف تشبيهاته قوله في صفة السحاب حين يُسِفُّ هيدبه فويق الأرض حتى ليكاد من قام يدفعه بيده قالوا وهو أحسن ما قيل في معناه :

دَانِ مُسِفِّ فُوقِ الْأَرْضِ هَيْدَبُهُ يَكَادُ يَدْفَعُهُ مَنْ قَامَ بِالرَّاحِ

وقوله في التطير لقوم من جديلة طى كانت بينهم وقعة حين خرجوا لحربهم وقد وصف في بيته هذا غراباً ساقطاً على بقية شجرة بالية ، والرياح

تأخذه من جوانبه حتى جعله متنكبا لإبطها ، وهي استعارة حسنة
حيث يقول :

وَأَبُو الْفِرَاحِ عَلَى خَشَّاشِ هَشِيمَةٍ مُتَنَكِّبًا إِبْطَ الشَّمَائِلِ يَنْعَبُ

ومنها يقول في وصف أعلى بيضات الجيش يشبهها بنار تلهب على
مكان مرتفع :

شُمٌّ كَأَنَّ سَنَا الْقَوَانِسِ فَوْقَهُمْ نَارٌ عَلَى شَرَفِ الْيَفَاعِ تَلْهَبُ

ويشبه راية الجيش وهي العقاب حين ترتفع على سنان الرمح ويحركها الهواء
بطائر يتقلب في الجو حين يقول :

بِمُعْضِلِ لَجِبٍ كَأَنَّ عِقَابَهُ فِي رَأْسِ خِرْصٍ طَائِرٌ يَتَقَلَّبُ

وقوله في وصف عظام المرأة باللين :

خَوْدٌ مُبْتَلَةٌ الْعِظَامِ كَأَنَّهَا بَرْدِيَةٌ نَبَتَتْ خِلَالَ غُرُوسٍ

وهو في هذا المعنى أصل لقول كثير :

أَلَّا إِنَّمَا لَيْلَى عَصَا خَيْرُ رَانَةٍ إِذَا غَمَزُوهَا بِالْأَكْفِ تَلِينُ

على ما فيه من المهجنة لذكر العصا ، ويقول بشار :

وَدَعَجَاءِ الْحَاجِرِ مِنْ مَعْدٍ كَأَنَّ حَدِيثَهَا قَطَعُ الْجِمَانِ

إِذَا قَامَتْ لِشَيْتِهَا تَثَنَّتْ كَأَنَّ عِظَامَهَا مِنْ خَيْرِ رَانِ

ذلك وهو عبید بن الأبرص بن جشم بن عامر من سعد بن ثعلبة من

بنی أسد أحد بطون مضر بن نزار .

٨ - أوس بن حجر

لم يرد لهذا الشاعر على شهرته ذكر في طبقات ابن سلام ، ولعله فيما سقط من النسخ المطبوعة في صدر الكتاب ، وقد أغفله ابن النديم صاحب الفهرست ، وليس لشعره أثر في أكثر المختارات المشهورة : كالمفضليات وجمهرة أشعار العرب ، ولا في مختارات الأصبهي ، وهبة الله بن الشجري ، وأشعار الحماسة ، ولا يزيد ما ذكر له في حماسة البختري على خمسة أبيات . وفي منتهى الطلب لابن ميمون وهو محمد بن المبارك في أواخر القرن السادس الهجري ثمان قصائد مما اختاره المؤلف في هذه المجموعة التي تحتوي على ألف قصيدة لشعراء الجاهلية إلى أكثر الطبقة الإسلامية وشرح ديوانه للامام ابن السكيت لا يوجد بأكمله الآن . وقد عني العالم المستشرق « رودلف جير » بجمع أخباره وتبع شعره وتناول بحثه أكثر من خمسين مصدراً عربياً من كتب اللغة والتاريخ والأدب والشواهد بينها لسان العرب وكتاب الأغاني والشعر والشعراء لابن قتيبة ومنتهى الطلب عدا مراجع أخرى أجنبية وطبع ديوانه أو ما بقي من شعره كما يقول المترجم في مدينة فينا النمسية سنة ١٨٩٢ وأهدى منه نسخة واحدة إلى دار الكتب الملكية وهي أهم مصدر جامع لأشعار أوس وأكثر أخباره ، ونعتقد أننا حين نضيف ما نستخلصه من هذه الترجمة إلى ما عندنا من الكتب العربية وما تفقده من أوصافه في شعره منصل إلى تقريب الصورة الصحيحة لنشأته وحياته بقدر المستطاع .

نشأته
وتاريخه

ويؤخذ من جملة ذلك أنه كان يعيش في حياة مضطربة متنقلة بين أحياء الجزيرة من البحرين إلى اليمامة ثم إلى الحجاز ونجد وأنه استقر طويلاً بالعراق في حاشية الأمراء اللخمييين ، واتصل بعمر بن هند الذي ملك في الحيرة بعد مقتل أبيه المنذر سنة ٥٥٤ كما سبق في ترجمة عبيد . ويؤمئذ كان يحرضه على

تفقه في
أحياء العرب
واتصاله
بأحد ملوك
الحيرة

الانتقام لأبيه ويفريه بشن الغارات على بعض القبائل المعادية له ، وينبغي أن يكون في ذلك الوقت رجلاً يصلح للرأى ، ويصح أن يصير في بطانة الملوك .

ويرجح مترجم ديوانه اعتماداً على هذه الصلة أن تكون ولادته في الغالب سنة ٥٣٠ م ، وقد نقل عن كتاب روضة الأدب للأبقرئوسى ، وعن غيره من المؤلفين أنه مات سنة ٦٢٠ م بعد أن بلغ تسعين سنة وأدرك أوائل الإسلام .

اشتراكه مع
قومه وغيرهم
في الحروب

ويظهر أنه اشترك مع اللخمين في حروبهم مع ملوك الشام وغيرهم من قبائل العرب ، وحارب أيضاً مع قومه يوم القاع وغيره بينهم وبين بكر وتغلب وبتمية أعراب نجد والحجاز ، وإن لم يكن له في هذه الأيام بلاء يذكر على كثرة ذكره لاتخاذ السلاح ، وشهرته بوصف آلات الحرب ، وستعرفون أنه كان يؤسر ، وكان يفر ، وحاول أن يحتج لصحة رأيه في الفرار ، وهذا يوضح ما عرف من مذاهب العرب المحمودة في الحرب من مدحهم للتفضل عند اللقاء ، وترك التحصن بالدروع ، ويرون في كثرة الاحتفال والتأهب دليلاً على الوهن كما قدمنا في نقد كلمة الأعشى : (رَحَلَتْ سُمَيْةٌ عُذُوَّةً أَجْمَاهَا) .

ديانة أوس
في نظر
المترجم

ويضطرب رأى المترجم في ديانة أوس ، فيزعم أن اتصاله بنصارى الحيرة التي دخل ملوكها في المسيحية أوائل القرن السادس المسيحى كان له أثره في خواتمه الأدبية تلمحه في كلامه حين يشرح شيئاً من أدب الاجتماع أو يذكر الفضيلة ، ويقسم بالآلهة ويقول : إن الله منهن أكبر وهي أفكار تحمل فيما يقول طوابع المسيحية . وإن كان لا يدعى أنه اعتنقها كما يقول صاحب شعراء النصرانية . ويعود فيظن أن يكون ذلك ناشئاً من عادة الشعراء في تقليد المذاهب الأدبية المألوفة ، وإن لم يكن لذلك أحياناً صلة بشعور الشاعر . ويختلط عليه الأمر حين يرى في أدب أوس ما يناقض الروح المشهور من تسامح المسيحية في حبه للانتقام وافتخاره بالأخذ بالثأر وفرحه بالحياة الطليقة ومضيه في الهجاء للأعداء وامتداحه للوفاء والإياء وذكره للكرم وغيره من

المناقب التي يتمادح بها دائماً شعراء العصر القديم . قال وأولئك الذين ثبتت
بالفعل اتباعهم للنصرانية لا يتحرفون أيضاً عن المباهاة بتلك المفاخر القديمة ،
وإذاً لا ينبغي اتخاذ هذه الحالة وحدها دليلاً على شيء من وثنية الشاعر أو
مسيحيته ما لم يقم على ذلك دليل آخر من نقل صحيح أو تاريخ ثابت ولا ندرى
ما يحمل كثيراً من المؤرخين على مثل هذه الحيرة وكان خيراً لهم أن يعترفوا ببقاء
بعض الوراثة الدينية القديمة لأنبياء العرب قبل الإسلام كما نبهنا إلى ذلك في
غير هذا المكان .

ويتهم المترجم حديث الرواة عن اتصال أوس بأحد أمراء العرب فضالة
ابن كَلْدَةَ الأَسَدِي وإن كان يسلم بصدق هذه العلة ، ويحتمل أن تكون هذه
الريبة نشأت عنده من صورة الرسالة التي حملتها حَلِيمَةُ بنت فضالة إلى أبيها
حين رآته صريعاً وناقته تجول حوله كما يتبين من القصة الآتية .

اتهام المترجم
لحديث الرواة
عن الضلالة
بين أوس
وبين ممدوحه
فضالة

قال شارح ديوانه الإمام يَعْقُوبُ بن السَّكِّيت : كان من خبر أوس بن
حجر أنه خرج في سفر ، فلما كان بين شَرْجٍ وناظِرَةَ من ديار بني أسد جالت به
ناقته وهو في ظلام فصرعته فاندقت فغذاه وبات في مكانه لا يقدر على شيء من
أمره وغدا جوارى الحى يَجْنِينِ الكَمَاءَ وغيرها من نبات الأرض والناس في
ربيع فَبَصُرْنَ به فِخْفَنَهُ وقرَرن منه ، وأقبلت حليلة بنت فضالة وهي أصغرهن سناً
فسألها عن نسبها ، فانتسبت له ، فتناول حجراً من الأرض وقال لها : اذهبي
فقولى لأبيك ابن هذا يُقَرِّتُكَ السلام ، فانطلقت إلى أبيها فأخبرته فقال لها :
يا بنية لقد جئت أباك بمدح طويل أو بهجاء طويل ثم ارتحل بأهله حتى أتاه
فضرب عليه قبتة ولم يزل يقوم بأمره حتى استقل فكان ذلك سبب ما سنشرحه
في شعر أوس من المديح والثناء للذين هما من خير ما يؤثر من أدبه . والقصة
على هذه الصورة ليست موضعاً للتهمة لأنها لا تحمل أمراً غريباً يمتنع في

العقل أو في العادة حتى يضعها المترجم إلى جانب ما يسـمونه من أخبار العرب بالأساطير^(١).

سترون شعره قوى الديباجة فصيح اللفظ في روعة وغرابة حين ينزع بالقول إلى مذهبه في الوصف فيتناول السلاح ، ويذكر الرمح والسيف والدرع ويعن في صفة القوس فيبدأ بها نبتة لينة وحين تصير عوداً لَدناً ويريك حرصه عليها وما يتجشّمه في طلبها ، وحين يَبْضَعُها من فرعها ، ويحاول إعدادها ، ويمدح غَنَاءَها ورنينها حين يَزِكُّ السهم عنها ، وكذلك يفعل حين يتخلص من الناقة إلى صفة العَيْر الوحشي ويمضي مع هذين إلى ما لا مطمع بعده لقائل حتى جعلوه من أوْصف الناس للسلاح وللحمر والقسي بوجه خاص ، وستقف حين تتأمل كلامه في هذا المذهب على مقدار ما يتكافه من المثونة في تأليف هذه الصورة البارعة .

معانيه
الشعرية
ومذهبه
الخاص به

وتراه يمدح فيأتي في مثل هذه الديباجة بما ينبغي أن يتخلق به الأمير العربي من السّماح والتجّدة والبلوغ بالظن إلى منزلة اليقين من كمال الفطنة وثقوب النظر وهو من خير ما يكون إذ يَرْتِي فضالة بن كَلْدَةَ صاحبه ومُؤْوِيه لا يدع شيئاً من مناقب الشرف إلا عدّه له وآثره به ، ويعتبر مطلع إحدى مرثيته له ، وهو قوله : (أَيْتَهَا النَّفْسُ أَجْمَلِي جَزَعًا) مما لم يُسَبِّق إلى مثله ولم يُلْحَق فيه لتناهيه في الدلالة على عظم المصيبة ، واستشعار اليأس بالدعوة إلى إجمال الجزع

(١) وفي هذه الحادثة يقول أوس :

خُذِلْتُ عَلَى لَيْلَةٍ سَاهِرَةٍ بِصَحْرَاءَ شَرَجٍ إِلَى نَاطِرَةٍ
تُرَادُ لِيَالِيٍّ فِي طُولِهَا فَلَيْسَتْ بِطَلْقٍ وَلَا سَاكِرَةٍ
كَأَنَّ أَطَاوِلَ شَوْكِ السَّيَالِ تُشَكُّ بِهَا مَضْجَعِي شَاجِرَةٍ
أَنْوَاءَ بَرِجْلِي بِهَا دَعِيهَا وَأُعِيَّتْ بِهَا أُخْتَهَا الْعَائِرَةِ

وقلة المبالاة بما يواقعه بعد ذلك من المكروه وهو تعبير مخترع وإن كان معناه طبيعياً يقع في النفس حين تُفدَح بما لا قبيل لها به وتفجع فيما لا خلف منه .
وفي شعره هجاء مصرح في بعض المواضع عن العورة على غير المألوف في الشعر القديم من العفاف عن ذكر السوءات ، وقد يفقد بذلك شيئاً من جودة الكلام وجمال الشعر .

وفيه غزل لا يزيد عن ذكر المرأة في مطالع الكلام يجعلنا لا نميل كثيراً إلى التسليم بما يصنعه له الرواة من شدة كلفه بالنساء والتطلب لإيقاعهن بالتعليق والإغراء ، ويقول مترجم ديوانه إن ذلك قد يكون من أثر الاتباع للقدماء ويخطئ (برون) المؤلف الفرنسي في كتابه : (نساء العرب) إذ يقول : إنه لم يكن لشعره غرض مطلقاً سوى الحب والمرأة ، واللهو بالحديث والشكوى إليها والاحتيال لتصيدها . قال : ونظرة واحدة إلى أشعاره ترينا ما في العالم من ضعف التحقيق ، ويشتمل شعره عدا ما ذكرنا على شيء من مكارم الأخلاق يصف بها نفسه أو يعرضها في صورة النصيحة لقومه ويضع نفسه من قبل أنه شاعر يملك عرفاً فأناً غير طبيعي موضع المقرر لكمال الأدب اللائق بالإنسان في الحياة .

يختلف الرواة في نسبه ويضطربون في أخباره وتصحيح شعره ، فابن قتيبة يقول : إنه أوس بن حجر بفتححتين ابن عتاب ، وغيره يقول : عباب بالياء ، وينقل السيوطي أنه ابن معبد ، وينتهي نسبه على كل حال إلى تميم إحدى القبائل العظيمة من مضر ، ويقول أبو عمرو بن العلاء : كان أوس شاعر مضر في الجاهلية حتى أسقطه النابغة وزهير فهو شاعر تميم غير مدافع ، وفي الأغاني عن أبي عبيدة : أنه من شعراء الطبقة الثالثة وقرن به الحطيئة والنابغة الجعدي ، وفي رواية أخرى عن ابن الكلبي عد معه لبيداً والشماخ بن ضرار ، والذي يشبه الصواب أنه كعدى بن زيد وعبيد بن الأبرص يعتبر من شعراء

نسه

رأى العلماء
في منزله
الأدبية

القبائل الفحول ، وكلهم يصفونه بأنه كان أستاذاً لكثير من الشعراء كالحطيئة والشماخ والأسود بن يعفر وزهير وولده كعب ، وقد تبع الشماخ طريقته في صفة القسي ، واختص زهير بالرواية له والأخذ بمذهبه وإن كان قد فاقه وأخمله كما سبق ، وتلك إشارة صريحة لتقرير المشاهدة المتكررة تتمثلها فيما تراه أحيانا من فضيلة الولد على أبيه وفوق التلميذ على أستاذه .

اضطراب
الرواة في
إسناد شعره
واشتركا
مع أربعة
عشر شاعر
فيما نسب
إليه

ويظهر أيضاً أن تحصيل شعره في الزمن السابق لم يكن ميسوراً لكثير من الحفاظ ، وإن صح أنه جمع في عصر متقدم ، ولذلك اضطربوا فيما نسب إليه اضطرابا تعرفه من اشتراكه مع نحو أربعة عشر شاعراً فيما نسب إليهم من الشعر فمن ذلك بيته في قصيدته التي مطلعها : (هل عاجلٌ من متاع الحى منظور) وهو قوله :

أم هل كبيرٌ بكى لم يفضِ عبرته إثر الأحيّة يوم البين معذور
موجود بعينه في قصيدة علقمة : (هل ما علمت وما استودعت مكتوم)
ولا يختلفان إلا في القافية كما هو ظاهر ، والحائية المروية لعبيد بن الأبرص في السحاب والعاصفة والمطر تنسب أيضاً إلى أوس كما سيأتي ، ويشترك مع طرفة في قصيدة :

أبني لبيني لستم بيدي إلا يد ليست لها عضد

وفي ديوانه أبيات تنسب للنابعة ، وهي التي منها قوله :

ولست بخابي أبداً طعاماً حذار غد ليكل غد طعام

وفي رأيته التي قدمنا مطلعها بيت منسوب لعنترة ، وهو قوله :

تناهقون إذا اخضرت نعالكم وفي الحفيظة أبرام مضاجير^(١)

(١) يريد بقوله : اخضرت نعالكم ما يصيرون فيه من الخصب واللحة . الأبرام :

جح برم وهو اللثيم . مضاجير : الواحد مضجار ، وهو الشديد الضجر لضغفه وجبته .

وقصيدة بتمامها تنسب إليه وهي لكعب بن زهير ، أولها قوله :
رَحَلْتُ إِلَى قَوْمِي لِأَدْعُوَ جُلُومَهُمْ إِلَى أَمْرِ حَزْمٍ أَحْكَمْتَهُ الْجَوَامِعُ

ولزهير :

إِذَا أَنْتَ لَمْ تُعْرِضْ عَنِ الْجَهْلِ وَالْحِنَاءِ أَصَبْتَ حَلِيًّا أَوْ أَصَابَكَ جَاهِلٌ
وصاحب تاج العروس ينسب قوله : (أَيْتَهَا النَّفْسُ أَجْمَلِي جَزَعًا) إِلَى بَشْرِ
ابن أبي خازم وليس بصحيح ، ولأبي الأسود الدؤلي :

شَفِيتَ مِنَ الْإِخْوَانِ مَنْ لَسْتُ زَانِلًا أَدَامِلُهُ دَمَلَ السَّقَاءِ الْمَرْقِ (١)
ولأمرئ القيس :

تَضَمَّنَهَا وَهَمٌّ رَكُوبٌ كَأَنَّهُ إِذَا ضَمَّ جَنْبِيهِ الْمَخَارِمُ رَزْدَقٌ (٢)
وللنمر بن تَوَلَّب :

وَلَوْ أَنَّ مِنْ حَتْفِهِ نَاجِيًا لَكَانَ هُوَ الصَّدَعُ الْأَعْصَمَا (٣)
بِإِسْبِيلٍ أَلْقَتْ بِهِ أُمُّهُ إِلَى رَأْسِ ذِي حُبْكٍ أَيَّهَا (٤)
وللطرمّاح قوله :

تَحْوَرُّ بِالْأَيْدِي إِذَا اسْتَعْجَلَتْ عَدُوًّا عَلَى خِفَّةِ أَجْسَامِهَا (٥)
خَوَارَ غِزْلَانِ لَوِي هَيْئِمٌ تَذَكَّرْتُ فِيئَةً أَرَامِهَا (٦)

(١) الشنأ بفتحين : البفض والكرامة . الدمّل : المداواة .

(٢) يصف ناقة اشتمل عليها طريق واضح وهو الوهم ، وقوله ركوب : معناه مذلل . مطروق . المخارم : واحدها مخرم ، وهو منقطع أنف الجبل . الرزدق : الصنف من الناس والسطر من النخيل وهو معرب ، يشير إلى أن هذا الطريق بين الجبال كأنه سطر ممدود .

(٣) الصدع : الوعل . الأعصم : الذي في يديه يياض .

(٤) أسبيل : غير مصروف أرض أو موضع . الحبك : الطرائق ، الواحد حباك بوزن

كتاب . الأيهم : المبهم . (٥) تحور : تصوت أو تسرع .

(٦) الفيئة : بقية اللبن في الضرع ، والبيتان في صفة القوس .

وبذلك يتبين صواب ما أوردناه في صدر هذه الترجمة من ذهاب كثير من أخباره عن الرواة .

وقبل أن نأخذ في نقد شعره وشرح ما وصفناه من مذاهبه المختلفة نشير في اختصار إلى بعض الآراء الحديثة في أدبه وعلاقته بشعراء عصره .

رأى بعض
علماء العصر
في أدب أوس
وتعرضه
لتخطئة
القدماء

يقول بعض الباحثين : إن أوساً ممتاز عن شعراء الجاهلية بقوة اتصال خياله بحسه حتى لكأنه كان يتخيل بسمعه وبصره ويده ، وأنه اخترع أو على الأقل أكثر من هذه التشبيهات المادية أو الصور المحسوسة من مناظر البادية في شعره وبينى على هذه الدعوى أنه استطاع أن يستخرج مدرسة بيانية من الأدب الجاهلي في شعر أوس بناء على إكثاره من هذه التشبيهات الحسية ، ويعد ذلك تجديداً أدبياً هادماً لرأى القدماء في أن هذه المدرسة البيانية أسسها الشعراء العباسيون من مسلم بن الوليد وتلاميذه إلى أبي الطيب المتنبي ، وقد كنا نرغب أن يعف هذا البحث عن الإلحاح في هدم القديم بمثل هذه المغالطات التي لا يحلّي منها الأدب بطائل ، لأنكم سترون فيما تعرضه من شعر أوس أنه لم يكثر من هذه التشبيهات المادية إلا في وصفه للعرير والقانص من فائية له طويلة وحين يصف السلاح والقوس في لاميته المشهورة ، وما وراء ذلك من رثائه أو مديحه وأهاجيه قلما تظفر منه إلا بالشيء القليل من هذه التشبيهات المذكورة ، وتراك حين تفقد الأدب القديم كله وحين تقرأ منه أبواب الوصف خاصة لا تجد لغير أوس من الشعراء سوى هذه الطبيعة المادية يصفونها ويصورون مناظرها بل وفي غير الأوصاف أيضاً لا يكاد بيت واحد من شعر هذا العصر يتجرد من صورة حسية من طريق الحقيقة ومن طريق المجاز والتشبيه وإنما دارت بهم أساليب الكلام ، والنقاد من العرب ومن غيرهم متفقون على أن أظهر ميزة للأدب الجاهلي هي هذه النقوش المادية التي لا تزال تطبعه بما فيه من البهاء والرونق ، وفي وصف طرفه لناقته وحدها من معلقته تشبيهات حسية ظاهرة الأداة تقارب

أكثر ما لأوس في قصيدتيه المذكورتين ، فمن التحكم الظاهر إيثار شاعر بهذه الميزة على غيره من الشعراء في أمر سواء بينهم . أما ما ترتب على هذه المغالطة من دعوى التغيير أو الهدم لرأى القدماء فهو أيضاً كلام قليل الحظ من التوفيق ، إذ المدرسة البيانية بمعنى ما تحمله هذه الصفة من الدلالة على أساليب التشبيه والمجاز لم يقل أحد من القدماء إنها من عمل الشعراء العباسيين ولا أن مؤسسها مسلم بن الوليد وتلاميذه ، وكل ما عند القدماء أن الشعر تأثر في العصر العباسي بمعان حضرية جديدة تطرّف الشعراء بالإكثار من وصفها وعرضها في صور شتى من الاستعارة والتشبيه كوصف الأبنية ومجالس الشراب ، وذكر السقاة والندمان وأوصاف القيان ، وآلات الغناء وسائر ما تجدد لديهم من آثار الحضارات العلمية والصناعات المختلفة ، وأنهم ولعوا بتوليد أنواع كثيرة من المحسنات الكلامية التي سماها العلماء بعد بفن البديع ، وهم في النهاية يخيفون إلى مسلم وأتباعه تكوين هذه المدرسة البديعية لا البيانية كما يزعم هذا الرأي مع تسليمهم بأن شيئاً من هذه الأنواع وجد أيضاً في العصور السابقة في القرآن والشعر وحتى في الأدب الجاهلي ، وإن كان المقصود من المدرسة البيانية في هذا المذهب ما يصح أن يتناول فنون البلاغة أو يتناول البيان والبديع على الأقل فليس فيما اتخذه الباحث من كلام أوس ما يساعد على تحقيق هذا الاستنباط الجديد لأن التشبيهات المادية وغير المادية كثرت أو قلت لا تخرج عن أن تكون مبحثاً لهذا الفن البياني بمعناه الاصطلاحي عند العلماء وإذا لا وجه لهذه المحاولة الأخرى على ما يظهر سوى مجرد الرغبة في الحملة على القديم .

ويتصل بهذا الرأي بحث آخر في الموازنة بين شعر امرئ القيس في البرق والسحاب والغيث ، وبين الحائية المشتركة بين أوس وعبيد بن الأبرص ، وقد قدمنا أنها أشبه بعبيد ، وأن لها أمثالا في شعره ومن مذهبه الخاص به ، وليس لها نظير في شعر أوس ولا هي مما يتصل بمذهبه الذي برع فيه ، وهو عندهم

ظهور
التحامل
في
الموازنة
بين
امرئ القيس
وأوس

صاحب سلاح وحروب جعلت في هذا البحث دليلاً جديداً على إكثار أوس من التصوير الحسى في شعره ، واقتصر في هذه الموازنة على خمسة أبيات فقط من شعر امرئ القيس تعمد أو أغفل ما وراءها من الصور الحسية الكاملة التمثيل وقابلها من الحائية بعشرة أبيات ، ونحن نعرض القطعتين ونحصى ما فيهما من التشبيهات ونزن ما اشتملتا عليه من المعاني .

يقول امرؤ القيس من المعلقة :

أَصَاحَ تَرَى بَرَقًا أَرِيكَ وَمِيضَةً	كَمَعَ الْيَدَيْنِ فِي حَيٍّ مُكَلَّلٍ
يُحْيِي سِنَاهُ أَوْ مَصَابِيحُ رَاهِبٍ	أَمَالَ السَّلِيطَ بِالذُّبَالِ الْمُفْتَلِّ
قَدَدْتُ وَأَصْحَابِي لَهُ بَيْنَ ضَارِحٍ	وَبَيْنَ الْعُدَيْبِ بَعْدَ مَا مُتَّامِلٍ
فَأَضْحَى يَسُحُّ الْمَاءَ حَوْلَ كُتَيْفَةٍ	يَكْبُ عَلَى الْأَذْقَانِ دَوْحَ الْكَنْهَبِلِ
وَتِيَاءٍ لَمْ يَتْرُكْ بِهَا جِذْعَ نَخْلَةٍ	وَلَا أَطْمًا إِلَّا مَشِيدًا يَجْنَدِلِ
عَلَى قَطَنِ بِالشَّيْمِ أَيْمَنُ صَوْبِهِ	وَأَيْسَرُهُ عَلَى السَّتَارِ فَيَذْبُلِ
فَأَلْقَى بِصَحْرَاءِ الْغَبِيطِ بَعَاغَهُ	نُزُولَ الْيَمَانِيِّ ذِي الْعِيَابِ الْمُحْتَمَلِ
كَأَنَّ ذُرَى رَأْسِ الْمَجِيمِ حَوْلَهُ	مِنَ السَّيْلِ وَالغُثَاءِ فَلَكَّةٌ مِغْزَلِ
كَأَنَّ ثَبِيرًا فِي عَرَانِينِ وَبِلِهِ	كَبِيرُ أَنْاسٍ فِي بِحَادٍ مَزْمَلِ
كَأَنَّ مَكَارِكِي الْجَوَاءِ غُدِيَّةٌ	صُبْحَنَ سَلَاةً مِنْ رَحِيْقٍ مُفْلَقَلِ
كَأَنَّ السَّبَاعَ فِيهِ غَرَقَى عَشِيَّةٌ	بَارِجَانِهِ الْقُصْوَى أَنْابِيَشُ عُصْلِ

وقال أوس :

يَا مَنْ لِبَرْقِ أَيْتِ اللَّيْلِ أَرْقُبُهُ	فِي عَارِضِ كِبْيَاضِ الصُّبْحِ لَمَّاحِ
دَانَ مُسِفٍ فُوقَ الْأَرْضِ هَيْدَبُهُ	يَكَادُ يَدْفَعُهُ مِنْ قَامٍ بِالرَّاحِ
كَأَنَّمَا بَيْنَ أَغْلَاهِ وَأَسْفَلِهِ	رَيْطٌ مُنْشَرَّةٌ أَوْ ضَوْءٌ مِصْبَاحِ
يَنْبِي الْحَصَاعِنَ جَدِيدِ الْأَرْضِ مُبْتَرِكًا	كَأَنَّهُ فَاحِصٌ أَوْ لَاعِبٌ دَاحِ

كَانَ رَيْقُهُ لَمَّا عَلَا شَطِيبًا أَقْرَابُ أَبْلَقَ يَنْفِي الْخَيْلَ رَمَاحِ
 كَانَ فِيهِ عِشَارًا جِلَّةً شُرْفًا شُعْنًا لَهَا مِيمَ قَد تَهَمَّتْ بِإِزْشَاحِ
 بُجَا حَنَاجِرُهَا هُدَلًا مَشَافِرُهَا تُسِيمُ أَوْلَادَهَا فِي قَرَقَرِ ضَاحِي
 هَبَّتْ جَنُوبٌ بِأَوْلَاهِ وَمَالَ بِهِ أَعْجَازُ مَزْنٍ يَسُحُّ الْمَاءَ دَلَّاحِ
 فَأَصْبَحَ الرَّوْضُ وَالْقِيَعَانُ مُتْرَعَةً مِنْ بَيْنِ مُرْتَفِقِي مَنَاهَا وَمُنْتَطَاحِ

فترى أن امرأ القيس ذكرسته من التشبيهات الحسية الظاهرة الأداة
 بالكاف تارة وكأن تارة أخرى ، وكذلك فعل أوْس ولم يزد ، وما وراء ذلك
 في القصيدتين صور مادية أخرى سنشرحها لك ، فقد تناول امرؤ القيس البرق
 فوصف وميضه وهو حركته والتماعه ، وشبهه في سرعة خطفه بحركة اليدين
 وهو في خلال السحاب المكمل الذي يبدو بطيئاً ثقيل المرْكأنه يحبو لشدة حَفْله
 بالماء ، ثم شبه ظهوره وضوءه بمصاييح الراهب مُيميل الزيت على الفتيل
 فيندلِعُ اللهبُ بقوة ثم يعود فيخبو ، وأنه قعد له في أصحابه يتأملونه بين العذيب
 وضارج ، فإذا هو يتدفق بالماء حول كتيفه ، وأتى بهذه الاستعارة الفاخرة اللفظ
 البارعة الصورة في صنيع السيل بعظام الأشجار من اقتلاعها من أصولها وطرحها
 على أعاليها ، وأنه لم يترك بتياء جذع نخلة إلا قصفه ، ولا بيتاً إلا أتى بنيانه من
 قواعده ، إلا ما كان مشيداً بالجندل من الصخر ، ثم مدّ مسافة انسكابه ، فجعل
 أيمن صوبه على قطن وأيسره على الستار ويدبل ، وهي أما كن متنائية ،
 وأنزل أثقال السحاب من الماء بصحراء الغبيط فأنق نباتها ، وزهت ألوان
 نورها بما يشبه ما في تلك العيَاب اليمانية من البرود والمتاع وأطاف بذرى
 جبل المُجَيِّمِ ، فإذا السيل يدور حولها بما احتمله من الغناء كما تدور
 فلَكة الغزل ، ثم نظر إلى مكان ثبير وجثومه على ظهر الصحراء ، والسيل يأخذه
 من نواحيه ، ويرسم في جوانبه مدارج انحداره ، كذلك الشيخ الملقف في بجاده
 المخطّط تمثيلاً لما يترآه النظر لدى امتداده من عمل السَّيْلِ في رعوس البيوت

وجوانب الجبال ، وانتهى بالإشارة إلى إقلاعه وهدوء انسجامه بما وصفه من خروج الطيور لاجتلاء ذلك الصفو الخالص من الطبيعة مما تشعر به الأحياء كلها بعد المطر كأنه غَسُول لما بين السماء والأرض تتحرك بعده الحياة جميعاً فيطيب الهواء ، ويتفتح الزَّهْرُ ، وتَشَخَّصُ الأَبْصَارُ إلى معالم الوجود تَعْجَبُ لها كيف صارت ضاحكة مُخَضَّةً بعد بكاء السماء . هنالك ترى هذه الطيور وهي المكاكي تتصايح في الفضاء وتتخالع في الطيران ، ولا يزال طائر منها يقع على طائر ، أو يهوى كالذي يسقط على الأرض ثم يعود في هذه النشوة فيستقل على الهواء ، وتصنع الشَّالَفَ من الرَّحِيقِ صَنِيفَةً به ، فيرسل إلى نواحي الجوّ من أغاريد الخُوفِ ، ما يَقْرِي النُّفُوسَ متاعاً ، والآذانَ سماعاً ، ذلك الخيال المتباعد في السموّ عن أذهان الشعراء ، وتلك الصورة التي يعيا بتَهْوِيلِهَا الحُدُوقُ من المثالين يجلوها الشاعر مثل قلادة الحسناء في نَسَقٍ من الكلمات الآخذة بحاجتها من العذوبة والظرف ، ولم يكفه أن تكون الغداة وهي أول شبابِ النَّهَارِ كما هي في جمال لفظها ومعناها حتى ألبسها ملاحظةً جديدةً بهذا التصغير الواقع في موقعه وجاء معها بالصَّبُوحِ والشَّالَفِ والرَّحِيقِ ، وجعل قافية البيت بمنزلة الطَّرَازِ إلى ما في معناها من كمال لذة السَّالَفِ ، وهو شبيه بما تناوله القرآن من وصف رحيق الجنة حين يقول : (وَيُسْقَوْنَ فِيهَا كَأْسًا كَانَ مِزَاجُهَا زَنْجَبِيلًا) ، ثم أتى في ختام كلامه بالدليل الحسى على تطبيق السيل واستبحار المطر باستعلائه فوق آجام السباع حتى غرقت في لجته ، وَطَفَّتْ رُءُوسُهَا فِي بَعِيدِ أَرْجَائِهِ ، وقد بدا من شعورها الثائرة ما هو كرهوس ذلك النبات البرى ، وهي أيضاً صورة حسية في مكانها من الجودة وجمال الخيال ، وندع الآن هذا التمثيل الكامل لِأَبْهَرِ مَنَاطِرِ الطَّبِيعَةِ لِنَعُودَ إِلَى أَوْسٍ ، فتراه يذكر البرق وضيأؤه يملأ الأفق من خلال العارض ، ويتدارك التشبيه بقوله لَمَّاحٌ لِلدَّلَالَةِ عَلَى خَطْفِهِ وَسُرْعَةِ انْقِطَاعِ ضِيَائِهِ ، ثم يصف هَيْدَبَ السَّحَابِ المثلث منه دانياً فُوَيْقَ

تحليل قصيدة
امرئ القيس

الأرض مبالغاً في الإسفاف والمقاربة حتى يكاد من قام على قدميه يدفعه بيديه ،
وهي صورة بديعة نادرة على قوّة نظمها ، وجمال عبارتها ، ويصف ما ينبسط من
سنا البرق على جوانب السحاب بألوان تلك الثياب المنشرة أو بما يسطع من
ضياء المصباح ، ويتناول انسكاب الماء منه فيجعله في إثارة الحصى عن جديد الأرض ،
وشدة ثقوبه لسطحها كالفاحص الذي يثير الأرض لبناء أفاحيص القطا أو كالذي
يلعب بالأداحي ويذكر ريقه حين علا شطبا ، فيجعله كخاصرة الحصان الأبلق
تعدو خلفه الخيل وهو يرّمحها برجليه تمثيلا لما يتلاحق ، وينفصل من كسيف
السحاب ثم يعود مكانه فيركب ما قبله ، ويجعله ثانية في تتابع ركامه ،
وتعاضم أجرامه كالإبل الشعث الأمام في فصاها القوية ، ويمضي معها فينشرها
على تلك الأرض الضاحية ، ويتخذ من حناجرها ذلك الصوت الأجلج ، ومن
هدل مشافرها تلك القطع السود المتدلّية من أهداب السحاب ، ثم يرجع إلى
مساقطه فيبي المدخل إليها بسوق الجنوب لأولاه ، وسقوط أعجازه بالماء الغزير
المنهمر حتى أصبحت الرياض غدقة والقيعان مترعة . ما احتبس فيه الماء
وما سال منه سواء ، فترى بعد هذا أن الشاعرين اشتركا في صفة البرق
والمطر والسحاب ، وزاد أوس معناه في بيته الثاني وهو أبرع صورة وأعلاها ،
وكذلك تشبيه البرق بأقرب الأبق وما جاء بعده من حناجر الإبل ومشافرها
في بيته السادس . وصنيع الجنوب بأولاه في آخر كلامه ، فتلك أربعة معان
لم يتناولها بذاتها شعر امرئ القيس ، ولكنك تراه أتى مكانها بصورة مجلسه
في أصحابه يتأملون ما يبهر النظر من رواء الطبيعة ويرون اتقلاع الدوح
وسقوطها على أذقانها وما عمّل السيل بجذوع النخل ، وأبنية البيوت ، ويصف
إلقاء السحاب بعاغه بصحراء الغبيط فيما ظهر من ألوان النبات المشابهة في
حمرتها وصفرتها واخضرارها لهذه الأبراد والحبر اليمانية ويعرض صورتين
من مناظر الجبال . رأيت كيف كانتا في موقعهما مكملتين لتمثيل هذا الأفق

من سائر جهاته ، ثم يترفع عن معاني العامة بما يصفه من جمال الطبيعة حين تكون الطيور نشوى بصبوح الشلاف ، وتلك الصورة الأخرى من غرق السباع في إرجاء السيل ، فهذه سبعة معان لم يتناولها كلام أوس ، وهي تعطيك صورة ناصعة كاملة التكوين للبرق والمطر والسحاب على الجبال والصحراء ، والشجر والنخيل والسباع والإنسان ، وقد ترون بعد هذا أن أوساً كان حتماً دقيق التصوير ، قوى الانفعال في وصف السحاب والبرق ، ولكن أماً القيس كان أدق منه وأبلغ في إحاطة تصويره بهذا الأفق الطبيعي من جميع أقطاره ، فهو من قبل أساس الدعوى وهي الإكثار من الصور الحسية ، ومن قبل سبقه إلى هذه المعاني أستاذ أوس وغيره كما يقول القدماء ، ولكي تعلموا أن الاعتماد على التصوير المادي في هذا العصر كان سبيل غير الشعراء من عامة العرب ، نذكر لكم القصة الآتية .

ذكر صاحب الأغاني عن شيوخه قال : خرج أعرابي مكفوف مع ابنة عم له في غنم لهما وبينهما يرعيانها :

رأعية
تصف السماء
والسحاب

قال الشيخ : إني أجد ریح النَّسِيمِ قد دنا فارفعي رأسك فانظري ، فقالت كأنها « تعني السماء » : رَبَّ رَبِّ مِعْزَى هَزَلِي . فقال أرعني وأخذري ، وبعد ساعة قال : إني أجد ریح النَّسِيمِ فارفعي رأسك وانظري ، قالت : كأنها بغال دهم تجرُّ جلالها ، فقال : أرعني وأخذري . ثم قال : إني أجد ریح النَّسِيمِ فانظري ، فقالت : كأنها بطن حمار أحمر ، فقال لها : أرعني وأخذري ، ثم قال : إني أجد ریح النَّسِيمِ ، فانظري فقالت :

دَانِ مُسِفٍ فُوقَ الْأَرْضِ هَيْدِبُهُ يَكَادُ يَدْفَعُهُ مَنْ قَامَ بِالرَّاحِ

فقال الشيخ : انجبي لا أبالك ! فما اتقضى كلامه حتى هطلت السماء ، فقد رأيتم كيف صورت رأعية الغنم أوائل هوائى السحاب في صغر قطعها وتواليها

وألوانها بجماعة المعزى الهزلى ، ثم عادت فجعلتها في سوادها وتعاضم قطعها كالبنغال الذهب التي تجرّ جلالها ، ثم رأته بعد حين في اختلاط عبرته بحمرة خفية مع قليل بياض كبطن الحمار الأصغر ، ثم انتهت إلى ذكر إسفافه وتدانيه كما فعل أوس ، ولعلكم بعد ذلك لا تجدون كلفة في تقدير ما ينطوى عليه ذلك البحث في جملة من المغالطة ، فلنتركه الآن إلى شعر أوس وشرح ما أثبتناه من مذاهبه الأدبية مبتدئين بشعره في الوصف . يقول من قصيده فائية طويلة مطلعها :

تَنَكَّرَ بَعْدِي مِنْ أُمِّيَّةٍ صَائِفُ فَبِرِّكَ فَأَعْلَى تَوَلَّبِ فَاَلْمَخَالِفِ (١)

وبعد ما عدد ما تنكر من معاهدها الأخرى أشار ولم يطل إلى حالة من لذات صباه مع ظعان اللهو المساعفات المودة إذ يقول :

وَقَدْ أَنْتَجِي لِلْجَهْلِ يَوْمًا وَتَنْتَحِي ظِعَانُ لَهْوٍ وَدُهْنٌ مُسَاعِفِ (٢)

نَوَاعِمُ مَا يَضْحَكُنَ إِلَّا تَبَسُّمًا إِلَى اللَّهِ وَقَدْ مَالَتْ بِهِنَّ السَّوَالِفِ (٣)

ثم عاوده الحلم بعد الجهل ، وثابت نفسه إلى النظر الصادق من تصرف الحياة ولحوق الفناء للنفوس مهما تحرّست بالأبواب واعتصمت بالحصون فقال :

وَلَوْ كُنْتُ فِي رَيْمَانَ تَحْرُسُ بَابَهُ أَرَا جِيلُ أَحْبُوشٍ وَأَغْضَفُ آفِ (٤)

إِذَا لَأَتَّنِي حَيْثُ كُنْتُ مَنِيَّتِي يَحْبُّ بِهَا حَادٍ لِإِثْرِي قَائِفِ (٥)

فَإِنْ يَهُوَ أَقْوَامٌ رَدَايَ فَإِنِّي يَتَّقِينِي الْإِلَهُ مَا وَقَى وَأَصَادِفُ

القصيدة
الفائية

(١) صائف وبرك وتولب والمخالف : كلها أما كن لصاحبه أميمة .

(٢) الظعان : جمع ظعينة ، وهي المرأة في الهودج . (٣) السوائف : جمع سالفة ،

وهي جانب العنق . (٤) ريمان ، في المعجم للبكري : هو حصن منيع له باب واحد ،

وفي غيره من كتب اللغة أنه موضع . الأراجيل : الجماعة من الرجال . الأحبوش : الناس من

القبائل المختلفة . الأغضف : الآلف . يريد به الكلب الملازم للباب . الغضف بفتحين :

استرخاء الأذنين . (٥) الحب : الإسراع . القائف : المتيم للأثر .

وبعد ذلك مضى إلى الناقة فجعل يصفها على مثل طريقة طرفة . من
أول قوله :

وَأَدْمَاءٌ مِثْلَ الْفَحْلِ يَوْمًا عَرَضَتْهَا لِرِخْلِي وَفِيهَا جُرْأَةٌ وَتَقَاذِفُ
حتى بلغ إلى تشبيهها بالغير الوحشي وبدأ يصف هذا العير . وتناول معه
القانص . وتأنق فيها ما شاء . قال :

كَأَنِّي كَسَوْتُ الرِّخْلَ جَأْبًا مُكَدَّمًا لَهُ بِجَنُوبِ الشَّيْطَانِ مَسَاوِفُ (١)
يُصْرَفُ حَقَبَاءُ الْعَجِيزَةِ سَمَّحَجًا بِهَا نَدَبٌ مِنْ زَرِّهِ وَمَنَاسِفُ (٢)
وَأَشْرَفُ فَوْقَ الْحَالِبِينَ الشَّرَاسِفُ وَأَشْرَفُ فَوْقَ الْحَالِبِينَ الشَّرَاسِفُ
فَأَنْحَى بِقَارَاتِ السَّتَارِ كَأَنَّهُ رَيْبَةٌ بِجَيْشٍ فَهُوَ ظَمَانٌ خَائِفُ
يَقُولُ لَهُ الرَّاهُونَ هَذَاكَ رَاكِبُ يُؤَبِّنُ شَخْصًا فَوْقَ عَلِيَاءِ وَاقِفُ
إِذَا اسْتَقْبَلَتْهُ الشَّمْسُ صَدَّ بِوَجْهِهِ كَمَا صَدَّ عَنْ نَارِ الْمُهْوَلِ حَالِفُ
تَذَكَّرَ عَيْنًا مِنْ غَمَّازَةٍ مَاوُهَا لَهُ حَبَبٌ تَسْتَنُّ فِيهِ الزَّخْرِفُ
فَأَوْرَدَهَا التَّقْرِيبُ وَالشَّدُّ مَنَهَلًا يُوَبِّنُ شَخْصًا فَوْقَ عَلِيَاءِ وَاقِفُ

وصف حمار
الوحش

ثم بدأ يذكر القانص ويصف ناموسه وتوحشه ومحاولته لاختلاس الصيد
وإخفاقه في ذلك ويذكر تلهفه قال :

فَلَاقَى عَلَيْهِ مِنْ صُبَاحٍ مُدَمَّرًا لِنَامُوسِهِ مِنَ الصَّفِيحِ سَقَائِفُ

(١) الجأب : الغليظ من الحجر . المكدم : العضض من الكدم وهو العض . الشيطان
بياء مشددة مكسورة : اسم موضع . المساوف : مواضع أبوال الحجر ، وهي من السوف ،
ومعناه الشم ، والواحدة مساف ، ومنه قيل لغاية الطريق مسافة لأن الدليل كان يشم ترابها .
(٢) الحقباء : من الحقب بالفتح ، وهو اليباض . السمحج : الطويلة . الندب بفتحين :
أثر الجرح . الزر : الضرب . المناسف : من النسف . يقول : ينسفها بضمه يريد بعضها
أيضاً ، وفي بعض الشروح : يروى مكان (جأباً مكدماً) (أحطب قارحاً وأحطب قارباً) .

وصف
القاص

صَدِّ غَاثُ الْعَيْنَيْنِ شَقَّ لَحْمَهُ سَمَاءٌ قَيْظٌ فَهُوَ أَسْوَدُ شَاسِفٍ
أَزْبُ ظُهُورِ السَّاعِدَيْنِ عِظَامُهُ عَلَى قَدَرِ شَنْنِ الْبَنَانِ جُنَادِفٍ
أَخُو قُتْرَاتٍ قَدْ تَيَقَّنَ أَنَّهُ إِذَا لَمْ يُصِيبْ لِحْمًا مِنَ الْوَحْشِ خَاسِفٍ
مُعَاوِدُ تَأْكُلِ الْقَنِيصِ شِوَاؤُهُ مِنَ اللَّحْمِ قُضْرَى رَخِصَةً وَطَفَاطِفٍ
قَعْبِيٌّ مَبِيتِ اللَّيْلِ لِلصَّيْدِ مُطْعَمٌ لِأَسْهَمِهِ غَارٍ وَبَارٍ وَرَاصِفٍ
فَيْسَرُ سَهْمًا رَاشَهُ بِمِنَاكِبِ ظَهَارِ لُؤَامٍ فَهُوَ أَتَجَفُّ شَارِفٍ
فَأَمَّهَلَهُ حَتَّى إِذَا مَا كَانَهُ مُعَاطِي يَدِي فِي لُجَّةِ الْمَاءِ غَارِفٍ
وَأَرْسَلَهُ مُسْتَتِقِينَ الظَّنَّ أَنَّهُ مُخَالِطٌ مَا تَحْتِ الشَّرَاسِيفِ جَائِفٍ
فَرَّ النَّخْبِيُّ لِلذَّرَاعِ وَنَحْرِهِ وَاللَّمُوتِ أَحْيَانًا عَنِ النَّفْسِ صَارِفٍ
فَعَضَّ بِإِبْرَاهِيمَ الْيَمِينِ نَدَامَةً وَكُفَّ سِرًّا أُمَّهُ وَهُوَ لَاهِفٌ

التحلى : النع . ويراد منه هنا منعها من الماء . وأحقت : هزلت .
والحالبان : عرقان يصلان من الكليتين إلى المثانة . والشراسيف : جمع
شُرُوف ، وهو طرف الضلع ، والقارات : جمع قارة ، وهي جبال صغيرة ،
والستار : جبل . والرَيْثَةُ : الطليعة ، وقوله يُؤْبِن : معناه ينظر ويتبين .
والمهول : الحلف .

وكانوا إذا أرادوا استحلاف شخص أوقدوا ناراً^(١) وألقوا فيها ملحاً خفية

أشهر نيران
العرب

(١) وهي إحدى نيران العرب ، ومنها نار القرى ، وهي أهمها وأعظمها عندهم ، وقد
كانوا يضعون فيها الندل ، وهو عطر تفوح منه رائحة شذية يتهدى بها من لم ير الدار ،
ومنها أيضاً نار الحرب يوقدونها ليلًا على جبل لتجتمع العشائر المختلفة ، ونار الزحفين وهي
نار العرفج يزحف المصطلي إليها ، فإذا اشتدت زحف عنها ، ومنها نار الاستمطار ، وهي
نار يوقدونها عند احتباس المطر يجمعون البقر ، ويعقدون في أذنانها وعراقيبها السلع والعشر
وهما نبات أو شجر ، ثم يشعلون بها النار يزعمون أن ذلك من أسباب المطر ، وهي
من خرافاتهم .

يهولون بذلك على الخالف . وُعْمَازَةٌ عين لبني تميم . والحبيب ، والحباب : كسحاب
معظم الماء أو طرائقه أو فقايقه التي تطفو كأنها القوارير . والزخارف :
واحدتها زُخْرُفٌ ، وهي مناظر الماء أو طرائقه أيضاً . والتقريب ، والشد :
ضربان من السير ، ويريد بكَرَّةِ القَطَا إلى الوِرْد أن يصف المنهل بغزارة الماء
فلا تنقطع عن ورده الطير . صُبَّاحٌ غير مصروف : اسم قبيلة ، والمدمَّر : القانص
لأنه يهلك الصيد والناموس بيت الصائد . والصفيح : حجارة عراض رقاق .
أزْبٌ : كثير شعر الساعدين ، والشَّئْنُ الفليظ . والجُنَادِفُ : القصير المجتمع .
والقُتْرَاتُ : واحدتها قُتْرَةٌ ، وهي النَّامُوسُ أو بيت الصائد كما سبق . وخاسف :
هالك . والقُصْرَى : كُبرى القُصَيْرَى ، وهي ما يلي الكَشْح . والطَّنَاطِفُ :
أطراف الأضلاع . وقَصِيٌّ : مَبِيْتُ اللَّيْلِ ، معناه أنه يبيت دائماً بعيداً عن أبيات
الحى ، والغارى : الطالى بالغراء ، والرَّاصِفُ : من الرصف ، وهو شد صدر
السهم بالرَّصْفَةِ ، والمناكب : أرياش أربعة ، والألْوَامُ : الملتئمة المتداخلة القُدُذُ ،
والظُّهَارُ : الخارجة البادية ، وقوله حتى إذا ما كأنه اختلف الشراح في تأويله
وخلاصة الكلام على ما فسره ابن السكيت حتى إذا ورد كأنه البيت ويكون
فعل إذا متروكاً ، والجائف : البالغ إلى الجوف ، والنَّضِيُّ : السهم قبل أن
يُرَاشَ ، ويريد أنه أفلت منه ولم يصبه فجعل يتبرم ويُلَهْفُ أمه ، أى يقول :
والهف أمه سرّاً ! حتى لا تسمعه بقية الوحش فتفر من صوته .

وترويه في هذا الوصف البليغ دقيقاً متبعاً يكاد يحيط بكل ما يليق وضعه
لإبراز الصورة الكاملة للموصوف ، وستجدونه يحدو قصيدته الآتية على هذا
المثال ، وَيُبْدِعُ في هذا المذهب الآخر من وصف السلاح والقوس ما شاء ، وقد
تناول في مُفْتَحِ القصيد ذكراً للمرأة وأسرع منها إلى شيء من الأخلاق ،

ودخل بعد ذلك في الوصف للأسلحة ، وجعل ختامها كالسبب لاستعداده وتحصنه

بهذه الآلات ، وعطف على بعض ما امتحن به من طبائع الناس قال :

صَحَا قَلْبُهُ عَنِ سَكْرَةٍ وَتَأْمَلًا وَكَانَ بِذِكْرِي أُمَّ عَمْرٍو مُوَكَّلًا
وَكَانَ لَهُ الْحَيْنُ الْمَتَّاحُ حُومَلَا وَكُلُّ أَمْرِي رَهْنٌ بِمَا قَدْ تَحَمَّلَا
أَلَا أَعْتَبُ ابْنَ الْعَمِّ إِنْ كَانَ ظَالِمًا وَأَغْفِرُ عَنْهُ الْجَهْلَ إِنْ كَانَ أَجْهَلَا
وَإِنْ قَالَ لِي مَاذَا تَرَى يَسْتَشِيرُنِي يَجِدُنِي ابْنَ عَمٍّ مِخْلَطَ الْأَمْرِ مِزِيلَا
أَقِيمُ بِدَارِ الْحَزْمِ مَا دَامَ حَزْمُهَا وَأُخْرٍ إِذَا حَالَتْ بِأَنْ أَحْوَلَا
وَأَسْتَبْدِلُ الْأَمْرَ الْقَوِيَّ بِغَيْرِهِ إِذَا عَقَدُ مَاؤُونِ الرَّجَالِ تَحَمَّلَا

لا مبتسمة
المفهورة

ثم أخذ يصف السلاح إذا صرحت الحرب عن ناب أعصل منقوس من

الشر ، وبدأ بالرمح حين يقول :

وَإِنِّي أَمْرٌ وَأَعَدَدْتُ لِلْحَرْبِ بَعْدَمَا رَأَيْتُ لَهَا نَابًا مِنَ الشَّرِّ أَعْصَلَا
أَصَمُّ رُدَيْنِيًّا كَانَ كَعُوبِهِ نَوَى الْقَسْبِ عَرَاصًا مَرْجِيًّا مُنْصَلَا
عَلَيْهِ كَمِصْبَاحِ الْعَزِيزِ يَشْبُهُ لِفِضْحِهِ وَيَحْشُوهُ الذُّبَابُ الْمُفْتَلَا

وصف
الأسلحة
العريضة
«الرمح»

وثنى بالدرع في قوله :

وَأَمَلَسَ صَوْلِيًّا كَنِهِي قَرَارَةَ أَحْسَنَ بَقَاعِ نَفْجِ رِيحٍ فَأَجْفَلَا
كَأَنَّ قُرُونِ الشَّمْسِ عِنْدَ ارْتِفَاعِهَا وَقَدْ صَادَفَتْ طِلْعًا مِنَ النَّجْمِ أَعْزَلَا
تُرَدُّ فِيهِ ضَوْءُهَا وَشُعَاعُهَا فَأَحْصِنُ وَأَزِينُ لِأَمْرِي إِنْ تَسَرَّ بَلَا

الدرع

وعدل إلى السيف :

وَأَبْيَضَ هِنْدِيًّا كَانَ غِرَارَهُ تَلَالُأًا بَرَقَ فِي حَبِي تَهَلَّلَا
إِذَا سُلَّ مِنْ غِمْدٍ تَأْكَلُ أَثْرَهُ عَلَى مِثْلِ مِسْحَاةِ اللَّجَيْنِ تَأْسُكَلَا
كَأَنَّ مَدَبَّ النَّمْلِ يَتَّبِعُ الرُّبَا وَمَدْرَجَ ذَرٍّ خَافَ بَرْدًا فَأَسْهَلَا

السيف

على صَفْحَتَيْهِ بعد حينٍ جِلَّاتِهِ كَفَى بِالَّذِي أُبْنِي وَأُنْعَتُ مُنْصَلًا

تحليل
الآيات

فتراه يذكر صحوه من سكرته بحب أم عمرو بعد أن كان يرى الموت في فراقها وتحمل حمولها ، ثم أشار إلى رأيه في أهله وابن عمه من قبوله لمعاتيهم وغفرانه لزلاتهم وإخلاصه النصيح لهم ، وأنه مَخْلَطٌ مَزِيلٌ أى عارف بـمداخل الأمور ومخارجها ، وأنه لهذا وغيره لا يرضى بغير الحزم في الإقامة والتحول ، وفي قدرته تدليل القوى الشديد من الأمور ، عند ما تنحل وتائق القلوب من المأفونين الضعفاء من الرجال .

الأعصل : الملتوى ، الأصم : الرمح . والكعوب عُقْدُ الأنايب ، القسب : التمر اليابس جعل كعوبه كهذه النوى لضمورها وصلابتها ، العراض : المهتز . يَشُبُّهُ : يُشْعِلُهُ . الفصح : عيد من أعياد النصارى . والأملس : الناعم ، وهو اللزج .

والنهي : بكسر النون الغدير إذا أجفل من الريح نشأت على صفحته حلقات صغيرة بيضاء لامعة قشبه السرعة ، والطلع : المكان المرتفع ، والنجم : النبات ، والأعزل : المتجرد . والغرار : الحد . والحبي : السحاب ، الأثر بالضم والفتح : الروتق : الفرند ، والمسحاة : التي تُبْرَدُ بها الفضة كالْمُبْرَد .

ثم وصف ما يتموج ويلتمع على صفحتي السيف من روتقه حين تتأمله العين صاعداً منحدرًا كأنه ديب نمال صاعدة يقابله مدارج ذرّ هابطة ، وهي صورة واضحة لما يلقى الضوء على جانبي المعدن المجلو ، وخاصة إذا كان من الحديد ، وهو في الغالب طبيعة الصدا ، وقوله تأكل أثره : توهج واشتد بريقه لما يخيل لك من تداخل أجزائه بعضها في بعض ، وصار بعد ذلك إلى القوس فأطال وأدق وأبدع إذ يقول :

وَمَبْضُوعَةٍ مِنْ رَأْسِ فَرْعٍ شَطِيطَةٍ
عَلَى ظَهْرِ صَفْوَانٍ كَانَ مُتُونَهُ
يُطِيفُ بِهَا رَاعٍ يُجَسِّمُ نَفْسَهُ
عَلَى خَيْرِ مَا أَبْصَرَتْهَا مِنْ بِنَاعَةِ
فُؤَيْقٍ جَبِيلٍ شَامِخِ الرَّأْسِ لَمْ تَكُنْ
فَأَبْصَرَ أَلْهَابًا مِنَ الطُّودِ دُونَهُ
فَأَشْرَطَ فِيهَا نَفْسَهُ وَهُوَ مُعْصِمٌ
وَقَدْ أَكَلَتْ أَظْفَارُهُ الصَّخْرَ كَلْبًا
فَمَا زَالَ حَتَّى نَالَهَا وَهُوَ مُشْفِقٌ
فَلَمَّا قَضَى مِمَّا يُرِيدُ قَضَاءَهُ
أَمَرَ عَلَيْهَا ذَاتَ حَدٍّ غُرَابُهَا
عَلَى فَخِذَيْهِ مِنْ بُرَايَةِ عَوْدِهَا
فَجَرَّدَهَا صَفْرَاءَ لَا الطُّولُ عَابَهَا
كَتُومٌ طِلَاعُ الْكَفِّ لَادُونَ مَلْئَهَا

بِطُودٍ تَرَاهُ بِالسَّحَابِ مُجَلَّلًا^(١)
عُلَانٍ بِدُهْنٍ يُزْلِقُ الْمُنْزِلًا^(٢)
لِيَكْلَأَ فِيهَا طَرْفَهُ مُتَمَلِّلاً
لِلتَّمِيسِ بَيْعًا بِهَا أَوْ تَبْكَلًا^(٣)
لِتَبْلُغَهُ حَتَّى تَكِلَ وَتَعْمَلًا
يَرَى بَيْنَ رَأْسَيْ كُلِّ نَيْقَيْنِ مَهْبِلًا^(٤)
وَأَلْقَى بِأَسْبَابٍ لَهُ وَتَوَكَّلًا^(٥)
تَعْيًا عَلَيْهِ طُولُ مَرَقِي تَوَصَّلًا
عَلَى مَوْطِنٍ لَوْ زَلَّ عَنْهُ تَفْصِلًا
وَحَلَّ بِهَا حَرِصًا عَلَيْهَا فَأَطْوَلًا
رَقِيقٌ بِأَخْذِ الْمَدَاوِسِ صَيِّقَلًا^(٦)
شَبِيهُ سَفَا الْبُهْمَى إِذَا مَا تَفْتَلًا^(٧)
وَلَا قِصْرٌ أَزْرَى بِهَا فَتُعْطَلًا
وَلَا تَعْجِسُهَا مِنْ مَوْضِعِ الْكَفِّ أَفْضَلًا^(٨)

إبداعه في
صعة القوس

- (١) المَبْضُوعَةُ : المَقْطُوعَةُ . الشَطِيطَةُ : الفَلَقَةُ مِنَ الشَّيْءِ . الطُّودُ . الجَبَلُ .
(٢) الصَّفْوَانُ : الصَّخْرُ . عُلَانٌ : أَي سَقِينِ مَرَّةً بَعْدَ مَرَّةٍ . العُلَلُ : الشَّرْبُ الثَّانِي .
التهل : الشَّرْبُ الْأَوَّلُ . (٣) التَّبْكَالُ : الغَنِيمَةُ .
(٤) الأَلْهَابُ : جَمْعُ لَهَبٍ بِكسْرِ اللَّامِ ، وَهُوَ الصَّوْدَعُ فِي جَانِبِ الجَبَلِ . النَيْقُ بِكسْرِ
النُّونِ : المَكَانُ المُرْتَفِعُ . المَهْبِلُ كَمَنْزِلِ : المَنْزِلُ وَالمَهْوَى مِنَ رَأْسِ الجَبَلِ .
(٥) أَشْرَطَ نَفْسَهُ : مَعْنَاهُ أَلْزَمَهَا وَأَعَدَّهَا . (٦) ذَاتُ حَدٍّ : يَرِيدُ سَكِينًا . غُرَابُهَا :
حَدَّهَا : المَدَاوِسُ جَمْعُ مَدُوسٍ كَثِيرٍ : آلَةُ الصَّيْقَلِ الَّتِي يَتَّقَفُ بِهَا القَسِي وَغَيْرِهَا .
(٧) البُهْمَى : نَبَاتٌ مَعْرُوفٌ . (٨) الكَتُومُ : الَّتِي لَا يَوجَدُ فِي عَوْدِهَا شَقُوقٌ
وَلَا صَدُوعٌ . طِلَاعُ الكَفِّ : أَي يَمْلَأُهَا ، وَمِلَّ . القُوسُ : مَعْنَاهُ اسْتِيفَاءُ مَدِّهَا أَي النَّازِعِ
فِيهَا يَشْدُهَا حَتَّى تَنْتَوِي عَلَى جِوَانِبِ كَفِّهَا فَلَا يَفْضَلُ مِنْهَا شَيْءٌ . العَجَسُ وَالمَعْجَسُ : المَقْبِضُ .

إِذَا مَا تَعَاطَوْهَا سَمِعَتْ لِصَوْتِهَا إِذَا أَنْبَضُوا عَنْهَا نَدِيمًا وَأَزْمَلًا^(١)
وَإِنْ شَدَّ فِيهَا النَّزْعُ أَدْبَرَ سَهْمُهَا إِلَى مُنْتَهَى مِنْ عَجْسِهَا ثُمَّ أَقْبَلًا^(٢)

ولم يشأ أن يدع الكنانة والسهم ، وهي عتاد القوس وعدة النابل ، فقال

بعد هذا :

وَحَشَوِ جَفِيرٍ مِنْ فُرُوعٍ غَرَائِبٍ تَنْطَعُ فِيهَا صَانِعُهُ وَتَنْبَلًا^(٣)
تُخَيِّرُنَ أَنْضَاءَ وَرُكْبَنَ أَنْضَلًا كَجَمْرِ الْغَضَافِ يَوْمَ رِيحِ تَزِيلًا^(٤)
فَلَمَّا قَضَى فِي الصَّنَعِ مِنْهُنَّ هَمَّهُ فَلَمْ يَبْقَ إِلَّا أَنْ تُسَنَّ وَتُصْقَلَا
كَسَاهُنَّ مِنْ رِيَشِ يَمَانٍ ظَوَاهِرًا سُخَامًا لَوْأَمًا لَيْنَ الْمَسِّ أَطْحَلًا^(٥)

الكنانة
والنبل

وبعد ذلك أشار إلى تجربته وما عرفه من طباع الناس ، وختم كلامه

بوصف الصاحب الصادق المودة حين يقول :

فَذَاكَ عَتَادِي فِي الْحُرُوبِ إِذَا انْتَضَتْ وَأُرْدَفَ بَأْسٌ مِنْ خُطُوبٍ وَأَعْجَلَا
فَإِنِّي رَأَيْتُ النَّاسَ إِلَّا أَقْلَهُمْ خِفَافَ الْعُهُودِ يُكْثِرُونَ التَّنْقَلَا
بَنِي أُمَّ ذِي الْمَالِ الْكَثِيرِ يَرَوْنَهُ وَإِنْ كَانَ عَبْدًا سَيِّدَ الْأَمْرِ جَحْفَلَا
وَهُمْ لِقَلِيلِ الْمَالِ أَوْلَادُ عَالَةٍ وَإِنْ كَانَ مَحْضًا فِي الْعُمُومَةِ فُخُولًا^(٦)

(١) الانباض : تحريك الوتر في القوس . النديم : صوت القوس والأسد والظبي .
والنأمة : التهمة والصوت . الأزملة : الرنين . (٢) ومعنى إقبال السهم إلى العجس وإدباره
أن هذه القوس لينة في صلابة عود ، فإذا شدَّ النازع فيها السهم عاد إلى مقبض القوس ، ثم
ابتعد عنها لقوة دفعها وصلابتها . (٣) الجفير : الكنانة . التنقع : التأنيق والمبالغة
في الصنع : (٤) الأنضاء جمع نضو ، وهو كالنضى : السهم قبل أن يراش . تزيلا :
معناه تفرق وتطير . (٥) السخام كغراب : الريش الظائر من الطائر . اللوام على
وزنها : الفذذ ، وهي الريش أيضاً التي يلام بعضها بعضاً بأن تكون بطن ريشة إلى ظهر
الأخرى . الأطحل : الذي تضرب غبرته إلى السواد مع يباش قليل .

(٦) أولاد علة : يكنى بها عن الاستكراه والعداوة . وأولاد العلة : هم الذين يكون
أبوهم واحداً وأمهاتهم شتى ، وعكسه بنو الأخياف وهم الذين لأم واحدة وآبؤهم مختلفين ،
وأما الإخوة لأب وأم فيسمون بنى الأعيان .

وَلَيْسَ أَخُوكَ الدَّائِمُ الْعَهْدِ بِالَّذِي يَسُوءُكَ إِنْ وُلِيَ وَيُرْضِيكَ مُقْبِلًا
وَلَكِنْ أَخُوكَ النَّاءُ مَا دُمْتَ آمِنًا وَصَاحِبُكَ الْأَدْنَى إِذَا الْأَمْرُ أَعْضَلَ

ولم نعثر له على شعر في المدح خاصة لا يكون مشروباً بالثناء إلا أبياته الآتية
في حَلِيمَةَ بنت فضالة ، وهي التي قامت بأمره وخدمته في عنته حتى استقل وأمن
ويظهر أنها بقية من كلام وإن كان لا وجود له في ديوانه ، وهي قوله :

مدائحه
ومرائيه

لَعَمْرُكَ مَا مَلَّتْ ثَوَاءً ثَوِيهَا حَلِيمَةُ إِذْ أَلْقَى مَرَّاسِيَّ مَقْعَدِي
وَلَكِنْ تَلَقَّتْ بِالْيَدَيْنِ ضِمَاتِي وَمَلَّ بِشَرْجٍ فَالْتَوَاطِرِ عَوْدِي (١)
وَقَدْ عَبَّرَتْ شَهْرِي رَبِيعِ كِلَيْهِمَا بِحَمْلِ الْبَلَايَا وَالْجَبَاءِ الْمُدَّدِ
وَلَمْ تُلْهِهَا تِلْكَ التَّكَالِيفُ إِنِّهَا كَمَا شِئْتَ مِنْ أَكْرُومَةٍ وَتَخَوُّدِ (٢)
سَاجِرِيكَ أَوْ يَجْزِيكَ عَنِّي مُثَوِّبٌ وَقَصْرُكَ أَنْ يُثْنِيَ عَلَيْكَ وَتُحَمِّدِي

مدبحة حليلة
بنت فضالة

أما مرائيه فهذه إحداها وقد سبق لنا وصف مطلعها ورأى النقاد في جودته ،
وهي في فضالة أبي حَلِيمَةَ ، ويكنى أيضاً بأبي دَلِيحَةَ ، قال أوس :

أَيَّتْهَا النَّفْسُ أَجْمَلِي جَزَعًا إِنْ الَّذِي تَحْذَرِينَ قَدْ وَقَعَا
إِنَّ الَّذِي جَمَعَ السَّمَاحَةَ وَالنَّجْمَةَ وَالْحَزْمَ وَالْقَوَى جُمَعَا
أُودَى وَهَلْ تَنْفَعُ الْإِشَاءَ حَةً مِنْ أَمْرٍ إِنْ قَدْ يُحَاوِلُ الْبِدْعَا (٣)

أجود مطالع
المرائي العربية

وفي أكثر الكتب تأخير هذا البيت إلى موضع التاسع من القصيدة وإذا
كان هو الخبر يطول الفصل بين الجزأين ، فلذا آثرنا هذه الرواية ثم قال :

(١) الضمان : الزمانة أو المرض الدائم . النواظر : هي ناظرة ، جمعها باعتبار تعدد الأمكنة
فيها ، وهي التي سقط عندها من ديار بني أسد ، وفي أكثر الكتب « والقبائل » مكان
النواظر « وحل » بالحاء مكان مل ، والذي أثبتناه أقرب إلى الصواب .
(٢) التخود : النعمة والحسن . (٣) أودى : هلك . الإشاحة : الجحد في طلب
الحاجة . البدع : جمع بدعة ، وهي الأمور الجديدة أو المحدثه على غير مثال سابق ، ويروى
مكانها النزعا ، وقد يكون معناها نزع الحاجة أو طلب تحصيلها بعد ذهابها .

الْأَلْمَعِيُّ الَّذِي يَنْظُنُّ بِكَ الظَّنَّ كَانَ قَدْ رَأَى وَقَدْ سَمِعَا^(١)
 الْمُخْلِيفُ الْمُتَلَفُّ الْمُرْزَأُ لَمْ يُمْتَعِ بِضَعْفٍ وَلَمْ يَمُتْ طَبِعًا^(٢)
 وَالْحَافِظُ النَّاسَ فِي تَحْوِطٍ إِذَا لَمْ يُرْسِلُوا خَلْفَ عَائِدٍ رُبْعًا^(٣)

وَأَزْدَحَمَتْ حَلَقَتَا الْبِطَانِ بِأَقْوَامٍ وَطَارَتْ نَفُوسُهُمْ جَزَعًا
 وَشَبَّهَ الْهَيْدَبُ الْعَبَامُ مِنَ الْأَقْوَامِ سَقْبًا مُجَلَّلًا فَرَعًا^(٤)
 وَكَانَتْ الْكَاعِبُ الْمُنْعَمَةُ الْحَسَنًا ، فِي زَادِ أَهْلِهَا سَبْعًا
 لِيَبْكِكَ الشَّرْبُ وَالْمُدَامَةُ وَالْفِتْيَانُ طُرًّا وَطَامِعٌ طَمِعًا
 وَذَاتُ هِدْمٍ عَارٍ نَوَاشِرُهَا تُصْمِتُ بِالْمَاءِ تَوَلَبًا جَدِيعًا^(٥)
 وَالْحَيُّ إِذْ حَازَرُوا الصَّبَاحَ وَإِذْ خَافُوا مُغِيرًا وَسَائِرًا تَلْعًا^(٦)

وهذه أخرى من خير ما له يعدُّ فيها ما يكون للأمير العربي من المناقب
 وما يجب أن يتحلَّى به من أوصاف الرِّياسة ، ويطلب الشُّقيا لِحَدَثِ المرثي
 بالسُّلْسَالِ مِنَ الْمَسْكَ وَالرَّيْحَانِ ، يقول بعد مطلعها :

يَا عَيْنُ لَا بُدَّ مِنْ سَكْبٍ وَتَهْمَالٍ عَلَى فَضَالَةِ جَلِّ الرُّزْءِ وَالْعَالِي^(٧)
 أَبَا دُلَيْجَةَ مَنْ يَكْفِي الْعَشِيرَةَ إِذْ أَمْسَوْا مِنَ الْخَطْبِ فِي هَمٍّ وَبَلْبَالٍ^(٨)

(١) الألمي والألمع : الداهي الذي يتظن الأمور فلا يخطئ ، وهو أيضاً الذكي المتوقد
 الحديد القلب واللسان ، وهو الظريف الخفيف . (٢) الطبع ككتف : اللئيم الذي .
 (٣) تحوط وتحيط : السنة الشديدة . العائد : الحديثه النتاج تعوذ بها أولادها . الربيع :
 يضم ففتح ما نتج في الربيع . (٤) السقب والفرع : ولد الناقة ساعة يولد أو هو
 أول نتاجها . (٥) الهدم بالكسر : الثوب البالي . تصمت : معناه تسكت ، والصمتة :
 يضم الصاد ما يعطى للولد من طعام وغيره كأنه يسكن به . التولب : ولد الحمار . الجدع
 ككتف : السوء الغذاء . (٦) التلع على وزنها : المخرج رأسه من كل شيء .
 (٧) الجل بالفتح كالجليل : معناه العظيم . التهمال مصدر : بمعنى شدة سقوط السمع
 من العينين . العالی : صفة للمرثي لا للرزء على ما يظهر . (٨) البلبال : الاضطراب .

أَمْ مَنْ يَكُونُ خَطِيبَ الْقَوْمِ إِذْ حَفَلُوا
لَدَى الْمَلُوكِ ذَوِي أَيْدٍ وَإِفْضَالٍ^(١)
إلى قوله :

أَبَا دُلَيْجَةَ مَنْ تُوصِي بِأَرْمَلَةٍ
وَمَا خَلِيَجٌ مِنَ الْمَرْوَاتِ ذُو حَدَبٍ
يَوْمًا بِأَجْوَدَ مِنْهُ حِينَ تَسْأَلُهُ
لَيْتَ عَلَيْهِ مِنَ الْبَرْدِيِّ هَبْرِيَّةٌ
يَوْمًا بِأَجْرًا مِنْهُ حَدَّ بَادِرَةٍ
وَرَثْتَنِي وَدَّ أَقْوَامٍ وَخَلَّتْهُمْ
لَا زَالَ مِسْكٌ وَرِيحَانٌ لَهُ أَرْحٌ
أَمْ مَنْ لِأَشْعَثَ ذِي طَمْرِينَ مِمَّحَالٍ^(٢)
يَرْمِي الضَّرِيرَ بِمُخَشَبِ الطَّلْحِ وَالضَّالِ^(٣)
وَلَا مُغِبٌّ بِتَرْجٍ بَيْنَ أَشْبَالٍ^(٤)
كَالْمَرْزُبَانِيِّ عَيْالٍ بِأَوْصَالٍ^(٥)
عَلَى كَمِيٍّ بِمَهْدِ الْحَدِّ فَصَالٍ
وَذِكْرَةٌ مِنْكَ تَغْشَانِي بِإِجْلَالٍ
يَسْقِي صَدَاكَ بِصَافِي اللَّوْنِ سَلْسَالٍ

قدمنا في تاريخه أنه كان يحرض عمرو بن المنذر على الانتقام لأبيه من
بنى حنيفة وبنى سحيم لأن شمير بن عمرو الشحيمي هو الذي قتله ، وكان مع
الحارث الغساني ، وقد ضمن هذا التحريض استسقاطه لهم وذمه إياهم إذ يقول :

نُبِّئْتُ أَنَّ بَنِي سَحِيمٍ أَدْخَلُوا
أَبْيَاتَهُمْ تَأْمُورَ قَلْبِ الْمُنْذِرِ^(٦)
فَلَبِئْسَ مَا كَسَبَ ابْنُ عَمْرٍو رَهْطَهُ
شَمِيرٌ وَكَانَ بِمَسْمَعٍ وَبِمَنْظَرٍ
زَعَمَ ابْنُ سُلَيْمٍ مُرَارَةً أَنَّهُ
مَوْلى السَّوَاقِطِ دُونَ آلِ الْمُنْذِرِ

هجاؤه

تحريره
لعمر بن
هند على
الأخذ بثأر
أبيه

(١) الأيد : القوة . (٢) الأشعث : المتغير اللون المائل إلى الشعثة من الجوع والهزال . الطمر : الثوب الخلق ، المحال : المجدب المحتاج ، وهو من الحبل ضد الحصب .
(٣) المرآت : واد في ديار تميم . الضرير : جانب الوادى ، وهما ضريران . الطلح والضال : شجران . (٤) المغب : الذى يفتس يوماً ويترك يوماً ، وهو الأسد . الأشبال : جمع شبل ، وهو ولد الأسد . ترج بالثناة المفتوحة : مأسدة عندهم .
(٥) البردى : نبات . الهبرية : زغب القطن . المرزبان : الأسوار من الفرس ، وبه يسمى الأسد أيضاً . عيال : معناه متبخر . وفى اللسان : يروى عيال بأصال ، أى يخرج متبخرًا بالعشيات ، ويروى أيضاً : عيار مكان عيال .
(٦) التامور : حبة القلب أو غشاؤه .

منع اليمامة حزنها وسهولها من كل ذي تاج كريم المفخر (١)
 إن كان ظني بأبن هند صادقاً لم يحقنوها في السقاء الأوفر (٢)
 حتى يلف نخيهم وزروعهم لرب كناصر الحصان الأشقر
 وكان من أثر ذلك أن غزاهم الملك ، فحرق زروعهم ، وقتل وسبي منهم
 خلقاً كثيراً .

ذكر أبو العباس محمد بن يزيد البرد في كتابه الكامل في شرح هذه
 القصيدة قال : السواقط هم الذين كانوا ينزلون اليمامة من غير أهلها ، وكان
 النعمان أراد أن يجليهم عنها ، فأجارهم مزارة بن سلمى الحنفي فسوغه الملك
 ذلك ، وفي غير الكامل : أنها قيلت لعمر بن هند لا للنعمان ، والسياق يؤيد
 ذلك ، قالوا وإن أوساً جاور بعد ذلك بدهر في هذين الحين ، فتاروا به ،
 فاتهبوا معزاه واقسموها بينهم ، فقال أيضاً يهجوهم ويصف نفسه فيما ينصح
 لهم به من ترك الغدر بأنه أطب الناس بذلك ، ويشير إلى وفاء عشيرته ورعيها
 لحقوق الجيران ، وأنه الآن لا يجد من قومه أحداً يمنعهم من العدوان عليه :

هجاؤه لقوم
 من بني حنيفة
 اتهبوا معزاه

فإن يأتكم مني هجاء فأبما
 تجلل غدرًا حرّ ملاء وأقلعت
 فهل لكم فيها إلى فإني
 فأخرجكم من ثوب شمطاء عارك
 فبأكم به مني جميل بن أرقم
 سحائبه لما رأى أهل ملهأ
 طيب بما أعيأ النطاسي حدبما
 مشهرة بلت أسافله دما
 إذا لرأى للجار حقًا ومحرما
 لما كان مالي فيكم متقسما
 ولو كان حولي من تم عصابة
 ألا تتقون الله إذ تعلفونها
 رصيخ النوى والعص حولا مجرما

(١) الحزن : ضد السهل . (٢) ومعنى قوله : لم يحقنوها في السقاء الأوفر ، أي لم
 يذهبوا بما فعلوا مسلمين ، ولم ينجثوا صنيعهم ، فلا يعلمه أحد ، وأصل يحقن : معناه يحفظ
 ويعصم ، ويكون المعنى إجمالا لم يعصبوا أنفسهم ودماءهم من الملك .

وَأَعْجَبَكُمْ فِيهَا أَغْرٌ مُشَهَّرٌ تِلَادٌ إِذَا نَامَ الرَّبِيبُ تَفَمَّغَمًا
 وقوله : فهل لكم البيت معناه هل تستمعون إلى رأيي في هذه المعزى ، وهو
 أن تردوها على لأننى عالم بما يزيل عنكم معرّة هذا الغدر ، وأنه أطبّ في ذلك
 من ابن حذيم ، وهو رجل من تيم الرباب يضرب به المثل في الطب ، وقد تقدم
 خبره ، وجعل ما تجلوه من الغدر كثوب الشمطاء الحائض الذى ابتلّ بدعها
 فهى تستحى أن يراه الناس ، ورضيخ النوى : فتاته وكساره ، والعض بضم
 العين : الحشيش اليابس ، أو ما يعلف به من القت والنوى ، والحول الجرم :
 التام ، والربيض : الغم ، والغمغمة : صوت الكباش ، وهو المقمود بالأغر
 الشهر .

وله أيضاً يهجو الحَكَم بن مروان بن زُبَيْع العبّسى أحد الفرسان
 المدودين ، وكان رحل إليه فى حاجة فلم يُبْلِغْهُ غرضه قال :

إِذَا نَاقَةٌ شُدَّتْ بِرِخْلِ وَنَمْرُقٍ إِلَى حَكَمٍ بَعْدَى فَضَلٍّ ضَلَّاهَا
 كَأَنِّي حَلَوْتُ الشُّعْرَ حِينَ مَدَحْتُهُ صَفَا صَخْرَةَ سَمَاءٍ يَبَسَ بِلَاهَا
 هَمَمْتُ بِخَيْرٍ ثُمَّ قَصَّرْتُ دُونَهُ كَمَا نَاءَتِ الرَّجْزَاءُ شُدَّ عِقَالُهَا
 تَلَقَّيْتَنِي يَوْمَ النُّجَيْرِ بِمَنْطِقٍ تَرَوِّحَ أَرْضَى سَعْدَ مِنْهُ وَضَاهَا
 كَانَ بِهَ أُرْخِيَّةً خَيْرِيَّةً يَعُودُ عَلَيْهِ وَرِدُّهَا وَقِلَّاهَا

هجاؤه
 للحكم بن
 مروان العبسى
 أحد فرسان
 العرب

البلال : ما يكون على الصخرة من الماء والرطوبة وهو بالباء المكسورة ،
 والرجزاء : الناقة فى عجزها داء وهو الرجز بفتحين ، والأرطى والضال : شجران ،
 وسعد بضم السين غير مصروف كما فى اللسان : موضع أراد الشاعر به البقعة ،
 والأرخیة بضم الهمزة : البقرة الوحشية أو ولد الثيثل ، وقد أعرضنا عن ذكر
 شىء من أهاجيه المصراحة اكتفاء بهذا منها .

ويظهر أن أوساً كما تقدم لم يكن من أكفاء الأبطال فى الحروب وأنه فرّ

ذات يوم من جموع بني عبس وغيرهم ، وأراد أن يحتج لصحة رأيه في الفرار
إذ يقول :

أَجَاعِلَةٌ أُمُّ الْحُصَيْنِ خَزَايَةَ عَلِيٌّ فِرَارِي أَنْ لَقَيْتُ بَنِي عَبْسٍ (١)
وَرَهْطَ أَبِي شَهْمٍ وَعَمْرَو بْنَ عَامِرٍ وَبَكَرًا فَبَاحَشْتُ مِنْ لِقَائِهِمْ نَفْسِي
مَطَاعِينَ فِي الْهَيْجَا مَطَاعِيمٌ لِلْقِرَى إِذَا اغْبَرَّ آفَاقُ السَّمَاءِ مِنَ الْقَرْسِ
كَأَنَّ جُلُودَ النَّمْرِ جِيَّتْ عَلَيْهِمْ إِذَا جَعَجَعُوا بَيْنَ الْإِنَاخَةِ وَالْحَبْسِ
فَضَمُّوا عَلَيْنَا حَجَرَتَيْنَا بِصَادِقٍ مِنْ الرَّأْيِ حَسَّ النَّارِ فِي الْحَطَبِ الْيَبْسِ
وَلَيْسَ الْفِرَارُ الْيَوْمَ عَارًا عَلَى الْفَتَى إِذَا جُرَّبَتْ مِنْدَ الشَّجَاعَةِ بِالْأَمْسِ

اعتذاره عند
الفرار في
بعض الوقائع

والقرس : شدة الصقيع ، والجمععة : الصياح عند النزول ، والحجرتان :
الجانبان ، والحش : الإيقاد .

ومن هنا أخذ الحارث بن هشام قوله :

اللَّهُ يَعْلَمُ مَا تَرَكَتُ قِتَالَهُمْ حَتَّى رَمَوْا فَرَسِي بِأَشَقَرٍ مُزِيدٍ
وَسَمِمْتُ رِيحَ الْمَوْتِ مِنْ تِلْقَائِهِمْ فِي مَأْزِقِ وَالْحَيْلِ لَمْ تَتَبَدَّدِ
وَعَلِمْتُ أَنِّي إِنْ أَقَاتِلُ وَاحِدًا أَقْتَلُ وَلَا يَضُرُّهُ عَدُوِّي مَشْهَدِي
فَصَدَفْتُ عَنْهُمْ وَالْأَحِبَّةُ فِيهِمْ طَمَعًا لَهُمْ بِعِقَابِ يَوْمِ مُرْصِدِ

أرق ما تنصل
به العرب من
الفرار في
الحرب

وهو معتبر من أحسن ما تنصل به الناس من عيب الفرار .

وله من قصيدة طويلة يتغزل في مطلعها بصاحبه لَيْسَ وَيَذْكَرُ مُسَاعِفَتَهَا
له ثم يُبَلِّغُ بِمَدْحِ نَفْسِهِ وَالْفَخْرِ بِأَبِيهِ ، ويمضي إلى ذكر ما يصفونه به من حبه
لفضائل الأخلاق ويشير إلى حُلَفَائِهِمْ ، وما كان بينهم من العداوة ، ويضيف
إلى السنة التي تواقعوا فيها أظفاراً لم تقلم وهو أول من جعل السنة الشديدة بهذه

(١) وصاحب العقد يروي هذه الأبيات منسوبة لعمر بن معديكرب مع بعض

الصفة ، ثم يفتخر بقومه ويصف بلاءهم وصبرهم ، ويجعل الأرض الفضاء تميد
تحت جموعهم كأنها مريضة من ثقل وطأتهم وكثافة زحوفهم قال :

تَنَكَّرْتِ مِنَّا بَعْدَ مَعْرِفَةِ لِيَّ وَبَعْدَ التَّصَابِي وَالشَّبَابِ الْمُنْعَمِ
ثم يقول :

فَلَا وَإِلَهِي مَا غَدَرْتُ بِدِمَّةٍ وَإِنَّ أَبِي قَبْلِي لَغَيْرُ مُدَّمٍ
يَجُودُ وَيُعْطِي الْمَالَ مِنْ غَيْرِ ضِنَّةٍ وَيَخْطُمُ أَنْفَ الْأَبْلَاحِ الْمُتَغَسِّمِ
نُبِيحُ حَمِي ذِي الْعِزِّ حِينَ نُرِيدُهُ وَنَحْمِي حَمَانًا بِالْوَشِيحِ الْمُقْوَمِ
لَعْمُرِكَ إِنَّا وَالْأَحَالِيْفَ هُوَالَا لَنِي حِقْبَةَ أَظْفَارُهَا لَمْ تَقَلَّمِ
إِذَا مُقَرَّمٌ مِنَّا ذَرَا حَدُّ نَابِهِ تَحْمَطُ مِنَّا نَابُ آخِرِ مُقَرَّمِ
وَمُسْتَعْجِبٍ مِمَّا يَرَى مِنْ أَنَاتِنَا وَلَوْ زَبَنَتْهُ الْحَرْبُ لَمْ يَتَرَمَّرِ
فَإِنَّا وَجَدْنَا الْعَرِضَ أَحْوَجَ سَاعَةً إِلَى الصَّوْنِ مِنْ رَيْطِ يَمَانِ مُسَهَّمِ
أَرَى حَرْبَ أَقْوَامٍ تَدِقُّ وَحَرْبُنَا تَجِلُّ فَنَعْرُورِي بِهَا كُلَّ مُعْظَمِ
تَرَى الْأَرْضَ مِنَّا بِالْفَضَاءِ مَرِيضَةً مُعْضَلَةٌ مِنَّا بِجَمْعِ عَرَمَرَمِ

خبره بنفسه
وبقومه

المقرم : السيد ، وأصله البعير يكرم فلا يحمل عليه ، وإنما يتخذ للفحلة .

وذرا : سقط . تحمط : اشتد وقوى . نعروري : نركب .

من ذلك قوله :

وَرِثْنَا الْمَجْدَ عَنْ آبَاءِ صِدْقٍ أَسَانَا فِي دِيَارِهِمُ الصَّنِيْعَا
إِذَا الْحَسْبُ الرَّفِيعُ تَوَا كَلَّتُهُ بِنَاةِ الشَّوْءِ أَوْشَكَ أَنْ يَضِيْعَا

سوائر أياته
معانيه
المتنازعة

وقوله في اللئيم يذل عند الحاجة ويظهر الحذب والولاء ، ويجفو عند

الاستغناء ويستعلي ويبادر بالقطيعة :

إِذَا مَا عُلُوا قَالُوا أَبُونَا وَأُمَّنَا وَلَيْسَ لَهُمْ عَالِينَ أُمَّ وَلَا أَبُ

وقوله في ذهاب الناس دائماً إلى محبة الأغنياء ، ولو لم ينالوا منهم شيئاً
و بعضهم للعقل ، ولو كان من عليّة القوم وأصولهم :

بِنِي أُمِّ ذِي الْمَالِ الْكَثِيرِ يَرَوْنَهُ وَإِنْ كَانَ عَبْدًا سَيِّدَ الْأَمْرِ جَحْفَلًا
وَهُمْ لِقَلِيلِ الْمَالِ أَوْلَادُ عِلَّةٍ وَإِنْ كَانَ مَحْضًا فِي الْعُمُومَةِ نُحُولًا

ومن دقيق تشبيهاته وبديع اختراعه قوله فيما يلتمع على صفحتي السيف من
مويجات فرنده المتتابعة كأنه مدب النمل صاعداً إلى الربا أو مدارج الدر النازل
إلى السهل :

كَأَنَّ مَدَبَ النَّمْلِ يَتَّبِعُ الرُّبَا وَمَدْرَجَ ذَرٍّ خَافَ بُرْدًا فَأَسْهَلَا
عَلَى صَفْحَتَيْهِ بَعْدَ حِينٍ جِلَائِهِ كَفَى بِالذِّي أُبْلِي وَأَنْعَتُ مُنْصَلَاً

ومن قوله : (لعمرك أنا والأحليف هؤلاء البيت)

اتباع زهير
لأوس في
أحد معانيه

أخذ زهير قوله :

لَدَى أَمْسَدٍ شَاكِي السَّلَاحِ مُقَدِّفٍ لَهُ لِبَدٌ أَظْفَارُهُ لَمْ تُقَلِّمِ

وقد أحسن الاتباع وارتفع في الأداء عن بيت أوس .

وكذلك أخذ من قوله :

وَلَنِعْمَ رِفْدُ الْقَوْمِ يَنْتَظِرُونَهُ وَلَنِعْمَ حَشْوُ الدَّرْعِ وَالسَّرْبَالِ

قوله :

وَلَنِعْمَ حَشْوُ الدَّرْعِ أَنْتَ إِذَا دُعِيَتْ نَزَالٍ وَلَجَّ فِي الدُّعْرِ

ومن قوله : (ترى الأرض منا بالفضاء مريضة البيت) .

ما أخذ
النايفة من
أوس

أخذ النايفة قوله :

جَيْشٌ يَظَلُّ بِهِ الْفَضَاءَ مُعْضَلًا يَدْعُ الْإِكَامَ كَأَنَّهِنَّ صَحَارِي

ويعيب عليه صاحب الموشح قوله :

وهم لقلّ المال ... البيت، قال إن ذكر المال مع مقلّ فضل لاغناء فيه ،
وقد سبقت رواية البيت (وهم لقليل المال وليس عليها مأخذ) .

ويعيب قوله أيضا : (تَصْمِتُ بِالماءِ تَوَلِّبًا جَدِيعًا) .

بعض ما عيب
عليه

قال انه أُنْحَسُ الاستعارة حيث جعل الصبي تَوَلِّبًا ، وهو ولد الحمار . قال
ومثله قول آخر :

وما رَقَدَ الْوَالِدَانُ حَتَّى رَأَيْتُهُ عَلَى الْبَكْرِ يَمْرِيهِ بِسَاقٍ وَحَافِرٍ
فسمى رجل الإنسان حافرًا وكل ما جرى هذا المجرى من الاستعارة قبيح
لا عذر فيه .

ومعناه في بيته :

الْأَلْمَعِيُّ الَّذِي يَنْظُنُّ بِكَ الظَّنَّ كَأَنَّ قَدْ رَأَى وَقَدْ سَمِعَا
بديع متنازع أخذه أكثر الشعراء ، فلم يزيدوا عليه شيئًا ، ومن ذلك
قول المتنبي :

المتنبي وأوس

ذَكَرْتُ تَطَنِّيهِ طَلِيْعَةً عَيْنِهِ يَرَى قَلْبُهُ فِي يَوْمِهِ مَا يَرَى غَدًا
وقوله : إِذَا مُتْرَمَ مِنْ ذَرَا حَدُّنَا بِهِ الْبَيْت :

في معنى قول السموءل :

إِذَا سَيِّدٌ مِنْ خَلَا قَامَ سَيِّدٌ قَسْوُولٌ لِمَا قَالَ الْكِرَامُ فَعُولٌ
وقول الحماسي :

وَلَيْسَ يَهْلِكُ مِنْنا سَيِّدٌ أَبَدًا إِلَّا أَفْتَلَيْنَا غُلَامًا سَيِّدًا فِينَا

وقد ذكر له ابن قتيبة غير هذا من أمثاله ، وما استجيد له اكتفينا بما
ذكرنا منه ، وعلى الله قصد السبيل .

٩ - أمية بن أبي الصلت الثقفى

هو أمية بن عبد الله أبي الصلت بن ربيعة بن عوف من أشرف ثقفٍ نسبة ونشأته ورؤسائها ، وأمه رقية بنت عبد شمس بن عبد مناف ، وقد نشأ بالطائف مصيف أهل مكة ومُنزَه أعيانها ، وهى من أعجب البلاد العربية ، وأطيبها هواء ، وأكثرها زروعا وعيونا وفاكهة ، فتأثرت صفاته منذ ابتدائه بهذه الطبيعة الخصبه ، وأدرك الحالة الاجتماعية التى نشأت بالجزيرة بعد فتوح الفرس لبلاد اليمن ، وما أدى إليه ذلك الاتصال من امتزاج العقليات الآرية بالروح السامى القديم ، وكانت هذه الصلة قد بدأت تمثل فى الأدب بين أكثر شعراء القرن الميلادى السادس ، واتجه الخيال العربى إلى حكاية هذه الثقافات الطارئة مع الجالية الفارسية من القصص والأساطير ، والمحاورات الموضوعية على السنة البهائم والطيور بذلك النمط الطريف المقتبس فى الجملة من الأدب الهندى القديم ، وإن كانت مدنيات العصور لم تخل فى الغالب من انتزاع مثل هذا النوع من القصص عن الحيوان والمحاولة لشرح إلهاماته ، والاستطراف بوضع الحكاية عنه لتقديم مداخلته للحياة البشرية ، واتفاق جميع الأجيال على استخدامه وتطريقهم إلى الانتفاع به كل طريق ، ولأن كثيراً من أوضاع الحياة وصور التفكير العقلى متشابهة كالمشترك بين أجناس البشر ، ولذا كان من فساد النظر ما يتكلم به بعض العابدين للآداب الأجنبية إذ يسرفون فى تجريد العرب من كل فضيلة ، ويزعمون أن كل ما يخالف الأطلال والإبل والأمطار والرياح فى الشعر العربى ، فهو يونانى الأصل دخيل على العقلية العربية . كلام لا يقوم على دليل ، وسترى فى شعر أمية قصصاً وحديثاً عن الحيوان ليس بقليل منسوبا إلى أراض وشعوب سامية كقصة : « طوق الحمامة » ، « ورسالة الهدهد » ، ونحو

ذلك مما سنشرحه في كلامه ، وإن كان ذلك لا يمنع ما هو متبع بين الأمم من
تناقل الآداب والمدنيات .

وكان أمية مع هذه المعاصرة قد قرأ الكتب ، واتصل بحياة القديسين من
الأخبار ، ولبس المسوح ، ولزم النسك ، وخلع الأوثان ، وحرّم الزنا والقمار
والخمر ، ودعا الناس إلى الخنيفة دين إبراهيم ، وأظهر التأله وطمع في الوحي ،
فلما ظهرت النبوة في قريش ، وقام بالدعوة محمد بن عبد الله صلى الله عليه وسلم
أدركه الحسد ، وزين له الشيطان سوء عمله فصدّه عن السبيل فلم يسلم ، وبالغ
في العداة للمسلمين ، وألحّ في النكاية لهم ، ورثى قتلى بدر من المشركين ،
وحارب معهم النبي في خيبر ، وذلك بالضرورة مسلك مخالف لنشأته الدينية
قبل ظهور النبوة ، وقد حدث عنه أبو الفرج في كتابه بأقاصيص أشبه
بالخرافات ، ونسب إليه وإلى أبيه في موضعين من الكتاب تهنئة لسيف بن
ذى يزن بعد انتصاره على الحبشة قبل سنة ٤٧٩ ، وهي السنة التي مات فيها
سيف بالأبيات المشهورة التي يظن أن أولها :

لِيَطْلُبَ النَّارَ أَمْثَالُ بِنِ ذِي يَزْنَ فِي الْبَحْرِ خَيْمٌ لِلْأَعْدَاءِ أَحْوَالاً^(١)
وهي ليست في ديوانه ونسبها ابن قتيبة إلى أبيه أبي الصلت وهو الأقرب
إلى الصواب ، وقد سمع أمية القرآن وحكى شيئاً مما فيه من القصص ، واقتبس

(١) بقيتها :

أَتَى هَرَقْلُ وَقَدْ شَأَلَتْ نَعَامَتَهُ فَلَمْ يَجِدْ عِنْدَهُ النَّصْرَ الَّذِي سَأَلَ
ثُمَّ أَتَنَّى نَحْوَ كِسْرَى بَعْدَ تَأْسِيعَةٍ مِنْ السَّنِينَ لَقَدْ أَبْعَدْتَ إِيفَالاً

إلى قوله :

فَأَشْرَبُ هَنِئًا عَلَيْكَ التَّاجُ مُرْتَفِعًا فِي رَأْسِ عُمْدَانَ دَارًا مِنْكَ مَحْلَالًا
تِلْكَ الْمَكَارِمُ لَا قَعْبَانَ مِنْ آبِنِ شَيْبًا بِمَاءِ فَعَادَا بَعْدُ أَبْوَالًا

من كلماته أو من أسلوبه ، ومات سنة ٩ من الهجرة ، وذكر عن النبي صلى الله عليه وسلم حين أنشد بعض أشعاره قال :

آمن لسانه وكفر قلبه « نعوذ بالله من خاتمة السوء » .

ديوان شعره - رأى المترجم في أدبه - منزلته من شعراء عصره

يعود الفضل في إحياء تاريخه ، وجمع أكثر المنسوب إليه في ديوانه إلى أحد مُتَعَرِّبَةِ علماء الألمان وهو : «فريدريك شولتهيس» ، وقد عني بطبعه سنة ١٩١١ ، واستعان في تصحيحه وضبطه بمراجع كثيرة بين عربية وأجنبية منها شرح محمد بن حبيب^(١) ، وكتاب الأغاني ، وكتب السير والمجموعات القديمة وغيرها من كتب اللغة ، وبذل في ذلك عناية وجهدا لا يمنعا تقديرها له من ذكر ما يعن لنا من الرأي فيما وقع فيه من خطأ البحث وفساد النظر .

وأما شعره فهو نسق سهل قليل الغرابة له صلة قوية بالأصول المنتورة التي تقل عنها ما تضمنه نظمه من القصص والأساطير حتى لكأنه ما يسميه أهل الأدب بالشعر المنتور ، وتراه وهويذكر نفسه وقومه ويصف رياسته ومجد عشيرته ، وحين يمدح ابن جدعان صاحبه وأميره صادق الطبع قوى الديباجة تعينه هذه المناقب المخصوصة بقومه وبممدوحه على تهذيب الأفكار وتجويد مقاطع الكلام .

شعره في الكونيات
أما حين يتكلم على الوجود الأول وينظر في خلق السموات والأرض وهو باب الكونيات من شعره ، فهو أيضاً سهل لين الأسلوب ولكنه قليل الحلاوة يكاد يشبه من بعض الوجوه منظومات العالوم ، وأكثر المعروف من شعره في هذه الأساطير التي تجعله شاعراً قصصياً استطاع أن تحمل قوافيه أخبار القرون

(١) محمد بن حبيب عالم لغوي من موالى العباسيين ، وله شروح لقطعة من أشعار العرب

وتأليف كثيرة ، وحبيب اسم أمه لا أبيه كما في النهرست لابن النديم .

في عصورها الذهبية القديمة ، وإن كان المأثور من شعره القصصى يدل على أنه بقايا قصائد طويلة لم يهتد العلماء بعد إلى ما ذهب من أصولها .

ونشير هنا كما أسلفنا إلى موقف المترجم في الموازنة بين أمية وبين النبي صلى الله عليه وسلم ، وإلى قيمة بحثه لرأى المسلمين في نشأة القرآن : لنعلم كيف ينخدع كثير من الناس بأولئك المستشرقين الذين تغريهم العصبية المذهبية بمحاولة الإفساد للحقائق ، ولا يبرءون منها تبرءوا من الخطل في بحثهم لكل ما له صلة بالدين . يقول ذلك العالم : « إن إخراج موازنة صادقة بين أمية ومحمد تتوقف على إيجاد ديوان عربي قديم يكون جامعاً لمقدار وافر من الأشعار العربية الصحيحة ، وبفرض العجز عن تحصيل هذه الوثيقة فهو مطمئن إلى القول بأن سِتْمَانَةَ بَيْتٍ لَأُمِيَّةٍ لَا يَعْقِلُ أَنْ تَكُونَ كُلُّهَا مَنْحُولَةٌ أَوْ غَيْرَ صَحِيحَةٍ ، وَيَنْكَرُ رَأْيَ « كَلِيَّانِ هَوَارْتِ » فِي أَنْ مُحَمَّدًا اسْتَعَانَ بِشِعْرِ أُمِيَّةِ بْنِ أَبِي الصَّلْتِ ، وَلَكِنَّهُ يَرَى أَنَّهِمَا جَمِيعًا اشْتَرَكَا فِي ثِقَافَةٍ وَاحِدَةٍ وَنَقَلَا عَنْ مَصْدَرٍ وَاحِدٍ ، وَيَرْفُضُ عَقِيدَةَ الْمُسْلِمِينَ فِي أُمَّيَّةِ مُحَمَّدٍ ، وَعَدَمَ اتِّصَالَ الْقُرْآنِ عَلَى هَذَا بِأَسَاطِيرِ أُدْبِيَّةٍ قَدِيمَةٍ ، وَيَزْعَمُ أَنَّ نَشَأَةَ الْقُرْآنِ مِنْ طَرِيقِ الْوَحْيِ كَمَا يَعْتَقِدُ الْمُسْلِمُونَ مِنَ الْأَسَاطِيرِ الَّتِي تَعَدُّ مِنَ الْغَرَابَةِ بِمَكَانٍ » .

ومن العجب أن يكون ذلك البحث العقيم مذهباً لغير واحد من علماء الأجانب ، وأنت ترى لجمعياتهم العلمية وجهودهم الغزيرة من الأثر على العلم والأدب وسائر نتائج العقول البشرية ما لا يُجْهَلُ .

لأن من العلوم أن القصص في القرآن وإن وجد منه شيء في الشعر أو كان متفقاً مع ما وردت به شرائع المتقدمين ، إنما يجيء دائماً على نمط يخالف مذاهب المؤرخين في توخيهم لسرد الحوادث كما هي من غير محاولة لزيادة أو نقص ، فهو يرمى إلى اتخاذ الماضي وسيلة إلى العبرة وطريقاً إلى تقرير قواعد النظام والتنبيه إلى مواطن الانتفاع بأدق أساليب الاجتماع . .

وانظر إلى ذلك في قصة إبراهيم مع أبيه وقومه حيث يقول الله تعالى :
« وَإِذْ قَالَ إِبْرَاهِيمُ لِأَبِيهِ أَرَزَرْتَنِي أَتَّخِذُ آبَاءَ أُمَّةٍ آلِهَةً إِنِّي أَرَاكَ وَقَوْمَكَ فِي
ضَلَالٍ مُّبِينٍ . وَكَذَلِكَ نُرِي إِبْرَاهِيمَ مَلَكَوتَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَلِيَكُونَ
مِنَ الْمُوقِنِينَ . فَلَمَّا جَنَّ عَلَيْهِ اللَّيْلُ رَأَى كَوْكَبًا قَالَ هَذَا رَبِّي فَلَمَّا أَفَلَ قَالَ
لَأُحِبُّ الْآفَاقِينَ » ، إلى قوله : « إِنِّي وَجَّهْتُ وَجْهِيَ لِلَّذِي فَطَرَ السَّمَوَاتِ
وَالْأَرْضَ حَنِيفًا وَمَا أَنَا مِنَ الْمُشْرِكِينَ » ، وحيث يقول في سورة مريم :
« يَا أَبَتِ لِمَ تَعْبُدُ مَا لَا يَسْمَعُ وَلَا يُبْصِرُ وَلَا يُغْنِي عَنْكَ شَيْئًا » الآيات ،
ومثل هذا النوع من المحاوراة والجدل في سورة الشعراء بين موسى وفرعون ،
وستعلم من هذا وأشباهه أن الغاية من نظم هذه القصص في القرآن لم تكن
تأليف تاريخ ولا حكاية حال كما يفعل شعراء القصاص وكتب الأساطير .
وإنما الغرض هو إثارة العقول إلى النظر في حقائق الأديان وتوجيه الفكر إلى
نشأة العقيدة ، والتأمل في كيفية تطورها في الأجيال الماضية ، والإشارة إلى
تأليه الإنسان القديم لكثير من الظواهر الكونية بسبب ما كانت تُثيره في
نفسه من القلق والرعب حتى تبين له من تغديرها وطروء الفساد عليها عدم
استحقاقها للعبادة وهو مسلك المنطق السليم في بلاغة الاستدلال وإلزام الحجة .
ويتكرر القصص ليتكرر معه ما يتصل به من العظة وليحكي من جديد ناحية
أخرى من الحكمة مع الترقى إلى الإحسان والخروج عن طوق البشر بوجوه
الإعجاز : « وَلَوْ كَانَ مِنْ عِنْدِ غَيْرِ اللَّهِ لَوَجَدُوا فِيهِ اخْتِلَافًا كَثِيرًا » ، ثم
انظر إلى مثل هذا الصنيع في قصة سليمان وبلقيس وما تتضمنه من الدلالة
الدقيقة على أصح ما يصل إليه الفكر من فلسفة التشريع والإشارة الصريحة
إلى أخطار الاستعمار وإذلاله اعزّة الشعوب حين يحكى القرآن استشارتها للملأ
من قومها بعد ما جاءها كتاب سليمان بالدعوة إلى الإسلام إذ تقول : « يَا أَيُّهَا

لَمَّا أَفْتُونِي فِي أَمْرِي مَا كُنْتُ قَاطِعَةً أَمْرًا حَتَّى تَشْهَدُونَ . قَالُوا نَحْنُ أَوْلَا قُوَّةٍ
وَأَوْلَا بَأْسٍ شَدِيدٍ وَالْأَمْرُ إِلَيْكَ فَانْظُرِي مَاذَا تَأْمُرِينَ » ، فترى كيف وصف
القرآن قيمة الأثر الناشئ من تقدير الملك لشعبه وشعوره باحترام رأى الملائ من
قومه وما يثيره هذا السلوك من عواطف الطاعة المنطوية على أكمل صور المحبة
من الرعية لما كها بما يترتب عليه طبيعاً مثل هذا الجواب الحكيم فيما وصفوا
به أنفسهم من القوة وشدة البأس ، وأخذ الأهبة الكاملة لامثال ما يؤمرون به
في خلوص نية ومضاء عزم ، وذلك هو دستور الحياة التي تتسابق شعوب العالم
إلى صيانتها واختيار الأصلح للبقاء من أوضاعه ، وجاء بعد هذا البيان البليغ
بشاعة الاستعمار ، ووصف جرأته على حياة الأمم في قوله : « إِنَّ الْمُلُوكَ إِذَا
دَخَلُوا قَرْيَةً أَفْسَدُوهَا وَجَعَلُوا أَعِزَّةَ أَهْلِهَا أَذِلَّةً » ، وحسبك أن تكون لك
عين ترى ، وأذن تسمع لتدرك فظائع المستعمرين في استهلاكهم لثروات الأمم ،
وإسرافهم في الجناية عليهم بما تقشعرون منه الجلود ، وترتعد الفرائص ، ثم يحتم
هذا المقطع البليغ بقوله : « وَكَذَلِكَ يَفْعَلُونَ » تقريراً لشمول هذا الحكم
لطبقات البشر على الزمان كله مما كان لا يعقل صدوره إلا عن العالم بما كان
وما لم يكن مما تتقلب فيه صور الحياة وطبائع الأمم ، فكيف يسوغ بعد هذا
أن يقرن أُمَّيَّةً إلى محمدٍ صلى الله عليه وسلم ؟ أم كيف يوضع شعره مع كتاب الله؟
ولقد كنا في غنى عن الاستدلال على فساد هذا الوهم لولا أن بعض الذين
يزعمون الولاية على الأدب من أهل زماننا يقلدون أولئك المتعصبين في هذه
السخافات من غير نظر كأنهم لا يعلمون عن نشأة الإسلام شيئاً ، ولا يعرفون
عن صاحب الدعوة قليلاً ولا كثيراً ، وكأنهم لا يشعرون بأثار الثقافة الإسلامية
في مدنيمة العالم الحديث ، وكأن الأوربيين لم يصيخوا إلى خطباء العرب على
منابر قرطبة وأشبيلية ، وكأنهم لم يفسحوا الطريق لحضارة الإسلام بتجتاح
ما كان يطبق آفاقهم في عصورهم المظلمة من الجهالات ، وأين الذين استجابوا

لأُمِّيَّة بن أَبِي الصَّلْتِ أو لسواه ، وهو لم يخل حتى من عقوق بنيهِ ، وقد شكَا ذلك في شعره ، والله قد جعل لمحمد رسوله من صفاء الروحانية وقوة النفس ما كان به يُحوِّلُ طبائع الناس ، ويبدِّل ما في جِبِلَّاتِهِم من الإِباء إلى الطاعة ، ومن البغض إلى المحبة ، ومن الكفر إلى الإيمان حتى بلغ بأتباعه أنهم كانوا يحبونه أكثر من محبتهم لأنفسهم وأبنائهم ، ولقد عُذِّبُوا في سبيله وأوذوا وقَاتَلوا وقُتِلوا وأُخْرِجُوا من ديارهم ولم يزدحم ذلك إلا استمساكا به وإيماناً بشريعته ، ومضياً على الجهاد معه حتى بلغ الكتاب أجله وضرب الدين بجراحه . وخفقت أعلام المسلمين على آفاق البلاد ، وأصبحوا قادة العالم وسادة الأرض ، وما ترى الأمم الأجنبية تشجى بشيء الآن أكثر مما تراه من تطلُّع الأمم الإسلامية إلى مجدهم الداهب وشعورهم بالحاجة إلى استرداد عظمتهم الماسخية .

منزلته ورأى العلماء فيه

ذَكَرَهُ ابن سَلَامٍ فجعله في شعراء القرى العربية قال وهنَّ خمس : مَكَّة ، والطائف ، والمدينة ، واليمامة ، والبَحْرَيْنِ ؛ والمدينة أشعرُهنَّ قرية ، وحقولها خمسة : حَسَّان ، وكَعْبُ ، وعبدُ الله بن رَوَاحَةَ ، وقَيْسُ بنُ الخَطِيمِ ، وأبو قَيْسِ بنِ الأَسَلْتِ ، ثم قال : وفي ثَقِيفِ شعر ، وأشعرها أُمِّيَّة بن أَبِي الصَّلْتِ ، وقال أبو الفرج : إن أشعر أهل المدن : أهل يَثْرِبِ ، ثم عبد القَيْسِ يعنى أهل البحرين ، ثم الطائف ؛ وأشعر أهل الطائف أُمِّيَّة . وذكر أن الكُمَيْتِ ابن زَيْدٍ قال أُمِّيَّة أشعر الناس لأنه قال كما قالوا ولم يقولوا مثل ما قال ، ونقل عن أبي عبيدة أيضاً قوله : ذهب أُمِّيَّة في شعره بعامة ذكر الآخرة وذهب عَنْتَرَةُ بعامة ذكر الحرب ، وذهب عُمَرُ بنُ أَبِي رَبِيعَةَ بعامة ذكر الشباب ، وفي شعراء النصرانية أنه معدود من شعراء الطبقة الثانية ، وفيما أسلفنا من وصف

شعراء
القرى
العربية

رأى الكميت
الشاعر في
أمية

شعره إشارة إلى أنه يصح اعتباره طبقة وحده ، وأن يسمى الشاعر القصصى أو شاعر الأساطير لأنه يكاد يختص بهذا الفن من الكلام دون سائر الشعراء ، وإن كنت ترى لغيره منهم في بعض الأحيان قصصاً وحديثاً عن الحيوان . أما في أشعاره القومية وهي الخاصة بمدح القبيلة والتنويه ببعض المعاصرين ، وما يشبه ذلك ، فهو حيث جعله ابن سلام في شعراء القري ، ويجيء بالضرورة بعد حسان . قال ابن قتيبة : وعلماؤنا لا يحتجون بشعره لأنه كان يأتي بأشياء لا تعرفها العرب يأخذها من الكتب مثل كلمة « سَاهُور » ، ويسمى الله السَلْطِيط ، والثَغْرُور ، قال : والسَاهُور غلاف القمر عند أهل الكتاب .

وعلى أي حال فقد أضاف إلى الأدب الجاهلي هذه الأساطير التي استنفدت جانباً كبيراً من شعره ، وما عداها فهو شعره الخاص بذكر القبيلة ، ومدح بعض المعاصرين والشكوى والثناء أو شعره في الكونيات ، وهو ما يتعرض فيه لتوحيد الله وذكر الخلق وتعليل الحكمة في بعض المراتب ، وما يتصل بذلك من ذكر الآخرة والجنة والنار .

وسترى في هذه الناحية وفي شعره القصصى مبلغ تأثيره بالأسلوب القرآني واقتباسه من ألفاظه وعباراته كما قدمنا ، وسندكر من كل شيء من هذه الأغراض شيئاً نُعَقِّبُ على بعضه بالشرح إن شاء الله . قال من قصيدته المَجْمُورَة (والجُمُهرات سبع منزلتها بعد المعلقات) :

عَرَفْتُ الدَّارَ قَدْ أَقْوَتُ سِنِينَا لَزَيْنَبَ إِذْ تَحَلُّ بِهَا قَطِينَا

وبعد ما ذكر تأثير العواصف في بقاياها في آيات أربعة قال :

فَإِمَّا تَسْأَلِي عَنِّي لُبْنِي وَعَنْ نَسَبِي أَخْبِرْكَ اليَقِينَا

يَقِي أَنِّي النَّبِيَّةُ أَبَا ، وَأُمَّا وَأَجْدَادًا سَمَوْا فِي الأَقْدَمِينَا

وَرِثْنَا المَجْدَ عَنْ كُبْرَى نِزَارٍ فَأَوْرَثْنَا مَاثِرَنَا البَنِينَا

تأثره
بأسلوب
القرآن

التشابه
بين هذه
الجمهرة
وبين معلقة
ابن كلثوم

وهذا البيت هو أيضاً بعينه بيت ابن كلثوم في طويلته المشهورة ، والقصيدة
كلها في نظمها وقافيتها ، وطريقة فخرها مشابهة للمعلقة المذكورة :

وَكُنَّا حَيْثُ عَلِمَتْ مَعَدُّ أَقَمْنَا حَيْثُ سَارُوا هَارِبِينَ
تَنُوحُ وَقَدْ تَوَلَّتْ مُذْبِرَاتِ تَحَالُ سَوَادَ أَيْكَمِهَا عَرِينَا
فَأَنْبَتْنَا خَضَارِمَ نَاضِرَاتِ يَكُونُ نِتَاجُهَا عِنَبًا وَتِينَا
وَأَرْصَدْنَا لِرَيْبِ الدَّهْرِ جُرْدَا لَهَا مِيًا وَمَاذِيًا حَصِينَا
وَخَطَّيْنَا كَأَشْطَانِ الرَّكََايَا وَأَسْيَافًا يَتَقَمَّنُ وَيَنْحَنِيَا
وَفَتِينَا يَرُونَ الْقَتْلَ مَجْدَا وَشِيَا فِي الْحُرُوبِ مُجَرَّبِينَا
تُخْبِرُكَ الْقَبَائِلُ مِنْ مَعَدِّ إِذَا عَدُّوا سِعَايَةَ أَوْلِينَا
بِأَنَّ النَّازِلُونَ بِكُلِّ نَعْرِ وَأَنَا الضَّارِبُونَ إِذَا لَقِينَا
وَأَنَا الْمَانِعُونَ إِذَا أَرَدْنَا وَأَنَا الْمُقْبِلُونَ إِذَا دُعِينَا
وَأَنَا الْحَامِلُونَ إِذَا أَنَاخَتْ خُطُوبٌ فِي الْعَشِيرَةِ تَبْتَلِيَا
نُشْرِدُ بِالْمَخَافَةِ مِنْ أَتَانَا وَيُعْطِينَا الْمَقَادَةَ مِنْ يَلِينَا
إِذَا مَا الْمَوْتُ غَلَسَ بِالْمَنَايَا وَذَبَلَتْ الْمُهَنْدَةُ الْجُفُونَا
وَأَلْقِينَا الرِّمَاحَ وَكَانَ ضَرْبُ يَكْبُ عَلَى الْوُجُوهِ الدَّارِعِينَا
نَفَوْا عَنْ أَرْضِهِمْ عَدْنَانَ طُرَا وَكَانُوا بِالرَّعَايَةِ قَاطِنِينَا
وَهُمْ قَتَلُوا السَّنِيَّ أَبَا رُغَالٍ بِنَخْلَةٍ إِذِ يُسَوقُ بِهَا الظَّعِينَا

وأبورغال هذا هو دليل أبرهة الحبشى صاحب الفيل .

وفوده على
ابن جدعان
ولطف
استمناعه
إياه

وذكر أبو الفرج في كتابه : أنه وفد على عبد الله بن جدعان وكان سيداً
جواداً مضيافاً فصادفه عليلاً وعنده قينته تغنيانه ، فقال له : ما جاء بك ؟ فقال
كِلَابٌ غُرْمَاءُ نَبَحْتَنِي ، فقال ابن جدعان : قَدِمْتَ عَلَيَّ وَأَنَا عَكِيلٌ مِنْ حَقِيقِ

لَزِمْتَنِي فَأَنْظِرُنِي مَا فِي يَدِي ، وَقَدْ ضَمِنْتُكَ قِصَاءَ دِينِكَ وَلَا أَسْأَلُكَ عَنْ مَبْلَغِهِ ، فَأَقَامَ عِنْدَهُ أَيَّامًا وَكَأَنَّهُ اسْتَبْطَأَ جَائِزَتَهُ فَأَتَاهُ فَأَنْشَدَهُ :

أَأَذْكَرُ حَاجَتِي أَمْ قَدْ كَفَانِي حَيَاؤُكَ إِنَّ شِيَمَتَكَ الْحَيَاءُ
وَعِلْمُكَ بِالْحُقُوقِ وَأَنْتَ قَرَمٌ لَكَ الْحَسَبُ الْمُهَذَّبُ وَالسَّنَاءُ
كَرِيمٌ لَا يَغْيِرُهُ صَبَاحٌ عَنِ الْخَلْقِ الْجَمِيلِ وَلَا مَسَاءُ
تُبَارِي الرِّيحَ مَكْرُمَةً وَمَجْدًا إِذَا مَا الْكَلْبُ أَجْحَرَهُ الشَّتَاءُ
إِذَا أَثْنَى عَلَيْكَ الْمَرْءُ يَوْمًا كَفَاهُ مِنْ تَعَرُّضِهِ الشَّنَاءُ
فَارْضُكَ كُلَّ مَكْرُمَةٍ بَنَاهَا بَنُو تَيْمٍ وَأَنْتَ لَهَا سَمَاءُ
فَهَلْ تَخْفَى السَّمَاءُ عَلَى بَصِيرٍ وَهَلْ بِالشَّمْسِ طَالِعَةٌ خَفَاءُ

وهذه القطعة من شعره تحقق ما أشرنا إليه عند وصفنا له من ذهابه في السلاسة والركة وإسناء المديح على ما فيها من جمال التأتى وحسن التلطف في الطلب ، ويعتبر قوله « إذا أثنى عليك المرء » البيت ، وهو أعلا معانيه فيها من أنبل ما يوصف به العضاء من الناس .

روى أبو الفرج عن حدث عنه في كتابه قال : سألت سفيان بن عيينة عن قول النبي صلى الله عليه وسلم : (كَانَ مِنْ أَكْثَرِ دُعَاءِ الْأَنْبِيَاءِ قَبْلِي ، لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ وَحْدَهُ لَا شَرِيكَ لَهُ ، لَهُ الْمُلْكُ وَلَهُ الْحَمْدُ وَهُوَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ) ، وهو ذكر وليس فيه من الدعاء شيء ، فقال لي : أعرفت حديث مالك بن الحارث يقول الله جل ثناؤه : إِذَا شَغَلَ عَبْدِي ثَنَاؤُهُ عَلَيَّ عَنْ مَسْأَلَتِي أُعْطِيْتُهُ أَفْضَلَ مَا أُعْطِيَ السَّائِلِينَ » وساق بيت أمية هذا ، ثم قال سفيان :

فهذا مخلوق ينتسب إلى الجود ، فقيل له يكفيننا من مسألتك أن تُثني عليك وَنَسَكْتُ حَتَّى تَأْتِيَ عَلَيَّ حَاجَتُنَا فَكَيْفَ بِالْخَالِقِ جَلَّ وَعَلَا ، قَالُوا : وَإِنْ ابْنُ جُدَعَانَ أَعْطَاهُ إِحْدَى جَارِيَتَيْهِ فَمَرَّبَهَا عَلَيَّ جَمَاعَةً مِنْ قُرَيْشٍ فَتَدَمَّوهُ عَلَيَّ

حديث مالك
ابن الحارث
وشعر أمية

أخذها ، وأنه لو رجع فردّها إليه لأعظّم ذلك عنده لمكان هذه القبيّة من نفسه ، وما زالوا به حتى عاد إليه فدكر له عبد الله ما فعل به الملائ من قريش وأعطاه الثانية ، فقال أميّة أيضاً :

عَطَاؤُكَ زَيْنٌ لِأَمْرِي إِنْ حَبَوْتَهُ بِيَذُلِّ وَمَا كُلُّ الْعَطَاءِ يَزِينُ
وَلَيْسَ بِشَيْنٍ لِأَمْرِي بَذَلٌ وَجْهِي إِلَيْكَ كَمَا بَعْضُ السُّؤَالِ يَشِينُ

وهذان أيضاً مما لا يتكلم به إلا عند الملوك والأغلياء من الناس ، وهو معنى طبيعي والعبارة عنه مختصرة ، وكان ابن جدعان أول من أطعم الناس الفالوذ ، وذلك أنه أكله عند كسرى فسأل عنه ، فقيل له هذا لباب البرّ يلبك مع عسل النحل ، فقال أبو نوني غلاما يصنعه ، ثم قدم مكة فصنعه للناس واعترضهم به في الأبطح ، فقال أميّة من أبيات له :

لَهُ دَاعٍ بِمَكَّةَ مُشْمَعِلٌ وَآخِرُ فَوْقِ دَارَتِهِ يُنَادِي
إِلَى رُذْحٍ مِنَ الشِّيزَى مِلًّا لِبَابِ الْبُرِّ يُلْبِكُ بِالشَّهَادِ

الشيزى : خشبٌ تُتخذُ منه القصاع ، وكان له بنون هم : ربيعةٌ والقاسمُ ووهبٌ ، وكان القاسمُ شاعراً ، وينسبُ إليه وإلى أبيه هذه الأبيات :

قَوْمٌ إِذَا نَزَلَ الْغَرِيبُ بِدَارِهِمْ رَدُّوهُ رَبَّ صَوَاهِلِ وَقِيَانِ
وَإِذَا دَعَوْتَهُمْ لِكُلِّ مُلْمَةٍ سَدُّوا شُعَاعَ الشَّمْسِ بِالْفُرْسَانِ
لَا يَنْكُتُونَ الْأَرْضَ عِنْدَ سَوْأَلِهِمْ لِتَلَسُّ الْعِلَاتِ بِالْعِيدَانِ
بَلْ يَبْسُطُونَ وَجُوهَهُمْ فَتَرَى لَهَا عِنْدَ السُّؤَالِ كَأَحْسَنِ الْأَلْوَانِ

ويظن أن من هؤلاء من كان يصاحبه على هونٍ كما يصنع كثير من طبقات المتعلمين خاصة من أبناء زماننا مع آبائهم وأهليهم إذ يرونهم من أهل جيل سالف لا يصلحون لهذه الحياة العصرية فيرمونهم بالجمود وضعف الرأي ، ويأفون

أول من
أطعم الناس
الفالوذ

من أزيائهم الريفية ، ولا يظَاهِرُونَ بهم محاضِرَ الناس ، فقال أُمِّيَّةٌ يقرّر هذه
الحالة في الشكوى من عمق ولده :

غَدَوْتُكَ مَوْلُودًا وَعُلْتُكَ يَافِعًا تُعَلُّ بِمَا أُخْنِي عَلَيْكَ وَتُنْهَلُ
إِذَا لَيْلَةٌ نَابَتْكَ بِالشُّكْرِ لَمْ أَبِتْ لِشُكُوكَ إِلَّا سَاهِرًا أَتَمَلُّ
كَأَنِّي أَنَا المَطْرُوقُ دُونَكَ بِالنِّدَى طُرِقْتَ بِهِ دُونِي فَعَيْنَايَ تَهْمِلُ
تَخَافُ الرَّدَى نَفْسِي عَلَيْكَ وَإِنِّي لَتَعْلَمُ أَنَّ المَوْتَ وَقْتُ مَوْجَلُ
فَلَمَّا بَلَغْتَ السَّنَّ وَالغَايَةَ الَّتِي إِلَيْهَا مَدَى مَا كُنْتُ فِيكَ أُوَمِّلُ
جَعَلْتَ جَزَائِي غِلْظَةً وَفِظَاطَةً كَأَنَّكَ أَنْتَ المُنْعِمُ المُنْفَضِلُ
وَسَمَّيْتَنِي بِاسْمِ المُنْعَدِّ رَأْيُهُ وَفِي رَأْيِكَ التَّفْنِيدُ لَوْ كُنْتَ تَعْقِلُ
فَلَيْتَكَ إِذْ لَمْ تَرَ حَقَّ أُوْتِي فَعَلْتَ كَمَا الجَارُ المَجَاوِرُ يَفْعَلُ

صدق
تصوره
لعمق
الأبناء
لآبائهم

فترى أنه كان دقيق التصوير لهذه الحالة الاجتماعية التي تمثل فيما يكون
من حدب الآباء ، وتعطفهم وإشفاقهم ، وما يُجَزَّون به من طيش أبنائهم وقسوتهم
في اعتراضهم إلى مكاره الآباء بما يغضبهم ، وَيَشُقُّ عَلَيْهِمْ ، وهي مطبوعة النظم
سائغة الأسلوب .

شعره في الكونيات

قال وذكر الفناء وما يلقاه الناس بعد ذلك :

إِلَهَ العَالَمِينَ وَكُلِّ أَرْضٍ وَرَبِّ الرَّاسِيَاتِ مِنَ الجِبَالِ
بَنَاهَا وَأَبْتَنَى سَبْعًا شِدَادًا بِلَا عَمَدٍ يُرِينَنَّ وَلَا رِجَالِ
وَسَوَّاهَا وَزَيَّنَهَا بِنُورٍ مِنَ الشَّمْسِ المُضِيئَةِ وَالهِلَالِ
وَمِنْ شُهْبٍ تَلَا فِي دُجَاهَا مَرَامِيهَا أَشَدُّ مِنَ النَّصَالِ

وَشَقَّ الْأَرْضَ فَاَنْبَجَسَتْ عِيُونًا . وَأَنْهَارًا مِنْ الْعَذْبِ الزَّلَالِ
 وَبَارَكَ فِي نَوَاحِيهَا وَزَكَى . بِهَا مَا كَانَ مِنْ حَرْثٍ وَمَالٍ
 فَكُلُّ مُعَمَّرٍ لَا بُدَّ يَوْمًا . وَذِي دُنْيَا يَصِيرُ إِلَى زَوَالٍ
 وَيَفْنَى بَعْدَ جِدَّتِهِ وَيَبْلَى . سِوَى الْبَاقِيِ الْمُقَدَّسِ ذِي الْجَلَالِ
 وَسِيقَ الْمُجْرِمُونَ وَهُمْ عُرَاةٌ . إِلَى ذَاتِ الْمَقَامِعِ وَالنَّكَالِ
 فَتَادُوا وَيَلْنَا وَيَلَّا طَوِيلًا . وَعَجُّوا فِي سَلَاسِلِهَا الطَّوَالِ
 فَلَيْسُوا مَيِّتِينَ فَيَسْتَرِيحُوا . وَكُلُّهُمْ بِحَرِّ النَّارِ صَالٍ
 وَحَلَّ الْمُتَّقُونَ بَدَارِ صِدْقٍ . وَعَيْشٍ نَاعِمٍ تَحْتَ الظَّلَالِ
 لَهُمْ مَا يَشْتَهُونَ وَمَا تَمَنَّوْا . مِنْ الْأَفْرَاحِ فِيهَا وَالسَّكَالِ

ومثلها في أكثر معانيها قوله :

وَيَوْمَ مَوْعِدِهِمْ أَنْ يُحْشَرُوا زُمَرًا . يَوْمَ التَّغَابُنِ إِذْ لَا يَنْفَعُ الْحَدْرُ (١)
 مُسْتَوْسِقِينَ مَعَ الدَّاعِي كَأَنَّهُمْ . رَجُلُ الْجَرَادِ زَفْتَهُ الرِّيحُ تَفْتَشِرُ (٢)
 وَأُبْرِزُوا بِصَعِيدٍ مُسْتَوْ جُرُزٍ . وَأُنزِلَ الْعَرْشُ وَالْمِيزَانُ وَالزُّبُرُ (٣)
 وَخُوسِبُوا بِالَّذِي مَا يُحْصِيهِ أَحَدٌ . مِنْهُمْ وَفِي مِثْلِ ذَلِكَ الْيَوْمِ مُعْتَبِرُ
 فَمِنْهُمْ فَرِحَ رَاضٍ مَعِيشَتَهُ . وَأَخْرُونَ عَصَوْا مَاؤَاهُمْ سَقَرُ
 يَقُولُ خَزَائِنُهَا مَا كَانَ عِنْدَكُمْ . أَلَمْ يَكُنْ جَاءَكُمْ مِنْ رَبِّكُمْ نَذْرُ
 قَالُوا بَلَى فَاطْعَنَا سَادَةً بَطْرُوا . وَغَرَّنا طَوْلُ هَذَا الْعَيْشِ وَالْعُمُرُ
 قَالُوا امْكُثُوا فِي عَذَابِ اللَّهِ مَالِكُمْ . إِلَّا السَّلَاسِلُ وَالْأَغْلَالُ وَالشُّعُرُ

(١) الزمر : جمع زمرة ، وهي الجماعة ، ويوم التغابن : هو يوم القيامة . قال في
 القاموس : سمي بذلك لأن أهل الجنة تنبأ أهل النار ، والغبين : أصله النسيان والافعال ،
 وهو أيضاً الضعف . (٢) والرجل : جماعة الجراد .
 (٣) الجرز : الأرض لانتبت شيئاً .

وله غير ذلك قصائد في ذكر الآخرة والجنة والنار كما ترى يكاد أكثر معانيها يكون مقتبساً من القرآن كقوله ، وهو بقية من قصيدة :

عِنْدَ ذِي الْعَرْشِ يُعْرَضُونَ عَلَيْهِ يَعْلَمُ الْجَهَنَّمَ وَالْكَلامَ الْخَفِيًّا
يَوْمَ نَأْتِيهِ وَهُوَ رَبُّ رَحِيمٌ إِنَّهُ كَانَ وَعْدُهُ مَأْتِيًّا
يَوْمَ تَأْتِيهِ مِثْلَ مَا قَالَ فَرْدًا لَمْ يَذُرْ فِيهِ رَاشِدًا وَغَوِيًّا
أَسْعِيدُهُ سَعَادَةً أَنَا أَرْجُو أَمْ مَهَانٌ بِمَا كَسَبْتُ شَقِيًّا
رَبِّ إِنْ تَعَفُّ فَالْمُهَافَاةُ ظَنِّي أَوْ تَعَاقِبْ فَلَمْ تَعَاقِبْ بَرِيًّا
رَبِّ كَلَّا حَتَمْتَهُ وَارِدَ النَّارِ كِتَابًا حَتَمْتَهُ مَقْضِيًّا

أأخذه من
القرآن
وتقصيره في
الأداء

ونكتفي بهذا القدر لنذكر أساطيره ، وما تناوله من الخرافات والحديث عن الحيوان . قال يذكر سفينة نوح وما حملت من أزواج ، ويتحدث عن الخرافات القديمة في الحمامة المطوقة ، وأنها حين دلت أصحاب السفينة على الأرض اليابسة أعطوها هذا الطوق ، فلزم جيدها :

وَأُرْسِلَتْ الْحَمَامَةُ بَعْدَ سَبْعِ تَرِكَ عَلَى الْمَهَالِكِ لَا تَهَابُ
فَجَاءَتْ بَعْدَ مَا رَكَضَتْ بِقِطْفِ عَلَيْهِ النَّاطُ وَالطَّيْنُ الْكُثَابُ (١)
فَلَمَّا فَتَشُوا الْآيَاتِ صَاغُوا لَهَا طَوْقًا كَمَا عَقَدَ السَّخَابُ (٢)
إِذَا مَاتَتْ تُورِثُهُ بَنِيهَا وَإِنْ تُقْتَلُ فَلَيْسَ لَهُ اسْتِلابُ
جَزَى اللَّهُ الْأَجَلَ الْمَرءَ نُوحًا جَزَاءَ الْبِرِّ لَيْسَ لَهُ كِذَابُ
بِمَا حَمَلَتْ سَفِينَتُهُ وَأَنْجَتْهُ غَدَاةً أَتَاهُمُ الْمَوْتُ الْقَلَابُ (٣)
وَفِيهَا مِنْ أَرْوَمَتِهِ عِيَالٌ لَدَيْهِ لَا الظَّمَاءُ وَلَا السَّغَابُ

شعره في
الأساطير

(١) القطف بالكسر : العنقود والثمار المقطوفة . الناط : الحمامة ، وهي الطين الأسود .
الكتاب كغراب : الكثير . (٢) السخاب ككتاب : عقد من قرنفل ونحوه ليس فيه جوهر . (٣) القلاب كغراب : داء للقلب .

عَشِيَّةَ أَرْسَلَ الطُّوفَانَ يُجْرِي وَقَاضَ الْمَاءَ لَيْسَ لَهُ جِرَابُ
على أمواجٍ أَخْضَرَ ذِي حَبِيكَ كَأَنَّ سَعَارَ زَافِرِهِ الْهَضَابُ

وقال يذكر قصة إبراهيم ونذره ولده لله ، وما كان من حديث الذبح كما

ورد في القرآن .

نذر إبراهيم
ذبح ولده

وَلِإِبْرَاهِيمَ الْمُؤْتَى بِاللَّيْلِ رِ احْتِسَابًا وَحَامِلِ الْأَجْزَالِ
بِكُرْهُ لَمْ يَكُنْ لِيَصْبِرَ عَنْهُ أَوْ يَرَاهُ فِي مَعْشَرٍ أُقْتَالِ
يَا بُنَيَّ إِنِّي نَذَرْتُكَ لِلَّهِ شَحِيحًا فَأَصْبِرْ فِدَى لَكَ خَالِي
فَأَجَابَ الْغُلَامُ أَنْ قَالَ فُوهُ كُلُّ شَيْءٍ لِلَّهِ غَيْرَ انْتِحَالِ
أَبَتِي إِنِّي جَزَيْتُكَ بِاللَّهِ تَقِيًّا بِهِ عَلَى كُلِّ حَالِ
فَاقْضِ مَا قَدَّ نَذَرْتَ لِلَّهِ وَأَكْفِفْ عَن دَمِي أَنْ يَمَسَّهُ سِرْبَالِي
وَأَشْدُدِ الصَّفْدَ أَنْ أَحِيدَ عَنِ السَّكِينِ حَيْدَ الْأَسِيرِ ذِي الْأَغْلَالِ
بَيْنَمَا يَخْلَعُ السَّرَابِيلَ عَنْهُ فَكُهُ رَبُّهُ بِكَبْشِ جُلَالِ
قَالَ خُذْهُ وَأَرْسِلِ ابْنَكَ إِنِّي لِلَّذِي فَعَلْتُمَا غَيْرُ قَالَ

وظاهر من هذه الركاكة في نظم القصة فرق ما بينها وبين ما ورد من

ذلك في القرآن ، وقال أيضا يذكر قصة مريم :

وَفِي دِينِكُمْ مِنْ رَبِّ مَرْيَمَ آيَةً مُنْبِئَةً وَالْعَبْدُ عِيسَى بْنُ مَرْيَمَ
تَدَلَّى عَلَيْهَا بَعْدَ مَا نَامَ أَهْلُهَا رَسُولٌ فَلَمْ يَحْضُرْ وَلَمْ يَتَّعَرَفْ
فَقَالَ أَلَا لَأَتَجَزَّعِي وَتُكَذِّبِي مَلَائِكَةً مِنْ رَبِّ عَادٍ وَجُرْهُمِ
أَنْبِيٍّ وَأَعْطَى مَا سَأَلَتْ فَإِنِّي رَسُولٌ مِنَ الرَّحْمَنِ يَا تُبَيْكِ يَا بِنِي
فَقَالَتْ لَهُ أَنِّي يَكُونُ وَلَمْ أَكُنْ بَغِيًّا وَلَا حُبْلَى وَلَا ذَاتَ قِيَمِ

قصة مريم

أَخْرَجُ بِالرَّحْمَنِ إِنْ كُنْتَ مُسْلِمًا كَلَامِي فَأَقْعُدْ مَا بَدَأَ لَكَ أَوْقُمِ
فَسَبَّحَ ثُمَّ اغْتَرَّهَا فَالْتَقَتْ بِهِ غَلَامًا سَوِيَّ الْخَلْقِ لَيْسَ بِتَوَامِ
بِنَفْحَتِهِ فِي الصَّدْرِ مِنْ جَيْبِ دِرْعِهَا وَمَا يَصْرِمُ الرَّحْمَنُ مِالَ أَمْرِ يُصْرِمُ

إلى قوله على لسان عيسى :

فَقَالَ لَهَا إِنِّي مِنَ اللَّهِ آيَةٌ وَعَلَّمَنِي وَاللَّهُ خَيْرٌ مَعْلَمٌ
وَأُرْسِلْتُ لَمْ أُرْسَلْ غَوِيًّا وَلَمْ أَكُنْ شَقِيًّا وَلَمْ أُبْعَثْ بِفُحْشٍ وَمَأْتَمٌ

وهنا أيضا من رداءة القوافي وقلق الكلمات مالا يخفى على بصير .
على أن الشاعر حاول تقليد بلاغة القرآن في الأداء فأعجزه ذلك وقطعه
بل أوقعه في هذا الاضطراب والإسفاف ، ووضع هذه الفضول الفارغة من المعنى
كقوله : « رب عاد وجرهم » ، وقوله : « يأتيك بابنم » ، « وليس بتوأم » ،
ولا يخفى نبوتها وسماجتها في موضعها .

وقال يذكر خراب سدوم ، وهي مدينة لوط وما وقع له مع قومه من
بقية قصيدة :

ثُمَّ لُوطٌ أَخُو سَدُومَ أَتَاهَا إِذْ أَتَاهَا بِرُشْدِهَا وَهُدَاهَا
رَأَوْدُوهُ عَنِ ضَيْفِهِ ثُمَّ قَالُوا قَدْ نَهَيْتُكَ أَنْ تُسِيمَ قَرَاهَا
عَرَّضَ الشَّيْخُ عِنْدَ ذَلِكَ بَنَاتِ كَطِبَاءَ بِأَجْرُعِ مَرَعَاهَا
غَضِبَ الْقَوْمُ عِنْدَ ذَلِكَ وَقَالُوا أَيُّهَا الشَّيْخُ خِطْبَةٌ نَأْبَاهَا
أَرْسَلَ اللَّهُ عِنْدَ ذَلِكَ عَذَابًا جَعَلَ الْأَرْضَ سَفْلَهَا أَعْلَاهَا
أَجْمَعَ الْقَوْمُ أَمْرَهُمْ وَعَجَّزُوا خَيْبَ اللَّهُ سَعِيهَا وَرَجَاهَا
وَرَمَاهَا بِحَاصِبٍ ثُمَّ طِينِ ذِي حُرُوفٍ مُسَوِّمِ إِذْ رَمَاهَا

سدوم
قرية لوط

وقال في غارة الأحباش على الكعبة ، وأشار إلى قصة الفيل ، وفيها ذكر
الحنيفة : وأن كل دين غيرها عند الله زور يوم القيامة :

إِنَّ آيَاتِ رَبِّنَا بِآيَاتٍ لَا يُمَارَى فِيهَا إِلَّا الْكُفُورُ
 خَلَقَ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ فَكُلٌّ مُسْتَبِينٌ حِسَابُهُ مَشْهُورٌ
 ثُمَّ يَجْلُو الظَّلَامَ رَبُّ كَرِيمٌ بِمَهَابَةٍ شِعَاعُهَا مَنْشُورٌ
 حَبَسَ الْفِيلَ بِالْمَغْسِ حَتَّى ظَلَّ يُحِبُّو كَأَنَّهُ مَعْقُورٌ
 لَأَزِمًا خَلَقَةَ الْجِرَانَ كَمَا قُطِّعَ مِنْ صَخْرٍ كَبْكَبٍ مَحْدُورٌ
 حَوْلَهُ مِنْ مُلُوكٍ كِنْدَةٌ أَبْطَا لَ مَلَاوِيثُ فِي الْحُرُوبِ صَقُورٌ

ثم انتهى بقوله :

كُلُّ دِينٍ يَوْمَ الْقِيَامَةِ عِنْدَ اللَّهِ إِلَّا دِينَ الْحَنِيفَةِ زُورٌ

ومن حديثه عن الحيوان كلامه عن قُرْعَةِ الْهُدْهِدِ ، وذلك أن من الخرافات المأثورة أن الهُدْهِدَ لما ماتت أمه أراد أن يبرّها فحملها على رأسه ، وَبَقِيَتْ كذلك حتى تولدت منها هذه القُرْعَةُ التي فوق رأس الهدهد ، وذلك هو معنى قوله من قصيدة :

قُرْعَةُ
الهدهد

غَيْمٌ وَظَلْمَاءٌ وَغَيْثٌ سَحَابَةٌ أَيَّامٌ كَفَنَ وَأَسْتَرَادَ الْهُدْهُدُ
 يَبْغِي الْقَرَارَ لِأُمِّهِ لِيُجْنِبَهَا قَبِيَّ عَلَيْهَا فِي قَفَاهُ يَمْهَدُ
 مَهْدًا وَطِيًّا فَأَسْتَقَلَّ بِحِمْلِهِ فِي الطَّيْرِ يَحْمِلُهَا وَلَا يَتَأَوَّدُ
 فَتَرَاهُ يَدْلُحُ مَاشِيًا بِجِنَارَةٍ . منها وما اُخْتَلَفَ الْجَدِيدُ الْمَسْنَدُ

ومن الخرافات أيضا أن الديك والغراب كانا نَدِيمَيْنِ فِي سَالِفِ الدَّهْرِ لَا يَفْتَرِقَانِ وَأَنْهَمَا ذَهَبَا يَوْمًا إِلَى سَخَّارٍ ، فَكَثَا عِنْدَهُ ثُمَّ إِنَّ الْغُرَابَ رَهَنَ الدِّيكَ عِنْدَ السَّخَّارِ وَغَابَ عَنْهُ عَلَى أَنْ يَعُودَ إِلَيْهِ بِالْفِكَالِ فَلَمْ يَفْعَلْ ، فَأَخَذَ السَّخَّارِ الدِّيكَ فَجَعَلَهُ حَارِسًا ، وَقَدْ أَشَارَ إِلَى هَذِهِ الْخُرَافَةِ فِي جُمْلَةٍ مَوَاضِعَ مِنْ شِعْرِهِ ، فَمِنْ ذَلِكَ قَوْلُهُ مِنْ قَصِيدَةٍ تَقْدِمُ مَعْظَمَهَا :

بَايَةَ قَامَ يُنْطِقُ كُلَّ شَيْءٍ وَخَانَ أَمَانَةَ الدِّيكِ الْغُرَابُ

وقوله :

أسطورة
الديك
والغراب

هَذَاكَ ظَنَّ الدِّيكُ أَنَّ دَالَ دَوْلَةً وَطَالَ عَلَيْهِ اللَّيْلُ أَنْ لَا مُفَادِيَا
فَلَمَّا أَضَاءَ الصُّبْحُ طَرَبَ صَرْخَةً أَلَا يَا غُرَابُ هَلْ سَمِعْتَ نِدَائِيَا
عَلَى وَدِّهِ لَوْ كَانَ ثُمَّ مُجِيبُهُ وَكَانَ لَهُ نَدْمَانٌ صِدْقِ مُوَاتِيَا
وَأَمْسَى الْغُرَابُ يُضْرِبُ الْأَرْضَ كُلَّهَا عَتِيْقًا وَأَخْحَى الدِّيكُ فِي الْقَدِّ عَانِيَا
فَذَلِكَ مِمَّا أَشْهَبَ الْحُرَّ لَبُهُ وَنَادَمَ نَدْمَانًا مِنَ الطَّيْرِ غَاوِيَا

وله غير ذلك عدة قصائد أشار فيها إلى قصة ثمود وما كان من عقربهم للناقة ، وكذلك رسالة موسى وهرون إلى فرعون وملئه وألم أيضا بالمناقشة التي وقعت بينهما في رُبُوبِيَّةِ الرَّبِّ ، وقد رأينا أن نكتفي بما ذكرناه له من الأمثلة إذ كانت متشابهة لاتدل على شيء أكثر من نقل الشاعر لها من الكتب كما أسلفنا ، ومع ذلك فهي تكاد تخلو من جمال الشعر وحسن الكلام ، ويظن أن آخر شعر قاله عند موته هو قوله :

كُلُّ عَيْشٍ وَإِنْ تَطَاوَلَ دَهْرًا صَائِرٌ مَرَّةً إِلَى أَنْ يَزُولَا
لَيْتَنِي كُنْتُ قَبْلَ مَا قَدَّ بَدَا لِي فِي رُءُوسِ الْجِبَالِ أُرْعَى الْوُعُولَا
فَاجْعَلِ الْمَوْتَ نُصْبَ عَيْنَيْكَ وَأَخْذَرُ غَوْلَةَ الدَّهْرِ إِنَّ لِلدَّهْرِ غُولَا

أما رثاؤه لقتلى بدر وهو ما يدل بلا ريب على خسارِهِ وَعَمَائَتِهِ بعد أن كاد ينجو من الكفر فهو يؤيد أيضا ما روى عنه من أنه كان يطمع في النبوة وأن الذي غيره إنما هو الحسد وسوء المنقلب : وذلك أنه لما ظهر الإسلام رحل إلى الشام ثم رجع إلى الحجاز عقب بدر ، ومرَّ بالقَلْبِيبِ فقيل له : إن فيه قتلى بدر ، ومنهم عتبه وشيبة أبنا ربيعة ، وهما ابنا خاله ، فقال يرثيهم ويحرض كفار مكة على الأخذ بثأرهم من النبي وأصحابه .

أَلَّا بَكَيْتَ عَلَى الْكِرَامِ بَنِي الْكِرَامِ أُولَى الْمَادِحِ
كَبُكَ الْحَمَامِ عَلَى فُرُوعِ الْأَيْكِ فِي الْفُصْنِ الْجَوَانِحِ
يَبْكِينَ حَرَى مُسْتَكِينَا تِ يَرُخْنَ مَعَ الرِّوَانِحِ
ثم يقول :

مَنْ ذَا بِيَدْرِ فَالْعَقَنَقَلِ مِنْ مَرَازِبِهِ جَحَاجِحِ
شُطِّ وَشُتْبَانِ بِهَالِيلِ مَغَاوِيرِ دَحَادِحِ
مَنْ كُلِّ بِطَرِيقِ لِطَرِيقِ نَقِيَّ اللَّوْنِ وَاصِحِ
الْقَائِلِينَ الْفَاعِلِينَ الْأَمْرِينَ بِكُلِّ صَالِحِ
إلى قوله :

وَلَقَدْ عَنَانِي صَوْتُهُمْ مِنْ تَيْنِ مُسْتَشَقِّ وَصَاحِحِ
لِلَّهِ دَرُّ بَنِي عَالِيٍّ أَيْمٍ مِنْهُمْ وَنَاكِحِ
إِنْ لَمْ يُغَيِّرُوا غَارَةَ شَعْوَاءِ تُجْجِرُ كُلَّ نَابِحِ
بِالْمُقَرَّبَاتِ الْمُبْعِدَاتِ الطَّائِحَاتِ مَعَ الطَّوَامِحِ
مَرُّوا عَلَى جُرْدٍ إِلَى أَسَدِ مَكَالِبَةٍ كَوَالِحِ

وقد نهى النبي عن رواية هذه القصيدة ، وله قصيدة ذكر فيها النبي
وَقَرَّظَهُ ، وفضل دينه على الأديان ، والراجح أنها مفتعلة لمخالفتها لما عرف من
مذهبه ونفاره بعد ظهور الدعوة كما قدمنا ، والله أعلم .

ترجمة حاتم الطائي

تقديم
كان لهجرة الطوائف القحطانية من بلاد اليمن إلى شمال الجزيرة أثر قوى في ترقية الحياة الاجتماعية ، وتأليف الإمارات المختلفة ، وإنشاء العلاقات السياسية مع الأمم المجاورة ، وتنبيه رؤساء القبائل المضربة إلى ضرورة إيجاد وحدة قومية خاضعة لسلطان قائم على تنظيم النزاع المستحضر بين العشائر العربية على وسائل العيش وأساليب الاكتساب ، فقد أسس اللخميون منهم إمارة الحيرة ببلاد العراق ، وبقيت موالية لنفوذ الفرس إلى ما بعد ظهور الإسلام .

وكان الغسانيون من أبناء جفنة ، وينتمون إلى الأزدي من اليمن ولاة لقياصرة القسطنطينية في بلاد الشام ، وامتد ملكهم في دمشق إلى وقت ظهور الغزاة المسلمين على أبواب البلاد ، ونشأت في نجد إمارة أخرى أسسها الكنديون بعد نزوحهم من اليمن كان بينها وبين القسطنطينية عهود وسفارات أدت إلى انحياز ملوك كندة مع الغسانيين من حلفاء الروم على أعدائهم من الفرس وولاتهم من عرب العراق :

أشراف طيء
وحول أوائل التاريخ المسيحي هاجرت طيء إلى شرق مكة في نجد ، ونزلت بأحاً وسلمى المعروفين فيما بعد بجبلى طيء ، وقد نبغ منها جماعة منهم : إياس بن قبيصة ولاءه كسرى بلاط الحيرة بعد مقتل النعمان الخامس إلى سنة ٦١٣ م ، ومنهم صهر ملوك المناذرة سعد بن حارثة بن لام الطائي ، وكان له ولقومه رُبْعُ الطريق طعمة منهم لمكان هذا الصهر ، ومنهم أوس بن حارثة وأمه سعدى ، وهي التي أشارت عليه حين هجاه بشر بن أبي خازم بأن يصله ويقضى حوائجه فأدى ذلك إلى أن أفرغ عليه بشر مديحه حتى مات ، ومن فرسانها وأجوادها زيد الخيل النبهاني الذي سماه رسول الله صلى الله عليه وسلم

زيد الخير ، وهو قائدهم وصاحب لوأئهم ، وكان شاعراً شجاعاً شريفاً .
ومنهم حاتم الطائي الجواد المشهور الذي يضرب به المثل في الكرم ،
وأبوه عبد الله وجده سعد بن الحشرج من سادات طيء ، وأمه غنيرة وقيل
عنة بنت عفيف ، وكانت ذات يسار وتعد من أجود نساء العرب .
والمرجح أنه قضى حياته في النصف الثاني من القرن السادس الميلادي إلى
أوائل السابع ، وقد ورت ما اشتهر به من مناقبه في الجود والعفاف والوفاء عن
آباء نبلاء لهم عرق في الرياسة وعلو الأمر في طيء ، ويصفه أكثر الرواة بأنه
كان ميمون النقيبة مظفراً ، إذا غزا غلب ، وإذا سلب أنهب ، ولا يمنع ذلك
من وقوعه في الأسر مرة أو مرتين كما سيجيء .
وقد استفاضت أعاجيبه في الكرم حتى أدى ذلك إلى اختلاط تاريخه
بكثير من الحكايات المدخولة والقصص الخرافية لما جرت به عادة الناس
من حبهم للتزيد ، وميلهم إلى الاستطراف بالغرائب عند انتشار الشهرة
وشيوخ الذكر .

رأى الزبير
ابن بكار فيما
يسب إلى
حاتم من
الأخبار

ويقول أبو عبد الله الزبير بن بكار المتوفى سنة ٢٤٦ هـ وهو من رواة
أبي الفرج في الأغاني « والعرب تتحدث بأشياء هي عندها صحيحة ، وقد
نظقت بذلك أشعارها وتمثلت به ، ولا تكاد النفس تصدق بها ، وأحسب أمر
حاتم حيلة من ورثته ونسبوه إليه والله أعلم ، أو من الجن وهو عندي أشبه »
وتدرك مكان هذا النقد من الصواب حين تقرأ الحكاية الآتية :

زعموا أن رجلاً يقال له أبو الخيبرى مرَّ مسافراً في نفرٍ من قومه بقبر حاتم
في مكان يقال له تُنْغَةُ بضم التاء ، وفي ياقوت : أن قبره بمكان آخر يسمى
عوارض بضم العين حوله أنصابٌ من حجارة متقابلات كأنهن نساء نوائح
فخزلوا به وبات أبو الخيبرى ليئلته يناديه : « إقر أضيافك يا حاتم ، أقر

أضيافك » ، يريد أن يُبَخِّلَهُ ويشهر أمره في العرب ، فلما كان السحر هبَّ
 فَرِعًا يَصِيحُ : وَارَاحِلَتَاهُ ! وَارَاحِلَتَاهُ ! فقال له أصحابه : ويلك ما دهاك ؟ قال
 خرج والله حاتم من قبره بالسيف ، وأنا أنظر إليه حتى عقر ناقتي ، قالوا كذبت
 لا يخرج ميت من قبر مرسوس عليه ، قال بلى والله قد فعل ، ثم نظروا إلى
 راحلته فوجدوها عقرى لا تنبعث ، فقالوا والله لقد قرأك حاتم ، ثم عمدوا إليها
 فنحروها ، وظلوا يومهم مُعَرِّسِينَ عليها يأكلون من لحمها ، ثم ارتحلوا وأردفوه ،
 وإذا هم براكب يصيح خلفهم : أَلَا أُرَبِّعُوا أَيُّهَا الركب فنظروا ، فإذا عدى بن
 حاتم ومعه راحلة مجنوبة زعم لهم أن حاتم أتاه في منامه وأخبره خبرهم ، وأمره
 أن يلحق بهم ليخلف على صاحبهم راحلته ، وأنشده في ذلك أبياتا حفظها ،
 وهي قوله :

قصة أبي
 الخيبري
 وأصحابه

أَبَا الْخَيْبَرِيِّ وَأَنْتِ امْرُؤٌ حَسُودٌ الْعَشِيرَةِ شَتَامُهَا
 أَتَيْتَ بِصَحْبِكَ تَبْغِي الْقَرَى لَدَى رِمَّةٍ صَدَحَتْ هَامُهَا
 أَتَبْغِي لِي الدَّمَ عِنْدَ الْمَبِيتِ وَحَوْلَكَ غَوْتٌ وَأَنْعَامُهَا
 فَإِنَّا سَنَشْبَعُ أَضْيَافَنَا وَنَأْتِي الْمَطِيَّ فَنَعْتَامُهَا

ولسنا في حاجة إلى التعليق على هذه القصة بأكثر مما قدمناه .

ومن ذلك أيضاً ما رواه يعقوب بن السكيت خاصة قال :

بينما حاتم يوما وقد أنهب ماله وهو نائم إذا تنبه وإذا حوله مائتا بعير تجول
 ويحطم بعضها بعضاً فساقها إلى قومه ، فقالوا له يا حاتم : أبق على نفسك فقد
 رزقت مالا ولا تعودن إلى ما كنت عليه من الإصراف ، قال فإنها نُهَبِي بينكم
 فاتهبته ، فقال حاتم في ذلك :

حكاية
 ابن السكيت
 عن حاتم في
 إنهابة ماله

تَدَارَكُنِي جَدِّي بِسَفْحِ مُتَالِعٍ فَلَا يَيْأَسُنْ ذُو نَوْمَةٍ أَنْ يُغْنَمَا

ومن الأخبار المدخولة ما يحكيه الرواة أن عبيد بن الأبرص ، والنابغة
و بشر بن أبي خازم ، مرّوا بحاتم في طريقهم إلى النعمان بن المنذر فقروا لهم
وأنزلهم وصحبهم إلى الحيرة في خبر مذكور ، والمعروف أن عبيدا لم يدرك النعمان ،
والمشهور أنه قتل بيد المنذر الثالث جدّ النعمان المذكور ، وبذلك يعرف ما في
هذه الرواية من خطأ البحث .

ويقولون أيضاً إن أمه رأت في منامها وهي حبلية كأن قائلاً يقول لها : أغلام
ستمحّ يقال له حاتم أحبُّ إليك ؟ أم غلّة عشرة كالنّاس ، ليؤث ساعة البأس ،
ليسوا بأوغالٍ ولا أنكاسٍ ؟ فقالت بل حاتم أحبُّ إليّ ، على خلاف المشهور
عند العرب من اعتزازهم بالعدد ومباهاتهم بالكثرة على أنه لا مانع من وقوع
مثل هذه القصة ، مع ما قدمناه من شهرة أمه ومكانها في السخاء والسماحة .
وأكثر الرواة يذكرون قصة زواجه بمارية ابنة عفّز إحدى
أميرات الحيرة .

حدث جماعة من علماء طي قالوا : وكانت من أجمل أهل زمانها وشهر
في الناس أنها ترتاد الرجال ، وبأنها نذرت ألا ينخطبها كريم إلا تزوجته
فتناذرها الناس ، وقدم عليها من الجبلين : أوس بن حارثة بن لأم الجدلي ،
وزيد الخليل النبهاني ، وحاتم بن عبد الله ، فقالت لهم ما جاء بكم ؟ قالوا :
أتيناك خطابا ، قالت : وما الذي بلغ من أفعالكم أن اجترأتم على خطبتي ؟

فقال أوس بن حارثة : إني أخذت ذات يوم من شاربى ، فقالت لي
سعدى أُمّى إن لأخذك من شاربك عليك حقا ، فأعتقت بكل شعرة سبية
من العرب ، ولى أربعة آباء وقد ربّعوا العوث وجديلة ، ولى أربعة بنين كلهم
منى خلف . قالت أمسك .

اجتماع عبيد
والنابغة
وبشر وحاتم
وآتهم هذا
الخبر

رؤيا أمه في
النوم

ثم سألت زيدا فقال لها : أنا زيد الخيل وباسمى تُغِيرُ طِيَّ عَلَى الْعَرَبِ ،
 ولى كلِّ مِرْبَاعٍ غَارَةٌ ولم أَلَاحِ جاهلا ، ولم أَمْنَعِ سائلا ، قالت أمسك .
 ثم أقبلت على حاتم فقال لها : أنا حاتم بن عبد الله الثعلبي وفدت عن
 الْحَيِّينِ الْغَوْثِ وَجَدِيْلَةَ وَأَنْهَبْتُ مَالِي ثَلَاثَ عَشْرَةَ مَرَّةً وَحَكَمْتَنِي طِيٌّ
 فِي أَمْوَالِهَا .

فقلت قولوا شعراً واذكروا فيه كريم فعالكم ، فأنشدها زيد الخيل :
 هَلَّا سَأَلْتِ بَنِي نَبْهَانَ مَا حَسَبِي عِنْدَ الطَّعَانِ إِذَا مَا أَحْمَرَّتِ الْحَدَقُ (١)
 بوقال أوس : إنك لتعلمين أنا أكرم أحسابا ، وأشهر فعلا من أن نصف
 أنفسنا لك ، ولكن أنا الذي يقول فيه الشاعر : (هو بشر بن أبي خازم) :
 إِلَى أَوْسِ بْنِ حَارِثَةَ بْنِ لَأْمٍ لِيَقْضِيَ حَاجَتِي وَلَقَدْ قَضَاهَا
 فَمَا وَطِيءَ الْحَصَى مِثْلُ ابْنِ سَعْدَى وَلَا لَبَسَ النَّعَالَ وَلَا أُحْتَدَاهَا
 وقال حاتم من قصيدته التي أولها :
 حَنَنْتَ إِلَى الْأَجْبَالِ أَجْبَالِ طِيٍّ وَجُنْتُ جُنُونًا أَنْ رَأَتْ سَوْطَ أَحْمَرَ

(١) وبعده :

وَأَبَتْ الْخَيْلُ مُبْتَلًا سَوَّافِيهَا بِالماءِ يَسْفَحُ مِنْ لَبَاتِيهَا الْعَلَقُ
 وَالْخَيْلُ تَعْلَمُ أَنِّي كُنْتُ فَارِسَهَا وَالْهَامُ مِنَّا وَمِنْ أَعْدَائِنَا فِلَقُ
 إِذْ قَالَ أَوْسٌ أَمَا مِنْ طِيٍّ رَجُلٌ يَحْمِي الدَّمَارَ وَيَبِيضُ الْقَوْمَ تَأْتَلِقُ
 وَالْجَارُ يَعْلَمُ أَنِّي غَيْرُ خَاذِلِهِ إِذْ نَابَ دَهْرٌ لِعَظْمِ الْجَارِ مُعْتَرِقُ
 إِذْ لَا أَرَى الْمَالَ رَبًّا بَلْ أَرَى غَبْنًا بِجُلًّا بِهِ وَمَنَائِي الْقَوْمِ تَعْتَلِقُ

أحمر سائق
حاتم

تطبيق النساء
للرجال في
الجاهلية

وهي قصيدة طويلة ، وأحمر هذا سائق كان لحاتم ، وقيل هو رجل كان يصنع السياط في العرب ، فلما سمعت كلامهم أمرتهم بالانصراف حتى تنظر في أمرهم ، ثم عاد إليها حاتم فتزوجها وهي أم ولده عدى بن حاتم ، ومكثت معه مدة ثم طلقته وخلفه عليها ابن عم له يسمى مالك . وكان النساء أو بعضهن يطلقن الرجال في الجاهلية ، وذلك بتحويل أبواب الخيام إلى المشرق إن كانت إلى المغرب أو نحو ذلك ، وكان السبب في ذلك إغراء مالك لمارية بأن حاتمًا إن مات تركها ولا شيء في يدها لكثرة بذله وإتلافه ، قال : وإن أضيافًا لحاتم نزلوا بنجائبها كما كانوا ينزلون به وتوافقوا عندها إلى خمسين رجلا فبعثت جاريتها إلى مالك أن يقري أضياف حاتم ، وإنما هي الليلة حتى يعرف مكانه فلم تجد عنده شيئًا فأرسلتها إلى حاتم فبعث إليها نابين من الإبل فنحرهما وأطعم الناس فراجعته مارية .

قصة مجاد حاتم

كان الحَكَمُ بنُ أبي العاصِ بنِ أميَّة بن عبد شمسٍ قد خرج في عيرٍ له يريد العراق في تجارة ، وكان بالحيرة سوق يجتمع إليها العرب كل سنة ، وكان النعمان بن المنذر قد جعل لبني لأمٍ من طيِّ ربيع الطريق طُعْمَةً لهم ليصهروا كان لهم عنده ، فرأى الحَكَمُ بنُ أبي العاصِ بحاتم بن عبد الله ، فسأله الجوار في أرض طيِّ حتى يصل إلى الحيرة فأجاره ونحر له ، وكان معه ملحان بن حارثة بن سعد بن الحشرج وهو ابن عمه ، وطَّيبَهُم الحَكَمُ من طيبه ، ثم مروا بسعد بن حارثة وحاتم على ظهر راحلته ومعه فرسه يقاد ، فقال له سعد : من هؤلاء معك ؟ فقال هؤلاء جيرانى ، فقال له سعد : فأنت تبيعنا في بلادنا ؟ فقال أنا ابن عمكم وأحق من لم تخفروا ذمته ، فقال لست هناك ، وأرادوا أن

يفضحوه وتنازعوا ، وبلغ أمرهم إلى المجداد بسوق الخيرة مجتمع العرب ، وسمع بذلك إياسُ بنُ قبيصة الطائي ، فحشى أن يعينهم النعمان بن المنذر على حاتم للصر الذي كان بينهم ، فجمع رهطه من بني حَيَّة وقال لهم : أعينوا ابن عمكم على مجاده قبل أن يفضحه بنو حارثة ، فقتسأهموا أمره وقاموا معه ، ودخل إياس مغضباً على النعمان فقال : أبيتَ اللعن ، أتعينُ أختانك بالمال والخيل ؟ فإن شئتَ والله نأجزنَاك حتى تَسْفَحَ الأودية دماً ليحضروا مجادهمُ غداً مجمع العرب ، فعرف النعمان الغضب في وجهه ، فأرسل إلى سعد بن حارثة وأصحابه أن انظروا ابن عمكم حاتماً فأرضوه فما أنا بالذي أعطيكُم مالي تَبَدُّدُونه ، وما أطيق بني حَيَّة ، فخرج بنو لأم إلى حاتم فأرضوه ونزلوا عن مُتَاجِدَتِهِ ، وكانوا قد وضعوا عشرة أفراس رهناً فنحروها حاتم وأطعمها من بسوق الخيرة من العرب ، وكان حاتم مُصَارِماً لابن عم له يُسَمَّى وَهْمًا فأتاه يستعين به فوجد عنده أكثر مما كان يؤمل فقال فيه ، وابن قتيبة يستحسن هذه الأبيات :

ألا أبلغنا وهم بن عمرو رسالةً فإنك أنت المرء بالخير أجدر
رأيتك أدنى من أناس قرابة وغيرك منهم كنت أحبو وأنصر
إذا ما أتى يوم يفرق بيننا بموت فكن يا وهم ذو يتأخر

وفادة أبي جبيل وهو عبدُ قيس بن خُفَاف البرجمي في حمالاتِ قومه قالوا إنه أتى حاتماً في دماء حملها عن قومه أساموه فيها وعجز عن أدائها ، وكان شاعراً شريفاً ، فقال له : (إِنَّهُ كَانَ بَيْنَ قَوْمِي دِمَاءٌ فَتَوَا كَلُوهَا وَقَدْ حَمَلْتُهَا وَعَوَّلْتُ فِي ذَلِكَ عَلَى مَالِي وَأَمَالِي ، فَأَمَّا مَالِي فَقَدَّمْتُهُ وَكُنْتُ أَكْبَرَ آمَالِي ، فَإِنْ تَحَمَّلْتَهَا فَكَمْ حَقِّ قَضَيْتَ ، وَهَمَّ كَفَيْتَ ، وَإِنْ حَالَ دُونَ ذَلِكَ حَائِلٌ لَمْ أَذُمَّ يَوْمَكَ وَلَمْ أُيَاسُ مِنْ غَدِكَ) .

ثم أنشده شعراً يمدحه فيه ويذكر آباءه وأجداده ، فقال له حاتم : إن كنت لأحبُّ أن يأتيَنِي مثلك من قومك هذا مرَّ باعِي من الغارة على بني تميم ، فإن وفيت الحمالة وإلا أكملتُها لك وهي مائتا بعير سوى نبيها وفصا لها ، فأخذها منه وانصرف راجعاً إلى قومه ، وفي ذلك يقول حاتم كلمته :

أَتَانِي الْبُرْجِيُّ أَبُو جُبَيْلٍ لَهُمْ فِي حَمَالَتِهِ طَوِيلٌ
فَقُلْتُ لَهُ خُذِ الْمِرْبَاعَ دَهْرًا فَإِنِّي لَسْتُ أَرْضَى بِالْقَلِيلِ
فَخَذَهَا إِنَّهَا مَائَتَا بَعِيرٍ سِوَى النَّابِ الرَّذِيَّةِ وَالْفَصِيلِ^(١)
بِلَا مَنْ عَلَيْكَ بِهِ فَإِنِّي رَأَيْتُ الْمَنْ يُزْرِي بِالْجَزِيلِ

حديث امرأته النوار عن كرمه

قالت أصابتنا سنة أقشعرت لها الأرض ، واغبرت الآفاق ، وضنت المراضع عن أولادها ، فما تبضُّ بقطرة ، وراحت الإبل حُدْبًا^(٢) حدابير ، وجأفت السنة المال ، وأيقنا أنه الهلاك ، فوالله إننا لفي ليلة صئبر ، بعيدة ما بين الطرفين ، إذ تضاغى أصبيتنا من الجوع ، عبد الله ، وعدى ، وسفانة ، فقام حاتم إلى الصبيين ، وقت إلى الصبية فوالله ما سكتوا إلا بعد هدأة من الليل ، وأقبل يعلني بالحديث ، فعلمت الذي يريد فتناومت ، فلما تغورت النجوم إذا شيء قد رفع كسر البيت ، فقال من هذا ؟ فقالت جارتك فلانة أتتك من عند صبية يتعاوون عواء الذئاب من الجوع ، فما وجدت

(١) الناب : السنة من الإبل . الرذية : المريضة أو الضعيفة .

(٢) الحدب : جمع حدباء ، وهي التي تبدو حراقيفها من الهزال . الحدابير : جمع

حدبار ، وهي الناقة التي ذهب سنامها . صئبر : بفتح النون وكسرها باردة وحرارة ضد .

تضاغوا : تصايحوا .

مُعَوَّلًا إِلَّا عَلَيْكَ أبا عديّ ، فقال أعجلهم ، فقد أشبعك الله وإياهم ، وأقبلت المرأة تحمل اثنين ويمشى جنبتيها أربعة كأنها نعامةٌ حولها رِثَالُهَا ، فقام إلى فرسه فَوَجَّأَ لَبْتَهُ بِمُدْيَةٍ ، ثم كَشَطَهُ ودفع المديّة إلى المرأة ، فقال شَأْنُكَ الْآنَ ، فاجتمعنا على اللحم ، ثم قال : سَوْأَةٌ لَكُمْ تَأْكُلُونَ ذُونَ الصَّرْمِ (١) ، ثم أقبل يأتهم بيتًا بيتًا ، وهو يقول : هُبُّوا أَيُّهَا الْقَوْمُ عَلَيْكُمْ بِالنَّارِ ، ثم اِنْتَفَعَ ناحية بكسائه ينظر إلينا ، ولا والله مَا ذَاقَ مِنْهُ مُضْغَةً ، وإِنَّهُ لَأَخْوَجُ إِلَيْهِ مِنَّا .

أسره في عَنَزَةٍ

قالوا إنه مرّ بديار العنزيين وفيهم أسير يعرفه ، فناداه باسمه ولم يحضره فكَأَكَه ، فوضع نفسه في القيد مكانه وأطلقه ، وبقي عندهم أسيراً حتى اقتدى نفسه .

قيل وجاءته نسوة من عنزة كُنَّ يُدَارِئْنَ بَعِيرًا يَفْصِدُنَهُ ، فعجزن عنه فقلن أفاصده أنتَ إن أطلَقْنَا إِيْحَدِي يَدِيكَ ؟ قال نعم ، فأطلقت إحدى يديه فوجأ لبتَه فَاسْتَدْمَيْتُهُ ، (وذلك الدم الذي حرمه الإسلام ، وكانوا يفصدون الدابة ثم يشوون دما بعد أن يجف) ، ثم إن البعير عضد أي لوى عنقه فخر ، فقلن ما صنعت ؟ قال هكذا فصادتني أو هكذا فزدى ، (وهي لغة طي في جعل الصاد زايًا ، إذ يقولون في صقر زقر) ، فلطمته إحداهن فقال : ما أنتن نساء عنزة بكرام ولا ذوات أحلام ، وقيل إنه أسر مرة أخرى في عنزة أيضًا .

تعاقب الصاد
والسين
والزاي
في
لغة طي

ولم يجترى أحد من معاصريه على هجائه إلا يزيد بن كُنافة : زعم أنه هرب من الحرب كالذي ركب ساقى نعامة ، وذكر صاحب الحماسة له أبياتاً أولها :

من هجا
حاشا من
معاصريه

(١) الصرم : أهل الحمى ، أو الجماعة من الناس .

لَعْمَرِي وَمَا عَمَرِي عَلَىٰ بَيْهِنٍ لَبِئْسَ الْفَتَى الْمَدْعُوُّ بِاللَّيْلِ حَاتِمُ

وفادته على النعمان مع أوس بن حارثة

ذكروا أن حاتمًا وأوسًا وفدا على النعمان بن المنذر بالحيرة ، فقال لإيَّاس ابن قبيصة الغوثي ثم الطائي أيُّهُمَا أَفْضَلُ؟ قال : أبيت اللعن إني من أحدهما ، ولكن سلُّهُمَا عن أنفسهما يُجيبانك ، فدخل عليه أوس فقال : أنت أفضل أم حاتم؟ قال أبيت اللعن لو كنت أنا وولدي لحاتم لأنَّهَبَنَا في غداةٍ واحدة ، ثم دخل عليه حاتم ، فقال يا حاتم : أنت أفضل أم أوس؟ فقال أبيت اللعن : لشرُّ أوسٍ خَيْرٌ مِنِّي ! قال فَفَنَقَلَ كُلًّا مِنْهُمَا مِائَةً مِنَ الْإِبِلِ .

هذه جملة ما عثرنا عليه من أخبار حاتم في الكتب التي استعنا بها على وضع هذه الترجمة له ككتاب الأغاني ، وديوانه المطبوع في أوربا جمع العالم المستشرق النمسي (فريدريك شولتهيس) ، وكتابي ابن قتيبة وابن سلام ، وخرزانه الأدب للبغدادي ، وشعراء النصرانية ، والموشح للمرزباني ، ولسان العرب ، وبعض كتب أخرى فيها البيت والبيتان لحاتم .

ويرى المترجم أن موته كان في السنة الثامنة من الهجرة ، وقد أعقب من الولد عدِيًّا وسَفَّانَةَ وقد أسلما .

سَفَّانَةَ وَعَدِيٌّ

ذكر أبو الفرج عن رواه عن علي عليه السلام قال : يا سبحان الله . ما أزهَّدَ كثيرًا من الناس في الخير عَجِبَتْ لرجل يَجِيئُهُ أخوه في حاجة فلا يرى نفسه للخير أهلاً ، فلو كنا لا نرجو جنة ، ولا نخاف ناراً ، ولا ننتظر ثواباً ،

ولا نخشى عقابا ، لكان ينبغي لنا أن نطلب مكارم الأخلاق ، فانها تدلُّ على سبيل النجاة .

فقام إليه رجل فقال : بأبي أنت يا أمير المؤمنين أسمعته من رسول الله صلى الله عليه وسلم ؟ قال نعم ، وما هو خير منه ؟ قال : لما أتينا بسبأ يا طيِّبُ كانت في النساء جارية جَمَاءَ (١) ، حوراء العينين ، لعنساء ، كمياء ، عيظاء ، شَمَاءَ الأنفِ ، مُعْتَدِلَةُ القامة ، رَدْمَاءُ الكعبين ، خَدَلْجَةُ الساقين ، لَفَاءُ الفخذين ، حَمِيصَةُ الخصر ، ضامرة الكشجين ، مصقولة المتنين ، فلما رأيتها أعجبتُ بها ، فقلت لأطابنَّ إلى رسول الله أن يجعلها في قبتي ، فلما تكلمتُ أنسيتُ جمالها لما سمعت من فصاحة لسانها ، فقالت يا مُحَمَّدُ : هلك الوالدُ ، وَغَابَ الوافِدُ ، فَإِنْ رَأَيْتَ أَنْ تُحَلِّيَ عَنِّي فَلَا تُسَمِّتْ بِي أَحْيَاءَ العرب ، فَإِنِّي بنتُ سَيِّدِ قَوْمِي كان أبي يَفُكُّ العاني ، وَيَحْمِي الذَّمَّارَ ، وَيَقْرِي الضَّيْفَ ، وَيَفْرِجُ عن المَكْرُوبِ ، وَيُطْعِمُ الطَّعَامَ ، وَيُنْفِثِي السَّلَامَ ، ولم يَرُدَّ طالبُ حاجة قطُّ ، أنا بنت حاتم طيِّبٍ ، فقال لها رسول الله صلى الله عليه وسلم يا جارية : هذه صفة المؤمن لو كان أبوك إسلامياً لترحمنا عليه ، خلوا عنها فان أباهما كان يحب مكارم الأخلاق ، والله يحب مكارم الأخلاق ، فأسلمت وحسن إسلامها .

وصف علي
رضي الله عنه
لسفانة

أما أخوها عديٌّ فقد عاد بعد هربه فأسلم ، وقال : مادخلت على رسول الله صلى الله عليه وسلم إلا وسع لي في المجلس أو تحرك ، ولقد دخلت عليه مرة في بيته ، وقد امتلأ بالناس فوسع لي حتى أجلسني إلى جنبه ، ودخل مرة على عمر رضي الله عنه فقال له : أتعرفني ؟ قال نعم ، وكيف لا ؟ وأول صدقة أبيض لها

(١) الجماء : العظام الكثيرة اللحم . جارية لعنساء : في لونها أدنى سواد مشربة حرة . كمياء : سمراء الشفتين . الخدلجة : الممتلئة الساقين مع استدارتهما . الكشج : ما بين الحاصرة إلى الضلع .

وجه رسول الله صدقات طيبٍ أعرفك : آمنت إذ كفرُوا ، وَوَفَيْتَ إِذْ
غَدَرُوا ، وقد نزل الكوفة ، وكان مع عليّ يوم الجمل ، وَفُقِّتْ عينه يومئذ ،
وشهد معه صفين والنهرَوان ، وهى ثلاث قرى بين واسط وبغداد ، ومات
رحمه الله سنة ٦٧ من الهجرة .

منزلة حاتم الشـعرية

أما ابن سلام فلم يذكره مطلقاً ، وترجم له ابن قتيبة ولم يرتبه فى طبقة ،
وقال صاحب الموشح عن أبى سعيد الأصمعيّ أنه ذكر حاتماً ، فقال إنه ممن
يُكرّم ولم يقل إنه فحل ، ولم يزد جامع ديوانه ومترجمه العالم النسي :
(فريديك شواتهيس) على ما كتبه أبو الفرج فى الأغاني إلا تنفاً صغيرة
من بعض الكتب التى نقلت أخبار حاتم ، ولم يتعرض لوصف شعره بأكثر
مما ورد فى الأغاني من أنه كان جواداً يشبه جوده شعره ، وأنه كان معاصراً
لعروة بن الورد العبسيّ ، وكان حاتم فى أكثر ما أثر من صفاته حتى قال
عبدُ الملك : من زعم أن حاتماً أسمعُ العرب فقد ظلمَ عروة بن الورد ، وأن
بعض أشعاره تروى لعروة ، ويضاف بعضها إلى غيره من شعراء الحماسة
كما سيأتى .

وقد أسلفنا أن أبا عبيدة جعل الشعراء ثلاث طبقات : ووضع فى الثالثة
منها عروة ، وعنترة مع الشماخ والحطيئة ، والرُقش الأكبر ، والنمر بن
توابع ، وبشر بن أبى خازم ، وأكثر هؤلاء عند ابن سلام فى الطبقة
السادسة والسابعة .

ونحن نميل إلى أن نجعل حاتماً وعروة طبقة وحدهما أو نلحقهما بشعراء

الطبقة السادسة على رأى ابن سلام فى أمثالهما . أما قول أكثر الرواة إنه كان جواداً يشبه جوده شعره فلا يطابق ما نقلناه عن الأصمعى وابن سلام وغيرها . وقد وردت هذه العبارة فى ديوانه كما يأتى : (وكان جواداً أنسى جوده شعره) ، ونحن نميل إلى القول بأن العبارة الأولى محرفة عن الثانية ، وذلك يطابق آراء أكثر الأئمة فى شعره ، وأن ما أحرزه من الشهرة إنما جاء من قبل غرائب فى الجود والإيثار .

أما شعره فأظهر أغراضه الدعاء إلى المعروف ، والتعرض للأخطار فى اكتساب المال ، وقلة الاصغاء لتأنيب العاذلات ، وذم الباخلين ، وتذكيرهم بتصرم الحياة وقلة انتفاعهم بالجمع بعد الممات .

المعاني
الشعرية فى
أدب حاتم

وله مديح قليل وغزل أقل منه وسوف نعرض لشرح ذلك فيما نختاره من كلامه ، وهذه المعانى تتكرر فى أكثر قصائده ولما يزيد عليها أو ينقص منها ، ولبعض معاصريه مديح فيه ، وقد ضرب به الشعراء فى العصور المتأخرة مثلاً ، ومن أطف ذلك قول حبيب بن أوس الطائى :

إِقْدَامُ عَمْرٍو فى سَمَاحَةِ حَاتِمٍ فى حِلْمِ أُخْنَفِ فى ذِكَاءِ إِيَّاسِ

ونبدأ بقصيدته الميمية وقد استهلها بذكر الأطلال وأجل فى تشبيه بقاياها بالخط فى الكتاب ، ثم تناول صاحبته فوصف جمال كفها ومعصمها ، وشبه صدرها بفأثور اللجين ، وهو الجلام من الذهب أو الفضة ، وفصل ما تترين به من الياقوت والشذر المنظم ، وأنها مشرقة متوقدة كجمر الغضاحين تهفوه به الريح ، وأنها تضىء البيت الظليل فى الليل إذا تبسمت ، ووصف تنعمها وتنقلها فوق الحشايا ، وترنم حليها فى لفظ منسجم وأداء عربى ، وانتقل بعد ذلك إلى العاذلتين فنهاها عن التعرض له ، ومحاولة كفه عن مذهبه فى البذل ، وإيثار المعروف ، وأضاف إلى ذلك هذه الحكم العالية الباعثة على تمسك الحر بالعزة ،

تحليل
قصيدته
الميمية

ومغالاته في الحرص على الكرامة مع تهوين شأن المال ، وإغراء النفوس على السخاء ، ببذله بما يذكره من الموت ، ومن قلة وفاء الوارثين وسوء خلاقهم للميت فيما يتركه لهم من الميراث . ثم نبه إلى ما يتحلى به الطامحون إلى السؤدد والمستحقون للرياسة في التحلّم عن الأقارب ، والستر لعورات الكرام لاصطناعهم واحتساب المكرمة عليهم ، وفي الانتصار لأبن العم والولاء له ، وخرج إلى الترغيب في ركوب الأهوال ، واعتساف ظلام الليل ، والتعير لأهل الضعة من أصحاب الهمم الحاملة للقاعين بدون العيش ، وختم مطافه بما جرت به عادة المتعرضين للغارات والحروب من ذكر السلاح والخيل قال :

أَتَعْرِفُ أَطْلَالَ وَنُؤْيَا مُهْدَمَا كَخَطِّكَ فِي رَقٍّ كِتَابًا مُنَمَّمَا

ثم قال :

دِيَارُ الَّتِي قَامَتْ تُرَيْكُ وَقَدْ خَلَتْ وَأَقْوَتُ مِنَ الزُّوَارِ كَفًّا وَمِعْصَمَا
تَهَادَى عَيْنُهَا حَائِبُهَا ذَاتَ بَهْجَةٍ وَكَشَعًا كَطَيِّ السَّابِرِيَّةِ أَهْضَمَا
وَنَحْرًا كَفَأُتُورِ اللَّجَيْنِ يَزِينُهُ تَوَقَّدُ يَأْقُوتِ وَشَدْرًا مُنْظَمَا
كَجَمْرِ الغَضَا هَبَّتْ لَهُ بَعْدَ هَجْمَةٍ مِنَ اللَّيْلِ أَرْوَاحُ الصَّبَا فَتَنَسَمَا
يُضِيءُ لَنَا الْبَيْتُ الظَّلِيلُ خِصَابُهُ إِذَا هِيَ ثِيلاً حَاوَلَتْ أَنْ تَبَسَمَا
إِذَا انْقَلَبَتْ فَوْقَ الحَشِيَّةِ مَرَّةً تَرَنَّمِ وَسَوَاسُ الحُلِيِّ تَرَنَّمَا

ثم ذكر العذل :

وَعَاذِلَتَيْنِ هَبَّتَا بَعْدَ هَجْمَةٍ تَلُومَانِ مِثْلَافَا مُفِيدَا مُلُومَا
فَقُلْتُ أَلَا لَا تَلُومَانِي عَلَى مَا تَقَدَّمَا كَفِي بِصُرُوفِ الدَّهْرِ لِلْمَرْءِ مُحْكَمَا
فَإِنَّكُمْ لَا مَا مَضَى تُدْرِكَانَهُ وَلَسْتُ عَلَى مَا فَاتَنِي مُتَنَدَّمَا
فَنَفْسِكَ أَكْرَمُهَا فَإِنَّكَ إِنْ تَهْنُ عَلَيْكَ فَمَنْ تَلَقَى لَهَا الدَّهْرَ مُكْرَمَا

وصفه الحلي
صاحبه

نبيه العاذلتين
وتحدته عن
خصائمه في
الكرم

أَهِنُ لِلَّذِي تَهْوَى التَّلَادُ فَإِنَّهُ
 قَلِيلًا بِهِ مَا يَحْمَدُكَ وَارِثُ
 تَحْلَمُ عَنِ الْأَدْنَيْنِ وَاسْتَبَقَ وَدُهُمُ
 وَعَوْرَاءُ قَدْ أُعْرِضَتْ عَنْهَا فَلَمْ تَفِرْ
 وَأَغْفِرُ عَوْرَاءَ الْكَرِيمِ ادِّخَارُهُ
 وَلَا أَخْذُلُ الْمَوْلَى وَإِنْ كَانَ خَاذِلًا

ثم يقول :

وَلَيْلٍ بِهِمْ قَدْ تَسْرَبَلْتُ هَوَاهُ
 وَلَنْ يَكْسِبَ الضُّعُوكُ حَمْدًا وَلَا غِنَى
 وَلَمْ يَشْهَدْ الْخَيْلَ الْمَغِيرَةَ بِالضُّحَى
 لَحَى اللَّهُ صُعُوكًا مُنَاهُ وَكُهُ
 وَاللَّهُ صُعُوكُ يُسَاوِرُ هَمَّهُ
 فَتَى طَلِبَاتٍ لَا يَرَى الْخَمْصَ تَرَحَّةً
 تَرَى رُمَحَهُ أَوْ تَبْلُهُ وَجَجَنَّهُ
 وَأَخْنَاءَ سَرَحٍ فَاتِرٍ وَجِلَامَهُ

وهذه أخرى يصف فيها نجدته ونزاله لقرنه يتعسفه برمحه ، وينتقل من ذلك إلى ذكر عفافه ، وحفاظه لسرّ جاراته ، وأنفته من الغدر في تحصيل ماله وتقريره لاستعباد المال إذ كان غيره من الناس يتخذون الأموال أربابا ، ثم جعله مؤزعا بين مواطن الحقوق الواجبة من فكاك العاني وإبلاغ النفس إلى الطيبات مع التعريض بحرص الأشحاء والذم للمُضَرِّدين من أهل البخل الذين

(١) العجاج : الغبار الساطع . السنابك : جمع سنبك ، وهو مقدم طرف الحافر من الفرس . أقم : أسود . (٢) الخمص : الجوع . (٣) الطرف : الفرس الكريم .

يحمدون نارهم على حين يشبها للمضطلين بها من عَفَاتِهِ قَالَ :

هل الدهرُ إلا اليومُ والأَمْسُ والغدُ كذاك الزَّمانُ بيننا يَتَرَدَّدُ

وبعد أن ذكر نهاية الحياة ونوّه بكرمه وقومه وفخره بانتسابه إليهم قال :

ومعتسِفٍ بالرُّمَحِ من دون صحبه تَمَسَّتُهُ بالرُّمَحِ والقومُ هَجْدٌ^(١)

فخرًا على حرِّ الجبينِ وذادَه إلى الموتِ مطرورُ الوقِيعَةِ مذودٌ^(٢)

وأقسَمْتُ لا أمشي إلى سِرِّجَارَةٍ يدَ النَّهرِ ما دامَ الحمامُ يغرُدُ

ولا أشتري مالا يغدرِ علمتهُ ألا كلُّ مالٍ خالطَ الغدرَ أنكدُ

إذا كانَ بعضُ المالِ ربًّا لأهله فَإِنِّي بِحَمْدِ اللَّهِ مَالِي مُعَبَّدُ

يُفَكُّ به العاني وَيُوَكِّلُ طيبًا وَيُعْطَى إذا ضنَّ البَخِيلُ المَصْرَدُ^(٣)

إذا ما البَخِيلُ الحَبُّ أُخِذَ نارُهُ أقولُ لمن يَصَلِّي بنا رِيَّ أو قِدُوا

وقد كرر معناه في قوله إذا كان بعض المال ربًّا لأهله ، وهو من المعاني

المعدودة له في قصيدة دالية يمثل الناس بكثير من أبياتها ، وهي قوله :

وعاذلة هبت بليل تلومني وقد غاب عيوق الثريا فعددا^(٤)

تلوم على إعطائي المال ضلة إذا ضنَّ بالمال البخيلُ وصردا

تقولُ إلا أمسِكْ عليكَ فَإِنِّي أرى المالَ عندَ المُسْكِينِ مُعَبَّدًا

ذريني ومالي إنَّ مالكِ وافرُهُ وكلُّ امرئٍ جَارٍ على ما تعودا

ذريني يَكُنْ مَالِي لِعَرْضِي جَنَّةً يَبْقَى المَالُ عِرْضِي قَبْلَ أَنْ يَتَبَدَّدَا

(١) العصف : الأخذ بالشدّة ومن غير جهة . (٢) المطرور : المهدّد . المذود :

اللسان ، والمعنى ذاده : أي دفعه إلى الموت لسانه . (٣) المصرد من التصريد : وهو

المنج أو التقليل . (٤) عرّدت النجم : ارتفع ثم مال للغروب بعد ما تكبد السماء .

أَرِي نِي جَوَادًا مَاتَ هُزْلًا لِعَانِي أَرِي مَا تَرَيْنَ أَوْ بَنِيًّا مُخَلَّدًا
وَالَا فَكُنِّي بَعْضَ لَوْمِكِ وَأَجْعَلِي إِلَى رَأْيِي مَنْ تَلَحَّيْنِ رَأْيِكَ مُسْتَدًّا
أَلَمْ تَعَلَّمِي أَنِّي إِذَا الضَيْفُ لَأَمْنِي وَعَزَّ الْقَرِي أَقْرَى السَّدِيفِ الْمُسْرَهْدَا (١)

وكان حاتم يحرص على سلاحه وفرسه ، ولا يذخر من ماله سواهما ،
حرصه على
سلاحه
وفرسه
وهو قوله :

سَأَذْخَرُ مِنْ مَالِي دِلَاصًا وَسَاجِمًا وَأُسْمِرُ خَطِيئًا وَعَعْضِبًا مَهْنَدًا (٢)
فَذَلِكَ يَكْفِينِي مِنَ الْمَالِ كُلِّهِ مَصُونًا إِذَا مَا كَانَ عِنْدِي مُتَلَدًا

ومن جيد ما يروى له في أدب الصحبة وإيثار الإخوان والترفع عن الدنيا
قوله ، وبعضها مما اختاره صاحب الحاسة في باب الأدب (يقول شارح ديوانه
إنه كان في غزاة له فأصاب راحلة لبعض الملوك) :

وَمَرْقَبَةٌ دُونَ السَّمَاءِ عَلَوْتُهَا أَقَلَّبُ طَرْفِي فِي فِضَاءِ سَبَاسِبِ (٣)
وَمَا أَنَا بِالْمَائِي إِلَى بَيْتِ جَارَتِي طُرُوقًا أَحْيِيهَا كَأَخْرَجَانِبِ
وَلَوْ شَهِدْتُنَا بِالْمِرَاحِ لَأَيْقَنْتُ عَلَى ضُرْنَانَا أَنَا كِرَامُ الضَّرَائِبِ (٤)
عَشِيَّةً قَالَ ابْنُ الذَّمِيمَةِ عَارِقُ إِخَالُ رَيْسِ الْقَوْمِ لَيْسَ بِأَيْبِ
فَمَا أَنَا بِالطَّائِرِ حَقِيبَةٌ رَحَلِهَا لِأَبْعَثَهَا خِفًا وَأَتْرُكُ صَاحِبِي
إِذَا كُنْتَ رَبًّا لِلْقُلُوصِ فَلَا تَدْعُ رَفِيقَكَ يَمْشِي خَلْفَهَا غَيْرَ رَاكِبِ (٥)
أَنْحَهَا فَأَرْدِفُهُ فَإِنْ حَمَلْتُكُمَا فَذَاكَ وَإِنْ كَانَ الْعِقَابُ فَعَاقِبِ
وَمَا أَنَا بِالسَّاعِي بِفَضْلِ زَمَامِيهَا لِتَشْرَبَ مَاءَ الْحَوْضِ قَبْلَ الرَّاكِبِ

جيسل
مؤاساته
لصاحبه

(١) السديف : السنام . السرهد : السمين المملوء بالشحم ، أو السديف : شحم السنام .
(٢) الدلاص : الدرع . (٣) المرقبة : المرتفع .
(٤) المراح بضم أوله : اسم مكان كانت فيه وقعة لحم . (٥) القلوص : الناقة الشابة .

ولست إذا ما أحدث الدهر نكبةً بأخضع ولا جربوت الأقارب
وشر الصعاليك الذي هم نفسه حديث الغواني وأتباع المارب

ولما عدلته ماوية على إتلافه وطلقته باغراء مالك بن عمه جزع حاتم
من ذلك وذهب مع ولده عدي إلى جوف واد ، وقد غمه عملها غمًا شديدًا ،
فلما راجعته قال هذه القصيدة يحتج بها على مسلكه في الجود ، وهي من أجل
أبوثر عنه ومطلعها :

أماوي إن يصبح صدأ بقررة من الأرض لا ماء لدى ولا خمر
ترى أن ما أنفقت لم يك ضرني وأن يدي مما بخلت به صفر
أماوي إني رب واحد أمه أجرت فلا قتل عليه ولا أسر
وقد علم الأقوم لو أن حاتمًا أراد ثراء المال كان له وفر
وأني لا آلو بمال صنيعه فأوله ذكره وآخره ذخر
وما ضر جاراً يا ابنة القوم فاعلمي مجاورني ألا يكون له ستر
بغيتني عن جارات قومي غفلة وفي السمع مني عن حديثهم وقر
بلونا صروف الدهر لينا وغلظة وكلاء سقناه بكأسيهما الدهر
فا زادنا بأوا على ذي قرابة غنانا ولا أزرى بأحسابنا الفقر^(١)

وهذه قصيدة يصف فيها نجدته وما يبلغ به كرمه من الإحسان إلى أسراه ،
وأنه يخالطهم بكرام نسوته ، فيلدن الأبطال الذين يخوضون غمرات الحروب ،
وقد تروى لغيره قال :

وما أنكحونا طاعين بناتهم ولكن خطبناها بأسيا فنا قسرا
فما زادها فينا السبباء مذلة ولا كلفت خبزاً ولا طبخت قدرا

(١) البأو : التكبر والتعظيم .

ولكن خلطناها بخير نسائنا
وكانت ترى فينا من ابن سبئية
فجاءت بهم بيضا وجوههم زهرا
إذا لقي الأبطال يقطعهم شررا (١)
فيوردوها بيضا ويصدرها حمرا
إذا ماسرى ليل الدجى قمرًا بدرًا
كريم إذا اعتز اللئيم تخاله

أمهيات
الأولاد في
شعره

وفي ديوانه القصيدة الآتية ، وهي تمثل حالة من عادات البادية في سير
الليل وطروق الأحياء ، والاستشراف إلى النيران والاهتداء بنوايح الكلاب ،
وصاحب الحماسة يرويها لرجل لم يسمه قال :

وداع دعا بعد الهدوء كأنما
دعا يائسا شبه الجنون وما به
يقاتل أهوال الشرى وتقائه
جنون ولكن كيد أمر يحاوله
فما سمعت الصوت أقبلت نحوه
بصوت كريم الجدد حلو شمائه
فأوقدت ناري كي ليُبصر ضوءها
وأخرجت كلبي وهو في البيت داخله
فما رأني كبر الله وخدمه
وبشر قلبا كان جفا بلا به
فقلت له أهلا وسهلا ومرحبا
رشدت ولم أقعد إليه أسائه
وقمت إلى برك هيجان أعدته
لوجبة حق نازل أنا فاعله
بأبيض خط نعله حيث أدركت
من الأرض لم تخطل على حمائه
فجاء قليلا واتقاني بخيره
فخر وظيف القرم في نصف ساقه
سناما وأملاه من النى كاهله
وذلك عقال لا يندشط عاقله
بذلك أوصاني أبي وبمشله
كذلك أوصاه قديما أوائله

وقد أشرنا من قبل إلى أنه كان قليل المديح ، ولم نعتزله على كلام فيه

مديح إلا قصيدة قالها لبعض ملوك غسان في أسرى من قومه ، فلما سمعها وهبهم

له وقد جاء فيها قوله :

(١) الشرر : الطعن والإصابة بالعين .

مدحه لبعض
ملوك غسان

أَرْجَى فَوَاضِلَ ذِي بَهْجَةٍ مِنْ النَّاسِ يَجْمَعُ حَزْمًا وَجُودًا
نَمَّتْهُ أُمَامَةٌ وَالْحَارِثَا نِ حَتَّى تَمَهَّلَ سَبَقًا جَدِيدًا
كَسَبَقِ الْجَوَادِ غَدَاةَ الرَّهَا نِ أُرَبِّي عَلَى السَّنِّ شَأوًا مَدِيدًا
فَأَجْمِعْ فِدَاءَهُ لَكَ الْوَالِدَا نِ لِمَا كُنْتَ فِينَا بِخَيْرٍ مُرِيدًا
وَأَحْسِنْ فَلَا عَارَ فِيمَا صَنَعْتَ تُحْيِي جُدُودًا وَتُبْرِي جُدُودًا
أما مدح معاصريه له ، فمن أحسنه قول أبي العريان الطائي :

مدح
معاصريه له

إِنِّي إِلَى حَاتِمٍ رَحَلْتُ وَلَمْ يُدْعَ إِلَى الْعُرْفِ مِثْلَهُ أَحَدُ
الْوَاعِدِ الْوَعْدَ وَالْمُؤَفِّي بِهِ إِذْ لَا يَفِي مَعَشْرَهُ بِمَا وَعَدُوا
وَالْوَاهِبِ الْخَيْلَ وَالْوَلَائِدِ وَالرَّبَّ فِيهَا الْأَوَانِسُ الْخُرْدُ
يَرَفُلْنَ فِي الرِّيْطِ وَالْمُرُوطِ كَمَا تَمْشِي نِعَاجُ الْخَمِيلَةِ الْمِيدُ
لَا يَسْتَطِيعُ الْأَلَى تَصَادِ لَهُمْ جَرِيكَ فِي مَاقِطٍ وَلَوْ جَهْدُوا
كَفَّاكَ أَمَا يَدُ فَمُتْرَعَةٍ لِلنَّاسِ غَنِيًّا تُفِيضُهُ وَيَدُ
سَقَاءَةً لِلسَّامِ يَمْنَعُهَا مِنْ كُلِّ ضَيْمٍ يُسَامُهُ الْعُبْدُ
لَا يَخْلُطُ الْخَدَعُ مَا تَقُولُ وَلَا يُدْرِكُ شَيْئًا فَعَلْتَهُ الْحَسَدُ

ولحاتم قصائد أخرى لا تختلف في معانيها وأغراضها عما ذكرناه ، وله غير ذلك كلام من البيتين والثلاثة .

وقد اكتفينا بما ذكرناه من ديوانه الأبيات الآتية :

أَيَا ابْنَةَ عَبْدِ اللَّهِ وَأَبْنَةَ مَالِكٍ وَيَا ابْنَةَ ذِي الْبُرْدَيْنِ وَالْفَرَسِ الْوَرْدِ
إِذَا مَا صَنَعْتَ الزَّادَ فَالْتَمِسِي لَهُ أَكِيلاً فَإِنِّي لَسْتُ أَكِلُهُ وَخَدِي
أَخَا طَارِقًا أَوْ جَارَ بَيْتِ فَإِنِّي أَخَافُ مَذَمَاتِ الْأَحَادِيثِ مِنْ بَعْدِي
وَإِنِّي لَعَبْدُ الضَّيْفِ مَا دَامَ ثَاوِيًا وَمَا فِيَّ إِلَّا تِلْكَ مِنْ شِيْمَةِ الْعُبْدِ

ونسبها صاحب الأغاني لقيس بن عاصم المنقري ، وقد تزوج نفوسة بنت زيد الفوارس الضبية ، فلما كان في الليلة الثانية أته بطعامه ، فقال لها : وأين أكلتي ؟ فلم تفهم ما أراد ، فأنشد الأبيات السابقة ، وعندنا أنها أشبه بجاتم وبماوية ، ونسب صاحب الحماسة البيتين :

سَلِيَ الطَّارِقُ الْمُعْتَرَّ يَا أُمَّ مَالِكٍ إِذَا مَا أَتَانِي بَيْنَ قَدْرِي وَمَجْزَرِي
أَيْسَفِرُ وَجْهِي إِنَّهُ أَوَّلُ الْقَرِي وَأَبْدُلُ مَعْرُوفِي لَهُ دُونَ مُنْكَرِي

لعروة بن الورد ، ونحب أن نختتم هذه الترجمة ببعض ما عرف له من المعاني الحسنة . وبالأبيات التي استشهد بها العلماء من شعره ، فمن ذلك قوله :

قُلْتُ دَعَيْتُ إِتْمَا تِلْكَ عَادَةٌ لِكُلِّ كَرِيمٍ عَادَةٌ يَسْتَعِيدُهَا

بين حاتم
وأبي الطيب

وهو أصل قول الطيب :

لِكُلِّ أَمْرِيٍّ مِنْ دَهْرِهِ مَا تَعَوَّدَا وَعَادَاتُ سَيْفِ الدَّوْلَةِ الطَّعْنُ فِي الْعِدَا
وقوله :

وَمَنْ يَبْتَدِعُ مَا لَيْسَ مِنْ خِيَمِ نَفْسِهِ يَدَعُهُ وَيَغْلِبُهُ عَلَى النَّفْسِ خِيَمُهَا
وقد قال : ذُو الْإِصْبَعِ الْعَدُوَانِي :

كُلُّ أَمْرِيٍّ صَائِرٌ يَوْمًا لِشِيَمَتِهِ وَإِنْ تَخَلَّقَ أَخْلَاقًا إِلَى حِينِ
وعنه أخذ سالم بن وابصة الشاعر الأموي قوله :

دَعِ التَّخَلُّقَ يَبْعُدُ عَنْكَ أَوَّلُهُ إِنَّ التَّخَلُّقَ يَأْتِي دُونَهُ الْخَلْقُ

حاتم
وذو الاصبع

ويؤخذ من قوله :

سِلَاحُكَ مَرَّتِي فَلَأَنْتَ ضَائِرٌ عَدُوًّا وَلَكِنْ وَجْهَ مَوْلَاكَ تَقَطِفُ

أن من عاداتهم في الجاهلية هذه الرقبة للأسلحة ، فلا تقطع ولا تؤثر ، وهي

من خرافات الأمم القديمة ، ومن أجل معانيه في العفة والحفظ للجماعة قوله :

رُبَّ بَيْضَاءَ فَرَعُهَا يَتَنَّى قَدْ دَعَتْنِي لَوْصَلَهَا فَأَبَيْتُ
لَمْ يَكُنْ بِي تَحْرُجٌ غَيْرَ أَنِّي كُنْتُ خَدِنًا لِبِعْلِهَا فَاسْتَحَيْتُ

ومن ذلك جوده ببعض أطرافه وهو ما لم يقله غيره في بيتيه الآتين :

جوده ببعض
أطرافه

قُدُورِي بِصَخْرَاءَ مَنْصُوبَةٌ وَلَا يَنْبَحُ الْكَلْبُ أَضْيَافِيَهُ
وَإِنْ لَمْ أَجِدْ لِنَزِيلِي قِرَى قَطَعْتُ لَهُ بَعْضَ أَطْرَافِيَهُ

وكانت قدوره من نحاس عظاما لا تزول عن الأثافي ، واسم إحداهما نُقال

والأخرى مُشْبَعَةٌ ، والثالثة رَبِيلةٌ ، والرابعة هَوَاءٌ .

وقوله :

فَلَوْ كَانَ مَا يُعْطَى رِيَاءً لَأَمْسَكَتُ بِهِ جَنَبَاتُ اللُّؤْمِ يَجْذِبْنَهُ جَذْبًا
وَلَكِنَّا يَبْغِي بِهِ اللَّهُ وَحْدَهُ فَأَعْطِ فَقَدَّارُ بَحْتٍ فِي الْبَيْعَةِ الْكَسْبَا

وهو من أجود معانيه ومثبه للتصورات الإسلامية ، ويمكن أن يجعل

دليلا لترجيح القول بإدراكه السنة الثانية من الهجرة .

ويستشهد العروضيون بقوله :

وَالْحَالِطِينَ نَحِيَّتَهُمُ بِنُضَارِهِمْ وَذَوِي الْغِنَى مِنْهُمْ بِذِي الْفَقْرِ

على ورود العروض الحذاء ، وهي المحذوفة الوتد من متفاعلن كاملة .

وهذا البيت من قصيدة يمدح بها بني بَدْرِ الْفَزَارِيِّينَ ، وكان نزل بهم أيام

أَحْتَرَبَتِ الْعُوْتُ وَجَدِيلَةَ فِي حَرْبِ الْفَسَادِ ، وفي أولها شاهد على النعت باسم

الإشارة في قوله :

إِنْ كُنْتُ كَارِهَةً مَعِيشَتَنَا هَاتَا فَحَلَّى فِي بَنِي بَدْرِ

والشاهد فيه الوصف بهاتا .

واستشهد ابن هشام في المغنى بقوله :

أَقْصَرُ كَفِّي أَنْ تَنَالَ أَوْ كُفَّهُمْ إِذَا نَحْنُ أَهْوَيْنَا وَحَاجَاتُنَا مَعَا

على وقوع الحال موقع الخبر في غير بابه .

وبقوله :

وَإِنَّكَ مَهْمَا تَعْطِ بَطْنَكَ سُوءَهُ وَفَرَجَكَ نَالًا مُنْتَهَى الدَّمِّ أَجْمَعًا

على استعمال مهما للزمان .

وفيه وفي الخزانة قوله :

قَلِيلًا بِهِ مَا يَحْمَدَنَّكَ وَارِثٌ إِذَا نَالَ مِمَّا كُنْتَ تَجْمَعُ مَعْنَا

شاهد على جواز توكيد الفعل بعد ما الزائدة .

ومن ذلك أيضاً قوله :

فَأَبْرَزْتُ نَارِي كَيْ لِيُبْصِرَ ضَوْءَهَا وَأَخْرَجْتُ كَلْبِي وَهُوَ فِي الْبَيْتِ دَاخِلُهُ

وفيه الجمع بين كي ولام التعليل ، ويروى هذا البيت : فأبرزت ناري ثم

أثقت ضوءها : وإذا فلا شاهد فيه والله أعلم .



عنتره

في أواخر القرن السادس الميلادي نشأ عنتره كما ينشأ أمثاله من الهجحاء نشأه
 طريداً بين الرعاة والعبيد ، وكانت أمه زبيبة أمة حبشية سبأها أبوه وأستولدها
 إياه ، وكان لها ولد من غيره ، وبقي عنتره حتى اشتد واستوى وهو غير معترف به ،
 فأغار بعض أحياء العرب على بني عبس فأصابوا منهم واستاقوا إبلا ، فتبعهم
 العبسيون وفيهم عنتره يومئذ ، فقال له أبوه : « كُرُّ يَا عَنْتَرَةُ » ، فقال عنتره :
 « العبد لا يُحْسِنُ الكُرَّ إِنَّمَا يُحْسِنُ الحِلابَ وَالصَّرَّ^(١) » فقال له أبوه : « كُرُّ
 وَأنت حرٌّ » ، فقاتل يومئذ قتالا حسناً واستنقذ الإبل من الأعداء ، فاعترف
 به أبوه يومئذ وألحق به نسبه . قال الإمام ابن قتيبة : « وهو أحد أغربيه

العرب وهم ثلاثة : عَنْتَرَةُ وَأُمُّهُ زَبِيبَةُ سِوَاءِ ، وَخُفَّافُ بْنُ عُمَيْرِ الشَّرِيدِيِّ مِنْ
 بَنِي سُلَيْمٍ وَأُمُّهُ نَدْبَةُ وَإِلَيْهَا يُنْسَبُ وَكَانَتْ سِوَاءِ ، وَالسُّلَيْكِيُّ بْنُ عُمَيْرِ السَّعْدِيِّ
 وَأُمُّهُ سُلَيْكَةُ وَإِلَيْهَا يُنْسَبُ وَكَانَتْ سِوَاءِ » ، وكان عنتره من أشد أهل
 زمانه وأجودهم بما ملكت يده ، وكان لا يقول من الشعر إلا البيتين والثلاثة
 حتى سابه رجل من بني عبس فذكر سواده وسواد أمه وإخوته ، وعيره بذلك
 وبأنه لا يقول الشعر ، فقال له عنتره : « وَاللَّهِ إِنْ النَّاسَ لِيَتَرَا فِدُونَ^(٢) بِالطُّعْمَةِ فَمَا
 حَضَرْتُ مَرَفِدًا لِلنَّاسِ أَنْتَ وَلَا أَبُوكَ وَلَا جَدُّكَ قَطُّ وَإِنْ النَّاسَ لِيُدْعَوْنَ فِي
 الْغَارَاتِ فَيُعْرَفُونَ بِتَسْوِيمِهِمْ ، فَمَا رَأَيْتَكَ فِي خَيْلٍ مَغِيرَةٍ فِي أَوَائِلِ النَّاسِ قَطُّ
 وَإِنْ اللَّبْسَ لِيَكُونَ بَيْنَنَا فَمَا حَضَرْتَ أَنْتَ وَلَا أَبُوكَ وَلَا جَدُّكَ خُطَّةً فَيُصَلِّ ،
 وَإِنِّي لِأَحْتَضِرُ البَّاسَ ، وَأُوَفِّي المَغْنَمَ ، وَأَعِيفُ عَنِ الْمَسْأَلَةِ ، وَأَجُودُ بِمَا مَلَكَتْ

رد عنتره
 على رجل
 سابه وعيره
 سواده

(١) الصر : ربط الصرع بخيط يشد عليه . (٢) الترافد : تكلم الناس وتعاونهم .

يدى ، وَأَفْصِلُ الْخُطَّةَ الصَّمْعَاءَ^(١) ، وأما الشعر فستعلم ، فكان أوّل ما قال قصيدة - هل غادرَ الشعراء من مُتَرَدِّمٍ . قال ابن قتيبة أيضاً ، وهي أجود شعره وكانوا يسمونها المذهبة .

ولا شك أن حياة عنتره تمثل شطراً من تاريخ الحماسة العربية فقد شهد مع قومه حروب داحس والغبراء ، فَحَسُنَ فِيهَا بِلَاؤُهُ ، وَحَمِدَتْ مُشَاهِدُهُ ، وكان يجمع إلى نجدته وبأسه كثيراً من صفات الحزم والحكمة حتى قيل له ذات يوم : « أنت أشجع العرب وأشدّها ؟ » قال « لا » ، قيل « فماذا شاع لك هذا في الناس ؟ » قال : « كنت أقدم إذا رأيت الإقدام عزمًا ، وأُحجِّم إذا رأيت الإحجام حزمًا ، وما دخلتُ موضعاً إلا قدّرتُ لنفسي الخروج منه ، وكنت أعتدُّ الجبانَ الضعيفَ بالضربة المائلة يطيرُ لها قلبُ الشجاع فأنثني عليه فأقتله » .

فروسيته
وبلاؤه في
حروب قومه

وقال عمر بن الخطاب رضى الله عنه للحطيئة : « كيف كنتم في حربكم ؟ » قال : « كنا ألف فارس حازم » قال : « وكيف يكون ذلك ؟ » قال : « كان فينا قيسُ بن زهير وكان حازماً فكنا لا نعصيه وكان فارسنا عنتره فكنا نحمل إذا حمل ، ونُحجِّم إذا أُحجِّم ، وكان فينا الربيعُ بن زياد ، وكان ذا رأى فكنا نستشيرُه ولا نخالفه ، وكان فينا عروة بن الورد ، فكنا نأتمُّ بشعره فكنا كما وصفت لك » ، فقال عمر : « صدقت » .

سؤال عمر
للحطيئة

وقد استطارت شهرة عنتره في الآفاق بوضع قصته المعروفة . وقد اختلف في واضعها ، وبعضهم يستظهر أنها وضعت في أزمان مختلفة قيل : « وكان من عادة المسلمين في صدر الإسلام أن يستهزوا هم الجند بتلاوة أخبار الشجعان من فرسانهم في الجاهلية ، وقد حدث من ذلك شيء أيام الحجاج سنة سبع وسبعين للهجرة » ذكر ابن الأثير : « أن عتّاب بن ورقاء

قصة عنتره

(١) الصمعاء : الماضية القوية .

وكان يحارب شبيباً الخارجي سار في أصحابه يحرضهم على القتال قبل المعركة بما يقصه عليهم من أشعار عنتره وغيره ، وما زالوا يروونها ويتزايدون فيها وفيما يضيفونه إليها من أخبار عنتره وأعاجيبه حتى انتهى ذلك بوضع هذه الرواية أو القصة الطويلة على يد أحد العلماء المصريين في زمن العزيز بالله الفاطمي ، ففي القرن الرابع الهجري حدثت ريبة في دار العزيز لهج بها الناس في المنازل والأسواق حتى ساءه ذلك وعظم عنده ، فأشار إلى رجل من المتصلين ببابه يدعى الشيخ يوسف بن إسماعيل أن يلهمي الناس بما يشغلهم عن الكلام في شأن هذه الريبة ، وكان واسع الرواية ، كثير النوادر ، عارفاً بأخبار العرب ، فأخذ يكتب قصة عنتره ويذيعها في الناس ، فأعجبوا بها ، وشغلوا عن كل شيء سواها ، وقد تلطف في الحيلة ، فوضع في آخر كل جزء وصفاً شاملاً لمعركة حامية ، ثم يقطع الكلام قبل النهاية الفاصلة ، فيشتد شغف القارئ بمتابعة القراءة في الجزء الثاني ليعلم مصير المعركة ، وهكذا في بقية الأجزاء .

فائدة هذه
القصة

وهذه القصة مع اشتغالها على كثير من الأكاذيب والمبالغات المفرطة ، والأشعار الركيكة تعدد من الأسباب القوية في حفظ اللهجة العربية العامية ، بل اللغة الصحيحة إلى حد غير بعيد في الوقت الذي طغت فيه اللهجات الأعجمية وخاصة التركية في العصور المتأخرة على اللغة العربية ولمدينة القاهرة وحواضرها وقرأها الكبيرة نصيب من ذلك غير قليل ، فقد سهرت لياليها ، وحضت مناظرها ومجالس مشاربها بأولئك القصاصين الذين كان عتادهم في إلهاء الجمهور هذه القصة وأمثالها كقصة « الظاهر بيبرس » و « أبي زيد » و « ألف ليلة » وغيرها فعلق بألسنة الناس من عباراتها وأشعارها وما وضع فيها من الحكايات والوقائع ما أبقى في لهجاتهم هذه الصلة القوية بين لغاتهم الملحونة وبين أصولها من العربية الفصحى ، ولولا ذلك لبلغت هذه اللهجات من العجمة والرداءة مبلغ الرطانات البربرية التي لا تفهم إلا بمشقة عظيمة .

وقد اختلف أيضاً في سبب موت عنزة ، فروى ابن قتيبة عن أبي عبيدة قال : « إن عنزة بعد ما تأوت عبس إلى غطفان بعد يوم جبلة احتاج وكان صاحب غارات فكبر فمجز عنها وكان له بكرٌ على رجل من غطفان فخرج قبلة يتجازاه ، فهاجت رائحة من صيف^(١) وهبت نافحة ، وهو بين شرح وناظرة فأصابته الشيخ فهراته فوجدوه ميتاً بينهما » ، وقيل : « قتله وزر بن جابر النبهاني غيلة » . قال ابن الكلبي : « وكان الذي قتله يلقب بالأسد الرهيص » ، وذكر أبو عمرو الشيباني : « أنه غزا مع قومه طيناً فخر عن فرسه ولم يقدر من الكبر أن يعود فيركب فدخل دغلاً^(٢) وأبصره ريئة طي فهابه أن يأسره فرماه فقتله » ، وفي شعراء النصرانية وغيره من الكتب أنه مات سنة ستائة وخمس عشرة ميلادية .

شعره

يعد عنزة من شعراء المعلقات ، وأجود شعره المعروف للرواة هو طويلته التي تسمى بالمذهبة كما قدمنا ، وشعره يدور بين ثلاثة أغراض : الحماسة ، والافتخار بالغناء في الحرب ، ووصف نزال الفرسان ، وشيء من الغزل والشكوى والشوق إلى صاحبتة وابنة عمه عبلة ، ويلى ببعض المناقب الفاضلة يصف بها نفسه ويكثر على الأخص من ذكر التنزه والعفة عن المحارم والحفاظ لستر الجارات ، وله في ذلك الكلمة الفاخرة والبيت السائر ، وله ديوان شعر نقل أكثر ما فيه عن القصة ، ونحن نعتقد أن هذه الكثرة المضافة إليه منحولة باطلا لا تمثل بسائته ولا مجده ونبله ، وفيها من الركافة والتصورات الحديثة ما يحقق

(١) الصيف : كطيب المطرة تجمىء في الصيف .

(٢) الدغل : الشجر الكثير المتلف .

أنها من أساطير القصاصين الذين تناسخوا هذه القصة وتداولوا تدوينها والزيادة فيها على مرور الأيام ، وسنجد أن نشير في هذه الترجمة بشواهد من أشعاره إلى ما أثبتناه له من الأغراض إن شاء الله ، وقد جمع له صاحب العقد الثمين أشعاراً نقل عن الرواة أنها هي التي صحت لعنترة ، وهي نحو عشر قصائد منها طويته المعلقة ومقطوعات أخرى من ثلاثة أبيات إلى ثمانية في بعض الأحيان ، ونبه على ما دُسَّ في شعره وإن كان لم ينصَّ عليه كله ، وترجم له صاحب شعراء النصرانية ، وساق كل ما نُسب إليه من الشعر ، ولم ينبه على صحيح ولا منحول .

المختار من شعره

ذكر أبو الفرج في ترجمته في الجزء السابع من كتابه : أن عبساً غزت بني تميم وعليهم قيس بن زهير ، فانهزمت عبس ووقف عنتره للتمييين فصددهم ، وتلاحقت به فلول قومه ، فقال قيس بن زهير وكأنه ساء ما صنع عنتره : « والله ما حمى الناس إلا ابن السوداء » ، وكان قيس أكولاً ، فقال عنتره يعرض به من قصيدته التي أولها كما في العقد الثمين :

« طال الثواء على رسوم المنزل » :

أَفْنَنْ بَكَاءِ حَمَامَةٍ فِي أَيْكَةِ ذَرَفَتْ دَمُوعَكَ فَوْقَ ظَهْرِ الْمُحْمَلِ^(١)
كَالِدِرِّ أَوْ فِضِّضِ الْجَمَانِ تَقَطَّعَتْ مِنْهُ عَقَائِدُ سِلْكِهِ لَمْ يُوصَلِ^(٢)
لَمَّا سَمِعَتْ دَعَاءَ مُرَّةٍ إِذْ دَعَا وَدَعَاءَ عَبْسٍ فِي الْوَعْيِ وَنَحَلِ
نَادَيْتِ عَبْسًا فَاسْتَجَابُوا بِالْقَنَاءِ وَبِكَلِّ أَيْضٍ صَارِمٍ لَمْ يَنْحَلِ

(١) الأيكة : الشجر الملتف . المحمل كمنبر : علاقة السيف . (٢) الفضض : القطع ، جمع فضة .

حتى استباحوا آل عوف عنوة بالمشرقي وبالوشيج الذبل
 أتى امرؤ من خير عيس منعبا شطري وأحمى سايرى بالمنصل
 إن يُلحِقُوا أَكْرُرُ وإن يَسْتَلْحِمُوا أشدذ وإن يُلْفُوا بضنك أنزل
 حين النزول يكون غاية مثلنا ويفر كل مضلل مستوهل
 ولقد أبيت على الطوى وأظله حتى أنال يد كريم المأكيل
 وإذا الكتيبة أجمت وتلاخظت ألفيت خيراً من معم مخول^(١)
 والخيل تعلم والفوارس أنى فرقت جمعهم بطعنة فيصلي
 إذ لا أبادر في المضيق فوارسى ولا أوكل بالرعي الأول^(٢)
 ولقد غدوت أمام راية غالب يوم الهياج وما غدوت بأعزل
 بكرت تخوفني الختوف كأنى أصبحت عن غرض الختوف بمعزل
 فأجبتها إن المنية منهل لا بد أن أسقى بكأس المنهل
 فأقنى حياءك لا أبالك وأعلمى أنى أمرؤ سأموت إن لم أقتل^(٣)
 إن المنية لو تمثّل ممثّل مثلى إذا نزلوا بضنك المنزل
 والخيل ساهمة الوجوه كأنما تسقى فوارسها تقيع الخنظل
 وإذا حملت على الكريهة لم أقل بعد الكريهة ليتنى لم أفعل

وله أيضاً يذكر يوم الجفار وهو موضع وماء تميم كانت به وقعة ، ويصف

نفسه وقومه ويعرض صورة صادقة لزعهم على العدو إذ يقول :

طربت وهاجتكَ الطباء السوائج غداة غدت منها سديح وبارح

(١) وقوله : ألفيت خيراً من معم مخول : أى ذى عم وخال ، وهما كناية عن الشرف والنسب تعريض منه بقيس بن زهير كما قلناه ، قيل وسمع رسول الله بيته :
 « ولقد أبيت على الطوى وأظله » ، فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : ما وصف لى أعرابي فأحببت أن أراه إلا عنتره .

(٢) الرعي : الجماعة من الخيل والناس . (٣) قنى الحياء : كرضى ورمى لزمه ، ويريد نهياً عن عدله ، وأن تلزم الحياء من ذلك ، وبقية الكلام ظاهرة .

فَمَاتَ بِي الْأَهْوَاءِ حَتَّى كَأَنَّمَا بَرَزَ نَدِينِ فِي جَوْفِي مِنَ الْوَجْدِ قَادِحُ
تَعَزَّيْتُ عَنْ ذِكْرِي سُهَيْتَةً حِقْبَةً فَبُخَّ عَنْكَ مِنْهَا بِالَّذِي أَنْتَ بَأْمِحُ
أَعَاذِلُكُمْ مِنْ يَوْمِ حَرْبٍ شَهِدْتُهُ لَهُ مَنَظَرُهُ بَادِي النَّوَاجِدِ كَالْحُ
إِذَا شِئْتُ لَأَقَابِي كَمَا مَدَجَّجُ عَلَى أَعْوَجِي بِالطَّعَانِ مُسَامِحُ
نُزَاحِفُ زَحْفًا أَوْ نَلَاقِي كَتِيبَةً تُطَاعِنُنَا أَوْ يَذْعَرُ السَّرْحَ صَائِحُ
فَلَمَّا التَّقِينَا بِالْجِفَارِ تَصَعَّصُوا وَرُدَّتْ عَلَى أَعْقَابِهِنَّ الْمَسَالِحُ (١)
وَسَارَتْ رِجَالُهُ نَحْوَ أُخْرَى عَلَيْهِمُ الْحَدِيدُ كَمَا تَمْشِي الْجِمَالُ الدَّوَالِحُ (٢)
إِذَا مَامَشُوا فِي السَّابِغَاتِ حَسِبْتَهُمْ سِيُولًا وَقَدْ جَاشَتْ بَيْنَ الْأَبَاطِحِ
وَدُرْنَا كَمَا دَارَتْ عَلَى قُطْبِهَا الرَّحَى وَدَارَتْ عَلَى هَامِ الرَّجَالِ الصَّفَاحِ
بِهَاجِرَةٍ حَتَّى تَغِيَّبَ نُورُهَا وَأَقْبَلَ لَيْلٌ يَقْبِضُ الطَّرْفَ سَائِحُ
تَدَاعَى بَنُو عَبْسٍ بِكُلِّ مُهَنْدٍ حُسَامٍ يُزِيلُ الْهَامَ وَالصَّفَّ جَائِحُ
وَكُلُّ رُدَيْيٍّ كَانَ سِنَانَهُ شِهَابٌ بَدَى فِي ظُلْمَةِ اللَّيْلِ وَاضِحُ
فَخَلَوْا لَنَا عُوذَ النِّسَاءِ وَجَنَّبُوا عِبَادِيدَ مِنْهَا مُسْتَقِيمٌ وَجَامِحُ (٣)
وَكُلُّ كِعَابٍ خَذَلَةَ السَّاقِ فَخْمَةٌ لَهَا مَنِيَّتٌ فِي آلِ ضَبَّةٍ طَامِحُ

وكانت بنو عبس لما أخرجتهم حنيفة من اليمامة أرادوا أن يأتوا بني تغلب ، فمروا بحمي من كلب على ماء يقال له عرعر ، فطلبوا أن يسقوهم من الماء وأن يوردوه إبلهم . وسيدهم يومئذ رجل من كلب يقال له مسعود بن مزار فأبوا وأرادوا سلبهم فقاتلوهم فقتل مسعود ، وصالحوهم على أن يشربوا من الماء ويعطوهم شيئاً فأنكشفوا عنهم ، فقال عنتره :

(١) الجفار كتاب : ماء لقيم كانت به وقعة . تصعصع : تحرك وتفرق وذل وجبن ، وصفونهم زالت عن مواضعها . المسالغ : جمع مسلحة ، وهي الثغر ، والقوم ذوو سلاح .
(٢) الدالح : الذي ينقبض خطوه لثقل حمله . (٣) العبايد كالعبايد بلا واحد من لفظهما : الفرق من الناس والحيل الذاهبون في كل وجه .

أَلَا هَلْ أَتَاهَا أَنَّ يَوْمَ عُرَاعِرٍ شَفَى سَقَمًا لَوْ كَانَتِ النَّفْسُ تُشْتَفَى
فَجِئْنَا عَلَى عَمِيَاءَ مَا جَمَعُوا لَنَا بَارِعِنَ لَا خَلٍ وَلَا مُتَكَشِّفٍ (١)
تَمَارَوْا بِنَا إِذْ يَمْدُرُونَ حِيَاضَهُمْ عَلَى ظَهْرِ مَقْضِيٍّ مِنَ الْأَمْرِ مُحْصِفٍ (٢)
وَمَا نَذَرُوا حَتَّى غَشِينَا بِيَوْمِهِمْ بِبَغِيَّةٍ مَوْتٍ مُسْبِلِ الْوَدْقِ مُزْعِفٍ (٣)
فَظَلْنَا نَكْرُ الْمَشْرِقِيَّةَ فِيهِمْ وَخَرِصَانَ لَدُنِ السَّمْهَرِيِّ الْمُتَقِفِ (٤)
عَلَّلْتَنَا فِي يَوْمٍ كُلِّ كَرِيهَةٍ بِأَسْيَافِنَا وَالْقَرْحِ لَمْ يَتَقَرَّفِ (٥)
أَبِينَا فَلَا نُعْطِي السَّوَاءَ عَدُوَّنَا قِيَامًا بِأَعْضَادِ السَّرَاءِ الْمُعْطِفِ (٦)
بِكُلِّ هَتُوفٍ عَجْبُهَا رَضْوِيَّةٌ وَسَهْمٍ كَسِيرِ الْحَمِيرِيِّ الْمُؤَنَّفِ (٧)
فَإِنْ يَكُ عِزٌّ فِي قُضَاعَةٍ ثَابِتٌ فَإِنَّ لَنَا بِرَحْرَحَانَ وَأَسْقِفِ
كِتَابَ شُهْبًا فَوْقَ كُلِّ كَتِيبَةٍ لَوْ أَنَّ كَظَالَ الطَّائِرِ الْمُتَعَرَّفِ

وكانت امرأة أبيه قد حرشت أباه عليه وزعمت أنه يراودها عن نفسها ،
وكان ذلك قبل أن يدعيه أبوه ، وبعد ما قاتل وجرب ، فأخذ أبوه فضربه
فأكبت عليه تستنقذه فكف عنه ، فلما رأت ما به من الجراحة بكت ، فقال
عنترة في ذلك :

(١) العمياء : الجهالة والغواية واللجاج في الباطل ، ويقال قتلنا على عمياء : أى من غير
ضعيفة ولا عداوة . الأرعن : الجيش والجليل . الخل : الضعيف والمهزول والسامين
أيضاً ضد . (٢) تماروا : تجادلوا على مذهب الشك والريبة . مدر الحوض : خاش أو
عاش فيه . المحصف : الصادق المحكم . (٣) وتدر بالشيء كفرح : علمه وحذر منه .
والغبية : الدفعة من المطر . (٤) الخريصان : جمع خرس بالضم والكسر وهو الرمح .
(٥) ويقال تفرقت الفرحة : إذا تفشرت . (٦) السراء : شجر تتخذ منه القسي .
(٧) العجس : مقبض القوس . الرضوية : المنسوبة إلى رضوى : الجبل المعروف بالمدينة ،
ويقال نصل مؤنّف كعظم : أى محدد .

أَمِنْ سُهَيْبَةٍ دَمَعُ الْعَيْنِ مَذْرُوفٌ لَوْ أَنَّ ذَا مِنْكَ قَبْلَ الْيَوْمِ مَعْرُوفٌ (١)
 كَانَتْهَا يَوْمَ صَدَّتْ مَا تُكَلِّمُنِي ظَنِي بِعُسْفَانَ سَاجِي الطَّرْفِ مَطْرُوفٌ (٢)
 تَجَلَّتَنِي أَنْ أَهْوَى الْعَصَى قَبْلِي كَانَتْهَا صَنَمٌ يُعْتَادُ مَعْكُوفٌ (٣)
 الْمَالُ مَالِكُمْ وَالْعَبْدُ عَبْدُكُمْ فَهَلْ عَذَابُكَ عَنِّي الْيَوْمَ مَصْرُوفٌ
 تَنْسَى بِلَائِي إِذَا مَا غَارَةٌ لَقِحتُ تَخْرُجُ مِنْهَا الطُّوَالَاتُ السَّرَاعِيفُ (٤)
 يَخْرُجُنَ مِنْهَا وَقَدْ بَلَّتْ رَحَائِلُهَا بِالْمَاءِ يَرُ كُضُّهَا الْمُرْدُ الْغَطَارِيفُ (٥)
 قَدْ أَطْمَنُ أَنْطَمَنَةَ النَّجْلَاءِ عَنْ عَرْمُضٍ تَصْفَرُّ كَفِّ أَخِيهَا وَهُوَ مَنْرُوفٌ

وله من قصيدة أخرى وهي من الكامل كما أكثر شعره :

وَكْتِيبةٍ لَبَسَتْهَا بَكْتِيبةٌ شهباءٌ بِاسْمِ سَلَةٍ يُحَانُ رَدَاها
 خَرَسَاءٌ ظَاهِرَةٌ الْأَدَاةِ كَانَتْهَا نَارٌ يُشَبُّ وَقُودُهَا بِلَظَاها
 وَصَحَابَةٌ شُمُّ الْأُنُوفِ بَعَثْتَهُمْ لَيْلاً وَقَدْ مَالَ الْكَرَى بِطُلَاها (٦)
 وَسَرَبْتُ فِي وَعَثِ الظَّلامِ أَقُودُها حَتَّى رَأَيْتُ الشَّمْسَ زَالَ ضُحَاها
 وَلَقِيتُ فِي قَبْلِ الْهَجِيرِ كَتِيبةٌ فَطَعَنْتُ أَوْلَ فَارِسٍ أَوْلَاها
 حَتَّى رَأَيْتُ الْخَيْلَ بَعْدَ سَوَادِها مُحْمَرَّ الْجُلُودِ خُضِبْنَ مِنْ جَرَّحَاها
 يَعْثُرُونَ فِي نَقَعِ النَّجِيعِ جَوَافِلًا وَيَطَّانُ مِنْ حَمِي الْوَعْيِ صَرَعاها (٧)
 فَرَجَعْتُ مَجُودًا بِرَأْسِ عَظِيمِها وَتَرَكْتُها جَزْرًا لِيَنْ نَاواها

(١) مذروف : من ذرفت عينه ، أى دمعت دمعاً يكاد يكون متصلاً .
 (٢) الساجى : الساكن . (٣) تجللتني معناه : ألفت نفسها على . معكوف : أى .
 يكف عليه . (٤) الطوالات : الخيل . السرايعف : جمع سرعوف ، وهو من .
 الخيل الطويل . (٥) الرحائل : السروج . الغطاريف : الكرام جمع غطريف ، وهو
 السيد الشريف السخى . (٦) الطلى بالضم : الأعناق جمع طلية أو طلاة بالضم أيضاً .
 (٧) النجيع : الدم الأسود .

ما أَسْتَمْتُ أَنْتِي نَفْسَهَا فِي مَوْطِنٍ حَتَّى أُوفِّيَ مَهْرَهَا مَوْلَاهَا
أَغْشَى فِتَاةَ الْحَى عِنْدَ حَلِيلِهَا وَإِذَا غَزَا فِي الْجَيْشِ لَا أُغْشَاهَا
وَأَغْضُ طَرْفِي إِنْ بَدَتْ لِي جَارَتِي حَتَّى يُوَارِي جَارَتِي مَأْوَاهَا
إِنِّي أَمْرٌ سَمِحٌ الْخَلِيقَةَ مَاجِدٌ لَا أَتَّبِعُ النَّفْسَ اللَّجُوجَ هَوَاهَا

وقال أيضاً من الوافر يصف إدراكه لامرأة خائفة كادت تسلم نفسها ، فلما
رأته أمّنت ، وقيل قالها حين انهزمت عيس وردها عنتره ، فانتصرت على
الفرزاريين يوم الهباءة :

نَأْتِكَ رَقَاشٍ إِلَّا عَنِ لِمَامٍ وَأَمْسَى حَبْلُهَا خَلَقَ الرَّمَامِ
وَمَا ذِكْرِي رَقَاشٍ إِذَا أُسْتَقَرَّتْ لَدَى الطَّرْفَاءِ عِنْدَ ابْنِي شَمَامِ (١)
وَمَسْكُنُ أَهْلِهَا مِنْ بَطْنِ جَزَعٍ تَبْيِضُ بِهِ مَصَايِفُ الْحَمَامِ (٢)
ثم قال وفيها يذكر نسبه في حام :

وَمُرْقِصَةٍ رَدَدْتُ الْخَيْلَ عَنْهَا وَقَدْ هَمَّتْ بِإِلْقَاءِ الرَّمَامِ
فَقُلْتُ لَهَا اقْضِي مِنْهُ وَسِيرِي وَقَدْ قُرِعَ الْخِرَائِزُ بِالْحِدَامِ (٣)
أَكْرَهُ عَلَيْهِمْ مَهْرِي كَلِيًّا قَلَائِدُهُ سَبَائِبُ كَالْقِرَامِ (٤)
كَأَنَّ دُفُوفَ مَرْجِعِ مَرْفِقِيهِ تَوَارَتْهَا مَنَازِيعُ السَّهَامِ (٥)
تَقَعَسَ وَهُوَ مُضْطَمِرٌ مُضِرٌّ بِقَارِحِهِ عَلَى قَاسِ اللَّجَامِ
يُقَدِّمُهُ فَتَى مِنْ خَيْرِ عَيْسِ أَبُوهُ وَأُمُّهُ مِنْ آلِ حَامِ

(١) الطرفاء : شجر الأثل . شمام كسحاب : جبل ، والغرض وصفها بالبعد .
(٢) مصاييف الحمام : جمع مصياف وهي التي معها أولادها . (٣) الخرائز : عقود
من نبات مدور تنظم وتلبس . الحدام كتاب : موضع الخللخال أو رباط السراويل من
أسفل رجل المرأة . (٤) القرام : جليدة تقطع من أنف البعير توضع على خطامه ، وهي
حمة له . (٥) الدف : الجانب والصف من كل شيء . منازيع السهام : هي القسي .

وقد أسلفنا من طوياته أبياتاً في فنون الشعر وفي المعلقات ، ونذكر هنا بعض ما أغفلناه هناك من هذه القصيدة التي مطلعها المشهور :

هل غادرَ الشعراءَ من مُترَدِّمٍ أم هل عرَفَتِ الدَّارَ بعدَ توهُمِهمْ .

يقول منها بعد إطالته في وصف ناقته الشدنية :

وَحَلِيلِ غَائِيَةٍ تَرَكَتْ مُجْدَلًا تَمَكُّوْ فَرِيصَتُهُ كَشِدْقِ الْأَعْلَمِ (١)
سَبَقَتْ يَدَايَ لَهُ بِعَاجِلِ طَعْنَةٍ وَرَشَاشِ نَافِذَةٍ كَلَوْنِ الْعَنْدَمِ (٢)
هَلَّا سَأَلْتَ الْخَيْلَ يَا بِنْتَ مَلَاكٍ إِنْ كُنْتَ جَاهِلَةً بِمَا لَمْ تَعْلَمِي
إِذْ لَا أَزَالُ عَلَى رِحَالَةٍ سَابِحٍ نَهْدِ تَعَاوُرَةِ الْكُمَاةِ مُكَلِّمِ
طَوْرًا يُجْرَدُ لِلطَّعْمَانِ وَتَارَةً يَاوِي إِلَى حَصْدِ الْقَيْسِيِّ عَرْمَرَمِ (٣)
يُخْبِرُكَ مَنْ شَهِدَ الْوَقِيْعَةَ أَنِّي أَغْشَى الْوَعْغَى وَأَعِيفُ عِنْدَ الْمَغْنَمِ
فَأَرَى مَغَانِمَ لَوْ أَشَاءَ حَوَيْتُهَا فَيَصُدُّنِي عَنْهَا الْحَيَا وَتَكَرَّمِي
وَمُدَجِّجِ كَرَةِ الْكُمَاةِ نِزَالِهِ لَا تُمْنِ هَرَبًا وَلَا مُسْتَسْلِمِ
جَادَتْ لَهُ كَفِّي بِعَاجِلِ طَعْنَةٍ بِمُتَّقَفِ صَدْقِ الْكُعُوبِ مُقَوِّمِ
بِرَحِيْبَةِ الْفَرَعَيْنِ يَهْدِي جَرَسُهَا بِاللَّيْلِ مُعَاسِّ الذَّنَابِ الضَّرْمِ (٤)
فَشَكَتُ بِالرَّمْحِ الْأَصَمِّ ثِيَابَهُ لَيْسَ الْكَرِيمُ عَلَى الْقَنَا بِمُحْرَمِ
فَتَرَكْتُهُ جَزَرَ السَّبَاعِ يَنْشَنُهُ يَقْضِي مَنْ حُسْنَ بِنَانِهِ وَالْمَعْصَمِ
وَمَشَكْتُ سَابِغَةً هَتَكَتُ فُرُوجَهَا بِالسَّيْفِ عَنِ حَايِ الْحَقِيْقَةِ مُعَلِّمِ (٥)

(١) مجدل : أي ملق على الجندل . تمكو : تصوت . الفريضة : ودج العنق أو هي لحة بين الجنب والكتف لا تزال ترتعد . الأعلم : المشقوق الشفة .

(٢) العندم : دم الأخوين . (٣) الحصد بكسر الصاد : المحكم . العرمم : الجيش

الكثير . (٤) الفرغ : مخرج الماء إلى الأودية ، والمراد برحبية الفرغين : الطعنة الواسعة الجرح التي يسمع لها صوت . (٥) مشك سابغة : وصف للدرع .

رَبِّدْ يَدَاهُ بِالْقِدَاحِ إِذَا شَنَّا . اهْتَكَ غَايَاتِ التَّجَارِ مُلَوِّمٌ (١)
لَمَّا رَأَى قَدْ نَزَلَتْ أُرَيْدُهُ . أَبْدَى نَوَاجِذَهُ لَفْسِيرٍ تَبَسُّمٌ
فَطَعَنَتْهُ بِالرَّوْحِ ثُمَّ سَاوَتْهُ (٢) . بِمُهَنْدٍ صَافِيِ الحَدِيدَةِ مَخْدَمٌ
عَهْدِي بِهِ مَدَّ النَّهَارِ كَأَنَّمَا . خُضِبَ البَنَانُ وَرَأْسُهُ بِالعِظَامِ (٣)
بَطَلٌ كَانَ ثِيَابَهُ فِي سَرْحَةٍ . يُحْدِي نِعَالَ السَّبْتِ لَيْسَ بِتَوَامٍ (٤)
يَأْشَاءُ مَا قَنَصَ لِمَنْ حَلَّتْ لَهُ . حَرَمَتْ عَلَيَّ وَلَيْتَهَا لَمْ تَحْرَمِ (٥)
فَبَعَثْتُ جَارِيَتِي وَقُلْتُ لَهَا إِذْ هِيَ . فَتَجَسَّسِي أَخْبَارَهَا لِي وَاعْلَمِي
قَالَتْ رَأَيْتُ مِنَ الأعَادِي غِرَّةً . وَالشَّاةُ مُمَكِّنَةٌ لِمَنْ هُوَ مُرْتَمٍ
وَكَأَنَّمَا التَّفَتَّتْ بِجِدَايَةٍ . رَشَاءٌ مِنَ الغَزْلَانِ خُرٌّ أَرْثَمِ (٦)
نُبِّئْتُ عَمْرًا غَيْرَ شَاكِرٍ نَعْمِي . وَالسُّكْرُ مَخْبِئَةٌ لِنَفْسِ المُنْعَمِ
وَلَقَدْ حَفِظْتُ وَصَاةَ عَمِّي بِالصُّحَى . إِذْ تَقَلَّصُ الشَّفَتَانِ عَن وَضَحِ الفَمِ
فِي حَوْمَةِ الجُرْبِ الَّتِي لَا تَشْتَكِي . غَمْرَاتِهَا الأَبْطَالُ غَيْرِ تَغْنَمِ (٧)

ثم يقول :

وَلَقَدْ شَفَى نَفْسِي وَأَذْهَبَ سَقْمَهَا . قِيلُ الفَوَارِسِ وَيَكُ عَنَتْرُ أَقْدَمِ
وَالخَيْلُ تَقْتَحِمُ الخَبَارَ عَوَابِسًا . مِنْ بَيْنِ شَيْطَمَةٍ وَأَجْرَدَ شَيْظَمِ (٨)
ذُلُّ رِكَابِي حَيْثُ شِئْتُ مُشَابِعِي . لَبِّي وَأُخْفِرُهُ بِأَمْرِ مُبْرَمِ (٩)

(١) الربد: الخفيف السريع . الغايات : رايات الخمارين . يريد وصفه بأنه من كرام الناس وأشرفهم خلفه يده بقداح المسر وتزوله على بيوت الخمارين وتعرضه لاوم لكزة كرمه وإنفاقه . (٢) المخدم : انسريع القطع . (٣) العظام : نبات يختضب به كالحناء . (٤) السريحة : الشجرة العظيمة . السبت : الجلد المدبوغ . التوام : خلاف الفد ، والمراد وصفه بالجهازة وعظم الحلقة . (٥) الشاة : كناية عن المرأة . (٦) الجداية : ولد الظبية . الأرم : الذي في شفته العنقا وأنه يياض . كنى بتقلص الشفتين عن اشتداد الهول والحرب . (٧) التغنم : صياح ولجب لا يفهم منه شيء . (٨) الخبار : الأرض اللينة . الشيطم : الطويل من الخيل . (٩) الذلل : جمع ذلول ، وهو ضد الصعب . الركاب : الإبل لا واحد لها من لفظها وهي جمع ركوب بفتح أولها .

ثم ختم هذه الطويلة بتوعده لابني ضمضم كما أسلفنا في شرحنا المعلقة
وقد أعجلنا الوقت عن الإطالة في شرح هذه القصائد وتحليلها كما فعلنا فيما سبق من
التراجم ، ولو حاولنا أن ننبه على جميع الأشعار المدسوسة على عنتره لظال علينا
الكلام غير أننا نشير إلى بعض المطالع على سبيل المثال . فمن ذلك مطلع قصيدة
مشهورة يتهدد بها النعمان بن المنذر :

لَا يَحْمِلُ الْحِقْدَ مَنْ تَعَلَّوْهُ الرُّتْبُ وَلَا يَنَالُ الْعُلَا مَنْ طَبَعَهُ الْغَضَبُ
وقوله :

لِغَيْرِ الْعُلَا مَنِ الْقَلِيَّ وَالتَّجَنَّبُ وَلَوْلَا الْعُلَا مَا كُنْتُ فِي الْعَيْشِ أَرْضَبُ
وهذا المطلع بعينه للشريف الرضي وقوله :

أَحْنُ إِلَى ضَرْبِ السِّيُوفِ الْقَوَاضِبِ وَأَصْبُو إِلَى طَعْنِ الرِّمَاحِ اللَّوَابِ
وقوله :

إِذَا قَنِعَ الْفَتَى بِذَمِيمِ عَيْشِ وَكَانَ وِرَاءَ سَجْفِ كَالْبَنَاتِ
وقوله :

سَكَتَ فَرَّ أَعْدَائِي السَّكُوتِ وَظَنُونِي لِأَهْلِي قَدْ نَسِيتِ
وقوله :

أَشَاقَكَ مِنْ عَبَلِ الْخِيَالِ الْمُبْرَجِ فَطَلَبِكَ فِيهِ لَاعَجِ يَتَوَهَجِ
وقوله :

أَعَاتِبُ دَهْرًا لَا يَلِينُ لِنَاصِحِ وَأُخْفِي الْجَوَى فِي الْقَلْبِ وَالْذَمِّ فَاضِحِ
وله قوافٍ كثيرة غير هذه على بقية حروف المعجم كلها منجولة منها قوله :

رِيحِ الْحِجَازِ بِحَقِّ مَنْ أُنْشَاكَ رُدِّ السَّلَامِ وَحَيِّ مَنْ حَيَّاكَ
وقوله :

مَنْ لِي بِرِدِّ الصَّبَا وَاللَّهُو وَالغَزَلِ هِيَّات مَا فَاتَ مِنْ أَيَّامِي الْأَوَّلِ
وقوله :

سَلِي يَا بِنَّةَ الْعَمِّ رُحِي وَصَارِمِي وَمَا فَعَلَا فِي يَوْمِ حَرْبِ الْأَعَاجِمِ
وقوله :

يَا طَائِرَ الْبَانِ قَدْ هَيَّجْتَ أَشْجَانِي وَزِدْتَنِي طَرَبًا يَا طَائِرَ الْبَانِ
وظاهر أن هذه المطالع وما يتلوها من الشعر لا تشاكل أدب عنتره
وفصاحته كما قدمنا ، وهو عنتره بن شداد ، وقيل ابن عمرو بن شداد ، وقيل ابن
شداد بن عمرو بن معاوية ينتهي نسبه إلى عيس بن بغيض بن ريث بن
غطفان ، وهو معدود عند أكثر العلماء من شعراء الفُرسان ، ولم يرتبه كثير
منهم في طبقة ، والله أعلم .

بحمد الله تعالى تمّ طبع كتاب : «الأدب العربي وتاريخه في العصر الجاهلي»
مصححاً بمعرفتي مع مراجعة المؤلف

أحمد سعد علي

أحد علماء الأزهر ورئيس لجنة التصحيح

[القاهرة في يوم الاثنين ٢٦ رجب الفرد سنة ١٣٥٥ هـ .

الموافق ١٢ أكتوبر سنة ١٩٣٦ م] .

مدير المطبعة

ملاحظ المطبعة

رستم مصطفى الحلبي

محمد أمين عمران

فهرس

صفحة	صفحة
١٩ فائدة تاريخ الأدب - علاقته بالتاريخ العام - نشأته	٣ تمهيد - تاريخ كلمة أدب
٢٠ عصور تاريخ الأدب	٥ كلمة الأديب
٢١ جزيرة العرب	٦ الجاهلية - العصر الجاهلي - تدخل عصور الأدب بعضها في بعض
٢٢ أصل العرب - السبب في تسمية هذه الأمة بالعرب والمناسبة بين كلمتي عرب وعبري .	٨ سيادة قریش وغلبة لغتها على لهجات القبائل الأخرى
٢٣ أقسام العرب - العرب البائدة - الحوراييون - العرب العاربة	٩ الاختلاف بين لغات القبائل الشمالية والجنوبية - التعريف بأبي عمرو ابن العلاء
٢٤ الزباء أورينونيا ملكة تدمر	١٠ الأدب الجاهلي - أقوال العلماء فيه - أبو عبيدة معمر بن المثنى
٢٥ العرب المستعربة	١١ المفضل الضبي - حماد الراوية - خلف الأحمر
٢٦ نشأة اللغة - القول بالتوقيف - تعريف اللغة	١٢ تأثير الملكات الأدبية بطبائع الأقاليم
٢٧ رأى أهل الوضع والاصطلاح - التفاهم بالاشارات الحسية - محاكاة الأصوات	١٣ ولوع المتأخرين بمعارضة مذاهب المتقدمين
٢٩ رأى اللغويين في تقسيم اللغات القديمة	١٤ أبو نواس والبارودي - البحترى وشوقى - بشار وأبو تمام - نصيب والفرزدق .
٣٠ اللغات السامية - اللغة العربية - أصلها	١٥ أقوال علماء المشرقيات في الأدب الجاهلي
٣٢ عوامل نموها - القلب - الإبدال	١٦ تعريف الأدب - فائدته
٣٣ النحت	١٧ حاجة الدعاة والمصلحين إليه - تاريخه
٣٤ الاشتقاق والمجاز	

صفحة	
٤٩	البسوس
٥٠	اشتراك الحارث بن عباد في هذه الحرب بعد اعتزاله إياها - محاورة أخت كليب جلييلة وإجابة هذه لأبيها مرة .
٥١	موقف جلييلة من أخيها وزوجها - حروب داحس والغبراء - السباق عند العرب .
٥٢	اشتراك الربيع بن زياد مع قومه في الحرب - يوم المريقب - يوم الهبأة
٥٣	الحارث بن عوف وهرم بن سنان يسعيان في الصلح - رثاء قيس بن زهير لقتلى الهبأة - قصة بيهسة مع الحارث .
٥٤	يوم شعب جبلة . أيام الفجار
٥٥	يوم بعث
٥٦	يوم ذى قار
٥٨	النثر الجاهلي والشعر وأبيهما أسبق من صاحبه
٦٦	منزلة النثر الجاهلي من الأدب والتاريخ - الحافظة والرواية عند العرب واتصالهما بطبقات الرواة الإسلاميين
٦٩	الخطابة عند العرب - نشأة الخطابة - معنى الخطبة

صفحة	
٣٥	عوامل أخرى يكثر ظهورها في اللغة العربية - الإعراب - دقة التعبير في الألفاظ والتراكيب
٣٦	الإيجاز والترادف والتضاد - صفات الطويل والقصير والكريم والبخيل والشجاع والجبان .
٣٧	رأى العلماء في الترادف - فائدته - الاشتراك اللفظي
٣٨	اختلاف اللهجات - أوجهه
٤٠	أطوار تهذيب اللغة - وأثر الأسواق فيه - السبب في عدم ظهور اللهجات في الشعر
٤١	النور الأول - الثاني - عكاظ
٤٢	الخط العربي ونشأته - رأى بعضهم في الخط الفينقي
٤٤	الحياة العقلية - أو معارف العرب في الجاهلية
٤٥	معرفة العرب بالنجوم - الطب عند العرب
٤٦	الفراسة والقيافة - معرفتهم بالأنساب
٤٧	الكهانة والعرافة - بيطرة الدواب - القصص والأخبار
٤٨	الديانات الشائعة عند العرب - أيام العرب - جمرات العرب ومعنى الجمر

صفحة	صفحة
٨٣	٧٠
الأمثال الفرضية	دواعيها العامة - دواعيها الخاصة بالعرب
٨٤	٧١
نثر الكهان - قصة هند مع زوجها وأبيها	أشهر خطباء العرب في الجاهلية . وفود
٨٥	
أشهر الكهان والكواهن	الخطباء على النعمان والشك في هذا الخبر
٨٦	٧٢
أقسام النثر الجاهلي	خطبة المأمور الحارثي
٨٧	٧٣
صفات الألفاظ - ملاحظة عن	خطبة أكرم بن صيفي في قومه يدعوهم
السجع في القرآن	إلى الإسلام
٨٨	٧٤
تقد الألفاظ من حيث الجزالة	معارضة مالك بن نويرة لأكرم -
والسلاسة - صفات المعاني	مقام عبد المطلب عند سيف بن ذي يزن
٨٩	
أسلوب النثر الجاهلي	تعزية أكرم لعمر بن هند .
٩١	٧٥
أغراض الخطابة - أدب الخطيب -	خطبة أبي طالب في تزويج خديجة -
الخطابة والشعر	خطبة قس في عكاظ
٩٢	٧٦
الشعر - تمهيد - نشأة الشعر في	كلمة قبيصة بن نعيم لامرئ القيس
لغات الناس	٧٧
٩٣	٧٨
تعريف الشعر عند العرب - الشعر	الوصايا - وصية النعمان بن ثواب
عند المحدثين	٧٩
٩٤	
أولية الشعر - أوائل الشعراء	أمامة بنت الحارث وابنتها أم إياس -
٩٥	
نشأة أوزان الشعر	المنافرة - عامر بن الطفيل وعلقمة
٩٦	٨٠
شاعرية العرب	حكم هرم بن قطبة - سؤال عمر بن
٩٧	
أسبابها	الخطاب لهرم - الحكمة والمثل -
٩٨	
طبيعة هذا الشعر ونوعه	تعريف الحكمة - أشهر حكماء العرب
٩٩	٨١
الشعر القصصي - الشعر التمثيلي	أثر الحكمة في الكلام - تعريف المثل -
١٠٠	
الشعر الغنائي	أثر المثل
١٠١	٨٢
تنقل الشعر في القبائل والقرابة من الشعراء	شرح ما اشتمل عليه المثل :
	« إن البلاء موكل بالمنطق »

صفحة	صفحة
في الاستعداد وأوليته في ندب المختصين - عبيد الشعر	١٠٢ فنون الشعر ووحددة اللغة من الطبقات المختلفة من السكان
١٢٠ طبقات الشعراء . رأى أبي عبيدة في ذلك . تقسيم الشعراء من حيث العصور	١٠٣ موازنة بين كلام الجاهليين وكلام غيرهم من العصور الأخرى
١٢١ تقسيم الشعراء من حيث الإجابة . هبيد شيطان عبيد . مسحل ولافظ وهاذر	١٠٤ مديح الجاهليين ومديح غيرهم
١٢٢ عبقرى . الرشيد وكتاب أبي السرى في الجن - رأى أبي إسحق المتكلم في نشأة هذه الفكرة .	١١٠ الفرق بين الغزل والنسيب والتشبيب
١٢٤ المعلقات - سبب تسمية هذه القصائد بالمعلقات . إنكار أبي جعفر النحاس لتعليقها في الكعبة	١١٢ الحياة الاجتماعية والشعر العربي
١٢٥ رأى ابن عبد ربه صاحب العقد - صاحب العمدة - رأى ابن خلدون	١١٣ عقر الرواحل على قبور الأبطال - عادتهم في الاستنباح - الوشم
١٢٦ رأى الاسكندري - رأى البغدادي - ترجيح رأى البغدادي - تعليق قريش لصحيفة المقاطعة - تعليق الرشيد لكتاب العهد	١١٤ الطلاق - التهادى بالريحان - الحلبة والرهان - الغناء
١٢٧ معلقة امرئ القيس	١١٥ ذكرهم الموارد - أسماء الخيول - منجبات النساء - البحار والسفن
١٣١ معلقة زهير	١١٦ الخط بالقلم - تحريم الخمر - تعليق الحلى على اللديغ - زواج امرأة الأب - التأله
١٣٣ معلقة طرفة بن العبد	١١٧ تأثير الشعر - منزلة الشاعر - التكسب بالشعر - عظمة الشاعر في الجاهلية
١٣٦ معلقة لبيد بن ربيعة	الأعشى والحلق الكلابي - حسان وبنو عبد المدان
١٣٩ معلقة عنتره العبسي	١١٨ الخطيئة وبنو أنف الناقة - جرير والراعي النيرى
	١١٩ النجاشي وبنو العجلان - فتوى عمر

صفحة	صفحة
المهلب والحجاج	١٤١ معلقة عمرو بن كلثوم
١٦٠ ظهور كتاب الطبقات للجمحي -	١٤٥ معلقة الحارث بن حلزة
الشعر والشعراء لابن قتيبة - البيان	١٤٨ أوصاف الشعر - لفظه
والتبيين للجاحظ - الأغاني لأبي	١٤٩ الأسلوب - المعاني
الفرج - المفضليات والحماسة	١٥٠ الأوزان والقوافي
والكامل - عبد القاهر وأبو هلال	١٥١ النقد - نشأته وأثره
١٦١ الموازنة بين الطائيين - والوساطة بين	١٥٢ أركان النقد الأدبي - تعريفه
المتنبي وخصومه - ما يتوخاه الناقد	١٥٣ النقد الأدبي عند العرب - تاريخه
١٦٣ تراجم الشعراء - امرؤ القيس - نشأته	وآثاره - نقد طرفة وهو صبي ،
١٦٤ سيرة أبيه حجر في قومه ومقتله -	حكومة الطائية بين امرئ القيس وعلقمة
تشمير امرئ القيس للأخذ بثأره -	١٥٤ القينة وشعر النابغة - الأعشى وحسان
رحلته إلى قيصر الروم	والخنساء في عكاظ - حكم النابغة
١٦٥ نونوز المؤرخ الروماني و امرؤ القيس	على شعر حسان
١٦٦ شعره - القصص في شعره	١٥٥ الأعشى مع قيس بن معد يكرب وفد
١٦٧ وصف زينة المرأة وما بلغت من المدنية	تميم عند رسول الله صلى الله عليه وسلم
في الجاهلية - تحليل الأبيات	١٥٦ أبو الأسود الدؤلي زعيم الطبقة الأولى
١٦٨ مثال آخر من ديبه وقصصه	من الرواة - وضع النحو - الموازنة
١٦٩ التشبيه الملفوف في شعره - علو نفسه ونبله	بين ثلاثة الفحول الإسلاميين -
١٧٠ أمانيه الأربع في الحياة	أعرابي على سماط عبد الملك
١٧١ تهديده لعدوه واستعداده ل حربهم	١٥٧ سؤال هشام وهو أمير لخالد بن
١٧٢ صورة من العبرة والحكمة في شعره -	صفوان عن الشعراء الثلاثة
جمال الكناية عن نفسه	١٥٨ الكميت والفرزدق
١٧٣ خروجه إلى قيصر .	١٥٩ سكينه وكثير عزة - كتاب ابن

صفحة	صفحة
١٩٧ قصيدته في المتجردة	١٧٣ مديحه لرهبط المعلى - شكواه من الدهر
١٩٨ زينة المرأة وجمالها ودلها	١٧٤ وصفه لتقلب النساء وغدرهن - منزله وما قدمه الناس به
١٩٩ مدحه للنعمان واحتجاجه لنفسه	١٧٥ أخذ طرفة وزهير منه - حسد بشار له
٢٠٠ معانيه المتنازعة وكلماته المأخوذة	١٧٦ تقریظ صاحب الموشح لأبياته في وصف الليل
٢٠١ إفراطه في المبالغة	١٧٨ تعرضه لشعراء عصره - موقفه مع عبيد بن الأبرص
٢٠٢ موازنة بينه وبين الطرماح - الإقواء في شعره	١٧٩ موقفه مع التوعم اليشكري
٢٠٣ نسه في ذبيان - زهير نشأته - تأثره بالنهضة الأخيرة - بشامة بن الغدير وزهير .	١٨٠ منازعته لعقمة التيمي
٢٠٤ أثره في النهضة الأخيرة في الجاهلية شعره	١٨٣ قد أم جندب
٢٠٥ تقديم عمر له - شهادة الأحنف عند معاوية له - الأغراض الغالبة على شعره .	١٨٥ ما أخذه الناس عليه
٢٠٦ اتصال شعره بالبادية	١٨٧ النابغة - حياته - المنخل اليشكري ومرة بن سعد والنابغة
٢٠٧ تشبيب قصيدته المعلقة - تحليل هذه الأبيات	١٨٨ حياته عند ملوك غسان
٢٠٨ مدحه للسيد بن - إبلاغه في وصف الحرب	١٨٩ شعره
٢٠٩ وصف الحرب - حكم زهير	١٩٠ التنصل والاعتذار - إمارته للشعراء في عكاظ - مدحته للحارث الجفني
٢١٠ وصف الفرس والصيد	١٩٢ معلقته - ثياب العرب
٢١٢ المناقب العربية في مديح زهير -	١٩٣ وصفه لكلاب الصيد
	١٩٤ اعتذاره للنعمان
	١٩٥ مديحه للنعمان
	١٩٦ حسن تنصله

صفحة	صفحة
المدكورة	مديحه لقومه
٢٣٢ مخالسته ووصفه للشراب والساقى .	٢١٤ قطعة من غزل زهير
٢٣٣ تقريره ليزيد الشيبانى - وصفه	٢١٦ مدح هرم - توعده زهير
لصاحبه قتلة	٢١٧ هجاؤه
٢٣٤ هجاؤه لعقمة بن علاثة - حديثه مع	٢١٨ ما وضعه حماد الراوية فى شعره
شريح بن السموى	٢١٩ نسبه واتصال الشعر فى عقبه
٢٣٥ مدحته فى رسول الله	٢٢٠ أعشى قيس نشأته - اتصاله بخاله المسيب
٢٣٦ نقد القدماء لشعره - محاوره ربهى	٢٢١ شعره وشهادة الأدياء له - قول
ومضرى فى بيتى الأعشى والنايفة -	مروان بن أبى حفصة فى الأعشى
نقد عبد الملك له - ما نسب فيه	٢٢٢ ما يمتاز به الأعشى - هجاؤه رجلا من
الكذب إلى الأعشى	كلب - حديثه مع شريح بن السموى
٢٣٧ تفضيل الشعبى له على الأخطل	٢٢٣ السبب فى هجائه لعقمة بن علاثة -
وإقرار الأخطل ذلك	إجارة عامر له من الموت - قصده
٢٣٨ عبد الملك وكثير والأعشى -	إلى النبى ورجوعه قبل لقائه
مذاهب العرب فى التأهب والتفضل	٢٢٤ غزله ووصفه للخمر
عند الحرب - نقد يونس النحوى له	٢٢٥ مديحه للأسود بن المنذر
٢٤٠ ما عابه الأصمى من شعره - الأعشى	٢٢٧ مدحته لقيس بن معد يكرب -
مع جهنم يهجوهم فيفحمهم بالكلام -	إحدى أولياته فى الخمر
الأخطل وشسقيق بن ثور أو	٢٢٨ مديحه لسلامة ذى فأس -
سويد بن منجوف - فضالة بن	حديثه فى ارتياد الخمارين ووصفه
شريك وابن الزبير	للسوم فى الخمر والساقى
٢٤١ نسبه	٢٣٠ تداويه من الكأس بالكأس
	٢٣١ رقة الغزل فى شعره - أحد مطالعه

صفحة	صفحة
٢٥٣	٢٤١
ظهوره على خصومه بالحجة في الجامع الحافلة - حديثه إلى المرأة	ليبيد بن ربيعة العامري نشأته
٢٥٤	٢٤٢
افتخاره بالشجاعة والبذل	الربيع بن زياد والعامريون عند النعمان - وصفه التربة - غلبته للربيع ابن زياد
٢٥٥	٢٤٣
وصفه للسحاب والمطر والبرق	فتك ليبيد ببعض ملوك الحيرة - عروة الرحال وعامر بن الطفيل - عمرو ابن معديكرب يصف فرسان العرب الأربعة - مدح طفيل الغنوي لقوم ليبيد
٢٥٦	٢٤٤
رثاؤه لأخيه أربد	وفادته على النبي صلى الله عليه وسلم وإسلامه - تأمر عامر بن الطفيل وأربد أخو ليبيد على النبي - إسلام ليبيد - شعره
٢٥٧	٢٤٥
رثاؤه للنعمان - نسب ليبيد - ليبيد والأغلب العجلي في خلافة عمر	مذاهب ليبيد في الشعر
٢٥٨	٢٤٦
القول في صنيع عمر بليبيد - نذر ليبيد في الجاهلية ووالي الكوفة	ثكله أباه وهو صغير - سهولة شعره في الرثاء
٢٥٩	٢٤٧
رسالة الوليد بن عقبة إلى ليبيد - رد ابنة ليبيد على هذه الرسالة - ما يمثل به من شعره وما يستشهد به النحاة	قد الندماء لشعره
٢٦٢	٢٤٨
ما أثر عنه عند وفاته - وصية ليبيد لابن أخيه قبل موته - رثاؤه لنفسه	رأى أبي عمرو والأصمعي وابن سلام
طرفة	٢٤٩
٢٦٤	٢٥١
أخته الخرتق وخاله المتلمس وعبد عمرو ابن عمه - انتقاده نخاله في بيته - منادته لعمر بن هند	الفرزدق وسجدة الشعر - المعتصم والمغني في حضرته بشعر ليبيد
٢٦٥	
صحيفة المتلمس - اغتيال أمير البحرين لطرفه بأمر الملك - البغدادي وترجمة طرفه - ابن قتيبة وابن سلام واسكندر ابكار يوس	ليبيد في فتوته وإكرامه لآخوانه - جمال الطبيعة في شعر ليبيد

صفحة	صفحة
٢٧٤ غزل المعلقة - تحليل هذه الأبيات	٢٦٦ الأعمى الشنمري ووليم بن الورد
٢٧٦ وصف الناقة	البروسى جامع الدواوين الستة -
٢٧٧ فُتْيَانِيَّتُهُ وكرمه ونداماه - تحليل الأبيات	رسالة في حياة طرفة لمكس سلغسون -
٢٧٨ وصفه للذاته	طرفة وصاحب شعراء النصرانية -
٢٧٩ صدق نظره وانتفاعه بعظات الحياة	الوسيط وكتاب في الأدب الجاهلى
٢٨٠ شكواه من ظلم ذوى قرباه مع دفاعه عنهم	٢٦٧ شعره - زهير وطرفة في وصفهما للحرب
٢٨١ غناؤه واعتداده بيسالته وتهديده لأعدائه - استبكاؤه لابنة عمه - أمثاله السائرة	٢٦٨ نبل طرفة وصباه - وصف الإبل -
٢٨٢ قصيدته الرائية	مجد القبيلة - رقة الكلام في الغزل
٢٨٣ تشبيها - سياحته ومالاقاه في أسفاره	٢٦٩ منزله في الشعراء - رأى ابن سلام في طرفة - رأى ابن قتيبة
٢٨٤ تحليل الأبيات السابقة	٢٧٠ جريروالفرزدق والأخطل يقدمونه -
٢٨٥ موازنة بين طرفة وعنترة وزهير وحسان في معنى مشترك بينهم	التثنية بمعلقة وتعليق البغدادي -
٢٨٦ تعرضه لتاريخ قومه وذكري البسوس	دراسة المعلقة - السبب في نظم المعلقة - رأى المترجم في ذلك وفي الأبيات المتعلقة بخولة وأنها من وضع جامع الديوان
٢٨٧ وصفه لخالة من الجذب والشدة عند العرب	٢٧١ رأيه في وصف الناقة
٢٨٨ أول شعر قاله وفيه عتاب لقومه	٢٧٢ خطؤه في تقده - بناء القصيدة العربية - التجانس بين أغراض القصيدة - وحدة القصيدة في رأى المحدثين
٢٨٩ آخر ما قاله من الشعر قبل موته	٢٧٣ الذوق اللغوى عند علماء العرب والإفرنج
٢٩٠ مديحه لقتادة - بعض أهاجيه	
٢٩٢ هجاءه لابن عمه	

صفحة	صفحة
٣٠٧ وصفه للبرق والسحاب والمطر	٢٩٣ اغترابه وشكواه
والعواصف - وصف عبيد نخلية	٢٩٥ عشقه وذكره للوصال والفراق -
المرأة في حب الشباب والمال	قصة المرقش مع أسماء صاحبتة -
٣١٠ معارضته لامرئ القيس	ما كانت العرب تسمى به أبناءها
٣١٢ قافية أخرى في وصف العاصفة	وعبيدها
والبرق والمطر والسحاب - اتجاعه	عبيد بن الأبرص
للحارث الغساني	٢٩٦ جمع ديوانه وضبطه - حياته وأخباره
٣١٣ نساءحه الاجتماعية	٢٩٧ رؤيا عبيد في النوم
٣١٤ المعاني المخترعة والمشاركة في شعره	٢٩٨ حديث عبيد مع المنذر في يوم بؤسه
أوس بن حجر	٢٩٩ أسطورة الأفعى وعبيد
٣١٨ نشأته وتاريخه - تنقله في أحياء	٣٠٠ شعره - بكاؤه على الشباب
العرب واتصاله بأحد ملوك الحيرة	٣٠١ ذكره لديار قومه - المعاني الاجتماعية
٣١٩ اشتراكه مع قومه وغيرهم في	في شعره
الحروب - ديانة أوس في نظر المترجم	٣٠٢ استدلال المترجم على صدق الشعر
٣٢٠ اتهام المترجم لحديث الرواة عن الصلة	القديم - الوحدة في الأمة العربية -
بين أوس وبين ممدوحه فضالة	إنكاره اتخاذ الشعراء الإسلاميين
٣٢١ شعره - معانيه الشعرية ومذهبه	مبدأ للشعر العربي الصحيح
الخاص به	٣٠٣ التزام عبيد لذكر كلمات بأعيانها
٣٢٢ نسبه - رأى العلماء في منزلته الأدبية	في شعره دليل مادي على صدقه -
٣٢٣ اضطراب الرواة في إسناد شعره	زواة شعر عبيد
واشتراكه مع أربعة عشر شاعراً فيما	٣٠٥ تعييره لامرئ القيس
نسب إليه	٣٠٦ وصف الخمر والبكاء على ذاهب
	الشباب

صفحة	صفحة
فرسان العرب	٣٢٥ رأى بعض علماء العصر في أدب
٣٤٥ اعتذاره عند الفرار في بعض الوقائع -	أوس وتعرضه لتخطئة القدماء
أرق ما تنصل به العرب من الفرار	٣٢٦ ظهور التحامل في الموازنة بين امرئ
في الحرب	القيس وأوس
٣٤٦ فخره بنفسه وبقومه - سواثر أبياته -	٣٢٩ تحليل قصيدة امرئ القيس
معانيه المتنازعة	٣٣٠ تحليل قصيدة أوس - الموازنة بين
٣٤٧ اتباع زهير لأوس في أحد معانيه -	القصيدتين
ما أخذ النابغة من أوس	٣٣١ راعية تصف السماء والسحاب
٣٤٨ بعض ما عيب عليه - المتنبي وأوس	٣٣٢ القصيدة الفائية
أمية ابن أبي الصلت الثقفي	٣٣٣ وصف حمار الوحش
٣٤٩ نسبه ونشأته	٣٣٤ وصف القانص - أشهر نيران العرب
٣٥١ وصف شعره - شعره في الكونيات -	٣٣٦ لاميته المشهورة - وصف الأسلحة
٣٥٢ موازنة المترجم بين شعر أمية والقرآن	العربية «الرمح» - الدرع - السيف
وتقد آراء أخرى له	٣٣٧ تحليل الآيات
٣٥٥ منزله ورأى العلماء فيه - شعراء	٣٣٨ إبداعه في صفة القوس
القرى العربية - رأى الكميت	٣٣٩ الكنانة والنبيل
الشاعر في أمية	٣٤٠ مدائح ومراثيه - مديحه لحليمة بنت
٣٥٦ تأثره بأسلوب القرآن	فضالة - أجود مطالع المراتى العربية
٣٥٧ التشابه بين مجهرته وبين معلقة ابن	٣٤٢ هجاؤه - تحريضه لعمر بن هند
كلثوم - وفوده على بن جدعان	على الأخذ بثأر أبيه
ولطف استمناحه إياه	٣٤٣ هجاؤه لقوم من بني حنيفة اتهبوا
٣٥٨ حديث مالك بن الحارث وشعر أمية	معزاه
٣٥٩ أول من أطعم الناس الفالوذ	٣٤٤ هجاؤه للحكم بن مروان العبسي أحد

صفحة	صفحة
٣٧٩ منزلة حاتم الشعرية	٣٦٠ صدق تصويره لعقوق الأبناء لأبائهم
٣٨٠ المعاني الشعرية في أدب حاتم -	٣٦٢ أخذه من القرآن وتقصيره في الأداء -
تحليل قصيدته الميمية	شعره في الأساطير
٣٨١ وصفه لخلي صاحبتة - نهيه للماذلتين	٣٦٣ نذر إبراهيم ذبح ولده - قصة مريم
وتحدثه عن خصائصه في الكرم	٣٦٤ سدوم قرية لوط
٣٨٤ حرصه على سلاحه وفرسه - جميل	٣٦٥ قنزعة الهدهد
مؤامراته لصاحبه	٣٦٦ أسطورة الديك والغراب
٣٨٦ أمهات الأولاد في شعره	ترجمة حاتم الطائي
٣٨٧ مديحه لبعض ملوك نهمان - مدح	٣٦٨ تقديم - أشرف طي
معاصريه له	٣٦٩ رأى الزبير بن بكار فيما ينسب إلى
٣٨٨ بين حاتم وأبي الطيب - حاتم وذو الأصبع	حاتم من الأخبار
٣٨٩ جوده ببعض أطرافه	٣٧٠ قصة أبي الخيبر وأصحابه - حكاية
عنتره	ابن السكيت عن حاتم في إنهابه لماله
٣٩١ نشأته - أغربة العرب - رد عنتره	٣٧١ اجتماع عبيد والنايفة وبشر وحاتم
على رجل سابه وعيره بسواده	وانتهام هذا الخبر - رؤيا أمه في النوم
٣٩٢ فروسيته و بلاؤه في حروب قومه -	٣٧٣ أحمر سائق حاتم - تطليق النساء
سؤال عمر للحطيئة - قصة عنتره	للرجال في الجاهلية - قصة مجاد حاتم
٣٩٣ فائدة هذه القصة	٣٧٦ تعاقب الصاد والسين والزاي في لغة
٣٩٤ موت عنتره - شعره	طي - من هجا حاتمًا من معاصريه
٣٩٥ المختار من شعره	٣٧٨ وصف علي رضي الله عنه لسفانة

